

٧١-  
المجلد السادس عشر  
العدد الأول  
صيف ١٩٩٧

# فصول

مجلة  
النقد  
الأدبي



مركز تحقيق وتطوير علوم  
اللغة والأدب العربي

## أفوق الشعر

شعرنا والزمن المضاد - تأنيث القصيدة - تقنية القناع

شعرية الخبر - الشعر والنقد - ملف خاص: سعد الله ونوس



مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

فصول  
مجلة علمية محكمة

مجلة علمية محكمة



مركز تحقيقات كالمبيوتر علوم إسلامي

# أفوق الشعر



صدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة: **مفیر مرجان**

رئيس التحرير: **جابر عصفور**

نائب رئيس التحرير: **هدى وصفي**

الإخراج الفني: **محمود القاضي**

مدير التحرير: **حسين حمودة**

التحرير: **حازم شماته**

**فاطمة قنديل**

محررة: **أمال صلاح**

**صالح راشد**

**فصول**  
مجلة النقد الأدبي



#### ● الأسعار في البلاد العربية :

الكويت ١,٧٥٠ دينار - السعودية ٣٠ ريال - سوريا ١٣٣ ليرة - المغرب ٥٠ درهم - سلطنة عمان ٣ ريال -  
العراق ٢ دينار - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - البحرين ٣ دينار - الجمهورية اليمنية ١٠٠ ريال - الأردن ٢,٥ دينار - قطر ٣٠ ريال -  
غزة القدس ٢,٥٠ دولار - تونس ٥ دينار - الإمارات ٢٧ درهم - السودان ٦٧ جنيها - الجزائر ٢٤ دينار - ليبيا ١,٧ دينار -  
دبي / أبو ظبي ٣٠ درهم.

#### ● الاشتراكات من الداخل

من سنة ( أربعة أعداد ) ١٢٠٠ قرشا + مصاريف البريد ٢٨٠ قرشا ، ترسل الاشتراكات بحوالة بردية حكومية .

#### ● الاشتراكات من الخارج .

من سنة ( أربعة أعداد ) ١٥ دولاراً للأفراد - ٢٤ دولاراً للهيئات . مضاف إليها مصاريف البريد ( البلاد العربية - ما يعادل  
٦ دولارات ) ( أمريكا وأوروبا - ١٦ دولاراً ) .

#### ● ترسل الاشتراكات على العنوان التالي :

مجلة : فصول ، الهيئة المصرية العامة للكتاب - شارع كورنيش النيل - بولاق - القاهرة ج . م . ع .  
تليفون : ٧٧٥٠٠٠ - ٧٧٥١٠٩ - ٧٧٥٢٢٨ - ٧٦٥٤٣٦ فاكس : ٧٥٤٢١٣

**السعر: ثلاثة جنيهاً**

ISSN 1110 - 0702

● الإعلانات : يتفق عليها مع إدارة المجلة أو مندوبيها المعتمدين .



٦١١٨٢

# أفق الشعر

٣٢٧ / ١٤٩٧

• فى هذا العدد



• مكتبة مجمع كويت للدراسات والبحوث

• رئيس التحرير

• دراسات

- |     |                      |   |
|-----|----------------------|---|
| ١٠  | عبد السلام المسدي    | • شعرنا العربى المعاصر والزمن المضاد                  |
| ٢٨  | محمد لطفى اليوسفى    | • أسئلة الشعر ونداء الهوامش                           |
| ٣٩  | محيى الدين اللاذقانى | • القصيدة الحرة، معضلاتها الفنية وشرعيتها التراثية    |
| ٤٩  | محمد عبد المطلب      | • مصادر إنتاج الشعرية                                 |
| ٦٦  | عبد الله الغذامى     | • تأنيث القصيدة                                       |
| ٧٣  | خلدون الشمعة         | • تقنية القناع: دلالات الحضور والغياب                 |
| ٨٦  | عبد الرحمن بيسو      | • قراءة النص فى علاقته بالنصوص المصادر                |
| ١٢٤ | شربل داغر            | • النصوص سبيلا إلى دراسة النص الشعرى                  |
| ١٤٧ | بول شـاـوول          | • مقدمة فى قصيدة النثر العربية                        |
| ١٦٣ | فخرى صالح            | • قصيدة النثر العربية: الإطار النظرى والنماذج الجديدة |
| ١٧٦ | وليد منير            | • التجريب فى القصيدة المعاصرة                         |

• قراءات

- |     |                  |                                 |
|-----|------------------|---------------------------------|
| ١٩١ | فريال جبورى غزول | • شربة الخير                    |
| ١٩٩ | عادل ضامر        | • الشخصن والتخطى فى أغاني مهيار |

المجلد  
السادس عشر  
العدد الأول

صيف ١٩٩٧





● شهرت تحقیق تکمیل بر علوم اسلامی

- ٢١٨ علوی الهاشمی  
٢٢٥ مسیح زهرانی  
٢٤٨ محمد مفتاح

- اللغة الشعرية في قصيدة النظم  
- لغة النظم والتشكيل في الشعر الجاهلي  
- مدخل في اللغة الشعرية  
- مفهوم الشعر  
- الشعر والنقد  
- الديمقراطية والاستبداد في النص الشعري  
- ترجمتي الذات  
- المراجع مثلاً  
- قصيدة النثر العربية  
- التجريب قوس قرح

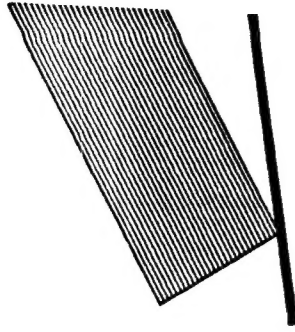
- ٢٧١ محمود أمين العالم  
٢٧٢ محمود تريسي  
٢٧٣ مريد البرغوثي  
٢٨٨ عبد الغفار مكاوي  
٢٩٧ بشير السباعي  
٣٠١ رفعت سلام  
٣٠٣ حلمي سالم

● ملف (سعد الله ونوس)

- ٣٢٧ أحمد سخسوخ  
٣٣٤ حسن عطية  
٣٤٠ حسن شحات  
٣٥١ أحمد - ياد محبت  
٣٥٥ جاد عصفور  
٣٥٩ عذيلة الروبي  
٣٦٠ هناء عبد الفتاح

- مشروع ونوس الثقافي  
- الوعي التاريخي رماداً تحلف الالة  
- المؤلف المشارك  
- مسرح سعد الله ونوس  
- منمنمات تاريخية  
- السؤال الدائمة اطي  
- ونوس كما رأيته (شهادته)

فوق الشعر



# مفتتح

## الشعر ووعد المستقبل

نحتفى بالشعر لأننا نحتفى بالإبداع، ونحتفى بالإبداع لأننا نحتفى بالحياة فى تطلعها إلى الغد، فكل إبداع بحث عن الممكن، وسعى وراء ما يظل حائزاً للخيال على التطلع إلى المستقبل الذى يلوح من وراء الحاضر كالوعد. ولذلك، كان الشعر، كالإبداع الذى هو منه، قرين الحرية ونقيض الضرورة، وليد السؤال الذى لا يرضى بالراهين، وابن اللحظات الحدية التى تجمع ما بين الأزمنة فى زمن التحول الذى يرى فى مرايا الحاضر مآثره ص به أخيلة المستقبل.

هل كان ذلك ألبعد من الشعر سبب الوصل القديم بين الشعراء والأنبياء؟ الأمر ممكن، فالنبوة تنطوى على معنى الكشف عن الغيب ورؤيا المستقبل. ولولا ذلك مانبهنا الفيلسوف العربى أبو على ابن سينا إلى أن الشاعر فى القديم كان ينزل منزلة النبى، فيعتقد قوله، ويصدق حكمه، ويؤمن بكهنته، مؤكدا المعنى نفسه الذى قصد إليه، بعد ذلك بقرون، الشاعر الإنجليزى بيرسى شيللى عندما أخبرنا، فى دفاعه عن الشعر، أن الشعراء كانوا يدعون مشرعين أو أنبياء، فى فجر العالم، لأن الشعر يضم هاتين النصفتين ويجمع بينهما، فالشاعر لا يشاهد الحاضر فحسب كما يترأى بعمق، أو يكشف التوائين التى تنتظم الأشياء، وإنما يرى المستقبل فى الحاضر. وأفكاره هى بذور أزهار الزمن الحاضر وتعدى اللاحقة إلى آن. والشعراء مرايا تنعكس عليها الأشباح الهائلة التى يلقيها المستقبل على الحاضر.

وليس من الضرورى أن نحسب مع شيللى وأشباهه فى الإعلاء الرومانتيكى من شأن الشعر، إلى الدرجة التى تنزل بها الشاعر منزلة أشرف العالم وفضلهم، فالأهم هو تأكيد الدلالة التى تصل الشعر بالمبدأ الإبداعى الذى لا يكف عن التطلع إلى المستقبل، لأنه مبدأ لا يكف عن التأمل فى عالم يظل فى حاجة إلى الكشف، كما يظل فى حاجة إلى الاكتمال الذى لا يتحقق فى تمامه قط. هذا المبدأ الإبداعى الذى ينطوى عليه الشعر هو ما يجعل منه، بحق، بذور أزهار الزمن الحاضر وتعدى اللاحقة فى الزمن المستقبل.

وعندما نتحدث عن شعرنا العربي، من هذا المنظور، فإننا نتحدث عن الحضور القديم الجديد لإبداع الحضارة العربية، سواء في تطلّعها المتكرر إلى المستقبل في كل حركة من حركات تجديدها، أو في تأكيدها وعي المستقبل بكل تجربة طليعية أنجزتها، وذلك في ميراثنا الخلاق الذي يؤكد روح التجريب والمغامرة، تلك الروح التي ورثنا بعض عناصرها المتقدم، إلى جانب ما اكتسبناه، عن أسلافنا الشعراء الذين سعوا إلى إدراك ما لا يتحرى بالعيون، وجربوا كثيرا وكثيرا كي يصلوا إلى نظم واحد في اللفظ، شتى في المعاني، مؤمنين بجدوى الشعر التي آمن بها ابن الرومي عندما قال:

وما المجد لولا الشعر إلا معاهد وما الناس إلا أعظم نغرات

ولم يكن من قبيل المصادفة أن تختفى الحضارة العربية بالشعر، دون غيره، وتضعه في مقدمة فنونها، وتجعل منه ديوان العرب الذي يجمع مآثرها ومفاخرها، معارفها ومداركها؛ لأنها وصلت بين قدرة الشعر على تجسيد الذاكرة الإبداعية للأمة في ماضيها، وقدرته على الكشف عن وعود الزمن الآتي في مستقبلها، فكان الشعر علامة هذه الحضارة وهويتها الإبداعية. كما كان الشعر، في الوقت نفسه، سمة تجدد هذه الحضارة، وآية قدرتها على الحوار مع نفسها، في حوارها مع غيرها من الحضارات. وظلت الحياة المتجددة للشعر العربي قرينة قدرة التجدد في الحضارة العربية، لم تتوقف هذه الحياة، أو يتقلص دافعها الخلاق، إلا عندما تعطلت قدرة التجدد في هذه الحضارة، وفقدت جرأة التقدم وسماحة الحوار ورغبة المغامرة وغواية التجريب.

وليس أدل على ذلك من أن الحضارة العربية، في لحظات ازدهارها، ربطت بين الشعر ومعنى المعرفة التي تتجدد بها الحياة، ووصلت بينه ومعنى الحكمة التي يعمر بها الكون، وذلك منذ أن أطلقت هذه الحضارة على الشاعر اسم الشاعر؛ لأنه يظن إلى ما لا يظن إليه غيره، وجعلت كلمة الشعر دالة على الشعور الذي هو المعرفة والدراية والخبرة الجديدة، فظل الشعر، عند العرب، علما لا علم فوقه على نحو ما روى عن عمر بن الخطاب، في دلالة غير بعيدة عن الدلالة المضمنة في القول المنسوب إلى عبدالله بن عباس: تعلموا الشعر فإنه أول علم العرب. ومنذ أن تحدث أبو تمام عن الشعر الذي لولاه ما عرف بغاة الندى من أين تؤتى المكارم، وعن القصيدة التي تتجدد بها الحياة في دورة الخصب والنماء، فإن الشعر يواصل حضوره الخلاق في الحياة العربية التي بادلتها رغبة التجدد، ويواصل الشاعر العربي المجدد الحفاظ على النار المقدسة التي ورثها عن أسلافه، تلك النار التي ظل ينفخ فيها من روحه الخاص ما ظل يمنحها طابعها الفريد في كل محاولة. ولذلك، حفظ الشعر العربي المعنى الموجب للتقاليد التي وصلت اللاحق بالسابق وصل الإضافة، ووصل الحضور المتجدد الذي يتأبى على جمود التكرار ووخم التقليد. وكانت التقاليد الشعرية، في هذا البعد، نقيض التقليد، والوجه الآخر من أوجه الابتداع الذي يقاوم الاتباع.

هكذا ظل الشعر العربي، في تجده المتصل أو المتقطع، شبيها بحضور العقل الذي وصفه أحمد شوقي، في قصيدة من قصائده، بأنه قديم الشعاع كشمس النهار، جديد كمصباحها الملهب؛ لأنه يؤكد معنى الانفصال في الاتصال، ومعنى الإضافة في علاقة اللاحق بالسابق، ومعنى الحضور الذي هو توتر بالوعد. ولذلك، فإننا عندما نحتفي بالشعر، في سياقنا العربي، نحتفي بالإبداع القديم كشمس الوجود العربي، وبالإبداع المتجدد كمجلى الشمس المتغيرة كل صباح.



هذا الحضور القديم الجديد، المتصل المنفصل، هو مفارقة الشعر العربى التى تجمع علاقاته مابين المؤلف والمختلف، المتقارب والمتباعد، فتعلمنا إمكان الجمع بين الأجيال المتباعدة والتيارات المتعارضة، فى أفق الحوار المتفاعل بين الأطراف المتكافئة، وفى دائرة وحدة الحلم الذى ينطوى على تنوع الوسائل المتعددة فى الوصول إلى وعد المستقبل. ويعلمنا هذا الحضور نفسه معنى آخر من معانى الوحدة القومية للثقافة العربية التى ينبغى أن تقوم على تعدد الأصوات لا الصوت الواحد، وعلى التنوع لا التنافر، وعلى التسامح لا التعصب، وعلى تعدد المراكز لا المركز الواحد الأحد، فالتعدد والتنوع والتسامح، كالحوار والتفاعل والتبادل، هى بعض طرائق الثقافة فى تحقيق وعد المستقبل الذى يحلم به كل الشعراء.

وما أخرجنا إلى تأكيد هذا الوعد فى هذه الأعوام التى يحاول فيها البعض الرجوع بنا إلى الماضى الجامد، وحجب أنوار الاستنارة عن حياتنا الحاضرة، والحكم علينا بالسجن الأبدى فى سلاسل الاتباع والتقليد التى هى سلاسل التبعية والتخلف. وحاجتنا إلى الشعر، فى معركتنا مع هذا البعض، هى حاجتنا إلى أنوار الإبداع الذى يسهم فى القضاء على الإظلام، وهى حاجتنا إلى الحرية التى تقاوم الضرورة، والابتداع الذى يقاوم الاتباع، والابتكار الذى ينفى الحضور الجامد للتقليد؛ لأنها حاجتنا إلى المستقبل الذى يتولد من توقد السؤال وانطلاقة المغامرة وحيوية التجريب. واحتفاؤنا بالشعر، فى هذه المعركة، احتفاء بمبدأ الرغبة الذى يحرر الروح والوجدان والعقل والحاسة، ويندفع بنا فى تلهب التمرد على كل مايحول بيننا وبين انطلاقة الحلم. يحدونا فى ذلك إيمان عميق بمستقبل مختلف للشعر، هو بعض إيماننا بمستقبل مختلف للثقافة العربية كلها؛ لأنه بعض إيماننا بقدرة الطاقة الخلاقة للإنسان، فى كل مكان، على التجدد والتحول والتغيير. هذا الإيمان العميق بالمستقبل علامته إبداعنا العربى المعاصر الذى يتمرد على جمود عناصره، ويتحرر من القيود التى تكبله لينطلق فى الآفاق اللامحدودة من حرية التجدد التى لا ينبغى أن يقيدها أحد، أو تحجر عليها سلطة، مهما كانت المسميات والمبررات، فلا إبداع دون حرية، ولا مستقبل من غير المغامرة الخلاقة للإبداع الحر.

وما أخرجنا، مرة أخرى، إلى تأكيد وعد المستقبل فى هذه السنوات التى تقترب فيها من بداية القرن الواحد والعشرين والألفية الثالثة من الميلاد، فتقرب من زمن مختلف كل الاختلاف بين أزمنة البشرية، فى مسيرتها الطويلة وأحلامها العريضة. وحين نتطلع بالشعر، وبواسطة الشعر، إلى القرن الواحد والعشرين فإننا نتطلع إلى دور مغاير للإبداع فى عصر أكثر جذرية من عصر التقدم الإنسانى، وإلى دور مختلف من أدوار الحداثى الخلاق الذى لابد أن يصل وصلا غير مسبوق مابين إبداعات العلوم والفنون فى الكشف عن فضاءات المعرفة التى لاحد لا تساعها أو تغيرها. لقد كان السؤال عن جدوى الشعر يطرح نفسه على كل مرحلة من مراحل تقدم البشرية، ومن ثم كل مرحلة من مراحل تطور العلم، على نحو فرض تعدد أشكال وألوان الدفاع عن الشعر، ولكنه أصبح، الآن، يفرض لوازمه بقوة أشد، والحاج أكثر، فى هذه السنوات القليلة التى تفصلنا عن مطلع القرن، فيتطلب نوعا جديدا من الدفاع، ويستلزم صيغة جديدة من تبرير الحضور، ويقتضى شكلا مغايرا من فهم الأدوار، خصوصا ونحن نقرب هذا الاقتراب المتسارع من أبواب عالم يخالينا بما لم نستعد له، أو حتى نتأهب عقليا وشعوريا لما يجعلنا جديرين بامتلاك مفاتيحه.

وإذا كان سؤال المستقبل فى علاقته بالشعر، وسؤال الشعر فى علاقته بالمستقبل، يفرض علينا أن نعيد النظر فى الإجابات التى نمتلكها فى تبرير الشعر، منذ أن طرد أفلاطون الشعراء من جمهوريته إلى مابعد آخر الذين

أطلق عليهم موراى كريبجر اسم المدافعين الجدد عن الشعر، فى كتابه الذى يحمل هذا العنوان، فإن إعادة النظر  
تعنى التفكير الجذرى فى المشكلات التى لم تكن موجودة من قبل، والآفاق التى لم تكن مبهودة، وعلاقات  
الأنواع التى تحولت عما كانت عليه.

لقد قضى العلم على وظيفة الشاعر العرّاف الذى يدرك ما وراء الغيب. ولم يعد للشاعر المتأله أو المتنبئ  
المكانة التى احتلها فى العوالم التى يعود كل شئ فيها إلى مركز واحد، هو تجسيد لمركزية اللوجوس التى نقضها  
عصرنا الذى ابتدع مفهوم الذات المزاحة عن المركز. واختفى الشاعر البطل المنقذ مع اختفاء الرؤية (التموزية؟)  
التي تستعيد عالما يقوم على مركزية الزعيم الذى يرجع إليه كل شئ فى الأمة التى لاتعرف وحدة التنوع أو معنى  
التعدد. وأصبح الشعر نفسه نوعا من الأنواع الأدبية بعد أن كان النوع الأعلى الذى لا يدنو من مقامه السامى نوع  
آخر. وهانحن نزداد إدراكا، فى فعل الممارسة وعلاقات الاستقبال، إلى أن القصائد التى أخذت تجذبنا إليها أكثر  
من غيرها هى تلك التى تبين عن نموذج جديد لشاعر يسير مخاتلا، بطيئا، ضاحك العينين، لا ينتبه إليه أحد؛  
لأنه لم يعد يزعم لنفسه أداء دور الشاعر الخالق شبيه الإله الوثنى، أو حتى شاعر القبيلة، أو الصورة الأخرى للزعيم  
الواحد الأحد، وإنما دور الإنسان البسيط الذى لا يملك سوى أن يقرب ماحوله، معيدا لإنشاء كل شئ بواسطة  
المجاز الساخر والمفارقة الإيقاعية والسؤال الذى يتجلى من خلل الكولاجات التى تصل بين ما لا يتصل فى  
العالم المملوء أخطاء.

وهانحن نرى، حولنا، فى أنواع الإبداع التى نتلقاها، كيف أن العلاقة بين الأنواع لم تعد محافظة على  
تراتبها الموروث، وأن هذا الترتاب نقضته متغيرات التاريخ ومستجدات الواقع وتحولات علاقات الاستقبال. وقبل أن  
نسمع عن الكتابة عبر النوعية، وتداخل الأنواع، أخذنا نسمع، منذ سنوات، عن زمن الرواية التى سرقت من الشعر  
شعريته، وتحولت بما جعل نجيب محفوظ يطلق على فن القصة شعر الدنيا الحديثة، فى مناظرته الشهيرة مع العقاد  
فى الأربعينيات، وذلك فى سياق متصاعد دفع ناقدا جهوري الصوت، مثل على الراعى، إلى أن يعدد من المبررات  
ماشجعه على أن يطلق على الرواية لقب «ديوان العرب المحدثين». ونسمع، بالإضافة إلى ذلك كله، عن خفوت  
صوت الشعر فى عصر المعلومات الذى أصبح سمة مجتمع ما بعد الصناعة، وعن الذين يصفون غربة الشاعر  
«وحدته وتوحدته، فى عالم تغير كل شئ فيه، وتشطى كل شئ فيه، داخل قرية كونية، تجمع ما بين متناقضات  
النزعة الكوكبية والنزعة العرقية، ومابين تعارضات الاتجاه الإنسانى والاتجاه الأصولى، كما تجمع مابين معنى  
الاعتماد المتبادل ومعنى التعصب الذى لا يعرف التسامح أو حتى قيمة الاعتماد المتبادل.

وإذا كان أدونيس سأل يوما: ماذا يفعل الشعر فى مدن تردهى بجدها؟ فإن السؤال نفسه يتكرر ملحا  
اليوم، ولكنه يقترب بعشرات من الأسئلة الجديدة عن ماذا يمكن أن يفعله البذار الجديد للشعر، فى عالم لم يعد  
فيه موضع للمطلقات أو السرديات الكبرى التى تساقطت مع الإمبراطوريات التقليدية فى الشرق والغرب، عالم  
يشهد كبرى الموجات الديموقراطية فى تاريخ البشرية، وينتج أعظم المخترعات العلمية بأعلى درجات التقدم  
التكنولوجى، فى الوقت الذى ينتج أعنف أشكال التعصب الاعتقادي والعرقى وأكثر أشكال الهيمنة الحديثة تخيلا  
ومراوغة.

وإذا كان نموذج الشاعر القديم، البطل، المنقذ، المخلص، شبه الآلهة الوثنية، المتنبي، تخلق عن موضعه لنموذج أكثر تواضعاً بما لا يقاس، وأكثر إنسانية بما لا يغيب عن الإدراك، فإن نموذج الشاعر الجديد الذي يرهض بنموذج شاعر أجدّ أصبح قرين المتشائل الذي يعرف أن السؤال أهم من الإجابة في كثير من الأحيان، وأن الشك علامة العافية في كل الأحوال، وأن البحث الذي لا يكف عن توليد السؤال من السؤال هو سر الحضور المتجدد للإبداع. وبالقدر نفسه، فإن هذا النموذج الجديد للشاعر أصبح قرين المتشائل الذي يمزج التفاؤل بالتشاؤم، مثلما يمزج الإيقاع باللا إيقاع، مدركاً أنه يعيش مفرق فصول تتوتر ما بين الرماد والورد، في زمن ملتبس لا يسمح بحدية الألوان أو المشاعر أو الانفعالات، أو حتى جذرية الحقائق والأفكار التي لاتعرف النقص، فكل ما في هذا الزمن لا يستجيب للشاعر إلا بوصفه موضوعاً للسؤال الذي لا يجد إجابة عنه سوى سؤال يؤكد السؤال، في سياق معرفي لا يعرف برد اليقين أو راحة الإجابة النهائية.

ذلك هو الواقع الذي يواجهه الشعر، الآن، في تحوله صوب المستقبل، وفي حلمه بالمستقبل، وهو واقع ليس فيه من يقين يفيد الشعر، في سؤال المستقبل، سوى يقين القدرة على مساءلة الحضور الذي يعنى مساءلة الهوية والوظيفة، ومن ثم مساءلة الإمكانيات التي تتصورها محققة وعد المستقبل.

رئيس التحرير



# شعرنا العربي المعاصر والزمن المضاد

عبد السلام المسدي\*

هوية لأنه سؤال كل الثقافات وما هو بسؤال ثقافة واحدة. والشعر والإنسان كالإنسان مع الجمال: نظن أن كليهما واحد وإذا بكل واحد منهما متعدد. وتعدد هذا كتعدد ذلك: مورده الزمن الذي هو جوهر التاريخ.

فإذا التقى - بالانحناء والتوازي أو بالمكافئة والتقابل - كل من الفن والإنسان والتاريخ، انبثقت أسئلة الشعر والقصيدة والذائقة الفنية والزمن المضاد انبثاق تولد عيني لا انبثاق مجاهضة.

إن سؤال الشعر: كيف هو الآن بعد أن كان كما كان، لهو سؤال ذو حظوة بين أسئلة الإنسان العربي، ولقد نرى أنه إلى أسئلة الفطرة أقرب منه إلى أسئلة المخاير، ولقد نرى أيضا أن الأدب إذا انفك عن ذاته وتماهى مع خطاب النقد جاءت الأسئلة الضاغطة، و بأن أن جوهر السؤال إن هو إلا جنين طبيعي تخلق بين أجنة الفكر المشاغب، وليس هو من أسئلة الأنابيب التي يولدها الدرس التعليمي.

ليس من شرعية في الحديث عن الأدب إلا من خلال إحساس به أو من خلال إدراك له، وبين الإحساس والإدراك مسافة ما بين لذة النص ولعبة التفسير، ولا يستوى للنقد خطاب مالم يستقم بالأدب نص: هو النص الشاهد والمشهود.

والأمر أعظم شأنا وأشد سطوا عندما يتجول الأدب بين مسارب اللغة فيخرج من فسيح لفظها المرسل، ويلج أزقة التركيب الشعرى التي بوجودها وهياتها تنبئ عن الأدب قبل أن تخبر عنه دلالات ألفاظها ووسائل جملها.

ويزداد الشأن استعصاء والصفائر التواء عندما ينيخ السؤال على مرايض الشعر في علاقته بالزمن وفي تشابكه مع عوالم الإنسان. والشعر والزمن كالشعر والتاريخ: هل هو الكائن المتجدد أم الكائنات المتواليات؟ وليس لهذا السؤال

\* كلية الآداب، منوبة، تونس.



وقد يكون من فوائض القول ونوافل الإيضاح أن نخرج على دلالة «التطور» كما نستخدمه بالقصد الواعي: فهو التبدل مطلقاً، وهو الانتقال من وضع إلى وضع، بل هو «التحول» على معنى العبور من حال إلى حال، ذلك الذى كان الأجداد يطلقون عليه لفظة «الاستحالة»، قبل أن نخل فى الاستعمال محل لفظة التعذر. والمهم هو أن لفظ التطور لا يحمل أى شحن معيارى، إذ ليست معادلة المعنى مرفوعة فيه إلى علامة الإيجاب كما قد يوهم به الاستخدام المتعجل، وإنما لحقها من ذلك ما لحقها لأن الناس قد نزعوا إلى توظيف الألفاظ بغية فصل المتشابهات أو فك ارتباط المتجانسات. وأسر البصر أن نقر بأن لفظ التطور هو باق على حياده فى الدلالة لأنه قرين التبدل والتحول رغم الشقائق المعنوية التى يبنى عنها السياق، والزوجان اللذان يخرجان عن الحياد فيغادران درجة الصفر هما «التقدم» مرفوعاً إلى علامة الإيجاب، و«التأخر» مرفوعاً إلى علامة السلب.

ولكن، لنبادر إلى حماية السؤال من احتمال تحريف آخر قد يجيشه من انزلاق تأويلي: فالرفض الذى نبغى أن نعالجه ونزوم أن نعالج مسبباته من خلال أدواته هو رفض اعتباري لأنه يجرس فى مجالات التقدير وما هو رفض لواقع على معنى الإلغاء الوجودي.

إن الأصوات الراضية لمبدأ تطور الشعر والجاحدة لضرورة انصياع قوالبه للمكون الفنى المتغير لهى أصوات يعلم أصحابها أنهم إذ يصرحون بالرفض لا ينفون واقعا حاصلًا، ولو أرادوا نفيه لما استطاعوا لأن واقع التغير حاصل حصولاً غير افتراضى. إن أصحاب المواقف الراضية ليعلمون أنهم لا يرفضون الواقع وإنما يرفضون القول بضرورة الواقع، فرفضهم يتسلط على التسليم بمبدأ الضرورة لا غير. وهذا يعنى - من وجهة نظر نفسية جماعية - أن الراض إنما يرفض الاستجابة إلى الظاهرة وهو فى عميق اللاشعور يقر بها وبوجودها، ولكنه يصوغ رفضه بما يوحى بأنه يرفض وجود الظاهرة أصلاً. ثم إن هذا يعنى، من وجهة نظر اجتماعية ثقافية، أن ردود الفعل الجاحدة إنما مبعثها أن الإنسان يرفض أن يخلع المصدق التاريخي على الظاهرة الطارئة وإن عاشها وعاشته إلى حد الألفة أحياناً.

وفى لحظة البدايات من حيث ينطلق الفكر المشاقف، نقذف بسؤال محصور يحاول محاصرة ما هو غير محصور، بل يروم أن يسبح ما يتأبى عن الحصر:

فإذا سلمنا بأن اللغة - أيا كانت فسيلتها - تتطور، وسلمنا أيضاً بأن الأدب المكتوب بها يتطور بتطور سباقات تداولها، وإذا كان الشعر - بما هو نسيج مخصوص بين أنسجة البناء اللغوى - يتطور، وكانت قوالب الشعر وصيغ قول الشعر ومرجعيات لغة الشعر كلها تتطور، ثم إذا كان الجدل يحوم حول أنماط التطور ومرجعياته وربما أنساقه لأنه يتصل بالانسلاخات الآتية على جسد الشعر، أفلا يسوغ لنا أن نلج إلى قلعة تطور الشعر من بابها المضاد بحثاً عن سورها الخلفي فتساءل عندئذ - فى خضم الجدل الحاثم - عن حيثيات نكران تطور الشعر، دونما فصل فسرى بين ما هو أدب وما هو فكر وما هو من لوازم المشاقفة!

إنه السؤال المرتد علينا كرجع الصدى من فوران الزمن التاريخي، وهو يأتى على قواعد الفن بعد أن يثب من إرباك معيار اللغة، وهو التغذية الراجعة لنا من فائس استثمار المعرفة التى ليس من همها أن تنطلق من موضوع الأدب، وإنما تعرج عليه تعريجاً فيستبقيها الأدب من الزمن أكثر مما كان أهلها يقدرون لها ولأنفسهم معها. هو السؤال الذى يروم لنا أن نقول فيه: كيف تستوى أداة الرفض فيما هو حاصل ضمن وقائع التاريخ وفيما هو حتمى البداية عند أول فحص عاقل؟ كيف تستقيم آلة رفض تطور الشعر وكيف تشيد بناية النكران فى ضرورة انسجام قوالب الفن الشعرى مع قانون الزمن التاريخي؟

وما الآلة؟ وما الأداة؟

لسنا نعنى وسيلة التعبير التى قد تكون كلاماً فخطاباً، وقد تكون إقصاء فسلوكاً، ولكن ما نقصد إليه قصداً هو الأدوات الذهنية، ذلك أن الموقف الراض للضرورة التطور يستحثنا على البحث فى أدوات التفكير الراضى، والسبب الجلى هو أن رفض التطور ملازم فى جوهره لرفض الحياة، وأنت تشاهد الراضين للتطور أحرص الناس على تأكيد حياة الشعر وعلى التسليم بحيويته من حيث هى الخصيصة اللازمة.

للناس أنها متدافعة، فيصرون على تشييد الجدران بينها حماية للشأن الفردى وحرصا على سلامة الفكر الجماعى.

ولكننا نفسح الأبواب بين المقاسم على أرض الفكر، فإذا المناطق التى تبدو نائية عن حقول الشعر تتعاقب، وإذا بسؤالنا النقدي يتناظر إلى حد التحامى مع السؤال الثقافى والسؤال الحضارى وكذلك النفسى والذهنى.

من هنا، ساغ مفهوم الزمن المضاد لأن ضديته إنتاجية وليست ضدية تقويمية، هو مفهوم للزمن جديد لا يلاس الزمن الفيزيائى، ولا يخالط الزمن اللغوى، ولا هو بممتزج مع مفهوم الزمن المنهجي الذى أقامت المناهج الحديثة فلسفتها عليه: إنه الزمن الراض لقانون الزمن. نعم إنك كلما تعاملت مع الظواهر وأنكرت على الزمن حقه فى تغييرها أو أنكرت عليها حقها فى الانصياع إليه فإنك قد خلقت فى ذهنك مكونا جديدا من مكونات التعامل مع الزمن، وبالتالى مع الإنسان، وأخيرا مع التاريخ. عندئذ تكون قد حكمت بأن تعامل الزمن الصائر من خلال نكران فعل الزمن الذى هو محرك الصيرورة بلا خلاف.

فمن الأولى بإلقاء السؤال ومن المنتدب لكسر جدار الصمت حول حيثيات النكران؟

إن الشعراء يتخاصمون حول قوالب الشعر ويتخالفون فى أمر تطورها، ولكنهم وهم يتخاصمون ويتخالفون لا يخرجون من دائرة الشعر لأنهم يتنازعون موضوعهم داخل قلعة موضوعهم. وكذا الأمر مع النقاد فهم يتجادبون بساط الأصلح من داخل سياج النقد الذى هو الطوق الحاضن للأدب بما فيه الشعر. فهؤلاء وأولئك يبحثون فى حيثيات الإقرار: إقرار القالب المختار من خلال نفى القالب المرفوض.

وخطاب الإنكار غير خطاب الإقرار. ولما كان الذى بينهما إنما يمس طرائق استخدام الإنسان لصياغة الخطاب، ويمس سبيل تأثر الإنسان بأدوات الإبلاغ وتأثير أدوات الإبلاغ فى أساسياته الذهنية كان اللغوى هو المطالب بإلقاء السؤال ثم بتقديم المعاضدة المعرفية الكفيلة بالإجابة عنه. والدنوى الذى نعينه هنا ويعيننا هو اللغوى المهمرم بقضايا

إن بين رفض الإقرار بضرورة مايقع ورفض قبول ما هو واقع مسافة ذهنية شاسعة، ولكنها من المسافات التى تمكن آليات الثقافة الجماعية من اختصارها فتغدو عند بعض الناس كأنها خطوة يسيرة، بينما تظل عند عامتهم كأنها غير ذات معنى، ولذلك يستوى لديهم التسليم بحدوث الظواهر والقول بضرورة حدوثها.

إن سؤالنا يحوط، إذن، بآليات إنتاج الرفض، لاسيما وهو الرفض بالمقايسة وليس رفضا بالأصل، وهذه المقايسة تتراءى لكل ناظر حينما يفحص أضرب الخطاب المنسوج على تطور الشعر فيلقاه حاملا بين حناياه ثلاثية متلازمة الأركان سواء أ جاءت بوعى صريح أم تسلت بين طيات التضمين: الشعر كما كان والشعر كما هو الآن، والشعر كما يجب أن يكون.

هى ثلاثية، إذا اعتبرنا مقاسم الزمن، قلنا إنها فيزيائية، وإذا اعتبرنا علاقة الذات بالوجود قلنا إنها ثلاثية أنطولوجية. فسؤالنا يحتمى بأدوات الكشف المسقطة على بناء الحد كيف يستوى معماره فى الثقافة الجمعية المحتشدة، وكيف تتراصف لبنات الجدار النفسى فتتشى عشاة ذهنية متلبدة تخجب فرحة إلقاء السؤال من الذات الشاعرة إلى الذات المنفعلة بالشعر.

هو - فى كلمة - سؤال مضاد لأنه يقتنص البؤرة التكوينية فيتوسل بالاستقراء المساعد على التعليل، ولأنه يشرئب إلى الإخصاب المعرفى بتحريك سواكن السائد وقذف الحجارة فيما ركذ من ماء الثقافة فيتحوّل إلى سؤال استشرافى يعالج بالإجراء حقيقة ما هو واقع قبل أن يتحس ما هو آت.

ودونما سطو على مملكة المعارف المغذية للبحث الجمالى، وفى غير إجحاف بحقوق الأدب والنقد وما إليها من شعر ومن نثر مرسل وغير مرسل، من اليسير علينا الآن أن نتبين كيف ولجنا إلى حلبة البحث فى آليات الإدراك بالمقصد الأشمل، وأن نتبين لم جعلنا سؤال الشعر ذا حظوة مرموقة بين أسئلة الإنسان العربى: فما هو يهاجر بنا إلى أقاليم يراها الحس الجمعى متناثية ويحط بنا فى المرباض التى يخیل

حقائق الفن القولي، وإذا كان منهم كثيرون قصروا جهدهم على الفردى من الشعر العربي، وكثيرون آخرون وقفوا مهمهم على الفردى وعلى النوعى معاً، فقد كانت منهم طائفة اختزعت حدود الدائرتين فبحثت فى الكلى وجاز لها أن تتكلم عن «الشعر» بكل الاستغراق الذى يستوجه التعريف.

وكانت محطات. برز فيها أعلام رواد يتحدثون إليك وأنت تقلب سدوتاتهم فينتقلون بك فى تيسر باهر بين الفردى من الشعر والنوعى منه والكلى فيه. ولئن تفاوتت الدرجات بينهم فيما هو وعى غامض بالفروق أو هو وعى صريح، فإنهم - فى هذه الخامة الذهنية وفى هذا الانكشاف الإدراكى - وردوا حياض منهل إنسانى حامل واجترحوها مجالب سلالة واحدة؛ للجاحظ بينهم فضل السبق والتأسيس، ولابن طباطبا فضل تفجير المفاهيم، ولابن سينا انسراح الملكة قولاً للشعر وقولاً فيه، ولابن رشد القوة التى تكسر حواجز الثقافات، ولابن خلدون ما ليس لغيره فى حدة النظر مع سكية المزاج واتزان المعرفة، ولحازم عنف الترتيب القاطع وسطوة اعتصار المجردات.

كلهم قالوا فى الشعر قولاً: الشعر كما هو عند العرب من خلال ماهية الشعر كما هو وكما هو عند غير العرب وكما هما - قبل العرب وغير العرب - عند الإنسان. وليس المقام للتفصيل ولا هو للإشادة بجهود البعض دون الآخرين، ولكن الإنصاف يقتضى أن نشير إلى أن من الأبحاث العربية ما كان نافذة تسلل منها أصحابها إلى هذه الزاوية الضيقة التى نصوب نحوها إبرة الحقن: وكانت الريادة الزمنية لشكري محمد عياد، ثم جاء بالتجاوز النوعى جابر عصفور فى مصنفه (مفهوم الشعر: دراسة فى التراث النقدى) ١٩٧٨، وتوالى الجهد مع إنجاز ألقت كمال الروبى (نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين من الكندى حتى ابن رشد) ١٩٨٤، وإنجاز حمادى صمود (فى نظرية الأدب عند العرب) ١٩٩٠ الذى يستوفى فيه مشروعه السابق (التفكير البلاغى عند العرب: أسسه وتطوره إلى القرن السادس) ١٩٨١، وقد حرص على تنبيه القارئ بأنه «مشروع قراءة» فجاء مشروعاً متميزاً.

اللغة من خلال قضايا الإبداع باللغة. هو ذاك المسكون بهاجس الأداة الكلامية من حيث هى بناء ووظيفة فى آن ومن حيث هى استراتيجية تواصلية، وخطاب يتغذى بمردوده، ثم من حيث هى آليات دلالية، ثم - أو فى الوقت نفسه - أداة سيميائية منغمسة فى حوض واسع من القرائن ذات الإفادة.

بكل تلك الأدوات ومن موقع التزود بنتاج كل تلك المراد يتجهى اللغوى لطرق بيت الشعر من باب الخلقى: كيف تشكل حيثيات الإنكار عند من يتكرو صيرورة الفن مع جداول الزمن. واللغوى، إذ توكل إليه مهمة السؤال؛ يحمل بمغامرته وزراً محدداً هو وزر شذوذ السؤال. ولكن ما لديه من أفق يفاير أفق الناقد يؤهله لإيجاز عملية التجاوز المنسوبة بدءاً إليه، وذلك بأن يتحول الإشكال على يديه سلماً درجاته هى درجات الترقى نحو الظاهرة؛ نغنى أنه ينجز الخطى نفسها مع اللغة عند دراستها: يبدأ بالإنجاز الفردى وهو كلام الأفراد، وينتقل إلى النسق النوعى وهو لسان الجماعة، ويرتقى إلى الظاهرة الكلية التى هى خصائص اللغة الطبيعية.

فاللغوى مسؤول بنفسه وبمفرده عن معالجة الظاهرة الشعرية من هذا الباب الدقيق الذى هو باب مقايستها بالظاهرة اللغوية اعتماداً على مناضد الارتقاء من الفردى إلى النوعى إلى الكلى. هو هذا البحث فى المفاصل الرأسية استكشافاً لأنفاق الاتصال بين الخاص والعام أولاً، ثم بين خاص الخاص والعام المطلق الذى هو الكلى.

عندئذ، يتضح المشروع من أحد جوانبه: أن يكون البحث فى الشعر بحثاً فى الكليات.

ليس ابتداءً أن نبحث فى كليات الظاهرة اللغوية، وليس ترفاً أن نبحث فى كليات الظاهرة الشعرية، ولكن الذى حقه أن يستقل بذاته هو أن نحول البحث فى علاقة الشعرى باللسانى إلى بحث فى الكليات.

من قبل، بحث الأجداد فى الشعر فاستجّلوا - بما توفرت عليه معارفهم - بعضاً من حقائقهم فأخرجوها ضمن

ضغط وغيه الرهاضي الكاسح - قد رام إنجاز ما سبق له أن صنعه بالشعر العربي كما وصل إليه؟!

ولكن، لنسارع بالقول إننا تلقى السؤال من دائرة الموقف النقدي لا من دائرة علم العروض؛ لأن همنا أدبي فكري ثقافي إذ نبحت في مفسرات الرفض بغية تثبيت قواعد القبول، ونتعاطى إجلاء النقض لإيضاح غياب الإقرار، ونعالج الزمن الشعري المضاد لإثبات الزمن الشعري الأساس. فما ننشده هو - إن جاز الجمع والضم - «علم عروض نقدي»، أو هو أجرومية للتواصل من خلال نظامية للعلاقة.

وبناء على كل ما سبق، يتأكد لدينا أننا في حيز دقيق جدا هو بالتحميم نقطة تقاطع وظيفة اللغوى مع وظيفة الناقد. ولأنك أن الإنجاز يقتضى نفسا طويلا، ويقتضى تضافر جهود الباحثين، وهو فى كل الأحوال مغامرة منهجية؛ إذا تبين أنها مأمونة عاد فاقضها على النقد أساسا، وإذا تبين أنها مجازفة لم تستوف شروط السلامة فإن النقد غير مطالب بأداء ضريبتها.

وفى المستهل لامهرب من الإفضاء بقاعدة العمل الأساسية التى تتحرك داخل فضائها ونسوقها فى قالب الحقيقة العامة التى هى عندنا بديهية فى ذاتها ولكنها تبدو خلافية فى الظن الشائع، ومورد أهميتها هنا أنها كثيرا ما تستنفر الموقف الرفضى فتكون كالسبب المباشر فى إنكار الجمهور تطور قوالب الشعر بحسب تطور العصور الثقافية.

هذه الحقيقة التى تقوم مقام المرجعية المولدة هى نسبة الذائقة الشعرية وهى - فى حد سياقها الذاتى وكما نراها - نسبة محكومة بنسبية الذائقة الفنية مطلقا. إنها نسبة بالاختلاف لأنها تتغير من ثقافة إلى ثقافة أخرى ومن هذه إلى سائر الثقافات؛ وهى أيضا نسبية بالزمن لأنك داخل المجموعة الثقافية الواحدة تلحظ تبديلا فى الذائقة الفنية من عصر إلى آخر وربما من حقبة داخل العصر الواحد إلى حقبة أخرى. والنسبية التى تخصنا فى سياقنا المنهجى الذى نحن بصده هى هذه. معنى النسبية المحكومة بمقياس الزمن باعتبارها أحد تجليات النسبية المطلقة.

إن مسألة الشعر - بمجرد النفاذ إليها من خلفيات الإقرار والإنكار - تتحول إلى مشروع منهجى بكل ما فى اللفظ من مواصفات الاصطلاح. ولكل مشروع بحثى خلية مركزية هى نواته التوليدية التى منها يفيض الفائض وبه تزكو الإضافات: أفلا يجدر بنا أن نستكشف النواميس المحددة لتطور قوالب الشعر فنستخرج النظامية الجديدة التى يتأسس عليها قالب القصيدة الحديثة. هذه النظامية التى ترفضها الذائقة السائدة، أو لنقل - على وجه التحرى - هذه النظامية التى تغدو سببا فى تولد خطاب الإنكار ذاك الذى يصادر على رفض الذائقة لها.

إن الذى نعينه بنظامية القصيدة الحديثة ينصب على أنساقها التركيبية: أى على نحويتها السياقية والمقامية فى الوقت نفسه، ولكن الذى نجتهد فى ابتداعه على أسسه المنهجية لا يخص «نحوية» القصيدة الجديدة فى ذاتها ولذاتها، وإنما يرتبط بمقياس المخالفة؛ أى بمقياس الفارق حيال مرجعين: مرجع القصيدة السابقة، ومرجع الذائقة الشعرية المتحركة.

لنقل متمعدين اجتلاب اللفظ الدخيل يقصد تحقيق الوخر ذهنى المنشط للإدراك المطابق عبر انشقاق المدلول عن عرقية الدال؛ لم لا نتصور استنباط «جراماتولوجيا» للشعر الحديث؟!

أو لنقل - متوسلين بإحياء المصطلح النحوى بعد تعديل مقصده السياقى - لم لانبث عن أجرومية لهذه القصيدة الجديدة، ولكن باعتماد آليات الزمن المضاد، أى آليات الزمن الرافض لقانون الزمن؟!

لم لانقوم بما قام به ابن أجروم عندما اعتصر من نحو سيبويه نسقا تصنيفيا لأبواب النحو العربى أقامه على معيار الوصف فجمع فيه بين المتجانسات وتخطى فيه حواجز المتخالفات؟!

أو لم لا نتساءل عما كان بإمكان الخليل أن يفعله لو قدر له أن عاش عصر القصيدة الجديدة، وأنه - بدافع التنظيم اللغوى، وبحافز جمع الهوامل فى أنساق شوامل، وتحت



ألم نستند - ونحن المجموعة الثقافية واللغوية والحضارية الواحدة - إلى قيم غنائية متنوعة؛ إذ من يتكرر تميز الأطناب الموسيقية بين نغم حجازي وإيقاع خليجي ولحن مغربي وفن «مالوف» أندلسي وطرب شامي وأنغام يسوقها وادي النيل.

واليوم، ألا نرى إلى نفسنا كيف تطبعت ذواتنا الفنية منذ انتشر التواصل الموسيقي العربي؛ من كان يستنكر بالأمس نغما أصبح اليوم يستلذه، وما كان بالأمس ناشازا تعزف عنه آذان أهل هذا القطر العربي أمسى اليوم تطريفاً يستلذون به ويستدعون.

والأمر مطواع كالنفس في انصياعها.

وستكون المسألة أكثر بداهة لو استذكرنا ما كان عليه الذوق الموسيقي في حضارتنا منذ القرون الخوالي أيام زرياب أو أبي الفرج، وكيف لنا به في أيامنا إيقاعاً ونغماً أو عزفاً وتقصيذاً، وهل ننسى أنهم كانوا على مسافة كبرى في تبدل الأذواق الطرية عما كان عليه قبلهم حذاء الصحراء.

ثم ما لنا ننسى ما طرأ على ذوقنا الموسيقي - نحن العرب جميعاً - منذ تطف عبقارة الموسيقى العربية المعاصرة فمزجوا ألحانهم بإيقاعات ونغمات استوحوها من الموسيقى العالمية، أفلم يكن ذلك مدخلا جيداً للاستئناس بذائقة موسيقية مغايرة لما كانت أجيال كاملة تألفه، ومدخلا جيداً لاكتشاف أصوات آلات جديدة وترية وغير وترية. ومن كان يجزؤ منذ أربعة عقود على الحديث عن بتهوفن وسمفونيته الخامسة حتى جاء من حقن بها لحننا من ألحانه التي انشد إليها الذوق الموسيقي العربي انشداداً.

وهل من مبدع يقرض الشعر أم هل من ناقد يقول في الأدب قولاً لم يسبق له أن جمعته ظروف ما، على أرض ما، في رفقة ما، بقطعة موسيقية من أقاصي الأرض أو من أقاصي الأذواق - زنجية أو مكسيكية أو صينية أو من أدغال الأمازون - فسمعها وأعاد، ثم كرر وأصغى حتى ألف واستطاب، ثم أذمن ثم عشق اللحن ونادى له، حتى تراه يعجب ممن يصغى معه فلا يبدى إعجاباً من أول سماع.

كذا نفهم بملامسة التجربة الحية ما يعنيه الفلاسفة وعلماء النفس بقولهم: «العادة طبيعة ثانية»؛ لأن المؤالفة

إن أول بواحث نكران القالب الشعري الجديد وأول حوافز الإصرار النقضي هو الغفلة عن هذه الحقيقة المطلقة، حقيقة تغير الذائقة الفنية على التدرج، وهي مطلقة لأنها غير مقيدة بالمكان من حيث انطباقها على الثقافات بعضها حيال بعض، وغير مقيدة بالزمان لأنها كما أسلفنا تصدق على الأزمنة المتعاقبة داخل سياق الثقافة الواحدة.

ولو رمنا الحجاج نلقيه على كل تفكير لجوج بشأن الظواهر الحضارية الإنسانية عامة قلنا: كيف لانقر نحن أبناء أمة العرب بتطور الذائقة الفنية - سواء في نطاق الفن عموماً أو في نطاق الفن القولي على الخصوص - والحال أن في تاريخ الشعر العربي القديم نفسه أمارات انسياب من طور ذوق إلى آخر. ويكفي للشاهد لا للإحراج أن نقارن فقط ما حصل على مدى ثلاثة قرون هي القرن الأول قبل الإسلام والقرنان الأول والثاني من عهده:

فمن معلقات الشعر الجاهلي إلى شعر الغزل في الحجاز إلى شعراء العهد الأموي إلى المولدين في مطالع العهد العباسي؛ ليس الأمر مجرد تغير في المواضيع المطروقة والأغراض المتناولة وإنما التطور أبعد مدى في انتماق الذائقة الشعرية أساساً، ولكننا نحن الآن بعد ثلاثة عشر قرناً قد لا نقدر معنى التغير في مستوى الذائقة المتقبلة. فنحن نتلقى كل تلك الأشعار فنقيم بينها وبينها علاقة مباشرة تتخطى فوارق الزمن فإذا بنا نقرب بينها أكثر مما كان بينها من اقتراب فعلي. نحن نقرب بينها لأنها في ضوء المسافة الثقافية، وبالتالي في ضوء تبدلات الذائقة، تقع جميعاً على مسافة منا تكاد تكون واحدة لابتعادنا عنها في الزمن، ولكنها تتباعد كثيراً فيما بينها. ولو انتقلنا في الزمن الاعتباري نحوها لأدركنا تباعدها، ويكفي أن نقارن ما لدينا اليوم من أمة ظاهرة أدبية عما كانت عليه منذ نصف قرن، فما بالك بالقرن الكامل وبالقرونين ثم بالثلاثة. ما عسى أن يرد به المنكرون لتطور الذائقة الفنية، والحال أن التبدل اليوم يمكن أن تتراعى آثاره لا من جيل إلى آخر وإنما بين عقد من السنين وعقد آخر في عمر الجيل الثقافي الواحد.

أفلا ننظر إلى الموسيقى على سبيل المثال: ألم يطرأ تغير متدرج في ذائقتنا الموسيقية داخل النغم العربي الواحد، بل

أو مترسخة بالوراثة التكوينية فلا تكون عندئذ إلا سليلة الأعراف.

إن هذا الوهم الخادع هو الذى يدفع عامة الناس إلى أن يعتقدوا أن الذائقة الفنية مفارقة لبعدي المكان والزمان، فلا هي مرتبهة بهذا ولا هي متحددة بذلك، فيظنون أنها مطلقة.

إن اصطباغ الثقافى فى نفس الإنسان بصبغة الطبيعى قضية مطردة ومتواترة بل كأنها من أنساغ الكيان الاجتماعى للإنسان، أليس شائعا بل مستقرا ظنّ الناس - تحت هذه المراوبة بين الحقيقة والوهم الخادع - بأن اللغة ظاهرة وراثية يناولها الآباء أبناءهم بعد أن ورثوها عن الأجداد!

ليس من العسير، البتة، الاستدلال على انتفاء كل مقوم وراثى فى مسألة اللغة، وعلى إثبات أنها اكتسابية مطلقا. وهذا خطاب قد فرغ العلم منه ويمكن تقديمه لأية شريحة من شرائح المهتمين بالأدب أو بغير الأدب. ولكن الإشكال الدقيق هو كشف أسرار التلاصق الذى يحصل فى ذهن الإنسان فيجعل الثقافى فى ذهنه طبيعيا، أو يجعل الطبيعى ثقافيا، وخذ للشاهد ما ينشأ بين كل فرد واسمه الذى اختاره له أبواه منذ ولادته علما عليه وميسما، ألا ترى إلى التفاعل الوجدانى كيف يغرس فى ذهن الإنسان القناعة بأن اسمه لم يخلق إلا له وأنه لم يخلق إلا لذلك الاسم.

فى أمر الشعر لدينا، وفى مدى الإقرار بسلطة الزمن عليه وعلى ذاتتنا الجمالية معه، ليس أدل على ارتداد حركة التاريخ وعلى انعطاف الزمن المضاد على «الزمن الأساس» من انزياحية الوعى النقدي - نعى «أناكرونيته» - التى هى لحظة الانفصام بين الزمن الطبيعى والزمن الاعتبارى، حينما تنفجر شظاياها بين الفنية والأخرى. ولو ابتغيينا شاهدا بالغ الإيماء والدلالة لاتخذنا من هذا الاهتمام العربى المفاجئ الخاص بكتاب الباحثة الفرنسية سوزان برنار حول «قصيدة النثر من بودليير إلى أيامنا» وهو أطروحتها التى أنجزتها منذ زمن، فقد انبثق فجأة وعى جديد فى مختلف المحافل النقدية العربية بهذه الرسالة، ظهرت لها ترجمة مجترقة قام بها زهير مجيد مغامس وراجعها على جواد طاهر (بغداد - ١٩٩٣). وانكب على إنجاز ترجمة مستوفية لها محمد المصرى، وحاولت

بداية طريق التطبيع، والتطبيع بحث جديد عن ذوق جديد فى ظل عيار جديد، ومن استعصى عليه قانون التطبيع سارع إلى الإنكار.

ومن ذهنية الإنكار نفسها تقوم فى عصرنا مواقف جيل الكهول من الأغنية الجديدة، تلك التى يصطلحون عليها - تجريحا وغمزا - بالأغنية الشبائية، والأمر فى هذا المقام أبلىغ خطرا فى جحود فعل الزمن على الذوائق.

إن القضية فى صميمها تغير على مستويين: مستوى الإيقاع الذى اكتسخته البرمجة الآلية ومستوى التقبل بفعل حضور تقنيات الصورة ولاسيما مع الغناء الاستعراضى حيث تتضافر إلى حد الانصهار الحاسة السمعية والحاسة البصرية، فتحمى كل مراسم الذائقة الموسيقية الموروثة لتحل محلها منظومة جديدة من آليات التقبل ومنعكسات الاستجابة.

إن التبدل يعترى كل الظواهر الفنية فيأتى على كل الذائقات الشعورية، ألا ننظر إلى مقاييس الجمال فى ذاته، نعى جمال الخلقة الأدمية: كيف حملها لنا موروثنا الحضارى وكيف هى لدينا الآن سواء أكانت متصلة بالمرأة أم بالرجل!

أما لو خرجنا عن إطار حضارتنا العربية وعن مرجعياتها الثقافية فسنصادف من الأدلة ما يخجل به كل متردد فى الإقرار بناموس التبدل: فهلا تأملنا الظاهرة من خلال فن النحت، وفن الرسم، وفن التمثيل المسرحى، وذلك فى الخططين الزمنيين: من ثقافة لأخرى فى الزمن الواحد، ومن عصر لآخر فى الثقافة الواحدة. بل لاضير من المواصلة: الفن الواحد من ثقافة ما فى زمن، إلى ثقافة أخرى وفى زمن آخر.

لعل أصل المعضلة فى غفلة الإنسان عن نسبة الذائقة الفنية كامن فى تلك الثنائية العجيبة التى ينساها الناس أو يتغافلون عنها، وهى ثنائية المقوم الطبيعى حيال المقوم الثقافى فى كل قيمة جمالية. فالوهم الخادع يخيل إلينا أن المعايير الفنية المولدة للقيم الجمالية والضابطة للذائقة المتحددة بالإحساس والاستشعار، كلها تختكم إلى ما هو لصيق بالطبع، فهى بالتالى متأصلة فى الذات كأنها محايثة لخلقتها

الجدة من خلال التشهير بانتحال الشعر وانتحال النقد؟ بيان عندنا في هذا المقام الذي نغامر فيه بالبحث في الآليات الذهنية المحركة للمواقف النقدية ذات المرمى الاعتراضى أكثر من اهتمامنا فيه بالمقولات السجالية ذاتها. فنحن مع الشعر كأننا على منوال مارسيل بروس في رواية تاريخية تحكى قصة ذاتقنا الفنية (بحثا عن الزمن النقدى الضائع).

إن النتيجة الطبيعية لقانون تطور الذائقة الشعرية تتمثل في التبدل الطارئ على العمود الفقري لماهية الشعر كما اطرود في أحاسيس الثقافة العربية، ومعلوم أن الإيقاع هو لباب ذاك العمود، فيه نسفه ومنه رؤاه؛ إذ على أعمدته يشيد المعمار الشعرى بأكمله. ولابد لنا أن نستذكر في هذا الباب بالتحديد طبائع الألسنة البشرية والفروق الفاصلة بين تلك الطبائع، وما يترتب على تلك الفروق من اختلاف أنساغ الشعر من أمة لأخرى ومن ثقافة لأخرى بحسب ارتباط شعرية الشعر بجمالية اللغة.

ونريد في هذا المنعرج من البحث والتقصى أن ندلى برأى نسوقه إلماحا على أن يوفى حقه في غير هذا السياق، وهو أن الظواهر المتقارنة بين اللغة والإبداع باللغة على صروب، من بينها ظواهر لا تدل في باب الكليات اللسانية إلا بحقيقتها العامة لا بخصوصياتها النوعية؛ فما هو كلى - لأنه عام يشمل الألسنة الطبيعية كافة - هو مبدأ النظامية في قول الشعر، تلك التى تتطلب شروطا محددة لتحقيق التناسج بين اللحمية والسدى في الأداء الإبداعي تتجاوز شروط النظامية التى تأتلف بها الأداء الإبلاغي والى هى مشروطة بالأصوات والصرف والنحو اعتبارا لقوانين ائتلاف الحروف فالكلمات فالجمل.

أما المادة الأولى التى تتكون منها اللحمية ويتكون منها السدى، فأمر مختلف باختلاف طبائع الألسنة، إننا فى فن الشعر - من موقع الرصد المتعالى على النوعى والمتسامى نحو الكلى - كأننا مع فن الرسم: الإبداع متأت بصرف النظر عن طبيعة الجسد المرسوم عليه أوقا كان أم خشبا أم معدنا أم قماشا أم طلاء على الجدار، وبصرف النظر عن مكونات الأصباغ أمائية هى أم زيتية أم كيميائية أم هى قطعة من الكلس أم قلم من الرصاص.

بعض المؤسسات الثقافية النسيج على المنوال، فضلا عن المقالات والأبحاث التى رجع فيها أصحابها إلى هذا المصدر المهم من مصادر التأريخ لحركة التجديد الشعرى: فى الغرب وعند الشعراء العرب.

ومن أطرف ما نستشهد به عن التشظى الذى ينال وعينا النقدى فى «أناكرونية» عجيبة التصدى المباشر لنصف من تربع على منصة التجديد الشعرى حتى غدا رمزا لذاته وهو على أحمد سعيد. وربما يكون كتاب كاظم جهاد صورة دالة على ذلك، فقد صدر كتابه (أدونيس منتحلا) فى طبعته الأولى سنة ١٩٩١ (أفريقيا الشرق - الدار البيضاء) ثم أعاد نشره بعد سنتين (مدبولى - القاهرة) وعنوانه (أدونيس منتحلا: دراسة فى الاستحواذ الأدبى وإرجالية الترجمة يسبقها: ما هو الناص؟).

ولسنا عاكفين هنا على الوجه النقدى من القضية، وإنما نهتم بمكونات الخطاب النقدى من حيث هو خطاب فكرى ثقافى يروج ويؤثر، ومن حيث هو منهج يسلط إلى مرجعيات ثم يحكم الذائقة.

يقول كاظم جهاد فى مستهل الطلعة الثانية:

حرصت فى هذه الطبعة على الإفادة مما قيل أو كتب فى الطبعة السابقة سلبا أو إيجابا. لطفت أولا لهجة الكتاب، وهذه هى الأمنية التى عبر عنها أدباء ونقاد عرب عديدون ممن أكن لهم الاحترام وأقر لأربهم بالموضوعية. هكذا ينحول الكتاب فى هذه الطبعة من مقال سجالي إلى بحث نقدى. الآن يجد القارئ أمامه وثائق وتساؤلات، ولن يفعل اعتدال اللهجة فى رأى سوى أن يشدد السؤال المطروح على شعر أدونيس وكتابته: لقد ذهب الهجوم وبقيت الشواهد، فما سيفعل بها المدافعون ضد تهمة الانتحال الموجهة للشاعر توثيقا؟

وإذا بنا من جديد - ودون قصد من منسج البحث فى الانتحال - وجها لوجه أمام أنموذج من خطاب الإنكار: أمو إنكار الجدة من خلال إنكار ادعاء العدة، أم هو إنكار انتحال

والأمر في الشعر كالأمر في الرسم؛ كلاهما نظير صناعة النسيج: يدع فيه المبدعون في الرداء وفي اللحاف وفي الأزياء كما في السجاد، ويدع المبدع أن كان المختوم عليه صولفاً أو قطناً أو وبراً أو أليافاً صناعية مركبة.

إننا إذ نصوغ رأينا فإنما نستند - من حيث المرجعيات الأولية لا غير - إلى الجسم الذي فصلت فيه النظرية اللسانية أمر اختلاف الطاقة الإبداعية الشعرية مما نعلمه الآن في ضوء علاقة اللغة والأدب في ضوء أنموذج اللسانيات الذهنية.

إن هناك في كل لغة ضربين من المراحل التي يقتضيها تطور الذائقة الفنية: الأولى قد نصلح عليها بالمرحلتين المنشئية، والثانية قد نسميها المراحل الانسلاخية بالمعنى «الميتامورفوزي» الذي يتداوله علماء الأحياء.

فهل لنا أن نغامر باستشراف المراحل التطورية الكبرى التي فرضت نفسها على الشعر العربي بصرف النظر عن مدى تغلغلها في مسام الذائقة العربية كلياً أو جزئياً. وبما أن الإيقاع هو العمود الفقري لمعمار الشعر، فهل لنا أن نرصد الأطوار الإيقاعية المولدة لحيشيات تبدل تلك الذائقة الشعرية على وجه التدقيق؟

سنقول إن الأطوار الإيقاعية ثلاثة تتحدد فيما بينها بمفرقين هما الضابطان للحظتين انسلاخيتين بذاك المعنى الذي يصور به علماء الأحياء أطوار نمو الكائنات الحية: بعضها يستكملها بعد الإخصاب وقبل الولادة وبعضها الآخر تمتد معه إلى زمن ما بعد الولادة. فأما الطور الإيقاعي الأول فكان قائماً على شعرية البيت، وأما الطور الثاني فكان قائماً على شعرية المفاصل والثالث على شعرية الصورة.

إن القصيدة العمودية، إذ تتحرك بفعل شعرية البيت، تكون متضمنة آلية البناء الكامل، أو هكذا - على أقل التقديرات - يفترض فيها أن تكون، فبمجرد انطلاق الإنشاء الشعري ينخرط السامع أو القارئ في الآلية الذهنية والنفسية التي تجعله متحفزاً للإسهام في إتمام البناء، هي شعرية الاستكمال تسيطر على عالمه الأدبي كي يستوفي حق الشعر.

وهل نحن في حاجة إلى استقراء الشواهد على خصوصية هذه الفاعلية الذهنية المتحركة، فقد لا نضيف جديداً لو عرجنا من جديد على نسقية البناء الكامل داخل البيت الشعري نحويًا ودلاليًا، ولكن لن ننسى أن الأعراف قد أجازت لمتلقى الشعر العربي أن يقطع البيت يستشهد به، والأبيات المتفرقة يجمعها المستشهد مستدلاً بها على ما يريد، ومؤلفو المختارات يسوون من تناثرها وحدة كأنها متماسكة منذ النشأة، بل أبحاث الأعراف أن تأتي سيدة الغناء لقصيدتين من قصائد إبراهيم ناجي سؤاها على البحر الواحد والثقافية الواحدة فتقطع من هذه أبياتاً وأبياتاً من الأخرى وتؤلف منهما قصيدة تعطيهما اسم إحداهما ثم تؤديها فلا يعرف جمهور الناس من أمر الشعر إلا أنه قصيدة «الأطلال».

ولكن الأفصح دلالة والأبلغ استدلالاً هو أن شعرية الاستكمال هذه تستدعي - ضمن ما تستدعيه - تعاملًا خاصاً مع قوانين التواصل اللغوي والشعري كما هي سائدة على مستوى الكليات اللسانية، فالشعر النسقي فيه ما يناقض قانون التوقع واللاتوقع ذاك الذي يفترض أن درجة التأثير تزداد كلما كان المتلقى غير منتظر لما يظهر في سلسلة الخطاب، سواء منه الأدائي الإبلاغي أو الفني الإبداعي، ومنها جاءت فكرة المفاجأة، وفكرة خيبة الانتظار في معناها الأسلوبية المرتبط بالعدول، ومنها قامت ثنائية التوقع واللاتوقع.

والأمر في جملته يرجع إلى النظرية الوظيفية في اللسانيات العامة، فلقد تحدد بأن الشحنة الإخبارية عند التواصل اللغوي تقاس بمدى المعلوماتية فيه، ويقصد بها مدى جهل السامع بمضمون خبرها أو مدى علمه بذلك، وبناء عليه يقال إن الكلام يفقد على التدرج علة وجوده كلما جنحت الشحنة الإخبارية نحو الصفر.

فإذا رجعنا إلى قضية الشعر النسقي، تذكرنا كيف أن من قرائن إبداع الشاعر فيه أن يركب الأبيات فتكون بنيتها النحوية ومن ورائها بنيتها الدلالية موحية للسامع بخواتمها قبل أن تلفظ خواتمها، فيتحول حدس المتلقى بما يمكن أن



(الصورة الشعرية فى النقد العربى الحديث) - ١٩٩٤ -  
انتقالا نوعيا دل على أن الباحثة قد وعت ما جاءت به  
اللسانيات من روافد فى المضمون وفى المنهج.

وعلى ذلك سيتأسس الوعى الجديد بالانسلاخات  
الطارئة على جسد الشعر.

إن التحول من شعرية القريض النسقى إلى شعرية  
مخالفة، تنبنى على إيقاع التفعيلة أو تنبنى على إيقاع  
الصورة، هو خروج من فضاء الشعر من حيث هو تخيل إلى  
فضاء الشعر بوصفه خيالا؛ نعم إن البحور - التى هى أوزان  
نسقية - لسابقة فى الذهن العربى لأية قصيدة موزونة  
يسمعاها؛ فالقلب المهيب لإدراك الشعرية جاهز سلفا وهو  
الذى يتولى عملية التوجيه النفسى، بينما ينسرح الذهن  
المتقبل للقصيدة الجديدة انسراحا يحول استقبال الشعر إلى  
فضاء من الخيال الحر.

مع الشعر النسقى تنشأ اللغة ذات القوة الجاذبة.

ومع الشعر غير النسقى تنشأ اللغة ذات القوة الدافعة.

وقد يسوغ لنا أن نقرأ من بعد، بواسطة المجهز المكبر  
ذى العدسات العالية، تاريخ قلب الآداب على مستوى الوعى  
الإنسانى الشامل فترتقى أن الشعر قد كان فى كل الثقافات  
تركيبا يقيد اللغة بينما كان الشعر على مدى الأيام حرا طليقا.  
ثم إن الشعر، من حيث هو إبداع، تتشاكل فيه الآداب العالمية  
ما انفك يتوغل حتى انحسر فى قوالب نظامية فتقيد بفعل  
ما يعرف بالأجناس الأدبية، وأصبحت منظومة الأجناس  
كالأجروميات العروضية التى تحكم الشعر وتحدد من انفلاته  
حتى لكانها مراسم نسقية، وما مثال فلاديمير بروب مع  
(مورفولوجية الخرافة) كما ترجمه إبراهيم الخطيب -  
١٩٨٦ - أو (مورفولوجيا الحكاية الخرافية) كما ترجمه  
أحمد باقادر وأحمد عبد الرحيم نصر - ١٩٨٩ - إلا دليل  
على دخول العقل الناقد بالنشر عهدا جديدا من استنباط  
الأجروميات الباطنة. وعلى منواله نقيس ما أنجزه وين بوث  
منذ ١٩٦١ وترجمه أحمد خليل عردات وعلى الغامدى سنة  
١٩٩٤ بعنوان (بلاغة الفن القصصى)، وكذلك كتاب

يرد فى نهاية البيت سمة دالة على فحولة فى القريض  
تطابقت مع خصوصية فى الذائقة الشعرية لدى المتلقى، والحال  
أن ذلك هو عين الدليل على انحدار الطاقة الإخبارية نحو  
درجة الصفر. ولكن نسقية الإبداع لها مبنية على مناقضة  
قانون التوقع واللاتوقع، كما أسلفنا.

من عميق هذه الأسرار سينشأ «الانسلاخ» الأول الذى  
هو «انكسار» فى معمار الشعر كما توافد على الذائقة العربية  
من سلالة القرون الماضية؛ مع الشعر الحديث ستنبثق شعرية  
جديدة هى شعرية المفاسل التى تتكى على ما تولده التفعيلة  
من منظومة إيقاعية مغايرة. ومع التفعيلة ستكون بحضرة البناء  
الناقص إذا ما احتكمتنا إلى الذائقة القائمة فى خلفياتنا  
الذهنية والنفسية، وستكون الشعرية شعرية مناقضة؛ تبحث عما  
يفاقم المنتظر المألوف من حيث تدرك سلفا أن المنتظر المألوف  
سيغيب.

ثم سينشأ «الانسلاخ» الثانى محدثا الانكسار الكبير  
فى معمار الشعر، وذلك مع القصيدة الجديدة، وإذا بشعرية  
الصورة تقوم بديلا معاوضا يستند على انشاء المترافد، وإذا بنا  
بحضرة شعرية جديدة هى شعرية المخالفة بكل حيثياتها  
التفصيلية.

ودون الوعى بهذه التحولات الطارئة فى أعماق الشعرية  
العربية، وبما ينجم عنها من تهيج جديد يغير على المهل  
والتدريج مكونات الذائقة العربية، لن ندرك مفسرات الإنكار  
التي تلبس سجوقا فتحول بين الوعى الأدبى والوعى النقدى،  
وتعرقل انسياب الإحساس بفعل الزمن وبسلطة التاريخ.

إننا أمام وضع جديد يقتضى استحداث آله معرفية  
جديدة لدرس الصورة ولتحديد مفهوم الصورة، فالتراكم  
الكيفى مجتمع لدينا فى مخزونا الراهن، فيه محطات بارزة:  
(الصورة الفنية فى التراث النقدى والبلاغى) لجابر  
عصفور - ١٩٧٤ - كانت تأسيسا مهما على درب الاستثمار  
المنهجى المتضافر، وتنامى الجهد عربيا، وكانت (مقدمة  
لدراسة الصورة الفنية) - ١٩٨١ - (تطور الصورة الفنية فى  
الشعر العربى الحديث) - ١٩٨٣ - لمعيم اليافى استثمارا  
مكملا، ثم تغير النسق وكان عمل بشرى موسى صالح

جيرار جنيت (خطاب الحكاية: بحث في المنهج) - ١٩٧٢  
- وقد ترجمة بشكل انتقائي محمد معتصم وعمر حلى  
وعبد الجليل الأزدي ١٩٩٦.

فهل رأينا فى هذه الظاهرة ما يفسر ردة الفعل الطبيعية  
حين انساق الشعر نحو التحرر من القيود تخفيفاً للنمطية  
وحفظاً للتوازن الذى تتأسس عليه طاقة الإنسان من الإبداع،  
ذلك أن الانسلاخ الذاتى فى قوالب الشعر هو ظاهرة إنسانية  
لا تختص بها ثقافة دون أخرى، ثم إنها تنساب فى مسالك  
مستقاربة بصرف النظر عن مدى فاعلية التأثير والتأثر بين  
الآداب.

ودون إمعان فى الكشف عن أسباب اعتراض الناس  
على تطور الشعر أو عن أسباب تعلقهم الشديد بالموروث  
المتجدد من قوالبه، فإن الذى لا مجال للتغاضى عنه حينما  
نرصد الظاهرة بتسام إنسانى تواق هو أن تبدل آليات الشعر  
محكوم بتغير مرجعيات التهيؤ الثقافى والشعورى والجمالى،  
ولذا كان ناجعاً أن نحاول التبصر بحقيقة الشعر من خلال  
آليات التواصل بالشعر. ويكفى حين يلقى الشعر أنه ينتابنا  
الرعى بتعدد السؤال:

من قائل الشعر؟

ومن سامع الشعر؟

ومن هذا الذى ينشد على الناس الشعر إن لم يكن  
منشئه؟

وكيف بالذى يقرأ بنفسه ولنفسه شعراً ليس هو قائله؟  
وماذا يحف بهؤلاء وأولئك عند لحظة الاتصال بالشعر؟  
وكيف تتخلق اللحظة الشعرية منذ نشوء النص الشعري إلى  
حيث منتهاه؟

إن دوران أمر الشعر على أدوات التلقى هو الذى استنفر  
النقد إلى حد الإنارة كى يستعير عن جماليات الإلقاء  
بجماليات التقبل، وهى التى تستوعب فى مكنونها مقومات  
الإفضاء ثم تتجاوزها، لذلك يتجدد السؤال بتبدل زاوية  
الكشف.

إن ماهية النص الشعري وقف على كيفية انبثاق طاقته  
الجمالية المقتدرة على استنفار دهشة القارئ، كما أن وظيفة  
النقد - فى أحد أوجهها - تتركز على البحث فى فاعلية  
تلك الطاقة الجمالية، فى مداها كما فى حدودها؛ لم تتحقق  
الدهشة ثم تعطل؟ لم يقر بها البعض وينكرها آخرون؟ وهل  
كل من أقر بها قد عايشها معايشة جمالية أم من الذين  
يقرون من لا تتجاوز معايشتهم لها حدود التجربة النقدية  
الواقعة الواعية؟ وهل كل من أنكرها هو فعلاً فاقد للحس  
الشعري الجمالى فيرفضها، أم ترى من الناس من يهتز شعوره  
بعض الاهتزاز ولكنه يعمن فى الاعتراض فيدحضها بإنكار  
نقدى لا بإنكار جمالى؟ وما الذى يصنعه الشاعر فى صهر  
قوالبه الجديدة حتى يستدرج القارئ - أو المستمع - نحو  
مسارب الذائقة الطارئة على ماضيات التاريخ؟

لعل نقطة البداية، فى مشروع التشخيص هذا، ترسم  
فى تصاقب جدولين من الفعل الشعري، مما ينشئ حدثاً  
متفاعلاً يتشكل بصورة إنجاز متصاهر كالجهاز المشتغل  
بمحركين يعملان معاً فى اللحظة نفسها: فالنص الشعري  
الجديد يحمل فى مكانه طاقة ما من طاقة تركيب الكلام،  
يستحدث بها فعله الفنى كمنبه واخز، ولكنه يظل ناقصاً ما  
لم توازره استجابات مخصوصة من لدن المتلقى هى بالتحديد  
ردود الفعل الجمالية المحققة لشعرية النص من حيث هو فعل  
تواصل يستوفى شروط الاكتمال.

هنا، تنبه لدينا بقظة جديدة. فالتلقى الجمالى مشروط  
فى أغلب الأحيان بالسياق الذاتى الذى يكون عليه المتقبل،  
مما يلج بنا منطقة أخرى من مناطق النسبية: ففى لحظة التقاء  
الإنسان بالآثر الفنى عادة ما يفاجأ هو نفسه بأنها لحظة  
«لاتواصلية». يحدث له ذلك أمام لوحة من الرسم، أو قبالة  
نمثال من النحت، أو عند سماع لحن شجى، كما قد  
يحدث أيضاً حيال نص شعري.

وقد يتفق أن تتحول اللحظة البكاء إلى لحظة ناطقة:  
تتلقى الأثر، ونعاود، ونكرر الاستدعاء، حتى تصادف بهمة  
الميلاد. ألسن فى ذات الأثر؟ أم لشيء فينا من علة وانقباض  
حيناً ومن توقد وانسراح حيناً آخر؟ أم لشيء ثالث هو ارتسام

القصيدة الخيلية بيت مؤنث تام المرافق جاهر كليا لإقامة الزائرين فيه، أما القصيدة الجديدة فبيت موظب إلى النصف، على الزائر أن يستكمل - بحسب ذوقه ومزاجه وما يألفه من الحياة - ما تبقى من ضرورات الإقامة ومرافق الاستجمام.

مع القصيدة النسقية تتجسم آلية الدهشة وآلية الانتشاء في الزفرة، في «الآهات» التي هي الطلقة الانفعالية: الصيحة بما هي معبر عن الانخراط المباشر في الاستجابة الغنائية مع النخت الموسيقي العازف ومع الأداء اللحنى، وبما هي الزر الذى عليه يضغظ المتلقى فيوجه أوامره إلى المؤدى طالبا منه أن يعيد وأن يكرر وأن ينشئ اللحظة إنشاء جديدا؛ فتخف شحنة الانفعال لدى المتلقى ويتخفف من التوتر الشعرى الذى تملكه.

تلك هي الشعرية المحايثة.

أما مع القصيدة الجديدة فالآهات والتصدبات ومكاء بعض السامعين كلها تكف عن الانسراح التلقائى وتكف عن الانطلاق فى الزفرات لتتحول إلى تخزين كثيف. الآه - إن كانت هناك آه - هي آهة صامتة لأنها شعورية ذهنية أكثر مما هي نفسية لاواعية.

فإذا اطمأنت بنا النفس إلى التسليم بأن تبدل قوالب الشعر هو إما حامل أجنة ذائقة جديدة تكون بمثابة تحول عن المدار الموروث، أو هو - إن لم يكن بعد حاملا لها - مؤذن بتعاقب انسلخات جديدة عليه فإن فى كل ذلك ما يسوغ لنا أن نتمثل وجود شعريتين تختلفان تبعا لابناء القصيدة على مقومات العمود الخليلي أو لتحررها من قيود الوزن ونسقية التفعيلة.

وإذا تاملنا كيف تحتكم القصيدة الكلاسيكية إلى شعرية محايثة وكيف تحتكم القصيدة الجديدة إلى شعرية مفارقة، فإننا سنستول بالمنظور اللسانى الخالص كى نجوس فى مظان الأساسيات اللغوية المشيدة لهذا الفارق المبدئى، ولا سيما فى منحاها الأدائى الجديد.

لعله من شائع المعرفة أن الدلالة اللغوية تستوى على أركان ثلاثة هي كالمراجعيات الفاعلة فى كل لحظة تواصلية

متقلب بين الرائي والمرئى، أو بين السامع والمسموع، قد يكون فى ضمير المزاج الجامع، مسته فى الحواس ومولده من تفتيق كوابلها؟

قد نقول: كان الشعر فى قوالبه الوافدة حاملا فى منعطفاته زمنا واحدا يتجدد بالاستعادة، وتكرار، والاسترداد، والحفظ، والمذاكرة، والاستشهاد. فزمن الشعر هو المشاهي مع زمن إنشاده أى «روايته». فإذا قلنا ذلك نعين أن نقول: إن إعادة إنتاج القصيدة فيما مضى هي طريق إلى إعادة إنتاج زمنها الشعرى.

ومع تبدل قوالب الشعر أصبح للقصيدة زمنها الذى أنشئت فيه، وأصبح لتقبلها أزمنة تتعدد بتعدد ومضات استقبالها ولحظات ابتعائها.

إن الشعر المأثور - نعنى الشعر النسقي الوافد علينا بحكم الميراث والمستقر فى أعماق دائقنا التاريخية - يحيا فى زمن دائرته مغلقة لأنها محمية بأسوار الشعرية الموزونة بالعيار، أما الشعر الجديد فيعيش فى زمن دائرته مفتوحة مفتوحة مفتوحة.

لقد كان جنين الدهشة الشعرية سائحا وسط محيط البحر، جاثلا داخل سياج التفعيلة ولكنه مع القصيدة الجديدة واقع على أسوارها الخارجية

شعرية القصيدة الماضية شعرية سابقة لها متضمنة فيها، وشعرية القصيدة الجديدة شعرية متضمنة فيها لاحقة لها.

لنقل بجرأة مشخصة: إن القصيدة الوافدة تتحرك على شعرية محايثة، وإن القصيدة الجديدة تحركها شعرية مفارقة.

إن القصيدة الوافدة - ذاب البحر أو ذات التفعيلة، بالمستند العمودى أو بالمستند المقطعى - تستدعى مثليتها إلى عالمها الذاتى لأنها كيان مكتمل. أما القصيدة الجديدة فترك الأبواب لتقبلها مفتوحة وتتقصص إقامة حسوس متكاثرة بين هيكلها المعمارى والعالم الخارج عليه اعيط به. معنى ذلك أن لحظة التجاوب الجمالى ولحظة الانتشاء الشعرى ولحظة الفجاءة الاستيطيقية إنما تقع على خط التماس بين عالم القصيدة والعالم الخارجى عنها.

تأما الانفراد التمييزي فهو في القصيدة الكلاسيكية متحقق في اختصاصها بنظامية الدلالة المعجمية وكلها في القاموس بمختلف الاحتمالات المرصودة لديه، وهو في القصيدة الجديدة متحقق في استقلالها بنظامية الدلالة المقامية وأغلبها يخرج عن المعجم، لأن قاموسها متولد في تركيبها النحوي أكثر مما هو متولد من مرجعيتها المعجمية.

فما الذي ينجم عن هذا التناول؟

إن الشاعر الذي يصوغ نسقا عموديا على أبنية البحور، أو يصوغ نمطا مقطعا على قالب التفعيلات، مدعو وهو يلقي شعره إلى تناغم ذاتي، لأنه يدخل حلبة الإيقاع فيأخذه حتى يستبد به ما كان من المظنون أن يأخذ هو به السامعين، وهذا ضرب من التناغم الإسقاطي، لأن الشاعر يستكشف أثر الشعر من خلال انكشاف وجدده به، معنى ذلك أن الشاعر وهو يلقي شعره - كالذي يتولى إلقاء الشعر وهو ليس بصانع - تراه من حيث لا يمي يستبطن من نفسه صورة يستشرف بها معيار التقبل المظنون في السامعين، وبهذا نفسر المحاذير الحجة التي كثيرا ما تدفع بالشاعر - أو بمن يتوكل بالشعر - إلى التناغم الطلق فيفيض على محياء ضرب من الانتشاء الطافح. والحال أن السامعين لم يتجاوزوا، ولا هم أحسوا بشيء يستنهض أحاسيسهم الشعرية كي يحدوا حدوا، فإن هم ملؤا أو مكا بعضهم ظن الشاعر مكاءهم استزادة. وكل ذلك من فعل التناغم الذاتي.

أما مع القصيدة الجديدة - عند من أدرك بوعي أو أحس بحدس ما تنطوي عليه من أسرار الشعرية المفارقة - فالشاعر محمول على استشراف ردود المتلقى كي يسقط على شعره الأداء الأوفق.

إن آليات التلقى في الإبداع الشعري العمودي - الوافد علينا من التاريخ والمستقر في الذاكرة الجماعية الحية بقواله النسيجية الكاملة - تفترض أن الشاعر وهو يصعد على منصة الإلقاء كأنما يجتاز امتحانا، والجمهور الحاضر هو لجنة الاختبار لأنه الممتحن وكله صوت واحد هو صوت لجنة التحكيم.

بين متخاطبين، فالركن الأول هو الدلالة المستفادة من المعجم، لأن كل فرد من الأدميين لا يتم له اكتساب لغة طبيعية ولا يتيسر له تداولها بتلقائية إلا متى استقر في مخزونه رصيد قاموسي تتحدد فيه لكل كلمة نواتها الدلالية التي هي قمة التجريد المنبثق من أشخاص المحسوسات وعيون التجارب المستخلصات.

والركن الثاني هو السياق، والمقصود به السياق التركيبي المرتبط بمفهوم النظم، كما تتمثله نحن العرب بفضل أدوات الكشف التي أسسها بعض رواد التفكير البلاغي في حضارتنا الزاهية؛ ذلك أن الكلمة التي تحمل وقع المعنى القاموسي في شكل نواة لا تتسجج دلالتها إلا في ضوء ما قبلها وما بعدها ضمن البنية التركيبية، فتسحب من دائرة الاحتمال، عندئذ، جل المعاني الممكنة لتلك الكلمة ولا يبقى إلا معنى واحد راجح مقبول.

أما الركن الثالث فهو المقام، والمقصود به الوضع الفعلي الذي يتم فيه تداول الكلام بشكل عيني مجسم لا بشكل تقديري أو افتراضي، وهو ما يسمى أيضا بدلالة الحال اعتبارا بقولهم: «لكل مقام مقال»، أو قولهم: «بمقتضى دلالة الحال».

هي، إذن، ثلاث دوائر بها تكتمل، حركة انبثاق المعنى: دائرة الدلالة المعجمية، ودائرة الدلالة السياقية، ودائرة الدلالة المقامية.

في هذا الموطى بالتخصيص سنقول إن القصيدة الكلاسيكية، إذ تقوم على ما أسميناه بالشعرية المحايثة، فإنها تنكئ على الدائرتين الأولى والثانية: دائرة المعجم ودائرة السياق، بينما تقوم القصيدة الجديدة؛ بوصفها مستندة إلى شعرية مفارقة على الدائرتين الثانية والثالثة: دائرة السياق ودائرة المقام. ومحصل هذا أن منطقة التقاطع هي دائرة السياق التركيبي بوصفها مقسم الاشتراك.

إن التوالج حاصل في مستوى خصائص النظم الذي هو منطقة النحو، بما هو حيثيات بنائية تصطنع لنفسها مسوغات إعرابية، فيتحول الكل إلى اقتدار وظيفي.



أيضا على يميننا، وعلى شمالنا، وتحتنا لأنها تحت الذى تحتنا، وعندئذ تكون الجملة قضية حكمية ترضخ لمعايير الفحص والسلامة فى صدقها أو كذبها.

ولسنا نقصد ما قد يستنتجه الإنسان من إيراد تلك الجملة مبتورة عما كان السابقون يستكملون به الصورة ويزاوجون به فى الإيقاع قائلين: «السماء فوقنا والأرض تحتنا»، أذلك منى تعويل على نباهة السامع أنه يعلم ما أعلمه، أم هو اقتصاد فى الجهد بناء على نزعة المجهود الأدنى، أم هو اختبار لمثاق حسه وصلابة أعصابه بحسب سكوته معى عما اختصرته أو اندفاعة فى تلقائية ليكمل ما سكت عنه ؟!

ولسنا نقصد ما قد توحى به الجملة من غمز دال إذا كان السياق مشيرا إلى تكرار الأسباب: أن المتحدث قد اطرده لديه الإمعان فى اللإفادة، وأننا قد سكتنا وتحلينا بالصبر، وأن الكأس قد طفحت مياهاها، وأن علينا أن نستدرك الأمر، وربما العتاب علينا أننا توانينا...

فكل ذلك وارد مقبول.

وإنما الذى نقصده هو أنها جملة تستوفى شرط النحوية وشرط المفهومية كما قد تستوفى حق المقبولية لسامع افتراضى. هى - إذن - جملة تمثل لدلالات المعجم، وتستجيب لشروط التركيب النظمى، وتبقى إفادتها رهينة المقام، ثم سيمياء المقام، شأنها فى ذلك شأن سائر أضرب الكلام.

فمن الأسرار المفسرة لاشتداد نكران القالب الشعرى الجديد، مع الإمعان فى نقض مسوغات الإقرار بقانون التبدل الطارئ على الذائقة الفنية، أن جمهور الشعر لا يدرك كيف تم استحداث نظام جديد فى الدلالات اللغوية، فلقد تفجرت المنظومة العرفية الموروثة فتغيرت أركان الاصطلاح ولم تعد تركزن إلى الاستقرار الممتد فى الزمن، بل يمكن لنا القول - دون أن نجازف كثيرا - إن عمر زمن المجاز الذى هو الزمن الفاصل بين حقيقتين - حقيقة لغوية وحقيقة عرفية - ما انفك يقصر فتقصر معه أعمار الدلالة اللغوية ذاتها.

أما آليات التقبل مع الشعر الحديد فجوهرها أن الشاعر يصادر على مقبولة مضمنة فى شعره، وهو فى لحظة الإلقاء يفاخ المتلقى مفضيا بشعره من منطلق أن الجمهور - ورمزه السامع - هو الذى يجتاز الاختصار، هو - إذن - امتحان للمتلقى وليس امتحانا للباحث. وممكن الاختيار: هل يهتدى السامع إلى الومضة المولدة للشعرية.

ويدهى أننا لسنا أمام اختبار فى الفهم اللغوى، لأن الموضوع متجاوز قضايا التحصيل اللسانى ومسائل الإدراك المقترن بالاكتساب التعبيري، وإنما هو اختبار حول مدى ارتياض الذائقة الفنية المفتوحة. لنقل: هو ليس اختبارا فى التداول الشعرى على قدر ما هو اختبار فى التواصل الأدائى عبر ما يتواطأ الطرفان على أنه «بنية أخرى» غير البنية الإبلاغية، بصرف النظر عن تسمية هذه السية السفلى وتلك بالبنية العليا، أو تسمية هذه بتلك وتلك بهذه، أو تسمية كليهما بالبنية الأفقية المتوافقة.

إن دلالة الكلام الشعرى دلالة ذات مراتب، لأن فيها دلالة سيميائية تداخل الدلالة اللغوية التى هى فى حد ذاتها كما نعلم مثلك الأركان: معجمية وسياقة ومقامية، وليس واحد من هذه الأركان بمخالط للدلالة القرائن والسمات التى تضاف.

إننى لو قلت «السماء فوقنا»، فإننى أكون قد صغت جملة سيقول عنها اللسانيون الوظيفيون إنها من أضرب الكلام الذى تجنح طاقته الإخبارية نحو درجة الصفر، وسيقول عنها الإفرنج عبارتهم الشهيرة: «هذه حقيقة السيد لا بالاليس». غير أنه ليس من المتعذر أن تتحول هذه الجملة بذاتها إلى جملة دالة: فى سياق مخصوص، وفى مقام محدد، ويتضمن إيحاءى مقيد. سنقول إن الجملة «السماء فوقنا» لما يدخل تحت فصيلة ما يعتبره السامع كلاما «غير مفيد»، ولكن هذا الحكم مبنى على الجاوزة، إذ فيه هو نفسه حمل للكلام على غير قوانينه الطبيعية.

ولسنا نقصد هنا إلى الحقائق الفيزيائية التى لو اعتبرنا دقائقها لقلنا إن كروية الأرض وما حول الأرض تجعل السماء من الناحية الاعتبارية - فضلا عن كونها فوقنا - هى

ومبررات المجاز، ومفسرات الاستعارة، ومشخصات الكتابة وما إلى ذلك من أبواب العلم البلاغي التي هي في حد ذاتها دستور مرجعي للدلالات اللغوية.

ومع الشعرية الجديدة حصل الانفجار الدلالي الكبير: يقول المشددون إلى نظامية النسق الموروث والرافضون انصباع الدائقة إلى التاريخ: «قد انفرط العقد الدلالي». ونقول: إنها إنسيابية جديدة في منظومة المعيار الدلالي؛ إذ لم يعد مبرر لافتقاء سنن التسج المعنوي الراسم لمقاسم الدلالة على خريطة التواصل.

إن المعنى في الشعرية الجديدة التي هي بطبيعتها شعرية مفارقة يؤخذ مادة خاما: يصنع، يكرر، يستصفي، يسوى منتجا نهائيا ثم يختم عليه بالختم الخاص، حتى لكأن إعادة إنتاجه هي بمثابة السطو على حقوق التصنيع وقرصنة إنتاجية تدخل تحت طائلة التعقب الجزائي.

إن الابتكار الشعري أصبح يشمل استحداث الصورة عن طريق ابتكار نسق لها غير منضو تحت مظلة المعيار البلاغي الموروث. وهنا نفهم أننا لم نعد نحتكم إلى السلم التصنيفي المعهود، لذلك دل مصطلح «المجاز» على حركة المعنى؛ أي على التموجات الطارئة على خارطة الدلالة، والمؤثرة في شبكة العلاقات القائمة بين رصيد اللغة من الدوال ومخزون ذهن المتكلم من المفاهيم والتصورات التي منها المدلولات المشتقة من عالم الحس الذي حوله.

هو ضرب من التشظي أتى على مقاسم الحقول البلاغية من تشبيه واستعارة وكناية وغيرها من الأبواب، فضلا عما يصيب مراتب التصنيف داخل كل باب. لم يعد من الشعرية المفارقة من مغزى أن تأتي إلى ما يسمى في عرف تصنيفات المعيار البلاغي تشبيها بليغا فتعتبره تشبيها بليغا؛ فليس من البداهة، ولا من الضرورة، أن ينتج لنا فائضا في المعنى الشعري يفوق المنتج الناشئ عن تشبيه تستوى عناصره ويأتي على النسق الأصلي أو الطبيعي بحسب ألقاب علماء البلاغة. فالجملة: «زيد كالأسد في شجاعته»، لو قدر لها أن تأتي اليوم على لسان متصرف في اللغة أو على لسان مبدع لشعرية مفارقة، فإنها ستدل بقرائن مستمدة من خارج سياق

ومنذئذ تبدلت في الجوهر وفي الأعماق آليات إنتاج المعنى في فضاء الشعر.. ففيما مضى كانت اللغة التي بمتعتها الشعراء من قواميس التداول أعرافا دلالية، وكانت مستقرة في كلياتها، متحركة في جزئياتها، حتى لكأنها - في النظر العابر - ثابتة، شأنها شأن حركة الأرض للعين العجلى، والمهم هو أن عملية الإدراك الذهني تنبني في هذه الحالات على الاستيعاب الشعري، طبقا لفرضية الجشتالت. أما محرك الدلالات فهو المجاز بمعناه الأولي العام الذي هو عبور عارض بالألفاظ من حقل مفهومي إلى حقل آخر، أو تحريك للحقول المفهومية بما يتاحم حدود الملفوظات.

وفيما مضى أيضا، ومن زاوية البناء الشعري دائما، كانت اللغة - التي أصلها علامات اعتباطية في ذاتها بالوضع الأول وطبيعية بحكم التواتر والاطراد والألفة النفسية - مخزونا من الدلالات المرجعية المشتركة في كل حقبة زمنية، ولكنها تتحرك تحركا داخليا بفضل المجاز الذي يبتكره الشعر تحت ضغط اللحظة الإبداعية.

مؤسسة اللغة فيما مضى كانت تتحرك بجناحين؛ الأول المعيار النحوي والثاني المعيار الدلالي، فمثلما تكون لكل لغة منظومة تركيبية تكون لها - بالمثل - منظومة مجازية، وبناء على ذلك تضبط مراسم انتقال اللفظ من مدلول إلى مدلول سواء، أو قل تضبط مراسم تحول المعاني من ممكن صوتي لفظي إلى ممكن غيره.

وما جوهر علوم البلاغة، في كل الموارث الإنسانية، إلا رصد للمنظومة الدلالية المتحركة ابتغاء رسم خريطة التحولات القصصية. فالقرائن التي تصل الألفاظ بالمعاني هي لباب البحث البلاغي في أصل نشأته، وذلك بالانطلاق من لحظات التداول الإبداعي - الذي هو الشعرية ذاتها - ثم من لحظات التداول الإخباري المستفيد من الابتداعات الشعرية بلا منازع.

وهكذا، كانت البلاغة هي العلم الباحث عن معيار المجاز، هي السعي الكاشف عن أجرومية المعنى المتحرك. ولهذه الأسباب ظهرت آلية القرائن، مما جعل البلاغة بحثا في القوالب المجردة التي تسوغ الانتقال الدلالي: قواعد التشبيه

مداخل متعددة؛ لأن شطرنجها حاسوبى رقمى. ويتفجر قرآن  
المجاز فى شعرية القصيدة الجديدة تنوعت موارد الصورة  
الإيحائية. فالجهاز الجديد يقوم على «الاستعارة» بمعناها  
اللغوى، أى على الاقتراض المتجدد، وهو ما أحدث انسياها  
فى العلاقة بين الحقول الدلالية. ولكن أهم حدث جديد  
طارئ هو انتفاء تفاضل الموارد فى إنشاء المجاز وانحسار ثنائية  
السلم التداولى المشيد على الصورة، فلم يعد هناك جدول  
شريف تستقى منه المجازات النبيلة وجدول وضع لا تأتى منه  
إلا مجازات سوقية.

وهنا، نقف على ملمح مهم قد يساعدنا كثيرا على  
مزيد من فك أسرار الشعرية المفارقة إذا ما قايصناها بالشعرية  
المحايدة، ومن ثم يساعدنا على تفكيك آليات الموقف الرفضى  
حيال تجديد قوالب الشعر، وهو ما سنصطلح عليه بهجرة  
الصورة التمثيلية بين حقول الاستخدام والتداول؛ فبان تقاض  
السلمية البلاغية فى موارد المجاز انتقضت التراتبية الشعرية  
التي كانت سائدة نافذة.

لم تعد هناك بلاغتان كما كان من قبل: بلاغة  
التداول - فى المألوف والشائع والإخبار والمنافع - وبلاغة  
التكريس الإبداعى. إن الفن الشعرى الجديد ليغرف من كل  
واد أدائى. فالصورة السياسية والصورة الاقتصادية وكذلك  
الصورة الإعلامية وربما الصورة التجارية أيضا، كلها مع  
القصيدة الحديثة أدوات جاهزة للتوظيف الشعرى.

الصفقة، والبلكونة، وقهوة النسكافيه، وصندوق  
الاقتراع، والمزاد العلنى، وضربة الجزاء، والعزف المنفرد،  
وتضخم القيمة، والعملة النافقة أو القطع النادر، والضحك  
ملء الأرض، ثم القنص بالكلمات، ورصاصة المشق،  
والذبحة الغرامية... كلها موارد صالحة لإنشاء المجاز الشعرى  
الجديد.

نحن، إذن، فى عصر انفجار الصورة البلاغية. وقد أعان  
على هذا الانفجار، وروض تطبيع الذائقة الشعرية، تكاثف  
الضغط المجازى على اللاوعى اللغوى العام فى العصر  
الحديث، فاكتمساح الخطاب الإعلامى كل زوايا العالم  
النفسى لدى الإنسان ثم ازدهار الخطاب الإشهارى المسوق

البلاغة النمطية سواء كان المشبه زيدا حقيقيا أو زيدا  
افتراضيا، أو كان اسما من أسماء الناس المعاصرين بعد أن  
تخلوا عن زيد واحتفظوا بخالد وبكر وترددوا حيال عمرو.

إن الشعرية - فيما سلف - تتعصن وتقتضى فى  
اللحظة نفسها معيارا بلاغيا؛ لأنها تنكح على بلاغة المعيار  
ذات المرجعية النظامية. أما اليوم، فإن الشعرية تتضمن  
وتقتضى كسر مرجعية المعيار المتواتر. ولا يعنى هذا البتة  
خروجها قطعيا مطلقا عن كل سق بلاغى موروث، بل هو  
يعنى - على وجه التحديد الدقيق - ضرورة الإبقاء على  
مشروعية كل جزء من المعيار البلاغى مأخوذ فى ذاته، ولكن  
المستحدث هو أن الأجزاء لا تنصوى بالضرورة تحت لحاف  
الأنساق الماثورة فى تواترها التاريخى السكين.

إن الشعرية الجديدة فى علاقتها بالمعيار المجازى شعرية  
متحررة: تستخدمه حيناً، وتخرج عليه حيناً آخر، ولا تلتزم  
بتحديد لحظات الدخول إلى مقامه ولحظات الخروج.  
وليس لخروجها من دلالة ولا من فضاء إبداعى لولا  
استبقاؤها على حق الدخول. وفى هذا واحد من خفى  
أسرارها، وهو المقصود البعيد من قولنا إن الشعر الجديد يخلق  
لنفسه بلاغته الخاصة.

لعل جوهر القانون البلاغى فى الشعرية الكلاسيكية قد  
كان يدور على أن كل شئ يشبه وكل شئ يشبه به، ولكن  
ليس كل عنصر مشبه بوسعه أن يقترن بأى عنصر آخر مشبه  
به؛ فالمصاهرة المجازية هى مصاهرة مفيدة، فيها الممكن وفيها  
غير الممكن، فيها ما يجيزه السمة البلاغية؛ لأن الذائقة  
الإبداعية قد أباحتها، وفيها ما لا يتيح المعيار البلاغى لأن  
الذائقة الجماعية لا تسيفه وقد شطره بالكتلية.

أما فى بلاغة الشعرية الجديدة، فكل شئ يشبه وكل  
شئ يشبه به، وأى عنصر من جدول المشبهات يمكن أن  
يزاوج أى عنصر من جدول المشبهات بها.

إن البلاغة فى الشعرية الأولى تقوم على القرائن  
المسكوك شطرنجها من القطع المنحوتة فى قوالب مقررّة،  
وبلاغة القصيدة الجديدة تتأسس على مصفوفة خاناتها ذات

وقد يتولد الغموض في الشعر من لعبة مجازية تحكمها علاقة الشاعر بالمتلقي كمحطة للإثارة، فيكون مدار الأمر في التركيب اللغوي أن يعمل الشاعر على الطاقة الرمزية التي تحملها اللغة، فيحملها منها في بعض الأحيان أكثر مما تطيقه، فيتولد في الكلام وضع استثنائي يعطى فيه الباث المتقبل بعض العناصر التركيبية السائغة للكشف الدلالي، ويسقى اللثام على بعض العناصر الأخرى، فيحتجب من الحيشات الفرعية أو الأساسية ما يجعل الكلام متشابها أو متعاضلا، وعندئذ ينفخ ذهن المتلقي فيذهب به التأويل أكثر من مذهب. وهذا الضرب من الغموض هو - عند الشعراء المقتدرين - محطة إبداع؛ لأنه ينشئ ترميزا مخصابا ويوفر منهلا ولودا بالدلالات.

وقد يرد الغموض لعبة مجازية تحكمها علاقة الشاعر بنفسه، وهذا من أدق لطائف الشعر بل من أشد أسرار اللغة خفاء على الناس كافة وعلى خاصتهم كذلك. فالإنسان، وهو يبدع الكلام ويمعن في الانبساط مع اللغة، قد يصل امتزاجه بها حدا يتحول فيه التركيب الشعري إلى ضرب من التجلي خلال التجريد المطلق، فيشارف مراتب الحلول في اللغة ويكاد معه أن يتحد بها اتحادا.

عندئذ يعسر على السائل أن يسأل الشاعر ما الذي كان يقصده، وإن كان السؤال في حد ذاته غير ذي جدوى في مطلعه، لأنه ليس من صلاحيات النقد أن يطلب الناقد من الأديب شرح أدبه، ولكننا - من باب التسوسل بالرواثر المنهجية - نقول إن الشاعر في هذا الموطن قد يكون هو نفسه عاجزا عن تفسير ما بدر منه، أو يكون على أقل التقديرات حائرا حيال لعبة المجاز التي اكتتفت كلامه بقدر حيرة جمهور المتلقين أو جمهور النقاد.

أما من وجهة نظر لسانية صارمة، فإن الغموض - بهذا التناول الشخص للظاهرة المجازية ضمن أدوات الشعرية المستحدثة - يعزى في حقيقته إلى خصيصة تركيبية في اللغة، وإننا لنراه ضربا من اتساع المسافة بين البنية السطحية والبنية العميقة في استواء عناصر الكلام. فالأصل في تقديرنا أن الضابط التركيبي في تداول اللغة محكوم بقواعد النظم،

للإعلانات التجارية بما لم يسبق له نظير، وكذلك تألق الخطاب السياسي ولاسيما عند حملات المنافسة الانتخابية أو عند استعمال سلاح الحروب النفسية في تحريك أدوات الصراع الإعلامي الجديد، كل ذلك قد تحول إلى آلة إنتاج ضخمة للصورة المجازية.

ولم يبق الإبداع في مأمته، بل تبدلت هوية اللفظ الشعري، وحدث انقلاب في أساسيات الذائقة الفنية كأنه الزلزال ترع به خارطة المفاهيم المجازية كلها.

فالقصيدة الجديدة هي قرينة عهد جديد تسود فيه آليات تصنيع الصورة الشعرية، مما غدا مستوجبا لمواثيق لم يألفها الناس تحصل بنواميس إنتاج الدلالة الإبداعية. لذلك، ترى المعترضين على تطور قوالب الشعر وعلى تجديدها يتوسلون بحجج وجيهة في مظاهرها؛ لأن قائلها محجوبون عن أسرار التغير الذي طرأ على المؤسسة اللغوية عامة والمؤسسة الإبداعية تخصيصا. وفي هذا المفترق، تثار مسألة أسالت من الحبر ما لا يقدره مقدر، وهي قضية الغموض التي تحمل إشكالاتها في ذاتها وفي مصطلحها. وأول ما يتعين تفكيكه قبل قضية الغموض في الشعر الجديد هو غموض دلالة مصطلح الغموض ذاته. ومالم نربط هذه المسألة بالانفجار المجازي الكبير الطارئ على آليات اللغة فستظل المعضلة مستعصية.

ولعل أيسر السبل وأنجحها أن نفصل الأمر في مراتب الغموض، من حيث هو لحظة إشكالية تتولد بها عقبات في طريق التواصل الطبيعي بين المتلقي والرسالة الشعرية ويكون مرجعها إلى المجاز الدلالي:

فقد يكون الغموض ناجما من لعبة مجازية نشأت عن توتر العلاقة الرابطة بين الشاعر والمجتمع، ولاسيما بينه وبين قمة الهرم في البناء المجتمعي أو إحدى قممه؛ إذ قد تسوء الرابطة التواصلية بين الشاعر والسلطة السياسية أو بين السلطة الدينية، فيجنح اللفظ الشعري صوب الدلالات المبطنة، مما ينشئ ضربا من التقية اللغوية؛ فتغرق الصورة في الإنغاز لأن الشاعر قد أوغل في الاحتجاب إثارا للسلامة.



النحوى الذى كان يمسك بأطراف البنية السطحية فى الكلام وبنيته العميقة.

وإذا الحاصل هو هذه النقلة النوعية التى نشهدها اليوم، والتى نلخصها فى أبسر عبارة إذ نقول إننا قد غادرنا عهد الشعر ودخلنا عهد القصيدة. ومع هذه النقلة يصبح الناقد مدعوا إلى إنجاز وظيفة أركيولوجية - على دلالة رجال الحفريات - ليعيد بناء العلاقة «الطبيعية» بين المثلث والشعر من خلال إعادة بناء نظامية المجاز، ومن خلال إعادة رسم خارطة الدلالات. فكأنما الناقد مدعو إلى تمكين الشعر من جواز سفره نحو مملكة الجمهور.

فيما مضى - حين كانت تسود الشعرية المحايثة - كان الشعر يمر إلى الناقد بعد أن يتلقاه الجمهور. واليوم، مع سيادة الشعرية المفارقة، كأننا بالشعر يأتى إلى الناقد أولا ليقوم بوظيفة «المصفاة». قبل أن يصل الشعر إلى متلقيه.

الشعر الجديد - فى هذه المرحلة من الزمن الحضارى وفى منطق «التحقيب» الشقافى - نطق خام لا يتحول إلى سائل وقود إلا بعد أن يمر بمخاطر التكرير.

واللسانيون ليسوا أوصياء على الشعر وليسوا أديعاء على أولى الأمر فى الشعرية، فليس بوسعهم أن يجتهدوا فى مدى وجاهة هذه النقلة الحاصلة. ولكننا لو استفتيناهم على باب الاستنارة لسمعناهم يرددون بعض وصايا علمهم: لا يمكن أن يتغير الشكل دون أن يكون المضمون قد تغير، وليس بوسع الحيوان الناطق ولا يوسع الحيوان الشاعر أن يغير المضمون دون أن يحدث فى الشكل صنيعا. فلا المعنى القاموسى المباشر، ولا المضمون الدلالى المقترن بسياق الكلام وبمقامه، ولا المحتوى التأويلى الذى يقوم على استنباط المعنى بقرأة القرائن الشقافية من خلال حركة الفكر، لا شئ من كل ذلك بقادر على أن يغير من الواقع التاريخى كثيرا أو قليلا إن هو لم يغير ما بنفسه شكلا وتصويرا.

ومرد النظم أن لكل كلمة فى سياق التركيب اللغوى وظيفة نحوية مخصصة لا يتغير وضع الكلمة إلا وتغيرت معه وظيفتها، ولا تتغير وظيفة الكلمة إلا وتغير المعنى المستفاد من الكلام. وكل ذلك مرصود فى دلالة النظم. ثم تأتى - حسب ما نستشفه - دلالة أخرى تصافى دلالة النظم وهى دلالة النص، وفيها أن لكل جملة نحوية من النص وظيفة تأويلية خاصة بها، وذلك بحكم استقلالها التركيبى داخل النظام النحوى للسياق وبحكم تبعيتها الدلالية داخل النظام التأويلى للمقام.

هنا، على وجه التعمين، ينشأ توازن حكيم بين مساحة القيود وفضاء الحرية، وهذا التوازن هو الذى يحفظ فى كل لغة وعند كل مشهد وبين كل متحاضرين سلامة التواصل المحكومة بتواؤم المقاصد مع التأويل، فتتمثل بشكل صريح دلالة النظم ودلالة النص.

وببدأ الانفساح بين البنية السطحية والبنية العميقة بسيطا فى أبسر الصور، وذلك - على سبيل التقريب - بمجرد أن يرد فى اللغة العربية مصدر من مصادر الأفعال فى خانة المضاف، ويورد فى خانة المضاف إليه اسم كـ «أردت» أن تتجاوز به وظيفة المضاف إليه لتقول إنه معمول للمشتق القائم مقام الفعل، لم تدر إن كان هو فاعلا للمشتق أو مفعولا به له.

ثم تتسع الفرجة عندما تجد نفسك أمام «المفعول لأجله»، ولا تستطيع أن تدقق إن كان دالا على السبب أو دالا على الغاية. وتتسع كلما تركب الكلام بما يجيز احتمالين نحويين، ويجيز بالتالى افتراضين دلاليين، ومن هنا تنبت بذرة التأويل.

ومع الانفجار المجازى الذى أسمى يسرد القصيدة الجديدة، لأنه جنين الشعرية المفارقة، تفتحلت الأعراف فى تداول اللغة، وانفجر اللحام بين قواعد النظم وتجليات لغة النص، فانفسحت الشقة بين الدلالة والتأويل، وانفطرت العقد

# أسئلة الشعراء ونداء الهوامش

محمد لطفى اليوسفى\*

قديمه وماضييه. والثابت أن عدم التفطن إلى حجم تلك التصدعات هو الذى وضع الخطاب النقدي المعاصر فى حضرة مستحيله، وأدى إلى بروز خطابات إيديولوجية حرص أصحابها على الانتصار لنمط من الكتابة (قصيدة التفعيلة/ القصيدة العمودية/ قصيدة النثر... إلخ)، وبرز خطابات إقليمية عمد أصحابها إلى تفخيم نصوص محلية وتمجيدها وإعلائها والتكتم على لحظات وهنها، دون أن يقع التفطن إلى ما فى كل ذلك من تحايل ومغالطة وانتصار للذات العاجزة. تبعا لذلك، عجز النقد عن الإسهام فى تجديد أسئلة الثقافة العربية واكتفى، فى أغلب الأحيان، بتكرس الأسئلة والمفاهيم البيانية القديمة التى تسند إلى النقد دورا جزئيا طفيليا؛ إذ تعده فعل «تمييز لجيد الأدب من رديئه».

والحال أن تأصيل النقد مشروط بامحائه وزواله من جهة كونه سلطة متعالية تمتلك الحقيقة، لاسترداده من جهة كونه ضريبا من الكتابة لا تكتفى بشرح النص أو تقييمه

نمة فى الثقافة العربية اليوم نوع من الوعي الجديد أخذ فى التشكل والبروز، مداره التسليم بأن الثقافة العربية هى من الثقافات التى شهدت من التشويه والتدجين والاحتواء ما جعلها عاجزة عن الإسهام فى صياغة أسئلة الراهن الثقافى الكونى والانخراط فيه؛ ذلك أن قيمها الجمالية لا تزال محجبة فى صميم النتاج الإبداعى العربى القديم والمعاصر، متكتمة على نفسها فى أقاصيه وأصقاعه. ولا سبيل إلى تمثل تلك القيم والإحاطة بحجمها ومداه إلا بالوقوف على ما انبنى عليه تاريخ الإبداع العربى من تصدعات وانقطاعات؛ لأن تلك التصدعات هى التى جعلت العلاقة بين التراث الرسمى وهوامشه المقموعة معطلة فى ذواتنا ونصوصنا، وهى التى أدت إلى نوع من التعطيل أكثر عنفا وأشد مضاء فى ما يتعلق بالعلاقة السرية التى ما فتئ النص المعاصر يقيمها مع

\* أستاذ الأدب والنقد - قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة اليرموك.

محاولات بنيت في القلق والحيرة والسفر في مجهول هو النص الشعري الغربي. وهي نتاج ذهنية تؤمن بهادية الدال، وتعتبر اللغة موضع إعلان الوجود عن نفسه. لذلك، تختفي باللغة والنص. ولكن تلك المفاهيم، حالما تصل إلينا، تتحول إلى عامل اطمئنان، ويتحول القلق والمغامرة في النصوص إلى تطبيقات مدرسية خطيرة، تكبل الفكر وتزرع الظلام.

يعني هذا أن أغلب ما يروج حولنا من تطبيقات واستساح إنما يومه بأنه منخرط في حدث التحول والتغيير، ويومهم أيضا أنه جزء من خطاب الحداثة. والحال أنه مجرد مواقف سلفية مسترة متكئة. فالسلفية الفكرية ليست موقفا معلنا بل هي رؤية تمتلك مقدرة فائقة على الزيغ والمخاطلة. لذلك، غيرت السلفية الجديدة العائدة من طرحها، وتخصصت خلف مفاهيم مقطعة من المدارس الغربية، رفعتها كشعارات راجمة، وتزيت - في السر - بأكثر من قناع. إنها لم تعد تختفي من عصف اللحظة التاريخية بما أنجزه السلف وتكتفي بترديده، بل إنها صارت الآن تحاول أن تندس في صميم خطاب الحداثة ذاته. لذلك، نراها تقطع من المناهج والنظريات الغربية ما به تضمن فعل التستر والزيغ والاستمرار، في حين أن التعامل مع تلك المناهج والنظريات مسألة في غاية الدقة؛ إذ لا يمكن لمستخدمها أن يقي نفسه من المغالطة ومكرها إلا متى كان تعامله معها تعاملًا خاصًا، هدفه الوقوع على قواها المحركة قصد الاغتناء بها وعدم الاكتفاء بترديدها وتطبيقها قهرا واغتصابا، عنوة واستبدادا. لأن الاغتناء يعني التمثيل، والتمثيل يتضمن - بدوره - إمكان الشروع في ابتناء القوى الذاتية.

هذا ما جعل جمال الدين بن شيع، مثلا، يعلن في نبذة طافحة بالشجن:

إنني أشعر بالمرارة لكون الطلبة والنقاد العرب يظنون أن التجديد مرتبط بالاطلاع على آخر الموضوعات الفكرية النقدية. ومن ثم ولعهم بترويج المصطلحات الغربية.<sup>(١)</sup>

وتفسيره بل تتعدى الشرح والتأويل إلى الإحاطة بأسئلة الشعر من جهة كونها مستقرا في رحابه تلتقي جميع أسئلة الراهن الثقافي العربي.

لكن الناظر في المشهد النقدي سرعان ما يدرك أن النقد كثيرا ما يتستر على وهنه باستدعاء حشد من المفاهيم المنتزعة قهرا من مدارس ومناهج مستحدثة في الثقافة الغربية؛ فتتحول تلك المفاهيم إلى كلمات راجمة يكون الغرض منها إيهام الذات بأنها تسير على درب الحداثة. ولكنها تظل تشبيرا، على نحو خفي، إلى أن الخطاب النقدي العربي لا يفتدي بما أنجز من تصورات ويطور نفسه مستمينا بما صح منها وثبت بعد زوال الحماس الذي رافق اللهج بتلك التصورات، بل ينهر بها ويتلفها ليومهم نفسه والقارئ من ورائه بأن حركة التأسيس على أشدها في الثقافة العربية المعاصرة.

فلقد ظل الخطاب النقدي العربي المعاصر يومه بأنه هو الذي صاغ أسئلته. والحال أن السائد في هذا النقد أمر في غاية الخطورة مفسده أن الذات (النص الإبداعي) تكون موضوع سؤال، لكن الذي صاغ السؤال إما أن يكون السلف العربي القديم أو الآخر الغربي. ذلك أن القراءة إنما تتم، بطريقة واعية أو لا واعية، في ضوء منحازات السلف (نظريتهم في الشعرية)، فينفى النص المقروء بحاجات ذلك السلف القابع في الظل من ذاتنا ويفتكتنا من لحظة شروعتنا في ممارسة فعل القراءة. أو تتم، بطريقة واعية هذه المرة، في ضوء المناهج الغربية لتكرس الإيهام بحداثة وهمية مستنسخة. وبذلك، يفي النص المقروء بحاجات الآخر الغربي، وتكون الذات مغيبة مقصاة. إنها توهم بأنها تستمد حركيتها من صميمها. والحال أنها إنما تستمد حركيتها من الآخر (السلف القابع في العتمة من ذاتنا، الآخر الغربي)

طبعي، بعد ذلك، أن تصبح القراءة عبارة عن متاهة تضع الذات في حضرة مستحيلها وتعمق مأزقها؛ إذ لا يقع التفتن إلى ما في الاقتفاء من إقصاء للذات وما في الاستساح من تحايل على الذات والنص والمنحلة التاريخية. ولا يقع التفتن أيضا، إلى أن تلك المناهج المستدعاة إنما هي

إنها المفارقة، إذن.

وللمفارقة بيننا تاريخ ومدى، ولها أيضا سلطان هو الذي يجعلنا نعتقد أن قراءتنا للنصوص تكشف عن أدبيتها ومنابتها من جهة كونها فعل وجود، في حين أننا كثيرا ما نمارس قراءة تحجب أكثر مما تكشف؛ لأنها قراءة وظيفية تدعى الحداثة والابتداء في حين تكرر القدماء والاتباع؛ فتحرص على احتواء النصوص وتذجينها وتحويلها عن مقاديرها. لذلك، تظل النصوص الإبداعية التي كرس، قديما وحديثا، فعل الخروج نحو المخالف والمغاير والجديد، غريبة بيننا تنتظر الكشف. ولذلك أيضا، ظل مسار الحداثة الشعرية في الثقافة العربية يوهم بأنه مجرد استنساخ للحداثة الغربية التي انبثت على فكرة التخطي والتجاوز وحتمية التطور والسبق. فلقد تشكل خطاب الحداثة الشعرية في الثقافة العربية مأخوذا بضرورة الانقطاع عن القديم العربي، والتغاير معه، دون أن يتمثل ما طال ذلك القديم من تشويه وتذجين واحتواء قام به المنظرون العرب القدامى أنفسهم لحظة قراءتهم للنصوص الإبداعية.

لم يقع التفتن، لحظة صياغة شعار التجاوز والهدم، إلى حجم المسافة الفاصلة بين النص الإبداعي القديم والقراءة المرافقة له؛ أي قراءة القدامى لذلك النص. لم يقع التفتن إلى أن تلك القراءة كانت قراءة وظيفية إيديولوجية يحركها حرص مضمهر مسكوت عنه على احتواء النصوص وتذجينها والحد من اندفاعاتها وهديرها، قصد لجم المتوحش فيها وترويضها وتحويلها عن مقاديرها، بتغيب ما من متخيلنا يعلن عن نفسه فيها. لذلك، تحركت هذه القراءة بين حدى الاحتواء والإقصاء؛ احتواء النصوص التي صارت، تحت مفعولات التذجين والترويض، أليفة، وهي تشغل من ترائنا مركزه الرسمي (نصوص امرئ القيس والمتنبى والمعري... وغيرهم) وإقصاء النصوص التي استعصى عليهم فعل احتوائها (ألف ليلة وليلة)، النص الصوفى، النص الإباحى... إلخ)؛ لأنها الموضوع الذي ينكشف فيه ما من متخيلنا يظل متوحشا لا يقبل الترويض والتذجين. ولأنها الموضوع الذي تنكشف فيه الذات بكل أبعادها: بنزواتها وأهوائها، برغائبها وميلها العانى للوقوف ضد كل المنوعات

والمحرمات والمتعاليات. بإيجاز؛ لم يقع التفتن إلى أن قراءة القدامى قد شوهت النصوص ودجنتها وغيبت ما من متخيلها ظل مترحشا بكرا.

نبتا لذلك، تشكل خطاب الحداثة الشعرية مأخوذا - إلى حد الهوس - بفكرة المحو والابتداء. جاء التحديث الرومانتيكى فأعلن الخروج على النمط الإحيائي وعلى الشعر القديم الذي يتكى عليه جماعة الإحياء، وحرص على إنجاز فعل الابتداء. يقول الشايبى معبرا عن القانون الذى أدار رؤية التحديث الرومانتيكى:

لقد أصبحنا نتطلب أدبا قويا عميقا يوافق مشاربنا ويناسب أذواقنا فى حياتنا الحاضرة... وهذا ما لا نجد فى الأدب العربى ولا نظفر به لأنه لم يخلق لنا نحن أبناء هذه القرون بل خلق لقلوب أخرستها سكين الموت.

ثم يجزم بأن الخيال العربى الذى أنتج الشعر القديم: «أجذب كالحصارى التى نما فيها وتدرج»<sup>(٢)</sup>.

ثم جاءت قصيدة التفعيلية مسكونة بالهاجس نفسه، وتحركت داخل حدى الثنائية ذاتها، ألغت التحديث الرومانتيكى وأعلنت الابتداء. فلقد انطلق أصحابها من قناعة مضمرة عبر عنها أدونيس قائلا:

لا تنشأ الحداثة مصالحة بل تنشأ هجوما. تنشأ إذن فى خرق جذرى وشامل لما هو سائد<sup>(٣)</sup>.

داخل هذه الرحاب ذاتها، افتتحت قصيدة النثر مجراها محملة، هى الأخرى، بالأهواء نفسها، حريصة على التخلص مما تعتبره قديمها (قصيدة التفعيلية). يعلن فاضل العزاوى، معبرا عن رؤية جماعة قصيدة النثر:

القصيدة الجديدة هى التى تخلق قوانينها الخاصة بها حيث لا توجد قوانين مقررة سلفا إطلاقا<sup>(٤)</sup>.

هذا هو المشهد الشعري، إذن.

تاريخ ملئء بالجراحات والتصدعات. كل حركة تنشأ  
التخلص مما تعتبره قديمها، وتهفو إلى محوه كى تشرع فى  
الابتداء. تاريخ طافح بالسجال والرغبات والأهواء.

\*

والثابت أن هذا التماثل الظاهر بين الحدائث الشعرية  
الفردية والحدائث الشعرية فى الثقافة العربية سيؤدى إلى بروز  
نوع من الوعى الشقى يحول دون الشروع فى مساءلة خطاب  
الحدائث لأطروحاته ومنجزاته. والثابت أيضا أن الاندفاع الذى  
شهدته قصيدة النثر، مشرقا ومغربا، مستزيد الوعى شقاء  
وتجمل عملية المساءلة تكف عن كونها قراءة للنصوص  
واستكشافا لما طال حدث الكتابة من تحولات وتغييرات،  
وتصبح محض مراجعة متوترة تحكمها الأهواء وتديرها  
الرغبات؛ مراجعة تتخذ أكثر من مظهر وتزيا فى السر بأكثر  
من قناع. فترد فى شكل تبرؤ من محزات حركة التحديث  
الشعري يقوم به شعراء الحدائث أنفسهم، تبرؤ يصل إلى حد  
اعتبار الحدائث فعل تدمير طال الشعر العربى فى العمق. يقول  
محمود درويش:

إن تجربة الحدائث قد دمرتنا جميعا فأصبحت  
القصيدة العربية قصيدة واحدة تألب على  
كتابتها آلاف الشعراء<sup>(٥)</sup>.

ثم يجزم معلنا: «نحن محتاجون إلى العودة إلى  
الأصالة»<sup>(٦)</sup>.

تتحول هذه المراجعة، أحيانا أخرى، إلى موقف يلح،  
فى نبرة طافحة بالنوح على الذات والشذو على الشقافة  
العربية، على تراجع الشعر وثلاثيه وتوابعه عميقا فى عثمة  
الأفول. يقول أدونيس فى بيان الحدائث: «ليست الحدائث  
وحدها ليست موجودة فى الحياة العربية وإنما الشعر نفسه هو  
كذلك غير موجود»<sup>(٧)</sup>. وهذا ما يذهب إليه الخطاب النقدي  
أيضا. يقول خليل النعيمي مثلا: «كما صنعنا الفن الشعري  
قديما حين كنا بحاجة إليه، فحين فى سبيل تشييعه الآن  
ويأتى موته دليلا على نمونا»<sup>(٨)</sup>.

لكن الإلحاح على أن حدث الكتابة الشعرية فى الثقافة  
العربية يحيا اليوم أعنى مآزقه، إنما يتم وبأخذ حجمه ومداه  
دون أن يقع التفتن إلى أن المآزق يؤهم فى الظاهر بأنه مآزق  
الشعر، فى حين أنه يطل الكتابة بمختلف أجناسها؛ إنه  
ضارب بجذوره عميقا فى بنية الثقافة العربية المعاصرة.

إن الحديث عن المآزق وتفخيمه على هذا النحو إنما  
يتم دون وعى بأن العلاقة التى ما فتأت تتعقد بين النص  
الإبداعى المعاصر والخطاب النقدي المرافق له ليست علاقة  
تعاضد، بل علاقة تعارض يصل أحيانا إلى حد التناوب. فلقد  
ظل الشاعر والناقد يتأدان، منذ العشرينيات، بضرورة تخطي  
القديم وهدمه وتجاوز، وظل الخطابان النقدي والتنظيرى  
يكرسان هذه المغالطة إلى اليوم، فيما ظلت النصوص  
الإبداعية تفتتح مجراها منشدة إلى قديمها وماضيتها تنشأ  
الاعتداء به، وتهفو - فى الآن نفسه - إلى التغاير معه. لكن  
هذه العلاقة السرية التى ما فتئت تنشأ بين النصين، القديم  
والمعاصر، ظلت فى عداد اللامفكر فيه، وظل النص الإبداعى  
القديم يحيا بيننا غريبا؛ إنه يحضر بيننا فننظر فيه بعيون  
السلف، دون أن تمثل خطورة العتبة الممتدة فى «المابين»،  
مابين التراث الرسمى ونداء هوامشه المقموعة.

لذلك، كثيرا ما تحول النظر فى التراث إلى نوع من  
الإلحاح الخطير، إلحاح للذات بالسلف، واستبطان لموقفهم  
من الكلمة واللغة والتاريخ. ولذلك أيضا، كثيرا ما يبيد  
التطابق الاختلاف وتطبق الوحدة على التعدد، ويصبح حضور  
النصوص القديمة بيننا عامل تغريب واغتراب؛ لأن العلاقة  
بمنجزات السلف تصبح، فى هذه الحال، ضربا من المسابرة  
والاقتفاء لا نوعا من الاستكشاف وإعادة البناء؛ تصبح نوعا  
من الحلول فى القديم العربى بدل أن تتحول إلى حدث  
تمثل وفعل مغايرة مع ذلك القديم عن طريق استيعابه فى  
اختلافه وتعدده. والحال أن الإحاطة بذلك التعدد والاختلاف  
هى، وحدها، التى يمكن أن تضعنا على درب التغاير مع  
السلف، وذلك طرح أسئلة جديدة تمكننا من مواجهة  
التحدى العاتى الذى تمثله السلفية الفكرية بما تدعو إليه من  
تطابق مع القديم العربى، دون أن تحيط بذلك القديم فى  
اختلافه وتعدده.



القدامى لذلك النص؛ لأن تلك القراءة التي مازال أنصار القدم يكرسونها إلى اليوم (أو يستبدلون بها تطبيقات مدرسية فجة للمناهج الغربية) لم تكن بريئة إطلاقاً (أتى للقراءة أن تكون بريئة!!). إنها توهم بأن مدارها ومحصل أمرها إنما هو الكشف عن أدبية النص، فيما هي ظلت تشكل حريصة على تدجين النصوص وترويضها واحتوائها، ولجم المتوحش فيها أو حجبه وتغييبه وإقصائه.

ولما كان النص الإبداعي هو الموضوع الذي تنكشف فيه الذات بكل أبعادها، بنزواتها وأهوائها، برغائيبها ونزقها، بحيلها الجارف للوقوف ضد كل المنوعات والمحرمات وهدم المطلقات والمتعاليات فإن ترويضها يتضمن، بالضرورة، ترويضاً مماثلاً للذات وتدجيناً للجسد.

والشابت أن هذا الانشغال باحتواء النص الإبداعي وترويضه، وهو ما يرد مقترناً - في النظرية العربية القديمة - بالحرص على ترويض الجسد وتقنين الحب، إنما يكشف عن وعي مماثل بأن الحب والشعر هما الموضوع الذي يوضع فيه الكائن قدام حقيقته المفجعة؛ أي هشاشته، وهما ميدان المواجهة؛ مواجهة رعب الوجود (أي مواجهة الكائن لهشاشته).

إن الحب في التخيل العربي كما يعلن عن نفسه في النص الإبداعي، قديمه وحديثه، سواء كان في شكل تغن بالجسد ومفاته أو تلهف على الانغماس في اللذة، أو في شكل دعارة ونزق وإباحية، ليس مجرد علاقة تنشأ بين شخصين/ جسدين، بل هو تجربة وجودية بالأساس.

إنه تجربة تضع الفرد في محاذاة الموت وإزاء العدم. وهو، من جهة كونه تجربة (لكل تجربة مذاق المحنة)، إنما يدرك بالحوال لا بالمقال؛ لأنه انفعال يداخل الكيان وفوضى تطل الذات على نحو، بموجبه، تصبح السعادة التي تنتج عنه مقترنة بالعذاب والوجع والضنى.

هذه السعادة المعذبة المضنية المؤلمة التي ترافق الحب وتنشأ عنه هي التي تفتحه من الداخل على الموت، وتخطيه بهالة لها جاذبية الموت وسحره، ولها أيضاً فتنة وإغراؤه؛ ذلك

والثابت أيضاً أن هذا التصور التبسيطي للعلاقة التي ما تفتأ تتم بين اللحظة الحاضرة وتلك التي أمنت في الماضي، بين النص الإبداعي الحسدي وذاك الذي علق من ذاتنا وذاكرتنا بقاعها قد أسهم في وضع الكتابة النقدية والإبداعية في حضرة مآزق عديدة ومكائيد متنوعة؛ فلم يقع التفتن إلى أن تحرير الذات الكاتبة ودفعها على درب التأسيس الحقيقي لا يمكن أن يتم إلا مروراً بتحرير ذاكرتها المحجوزة؛ لأن جراحاتنا - مثل أحزاننا - ليست وليدة اللحظة الحاضرة بل هي آتية من بعيد، وتغريتنا لم تبدأ هنا والآن وإنما رافقت جميع مراحل تشكل متخيلنا الذي ظل هو الآخر مصادراً مغيباً واقعا هناك بعيداً في منطقة اللامفكر فيه.

واضح، إذن، أن هذه الرغبة العاتية في الانعتاق من القديم وسلطانه لم تكن، في الواقع، سوى ضرب من الوقوع في حبال القدم، وتكريساً لسلطانه وامتنالاً لمكره؛ فللقدم مكره، وله أيضاً سلطان هو الذي يجعله قادراً على الاندساس في الرؤى الذي يجاهر بتجاوزها، وتلقف الخطابات التي يحرص على الخروج من دائرة سحرها.

لكن هذه الرغبة التي أوقعت خطاب الحداثة في حبال القدم وشراكه لم تكن مجرد موقف ينتصر للحداثة على القدم، بل كانت تحمل في ما تخفي منها تسليماً مضمراً مسكوتاً عنه بأن جميع محاولات التخلص من القديم العربي والإفلات من سلطانه متعلق لا يطاق وغاية لا تدرك. ذلك أن القديم يظل دائم الحضور في اللحظة الحاضرة، لا سيما أن الماضي (النص القديم) لا يمضي نهائياً. أما الحاضر (النص الحديث) فإنه لا يحضر بالكل إطلاقاً. بل يحضر معه - في تلاوته وأصقاعه - يحضر الماضي ويفعل، في السر، فعله. وهذا يعني أن اللحظات جميعها: الماضي/ الحاضر/ وما سيأتي، لا تتعاضد فحسب، بل تتعاصر هنا والآن؛ أي في ذاتنا ونصوصنا.

\*

من هنا ندرك، إذن، أن الذي لا يمكن أن يستمر، وعلينا أن نمضي في خلخلته والانعقاد من سلطانه وقيوده، ليس النص الإبداعي القديم، وإنما هو كيفية قراءة العرب

معنى الخروج من عالم إلى عالم؛ من عالم الإنسان إلى عالم الجان، أى من الإنسان الأليف المتعارف إلى المتوحش المجهول الخفيف.

من هنا، ندرك أن للحب والشعر (الكتابة) فى التخيل العربى مبنياً واحداً. فلقد ألح العرب فى أكثر من موضع<sup>(١٣)</sup> - وهذا يجب أن يقرأ فى معناه الرمزى أيضاً - على أن الشاعر إنما يستمد رؤاه من السماء ومن الشياطين. وذهبوا إلى حد القول بأن لكل شاعر شيطاناً هو طريقه إلى الشعر<sup>(١٤)</sup>، حتى لكان الشعر هو نداء المتوحش فى الذات؛ أى نداء ما من الذات لا يقبل الترويض والتدجين والاحتواء. إنه نداء الحرية، أو هو ما يتردد فى أغوار الذات وأصقاعها من حنين إلى عالم لا إكراه فيه، وليس فيه ممنوعات ومحرمات؛ عالم غواية وغبطة ولذة؛ عالم يتناقض مع متطلبات المدينة والاجتماع؛ لأنه يقوم على الخروج الدائم من الأليف إلى المتوحش ومن النظام إلى الفوضى.

ولما كان الحب يخرج بصاحبه - حامله - من عالم الإنسان إلى عالم الجان، والشعر تلهمه الشياطين والجان، فمعنى ذلك أن الحب والشعر صنوان، بكل منهما ضرب من الخروج، خروج من الأليف إلى المتوحش، ومن النظام إلى الفوضى. إن الحب يترجم رغبة الكائن فى البقاء والاستمرار لأنه، كما أوضحنا، عناد الحياة قدام الموت. أما الشعر فإنه يصدر عن الرغبة ذاتها، رغبة الكائن فى الاستمرار والبقاء واحتمائه بالكلمات؛ لأن لا وجود للكائن خارج ما تسمح به الكلمات.

فى الحب يحتمى الكائن من انفصاله وبرد عزله بالآخر، بالصنو، بالشبيه، بالحبيب.

وفى الشعر يلجأ الكائن إلى الكلمات، وتبدأ المواجهة حادة، غاتية عنيفة.

\*

الكتابة والعدم: ندان مربعان يقفان وجها لوجه؛ ندان مربعان يقابلان ويحتمان فى صراع لا ينتهى.

\*

أن الحب تجربة تتحرك فى فضاء الفاجعة، بل إن الإحساس العاتى بالمحنة، محنة الوجود، هو المفجر الأساسى لهذه التجربة.

إنه هوى جارف وانفعال لنجوح. لذلك، يرد مقترنا بالعنف وبالقتل وبالتحدى الذى يعضى بصاحبه حتى حتفه. بل إنه الفضاء الذى يوضع فيه الكائن قدام حقيقته؛ هشاشته. ويمثل فى حضرتها لحظة شروعه فى ممارسة الحب. لذلك يصبح الجنس أيضاً ضرباً من المواجهة، مواجهة الكائن لحقيقته أى هشاشته. لأن الجنس «هو ميدان العنف، ميدان الخرق والانتهاك»<sup>(١٥)</sup>. إنه، بمعنى آخر، عناد الحياة فى مواجهة الموت، وهو «تأكيد للحياة حتى الموت»<sup>(١٦)</sup>.

معنى هذا، إذن، أن الحب إيمان بالموت وإقرار بسلطان العدم. ولكنه ضرب من المواجهة العبيدة العاتية التى لا تهدأ ولا تكل، مواجهة الكائن للعدم؛ لأنه إنما ينتج عن وعى الكائن بعزله وانفصاله. إنه، كما قلنا، هوى جارف يمكن أن يخرج بالذات من دائرة العقل، فتتوغل فى رحاب التيه والجنون.

\*

عن هذا الوعى صدر العرب القدامى فكثرت الحديث فى مؤلفاتهم عن الشعراء المحبين الذين عصفت الحب بعقولهم فتوغلوا فى ليل الجنون. يكفى هنا أن نعود إلى كتاب (طوق الحمامة) لابن حزم أو كتاب (مصارع العشاق) للشیخ أحمد السراج القارئ، حتى نجد أن الحب يرد مقترنا بالعذاب والوجع، بالضنى والنوح، بالفرقة والفقد، بل إنه يرد مقترنا بالجنون والموت، وترد شخصيات المحسن والعشاق هشّة مرهفة إلى حد التلاشى، واقفة على الشفا الخطير شفا الجنون والموت<sup>(١٧)</sup>.

هكذا يصبح الحب خطراً على أمن المجموعة. إنه نوع من الخروج الخطير، خروج من العقل إلى الجنون، من النظام إلى الفوضى، من المدجن إلى المتوحش. يقرأ فى (مصارع العشاق) أن قيساً بعد أن جن، تحت تأثير الحب، صار يعاشر الوحش فى الفلاة - وعلمنا أن يقرأ الحبر فى معناه الرمزى<sup>(١٨)</sup>، لاسيما أن الجنون فى (لسان العرب) يتضمن

تنظيراتهم الفلسفية والنقدية والبلاغية. لذلك جاءت قراءاتهم للنصوص وظيفية إيديولوجية يحركها - كما قلنا - حرص مضمهر مسكوت عنه على احتواء النصوص والحد من اندفاعاتها وهديرها قصد ترويضها وتحويلها عن مقاديرها. لذلك ذهبوا إلى أن الكلام الشعري كـ «السحر والغواية»<sup>(١٦)</sup>. إنه، فى نظرهم، بوابة مشرعة على التيه. بل إن الكلمات، حين تسترد فى النص الإبداعى ما كان لها فى البدء: لهبها، يمكن أن تضع الذات على الشفا الخطير، شفا التيه والضلال، لذلك أيضا نجد الجاحظ يفتح كتابه (البيان والتبيين) قائلا: «اللهم نمود بك من فتنة الكلام»<sup>(١٧)</sup>.

والفتنة هى، فى نهاية التحليل، وضع يدرك بالحال لا بالمقال، بل إنها حال يعنى الخروج عما هو معتاد ومألوف، خروج إلى غير ما كانت الذات عليه قبل حدوث مفعول الفتنة. إنه الخروج من عقال الوعى وقبوده؛ أى الخروج من الحضور والتطابق، تطابق الذات مع وعيها أى ما تعتقد أنه صميمها. بإيجاز: إنه الخروج من الهوية نحو ما هو مخالف ومغاير وغريب.

لكن الخروج، هذا الخروج الجارف، هذا الخروج الذى من شأنه أن يضع الذات على درب التمرد على الممنوعات والمتعاليات، ويطلق العنان للأهواء والرغائب والنزوات، هذا الخروج الذى يتحقق فى الكلمات وبواسطتها، هذا الخروج هو - بالضبط - ما يتعارض مع متطلبات المدينة الفاضلة، مدينة العقل الذى يلجم النزوات، ويعقل الأهواء، يحد من جموح الرغائب ويروض الجسد.

طبعى، بعد هذا، أى نتيجة لهذا الوعى، أن تمضى قراءة العرب القدامى فى اتجاهين وتنشد غايتين:

الغاية الأولى: ترويض الجسد والحرص على إقصائه.

ههنا تنتزل جملة من الأحاديث نسبوها إلى الرسول. وهى تلح جميعا على «أن من عشق فظفر فف فمات، مات شهيدا»<sup>(١٨)</sup>. وههنا ينتزل أيضا ما قاله الفارابى حول «أهل المدن الجاهلية واستسلامهم للذة والشهوة والغلبة»<sup>(١٩)</sup>، وما قاله ابن الجوزى فى كتابه (ذم الهوى)<sup>(٢٠)</sup>.

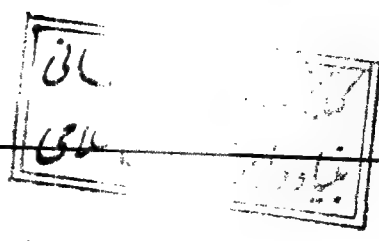
من هنا، نفهم لماذا يحفل الشعر - والإبداع عموما - بإعلان شرعة الخروج على الممنوعات والمحرمات، ولذلك أيضا يرد الشعر، قديما وغدا، محتفيا باللذات محتفلا بالجسد حتى لدى الشعراء المعزبين الذين ادعوا العفة. إن الكتابة فى الحب تصبح ضربا من تعرية جسد المحبوب رجفة... رجفة... وارتعاشا. بل إن الكتابة فى الحب تنفتح على الدنس والنزق والدعارة؛ إذ تصبح فعل مراقبة ومضاجعة فى الآن. لذلك، نجد هذا الطابع النزق، هذا الطابع الذى، بموجبه، يصبح الكلام فى الحب تمجيذا للذة واحتفالا بالجسد، حاضرا فى الشعر الصوفى نفسه؛ إذ كثيرا ما يفتح الابتهاال والإنشاد على أبعاد جنسية؛ فيصبح النص مثل قداس يقام احتفاء باللذة واحتفالا بالجسد والشهوة<sup>(٢١)</sup>.

والثابت أن هذا الطابع النزق، هذا الميل الجارف إلى الانغماس فى اللذة، هو ما يمنح الحب هويته من جهة كونه فعل مواجهة، وهو ما يمنح الشعر - نعنى الإبداع عموما - ماهيته من جهة كونه حدث مجابهة؛ ذلك أن الحب والشعر إنما يمثلان تجربة تضع الكائن فى محاذاة الموت ولزاة العدم، ولكنها تجربة تجعل فكرة الموت أكثر احتمالا، وتزيد الميل الجارف إلى الوقوف فى وجه الممنوعات والمحرمات توهجا، وتفتح الوجود على حرية الكائن فى مواجهة الرعب.

واضح، إذن، من خلال ما تقدم، أن الحب والشعر يتعارضان من جهة الماهية والوظيفة مع الرؤية الدينية للكون.. واضح أن الحب والشعر يتعارضان مع الرؤية الدينية من جهة كونهما تجربة وجودية مدارها الرفض والمواجهة، رفض الكائن لهشاشته - لقدرة - ومواجهته لها فى اللذة وبواسطتها. أما الشعر فإنه مواجهة تتم فى الكلمات والكلمات، لذلك يصبح النص الإبداعى بمثابة الفضاء الذى تستعيد فيه الذات حريتها وتنشغل نفسها من عقال المحرمات والممنوعات، بل إن الكتابة تصبح هداما للمطلقات ودعوة إلى التمرد على المتعاليات.

عن هذا الوعى بخطورة النص الإبداعى من جهة كونه موضعا تسترد فيه الذات حريتها، وعن هذا الوعى بخطورة الحب من جهة كونه هوى لجوجا يطلق العنان للرغبات والنزوات، وعن هذا الوعى صدر العرب القدامى فى مجمل





### الغاية الثانية: تدجين النص واحتواؤه.

أعلنت عملية الاحتواء عن نفسها بطريقة أكثر مكرراً وأشدّ موارد. وجاءت مندسة في كيفيات مقاربتهم للشعر وفي تنظيراتهم حول الشعر والشعرية. فلقد جاءت قراءتهم في شكل حركة تلقى التعدد وتنشد الوحدة؛ حركة اعتصرت الكتابة في غرضين كبيرين: المدح والهجاء. غير أن هذه الفرضية التي ابنتى عليها الشعر العربي ليست مجرد موضوع للقول وليست اختياراً أتاه الشاعر العربي القديم. إنها لحظة من لحظات إعلان موقف العرب من الكلمة والنص والعالم عن نفسه؛ إذ الغرض من الكتابة الشعرية في التصور البياني إنما هو تحقيق النفع بالمعنى الاجتماعي<sup>(٢٤)</sup>، لذلك ألحّ المنظرون القدامى بدءاً بالجاحظ وصولاً إلى حازم القرطاجاني وابن خلدون على أن «الشعر كلام مخيل»<sup>(٢٥)</sup>. والكلام الخيّل، في تصوّرهم، هو الذي «يجمع إلى جودة الإلذاذ جودة الإفهام»<sup>(٢٦)</sup>. يتولد «الإلذاذ» عما يبنى عليه القول من أبعاد جمالية تثير اللذة في ذات المتلقى وتشدّه إلى الكلام شداً. أما «الإفهام» فينتج عن الإفادة التي تحصل للمتلقى. والإفادة إنما يحققها المعنى المراد إيصاله إلى المتلقى قصد استنهاضه لفعل شيء أو استفرازه للنفور منه والعدول عنه. لذلك، تمضي الأقاويل الشعرية في اتجاهاين كبيرين ولا خيار: المدح والهجاء؛ مدح الخصال الممدوحة بتحسينها وتجميلها واستنهاض المتلقى لطلبها، وذم الخصال المذمومة للتفجير منها بتقبيحها في ذهنه.

نتج هذا التقنين الذي يرسم للشعر حدوده وضافه عن رؤية تختصر وظيفة الشعر والكلام إجمالاً في مدى تحقيقه للنفع بالمعنى الاجتماعي؛ إذ الغرض في نظر أصحابها إنما هو «استدفاع المضار واستجلاب المنافع»<sup>(٢٧)</sup>، وأدى إلى موقفين في غاية الخطورة. فلقد عدت الكلمات بمثابة أوعية للمعاني فتم الفصل بين اللفظ والمعنى - الشكل والمضمون - وهذا يعني أن اللفظ كالجسد عارض متبدل فإن. أما المعنى فإنه كالروح خالد لا يتبدل ولا سلطان للبلى عليه. لذلك، جزم القدامى بأن «الشعر تجويد للمعاني»<sup>(٢٨)</sup>. وذهبوا إلى أن الشاعر المبدع ليس ذاك الذي يتدبّر المعنى ويخلقه فيما هو يستدع طريقة في تصريف الكلام لا عهد لغيره بمثلها،

لكن هذا الحرص الصريح على إقصاء الجسد وترويضه يتخذ، في أغلب الأحيان، طريقة في الحضور أكثر تكثفاً وأشدّ تستواً، ويندس في الحكايات والأخبار على نحو موغل في التخفي، يكفي هنا أن نعود إلى كتاب (الأغاني) وننظر في أخبار جميل وأخبار وضاح اليمن، حتى ندرك أن واضع الأخبار لم يكن بريئاً إطلاقاً. إن جميلاً يسحو من الموت لأنه رفض الامتثال لنداء جسده<sup>(٢٩)</sup>، أما وضاح فقد لبى نداء الجسد فمضى إلى حتفه<sup>(٣٠)</sup>.

ههنا أيضاً علينا أن نقرأ الأخبار في معناها الرمزي؛ لأنها إنما ضمنت بقاءها وأمنت استمرارها فاعلة فبنا إلى اليوم بمستواها الرمزي لا بما نفهمه منها على أنه حقيقة وواقع وحدث تاريخي، لاسيما أن هذه الأخبار إنما تلح على أن الخلاص مشروط بإقصاء الجسد، وهذا تصور ينتظم رؤية القدامى ويديرها. ذلك أن إقصاء الجسد إنما يتضمن - بالضرورة - إفراغاً للحب من محتواه من جهة كونه ميدان مواجهة وعنف، ومن جهة كونه تجربة وجودية مصدرها الاستيقاظ الفاجع على رعب الوجود. بل إن إقصاء الجسد يتضمن إقصاء مماثلاً للرغبات والأهواء وتدجيناً للذات. لذلك، توهم الحكايات في هذه الأخبار بأن مدارها مجرد أحداث عارضة حدثت في أزمنة حلت. ولكنها إنما تضعنا، حين نتأملها، في حضرة صراع يجري بين السماء والأرض، بين المتوحش والأليف، بين الرعائب وما يمنعها. لذلك، سنجد هذا المتوحش، هذا المهذور دمه، يتنقم لنفسه ويثأر لها. بل إن الأرض ستثأر لنفسها من السماء في كتب الأخبار والتاريخ والرسائل وفي النصوص المهمشة، حيث تصبح السماء في خدمة الأرض، والمقدس في خدمة اللذة والشهوة والغبطة.

يكفي هنا أن نشير، تمهيداً، إلى أن كتاب الشيخ النفزاوي<sup>(٣١)</sup> يبدأ في شكل ابتهاج للسماء والقداسة والله، ثم يجزّ الجميع: الله والقداسة والسماء لتصبح بمثابة خدم للذة والجسد. فيتحول الابتهاج من إنشاد يرفع تمجيدها للسماء إلى قدّاس يقام في حضرة الأرض والجسد.

شيء؟ ماذا يملك الشاعر غير الكلمات، غير هشاشة الكلمات وبهائتها وعنفها. وهو يندس في كتاب (ألف ليلة وليلة) حيث تختبئ شهرزاد بالكلمات، فينهض السرد ويتشكل بوصفه محاولة لإبادة الموت أو لإرجائه على الأقل.

لا خيار ولا توسط، إذن.

إن استرداد القديم العربي مشروط بتحريره مما طاله من تدجين واحتواء، وهو مشروط أيضا بخلخلة القيم الوهمية التي زرعها القدامى فيه زرعاً، تلك القيم الجمالية التي مازلنا نصدر عنها ونكرسها لحظة قراءتنا لقديمنا وماضينا فيتحول إلى عامل تغريب واغتراب.

إن النص القديم يحيا بيننا غريباً، لذلك يظل يصرخ في ليل وجودنا منتظراً الكشف. ولا خيار هناك. إن مسألة هذا القديم وإعادة ابتناء شعرته يمكن أن تتم انطلاقاً من المنجز الفني للنص المهتمش في الثقافة العربية كما أوضحنا، وابتداء من المنجز الفني للنص الإبداعي المعاصر، لا سيما أن هذا النص ما فتى يتشكل، لا سيما في لحظات قوته واندفاعه، مأخوذاً بقديمه وماضيه لا ينشد محاكاته والاهتداء بمنجزه، بل يهفو إلى استكشافه وإعادة ابتناء شعرته. يكفي هنا أن ننظر مثلاً في نص «رحلة المتنبي إلى مصر»<sup>(٣٠)</sup> حتى يتبين لنا أن علاقة النص المبدع - نص درويش - بعلاقة النص المرجعي - نص المتنبي وتغريته - لا يمكن أن تقرأ على أنها نوع من التضمن. ولا يمكن أن تقرأ من جهة كونها ضرباً من التناص؛ لأن الكتابة هنا تفتح لها مجرى في مناحات أخرى وترتاد أقاليم أخرى. إنها لا تتكى على نص مرجعي وتشرع في التناهي مفتذية بمنجزه الفني، بل تستكشف ذلك القديم وتصفى إلى نداء المتوحش فيه وتعيد ابتناءه على نحو، بموجه، يصبح نص درويش فعل تحرير لنص المتنبي مما طاله من ترويض وتدجين واحتواء قام به المنظرون القدامى أنفسهم لحظة قراءتهم لشعر المتنبي؛ إذ اكتفوا بإبراز قيمته النفعية واعتصروه في غرضي المدح والهجاء.

إن نص درويش يستكشف ما حرص القدامى على لجمه وإقصائه، نغنى علاقة الشعر بمحنة الذات في مواجهة رعب الوجود؛ أي ما يجعل من الشعر نداء المتوحش في

بل هو ذاك الذي يلتقط المعاني المتعارفة الملقاة على قارعة الطريق، أي تلك التي جرت مجرى العادة في المدح والهجاء و«يوجد» أي يخرجها إخراجاً جميلاً جديداً لم يسبق إليه.

هذا ما أقره التصور البياني القديم. غرضان كبيران هما قدر الشعر والشاعر، لا خيار ولا توسط؛ لأن الخروج عنهما خروج من دائرة الشعر. لا خيار؛ إذ على الشاعر أن يعيد إنتاج قيم المجموعة بتجديدها وتجميلها وإخراجها في أحسن صورة من اللفظ. ولا توسط أيضاً، إذ على الشاعر أن يقصي ذاته من نتاجه فيكيف نصه عن كونه الموضع الذي تسترد الذات فيه حريتها وتواجه المنوعات والمحرمات. وإذن، فالشعر ليس هدماً للمتعاليات ووقوفاً في وجه المطلقات، إنه يصبح، في هذه الحال، إعلاء لقيم المجموعة، وتمجيدها للمطلقات.

والشأن أن هذا الجانب المتوحش الذي يجعل من الكتابة فعل وجود لا فعل إعلاء لقيم المجموعة، ويحولها إلى حدث انشقاق وحدث خروج نحو المخالف والغريب والمجهول هو الذي حرص العرب القدامى في زمانهم ذاك على لجمه وتغيبه لحظة قراءتهم للنصوص الإبداعية. وهذا ما يظل في زماننا هذا ماثلاً في عداد اللامفكر فيه والمسكوت عنه. والحال أنه جزء من متخيلنا الذي ظل مصادراً متغيباً، وهو أيضاً جزء من ذاكرتنا المحجوزة، ذاكرتنا المليئة بالشقوق والتصدعات والانقطاعات. إنه قابع في الظل من ذاتنا محتم بأصقاع نصوصنا الإبداعية، لائذ بالنسيان. لذلك، ظل يرسم لنفسه مسارب ودروباً سرية ملتوية، انحدر من الوعي إلى اللاوعي. غاب من السطح واحتمى بالأغوار، ولذلك، ظل يعلن عن نفسه إيماءً ولحماً؛ ظل يعلن عن نفسه منذ جلجامش حيث تنهض الكتابة باعتبارها فعل وجود لتنازل العدم<sup>(٣١)</sup>، وتواصل في الشعر ما قبل الإسلام. يقول طرفة ابن العبد مثلاً:

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي

فدعني أبادرها بما ملكت يدي

ماذا تملك يد الشاعر في وجه المنية المتربصة والعدم الذي يسرى في تفاصيل كل شيء ويبيد قطرة قطرة كل

هكذا، إذن، تضعنا العلاقة السرية التي ما فتئت تتم بين التراث الرسمي وهوامشه المقموعة وتلك التي ما فتئت تتم بين النص المعاصر والنص القديم في حضرة المتوحش في القديم العربي، أي في حضرة ما يجعل من ذلك القديم نفسه حدث انشقاق وفعل وجود. وهكذا تعلن أسئلة الشعر عن نفسها : إن النص القديم يحيا بيننا غريبا كما أوصحنه. إنه في حاجة إلى الاستكشاف بعيدا عن شعارات الهدم والتجاوز والتخطي، أي الشعارات التي وضعت خطاب الحدثة في حضرة أعنى مآزقه. وهكذا يتبين لنا أن الصلة بين النصين، القديم والمعاصر، ليست صلة هدم وقطع وتجاوز بل هي صلة تنام في التغاير والاختلاف.

وهذا يعني أن لا معنى للكتابة الشعرية بأسرها، لا معنى لتعددتها واختلافها، خارج ما انطوى عليه تاريخها من عذابات ومحن وجراحات، من طموحات وترددات ومراجعات، ولا معنى لخطاب الحدثة نفسه خارج فضاء الترددات والمراجعات.

الذات. وما يجعل من الكتابة فعل وجود. لذلك، يصلنا صوت المتنبي في نص درويش وهو يستبدل بالمتنق الذات:

أضلاعي سباح الأرض أو شجر الفضاء وقد تدلى.

هكذا ترسم صورة المتنبي. إنه ليس شاعرا مداحة، نذر شعره لإعلاء قيم المجموعة بل هو موضع تلاقي الأرض - الأرض - بالسماري الأثيري - الفضاء - وتقاطعهما (وهو ما توحى به صورة الشجر الذي يتدلى جذوره في السماء وفروعه على الأرض)، بل إن «الشاعر سماء تتكلم لغة الأرض». لذلك، تصبح الكتابة تمجيدا للبشرى:

نسيت أن خطاي تبسكرك الجهات

وأبجديات الرحيل إلى القصيدة واللهب

وتأثر الأرض لنفسها من السماء، وتصبح الأنا موضع تجلى المطلق، تقضى على تعاليه وتدرجه في الذات وتعلن:

... النهر لا يمشى إلى فلا أراه

والحق لا ينضو الفراش على يدي فلا أراه

## الهوامش:

- (٩) جورج باتاي: انظر الفصل الذي ترجمه محمد علي يوسف، مجلة الكرمل، العدد ٢٦، السنة ١٩٨٧، ص: ١٨١.
- (١٠) نفسه ص: ١٧٧.
- (١١) يلاحظ الناظر في التون القديمة أن صورة العاشق والمحب ترد مرهفة وشخصيته هشة، ينمى عليه في لحظات الحزن وفي لحظات الفرح أيضا، وينمى عليه عند التلاقي ولحظة الفراق حتى وكأنه يحيا على شفا الغياب.
- (١٢) يورد صاحب الأغاني صورة لقيس بن الملوح يجب أن نقرأ في معناها الرمزي أيضا. يقول عن قيس: «فكان يهيم في البرية مع الوحش ولا يأكل إلا ما بنبت في البرية من بقل ...». انظر كتاب الأغاني، نسخة عن طبعة بولاق الأصلية، دار الفكر للجمع، المجلد الأول، الجزء الأول ص: ١٧٥.
- (١٣) هذا التصور حاضر في كتب الأدب، وتاريخ الأدب. نذكر، نمثيلا، رسالة التوابع ومقامات البديع.. إلخ.

- (١) جمال الدين بن شيخ: مجلة الكرمل، العدد ٢٧ السنة ١٩٨٨، ص: ٧٨.
- (٢) أبو القاسم الشابي: اغتيال الشعرى عند العرب، الدار التونسية للنشر، الطبعة الثالثة، تونس ١٩٨٢، ص: ١٠٥.
- (٣) أدونيس (على أحمد سعيد): «بيان الحدثة» ضمن كتاب البيانات، إصدار أسرة الأدباء والكتاب، البحرين ١٩٩٣، ص: ٥٥.
- فاضل العزاوي: نص بعدد داخل الغابة، كنه سنة ١٩٩٢.
- (٤) مجلة الأجلة، العدد ٣٨٩، السنة ١٩٨٧.
- (٥) نفسه.
- (٦) أدونيس: «بيان الحدثة»، ضمن كتاب البيانات المذكور، ص: ٥٧.
- (٨) خليل النعيمي: مجلة دراسات عربية، عدد ٧ السنة ١٩٩٠، ص: ١٠٣.

منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشريعة، تونس ١٩٦٦، ص: ٣٤٤.

(٢٥) تصدر نظرية العرب القدامى في الشعرية عن هذا التصور وتكرسه. توقفتنا عند هذه المسألة طويلاً في كتاب لنا بعنوان: الشعر والشعرية: الفلاسفة والمفكرون العرب ما أنجزوه وما هفوا إليه، الدار العربية للكتاب، تونس ١٩٩٢. وتبيننا حجمها ومداهما في كتاب المشاهات والتلاشي في النقد والشعر، صدر عن دار سراس للنشر، تونس ١٩٩٢. (٢٦) المقالة لابن رشد، انظر رسالته المنشورة ضمن كتاب عبد الرحمن بدوي فن الشعر، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٣، ص: ٢٤٤.

(٢٧) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص: ٣٤٤.

(٢٨) قدامة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق محمد عبد النعم خفاجي، ط ١، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ١٩٧٨، ص: ١٦، ١٧، ١٨. يحلل قدامة هذا التصور ويضبط حدوده. وهو بذلك يطور قول الجاحظ حول إخراج المعنى في أحسن صورة من اللفظ واعتباره المعاني كالجواري والألفاظ كالمعارض. وإلحاحه على أن المعنى يحسن في لفظ، ويقبح في لفظ كالجواري التي تحسن في معرض وتقبح في غيره. والثابت أن هذا التصور سينتظم رؤية العرب القدامى ويحد له صدى في كتابات الجرجاني وابن سينا وابن رشد وحازم القرطاجني، إنه قانون عليه جريان نظريتهم في الشعرية

(٢٩) المعروف أن جلجامش حين أبهى أن إبادة العدم غاية لا تدرك وتحقيق الخلود متعلق لا بهال، أمر بأن تحفر سيرته على الألواح، فجاءت الكتابة لتقف في وجه العدم.

(٣٠) محمود درويش: المجموعة الكاملة، المجلد الثاني، دار العودة، بيروت/ لبنان ١٩٩٤، ص: ١٥٥ وما بعدها.

(١٤) انظر مثلاً المقامة الإبلية، ص: ١٨٤، مقامات بديع الزمان الهمداني، الطبعة السادسة، دار المشرق/ المطبعة الكاثوليكية بيروت لبنان (د.ت)

(١٥) نذكر هنا مثلاً ابتهاجات رابعة العديوة. وجاء في مناقب السيدة المنوية (متصوفة تونسية) أنها تبتهل إلى الله قائلة: «أنا فرس الراكبين أنا سفينة العابرين .. إلخ». وللسفينة التي تركب وللفرس التي تمتطي بعد جنسي واضح. وحين تواصل الابتهاج يطفح إنشادها لذة وتقدي شهوة.

(١٦) ابن طباطبا العلوي: عيار الشعر. شرح وتحقيق: عباس عبد الستار دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان ١٩٨٢، ص: ٢٢.

(١٧) الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٦١، ص: ٥/١

(١٨) الشيخ السراج القاري: مصارع العشاق، دار صادر، بيروت (د.ت) ص: ١٥/١.

(١٩) الفارابي: كتاب آراء المدينة الفاضلة. انظر الفصل ٣٧ «القول في المدن الجاهلية» طبع دار سراس للنشر، سلسلة عناصر، تونس ١٩٩٤. (٢٠) ابن الجوزي: ذم الهوى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٣.

(٢١) راجع أخبار جميل في كتاب الأغاني.

(٢٢) راجع أخبار وضاح اليمن في كتاب الأغاني.

(٢٣) الشيخ النفزاوي: الروض العاطر في نزهة الخاطر، دار رياض الريس، بلندن ١٩٩٠.

(٢٤) يقول حازم القرطاجني، معبرا عن تصور انتظم رؤية العرب وأدارها، إن الغاية من الكلام إنما هي واستجلاب المنافع واستدفاع المضار.





# القصيدة الحرة

## معضلاتها الفنية، وشرعيتها التراثية

### محبي الدين اللاذقاني\*

يخطر لمطلق تلك التسمية في الخمسينيات<sup>(١)</sup> أن نسميته تلك قد أصابت تلك القصيدة في مقتل، وسلبتها الكثير من أسلحة الصراع منذ بداية المعركة التي كان يجري خوضها في ميدان ثقافة عربية تبالغ في وضع الحدود بين الشعر والنثر، وتقارم تقرب الضفاف بينهما، على عكس ما جرى، ويجري، في ثقافات عالمية أخرى.

لقد كانت منطلقات أدونيس، الذي أطلق تلك التسمية على ما كان يكتبه محمد الماغوط وأنسى الحاج وتوفيق صايغ، صحيحة، ومتفقاً عليها في جبهة المجددين، فالوزن تحديد للنظم وليس للشعر. فقد يكون الكلام موزوناً، منظوماً، ولا يكون شعراً، وهذا ما يوافقه عليه عبد القاهر، وحتى أرسطو. ولكن طبيعة المعركة النقدية كان يمكن أن تختلف جذرياً لو لم ترتكب جماعة شعرخطأها الكبير، وتتبنى تلك التسمية. فالاسم، وكما هو واضح، يحمل تناقضاً ظاهرياً يسهل تحويره لحرف النقاش عن الأساسيات،

لم تُظلم حركة فنية في التاريخ كما ظُلمت حركة الشعر الحر التي أنتجت القصيدة الحرة المعروفة ظلماً باسم قصيدة النثر. والظلم الواقع على هذه الحركة لم يأت من خصومها فحسب، إنما جاء معتمداً من أصدقائها ومؤيديها الذين ورطوها - بحسن نية - في مجموعة من المواقف الصعبة، التي سيحتاج الجيل الجديد - من محبي تلك الحركة - إلى وقت طويل لمعالحة ذيولها، ونتائجها السلبية التي لم يفكر بها الذين أطلقوا على القصيدة اسم «قصيدة النثر»، ولا الذين بحثوا لها عن مرجعية عربية وقفزوا فوق مرجعيتها العربية بوصفها وليدًا شرعياً لثراث عربي غني عرف هذه المحاولات المختلفة من الشعرية، والموقعة بالتوازي والتزامن مع القصائد الموزونة منذ العصر الجاهلي.

إن اسم «قصيدة النثر» لم يطنقه الاتباعيون على القصيدة الحرة، إنما جاء بكل أسف عن طريق المجددين، ولم

الحدثانة الشعرية العربية، «المصدر» الأساسى لمعظم من حمل لواء التنظير لتلك الحركة.

وكى نفهم سر الإلحاح على ربط القصيدة الحرة بالأفق الإبداعى الغربى بدلاً من العودة بها إلى حضنها الطبيعى فى التراث العربى، لابد أن نلاحظ أن تنظيرات الحدثانة وأزماتها فى بيروت ارتبطت، بشكل أو بآخر، بالخلفيات الحزبية للمنظرين، ومعظمهم من الحزب القومى السورى الاجتماعى، الذى حاول الهرب من دائرة التراث العربى إلى دائرة تراث شعوب البحر الأبيض المتوسط، منذ أن ابتكر مؤسسه أنطوان سعادة فكرة المدرحية<sup>(٣)</sup>، وحاول أن يجعلها أساساً «للتنظير» لنوع من الثقافة القائمة على مزج الروح بالمادة وعقد قران بين المنطق السببى الغربى بمضمونه الماركسى وروحانية الشرق كما تجلت عند الشعوب المظلة على البحر الأبيض المتوسط التى تشارك أوروبا فى إرث الثقافتين الإغريقية والرومانية.

وقد حاول يوسف الخال، لاحقاً، أن يستبدل بالتراث العربى التراث الغربى، فتحولت دعوة التراث الكونى على يديه، وكما وردت فى بيان الحدثانة الأشهر، إلى كلمة حق أريد بها باطل؛ لأن صاحب الدعوة دخل إلى تراث الغرب من متطلق الاستلاب والانبهار، وكان يجد صورته النموذجية فى المجتمعات الغربية كما قال فى إحدى رسائله المنشورة فى مجلته<sup>(٤)</sup>.

وفى مثل ذلك المناخ لم يكن مستغرباً أن يجرى البحث عن مرجعية غربية للقصيدة الحرة، وأن يتحول الإبداع الغربى إلى مقياس لاختبار جودة الشعر العربى، وهكذا تحول أبوتنام فى كتابات المنظرين الأوائل إلى مالارميه العرب، وصار أبو نواس بودليير العرب<sup>(٥)</sup>، وأصبح الشعر الفرنسى هو الذى يعطى للقصيدة العربية الحرة شرعيتها، وذلك موقف فيه الكثير من الغرابة، إن لم نقل العبث الكامل من المنظور النقدى المحايد.

إن الموقف من التراث، كما أعتقد، هو سبب القطيعة بين أدونيس وحركة «شعر». وقد استسلم ذلك الشاعر فى

فبدلاً من أن يكون سؤال الحركة النقدية العربية: «شعر أو لا شعر»، أصبحت قضيته ذلك الوقت: «وزن أو لا وزن». ومن تلك البدايات المشوشة التى افتقرت إلى بعد النظر، انصرف القوم عن النبع والجوهر، وتاهوا فى المسارب الفرعية والشكليات.

والى جانب الخطأين الأساسيين فى التسمية وقبل مناقشة الشعرية فى ميدان الوزن، وضع حزب الشعر الحر سلاحه السياسى قبل سلاحه الفنى فى معركة لا يمكن كسبها إلا فى رحاب الفن. فأنسى الحاج، على سبيل المثال، يلقي باللوم منذ مقدمة ديوانه الأول على كاهل القارئ الرجعى المتخلف، وهذه نعمة سعتاد سماعها فى معظم ما يصدر من أدبيات ذلك التيار ورواده الذين لم يبدلوا جهداً نقدياً حقيقياً يجعل ذلك اللون من الشعر يفرض نفسه، كما فعل رواد شعر التفعيلة أثناء إدارة معركتهم مع القديم.

يقول أنسى الحاج فى مقدمة (لن):

بين القارئ الرجعى والشاعر الرجعى حلف مصيرى، هناك إنسان عربى غالب يرفض النهضة والتحرر النفسى والفكرى من الاهتراء والمغن، وإنسان عربى يرفض الرجعة والخمول، والتعصب الدينى والعنصرى، ويجد نفسه بين محيطيه غريباً مقاتلاً ضحية الإرهاب، وسيطرة الجهل، وغوغائية النخبة والرعاع على السواء<sup>(٦)</sup>.

ويصلح هذا الكلام المجلجل كخطبة عصماء يعجز عن صياغتها الشاعر الرجعى، لكنه لا يقنع القارئ والمستمع، ولا يسر المذهب الفنى الجديد الذى يحتاج إلى من يدافع عنه بأدلة فنية مقنعة، وإلى من يربطه بجذوره ويوضح سياق تطوره من خلال مسيرة الشعرية العربية. لكن هذا لم يحصل فى مقدمة أنسى الحاج الذى أحال - حين وصل إلى تبرير قصيدة النثر وضرورتها - إلى كتاب الفرنسية سوزان برنار (قصيدة النثر من بودليير إلى أيامنا)، وكان أدونيس قد سبقه إلى تلخيص ذلك فى العدد (١٤) من مجلة «شعر»، وهكذا صار تلخيص ذلك الكتاب، فى مقدمة (لن) وفى مجلة

مهدة تماماً أمامهم لإحداث نقلة جذرية في الأسس الفنية للشعرية العربية وبذورها موجودة منذ مطلع القرن وعلى يد واحد من أكبر شعراء تلك الحقبة، وأعني به مطران الذي يؤثر عنه قوله:

لما رأيت الشعر على ما كان عليه من أقدم الزمان  
لم يتجدد، ولم يتطور، بل تأخذ القديم، ونشئ  
الحديث على طرازه، وإذا أدخلنا إليه إحياءات  
العصر جاءت متكلفة قلت إن التجديد يجب أن  
يشمل الأساس<sup>(٨)</sup>.

وهذه الرغبة في التجديد لم تخب في منتصف القرن  
حين كان الشعر الحر يتحفز لوبئته الكبرى، فهذا هو الناقد  
المعروف محمد غنيمي هلال يطالب بيسارك دون مواربة  
بقفزة من ذلك النوع حين قال:

فإذا توافرت موسيقى الكلام وخلا من التصوير  
فإنه يكون نظاماً لا شعراً، في حين لو توافر روح  
التصوير للنثر، وخلا من الموسيقى التقليدية، فإنه  
يكون قد توافرت فيه روح الشعر. وقد فطن إلى  
هذا التفريق أرسطو في القديم، فقرر أن روح  
الشعر يتمثل في المحاكاة، واعتقد بأن المحاورات  
السقراطية شعرية الطابع، وهي خالية من النظم..  
ثم من ذا الذي يستطيع أن يزعم أن الموسيقى  
مقصورة على الأوزان الموروثة في الشعر  
القديم<sup>(٩)</sup>.

وإذا كان هذا الرأي قد خرج من مصر التي كانت  
تُحسب على التيار المحافظ فنياً آنذاك، فما بالك بما كان  
يجري في سوريا والعراق وفي لبنان الذي كانت ساحته  
الثقافية أسبق الجميع إلى تبنى التيار الجديد!

إن الانفجار الكبير في كتابة القصيدة الحرة لم يكن  
ترقاً ولكنه حاجة، فقد استنفدت شعر التفعيلة أغراضه، ووجد  
شاعره نفسه يرقص في عشرات القيود عوضاً عن القيد الأول  
الذي ثار عليه، وجاءت القصيدة المدورة كخطوة للخروج من  
رتابة التفعيلة التي صارت في العديد من التجارب أنفع من

بداياته لطروحات الحركة، ثم تمرد عليها بعد أن أخذت  
تنظيراتها طابعاً استفزازياً لمشاعره، ومشاعره غيره، ولعل في  
الرسائل المتبادلة بينه وبين يوسف الحلال ما يوضح بعض  
خلفيات ذلك الصراع الخفي الذي حرج به أدونيس إلى  
العلن حين نشر رسائله إلى «الأب الروحي»، وفي واحدة من  
تلك الرسائل يقول أدونيس:

الوجود العربي، والمفسر العربي، يؤسسان  
حقيقتي، لا الشعرية حسب، بل الإنسانية  
كذلك، هذا واقع لا يعبره أي شيء، لا إنكاره  
اضطراباً، ولا رفضه احتباراً. فلا هوية لنا خارج  
الهوية العربية<sup>(٦)</sup>.

وقد أثرت السياسة على الفن في تلك الحقبة، فارتفع  
الصوت السياسي للدفاع عن روح التحديد وخفت الصوت  
الفني الذي يؤسس قواعد الجديد، وسيقت الحركة النقدية  
العربية مغمضة إلى حوارات عقيمة عن الشعر والوزن، دون  
أن يتبرع أحد بنقل الحوار إلى ساحة الإيقاع الشعري الذي  
يبرر أكثر من غيره تلك النقطة التي كانت متوقعة عند من  
يعرفون عمق الأزمة التي أدخلت فيها قصيدة التفعيلة الشعر  
العربي المعاصر، ولعل صرخة بدوي الجبل

أنا أبكي لكل قيد فأنكى

لغريبن تغله الأوزان<sup>(٧)</sup>

كانت في حناجر الجميع في تلك السنوات التي كانت  
حبلتي بجنين شعري مقلق لم يكف عن إثارة الشغب منذ  
ظهوره في ساحة شعرية رفضته قبل أن تقرّ طلب انتسابه.

إن نقص الوعي النقدي، وقلة مراسم الذائقة العربية  
بالإيقاعات، جعلتا معظم الدراسات تنصب على شرعية  
التجديد من خلال الأوزان الموروثة، ولم يظهر آنذاك من  
يعطى للإيقاع الشعري حقه، وقدمه على الوزن، ويربطه بروح  
عصره، وروح الشعر الذي يحتفى بالإيقاعات والصور أكثر  
من احتفائه بالأوزان. ولا أعرف لماذا حاف الرواد الأوائل  
للقصيدة الحرة من ربطها إيقاعياً بجذورها التراث، ومن  
التصريح باختلافهم مع الأسس مع الفروع، فالطريق كانت

أميل إلى الاعتقاد، من خلال فهم مختلف للشعر وإيقاعاته، بأن كل اعتراضات نازك الملائكة تقريباً على أخطاء قصيدة التدوير هي أحكام في صالح القصيدة، فهناك شبه إجماع على رفض الأثر التخديري للقافية، وإجماع أكبر على التخلص من حروف الربط التي هي ظاهرة من ظواهر اللغة الشعرية، وقد مرت معنا أمثلة كثيرة على الأثر السيئ لاستخدام الفعل، خصوصاً المضارع، في الجملة الشعرية، وهكذا لا يبقى من اعتراضات نازك إلا تحويل همزة القطع إلى همزة وصل، ولها حق في هذه الملاحظة وحدها لأن همزة القطع أخف من حيث الإيقاع.

إن سوء النية المبيت، أو عدم الاستلطاف الواضح بين نازك والقصيدة المدورة، دفعها إلى وصفها بالكابوس، حين جاءت لتقديم أمثلة تدعم بها آراءها، اختارت أسوأ النماذج، وهذا عين ما يفعله الذين لا يحبون القصيدة الحرة أيضاً، وقد نقلت نازك الملائكة العصبية القديمة للبيت، وحولتها إلى عصبية جديدة للشطر، فقالت بأنه يجب أن يكون مستقلاً استقلالاً تاماً، فلا يدور. وبهذا تصبح الوحدة في الشعر هي الشطر بدلاً من البيت. وهنا خطورة هذه الآراء التي تريد أن تلغي كل إنجازات الشعر الحديث، وتعيد وضعها في قوالب تشبه القوالب القديمة التي أخذت من الشاعر جهود قرون عدة حتى تخلص منها.

ومع نظريات الشاعرة نازك الملائكة، تجدر الإشارة إلى اجتهاديين لم يحالفهما التوفيق أيضاً، وأولهما للناقد محمد النويهي الذي دعا، في كتاب (قضايا الشعر الجديد)، إلى تبني نظام النبر بدلاً من التفعيلات في الشعر العربي. والثاني للناقد عز الدين إسماعيل، الذي اقترح إدخال نظام التوقيعة بوصفه ترجمة للمصطلح الإنجليزي (Sone). ولم تأبه الحركة الشعرية العربية بهذين الاقتراحين لأنها كانت تعد نفسها لنقلة أكبر تتجاوز لعبة الرقص داخل القيود.

لقد كان الخروج من قصيدة التفعيلة إلى القصيدة المدورة نقلة فرضت نفسها وفرضها ذوق العصر، تماماً كما حدث في العصور العباسية المتأخرة التي شهدت ميلاد الأوزان التي يطلقون عليها أوزان المولدين أو الأوزان المهملة<sup>(١٣)</sup>.

رتابة البحر الخليلي. وخلافاً للكثير من الآراء، ومنها رأى الشاعرة الكبيرة نازك الملائكة، فإنني أرى في القصيدة المدورة أكبر محاولة للاقترب من النثر، وتذكرني جهود أصحاب هذه القصيدة بإنجازات التصوير بين الإنجليز الذين حاولوا التقريب بين النثر والشعر بخلق نمط من الكتابة يحمل أجمل خصائص الطرفين. ومن خلال هذا الفهم، أستطيع أن أحس بشورة نازك الملائكة العارمة، وموقفها الحاد ضد القصيدة المدورة إلى درجة تذهب معها إلى الادعاء بأن التدوير يتمتع امتناعاً تاماً في الشعر الحر<sup>(١٤)</sup>.

إن موقف نازك الملائكة من القصيدة المدورة مرتبط بموقفها من عدد التفعيلات التي يجوز استعمالها في كل شطر من أشطر القصيدة الحديثة، فقد سبق لها أن حددت خمس تفعيلات كحد أقصى لاستيعاب الشطر الشعري حسب زعمها:

فهل يستسيغ سمعه أن يورد أكثر من ست تفعيلات أو ثمان في الشطر الواحد؟ الجواب على هذا، ثبت بالتجربة الطويلة، وقراءة مئات من قصائد الشعراء، أن ذلك غير سائغ ولا مقبول، لأن الغنائية في تفعيلات الشعر تفقد حدتها وتأثيرها حين تتراكم تفعيلات متواصلة لا وقفة عروضية بينها<sup>(١٥)</sup>.

نازك الملائكة في قضية القصيدة المدورة تناقض نفسها، كما سبق أن ناقضت نفسها كثيراً في قضية شعر التفعيلة الذي اغتصبت له اسم «الشعر الحر»، فقد أثنت في البدايات على تلك الظاهرة التي تنسجم مع اللغة وروح العصر، ثم عادت فتنتصلت من موقفها الأول، وبحث عن بعض الأخطاء الشكلية في القصيدة المدورة، ورفضتها؛ لأنها - كما قالت - قلبت همزة القطع في آل التعريف إلى همزة وصل، وتغرى باستعمال الجملة الاسمية، وهي أضعف من الجملة الفعلية، وتساعد على حذف الربط كالواو العاطفة والفاء بالإضافة إلى أثرها الخطير على القافية التي تختفي نهائياً في القصيدة المدورة. وهناك سبب خامس سجلته الناقدة، وهو اضطراب شاعر القصيدة المدورة للبدء بالفعل الأمر الذي يضعف الجملة؛ لأن الابتداء بالفعل يسلبه قوته<sup>(١٦)</sup>.



هذا الموقف الذى يسر تعاليه الواضح بشار خفيف من التواضع، يذكرنا بموقف الشاعر العربى أبى العتاهية، الذى لم يحرص على الظهور بمظهر المتواضع، بل كان يقول دون مداورة: «أنا أكبر من العروض». والحقيقة أن الشعراء الكبار فى كل العصور، الذين كانوا يحسون بالموهبة الاستثنائية، كان لهم هذا الموقف المتعالى على العروض؛ فالشاعر الكبير يخلق الوزن ولا يرثه، وقد كان الشعر قبل أن تأتى تلك العقلية العلمية الصارمة التى حصرت الإيقاعات، وقسمت الأوزان.

إن فكرة حصر الإيقاعات خاطئة من أساسها، وتنطلق من فهم فى غاية التحديد لطبيعة الإيقاع، فهو ليس سواكن ومتحركات معدودة يمكن حسابها فى معادلات ثابتة ذات طابع أبدى، لكنه كالحياة الواسعة بكل ما فيها من صخب، وزخم، وحركة وألوان، وأصوات. لقد جرت محاولات لربط الإيقاع بحذاء الإبل، ومحاولات لربطه بالرقص والغناء، ومحاولات لإقامة علاقة بينه وبين حركات النفس، وكلها محاولات صحيحة من حيث التوجه، لكن لم يقيض لها أن تعطى نتائجها، لأنها أهملت بحث المسألة فى المنظور الشامل، فلم تنظر إلى الإيقاع بوصفه حركة حية متكاملة توحد الشكل، والمضمون، والمكان، والزمن، فى أرقى صورة للتعبير عن الحياة الإنسانية باللغة والأنغام.

إن بذور هذه النظرة الشاملة إلى الإيقاع، موجودة بصورة واضحة فى تراثنا العربى، وهى تبدو كالجذر المعزولة وسط محيط كبير من النظريات الجزئية التى أهملت تكامل الإيقاع. وأظن أن سيادة النظرة الخليلية، بكل ما فيها من تنظيم وصرامة، أعاقَت نمو تلك البذور وتطورها، فالناس بطبعهم ميالون إلى الإطار الجاهز، وحركة التطور الموسيقى الناضجة التى شهدها القرن الثانى الهجرى انتقلت بكل زخمها إلى الأندلس، ثم انتهت إلى ما انتهت إليه أوزان الشعر حين جاء من يضع لها القوالب الجاهزة، ليعزلها عن حركة الحياة الخارجية، ويحولها إلى أصوات محفوظة تتكرر، ولا تتطور، وتباعد تدريجياً عن ذوق العصر.

فلكل عصر أنماطه البلاغية وإيقاعاته، ولقد كانت حركة تطور الإيقاع فى العصر الحديث تسير باتجاه التخلي عن التفعيلات تدريجياً، ولقد كانت القصيدة المدورة خصوصاً تنطلق من موقع القوة، فهى الوحيدة التى يستطيع أصحابها الادعاء بأنها ذات جذور عربية حاضرة، لم يؤثر فيها الشعر الغربى، لأن تأثير أسلوب البلاغة القرآنية فى هذا النوع من الشعر أكبر من أن ينكر.

وبالرغم من العداوات التى خلقتها القصيدة المدورة، لم تقابلها الحياة الثقافية العربية بضراوة الرفض التى قابلت به القصيدة الحرة (قصيدة النثر)، فقد كانت هذه القصيدة، ولا تزال برغم كل ما قدمته فى مجال تطور الصورة، تعامل كما يعامل اللقيط فى مجتمع شديد الحرص على النسب. وسيمضى وقت طويل قبل أن تخفت الأصوات المعارضة لهذا النوع من الشعر، فقد حسمت انزعجة نهائياً لصالح التفعيلة ضد الشعر التقليدى، والمواجهة القادمة التى نعيش بعض فصولها - هذه الأيام - ستكون بين قصيدة الشعر الحر والقصيدة المدورة من جهة، وبين شعر التفعيلة الذى استنفد طاقاته خلال فترة زمنية قصيرة. وقد لا يعمّر طويلاً فى المواجهة مع الشعر الحر المسلح بأخطر أسلحة الشعر وأقواها؛ وأعنى الصورة التى ستقف عندها بعد أن تنتهى من معضلة طغيان الوزن على الإيقاع فى الشعرية العربية، وما لهذا الطغيان من أثر على الموقف من القصيدة الحرة. والحقيقة أنه ما تذكر حكاية الشعر والوزن حتى تحظر على البال مقولة ذائعة لشاعر عالمى هو إليوت الذى كان له موقف طريف من العروض عبر عنه بقوله:

لم أستطع أبداً أن أحفظ أسماء التفعيلات والأوزان، أو أن أقدم فرض الطاعة لقوانين العروض المعتمدة. وليس معنى ذلك أننى أعتبر الدراسة التحليلية للأوزان والأشكال المجردة التى تختلف اختلافاً كبيراً عندما يتناولها الشعراء المختلفون مضیعة للوقت، كل ما فى الأمر أن دراسة تشريح أعضاء الجسم لا يمكن أن تعلمنا كيف نجمل الدجاجة نضجاً<sup>(١٢)</sup>.

يقول أحمد بن عبد ربه في (المقد الفريد):

زعمت الفلاسفة أن النغم فضل بقى من المنطق  
لم يقدر اللسان على استخراجها، فاستخرجته  
الطبيعة بالألحان على الترجيع، لا على التقطيع،  
فلما ظهر عشقته النفس، وحت إليه الروح<sup>(١٥)</sup>.

والغريب أن هذا المنحنى لم يكن له أنصار كثير بالرغم من أن  
الكندى والفارابى وضعوا العديد من المؤلفات الموسيقية،  
فالكندى، كما هو معروف، رائد من رواد دراسات الإيقاع  
الموسيقى، وله في ذلك (صناعة الموسيقى)، و(المدخل إلى  
الموسيقى)، و(رسالة في اللحن والأنغام)، و(المصونات الوترية  
من ذات الوتر الواحد إلى ذات العشرة أوتار)، و(مختصر  
الموسيقى في تأليف النغم وصناعة العود)، وله كتاب خاص  
عن الإيقاع. والمهم، أن هذا التوجه الذى نجد أكثر من إشارة  
إليه عند ابن عبد ربه، ينظر إلى الإيقاع بصورة مختلفة عن  
المنحنى الخليلى، وبشكل، بالرغم من نسبته إلى فلاسفة  
مجهولين، بداية طيبة كان يمكن لها أن تتطور لو تم ذلك  
الربط الطبيعى والواقعى بين إيقاعات الشعر وأنغام الألحان.

ولابد أن نشير، ونحن بصدد الحديث عن الأب  
الروحى للأوزان العربية، إلى أن الثورة على تلك الأوزان  
ليست وليدة عصرنا، فقد كانت فى عصر الفراهيدى وما  
تلاه من قرون، ففة متحررة من الأوهام، لا تنظر إلى عروض  
الخليل إلا على أنه محاولة تنظيمية لبعض الإيقاعات، فقد  
روى عن الزمخشري قوله: «والنظم على وزن مخترع خارج  
على أوزان الخليل، لا يقدح فى كونه شعراً، ولا يخرج عن  
كونه شعراً»<sup>(١٦)</sup>. ونحن هنا أمام نص فى غاية القيمة، لا يرى  
فى عروض الخليل شكلاً ثابتاً، ويعترف ضمناً بوجود أوزان  
خارج تلك الشبكة المعقدة التى أحاطت نفسها بوهم  
الكمال.

إن محاولات الخروج على أوزان الخليل أكثر من أن  
تُحصر، فقد بالغ رزين بن زنديد فى الخروج عليها، حتى  
قبيل له رزين العروضى، وكذلك الحال مع أبى المتاهية،  
الذى أكثر من الخروج على تلك الأوزان، حتى قال عنه ابن  
قتيبة: «كان لسرعته، وسهولة الشعر عليه، ربما قال شعراً

موزوناً يخرج به عن أعاريض الشعر، وأوزان العرب»<sup>(١٧)</sup>.  
ولم تكن محاولات الخروج تقتصر على الوزن، فقد كان  
هناك من يكسر قداسة القافية أيضاً<sup>(١٨)</sup>.

إن الإيقاع علاقة بين الكلمات والحروف، والمفردة،  
وما يجاورها، وحالة نفسية تنشأ عن صوت وتوقع وعن  
علاقات غامضة تثيرها جوانية اللفظ، كما يثيرها النغم، أما  
الوزن فليس أكثر من نمط رتيب لتكرار المتحركات  
والساكن فى نسق محدد الطول.

الوزن ليس إلا إقليماً صغيراً من أقاليم الإيقاع  
الشاسعة، ولو شئنا الدقة أكثر، فلنا أن نقول إن الوزن ليس  
إلا مجرد هيكل، أما الإيقاع فروح تسرى فى النص، وتعتمد  
على النشاط النفسى للمبدع والمتلقى على السواء. الإيقاع  
مرتبط بالتجربة الشعورية بكل خصبها وغناها، أما الوزن  
العروضى فليس إلا قالباً خارجياً نرغ فيه المعانى المختلفة،  
ونستخدمه كما يستخدمه غيرنا بالنسب الهندسية نفسها التى  
يفترض بها أن تتسع لكل الانفعالات. وبما أن هذا الافتراض  
مستحيل، فإن الوزن يتحول، مع الزمن، ومع ازدياد خصوصية  
التجربة، إلى قيد حقيقى يحد من الاندفاع الحر للعواطف  
والانفعالات، ويكبح تدفق المشاعر التى تضيق ذرعاً بالوزن،  
فتتجه إلى عالم الإيقاع الرحب الذى يفتح نوافذ الأفق على  
مداها لاستيعاب حركة التدفق الحر، والاندفاع العام  
للمشاعر والانفعالات. ويعتمد الذين لا يتفقون مع هذا  
الرأى، على الفيلسوف الألمانى هيجل الذى ينفى الدور  
المعطل للقيد الوزنى:

فليس صحيحاً أولاً أن النظم عقبة أمام الاندفاع  
الحر، فالموهبة الفنية الحقيقية تتحرك بوجه عام  
وسط موادها الحسية، كما لو فى جوها  
الطبيعى<sup>(١٩)</sup>.

وليست هى المرة الوحيدة التى يتورط فيها هيجل  
بمثل هذه الأحكام العامة فيما يتعلق بفن الشعر، وتنبع هذه  
الأحكام بالأساس من النظرة التقليدية التى تضع الشر فى  
مواجهة النظم. وقد يكون هيجل مصيباً فيما يتعلق بالنظم،  
لكننا هنا نتحدث عن الشعر، وهو بالتأكيد أوسع من النظم،

السواء. يمكن البحث عن سحر القصيدة الحرة في عنصر قوتها الأساسي المتمثل في طريقة تشكيل الصورة. والحقيقة أن الصورة في الشعر الحر لا يمكن أن تدرس بصورة مستقلة عن الإيقاع، لأن لها علاقتها المباشرة بالقوتين اللتين تحركان الشعر: الخيال والموسيقى. ومهما بالغنا في الفصل بين العنصرين فلا بد أن نلاحظ أن الإيقاع يتأثر بالصورة، ويتغنى بكثافتها، وأن الصورة تفيد من الإيقاع وتسبح بارتياح في محيطه وفضاءاته.

وبما أن هناك من هو مستعد دائماً لعقد مصالحة، وللقيام بدور توفيقى بين الأقطاب المتباعدة، فقد ظهرت الآراء التي تقول بعدم الفصل بين عنصرى الصورة والإيقاع، ويستحسن أن نلاحظ هنا أن الفهم الأساسي للشعر هو الذى يقود إلى هذا الموقف أو ذاك، فلا يمكن لمن يعتبر الشعر غنائياً، إلا أن يقدم عنصر الإيقاع على الصورة، ويستحيل لمن يعتبره صورياً أن يقدم الإيقاع. وأعتقد أن الاعتماد على رأى التوفيقى فى هذه المسألة له مخاطره، لأننا نتحدث عن فنيين يختلفان فى المنشأ: فالموسيقى فن زمانى، والصورة - كفنون الكلام كافة - فن مكاني بحث. وهكذا يستحيل عقلياً أن نقول هذا هو ذاك بتركيب آخر. قد تتشابه الزهور فى اللون وتعطى روائح متقاربة، لكن الفروق تظل قائمة مهما بلغ التشابه، وستظل الفروق قائمة بين الشعر والموسيقى، ولكن بالقرب نفسه الذى نراه بين فصائل الزهور المتشابهة.

إن الآداب الغربية ليست أقل خبرة منا حين يتعلق الأمر بهذه المسألة المعقدة، فقد اعتبر سيمبل دى لويس - ببصيرة ثاقبة - أن فصل الشعر الغنائى عن الموسيقى، كان من أعظم الثورات فى تاريخ الشعر الإنجليزى، وقد قاد ذلك الفصل إلى جرأة باهرة فى الصورة، وفتح الطريق أمام اكتشاف شرايين جديدة للتصوير الشعرى<sup>(٢١)</sup>. ولو كانت الصورة هى الإيقاع لما كانت هناك حاجة إلى هذه الثورة بالأصل. وهكذا يفضل أن نلتزم بفضلها نظرياً مع الإيمان المستمر بدورها الكبير فى تخصيب الإيقاع.

إن القفزة الحقيقية للصورة فى الشعر الحديث جاءت فى الواقع على أيدي الشعراء الرمزيين أولاً، ثم تطورت مع

فقد كان واضحاً - حتى من أيام أرسطو - أن النظم ليس شعراً بالضرورة<sup>(٢٢)</sup>. ولعلنا بهذا التفريق نستطيع أن نوضح بصورة أفضل الفروق بين الإيقاع والوزن، فيظل الوزن مرافقاً للنظم بوحداته الهندسية المنتظمة، ويصبح الإيقاع صفة ملازمة للشعر بكل ما فيه من عمق، وتنوع، ورحابة لا يتسع لها إلا الإيقاع.

إن الإيقاع يقوم على تناسب، والتتابع، وعنصر المفاجأة فى النص الشعرى، أما الوزن فيقوم على التنظيم الجاهز والتكرار، لذا لا نستغرب أن يكون الشاعر الحديث أقدر على إدهاشنا من الشاعر المحافظ، لأنه يجرب الأصوات المختلفة ويعيش حالة الخلق المستمر، بينما لا يأتى لنا الشاعر المحافظ إلا بالأصوات التى نعرفها مسبقاً. فيقتل بهذا الإصرار على الثوب الجاهز كل عناصر الترقب، وتوقع الجديد، فيقتصر عمله على التطريب، ويصبح الشاعر كقارح الطبل الذى يوقظنا على السحور فى رمضان. ويقود الأفراح وليالى السمر بالضربات نفسها التى تهوينا للنفوس الاحتفالى، ثم نخرمنا من متعة المشاركة فى الاحتفال.

الوزن تشكيل واحد له طول محدد، وأتمام محفوظة، أما الإيقاع فمجموعة من التشكيلات المتداخلة التى تتغير بتغير المناخ النفسى، وفى هذا التغير الذى يشور على كل الأطر، سر الخصوصية. فالألفاظ تتناسقها، وطبيعة حروفها، وطريقة تركيبها داخل القصيدة، هى التى تخلق الإيقاع الداخلى الذى يشبه الصدى البعيد، ولا بد أن تكون لذلك الإيقاع خصائص الصدى، فهو يسع من النفس، ويصطدم بالعالم الخارجى، فيعود محملاً بشحنة إضافية تحمل صفاته الأولى بتركيب جديد. ومن هنا، فبإنى أدعو إلى تبنى مصطلح المناغمة Rhythmization أثناء الحديث عن إيقاع الشعر الحر. مع الإيقاع الداخلى نحن أمام طل، وصدى وإيحاء لفظى، تخلقه الكلمات والحروف، وتلعب الصورة دوراً حاسماً فى إبرازه. ولعل ذكر هذه الفروق كان ضرورياً لنذكر أن شاعر القصيدة الحرة خرج على شروط النظم، ولم يخل بروح الشعر التى تظهر فى إيقاعاته وصوره.

ونظراً لأن دراسة الإيقاعات الداخلية لم تكتمل، وهى غير واضحة بالشكل الكافى عند الدارسين والمثقفين على

فالصورة في الشعر الحر التي تبدو سهلة في ظاهرها، وليدة معاناة مضنية وقدرة هندسية غير عادية، ولا يستطيع الشاعر في هذا الاتجاه أن يقدم شيئاً ذا بال إن لم يجمع، إلى جانب الخيال والموهبة والمهارات اللغوية، مهارة أخرى تركيبية شبيهة بمهارة عامل «المونتاج» في الفن السينمائي، الذي يصنع من اللقطات المشتتة فيلماً متماسكاً الأوصال، قادراً على إقناع المشاهد. وترتبط هذه المهارة بالخبرة والتدريب أكثر من ارتباطها بالموهبة.

وبعد هذه الإشارات المتفرقة إلى بعض معضلات القصيدة الحرة ومشكلاتها، وما هي بالقليلة ولا السهلة، لابد أن نطالب بأنصاف تلك القصيدة الحرة، فقصيدة التفعيلة التي أسقطت تسميات المنطق، والمعنى، والتوقيع، والمعاصر، لم تعد تطالب باسم الشعر الحر أيضاً. ومن حيث الترجمة تصب معظم الحجج في صالح التسمية المقترحة، فالمصطلح الفرنسي *vers libre* يعني التحرر من كل قيد، والتسمية الإنجليزية *Free verse* تشير أيضاً إلى التحرر من البحور وغيرها من ضوابط الشعر. والمضحك في الأمر أن الذين وجدوا لهذا الشعر مرجعاً أوروبياً، لم يلتزموا بالأصل الأوروبي الذي يشير دون مواربة إلى إطلاق اسم الشعر الحر على هذا النوع من النصوص.

ولابد من المطالبة أيضاً بإثبات الشرعية التراثية لهذه القصيدة. ونستطيع أن نرى، على ضوء ما قدمناه من كشافات مختصرة، أن شرعية القصيدة الحرة كانت موجودة في التراث الشعري العربي، لكن أحداً لم ينقب عنها وجاء اختيار المصطلح بذلك الشكل الاعتباري ليقطع الطريق عن أية محاولة جادة في إثبات شعرية وشرعية القصيدة الحرة من داخل الجذر الإبداعي للعربية وآدابها.

من السهولة بمكان أن نكتشف أن سجع الكهان الذي حرمه الإسلام، حتى يقطع الطريق على المقارنات بينه وبين الأسلوب القرآني، يصلح كبداية طيبة لتتبع جذور القصيدة الحرة. وبما أننا نناقش قضية فنية لا علاقة لها بالشرعية، فإن بإمكاننا أن نلاحظ أن براعة «التصوير القرآني»، وتداخل إيقاعاته وخصوصيتها، وبساطة أسفار المهدنين، وطريقة القطع

شعراء القصيدة الحرة، فتحت تأثير هذين الاتجاهين ازدادت الصورة تركيزاً، وكثرت ظلالها، والدلولات الإيحائية المحيطة بها، وكانت هذه الوظيفة واضحة في الأذهان، فصلاح لبكى، أحد شعراء ذلك التيار، يقول عن الاختصار: «الاقتصاد في الكلام يومئ إيماءً لطيفاً، ويوحى وحيًا خفيفاً»<sup>(٢٢)</sup>. ومن جراء هذا الاعتقاد بهذا الموقف الفني، كان في ثريات جبران والريحاني وخليل شبيب ومارى عجمي، من الشعر، أضعاف ما في الشعر المنظوم، وكانت الصورة الفنية في منشورهم أكثر نضجاً من الصورة في منظوم غيرهم وأكثر قرباً من القارئ وعوالمه.

إن الصورة هي التي تغني كبرياء القارئ المتوحد، كما يعتقد باشلار<sup>(٢٣)</sup>، وهي الجسر الذي يصل المتلقى بالقصيدة، والجنح الذي يحمله ويرتفع به للالتحام بعوالمها. والصورة في القصيدة الحرة تجريدية أكثر منها حسية، ووظيفتها أن تعيد المتفاعل معها إلى داخل ذاته، وتدفعه إلى التأمل، وهو دور يختلف عن دور الصورة التقليدية، التي تقف عند السطح الخارجي والعالم.

ولا شك أن الاتجاه النقدي العجول الذي يرى في قصيدة الشعر الحر انفلتاً ينقصه التنظيم ويكاد يوافق العقاد على تسميته بـ «الشعر السائب»<sup>(٢٤)</sup> لم ينبه، أو لعله لا يريد أن يعترف بأن وراء القصيدة في الشعر الحر قدرة هندسية، وحين تتضافر هذه القدرة مع الخيال، فلا بد أن يكون محصول الصور كبيراً ووفيراً. وهذا ما يؤكد كثافة الشعرية في تلك القصيدة من الشعر، وكما قال الجاحظ منذ القرن الثاني الهجري: «جنس من التصوير».

إن الشاعر، في قصيدة الشعر الحر، يحمل مصورة سريعة اللقطات، شديدة الحساسية، وهذه المصورة «الكاميرا»، ذات عدستين: واحدة موجهة إلى العالم، والثانية إلى داخل الشاعر، فلا تخرج الصورة منها إلا بعد تلاقي طويل بين الذات والخارج، وبعد تركيب النتائج التي حصلت العدستان في أزمنة مختلفة. ومن هنا، فقد كان شعراء القصيدة الحرة أقدر من غيرهم على استخدام ما يسميه النقد الغربي استعارة ممتدة Expensive Metaphor.



الورق المهذور عبثاً في مناقشة قضية هامشية كان يمكن تجاهلها.

لقد خسرت القصيدة الحرة معركتها الأولى قبل أن تخوضها، بسبب تلك الأجواء المعادية والمشوشة، وكان لابد أن يمر وقت طويل قبل أن يصبح المناخ مهيئاً لرفع الظلم الواقع على تلك القصيدة. ولاشك أن رفع الظلم يحتاج إلى ما هو أكثر من تبديل المصطلح، ومن حسن الحظ، فإن الذائقة العربية قد تطورت بشكل ملحوظ، وصارت مستعدة للدفاع عن الشعر الحقيقي الذي تصفق له الأئمة وليس الأكف، وتستجيب له النفوس أكثر من المنظوم الذي نجح طويلاً في تحريك الرؤوس والقلوب.

ولابد من التأكيد، في ختام هذه الملاحظات، على أن التبشير بالقصيدية الحرة لا يعنى بالضرورة معاداة غيرها، وعدم الاعتراف بالأنماط الأخرى، فالفن بمفهومه الشامل يدعو - بحكم طبيعته نفسها - إلى تخصيص الأشكال الفنية، وتداخل الفنون الأدبية، ويشجع بأفائه المتحررة على التجريب الدائم للوصول إلى نصوص تقترب من مدارج الكمال، وتتسجم مع إيقاعات عصرها، وتستجيب لهموم أهله، وحاجاتهم الروحية، المتجددة، والمفتوحة على فضاءات شاسعة وآفاق لا تحدد.

والمزج والانتقال الفجائي في أسلوبها، من الجذور التي لا يمكن أن ينكرها إلا من يريد، ويصر على، ألا يرى.

وقد كان أمين الريحاني أكثر الناس وعياً بهذه الفروق من جماعة «شعر» التي جاءت بعده نصف قرن، لذا نراه يميز بين الخاطرة الأدبية الخالية من الإيقاع والتصوير و«الشعر المنشور»، ويفتح مع جبران الساب على مصراعيه لإطلاق القصيدة من قيدها الديني الذي كان قد تحول بفعل الموقف السياسي والخداع التاريخي، إلى قيد فني. ولعلنا لا أبالغ إذا قلت إن النهايات الدموية لمسلمة وسجاح، وكل من قلده الأسلوب القرآني، كانت من الإقاع إلى درجة كبيرة، بدليل أنها قطعت الطريق على تجريب أى شكل من أشكال التعبير باستثناء الشعر العمودي والحقالة. وبعد تلك المراحل المبكرة، يمكن تلمس جذور القصيدة الحرة في «طواسين» الحلّاج، وكتابات ابن عربي. و«محاضرات» النفرى و«مواقفه»<sup>(٢٥)</sup> ونفر آخر من المتصوفة.

لقد أهملنا هذه المؤشرات الواضحة كلها، وقفزنا للبحث عن شرعية القصيدة الحرة في التراث الغربي وتحديدًا الفرنسي، ثم جاء ذلك المصطلح المشبوه، فاكتملت أخطاء عدم الثقة بالنفس بأخطاء الاستعجال. ولو كانت هناك دقة في اختيار المصطلح منذ البداية، لثم توفير مئات الأطنان من

## الهوامش:

- (٩) تفصيلات أخرى لهذا الرأي وأمثاله عند نعمات فؤاد في كتاب خصائص الشعر الحديث، ص ٤٥ وما بعدها.
- (١٠) مجلة الآداب ١٩٧٨ عدد خاص بمهرجان المريد، ص ٢٠ إلى ٢٧.
- (١١) نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، ص ١٩٨.
- (١٢) مجلة الآداب، ١٩٧٨ العدد الخاص بمهرجان المريد.
- (١٣) هناك مزيد من التفصيلات عند إبراهيم أنيس في موسيقى الشعر، ص ٢٠٧.
- (١٤) آراء أخرى في الوزن عند إليزابيث دورفي، كتاب الشعر، كيف نفهمه وتذوقه، ص ٤٩ وما بعدها.
- (١٥) أحمد بن عبد ربه، العقد الفرید، ج ٣، ص ١٧٧.

- (١) أدونيس، زمن الشعر، ص ١٦، وكذلك محله شعر صيف ١٩٥٩.
- (٢) أنيس الحاج، لن، ص ٨.
- (٣) تطرق أنطوان سعادة للمدرسية، في نشوء الأتم، ثم واصل تعميقها في المحاضرات العشر وكتاب الصراع الفكري في الأدب السوري.
- (٤) رسالة إلى سلمى الخضراء الجيوس، محنة شعر العدد ١٠، ص ١٣١.
- (٥) أدونيس، زمن الشعر، ص ٤٥.
- (٦) أدونيس، زمن الشعر، ص ٢٨٦.
- (٧) بدوي الجبل، الديوان، ص ١٠٤.
- (٨) مجلة الطريق، العدد ١٤، ص ٣٠.

- (٢١) C.D Lewis, *The Poetic Image*, p. 69.  
 (٢٢) صلاح ليكي، لبنان الشاعر، ص ٢٣٣.  
 (٢٣) جاستون باشلار، جماليات المكان، ص ٢٠.  
 (٢٤) يرميات المقاد، ج ٢، ص ٣٤٤.  
 (٢٥) النصوص الأكثر اقتراباً من القصيدة الحرة يمكن العثور عليها عند  
 النفري في: موقف ما يبدو، موقف حجاب الرؤية، موقف الصنف  
 الجميل، موقف الثوب، وموقف لا تفارق اسمي.

- (١٦) إضافة إلى هذا الرأي المتحرر للزمخشري، هناك آراء مماثلة للإمام  
 الزجاج والكاكي.  
 (١٧) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ٧٦٥.  
 (١٨) نماذج من الخروج على القافية يمكن العثور عليها في كتاب محمد  
 مصطفى هنارة اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني، ص ٥٤٦ -  
 ٥٤٧ - ٥٤٨ - ٥٤٩.  
 (١٩) هيجل، فن الشعر، ج ١، ص ١٧٨.  
 (٢٠) أرسطو، فن الشعر، ص ٦، ترجمة عبد الرحمن بدوي.

## في العدد القادم من «فصول»



### دراسات عن أدونيس:

- |                                  |                     |
|----------------------------------|---------------------|
| * الكتاب: أمس المكان الآن        | كمال أبو ديب        |
| * قراءة فلسفية لـ «الكتاب»       | عادل ضاهر           |
| * أدونيس ومغامرة «الكتاب»        | محمد بنيس           |
| * تحرير المعنى                   | أسيمة درويش         |
| * الكتاب والتأويل                | عبد العزيز بومسهولي |
| * السيرة الشعرية للحاكمية        | رياض العبيد         |
| العربية في كتاب أدونيس           |                     |
| * مقدمة لم تنشر لـ «كتاب» أدونيس | شوقي عبدالأمير      |

## مصادر إنتاج الشعرية

محمد عبد المطلب\*

(١)

من المألوفة، فإنها تحتاج من المتلقى أن يعمل خياله وقدراته الإدراكية لاستحضار واقع يماثلها.

يقول فاروق شوشة في (وقت لافتناص الوقت):

وهج يسطمع من ياقوتة الليل  
ونهر شبق يركض في بركة الحلم  
ووقت صاهل بالرغبات :  
أنت في المرأة ...  
والمرأة في عينيك

هل ثم اختلاف واتفاق ؟ (١)

إن التأمل في هذه الدفقة الشعرية يؤكد أن كل سطر يقدم للمتلقى أفقا دلاليا مخالفا لغيره من الأسطر، فتلك الياقوتة المتوهجة في الليل، تحمل إسقاطا مشحونا بذكريات ملتعبة، وتلك الياقوتة تخالف «النهر الشبق» الراكض في

لاشك أن الخطاب الشعري اليوم يشير كثيرا من الإشكالات التي تطل درجة انتمائه النوعي. وربما كان أكثر هذه الإشكالات إلحاحا، طبيعة الإنتاج الشعري، وهل هو ابن شرعي للتجربة بالمفهوم الذي جاءت به الرومانتيكية، أم أن تحولات الشعرية قد نفرت من هذا المفهوم؟

وما البديل الذي يمكن أن يؤدي مهمة التجربة في تحديد مصدر الإنتاج؟

في تصوري أن الشعرية الحاضرة تنفر فعلا من مصطلح التجربة، لأنها تعيش عملية خلق دائمة، على معنى أن المتلقى يواجه بآفاق متعددة للنص الواحد، ذات مكونات متمايزة. وبرغم أن هذه المكونات قد تكون مألوفة، أو قريبة

\* أستاذ النقد الأدبي، جامعة عين شمس.

«الشطح». وهذا «التأويل» غير قطعي في مستخلصاته الدلالية، لأنه رهن بما يتلوه من تأويلات قد تؤثقه، وقد تزيفه، أى أن النص يعيش حالة انتظار دائمة لانعكاس المستوى العميق للذهن على سطح الصياغة، وهذا المستوى العميق لا يكاد يعترف بمنطق الوعى أو المعقولية، وإنما منطق الوحييد «اللاوعى». يقول حسن فتح الباب فى «الدياج»:

النطع والسياف خلف الباب

والثعلب الفقيه فى الدياج

مهرولا منتصرا للناج

فمن ترى يحذر (الحلاج)

من طعنة الحقيقة النجلاء ؟ (٣)

الملاحظ أن الدفقة مركزة تركيزا شديدا، لكنها برغم هذا التركيز تستحضر طرفين متقابلين تقابلا حادا، الطرف الأول يستوعب واقع القهر والقسوة والظلم، وهو واقع ملازم لظواهر الخداع والنفاق، وكلاهما يؤكد حضوره وفاعليته بنهاية الظاهري، «فالنطع والسياف خلف الباب» و «الفقيه يتقمص الثعلب»، أما الطرف الثانى فيتركز فى مفردة واحدة «الحلاج»، وهى مفردة تحضر إلى الصياغة محملة بتاريخها المأساوى، تأتى مأساويتها من تقبلها فاعلية التدمير الصادرة من الطرف الأول، وهو تقبل - فى حقيقته - يسعى إلى تكوين واقع جديد؛ فالحلاج هنا يستحيل إلى شخصية المسيح فى فداء البشر.

هذا الاحتمال الأول الذى يطرحه النص يمكن أن يتسع لتقبل احتمال ثان يعتمد استدعاء ملفوظ الحلاج ليجسد عالم القهر الممزوج بعالم الخداع، فعندما اقترب الجلاد من الحلاج قال:

نديمى غير منسوب

إلى شئ من الحيف

دعانى ثم حيانى

فعل الضيف بالضيف

فلما دارت الكاس

دعا بالنطع والسياف (٤)

جفاف الحلم، فإذا كانت الياقوتة تحمل عالم الذكرى، فإن النهر يحمل عالم الحاضر الممتلى بالماء لكنه - فى الوقت نفسه - ممتلى بالعطش والجفاف، وكل من الياقوتة والنهر يخالف «الوقت الصاهل» المزدحم بكم هائل من الرغبات التى لا تتروى أبدا، ثم يخالف ما قدمته الأسطر الثلاثة الأولى ما تقدمه الأسطر الأخيرة من فاعلية تقابلية تعمل على مزج الداخل والخارج فى سياق الوعى المزدوج بين الحقيقة «أنت» والوهم «المرأة»، وربما كان ذلك المزج دافعا إلى طرح التساؤل فى السطر الأخير، فهو تساؤل يزيد من حدة المفارقة التقابلية، ويرهن المعنى الكلى فى إطار الاحتمال أو التأجيل، فكيف يمكن حصر هذه الآفاق فى إطار التجربة بمعناها المحدود؟ ذلك أن الآفاق المتبانية تعود وتتلاحم لتكون «حالة» شعرية من طراز خاص، حالة تحتاج إلى مخيلة خلاقة قادرة على إنشاء حالة واقعية توازى الحالة الشعرية حتى تتم عملية التواصل والمشاركة الإبداعية بين طرفى الاتصال: المبدع - المتلقى، وبمعنى آخر: يتحول المتلقى إلى مبدع يوازى المبدع الأول. وأظن أن هذا الإدراك هو ما قصده قدامة بن جعفر عندما قال:

المحسن من الشعراء هو الذى يصف من  
أحوال ما يجده ما يعلم به كل ذى وجد حاضر  
أو دائر أنه يجد أو قد وجد مثله، حتى يكون  
للشاعر فضيلة الشعر (٥).

إن مفهوم التجربة إذا تنافى مع عملية الخلق الدائمة للشعرية فإنه يتنافى مع إغراق هذه الشعرية فى عملية «التأجيل». فكما أوضحنا، نلاحظ أن الشعرية تحولت - فى جوهرها - إلى سؤال ممتد، أو أسئلة ممتدة. ومن هنا، يكون تعدد التلقى موازيا لتعدد احتمالات المعنى، أو - بمعنى آخر - إن كل قراءة للنص تطرح ناتجا مخالفا للقراءة الأخرى، أو - على الأقل - تطرح تعديلا أو إضافة للمعنى الناتج فى القراءة الأولى، ومن هنا أصبح من المحال الادعاء ببلوغ المعنى النهائي لأية شعرية. وكيف يمكن هذا الادعاء، ونحن نلاحظ أن الأداة الرئيسية للتعامل مع النص هى «التأويل» نتيجة لازدحامه بالإسقاطات والرموز والاستدعاء، وإغراقه فى توظيف المصطلح الصوفى الذى يصل أحيانا إلى درجة

حقل الماء	٣٠١ مفردة
حقل النار	١٣٢ مفردة
حقل التراب	٢٥ مفردة
حقل الهواء	٢٣ مفردة

واللافت أن هذا الترتيب الكمى يتوافق مع الموروث الإسلامى والصوفى فى فاعلية كل عنصر تكوينيا، فالماء له التردد الأول فى (الأحوال...)، وهو فى الموروث الإسلامى يكاد يعلو الوجود ذاته، يقول تعالى: «وكان عرشه على الماء» (هود ٧)، ثم يكون الماء علة الوجود فى قوله تعالى: «وجعلنا من الماء كل شئ حى» (الأنبياء ٣٠)، أما مهمة النار التكوينية، فإنها تتجلى فى قوله تعالى على لسان إبليس: «قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين» (الأعراف ١٢)، ثم يأتى التراب فى قوله تعالى: «يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب» (الحج ٥)، ثم الهواء فى قوله تعالى: «فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله» (آل عمران ٤٩).

يقول الشهاوى مستحضرا ثلاثة من هذه العناصر التكوينية فى دفقة محدودة:

هل عبورى البحار ودخولى فى الأرضين إلا  
لنترمد نارى

ويخبو أجبى

ما من حجرة فى القلب إلا وتظل نارها عالية،

مثمرة كنخل الله فى صحرائها الجنان (٥)

(٢)

ذكرنا أن الشعرية الحدائية تتنافى مع التجربة بمفهومها الرومانسى، إذ الملاحظ أن الرومانسية تدعى لنفسها الإخلاص المطلق للداخل النفسى، وهو ادعاء لا يقبله مفهوم التجربة ذاتها، بل إن هذا المفهوم يهزه فى بعض جوانبه، من حيث كانت التجربة انفعالا بموقف محدد انفعالا عميقا ينعكس فى إنتاج صياغة موافقة له تمام الموافقة.

فملفوظ الحلاج، هنا، يخترق الزمن ليكون حاضرا مجسدا للواقع المعيش، وهو اختراق يترتب عليه بث دعوة خفية للثورة والتمرد سعيا للخلاص، ويكون «الحلاج» فى منطقة محايدة بوصفه متقبلا لدموية القهر من ناحية، ومثيرا للثورة من ناحية أخرى، ثم يكون السطر الأخير مؤشرا إلى الخوف من ضياع هذه الثورة فى إفسار القهر أو زيف الخديعة.

فالملاحظ أن الحلاج لا يحصر هنا بوصفه شخصية صوفية فريدة، بل يحضر بوصفه منتجا احتمالات عدة: احتمال البراءة والسذاجة، احتمال المسألة فى تغيير الواقع برفق، احتمال الثائر المتمرد الذى يطرح السيف فى مواجهة السيف، وكشف الحقيقة فى مواجهة النفاق، احتمال المضحى الثانى بعد المسيح.

وإذا كان التأويل، هنا، يتعامل مع الدفقة كليا، فإن ذلك لا ينفى أن كل سطر بل كل كلمة فى النص تحتل جانبا من هذا التأويل، فالسطر الأول يقدم الواقع السياسى والاجتماعى المدمر، والسطر الثانى يقدم الواقع الدينى غير الصحيح، أو لنقل: واقع رجال الدين المتأخرين به، ثم يأتى السطر الخامس برمز الحلاج ليكون إسقاطا لجماهير المهورة، ثم يكون السطر الأخير إسقاطا لغياب العقل العربى عن الحقيقة برغم وضوحها.

إن مجموعة التأويلات التى طرحناها لا تدعى أبدا أنها قد بلغت من النص منتهاه، وإنما هى مؤشرات أولية يمكن أن تتلوها تأويلات أخرى تؤلفها أو تزيفها، وهو ما يعنى وقوع النص فى منطقة التأجيل أو الانتظار.

إن ظواهر التأجيل النافية للتجربة، قد صاحبها توظيف شعرية الحدائية لأداة إنتاجية جماعية لم يكن لها حضور لانت فى الموروث الشعرى، ونعنى بذلك توظيف رباعية «الإسقاطات القديمة»: الماء - النار - التراب - الهواء، إذ عن طريق هذه الرباعية مارست الشعرية فاعليتها التدميرية والتكوينية على صعيد واحد. والنظر فى الديوان الأخير لأحمد الشهاوى (أحوال العاشق) يدل على أن توظيف الرباعية صياغيا قد جاء على النحو التالى:



إن هذا المفهوم - فى رأينا - يعتمد مواجهة الخارج بالدرجة الأولى، هذا الخارج المشكل فى: موقف، حادث، رؤية مباشرة، ذكرى، مناسبة... إلخ. ودون هذه المواجهة لا يكون للشاعر مصدر إنتاج يستخرج منه شعرته، سواء أكان الخارج ماديا أم معنويا، ذاتيا أم عاما، مباشرا أم غير مباشر، المهم أن الخارج له حضوره اللازم.

ولا تكتفى التجربة بحضور الخارج، بل إنها تحتاج إلى ثلاثة مراكز إنتاجية تعمل معا.

المركز الأول: منطقة الخارج التى أشرنا إليها بكل مكوناتها الواقعية والخيالية.

المركز الثانى: منطقة الداخل، وهى تمثل منطقة جذب للمركز الأول، حيث يتحقق منهما معا نوع من التفاعل النفسى والذهنى، وهو تفاعل غير متوازن تكون الغلبة فيه للمنطقة الداخلية التى تعيد تشكيل الخارجى ليتوافق معها.

المركز الثالث: يتمثل فى ارتداد المنطقتين السابقتين معا إلى الخارج مرة أخرى فى تشكيل صياغى له مواصفاته الجمالية المفارقة للصياغة المألوفة أو الإخبارية.

والملاحظ أن رصد هذه المراكز الثلاثة يشير إلى أن انتماء التجربة يكون - غالبا - للخارج، لأنه يحوز مركزين من المراكز الثلاثة، بينما يحوز الداخل مركزا واحدا. صحيح أن هذا المركز بالغ التأثير فى تشكيل المركزين السابقين، لكن هذا لا يلغى غلبة الخارج على نحو من الأنحاء.

عندما يقول فاروق جويده فى «غدا.. نحب»:

جاء الرحيل حبيبتي

جاء الرحيل

لا تنظري للشمس فى أحزانها

فغدا سيضحك ضوءها

بين النخيل

ولتذكريني كل يوم عندما

يشتاك قلبك للأصيل (٦)

نلاحظ أن تدفق الشعرية يأتى بتأثير خارجى متمثلا فى رحيل مزدوج هو الرحيل البشرى الموازى لرحيل الشمس، ثم انعكاس ذلك فى مفارقة ضدية تجمع بين رحيل الشمس ثم عودتها مرة أخرى، ومع الرحيل يكون «الحزن»، ومع العودة يكون «الضحك». هذا التشكيل الخارجى الذى رصدته الشعرية انتقل إلى الداخل ليتفاعل مع ثنائية أخرى هى (اليأس - الأمل)، ثم مع (النسيان - الشوق)، لتعود السبيكة المترجمة مرة أخرى للخارج فى صياغة ناعمة تشكل العالم الخارجى تشكيلا جديدا لا يمكن أن نفصل فيه بين الداخلى والخارجى، لأن الصياغة تنتج زمن الرحيل بالنسبة إلى المحبوبة ثم تتوقف، لتنتقل إلى زمن رحيل الشمس المصاحب للأحزان، لكنها تربطها بزمن العودة والإشراق المصاحب للضحك، أى أن الدفقة تغوص فى الحاضر على مستوى الظاهر لكنها تتعلق بانتظار الآتى على مستوى العمق، حتى ولو كان الآتى مجرد ذكريات باهتة، وهذه الخطوط المتعددة لحركة المعنى تعلن انتماء الدفقة إلى رومانتيكية خالصة.

إن إحساس الرومانتيكيين بهذا الحضور المزدوج للخارج فى مفهوم التجربة، دفعهم إلى محاولة التغلب عليه، باعتماد بعض المواصفات أو الشروط التى تغلب الداخل على الخارج، وغياب هذه الشروط لا يضعف من طبيعة التجربة فحسب، بل إنه يكاد يلغيها.

وأول هذه الشروط: دقة الملاحظة. والحقائق أن هذا الشرط يتوافق إلى حد كبير مع مدلول مصطلح التجربة معجميا؛ لأن هذا المدلول يؤكد عملية «الاختبار التكرارى»، لكن التكرارية وحدها لا تكفى لإنتاج شعرية من نوع ما، بل لابد أن يصاحبها نوع من التأمل العميق الذى يستطيع استيعاب الكليات والجزئيات على صعيد واحد.

يقول محمد أحمد العزب فى «والتقينا»:

كل مساء..

أنفغو ساعات فوق ذراع الحلم الوردى وأحلم !!

ويخيل لى.. أنى مازلت أعانقك كفيك وأحلم !!

الباب هنا.. وهناك الكرسي الهائم..

بأميرته.. وأميرة إلهامى الخاقق "

وعلى الشباك ستائر شباك زرقاء

طرزها فنان عاشق !! (٧)

إن الدفقة الشعرية تنفجر من تجربة تمتد في الخارج  
محبوبة غائبة، لكنها حاضرة على مستوى الداخل ساكنة  
منطقة «الحلم»، وتسكنها هذه المنطقة لم يكتمل إلا بعد  
معاناة ممتدة تعتمد التكرار الناتج من الحملة المركزية «كل  
مساء» .

وبرغم الحرمان الخارجى حاولت الشعرية استعادة  
المحبوبة الغائبة في تشكيل مادی «أعاق كفيف»، ليعود هذا  
التشكيل فيسكن الحلم، أى أنه يرنو إلى الداخل، ومن  
الداخل تتحول الصياغة للتعامل مع الخارج مرة أخرى في  
مفردات بعينها لها تأثيرها المضمر: «الباب»، «الكرسى»،  
«الأميرة»، «الشباك»، «الستائر»، لكنها تشحها بتفاعلات  
تنتمى للداخل: «الهائم»، «الإلهام»، «العشق».

أى أن التكرارية ملحوظة في ذلك التردد الجدلى بين  
الخارج والداخل، ثم هي ملحوظة على مستوى الصياغة في  
ذلك «الحلم» الذى يكاد يسيطر على الدفقة في مجملها، ثم  
هي ملحوظة في ذلك التردد الاختياري لمفردات خارجية  
مشغولة بتفاعلات داخلية ناعمة.

وماكان لكل ذلك أن يشكل تجربة مكتملة إلا بتدخل  
الوعى في ملاحظة عميقة تتحسس الخارج وتقسّمه إلى  
الداخل، سواء أكان الخارج بشريا أم غير بشري.

ثاني هذه الشروط: الصدق الوجداني. وإذا كان الشرط  
الأول يعود - في مجمله - إلى الخارج، فإن الشرط الثاني  
يرتد إلى الداخل ارتدادا كاملا، على معنى أنه يحدث توازنا  
مع الشرط الأول. ويلاحظ أن الرومانتيكيين لا يقصدون  
بالصدق هنا المطابقة الكلاسيكية، وإنما يقصدون الصدق مع  
النفس في الانفعال بواردات الخارج، وإعادة تشكيلها وفق  
متطلبات الداخل.

وفي رأينا أن مقولة «الصدق الوجداني» مقولة بلا  
مضمون حقيقى، وإنما هي واحدة من تهويمات

الرومانتيكيين التى ظلت مسيطرة على كثير من توجهات  
النقد حتى مع بداية الحداثة، بل إن أدونيس كثيرا ماكان  
يردد أن التجربة لابد أن تنطلق من مناخ انفعالى، وليس من  
موقف عقلى أو فكرى واضح وجاهز<sup>(٨)</sup>. نحن ندرك أهمية  
ملاحظة أدونيس عن المواقف الجاهزة لأنها تكاد تقتل  
الشعرية، لكن المهم أن الانفعال الموازى لصدق الوجدان ظل  
حاضرا في وعى الإبداع والنقد على سواء.

واللافت أن هذه الانفعالية التى تتدخل فى إنتاج  
الشعرية تمتد إلى عمق الموروث النقدي القديم، فحازم  
القرطاجنى يقول:

يجب على من أراد جودة التصرف فى المعانى،  
وحسن المذهب فى اجتلابها، والحدق بتأليف  
بعضها إلى بعض، أن يعرف أن للشعراء أغراضا  
أول هي الباعثة على قول الشعر، وهى أمور  
تحدث عنها تأثيرات وانفعالات للنفوس<sup>(٩)</sup>.

ولاشك أن شرط «الصدق الوجداني» كان وراء مقولة  
الرومانتيكيين عن «تكوين الصورة النفسية» لما يفكر فيه  
الشاعر، على معنى أن التجربة تكون بمثابة إفشاء نفسى  
للداخل يقول حسن القرشى فى «المغنى.. وطارخ الرخ»:

يشرع الصمت رايته مثقلا

وتغيم الرؤى

فإذا الأتق ذرات خوف ويأس

وإذا كل ما فوق سطح الوجود

تهاويل تسخر بالحالمين !<sup>(١٠)</sup>

إن النظر فى هذه الدفقة يؤكد كونها لوحة إسقاط  
لعمق نفسى يستمد مكوناته من الكآبة الصامتة، والخوف  
اليأس، ومن ثم لم يتبق لهذا العمق إلا منطقة الحلم بحثا  
عن زمن الراحة، لكن الحلم نفسه مهدد بالتصدع.

إن مجموع المكونات انعكست انعكاسا كليا على واقع  
خارجى، يتحول فيه الصمت إلى ذات متهالكة ترفع راية  
الانكسار وسط أفق مظلم يعوق الرؤية التأملية، ومن ثم

يستحيل الوجود إلى تكوين مفتت يجسد الخوف واليأس على صعيد واحد.

وعلى هذا النحو تكون الدفقة «صورة» تعكس عمقا نفسيا يعمور بالألم، مع ملاحظة التطابق الكامل بين الداخل والخارج تأكيداً لعملية الإسقاط التي أشرنا إليها.

ثالث الشروط: توجه التجربة إلى الجانب المثالي لا العلمى. وفي رأينا أن هذا الشرط يقود التجربة إلى منطقة التجريد التي ترتفع إلى عالم المثال، حتى ولو كانت مسلطة على واقع مادي. وفي رأينا - أيضا - أن هذا التوجه يجعل من التجربة نوعا من الغيبوبة التي تسمح للداخل العاطفى بالتدفق دون ضوابط واعية، كما يحول دقة الملاحظة إلى قدرة تخيلية غير منضبطة.

إن استكمال الرومانتيكيين لحقيقة التجربة يتكى على ثلاثة أركان: الفكر - العاطفة - الخيال. والعجيب أن هذا الانكفاء لا يتوافق مع مفهوم التجربة على النحو الذى حددوه، حيث لاحظنا اعتماد هذا المفهوم على الخارج بالدرجة الأولى، بينما هذه الأركان الثلاثة تنتمى إلى الداخل انتماء مطلقا، ولا قدرة لها على الخروج إلى الوجود التنفيذي إلا بالعودة للخارج وملاحظته، ثم التأمل فيه، وحتى مع هذه العودة، فإن هذه الثلاثية تعمل تلقائيا على تمييز النص وبعبارة محتوياته. فلو حاولنا استقبال قطاع من «طللية» حجازي يقول فيه:

كان الحنين مدى عذبا ، وكان لنا

من وجهها كوكب فى الليل سيار

هذا دخان القرى مازال يتبعنا

وملء أحلامنا زرع ، وأجنحة

وصبية ،

وطريق فى الحقول إلى الموتى

وصبار

فملتقى الأرض بالافق الذى اشتعلت

ألوانه شققا

فالقاطرت التى غابت مولودة

فى بؤرة الضوء

فالحزن الذى هطلت

على أمطاره يوما

فصرت إلى طير

وسافرت من حزن الصبى إلى

حزن الرجال، فكل العمر أسفار (١١)

لو حاولنا الاستقبال فى إطار مفهوم التجربة كما عرضناه، لاستحال النص إلى شتات مبعثر، يبدأ بطرح الفكرة عن اغتراب عاشته الذات مشحون بذكريات لا تكف عن الحضور، ذكريات عن الوجه الغائب الحاضر، والدخان المشيع برائحة القرية. وتتنامى الذكريات لتستحضر ظواهر الريف فى مرحلة الصبا من الزروع والطيور، وزيارة الموتى فى المواسم والأعياد، ثم تتحول الفكرة إلى خط أفقى يرصد لحظة الشفق، ومن الرؤية إلى الصوت «ولولة القاطرات»، مع إضافة مصاحبات كثيفة من الحزن والأسى.

فإذا تركنا الفكرة إلى العاطفة لاحظنا كما هائلا من الشوق والحنين، يوازيه كم هائل من الألم والمرارة والحزن.

ثم تنتقل إلى الخيال فنرصد بعض تكويناته المجازية وغير المجازية مثل التشبيه فى «الحنين مدى» الذى يتحول إلى بنية استعارية «مدى عذبا»، ثم تأتى استعارة أخرى فى «الوجه» يتبعها تشبيه «وجهها كوكب» إلى آخر هذه الأبنية البلاغية، التى تعود وتتكامل لترسم صورة كلية لعالم تختزنه الذاكرة عن القرية برغم الرحيل والاغتراب.

إن المتابعة الدرامية للنص على هذا النحو الثلاثي تحوله إلى جشة ممزقة الأشلاء بعيدة تمام البعد عن شعرية حجازي التى تنغوص فى أعماق الأعماق زمانا ومكانا، وتتحرك فيها طولا وعرضا، وتعلو بها إلى آفاق التجريد، وتنزل بها إلى مساحات التجسيد، وتشكل من كل ذلك عالما فريدا يجمع بين الاغتراب والحضور على صعيد واحد.

إن مواجهة الدفقة بهذه الثلاثية يقتل شعريتها التى تنفجر من كل دال، ومن كل تركيب، ثم تنفجر منها على

تنفيذية وتقديرية على صعيد واحد. كما يتبع للواقف إمكان الرؤية دون نظر إلى مكان وقوفه، لأن كل مكان صالح للوقوف مادام محافظاً على الوسطية المادية أو المعنوية.

ومن ناحية أخرى، فإن المردود المعجمي يؤكد حيادية المصطلح بين الداخل والخارج، أي رؤية الخارج ساعة رؤية الداخل، ورؤية الداخل لحظة رؤية الخارج، وهو ما يختصر الثلاثية، التي لاحظناها في مصطلح التجربة، إلى ثنائية تجمع بين الداخل والخارج على صعيد الوعي الشعري، كما يضيف للرؤية طابعاً إدراكياً شمولياً.

ويكتسب المصطلح شرعية إضافية عندما يضم حقله الدلالي معنى «المعانية» التي تحتوى في أصل مادتها اللفوية على «المعاناة»، يقول الكتاب الكريم: «ولو ترى إذ وقفوا على النار» (الأنعام ٢٧) «أى عاينوها لإدراك حقيقتها المولمة»<sup>(١٣)</sup>. يقول عبد العزيز المقالح في «وجه ص ن ع اء»:

أى وجه أحدث عنه ؟

لصنعاء وجهان ،

أربعة ،

ألف وجه

فصنعاء خادمة فى بلاد النجاشى

ومنسية فى سجون الرشيد

وضائعة فى بلاد كثيرة<sup>(١٤)</sup>.

هذه الدفقة الشعرية لا يمكن إنتاجها إلا بدخول دائرة «الموقف» بتجلياتها المتعددة؛ حيث يتلاحم فيها الداخل والخارج تلاحماً يكاد يوحد بينهما، وهذا التلاحم شكل الوقوف فى منطقة محايدة أتاحت رؤية مزدوجة لوجهى صنعاء فى ماضيها البعيد والقريب، وفى تقلباتها عبر الزمن، وهذه التقلبات حولت الثنائية إلى رباعية، ثم تكاثرت الوجوه كثرة مفرطة، وبرغم هذه الكثرة لم يفلت من الشعرية وجه من الوجوه المتكاثرة التي تجمعتها صنعاء، وبرغم التلاحم بين الداخل والخارج، فإن الخارج لم يفقد استقلاله تماماً ليزوب فى الداخل كما هو الأمر فى التجربة الرومانتيكية، ومن ثم اتسعت الرؤية لإدراك التحولات المتباعدة، وتعاينها فى لحظة إدراكية واحدة.

مستوى البناء الكلى، ويطول بنا الأمر لو حاولنا أن نطرح تحليلاً لها يكافئ شعريتها.

لكل هذا لم يعد مفهوم التجربة الذى شاع استخدامه فى بداية الخمسينيات قادراً على مواجهة نص الحداثة، أو التعامل معه لكشف شعريته، لأن هذا النص يتفرع تماماً من هذا الخليط الذى يتصادم أحياناً ويتوافق أحياناً أخرى.

وإذا كانت التجربة غير قادرة على مواجهة نص الحداثة، فإن هذا النص - من ناحية أخرى - لم يعد قادراً على التعامل معها على أنها مصدر إنتاج، لقصورها الشديد عن بلوغ مناطق الوعي والإدراك، وإذا بلغت، فإنها تحولها إلى كم من الانطباعية المفرطة. ومن ثم فإننا نطرح بعض البدائل التي تصلح - من وجهة نظرنا - للتعامل مع شعر الحداثة عموماً، ومنجزاته الأخيرة على وجه الخصوص.

### (٣)

البديل الأول الذى نقدمه مصطلح «الموقف»، ونقول إنه مصطلح، لأنه كذلك عند العرفانيين، حتى إن نفرى اختصار لتجلياته الصوفية مؤشراً إعلامياً بالغ الدلالة هو «الموقف»، بل إنه أدرك حقيقة الوجود فى كونه «موقفاً»، يقول نفرى فى «موقف وراء المواقف»:

أوقفنى وراء المواقف وقال لى الكون موقف.

وقال لى: كل جزئية من الكون موقف<sup>(١٥)</sup>.

فإذا ذهبنا نستحضر المردود المعجمي للمصطلح، فإننا سوف نواجه بمعطيات دلالية تعضيه صلاحية التعامل مع شعرية الحداثة، ذلك أن دال «الموقف» يستدعى «الوسط» أو «المنتصف»، والوسطية، بوصفها موقفاً مكانياً، تسمح للمواقف برؤية تكاملية حيث يتمكن من إدراك «وجهى العملة» فى آن، أو بمعنى آخر فإن رؤية أحد الوجهين لاتمنع من رؤية الوجه الآخر كما هو المألوف فى الرؤية الثنائية تتباعد عن الوسط وتنحاز إلى أحد الجانبين، فالرؤية الوسطية رؤية شمولية للواقع بكل خفاياه أو تنوعاته. وتزداد فاعلية المصطلح الإنتاجية إذا لاحظنا أن ابن منظور يقول عنه إنه «مكان الوقوف حيث كان - أى الوقوف - لا حيث كس»، وهو ما يجعل الرؤية

لم تكن جبناء ولا أبطالا  
كنا أنفسنا  
نلعب النرد مع النيازك  
وأحيانا نصغى لنقيق الضفادع  
فى ليل تحتضر بقاياها (١٦).

إن المعاناة فى هذه الدفقة تتعلق بشئانية وجودية تبدأ من «النفسى والإنشائي» لتبلغ «العدم والوجود» وبينهما تحاول الشعرية رؤية الحقيقة الأزلية لكيثونة الإنسان، وتفرد به حيث لا يكون إلا ذاته، وهى كينونة تقع فى منطقة محايدة لتعاني طرفين متباعدين غاية البعد، ومتنافرين غاية التنافر: «الجبن - البطولة».

إن إشتائية الموقف هى التى هيأت للشعرية إدراك وجهى التقابل السالب، وهو إدراك يدفع بهذا التقابل إلى الاتساع تقديريا ليستوعب كل تقابلات الوجود ويسلط عليها النفسى، ليعود الإثبات مؤكدا حقيقة الوجود فى ذاته دون نظر إلى الطوارئ الهامشية من مثل الصعود إلى النيازك رمز المطلق الغائب، ثم النزول إلى الأرضى المحدود «الضفادع»، ليكون الطرفان موازيا دلاليا للشئانية الأولى «الجبن - البطولة»، وهى موازاة تقود الدفقة كلها إلى موقف يجمع بين المعاناة والمعاناة فى «الاحتضار» بوصفه الحقيقة الأزلية التى تجعل من كل الشائيات السابقة نوعا من العبث التمهيدى انتظارا للموقف الحتمى الذى أطلت منه الشعرية على العالم فى «لعبه» الرمضى.

(٤)

وإذا كان نص الحداثة قد تقبل مصطلح الموقف بوصفه مركزا لإنتاج شعرية، فإن بعض نصوص الحداثة قد تأتت عليه، لأنها تفر من الشئانية عموما، وتؤثر عليها الأحادية الإدراكية، وهو ما يطرح علينا مصطلحا آخر يتكى على هذه الأحادية هو مصطلح «الحالة» الذى يختصر الشئانية فى التجربة، والشئانية فى الموقف إلى أحادية خالصة، لأن «الحالة» تنتمى إلى الداخل انتماء مطلقا، وبرغم كونها داخلية، فإنها لا تعرف الثبات، لأنها تعتمد التحولات أبدا دون أن تنتظر

إن هذه الرؤية المزدوجة والموحدة، تحولت إلى نوع من المعاناة الممتزجة بالمعاناة التى دفعت إلى السياق بتساؤل أول لم تحتضر له إجابة على نحو ما، لأن الشعرية لم تعد معنية بطرح الأجوبة، وإنما عنايتها الحقيقية منوعة بطرح الأسئلة.

وهذه الوسطية المتعددة الأوجه أو الجهات، عند المقالع، استحال إلى ثنائية خالصة عند محمود درويش فى «حالات وفواصل»: «هكذا قالت الشجرة المهمة»:

خارج الطقس

أو داخل الغابة الواسعة

وطنى

هل تحس العصافير أنى

لها

وطن... أو سفر

إننى أنتظر ... (١٧)

ثنائية الموقف هنا تتجلى فى إدراك الوطن بين المطلق والمحدود، كما تتجلى فى الاستقرار والرحيل، وهو ما يعطى الوطن بعدا داخليا وخارجيا معا، يبرز هذا الداخل صياغيا فى حضور الذات المتكلمة متلاحمة مع الوطن «وطنى» «أنى» «أنى»، ثم مضمرة فى الفعل «أنتظر»، ثم تسلط هذا العمق الداخلى على الخارج المجسد فى الفضاء المطلق «الطقس»، والفضاء المحدود «الغابة»، كما تسلط على الكائن الضعيف «العصافير» بإسقاطه أخيرا على ثنائية «الوطن - السفر» وهو تسلط يكاد يلغى فاعلية الحرف «أو»، ليصير الوطن سفرا ورحيلا أبديا، ويكاد يكون الموقف كله موقف «الاعترا» الدائم.

وما كان من الممكن للشعرية أن تحقق كل هذه النواج إلا بوعى إبداعى، يسمح بالحركة الضدية بين الخارج والداخل، وهى حركة لا تعرف التوقف، ومن ثم انتهت الدفقة بصيغة تأجيلية، تصنع هذه النواج فى دائرة الانتظار: «إننى أنتظر». وتصل المعاناة إلى ذروتها عند سيف الرجبى فى «لعب»:



«المجهول» و «الفراغ» و «اللاشيء» وهى ظواهر أغرق  
الحدائيون فى توليفها لإنتاج شعريةهم. يقول محبى الدين  
اللاذقاني:

أنا الرجل الطويل القليل الكثير النحيل

شراة الخرج

قادم من حيث لا أدري

ذاهب فى حيث لا أدري

من كان حزيناً فليتبعننى (١٨)

«الحالة» التى تدخل فيها الشعرية - فى هذا الاجتزاء -  
حالة قائمة على الثبات والتغير معاً، أو لنقل إنها حالة «الثبات  
التغير»، لأنها تعتمد الجمع بين الضديات التى لا يمكن أن  
تجتمع إلا فى الداخل بكل إمكاناته فى تقبل هذه الظواهر  
التي يفرضها المنطق الخارجى.

ومع تنامي الدفقة تلج «الحالة» دائرة «المجهول» فى  
البدء والانتها، لتعلن صراحة عن عمق مخزون بكم هائل  
من المرارة والأسى. وهذا التكوين الضدى العجيب لا يمكن  
استيعابه إلا فى إطار «الحالة» الداخلية التى لا تنتظر واردات  
الخارج لتكتسب منها قدرتها على التشكيل والتلون والتغير  
لأنها مخالفة لقانونها الوجودى.

إن أهمية «الحالة» تكمن فى ارتباطها «بالحال»، لأنه  
يعنى انتماءها إلى منطقة زمنية محايدة بين الماضى والآتى،  
وفى هذا تتوافق «الحالة» مع «الموقف» فى إمكان الرؤية  
الشمولية، فإذا كان الموقف ينتمى إلى الإطار المكاني، فإن  
الحالة تنتمى إلى الإطار الزماني.

ويلاحظ أن الحالة لا تتوقف عند لحظة الحضور إلا  
بوصفها منطقة تفجر المعنى، ثم منها تتحرك الحالة لتدرك  
الماضى أحياناً وتستحضره برغم عدم قابليته للحضور  
التنفيدى. كما تتحرك إلى الآتى وتستحضره أيضاً برغم عدم  
قابليته للحضور هو الآخر، بل إن الحالة تمتلك قدرة التحرك  
إليهما على صعيد واحد، دون أن تفقد - فى كل ذلك -  
نقطة الارتكاز المحايدة بين الزمنين. يقول محمد عفيفى مطر  
فى «الموت والدرويش»:

واردات الخارج، فهى لا تخضع للاحتلاب والاكتساب، فما  
فى الداخل من حزن أو فرح، ومن قبض أو بسط، لا يحتاج  
إلى محرك خارجى، لأنه طبيعة وجود الذات نفسها، فعندما  
يقول محمد أبو سنة:

حلم تفتح فى قرارة موجة

أواه

هل هب النسيم على الشجر

قلبي.. إذا ذكر

الأحبة ينغمر

سحب ، وأوهام ، وأعشار

بلا جدوى تمر (١٧)

نلاحظ انفتاح الحلم مشحوناً بكم هائل من الألم والحزن  
الذى يغوص فى أعماق الداخل الذى لا يكاد يعرف طريق  
الخارج إلا فى صدى ذلك الصوت الصارح «أواه»، وحتى  
«هبوب النسيم على الشجر» الذى ينتمى إلى الخارج، يتم  
محاصرته فى دائرة «السؤال»، «هل» الذى يبقى أكثر مما  
يثبت، وكأن الدفقة الشعرية تسعى لإلغاء الخارج ثمهيدا  
لارتدادها الداخلى المتمثل فى عملة «التذكر» التى لا تعرف  
لها منطقة تخل فيها سوى «القلب»، «ومع تجلى «الحالة»  
فى «الانفطار» الذى يشق بالتمزق الداخلى الرهيب والذى  
يقود الشعرية إلى ضياع لانهاى.

إن «الحالة» هنا لم تكن فى حاحة إلى مبررات  
خارجية، بل إن حضور الخارج قد يقضى عليها، أو يضعف  
من فاعليتها فى أقل الاحتمالات، فهى تبدأ من الداخل  
وتنتهى فيه.

وأهمية هذا المصطلح فى أنه لا يستلزم صفة معينها،  
فكل ما فى الداخل من مواصفات وتفاعلات وانفعالات  
صالح للدخول فى الحالة، لأنها قائمة على التغير الذى يلغى  
سابقه أحياناً، وقد يتعايش معه أحياناً أخرى. ومن هنا، يكون  
للمصطلح قدرة تقبل «المتناقضات» الصادرة من المحل  
الواحد، وإعطاء المحال بعداً وجودياً، والتعامل الواعى مع

أنصت - إذن - لدماك تنزف من فتوق الذاكرة  
أبناؤك التفوا - وهم ذبح سينضج فى وقته -  
فاجدل منادمة من الدم والكلام  
هل ثم شئ كائن إلا نزييف الذاكرة  
ومسابح الدم والكلام !! (١٩)

يتخلص من شرقة العهن  
فامسح بمنديل النور  
لزوجة عرق النار  
ارتحن على ترجيع اللحن  
فالآن ستطربكن  
عذوبة ترتلى  
وأنا أبتدئ رحيلى (٢٠)

يلاحظ - فى هذه الدفقة - تفجر المعنى من فعل الأمر  
«أنصت» الذى يتعلق - بحكم صيغته - بلحظة الحضور  
المباشرة، لكنه يجاوز هذه المنطقة الزمنية ليرتجع إلى الزمن  
الماضى بالجوء إلى «فتح الذاكرة»، أو لنقل إنه يمزقها  
ليندفق منها مخزون دموى رهيب مشحون بانفجار الماضى  
واكتنازه بالدمامة، ثم يرتد ذلك الماضى مرة أخرى إلى لحظة  
الحضور المضنية فى «التفاف الأبناء»، حيث يتحرك الزمنان  
معا إلى الزمن الآتى، زمن التدمير الفعلى أو المنتظر فى جملة  
الحال «وهم ذبح سينضج فى وقته»، فالوظيفة النحوية -  
هنا - تشتبك بالناتج الدلالى اشتباك تلاحم كامل، ثم  
تستعيد الصياغة لحظة الحضور الممتدة تراجعا إلى الماضى  
مرة أخرى فى «نزييف الذاكرة»، حيث يستحيل الداخل إلى  
حركة دائمة لا تعرف الاستقرار، لأنها حركة تسبح فى  
• خليط تدميرى مصطبغ بالدماء.

«الحالة»، هنا، تجمع بين ضدين على صعيد واحد:  
«التدمير والتكوين» حالة التسامى من الجسد إلى المجرد،  
والتعالى من المحدود إلى المطلق، فبين الروح والجسد تعيش  
الشعرية حالة انكشاف داخلى وخارجى رفعت الحجب  
المادية، ورفعت قانون الوجود عندما أوقعت الروح فى قانون  
المادة «اللون»، ثم حاولت دفعها للخلاص منه، وعندما  
دفعت الجسد للخلاص من قانون وجوده الزمانى والمكانى  
«شرقة العهن».

إن هذا الخلاص المزدوج يقود الشعرية إلى «حالة»  
جديدة من النشوة المصاحبة لعملية الرحيل الداخلى فى  
الماضى والآتى على سواء، فالتغير الملازم لثنائية الروح  
والجسد، كان إرهابا بتكوين جديد يسعى إلى الخلاص من  
أدران الواقع فى عملية الرحيل.

إن الحدود المعرفية «للحالة» على مستوى الإدراك  
النظري، أو الإجراء التطبيقي تكاد تلغى مجموع القلبيات  
التي تفرضها التجربة؛ لأن الحالة مكون داخلى يولد رؤيا  
خاصة فيها من العمق بقدر ما فيها من الاتساع، والإبداع  
يسمى للدخول فى هذه «الحالة» عندما يخلص لباطنه،  
ويتخلص من كثافة الواقع المعيش، وربما وجدنا فى موروثنا  
النقدى ما يؤكد سعى الإبداع إلى دخول «الحالة» عن وعى  
بفاعليتها الإنتاجية، فقد

إن «الحالة» هنا يتردد زمنها بين «الحاضر والماضى»  
و«الحاضر والآتى» ثم «الحاضر والماضى»، ثم تستعيد الحالة  
زمن الحضور المطلق فى السطر الأخير ليمثل مركز الثقل  
الإنتاجى توافقا مع مطلع الدفقة.

وربما كانت أخطر تجليات المصطلح فى أن ابن منظور  
يجعله مساويا «لكينونة الوجود فى ذاته»، والكينونة - بطبيعتها  
- لا تعرف الثبات داخليا أو خارجيا، لأنها فى حالة تغير  
دائمة، ومن ثم تكون صالحة لمواجهة تحولات الوجود  
امتصاصا وإخراجا. يقول حسن طلب:

هذى روحى:

تتملص من دائرة اللون

وهذا جسدى

قليل لكثير: كيف تصنع إذا عسر عليك الشعر؟  
قال: أطوف فى الرباع المحلية، والرياض المعشبة،  
فيسهل على أرضه، ويسرع إلى أحسنه...

وإذا كانت الرؤية تتعلق بالأحداث والظواهر، فإن  
المشاهدة تتعلق بالحقائق الأولى؛ ولذلك يقول الجرجاني في  
التعريفات:

الشاهد: ما كان حاضرا في القلب، وغلب ذكره،  
أو ما أثر في القلب وضبط صورة المشهود،  
وشواهد الحق: حقائق الأكوان، ويكون الشهود:  
رؤية الحق بالحق (٢٢).

يقول الكتاب الكريم ردا على كفار العرب في ادعائهم  
أن الملائكة إناث «أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم  
ويسئلون» (الزخرف ١٩)، أى: هل عاينوا حقيقة خلقهم؟

إن بلوغ الإبداع مرحلة «المشاهدة» بدخول دائرة  
«المقام» لا يتحقق إلا بتجرد كامل، وتأمل باطنى يهمل الرؤية  
الخارجية، لأنها لا تقدم إلا السطوح الخارجية الخادعة، وهذا  
الإهمال المقصود يقود الإبداع إلى التعامل مع «المادة الخام»  
للحقيقة.

وإذا كانت الرؤية تعنى موقف الإبداع من العالم، فإن  
المشاهدة تعنى الالتحام بالعالم حتى يصعب القول بأن هناك  
ذاتا وموضوعا، لأن كليهما قد استحال إلى كائن جديد يقوم  
على الأحادية التى أوضحنها فى الحديث عن مصطلح  
الحالة، وإن كان المقام أوغل فى الأحادية. يقول محمد بنيس  
فى «حضرة»:

قلق سيد  
والظلال ارتمت  
هجرة  
تترسخ فى سلسبيل الكلام  
هو ذا الطفل يفجأه  
سره  
وحده  
يتجهى الظلال القديمة  
يسلم حضرته لمشيتها  
وينام (٢٣)

إن حركة المعنى فى الدفقة تتفجر من دال داخلى هو  
«القلق» الذى يشكل حالة دائمة، وهذه الديمومة حولت

وقالوا: كان جرير إذا أراد أن يؤيد فصيدة صنعها  
ليلا، يشعل سراجا، ويعتزل، وربما علا السطح  
وحده فاضطجع وغطى رأسه رغبة فى الخلوة  
بنفسه... وروى أن الفرزدق كان إذا صعبت عليه  
صنعة الشعر، ركب ناقته، وطاف خاليا منفردا  
وحده فى شعاب الجبال، ويطون الأودية،  
والأماكن الخربة الحالية، فيعطيه الكلام  
قياده (٢١).

وبالطبع، لم يكن موضوع الشعرية عند هؤلاء الشعراء  
تناول الرباع المحلية، أو الرياض المعشبة، أو تناول الليل  
والوحدة، أو تناول الجبال ويطون الأودية والأماكن الخربة،  
وإنما كل ذلك يمثل محاولة التخلص من الخارج فى  
أشكاله الزمانية والمكانية، حتى تكون السيادة للحالة الداخلية  
فى إنتاج الشعرية.

(٥)

ويرتبط مصطلح «الحالة» بمصطلح عرفانى مفرق فى  
عرفانيته هو مصطلح «المقام» ارتباطا المتقدم بالنتيجة؛ لأن  
دوام «الحال» أو «الحالة» يشول بها إلى الدخول فى منزلة  
«المقام»، وفيه يتم الوصول إلى الحقيقة بعد المجاهدة.

وأهمية هذا المصطلح أنه يحول «الرؤية» إلى  
«المشاهدة»؛ لأن الرؤية بحكم مردودها الوضعى والفنى  
صالحة للدخول فى حيز «التجربة»، لأنها يمكن أن تكون  
بالعين أحيانا، وبالقلب أحيانا أخرى، نم إنها تعتمد على  
التكرار والاستيعاب؛ لأنها تسعى إلى «الإدراك»، سواء أكان  
هذا الإدراك خارجيا أم داخليا، مظهريا أم باطنيا.

وبرغم أن العرفانيين يقولون إن «الرؤيا» - عموما -  
تحوز ستا وأربعين درجة من منزلة النبوة، برغم ذلك يعتبرونها  
أدنى درجات الكشف لاحتياجها إلى التكرار من ناحية،  
ومطابقة الواقع من ناحية أخرى، سواء أكانت رؤيا متسلطة  
على الخارج أم رؤيا حلمية، ومن ثم تجاوزوها إلى  
«المشاهدة».

الدائم، إلى «التجدد» الذى يتنامى أحيانا، ويتراجع أحيانا أخرى، لكنه يحتفظ لنفسه بحق السكنى الداخلية المتحركة. يقول محمد مهران السيد فى «صخب الخصام»:

بعضى يموت  
والبعض منكفئ صموت  
أى الظنون تشيلنى  
وتحطنى  
وتزف بشرائها إلى النبض الخفوت  
صدأ مقيت  
كالنمل يسرى فى النخاع ويستमित  
والعنكبوت  
يمضى يشرنق ما تبقى فى حنايا الروح  
من أثر السكوت (٢٥).

إن دخول الدفقة دائرة المقام يعتمد التمزق الداخلى «بعضى يموت»، لكنه تمزق يتهيا - تقديريا - للتلاؤم بين «البعض الميت» و «البعض الصامت»، وتتدخل «الظنون» بوصفها بمثابة البعد ذهنى «للمقام»، حيث يتجه النص للتسامى إلى الفوقية «تشيلنى»، ثم النزول إلى التحتية «تحطنى»، فى حركة متجددة ومتابعة لمواجهة فاعلية «الموت والصمت»، لكن «الصدأ» يتدخل - بدوره - لإلغاء فاعلية هذه الحركة المزدوجة، حيث تلجأ «الروح» إلى «شرنقة الصمت» العاجز عن مواجهة الحقيقة الوجودية التى نمت مشاهدتها.

(٦)

إن توجه الشعرية إلى المواقف والأحوال والمقامات لاينفى أنها كانت تتوجه أحيانا إلى التعامل مع «اللحظة» المحدودة بزمن سريع يساوى قدر نظرة العين، حيث تتحول «اللحظة» إلى نوع من «الملاحظة» (٢٦).

يقول باشلار: إن الحقيقة الزمنية تكمن فى «اللحظة» بوصفها وجودا بين عديمين، عدم الماضى، وعدم الآتى، ومجموع «اللحظات» هو الذى ينتج الديمومة بتجدها المستمر، دون أن يرتبط هذا التجدد بنمو الماضى، أو استمرار الحاضر.

الحالة إلى «المقام»، حيث تنكشف الحقائق الأول، وتسلط المشاهدة عليها داخليا، برغم ما توهمه الصياغة من تعاملها مع مفردات خارجية، فـ «الظلال» تقدم الوجود الوهمى أو الخادع، و «الهجرة» تشير إلى الانسلاخ عن المادى، و «الطفل» يستحضر «البراءة الأولى» أو «الصفحة البيضاء للوجود» و «السرد» مؤشر السلطة الفوقية فى التحامها التنفيذى بالإنتاجية السفلية، وهو التحام يمهّد لقراءة الحقيقة عندما تلتحم بالزمن القديم لمشاهدة البدايات التى يمكن أن توقف حالة القلق، أو تلغيها تماما.

وإذا كان محمد بنيس قد دخل المقام فى حالة «القلق» الوجودى، فإن قاسم حداد يدخله من حالة «التحول» الحضرى، يقول فى «تراث الليل»:

أنا الحطب الذى للنار

كل سقيفة وشم على جسدى

يدى فى زعفران الليل

يا وجعا تراثيا

أنا الحطب الذى مثل الرماد الكامن

المرصود (٢١)

فبين «الحطب» - فى السطر الأول - الذى يتهيا لعملية التحول الجوهرى بالدخول فى دائرة «النار» وبين «الرماد» الذى استحال إليه ذلك الحطب - فى السطر الأخير - مساحة واسعة لهذا التحول الموازى لتحولات الوجود عامة، وتحولات الذات خاصة؛ حيث أصبحت هذه الذات نسخا للوجود، أو انعكاسا رمزيا له، لكنه انعكاس مشحون بالألم القديم، ألم الميلاد الذى لم يتوقف بلوغا للحظة الحضور «أنا الحطب».

فالمشاهدة قد تفجرت من منطقة الحاضر، ثم أخذت طبيعة تراجعية للإمساك بالمادة الأولية، ثم ارتدت إلى منطقة الحاضر المهيأة لاستقبال الآتى «المرصود»، فالمقام هنا مقام معقد نتيجة للصدام بين الذات ومصيرها المحتوم.

ويتدخل «المقام» أحيانا، لإنتاج حالة داخلية تعتمد التمزق والانفصام، مع نقل الحالة من طبيعة الاستمرار

وإذا كان سويلم قد اعتمد «اللحظة» فى إنتاج شعرية، فإن سعدى يوسف يعتمد «اللحظات» فى متابعتها المسلط على الواقع التنفيذى، يقول فى «تربية»:

أبدأت، إذن، تشرب قهوتك الأولى  
فى أولى ساعات الفجر...

فى الساعة ٢

مثلا ؟

أبدأت تخبئ أوراقت

عن صحف تعرفها

وعيون لا تعرفها

ومن أحببت طويلا...

مثلا ؟

أبدأت تغير عادات كى تعتاد سواها :

ألا تلحق يوميا

ألا تكوى قمصانك

ألا ترفع سماعة الهاتف حين يرن

مثلا ؟ (٢٨)

إن شعرية الدفقة تتعامل مع مجموعة لحظات منفردة، تستخلص منها فاعليتها التداولية، لتعود وتصوغها فى إطار كلى يشكل لحظة ممتدة تمزج فيها بين الزمانى والمكانى، والمعتاد وغير المعتاد، فهناك لحظة «الفجر» المحددة فى الثالثة، وهناك لحظة «تخبئة الأوراق»، ثم تتوالى اللحظات المسكونة بالفعل اليومي «الحلق»، «كى القمصان»، «رفع سماعة الهاتف»، وهذه اللحظات التى تتبدى منفصلة فى السطح، تعود - فى العمق - لتشكيل موقفا حياتيا مزدحما بالقلق والتوتر، حيث الصدام الحتمى بين المحدود وغير المحدود، بين المقيّد والمطلق، وهو ما تشعله صيغة التساؤل المسيطرة على الدفقة كلها.

وربما كان الركود الذى يتجلى فى الواقع وراء هذا التمزق الزمنى إلى لحظات، لأن هذا الركود لم يعد يسمح للإبداع بأن ينتج شعرية ممتدة أو طويلة تعتمد التلاحم لا الانقطاع، فهل يمكن القول بأن الشعرية فى سبيلها لتعود إلى «وحدة البيت» التراثية؟ وبرغم ما قلناه عن اللحظة من

إن الإبداع عندما يتوجه برؤيته للعالم يجد نفسه فى مواجهة مباشرة مع الزمن متمثلا فى «اللحظة» المفردة، كأنها وعى مستقل بذاته عما يسبقه وما يلحقه، أو لقل إن اللحظة تساوى الحاضر الذى يشد الرؤية إليه، ويجذبها نحوه، والرؤية - بدورها - تسعى إلى تجميد لحظة الحضور وقطعها عما سبقها، وما يمكن أن يلحقها، وفى هذه الحالة تتمكن من استيعاب «اللحظة» بكل مكوناتها المأساوية أو غير المأساوية، ثم تنتقل إلى لحظة أخرى، منتجة سلسلة من اللحظات المنفصلة والمتصلة على صعيد واحد، وهو ما يتيح لعملية التركيز الجزئى والاستيعاب الشمولى أن تكتمل، حيث تكون «اللحظة» منطقة الإدراك الفعلى للواقع المحدود المباشر، وتكون «اللحظات» منطقة الإدراك الكلى للعالم الداخلى والخارجى على حد سواء، وهذان الإدراكان لا يشيخان أبدا. يقول أحمد سويلم فى «الفراشة»:

أمتطى صهوة النار حين أحدثكم

أصدقائى

وأراكم بزوايا من زوايا النظر

حين تنبش أظفاركم رحم السرير

تنزعون جنينا ..

ملامحه من ملامحك أيها الأصدقاء (٢٧).

تتجلى اللحظة - فى هذه الدفقة - على عدة مستويات، المستوى الأول: تتجسد فى مساحة مكانية «صهورة»؛ إذ إنها بارتفاعها ومحدوديتها تسمح برؤية محدودة أيضا، وبخاصة أنها سرعان ما تذوب بالتضاييف إلى «النار»؛ لأن هذا التضاييف يعوق عملية الاستقرار وامتداد الرؤية.

المستوى الثانى: تأتى «اللحظة» فى صيغة مباشرة «زاوية النظر»، وهى زاوية تحاصر «الرؤية» «أراكم» فى أضيق مساحة زمنية ممكنة، ثم يأتى المستوى الثالث فى «حين» الذى ينتج الزمن المحدود أحيانا، وغير المحدود أحيانا أخرى

إن مجموع هذه المستويات - برغم محدوديتها - هيات للشعرية نوعا من الرؤية المزدوجة التى تتسلط على اللحظة الخاطفة لترصد السطح والعمق لتعلن عن وقوع العالم فى دائرة «التشابه» الذى يولد فاعلية تدميرية عميقة، دون النظر إلى ما يسبق لحظة التدمير التوالدية أو ما يلحقها.



تعلو به إلى آفاق جمالية إبداعية، فهناك اللحظة المسلطة على البحر تنتقله إلى مؤشر حيادي «رماديا»، ثم من الحياد تتوالى اللحظات راصدة حركة الواقع العينية الجامعة «للترايات» و«الجندي المجهول» و«الشتائم» و«الناعمة»، و«الضحك» و«السعال»، فهو رصد للاستقبال المهيئ للتقبل في لحظة بعينها، قد تسبقها أو تلحقها لحظة تقبل كامل، لكن هذا لا يتدخل في إنتاج الشعرية الحاضرة.

ومع الهوس بالتداولي والحياتي في إطار اللحظة أو اللحظات، نلاحظ انغماس الشعرية الأخيرة في فضاء الجسد وتحولاته الداخلية والخارجية، لكن هذا التحول كان - أحيانا - يأخذ طريقه إلى منطقة العرفانية ليستحيل إلى مؤشر على الفاني، كما يأخذ طريقه - أحيانا أخرى - إلى التداولي المبثذل، وفي هذا وذاك فإن الشعرية تعمل على مزجه بالمروروث الأسطوري والشعبي، وشحنه بالإسقاطات الجنسية في جرأة لا تقل عن جرأة الشعرية العباسية في كثير من إبداعاتها.

يقول محمد الحمامصي:

أنثى يتوق لهولها جسدي،

فينزل في شواردها ويسعى بين نهديها

يعلق قلبه جبلا من العشق المعز بها،

يفك جراحه كي تصعد الآلام تسبقه إلي أنفاسها،

متشابك وهج العصارة

والتزاوج حادة قطرات بهجته على جسدين،

أشهد بانفلات الوقت من زمن احتدامهما، (٢٢)

إن الشعرية، هنا، تقتنص اللحظة الجسدية في تفاعلاتها الشبقية محاولة أن ترتفع بها إلى أفق من الرغبة «الناعمة المحتمة». وتصادم هاتين الصفتين يتوافق مع تصادم الصياغة ذاتها «يتوق - لهولها»، ولا يخفف من هذا الصدام ولوج الشعرية إلى «جبل العشق»، بل إن الصدام يتنامى ليدخل دائرة الشبقية مباشرة في «تزاوج الجسدين» و«قطرات البهجة»، فالدفقة في صعودها ونزولها تحافظ على ربط الجسد بالشبقية المتفجرة من الذكورة والأنوثة على حد سواء.

جزئية أو محدودة، فإنها تمثل الزمن البقيني لوعي الإبداع بنفسه، لأن هذا الوعي ميت مع الماضي، ومعلوم مع الآتي - كما سبق أن أوضحنا -، فاللحظة الماضية هي الموت نفسه - كما يقول كمل - لاحتوائها على عوالم زالت، وسماوات انمحت، والمجهول الخفيف نفسه في ظلمات المستقبل الذي يفتح على عوالم لم تنشأ بعد (٢٩).

إن اللحظة بطابعها الحضورى المغرق في الحياتية، تحمل قدرا هائلا من القوة والبداية الإيجابية، حتى ولو تسلطت على ذرات واقعية لا تحمل شيئا من هذه القوة أو الإيجابية، بل ربما كانت شيئا بلا قيمة أصلا، وذلك أن اللحظة تسكن الحاضر دون نظر إلى مكوناته، وإحساس الحضور هو إحساس الحياة ذاتها، فبين اللحظة والحياة تطابق مدهش كما يقول روبنل أيضا (٣٠)، ومن ثم يؤثر الإبداع أن يتوجه إلى المشهد الذي يواجهه عن قصد أو بغير قصد بوصفه اللحظة التي تنتهي ولا تنتهي على صعيد واحد. يقول فريد أبو سعدة:

في السادسة

يكون البحر رماديا

محتارا بين الفضة

وأكاسيد الفضة

هذي أول «ترايات» الرمل

تحبى الجندي المجهول وتمضى

تنتنى كالديدان

وكان «الكسارى» يتم الإفطار على المقهى

ويوزع في الصحاب شتائمه الناعمة

ويضحك

حتى ينهض فيه سعال الصبح (٣١)

إن اللحظة، هنا، ملازمة للهوس اليومي الذي أغرق فيه الجيل الأخير من شعراء الحداثة، وقد دفعهم هذا الهوس إلى مناطق قد تكون مليئة بالقبح: «الشتائم» «السعال» «الديدان»، وقد تبعد عن هذه المناطق دون أن تبلغ الجمالية: «أكاسيد الفضة» «ترايات» «الكسارى» «المقهى»، وهذا وذاك لا يكاد يمثل بعداً إيجابياً في رؤية الواقع، لكن الشعرية

والرومانتيكية والواقعية. لكن شعرية الحداثة بكل أطرها المفارقة استدعت تجاوز التجربة تبعا لاعتمادها «الرؤية» أحيانا، و«المشاهدة» أحيانا أخرى، وانحصارها في «اللحظة» أحيانا ثالثة.

إن تجاوز الشعرية مفهوم التجربة قد فتح النص على عوالم داخلية وخارجية ما كان يعطيها عناية، أو لنقل إن اهتمامها بها كان عابرا أو محدودا، فلاشك أن شعراء الجيل الأول من الحداثة كانت لهم مغامراتهم العرفانية، وكانت لهم لحظاتهم التي يغوصون فيها باليومي المزدهم بالتفاصيل الحياتية، وقد أنتجوا ذلك في لغة تداولية تقترب من لغة الشارع والمقهى، لكن ذلك لم يمثل حركة إبداعية متكاملة أو ممتدة، وإنما كان بمثابة تنويعات فرعية أو هامشية سرعان ما كانت تتوقف لالتقاط الشعرى في الموضوع واللغة على السواء.

إن الجيل الأول إذا كان قد وظف البعد الصوفي، فإنه كان بوصفه أداة. أما في المرحلة الأخيرة، فإن هذا البعد أصبح مستهدفا إنتاجيا في ذاته، حيث توازت الشعرية مع العرفانية بكل عمقها الباطني، وبكل سطوحها المفارقة لقانون الوجود، وهو ما حول الطبيعة الإدراكية للشعرية من رؤيا العالم إلى مشاهدته، وهي مشاهدة كانت تتجاوز السطوح، وتجرد الظواهر لتلحظ فيها نوعا من «الخواء»، ومن هنا كان يتبدى النص أحيانا كأنه مفرغ من المعنى، بينما هو في الحقيقة مزدحم به، لكن سرعة الحركة توهم أحيانا بعدم الحركة، أو توقفها في نقطة لا تفارقها.

لقد كانت الشعرية تبرص بالمعنى لتحوله إلى نوع من التحليق الإشرافي، أو تنزل به إلى الحياني، وقد حققت في ذلك بعض الإنجازات، وهي مازالت تبرص بالشكل لتمارس فيه مغامراتها، وهو ما انتهى بهذه المغامرات إلى «قصيدة النشر». صحيح أن هذا النوع الإبداعي كان حاضرا في مسار الشعرية العربية على نحو من الأنحاء، ولكنه لم يستفص كما استفاد في الشعرية الأخيرة، وبخاصة مع الثمانينيين والتسعينيين.

إن شعرية الجسد قد تغاير من ثنائية الأعلى والأسفل، حيث تربط العلو بالطلق المقدس، والنزول بالجسدية المفككة المفرطة الحسية. يقول أمجد ناصر في «مقاطع من سورة الجسد»:

سيكون لهم النحل  
المنجس من رحيق الإبط  
ستكون لهم استدارة النهد  
وحفيف الأصابع ...  
ولن يحلموا بأشياء أخرى  
في هذا الحضور  
سيقروون آيا من الكتاب  
ويميلون برؤوسهم إلى الخلف (٣٢).

إن الدفقة - هنا - تغوص في اللحظة الجسدية بكل مفرداتها لتحاول نقلها إلى اللحظة الآنية من حيث التحقق، وإن احتفظت بها في لحظة الحضور من حيث التأمل والإدراك. لكن يلاحظ أن الإدراك يعتمد على غياب من يعيشون بالجسد وينتظرونه في مؤشرات «الخشية» «الإبط» «النهد»، ويقدمون أداة التعامل معه «الأصابع» بوصفها المهد المثير، ثم تنطفئ هذه الطاقة الحسية السطحية عندما تسعى الشعرية إلى دائرة الأعلى «قراءة آي الكتاب». وهنا يميل - الذين سبق غيابهم - برؤوسهم إلى الخلف في حركة محايدة لا تعني رفضا أو قبولا، وإنما تعلن عن انتظار اللحظة حضورية أخرى يتوحد فيها الأعلى بالأسفل ليسموا به عن ماديته.

(٧)

إن ما عرضناه من تحول الشعرية عن التجربة إلى المواقف والأحوال والمقامات، ثم دحولها إلى دائرة اللحظة، يمثل خصوبة في هذه الشعرية، لأنها لا تعرف الركود أو التوقف، إن هذا التحول لا يعني نفيا للتجربة، بل هي قد مارست فاعليتها في مرحلة أو مراحل زمنية بعينها، ومازالت تمارسها مع بعض الإبداعات الحاضرة التي حافظت على قدر كبير من خصوصية الشعرية في المرحلة الكلاسيكية

يمكن تقبله إلا في إطار المواقف والأحوال والمقامات التي عرضنا لها.

إن اتخاذ الشعرية هذه الدوائر مراكز إنتاج للنص يطرح علينا مداخل إضافية لقراءة هذا النص، فهناك النص المكتوب، والنص الذي يكتب نفسه، والنص القارئ، والنص المقروء، ونص الشارع والمقهى، وهو ما نرجو أن نفرغ له في دراسة أخرى.

إن شعرية الحدائث - على هذا النحو - كانت متحركة زمانا ومكانا في كل الاتجاهات المتقابلة، فلم يعد لها منطق يحاصر حركتها على نحو ما تحدده التجربة، بل إن الشعرية استعالت إلى سؤال دائم لا يعرف طريقا إلى أية إجابة، وهو ما يجعل النص سابحا في فضاء معتم؛ لأنه يؤثر الظلمة وينفر من الإضاءة، والعتمة تؤثر البواطن أكثر من السطوح، وتؤثر المجهول بكل احتمالاته الإنتاجية التي توافقه، وذلك كله لا

### الهوامش:

- (١) فاروق شوتة: وقت لاقتناص الوقت، غرب للطباعة والنشر - القاهرة سنة ١٩٩٦، ص ٤٣، ٤٤.
- (٢) قدادة بن جعفر: نقد الشعر، تحقيق: كمال مصطفى - الخانجي بالقاهرة ط ٣ سنة ١٩٧٩، ص ١٢٦.
- (٣) حسن فتح الباب: سلة من الحمار، الهيئة العامة لقصور الثقافة - سنة ١٩٩٥، ص ٥١.
- (٤) عبد الحليم الحفني: الموسوعة الصوفية، دار الرشاد - سنة ١٩٩٢، ص ١٣٠.
- (٥) أحمد الشهاوي: أحوال العاشق، الدار المصرية اللبنانية - سنة ١٩٩٦، ص ٦٧.
- (٦) فاروق جويده: ويبقى الحب، دار غرب للطباعة - سنة ١٩٧٧، ص ٣٥.
- (٧) محمد أحمد المزيب: الأعمال الشعرية الكاملة، الطبعة الأولى - سنة ١٩٩٥، ص ٥٨١.
- (٨) انظر: أدونيس: زمن الشعر - دار العودة - بيروت ط ٢، سنة ١٩٧٨: ٢٧٨.
- (٩) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء - تحقيق: محمد الجيب بن الخوجة - دار الغرب الإسلامي، ط ٣، سنة ١٩٨٦، ص ١١.
- (١٠) حسن عبد الله القرشي: أطراف من رماد الغربة - دار الشروق، سنة ١٩٩٠، ص ٢٥.
- (١١) أحمد عبد المطلب حجازي: أشجار الأسمت - مركز الأهرام للترجمة والنشر، سنة ١٩٨٩، ص ٦، ٧.
- (١٢) النفري: المواقف والمخاطبات - تحقيق: آرثر أربوي - تقديم: عبد القادر محمود - الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٥، ص ١٢٦.
- (١٣) انظر: لسان العرب لابن منظور - طبعة دار المعارف - مادة: وقف.
- (١٤) عبد العزيز المقالح: هوامش يمانية - عبد العزيز المقالح - دار العودة - بيروت، سنة ١٩٧٧، ص ٥٧٠.
- (١٥) محمود درويش: أعراس - دار العودة - بيروت ط ١٢، سنة ١٩٨٧: ٦٤٥.
- (١٦) كليف الرحي: رجل من الربع الخالي - دار الجديد، سنة ١٩٩٣: ٢٥.
- (١٧) محمد إبراهيم أبو سنة: وقصات ليلية - مكتبة غرب، سنة ١٩٩٣، ص ٢٢، ٢١.
- (١٨) محي الدين اللاذقاني: من كان حزينا فليتبهي - الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٤، ص ٢٠.
- (١٩) محمد عفيفي مطر: احتفاليات الموهب الموحشة، سبأ للنشر، سنة ١٩٩٤، ص ٤٤.
- (٢٠) حسن طلب: أزل النار في أهد النور - التديم للصحافة والنشر، سنة ١٩٨٨، ص ٧٠، ٧١.
- (٢١) ابن رسيق: العمدة - مطبعة أمين هندية بمصر، سنة ١٩٢٥، ص ١/ ١٣٨.
- (٢٢) الجرجاني: انظر: التعريفات - ضبطه محمد بن عبد الحكيم - دار الكتاب المصري اللبناني، سنة ١٩٩١، ص ١٤١، ١٤٢، ٢٧٦.
- (٢٣) محمد بنيس: هبة الفراغ - دار توبقال للنشر - الدار البيضاء، سنة ١٩٩٢، ص ١٨.
- (٢٤) قاسم حداد: يمشي مخفوقا بالسوعل - رياض الريس للكتاب - لندن: ٢٢.
- (٢٥) محمد مهران السيد: تعب الشموع - الهيئة العامة لقصور الثقافة، سنة ١٩٩٦، ص ٤٠.

(٢٦) انظر: لسان العرب - مادة لحظ.

(٢٧) أحمد سويلم: الزمان المعصى - الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٥، ص ١٢.

(٢٨) سعدى يوسف: جنة المنسيات - دار الحديث - بيروت، سنة ١٩٩٣، ص ٢٦.

(٢٩) انظر: بشارة: حدىس اللحظة - تعريب رصا عزور وعد العزيز زمزم - آفاق عربية - بغداد سنة ١٩٨٦، ص ٢٠.

(٣٠) السابق، ص ٢٥.

(٣١) فريد أبو سميدة: الغزالة تقف في النار - كتاب الغد، سنة ١٩٩٠، ص ٦٦، ٦٧.

(٣٢) محمد أحمد الحمامسى: الجسد والحلم - الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٢، ص ٢٠.

(٣٣) أمجد ناصر: أثر العابر - دار شرقيات، سنة ١٩٩٥، ص ٦٨.



# تأنيث القصيدة

## قصيدة التفعيلة بوصفها علامة

### على الأنثوية الشعرية

عبدالله محمد الغدامي\*

- ١ -

ولكن موضوعنا هنا هو فى طرح الأسئلة حول هذه  
الحكاية الثقافية وارتباطها ارتباطاً مركزياً بنازك الملائكة.

أفصد نازك المرأة الأنثى التى حطمت أهم رموز  
الفحولة وأبرز علامات الذكورة، وهو عمود الشعر.

هذا هو السؤال الذى لم تنبه إليه ولم نقف عنده ولم  
نطرحه عن أنفسنا<sup>(١)</sup>. فكيف حدث هذا من أنثى، والأنثى  
فى المعتاد الثقافى مجرد كائن تابع وضعيف وعاجز...؟

ثم ماذا جرى بعد هذا الاغتصاب والانتهاك الجرىء  
ضد عمود الفحولة...؟

- ٢ -

الشعر شيطان ذكر - كما يقول أبو النجم العجلي - وهو  
جمل بازل - كما يقول الفرزدق<sup>(٢)</sup>، والجمل البازل هو  
الفحل المكتمل، وبما إنه كذلك فهو طعام الفحول.  
والفحول طبقات وأعلى هذه الطبقات هى مقام الرجال

لا أظننا قد تبينا المعنى العميق لكون الفتح الشعرى  
الحديث قد تم على يد امرأة.

ففى عام ١٩٤٧ وقعت الكوليرا فى مصر، وهناك فى  
بغداد وقعت «كوليرا» أخرى.

إحدهما مرض قاتل وموت، والأخرى انتفاضة  
ومشروع إحياء.

هذه مسألة معروفة فى تاريخها وتاريخ ما أعقبها من  
نقاشات ومجادلات ملأت صفحات ديوان العرب الحديث.

والكل يعرف حكاية قصيدة «الكوليرا»<sup>(٣)</sup> لنازك  
الملائكة وعلاقتها بوباء الكوليرا الذى أصاب مصر عام  
١٩٤٧. ثم ما جرى من جدل طويل حول انطلاقة الشعر  
الحر وبدايته وريادته، مما هو من معروف القول والبحث<sup>(٤)</sup>.

\* كلية الآداب، جامعة الملك سعود - الرياض.



المهم عندهم هو منع هذه الأنثى من شرف الريادة؛ بمعنى أن الفحولة لا يكسرها إلا فعل، أما الأنثى فليس لها إلا أن تكون تابعة لا رائدة، وعاجزة لا قادرة، وتظل الأنثى أنثى وليس لها مكان فى فنون الفحول<sup>(٦)</sup>.

(ب) كانت هذه واحدة من أدوات الفحولة فى مكافحة تلك الآفة المؤنثة، ولعل الثقافة بحسبها المذكور لم تكن على ثقة تامة من نجاح خطتها الأولى فى إنكار أولوية هذه المرأة المدعوة بنازك الملائكة فأتبعت الثقافة متمثلة برجالها الفحول هجومها على هذه الأنثى بحيلة أخرى، وجرى القول بأن قصيدة «الكوليرا» ليست قصيدة حرة وأنها - فحسب - نوع من أنواع الموشحات.

وهذه حيلة خبيثة قال بها أحد المستشرقين<sup>(٧)</sup>، مانحاً خدماته للدفاع عن فحولة الضاد.

ولو نجحت هذه الحيلة فستكون الريادة حينئذ من نصيب أحد الفحول، وتغديداً بدر شاكر السياب، وسيجرى طرد المرأة عن هذا الشرف المذكور.

(ج) وتأتى الحيلة الثالثة فى الدعوى التى تقول إن قصيدة نازك الملائكة «الكوليرا» ليست سوى تغيير عروضى، وهذا أمر لا يعاب به، والأهم هو التغيير الفنى، وهذا فى زعمهم لم يحدث إلا بعد سنة من نشر «الكوليرا»؛ أى فى عام ١٩٤٨ فى قصائد مثل «فى السوق القديم» للسياب و«الخيوط المشدود لشجرة السرو» و«الأفصان» لنازك<sup>(٨)</sup>.

وهذا مسعى يهدف إلى زحزحة الحدث وتحييد مفعوله، ونقله من فعل التكسير الحسى لعمود الشعر المتمثل بقصيدة «الكوليرا» إلى التغيير الفنى الذى يغفل مسألة التكسير ورمزيتها.

إنها محاولة لمدارة المعنى العميق لحادثة كسر عمود الفحولة على يد أنثى، وبالتالي فهو حفاظ على ماء وجه الفحولة وتسخر على حادثة الانتهاك، وإلغاء هذه الواقعة من الذاكرة بواسطة تهرين أمرها وسلب المعنى الدال منها. وبذا، لن تكون المرأة سوى واحدة من آخرين أسهموا فى تغيير مضامين الشعر، وكلهم رجال يفعلون فعل الرجال، وهى تفعل فعلهم كشأن جدتها الخنساء مع فحول زمانها.

الأوائل أهل الكمال والتمام. وكل من جاء بعدهم فهو أقل منهم وتتقلص المنزلة جيلاً بعد جيل حتى ذلك اليوم الذى لا يبقى فيه للاحقين أية مزية أو فصل على سابقينهم؛ لأن الأول ما ترك للآخر شيئاً، منذ أن أكل الفحول الجمل البازل وراح الشعر كله والمعنى كله إلى بطن الشاعر الأول، فحل الفحول.

وليس للأنثى بوصفها كائنًا ناقصًا أى نصيب من لحم الجمل أو من همسات شيطان الشعر، فالتحمل ذكر منحاز إلى جنسه من الذكور، والشيطان لا يحلّس إلا الفحول لأنه ذكر وليس أنثى. ولذا، صارت العقوبة الإبداعية تسمى «فحولة» وليس فى الإبداع «أنوثة»، وإذا ما ظهرت امرأة واحدة نادرة وقالت بعض شعر فلا بد لها أن تستفحل ويشهد لها أحد الفحول مؤكداً فحوليتها وعندها أوليتها لى تدخل على طرف صفحات ديوان العرب وتتوارى تحت عمود الفحولة، هذا ما جرى للخنساء<sup>(٩)</sup> وهو مثل واحد يتم لم يتكرر فى ثقافة الشعر على مدى لا يقل عن خمسة عشر قرناً.

هذا هو المشهد الثقافى الذى يتغنى على «أكبر» الثقافة قبل ظهور نازك الملائكة فى عام ١٩٤٧.

ومن هنا، فإن ظهور هذه المرأة فى هذا الوقت ليس بالشئ العادى وليس بالشئ الطبيعى - إن فسرنا مفهوم الطبيعى بناء على المعطى الثقافى وليس المعنى النظرى.

والوقائع تؤكد أن الحدث لم يكن عادياً، وهذا أمر نستطيع استكشافه من خلال ردود الفعل على مشروع نازك الملائكة. وقد جاءت الردود بوصفها بعض أدوات الفحولة فى الدفاع عن ثقافة الفحول وأخذت بالتسلسل التالى:

(أ) كان أول رد فعل منضداً وأسر هو إنكار الأولوية على نازك، وقد كتبت بحوث كثيرة ودراستات متعددة، كتبها رجال فحول ينكرون عليها الأولوية وينعمون عنها الريادة ويؤكدون أن قصيدة «الكوليرا» لم تكن القصيدة الأولى فى اختراق نظام عمود الشعر وعروضه المذكور، ويسبون ذلك إلى رجال سابقين عليها أو معاصرين لها.

ولربما أنها كانت تعي أبعاد فعلتها فتظاهرت بعكس ذلك وأوحت للفحول بأنها ليست سوى شاعرة تسمى إلى تجديد ديوان العرب ومد يد مؤنثة تعاضد الفحول في مساهم التطوير. وهذه لعبة - لاشك - أن المرأة المثقفة لجأت إليها دائماً، لتحتمى بها، وهذا ما تكشف عنه إحدى رسائل مي زيادة إلى باحثة البادية حيث نقرأ قولها:

أسيادنا الرجال.. أقول «أسيادنا» مراعاة بل تحفظاً من أن ينقل حديثنا إليهم فيظنون أن النساء يتأمرن عليهم.. فكلمة «أسيادنا» تخمد نار غضبهم.. إني رأيتهم يطربون لتصريحنا بأنهم ظلمة مستبدون<sup>(٩٠)</sup>.

هذا قناع ثقافي وقائي تستعمله المرأة كي تعبر ذلك الطريق الطويل الشائك وسط إمبراطورية الفحولة. ويبدو أن نازك الملائكة قد تدرعت بهذا الوقاء كي تتمكن من حماية مشروعاتها من غلبة فحولة مدمرة.

لكن ما أقدمت عليه نازك لم يكن مجرد تغيير فني، ولو كان ذلك لتساوى عملها مع أعمال كثيرة جاء بها تاريخ الأدب وسجلت أدوارها التغييرية في حدود الشرط الفني لا أكثر.

إن عمل نازك كان مشروعاً أنشويًا من أجل تأنيث القصيدة. وهذا لم يكن ليتم لو لم تعمد - أولاً - إلى تهشيم العمود الشعري، وهو عمود مذكر، عمود الفحولة.

ولقد أقدمت على ذلك ببصيرة تعي حدودها وتعرف حقوقها، فأخذت نصف بحور الشعر، والنصف دائماً هو نصيب الأنثى. ولذا، فإن نازك لم تطمع فيما هو ليس حقاً لها.

أخذت ثمانية بحور هي الرجز والكامل والرملة والمتقارب والمتدارك والهزج، ومعها السريع والوافر، وتركت الثمانية الأخرى.

وفي هذا الأخذ والترك علامات واضحة على مشروع التأنيث، فالأخوذ هو النصف، والنصف هو نصيب الأنثى.

(د) ثم أخيراً يأتينا فحل آخر أحس أن الدفاعات الأولى كلها لم تكن كافية لحماية الفحولة والشفافة الذكورية، فلمب لعبة متمادية في دهائها فراح يعطى نازك الملائكة الحق في الشاعرية، ولكنه ينكر عليها تجرؤها على التنظير للحركة الشعرية. ويروح يسخر من أفكارها النقدية ومن رؤاها الفكرية ويقرعها تقريباً لاذعاً على كل رأى رأيته أو قول قالت به أو قاعدة أسندت إليها أو قانون اكتشفته، وكأنه يقول لها: «مالك ومال شغل الرجاجيل»<sup>(٩١)</sup>.

وأن تكون المرأة شاعرة فهذا أهون على الفحول من أن تكون منظرة وناقدة وصاحبة رأى وفكر ونظرية.

هذه دفاعات أربعة لا يعجزنا أن نلاحظ البنية العسكرية فيها، فهي تماثل الخطوط العسكرية من خط دفاع أول ثم ثان إلى رابع، وكل خط يكون أكثر تحصيناً وأقوى احتياطاً من سابقه. والفكر العسكري بوصفه أبلغ أنواع الفحولة وأشدها ذكورية هو ما يدير دائرة الحوار الذي هو علمي في ظاهره، ولكنه في جوهريه ليس سوى خطاب فحولي، استنهض ذاته وحكك أدواته وأسنة أقلامه لمكافحة هذه الأنثى المتجرأة على سلطان الفحولة وعمودها الراسخ.

### - ٣ -

ماذا فعلت نازك الملائكة بعمود الفحولة؟

في ظاهر الأمر لم تكن المسألة سوى تغيير عروضي تجريبي، هذا ما يبدو على سطح قصيدة «الكوليرا» المنشورة في أواخر عام ١٩٤٧.

ولقد تعامل الدارسون مع هذا المستوى السطحي التجريبي وانطلقت الدراسات تحوم حول هذا الأساس العروضي والفني الخالص، وكان المسألة مسألة تجديد أدبي شعري لا أكثر. ولقد أسهمت نازك الملائكة نفسها بتغذية هذا المنطلق الفني الصرف، ربما لأنها لم تكن تعي أبعاد فعلتها وخطورة ما أقدمت عليه، بسبب هيمنة النسق الثقافي، الذي هو نسق ذكوري، عليها، وتطبعها بشروط هذا النسق المذكر وخضوعها لذهنه.

عريضاً سيتسنى للقصيدة الحديثة أن تدخل عبره وتشرع في التأنيث بعد أن اعتقت من عمود الفحولة الصارم.

لهذا، واجهت نازك الملائكة كل أصناف المعارضات والاعتراضات من ممثلي الفحولة الثقافية؛ لأنها امرأة تصدت للعمود وتزلت تكسيره عمداً وعن سابق إصرار. ولم تكتف بكتابة الشعر وتجريب أوزان العروض، بل أشفعت ذلك بالتظهير والتخطيط والتفكير والتدبير، ومارست الأمر والنهي والجهر بالرأى والجرأة في المواجهة، وهذه كلها صفات لم تكن معروفة عن الأنثى في ذاكرة ثقافة الرجاجيل.

#### - ٤ -

ظهرت القصيدة المؤنثة في عام ٤٧ و ٤٨ وظهرت معها حيرة ثقافية حرجية حول تسمية هذه الوليدة الشاذة. فهي مولود مؤنث ولاشك، غير أن الثقافة لما تزل تفكر حسب النسق الذكوري، ولذا جاءت المسميات كلها مذكورة.

ولها هي نازك، حاضنة الوليدة، تبادر إلى منح طفلتها اسماً ذكورياً، فتسميها «الشعر الحر»<sup>(١٣)</sup>، دون أن تلاحظ انصياعها لشروط الثقافة المذكورة. وقد أظهرت نازك في مقامات عديدة خضوعها لشروط النسق الثقافي المذكر، وقد أشرت إلى ذلك في كتابي عن (المرأة واللغة) (ص ٢٠).

ولكن نازك أشارت في أحد المواقع إلى صفة تنم عن التأنيث حينما وصفت القصيدة الجيدة بأنها شعر الشطر الواحد، كأنها تقول إنه شعر النصف وشعر البعض، وهو النصف والبعض المهشم في الثقافة العمودية ذات النسق الجسدي المتكامل عضلياً وشكلياً بواسطة اعتمادها على شطرين صارمين في تكوينهما الثابت الذي لا يقبل الزيادة أو التقلص، على عكس شعر الشطر الواحد ذي الصفة المؤنثة في قابليته للزيادة والتقلص<sup>(١٤)</sup>.

وجاءت خالدة سعيد غافلة عن أنثوية الحركة فأطلقت مسمى «حركة الشعر الجديد» على هذا النوع الشعري<sup>(١٥)</sup>.

هذا ما فعلته الإناث فما بالك بما يفعله فحول الثقافة حيث نجد عندهم أنواعاً من المسميات المذكورة، فالنويهي يتردد بين عدد من الأسماء كالمرسل والمنطلق، ويفضل

كما أن البحور الثمانية المختارة تحمل سمات الأنوثة، من حيث كونها قابلة للتمدد والتقلص. كشأن الجسد المؤنث الذي هو جسد مرن يزداد وينقص حسب الشرط الحيوي في تولد الحياة فيه وتمدها من داخله وانبثاقها منه، ثم يعود فيتقلص وتستمر فيه سمة قبوله للزيادة والتقص وقدرته على «النزف» دون أن يفقد حياته. وهذه صفة تتوفر في البحور الثمانية المختارة؛ فهي بحور تقبل الزيادة والتقصان والتمدد والتقلص والتكرار عبر التصرف بالتمغيلة الواحدة زيادة ونقصاً. هي واحدة متكررة كحالة الجسد المؤنث إذ تنبثق منه أجساد وأجساد تتكرر.

كما أن هذه البحور الثمانية هي بحور شعبية متواضعة وقرية؛ فهي من الناس وللناس، فيها البساطة والليونة والخفة.

أما البحور الأخرى، كالطويل والمديد والمنسرح وغيرها، فهي بحور الفحول. فيها سمات الفحولة وجهوريتها وصلابتها، وفيها من الجسد المذكر كونه لا يقبل التمدد والتقلص وكونه عموداً راسخاً لا يتزعزع ولا يتنخ.

ولقد حاول الشعراء الرجال إدخال البحور المذكورة إلى القصيدة الحديثة فلم يفلحوا في ذلك، فانقصيدة الحديثة تأتي التذكر وهي في صدد التأنيث.

ومن حاولوا ذلك السياب وأدريس وقبلهما أبو حديد وطه حسين<sup>(١٦)</sup>.

ولقد أكثر نازك من الحديث عن هذه القسمة، وتكلمت بشغف واضح عن البحور الصافية، أي البحور المؤنثة، في مقابل الأوزان غير الصافية؛ الأوزان المشوبة بالتسلط والرسمية والعمودية؛ تلك التي يقوم عليها عمود الفحولة والنظام الأبوي الصارم<sup>(١٧)</sup>.

إن نازك الملائكة في عملها هذا تتصدى لتكسير العمود والنسق الذهني المذكر الذي يقوم عليه الشعر، وتفعل هذا مستعينة بالنصف المؤنث من بحور العروض. وبواسطة هذا النصف الضعيف تواجه النصف القوي وتتصدى له وتقاومه. وتنجح أخيراً في ترسيخ البحور المؤنثة، نصف العروض، وتكسر العمود الكامل الذي فقد نصفه المذكر. وفتحت بذلك باباً

كان يدعو إلى تجنب كلمة «حديث» لكي لا تتصادم مع مصطلح «قديم» وتتناقض معه.

ولقد اضطربت بصيرة الشاعر هنا وتداخلت العوامل الثقافية عنده فتغلبت شروط الفحولة على احتياجات الأنوثة، فلم تنصر عيناه ما كان الحس يوحى به من ضرورة تأنيث القصيدة وضرورة البحث عن تسمية مؤنثة، لا مجرد تسمية لا تتناقض فيما بين قديم الشعر وحديثه.

ومهما يكن من اختلاط في الرؤية هنا، فإن دعوة عبد الصبور قد فتحت باب التسمية فجاءت الكلمة المؤنثة.

## - ٥ -

جاءت الكلمة المؤنثة..

ولكنها ولدت ولادة قيصرية إكراهية. كرهاً على كره.

حدث هذا بعد أشهر قليلة من ظهور نداء صلاح عبد الصبور ومطالبته بابتكار «كلمة أخرى» تصلح لتسمية القصيدة الجديدة.

جاء ناقد رجل. وهذا هو مطلب عبد الصبور الذي تعنى «ناقد» ولم يقل «ناقدة».

جاء هذا الرجل من السودان طاوياً في نفسه النوايا الطيبة، لكن طيبات النوايا تنوء وسط ضواغط النسق الثقافي المهيمن فيأتي الجواب مؤنثاً، لكنه مثلبس بالتذكير تلبساً يصل إلى حد طاغ من القمع والتدجين.

وهذا عز الدين الأمين يخرج إلينا في مطلع عام ١٩٦٢ مستجيباً لنداء عبد الصبور بعد شهر من صدور النداء، فيلتقط خيطاً واهياً من كلام الشاعر ويحوّله إلى كرة صوفية متمسكة النسيج. هذا فعل الناقد الرجل مع اقتراح الشاعر المرفه.

لاحظ الناقد كلمة عبد الصبور حينما أشار إلى أن «التفعيلة هي المصطلح النغمي الذي يستطيع أن يلتقي عنده الشاعر والناقد»<sup>(١٩)</sup>.

لاحظها فقرر الالتقاء بوصفه ناقدًا مع قائل الكلمة الشاعر وأطلق عز الدين الأمين الاقتراح الاستلهامي فسمّاها «شعر التفعيلة»<sup>(٢٠)</sup>.

الأخير<sup>(٢١)</sup>. وغالى شكرى يسميها بـ «حركة الشعر الحديث»<sup>(٢٢)</sup>، مختلفاً مع خالدة سعيد في الصفة فحسب.

وهذه كلها محاولات لتحويل الوليدة الأنثى إلى كائن مذكر.

غير أن مشروع التأنيث قد بدأ فعلاً، وأخذت الأنوثة الشعرية تنشق مسارها وتتغلغل بالتدرج البطيء في ضمير الثقافة.

وجاء الشاعر صلاح عبد الصبور حاملاً هذا الحس في مكنون شعوره، ولعله لم يع ذلك، ولكنه بكل تأكيد كان مدفوعاً بهذا الحس الدقيق الخفي الذي بسببه راح في عام ١٩٦١ يعلن شكوكه وارتياحه من لعبة التسمية، فكتب يقول:

كثيراً ما يكون الاسم ظالماً لسماءه، أو ملقياً عليه ظلالاً من الشبهات وخاصة إذا كان هذا الاسم وصفاً، لأن الصفة عندئذ تستدعي نقيضها، كما يستدعي البياض ذكر السواد. وعندئذ تلتصع المقارنة ولا ينال الاسم رضا سامعيه إلا إذا اتضحت المناقضة أيما اتضاح وثبتت أشكالها وألوانها<sup>(١٨)</sup>.

اكتشف صلاح عبد الصبور التناقض والظلم والحيث في تسمية القصيدة الجديدة. فالأنثى تحمل اسم ذكر وفي هذا تناقض وظلم.

وراح صلاح عبد الصبور يدعو إلى تعديل مصطلح «الشعر الحديث» ونادى بأعلى صوته قائلاً: حبذا لو أسعفنا ناقد بكلمة أخرى.

وكم هو لافت للنظر أن استخدم عبد الصبور صيغة مؤنثة فطالب بـ «كلمة أخرى» بصيغة التأنيث ولم يطلب «مصطلحاً آخر» بصيغة التذكير. فالمقام مقام تأنيث - ولاشك.

ولا يفوتنا أن نشير إلى الحس المرفه والشاقب عند صلاح عبد الصبور إذ أحس بالحاجة إلى «كلمة أخرى»، وإن كان شعوره لما يزل ملتبساً بشروط الثقافة الذكورية، إذ إنه

الشعر. غير أن اكتشاف الأب الفحل أن المولود أنثى لا يزيده إلا تجهماً وتكبراً واستضعافاً لهذه الكائنة وتخقيقاً لها.

هذا نابع عن الاختلاط الشديد في ضمير الثقافة فيما بين عناصر الفحولة وعناصر التأنيث، والغلبة طبعاً للتذكير بما إنه النسق المهيمن. ولذا ضاع الصفاء وضاعت التفعيلات الصافية، وصارت في زعم الناقد الرجل طفولة إبداعية وبدائية ساذجة، بدلاً من أن تكون اختراقاً إبداعياً إعجازياً وانتصاراً مجازياً للقيم المستضعفة والهامة.

ولذا، فإن الفحولة تجند نفسها أخيراً عبر محاولة يائسة وأخيرة، حينما تصدى أحد النقاد الرجال وواجه الوليدة المؤنثة بآخر رصاصة في جعبة الثقافة المذكورة، حدث هذا بعد سبع سنوات من ظهور التسمية المؤنثة، وجاء الاقتراح بدعو إلى تسمية مذكرة وعمودية هي «شعر العمود المطور»<sup>(٢٤)</sup>. إنه حفيد من أحفاد الأب الوالد الحليل بن أحمد، فهو لذا شعر مذكر وهو عمود متجذر، وليست قصيدة حرة كما أنها ليست بنت نازك الملائكة، وبالتالي فهي ليست أنثى. إنه ولد ابن فحل وسليل الرجال، وهو مطور وليس جديداً.

على أن وصف الناقد لعمود هذا بأنه «مطور» يحيل إلى معنى الثقافة نحو إنكار فكرة الاختراق الأنثوي لعمود الفحولة ويسلب عن العملية فكرة التغيير والتكسير وتخطيم الأساس الذكوري «العمودي» للإبداع.

وبما إنه «عمود مطور» فهو ليس سوى سليل للأب القديم.

تلك كانت آخر المحاولات، ولكنها محاولة لم تفلح في تغيير مسار التاريخ ولم تجد لها نصيراً؛ فالتأنيث قد بلغ مدها وتمكنت الأنوثة من قصيدة التفعيلة.

## - ٦ -

لقد حاولت الثقافة المذكورة التصدي ومواجهة الانتفاضة المؤنثة، وبذلت جهوداً جبارة على أيدي الفحول من رجال النقد وحراس الثقافة، غير أن التاريخ كتب حبكة أخرى مختلفة وقال «كلمة أخرى» غير كلمة الناقد والناقدين الفحول.

لقد تأثت القصيدة حقاً وفعلاً.

هكذا جاء الاسم مطابقاً للمسمى، فارتفع التناقض وحصلت الوليدة على اسم مؤنث يتطابق مع أنوثتها، وذلك بعد خمس عشرة سنة من ميلادها.

ولقد ظلت تحمل اسماً متذكراً مدة أن ولدت عام ١٩٤٧، وظلت في متاهة الحيرة وبلايا التسميات حتى سخر الله لها رجلاً يسميها في مطلع عام ١٩٦٢ ويهب لها اسمها المؤنث.

ولكنه حين سماها أصر على أن يعمدها، وبأ لها من فرحة ما تمت.

إنه يسميها ويعترف بوجودها، لكنه يحتقرها ويكرهها كشأن الفحول الجاهليين الذين إذا بشر أحد هم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، كما ورد في الكتاب العزيز.

إنه يسميها «شعر التفعيلة»، وهو بهذا يستجيب لدواعي تأنيث القصيدة، فالشعر متذكر في أصله يؤول إلى أنوثة بواسطة الكلمة المؤنثة. ولكنه يروح فنقول إن هذا هو عمود القصيدة الحديثة<sup>(٢٥)</sup>، كأنه بهذا يعيد هذه البنت ذات الخمسة عشر عاماً إلى بيت الطاعة، بيت عمود الشعر.

لقد كافحت القصيدة هذه من أجل تكسير قيود العمود، ولكن هذا الناقد يصصر على تمسكها مرة أخرى، حيث تصدى لربطها بالعمود، بحول إحكام هذا الرباط وتوثيقها من داخله.

وبعد أن أحكم الوثاق عليها، فبذنها بالعمود، راح يسخر منها ويقلل من قيمتها، أحسن كسب أنثى ناقصة قاصرة...!

إنه يراها طفولة شعرية وعودة إلى الأصول البدائي للشعر - ما قبل التطور والنضج<sup>(٢٦)</sup>.

ومن ثم، فإنه من الضروري «صعها تحت حراسة العمود وملاحظة الناقد الرجل».

إنه يدرك السمة الأنثوية لهذا الشعر الحديث واستخدام كلمة «الأم» و«القصيدة الأم»<sup>(٢٧)</sup>، مثلاً سماها بسمى مؤنث، وتمائل مع عبد الصبور في الإحساس بأنوثة هذا



فلقد جاءت قصيدته الأولى «هل كان حبا» لتأخذ بنظام التفعيلة، غير أنها حافظت على عمود الشعر الذكوري في لنته وصياغاته وفي ذهنيته ونسقه القولي. ولم تظهر بوادر التأنيث عند السياب إلا بعد ذلك بعام كامل، فجاءت قصيدته «في السوق القديم» مزيجاً من الذكورية والأنوثة، واحتاج الأمر إلى بضع سنوات لكي تجيء «أنشودة المطر» و«الموسم العمياء»<sup>(٢٦)</sup>، حيث يأخذ التأنيث موقعه الجوهري في ضمير النص ونسقه. وهذا ما يحتاج منا إلى وقفة خاصة تستجلي أمره وتتابع تطورات وانتشاره، في مبحث آخر يأتي، إن شاء الله.

ولننظر في دواوين الشعر منذ عام ١٩٤٧ حتى يومنا هذا، حيث نرى قصيدة التفعيلة، بوصفها علامة على الأثوية الشعرية، تطفئ على وجه ديوان العرب الجديد.

ومن الواضح أن القصيدة التفعيلية قد ولدت أنثى في حضن ماما نازك. ونصوص «الكوليرا» و«الخيوط المشدود إلى شجرة السرو» و«ثلاث مرات لأمي»<sup>(٢٥)</sup> كانت الانطلاقة الأولى في مشروع التأنيث الذي سار بها وبعدها علامة إبداعية في شعر نازك الملائكة.

وإن كان الأمر جلياً ومحسوماً منذ البدء عند نازك، فإنه لم يحدث لدى بدر شاكر السياب إلا بعد تدرج بطيء، غير هين.

### الهوامش:

- ٨- عبد الله الغدامي، الصوت القديم الجديد، ص ٤٣.
- ٩- هو محمد التويهي، انظر كتابه قضية الشعر الجديد، ص ٢٤٩، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧١.
- ١٠- من زيادة، الأعمال الكاملة ١ / ١٥٥، جمع وتحقيق سلمي الحفار الكزبري، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٨٢.
- ١١- مصطفى جمال الدين، الإيقاع في الشعر العربي، ص ١٨٦ - ٢٠٠.
- ١٢- عن الجور الصافية وغيرها، انظر: نازك الملائكة، قضايا الشعر المعاصر، ص ٥٣ - ٧٩، مكتبة النهضة، بغداد ١٩٦٢.
- ١٣- السابق.
- ١٤- نفسه، ص ٥٩.
- ١٥- خالدة سيد، البحث عن الجذور، ص ٧٢، دار مجلة شعر، بيروت، ١٩٦٠.
- ١٦- التويهي، قضية الشعر الجديد، ص ٤٥٤.
- ١٧- عالي شكري، شعرنا الحديث إلى أين، ص ٧، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨.
- ١٨- صلاح عبد الصبور، مجلة المجلة، ديسمبر ١٩٦١، (نقلاً عن عز الدين الأسمن ١٠٦).
- ١٩- السابق.
- ٢٠- عز الدين الأسمن، نظرية الفن المتجدد، ص ١٠٨، دار المعارف بمصر، ١٩٧١، ط ٢.
- ٢١- السابق، ص ١٠٨.
- ٢٢- نفسه، ص ٨٧.
- ٢٣- نفسه، ص ١١٩ - ١٢٠.
- ٢٤- عبد الواحد لؤلؤة، مجلة شعر، العدد ٤٣، صيف ١٩٦٩، ص ٦٦.
- ٢٥- عن الكوليرا والخيوط المشدود، انظر: شظايا ورماد، ص ١٣٦ - ١٨٥، وعن ثلاث مرات انظر: قرارة الموجة، ص ١١٥ - ١٢٨، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٥٧.
- ٢٦- انظر: ديوان السياب، ج ١، ص ١٠١، ٤٧٤، ٥٠٩، دار العودة، بيروت، ١٩٧١.

- ١- نازك الملائكة، شظايا ورماد، ١٣٦، دار العودة، بيروت ١٩٧١.
- ٢- كثيرون كتبوا في ذلك ولي دور مع هؤلاء، انظر: عبد الله الغدامي، الصوت القديم الجديد، دراسات عن الجذور العربية لموسيقى الشعر الحر، ص ٢٤ - ٤٩، دار الأرض، الرياض، ١٤١٢ هـ.
- ٣- أستثنى من ذلك إشارة إحسان عباس في كتابه اتجاهات الشعر العربي المعاصر، ص ١٨، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨ وهو هناك يفسر أسباب ثورة الشعر الحر على يد نازك الملائكة شيشين الأول هو في ولع المرأة بالبدعة (الموضة ٩٠) والثاني في إيقان أن الملائكة للعروض مما جعلها تجرب إمكانات هذا العروض، وهو يقسم ذلك على ابتكار الأندلسيين للموشحات بسبب ولعهم وحجهم للعروض حسب تعليل إحسان عباس، ص ١٩. وهذا عنده ضرب من «هواية بليغة» دافعا الإحساس بالثقة أمام الأعب الأوزان والأعاريض، وكأني به قد نظر إلى المسألة على أنها لعبة، تلعبها نازك الملائكة. ولهذا، لم يلفت إلى البعد الثقافي الرمزي للحادثة وهو ما تسعى هذه الورقة إلى تأسيه.
- ٤- أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، ص ٢٤ المطبعة الأميرية الكبرى ببولاق ١٣٠٨ هـ، (تصوير دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٨).
- ٥- ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص ١٩٧، حجة بريل، لايدن ١٩٠٤، (تصوير دار صادر، بيروت، دت).
- ٦- كثيرون فعلوا ذلك منهم يوسف عز الدين، انظر كتابه، في الأدب العربي الحديث، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣ وهناك آخرون كثر قالوا بذلك. ولقد وقفت على ذلك كله في الصوت القديم الجديد، ص ٢٤ - ٤٩.
- ٧- هو صامويل موريه في كتابه، Modern Arabic Poetry, p. 204 Leiden: Brill, 1977. ولقد تمت ترجمة الكتاب إلى العربية قام بها سعد مصلوح وشفيق السيد، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٦. على أن موريه مسبق إلى هذه الفكرة، ومن سبقوه مصطفى جمال الدين في كتابه الإيقاع في الشعر العربي ص ١٥٥ وبا بعدها. مطبعة النعمان. النجف الأشرف ١٩.

# تقنية القناع: دلالات الحضور والغياب

## خلدون الشمعة\*

من أمثال السياب والبياتي وأدونيس وخلييل حاوي وصلاح عبد الصبور. وسواء كان هؤلاء الرواد، على ما في مواقفهم الفكرية والجمالية من ائتلاف واختلاف، واعين أو غير واعين نقدياً بتقنية القناع وأصولها في الشعر الإنجليزى، فإن ظاهرة الأقنعة في الشعر العربى الحديث تومئ إلى جملة من المؤشرات التى سنحاول أن نشير بواسطتها بعض الأسئلة الجوهرية التى تتصل بأسباب وعوامل ظهور تلك التقنية الشعرية بامتداداتها الحضارية، وآليات المكافحة والتناص التى اقترنت بها، قبل أن تنحسر انحساراً شبه كلى لدى الأجيال التى أعقبت جيل الشعراء الرواد.

ما دلالات هذا الحضور والغياب؟

- ١ -

بدأ الالتفات إلى تقنية القناع مع ظهور الحركة التموزية في الشعر العربى الحديث لدى خليل حاوي وأدونيس والسياب ويوسف الخال وجبرا إبراهيم جبرا.

ينتمى النموذج المبكر نسبياً لاستخدام تقنية القناع في الشعر العربى الحديث إلى مرحلة تحول في الحساسية الفنية كان الشاعر عمر أبو ريشة قد دشنها في قصيدته «كأس» التى نشرت في عام ١٩٤٠، واستمداد فيها عبر علاقة تناص وتماه، أسطورة ذلك الجن الحمصى الشاعر الذى قتل جاريته الحسناء حباً بها وغيره عليها قبل أن يجعل كأسه من جثتها المحروقة.

ولاشك في أن معرفة أبى ريشة المباشرة بمصادر الشعر الإنجليزى، بخاصة أعمال براوننج وتيسون، هى التى نبهته إلى المونولوج الدرامى الذى تربطه بتقنية القناع علاقة اقتران.

غير أن القناع لم يتحول إلى ظاهرة فنية، يمكن رصدتها وسبرها واستكناه دواخلها ودلالاتها وأشكال تجلياتها، إلا مع تبلور حركة الشعر الحديث على أيدي الشعراء الرواد

\* ناقد سورى مقيم فى لندن.

المرضية في الشعر أحياناً، كان طفرة استهدفت إعادة صوغ عصر نهضة عربي آخر يمتد بجذوره إلى حضارات ما قبل الإسلام.

### - ٣ -

الدلالة الدالة التي يمكن استنباطها من حضور القناع هي أن هذا النوع من القصائد اعتمد فكرة إليوت الخاصة بالمعادل الموضوعي، وهي الفكرة التي شرحها في مقالته «هاملت ومشكلاته» عندما كتب أن:

الطريقة الوحيدة للتعبير عن العاطفة في الشكل الفني تكمن في إيجاد معادل موضوعي... أو بعبارة أخرى إيجاد مجموعة من الأشياء، أو قل موقفًا، سلسلة حوادث تكون معادلة لتلك العاطفة بالتحديد.

وقد كان أثر فكرة المعادل الموضوعي على الشعر العربي ملحوظًا ولهذا، لجأ الشاعر العربي بتأثير من ذلك إلى موضعة عواطفه، أي جعلها موضوعية. وكان سبيله إلى ذلك إيجاد تمييز بين أنا الشاعر و أنا الفنية. وهكذا فقد وجد نفسه يتحدث من وراء قناع شخصية فنية قادته إلى المونولوج الدرامي.

غير أن هذه التجربة لم تكن تسفر دائماً عن قصيدة قناع مكتملة تتسم بخصائص يتفق عليها النقاد. ولعل هذا يعود إلى اللبس الذي وقع فيه النقد العربي عندما أخفق في التمييز بين «الإلماعة» Allusion والقناع Persona. والحال أن هذا التمييز لو حدث، لكان قميناً بحل مشكلة حقيقية واجهها النقاد العرب في اختباراتهم القليلة في سبر تشكيلات القناع.

ذلك لأن «الإلماعة» التي هي عبارة عن إشارة عابرة في القصيدة إلى شخصية أو حادثة أو أسطورة أو عمل أدبي بهدف استدراج مشاركة القارئ واستدعائها، باعتبارها تجربة تتكئ على المعرفة المشتركة بين الشاعر والمتلقي، ليست مشروع قناع بالضرورة أو ليست قناعاً ناقصاً، وإنما هي تقنية

وقد تجلّى هذا الالتفات في محاولة الحركة نحو إعادة اكتشاف الذات من خلال البحث عن مصادر حضارية بديلة. كانت ترجمة جبرا إبراهيم جبرا لفصل من كتاب (الفنن الذهبي) للأنتروبولوجي السير جيمس فريزر بمثابة تأكيد اهتمام الشعراء التمزيين بدور الأسطورة في الأدب.

ولأن القناع، على حد تعبير فريزر، يكشف بقدر ما يخفي، فإن تلك المصادر الحضارية البديلة التي ركزت على تراث منطقة الهلال الخصيب وبلاد الرافدين قبل الإسلام، أعادت ربط الشعر العربي بينابيع مستكشفة ألفت أضواء جديدة على التكوين النفسي والأسطوري لذات الشاعر ومخزونها الرمزي.

### - ٢ -

لعل من أبرز دلالات الحضور والغياب أن العودة إلى ما قبل التراث الإسلامي، وهي نقلة إجرائية أكثر منها إيديولوجية، كانت بمثابة انعطافة حضارية نهضوية توازي من حيث أهميتها بالنسبة إلى الثقافة العربية إلحاح الأدب الأوروبي على أن الحضارة الأوروبية تصدر عن أصول كلاسيكية ومسيحية؛ فهي إغريقية ورومانية من جهة ومسيحية وعبرانية من جهة أخرى.

وكما أعيد اكتشاف العناصر الكلاسيكية في عصر النهضة الأوروبي، كانت الحركة التمزوية بدورها مشابهة لمحاولة لاسترداد تراث المنطقة القديم، عززتها على نحو مباشر أو موارب، بعض أفكار أنطون سعادة في كتابه (الصراع في الأدب السوري) الصادر في الأربعينيات.

وقد اكتشف الشعراء التمزويون أن بعض رموز التراث الإغريقي إما متداخل مع تراث منطقة الهلال الخصيب أو مستمد منه. فقدموس الكنعاني بحث عن شقيقته أوروبا لتعليمها الأبجدية، وبذلك بدأت - حسب الرواية الكلاسيكية الإغريقية - مرحلة القراءة والكتابة في اليونان، كما أن الآلهة عشتار كما هو معروف، تقابلها أفروديت الإغريقية، وتموز يقابله أدونيس. ولهذا فاسترداد الشعراء التمزيين هذه الألقعة الأسطورية، حتى عندما لم تجد تطبيقاتها أو استلهاوماتها

## - ٤ -

كانت تجربة قصيدة القناع حصيلة لعلاقتي المشاقفة والتناص بين الشعر العربي الحديث والمصادر الأجلو- ساكسونية ممثلة في الشعر الإنجليزى بنماذجها القناعية المبكرة التي قرنت بين القناع والمونولوج الدرامى، كما تجلّى في بعض قصائد براوننج.

ومن الجوهرى الإلحاح على علاقة الاقتران هذه، نظراً لأن التمييز الاصطلاحي القائم في الأدب الإنجليزى بين القصيدة الغنائية الدرامية والمونولوج الدرامى ليس سجالياً، بل واضح لا لبس فيه. ولهذا، اعتبرت بعض قصائد جون دون، كقصيدة (The Canonization) مثلاً، غير محققة لشروط المونولوج الدرامى، وذلك لأن القناع الناطق الذى تتحدث أنا الشاعر من خلاله لا يقدم فى القصيدة عبر بؤرة تبرز الخصائص الشخصية المميزة له.

وقد تطور هذا التمييز الاصطلاحي فى وقت لاحق، كما هو معروف، فى شعر يتس واليوت وباوند، ومارست بعض قصائد هؤلاء الحدائين بنماذجها القناعية المحكمة تأثيرها، بقدر أوليها، على مثيلاتها لدى رواد الشعر العربى الحديث. إلا أن النقد العربى عموماً لم يول دراسة تقنية القناع ما تستحقه من اهتمام. فهو كثيراً ما يهمل التعرض لعلاقة القناع بالدراما، مكتفياً بالمعنى اللغوى لكلمة قناع العربية، ومعرضاً عن سير المعنى الاصطلاحي النقدي لكلمة Persona التى تربطها بالمرسح أكثر من وشيجة، وتعود بأصولها إلى المرسح الكلاسيكى حيث تشير إلى الشخصية الدرامية تحديداً.

وكان من نتائج ذلك أن مصطلح القناع كثيراً ما يوظف فى النقد العربى الحديث باعتباره كلمة ذات محدودات لغوية عامة، وليس اصطلاحاً نقدياً ينطوى على محمول معرفى خاص وواضح المعالم. والتمييز بين هذا الاستعمال وذلك ضرورى. فهو يذكرنا بمسرحية القناع عبر صيغة إجرائية تستمد مرجعيتها من نظرية الأجناس الأدبية بمؤشرات الوصفية أو قل الوافية، التى تساعد الناقد على أن يسير أغوار النص بدلاً من أن تقتصر مرجعيتها على الاجتهادات الشخصية وحدها.

إشارة أسرف إليوت فى استخدامهما، وكانت تستهدف إغناء النص بشبكة من علاقات التناص،، منحه أبعاداً تسبغ على الأنماط الأصلية العليا والرموز والشخصيات التراثية التى تستدعيها الإلماعة، دلالات جديدة تكتسبها من خلال تموضعها فى النص الجديد الذى يجعلها فى سيرة وصيرورة مستمرتين.

ولعل إصرار جبرا إبراهيم جبرا على وصف محاولة الشاعر أدونيس التوحيد بين المسيح والفارس الجواب وسيزيف وزرادشت والحلاج فى شخصية مهيار الدمشقى، بالعقم يعود أساساً إلى أنه نظر إلى الإلماعات التى يحفل بها الديوان وكان كلاً منها يمثل قناعاً قائماً بذاته ولذاته، يتعذر دمجها فى متحد continuum عضوى يؤلف بين مجموعة مغايرة من الأقنعة التى تنتمى إلى أرومة، أمكنة مختلفة.

وبالمقابل، فإن النظر إلى ديوان أغاني مهيار باعتباره يشكل قصيدة قناع واحدة قائمة بذاتها، يخضع للصيرورة عضوية دائبة التشكل والتحول، كما فعل عبد الرحمن بسبو، مستلهماً بعض استعارات الناقد جبرا، يعصفور فى القناع، يبدو لى محاولة ذات طبيعة سحرية فضلاً عن أنها شديدة المجازفة.

فقصيدة القناع، كما أسلف، ارتبطت أصلاً بالمونولوج الدرامى، والنزوع إلى اعتبار ذلك الديوان قصيدة واحدة بدلاً من توصيفها كقصائد تنتمى إلى مناخات متعددة محاولة للتجاوز أو قل الاجتهاد. بل إن هذا التوحيد المتعمد لتعددية تعبيرية قائمة على وجود علاقات سلافية بين قصائد (أغاني مهيار الدمشقى)، هو بمثابة عملية إضفاء projection لمؤشرات توحى بانتفاء هذا التعدد، وبالتالي إرباك المدلول النقدي الناجز لقصيدة القناع التى ترتبط بالمونولوج الدرامى بعلاقة اقتران.

كما أن هذا التوجه ربما كان يعكس تجاهلاً عملياً لنظرية الأجناس الأدبية الحديثة من حيث التفاصيل الإجرائية، من جهة، واعتراضاً بهذه النظرية من حيث اعتماد تسمية قصيدة القناع وتبنيها بعد تبنيها من محمولها المعرفى النقدي، من جهة أخرى.

- ٥ -

حين يمكن للناقد أن يكتشف الآليات التي اشتغل عليها الشاعر عبر استراتيجيات التناص التي كثيراً ما تبدو مرصعة بالإلماعات التي تومئ إلى تجربة المتنبي مع البطولي والفاجع، فإن بوسع الناقد نفسه أن يسبر كذلك نقاط الخلل التي يصير البطولي فيها ذريعة للسخرية من مفهوم البطولة نفسه.

- ٧ -

الدلالة السابعة تتعلق بتحديد غيباب تقنية قصيدة القناع من الشعر العربي الحديث بدءاً من عقد الثمانينيات.

ما أسباب هذا الغيباب؟.. وهل يمكن استكناؤه في الافتراض القائل بأن الشاعر العربي اكتشف فجأة إفلاس مفهوم البطولة الذي يرتبط مباشرة بتقنية القناع، سواء كان هذا الارتباط متعلقاً بالبطل hero بمعناه المشالي المجرد أم البطل protagonist بمعناه الذي يشير تحديداً إلى بطولة العمل الفني نفسه؟

- ٨ -

الدلالة الثامنة تفترض أن الغيباب النسبي لنظرية خاصة بالأجناس الأدبية ربما استتبع بغيباب تقنية القناع من الشعر العربي الحديث.

وربما كان ذلك يعود إلى أن التحديدات الخاصة بمكونات الشعر العربي الحديث تخوم باستمرار حول ثنائية قطبية متنابهة الشعر والنثر طرفاها، وذلك دون أن يولى الناقد اهتماماً يذكر بـ «الأجناس الفرعية» أو قل الأنواع المنطوية تحتها sub-genre، التي تندرج بدورها تحت لافتة الشعر نفسه. وإلا فآين على سبيل المثال المونولوج الدرامي والتجوى soliloquy والقصيدة الرعوية والغنائية، وغير ذلك من ضروب الأداء الشعرى المتداخل مع أجناس أدبية أخرى؟

لعل الأصح من هذا كله السؤال عن الأسباب التي حالت دون النقد العربي الحديث ودون صوغ نظريته الخاصة بالأجناس الأدبية صياغة استكشافية وصفية، أو ربما تصنيف وتحديد الصورة السلافية للأجناس والأنواع، بدلاً من الاكتفاء بتبشير حدائي مجرد يستمد عفوانه من نزعة ظافرية

الدلالة الخامسة من دلالات الحضور والغيباب تتصل مباشرة بارتباط قصيدة القناع بفكرة البطل التراجيدي. وبهذا الاعتبار فإنها تمثل وعياً مأساوياً بالذات. وإذا كانت: «تجربة الذات تمثل هزيمة الأنا دائماً» على حد تعبير يورغ، فإن هذه الهزيمة كانت تمارس في قصيدة القناع بوصفها تراجيديا خاصة تتمرأ في الهزائم العربية العامة باستمرار.

ولهذا السبب، فإن الانتقال السريع من مرحلة استعادة التراث الأسطوري التي شهدتها بدايات قصيدة القناع، ممثلة في أعمال الحركات التموزية، إلى مرحلة اكتشاف التراث الصوفي الإسلامي واستنباعه واستلهامه بعد تجريده من مرموزيته اللاهوتية، تعكس في أعمال البياتي وأدونيس وعبد الصبور قدرة الصوفية الفنية على الاستجابة للانهيارات الروحية في تاريخ العرب المعاصرين.

- ٦ -

الدلالة السادسة تشير إلى حدوث تنوعات عربية على جنس أدبي يرتبط بقرابة سلافية بقصيدة القناع، وأعنى به جنس «السخرية من البطولة» mock-heroic genre.

وتعتبر (الأرض الجباب) لإليوت نموذجاً محافظاً من نماذج هذا الجنس الأدبي. إلا أن تجلياتها الخاصة في الشعر العربي في مرحلة ما بعد الحداثة ربما كانت تتمثل في قناع المتنبي الذي يرتديه كمال أبو ديب في ديوانه (عذابات المتنبي في صحبة كمال أبو ديب والعكس بالعكس) دون أن يحاول تشكيل قصيدة قناع بالمعنى الدرامي للمصطلح.

لقد أصبح الديوان في هذا النموذج نصاً مفتوحاً على الهامش بامتياز، أو قل قصيدة تتعامل مع النص بوصفه ذريعة The text as a pretext.

ففي هذه السيرة الذاتية المزروجة التي تلبس فيها الأنا قناعاً فيما هي تدع القناع يتلبسها، يصير النص text الذي يتقنع بالبطولة ذريعة pretext لتدمير مفهوم البطولة نفسه.

وهكذا يصير نص أبي ديب التفكيكي بدوره قابلاً لعملية قراءة تفكيكية هي من قبيل القراءة المزروجة. ففي



مقيدون بالضرورة بتوصيفها الفني الذى يلح على أهمية علاقة القناع بالمونولوج الدرامى.

إلا أن تطوير مفهوم عربى للقناع، متحرر من هذه المحددات القاعدية التى تستجيب لها نماذج عربية كثيرة، لابد أن يعود بنا القهقرى إلى المرحلة المعجمية؛ أى إلى ما قبل ظهور المصطلح النقدي بما ينطوى عليه من محمول معرفى.

وإذا نحن فعلنا ذلك، نكون قد أصبحنا أمام نموذجين متغايرين وجهاً لوجه:

الأول: هو النموذج المصطلحي الذى يستمد مشروعته من نظرية وصفية متطورة للأجناس الأدبية وتستجيب له عينات كثيرة العدد نسبياً من قصائد رواد الشعر العربى الحديث، والثانى هو النموذج اللغوى الذى يدور فى فضاء دلالى معجمى، يمكن للنقاد أن يملأه بتعريفات تمتع من معين الاجتهاد الشخصى وحده.

وتكون حصيلة ذلك كله أن مصطلح قصيدة القناع يصير كلمة دالة على نموذجين نقيضين، كلمة لا تعنى ولا تحدد ولا تعين.

وإذا أخذنا نموذج قصيدة «عين الشمس» لعبد الوهاب البياتى (من «قصائد حب على بوابات العالم السبع» الصادر فى السبعينيات) عينة على قصيدة القناع التى تنطوى على محمولات معرفية وجمالية تستجيب للمعنى الاصطلاحي لها، باعتباره وثيق الصلة بالمونولوج الدرامى، فلا نكون قد أغلقنا بذلك باب الاجتهاد أو حلنا دون اكتشاف مفاتيح مغايرة تستجيب لقصيدة قناع أخرى، باسم أصولية نقدية منغلقة لا تنسجم مع رغبتنا فى التحرر والانطلاق، وإنما نحن نصر بذلك على دور النقد فى بلورة لغة قاعدية Foundationalist لا لغة أصولية منغلقة. إن هذه اللغة الدقيقة هى التى تخول دون تحميل مصطلح القناع ما لا يحتمله من دلالات ويراد لها أن تنشئ علاقة تماء وتناص بين قصيدة «عين الشمس» لعبد الوهاب البياتى وأغاني مهيار الدمشقى، لأدونيس. فهل يصبح للدلالة واحدة معناها عندما تعين نموذجين متغايرين؟ لإيضاح المقصود بدور النقد فى المحافظة على استراتيجياته القاعدية وما يتصل بها من

تزهو بنصوص تمتلك مرجعيات دائنية أى تحيل نفسها على نفسها.

## - ٩ -

الدلالة التاسعة تقوم على افتراض مفاده أن هبوط الموجة الصاعدة التى حملتها المؤثرات الأنجلو - ساكسونية وانحسارها من الشعر العربى الحديث فى مرحلة أعقبت صعود الشعراء الرواد، قد تزامن مع تعلب المثاقفة الفرنسية فى الشعر والنقد.

ونظراً لأن نظرية القناع، من حيث تعريفها المؤسسى foundationalist أى نشأة وتطوراً، واكتمالاً، غائبة أو شبه غائبة عن الأدب الفرنسى، فإن من المفيد التذكير بأن مفهوم القناع لدى الشاعر مالارميه، يشكل أحد الاستثناءات المهمة من هذا الحكم، فإن قناع مالارميه الذى استمد من المسرح البدائى أو اليبابنى كما توضح باولا جليبرت لويس فى كتابها: «جماليات ستيفن مالارميه فى علاقته بجمهوره» يختلف اختلافاً بيناً عن قناع يتس أو إليوت أو باوند؛ فهو قناع يتعلق بالوشيجة التى تربط الشاعر بالجمهور، وهى وشيجة تحكمها غائية مغايرة تقوم على تقديم قصيدة مقنعة؛ أى تضع قناعاً ضبابياً كما هو الشأن فى «قصيدة الأزور» (L'Azur)، التى أشار فيها مالارميه إلى ضباب يذكرنا بضباب مدينة لندن الذى يعتبره وسيلة لحماية نفسه من الانكشاف أمام الجمهور أو حتى إقامة علاقة اغتراب معه.

إن مفهوم هذا النوع من القناع - كما أسلفنا - مغاير لمفهوم القناع بتقنياته المحددة اصطلاحياً فى سياق الشعر الإنجليزى. هذا على الرغم من أن مالارميه كان واسع الاطلاع على الأدب الإنجليزى. وقد عمل مدرساً للأدب الإنجليزى، كما هو معروف.

وهكذا تكتفى رؤيته من القناع بدلالته اللغوية قريبة التناول (عبر المحك اللغوى وحده لا المحك الأجناسى)؛ أى باعتبار القناع حاجزاً يفصل بين الشاعر والجمهور.

## - ١٠ -

الدلالة العاشرة هى أن تأكيد قصيدة القناع ظاهرة أنجلو - ساكسونية من حيث النشأة والتطور، لا يعنى أننا

لكنى أطلقتها تعدو وراء النور فى مدائن الأعماق  
فاصطادها الأغراب وهى فى مراعى الوطن المفقود  
فسلخوها قبل أن تذبح أو تموت  
وصنعوا من جلدھا ربابة ووترًا لعود  
وها أنا أشده: فتورق الأشجار فى الليل ويكى عندليب الريح  
وعاشقات بردى المسحور  
والسيد المصلوب فوق السور

(٣)

تقودنى أعمى إلى منفاى: عين الشمس

(٤)

تملكتنى مثلما امتلكتها تحت سماء الشرق  
وبهتًا ووهبتى وردة ونحن فى ملكة الرب نصلى فى انتظار البرق  
لكنها عادت إلى دمشق  
مع العصافير ونور الفجر  
تاركة مملوكها فى النفى  
عبداً طروباً أبقاً مهياً للبيع  
وميتاً وحى  
يرسم فى دفاتر الماء وفوق الرمل  
جبينها الطفل وعينها ومض البرق عبر الليل  
وعالمًا يموت أو يولد قبل صيحة الموت أو الميلاد

(٥)

أيتها الأرض التى تعفنت فيها لحوم الخيل والنساء  
وجثث الأفكار  
أيتها السنابل العجفاء  
هذا أوان الموت والحصاد .

(٦)

قرية دمشق  
بعيدة دمشق  
من يوقف النزيف فى ذاكرة المحكوم بالإعدام قبل الشنق  
ويرتدى عباءة الولي والشهيد؟  
ويصطلى مثلى بنار الشوق؟  
أيتها المدينة الصبية  
أيتها النبية

محمولات معرفية وجمالية طورها النقد العربى بطريقته  
الخاصة، أقدم فى ما يلى هذا الملحق التطبيقي الذى ظهر فى  
كتايبى (الشمس والعنقاء) عام ١٩٧٤، أى فى وقت متزامن  
تقريباً مع نشر قصيدة البهائى. ويتضمن الملحق قراءة تقوم  
بعملية ربط محكم بين القناع والمونولوج الدرامى. ولهذا،  
فإنها ربما ألفت ضوءاً على ما أعنيه بالنقد القاعدى.

## ملحق تطبيقي

### نموذج لقصيدة القناع وقراءة لها

تحولات البياتى: منيح فى قراءة قصيدة

(١)

أحمل قاسيون  
غزاة تعدو وراء القمر الأخضر فى الديجور  
ورودة أرشق فيها فرس المحبوب  
وحملاً يتغو وأبجدية  
أنظمه قصيدة، فترتمى دمشق فى ذراعه قلادة من نور .  
أحمل قاسيون  
تفاحة أقضمها  
وصورة أضمرها  
تحت قميص الصوف  
أكلم العصفور  
وبردى المسحور  
فكل اسم شاردا ووارد أذكره: عنها أكنى  
واسمها أعنى  
وكل دار فى الضحى أندبها: فدارها أعنى  
توحد الواحد فى الكل  
والظل فى الظل  
وولد العالم من بعدى ومن قبلى

(٢)

كلمنى السيد والعاشق والمملوك  
والبرق والسحابة  
والقطب والمريد  
وصاحب الجلالة  
أهدى إلى بعد أن كاشفنى غزاة

### مدخل:

لنفترض، بادئ ذي بدء، أن القصيدة مونولوج درامي.  
إن هذا الافتراض - كما سنرى - يمكن أن يضع أمامنا  
الخصائص التالية التي يتميز بها هذا النوع من الشعر،  
بوصفها مفاتيح نحاول بها استجلاء مطاوي القصيدة.

(أ) المونولوج قصيدة غنائية.

(ب) تعتمد على شخصية واحدة.

(ج) تستظهر ما تبطنه القصيدة أو تستكشف النفس

وهي تعمل.

(د) تتوجه الشخصية إلى الجمهور انطلاقاً من موقف

درامي أو لحظة درامية.

وبهذا المخطط التبسيطي لا نزعم أكثر من أن حركة  
القصيدة تتم من خلال شخصية واحدة، وأنها تنطوي على  
عنصر مسرحي بغير المعنى المحدد لهذه الكلمة، فليس ثمة  
موقف يفترض علاقة بين أطراف متعددة، وإنما يوجد صوت  
يتردد بين زمنين: الحاضر والماضي.

إن لغة الدراما هي لغة الفعل المضارع، الفعل الذي  
يجري الآن ولما ينقض بعد. وأما لغة القصة فهي لغة الفعل  
الماضي. وهذا التحديد يستجلى توتر القصيدة على المستويين  
القصصى والدرامى. فى المستوى القصصى يبرز عنصر التاريخ  
وفى المستوى الدرامى يتضح الفعل وهو يتحقق الآن.

ومن هنا، فإن القصيدة لا تقدم (تحولات) محيى  
الدين بن عربى فحسب، وإنما (تحولات) عبد الوهاب البياتى  
أيضاً. وهذا الحكم يضعنا وجهاً لوجه أمام مسألة العلاقة بين  
القصيدة والمادة التاريخية التي استمدت منها. إن هذه العلاقة  
تطرح واحداً من أعقد الإشكالات التي يواجهها النقد  
المعاصر.

ترى كيف نقرأ القصيدة؟

كيف نقرب من القصيدة؟

١ - هل نتناول القصيدة على أساس أنها استعادة ذكية  
لتجربة صوفية، وبالتالي فإن من الضرورة بمكان الانطلاق فى

أكتب الفراق والموت علينا؟ كتب الترحال  
فى هذه الأرض التي لا ماء لا عشب بها، لا نار  
غير لحوم الخيل والنساء  
وجثث الأفكار

(٧)

لا تقترب ممنوع

فهذه الأرض إذا أحببت فيها حشم الثانون

عليك بالجنون

(٨)

عدت إلى دمشق بعد الموت

أحمل قاسيون

أعيده إليها

مقبلاً يديها

فهذه الأرض التي تحددها السماء والصخر

والبحر والسماء

طاردهن أمواتها وأغلقوا على باب الغير

وحاصروا دمشق

وأوغروا على صدر صاحب الملاة

من بعد أن كاشفنى وذبحوا العزلة

لكننى أقلت من حصارهم ويكف

أحمل قاسيون

تفاحة أقضمها

وصورة أضمرها

تحت قميص الصوف

من يوقف التزييف؟

وكل ما نحبه يرحل أو يموت

يا سفن الصمت ويا دفائن الماء وغيض الريح

موعدنا: ولادة أخرى وسمر قائم جديد

يسقط عن وجهى وعن وجهك فيه اللؤلؤ والقناع

وتسقط الاسوار

عبد الوهاب البياتى

«عين الشمس» أو تحولات محيى الدين بن

عربى فى ترحال الثانون»

محاولة استكناه دواخلها من معجم المتصوفة أو معجم محيي الدين بن عربي بالذات؟

٢ - أم أن القصيدة ينبغي أن تدرس في ضوء تجربة الشعر المعاصر في إعادة خلق الواقع وإعادة تمثله وفق:

(أ) القيم الأخلاقية والجمالية الجديدة.

(ب) الحساسية الشعرية المعاصرة.

إن الافتراض بأن القصيدة (مونولوج درامي) قد يمهّد الطريق بعض الشيء. فنحن لزاء شخصية تتحدث بصوت منفرد. وبالتالي فثمة ممثل في مسرحية تمثل على مسرح في زمن محدد. وصوت الممثل يبدأ من لحظة درامية. ولكي نعثر على اللحظة الدرامية هذه، فإن علينا أن نتذكر أن القصيدة في جوهرها تأويل معاصر لتجربة المتصوف الكبير محيي الدين بن عربي في ديوانه (ترجمان الأشواق) الذي كتبه في التغزل بفتاة رومية. وقد أثار هذا الشعر خصوم الشيخ إلى حد اضطر معه إلى الامتنال لطلب كل من بدر الحبشي أمير دمشق (توفي عام ٦٩٨ هـ)، والشيخ إسماعيل بن سودكين أبو الطاهر الشوري الحنفى (توفي عام ٦٤٦ هـ) بأن يشرح الديوان مؤكداً أنه إنما سلك طريق التغزل والتشبيب من أجل الحديث عن مقاصد ربانية وأسرار روحانية.

إن اللحظة الدرامية التي تستهل بها القصيدة هي اللحظة التي يبعث فيها محيي الدين بن عربي. ولهذا فالقصيدة ليست استعادة تاريخية وإنما هي خلق أسطوري بدلالات معاصرة، وبلغت مستمدة من لغة (ترجمان الأشواق). إن الشاعر هنا لا يقوم بتصوير شخصية تاريخية يمنحها الحياة، وإنما يمارس عملاً من أعمال التلبس-Iden-tification، فهو يتصرف كما يمكن أن يتصرف الشخص المتلبس، ويمنحه الموقف الدرامي في القصيدة جميع إمكانات التخيل في العمل الفني. وبالتالي، فإن التلبس يتيح له حرية الحركة وفق معطيات حياة ابن عربي وأفكاره.

إلا أن هذه الحركة تسيّر وفق مسار واتجاه يحدده الشاعر، فهو يستخدم عملية التلبس على المسرح بوصفها أداة

من أدوات التعبير عن تجربة معاصرة ونحن إذ نذكر التجربة المعاصرة فمن المؤكد أننا لا نستطيع بأى حال أن نصنفها تصنيفاً حسب الموضوع. فليس ثمة من فكرة رمزية مسيطرة على القصيدة، وإنما هناك رؤية شاملة يتيحها المنهج الصوفي. فمن المعروف أن الشعور الصوفي - على حد تعبير وليم جيمس:

ليس فيه محتويات فكرية من نفسه، ولكنه يستطيع أن يتزاوج مع المادة التي تقدمها كل المذاهب الفلسفية والديانات المختلفة أيضاً، إذا وجدت هذه مكاناً في إطارها، للعاطفة الغريبة في الشعور الصوفي.

هناك إذن منهج صوفي لا يستغله الشاعر عبد الوهاب البياتي للتعبير عن تجربة الاتحاد مع الله أو المطلق، وإنما هو يعبر بهذا المنهج عن بدائل معاصرة لهذه التجربة. وهذا ليس غريباً على التقليد الصوفي في التعامل مع نصوص تستجلي فيها دلالات وإشارات ليست ظاهرة فيها. وقد بلغ هذا التقليد لدى محيي الدين بن عربي في كتابه (محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار) حد استجلاء دلالات وإشارات صوفية في نصوص عادية كتبت لأغراض هي أبعد ما تكون عن التصوف. إن البياتي يقوم هنا بعملية معاكسة لما فعله محيي الدين بن عربي. إنه لا يعبر عن السماوى بالأرضى، وإنما يعبر عن الأرضى بالسماوى.

وبهذه اللغة الرؤيوية التي يتمثلها ويوجهها في قنوات الوعي نحو دلالات جديدة، يتلو البياتي مونولوجه الدرامي متلبساً شخصية ابن عربي وقد بعث من الموت.

الوجه والقناع:

القناع هو أداة التلبس. ولايس القناع ممثل يتلبس الشخصية التي يلعب دورها على المسرح. ومنذ القديم كانت الآلهة والشياطين والحيوانات تشخص بالاعتماد على الأتعة. بيد أن الساحر المقنع الذي يقوم بدور إله الموت، كان ينظر إليه على أنه إله الموت نفسه. وهكذا فإن التمثيل لم يكن تمثيلاً، وإنما كان الممثل هو الممثل نفسه. وكان التطابق كاملاً بين الوجه والقناع.

الأزدواجية ويتحد الداخل بالخارج، والباطن بالخارج والمضمهر بالملعن، وأن يعود للعالم تماسكه، فتحل الوحدة محل التعدد.

توحد الواحد في الكل والظل في الظل

إذن، فالقصيدة تتكشف عن مسرح يقف في وسطه مثل يتحدث بصوت محيى الدين بن عربي، بعد أن بعث من الموت. وتلك هي اللحظة الدرامية التي يستهل بها المونولوج. ولأنها تقدم بالزمن الحاضر: «أحمل قاسيون»، فإنها تفترض وجود جمهور يستمع في اللحظة نفسها. أما عندما يتبدل زمن القصيدة فإن هذا يكون دلالة على الانتقال من العنصر الدرامي إلى العنصر القصصي: أى إلى خارج المونولوج. والخط الفاصل بين العنصرين واضح تماماً، كما سنرى الآن.

العنصر الدرامي والعنصر القصصي:

إن المونولوج الدرامي يقدم الحدث Action بالفعل المضارع. وأما المادة القصصية، فهي مروية بواسطة الفعل الماضى، وبصوت راوية من خارج الحدث. وهكذا فإن المقاطع (٢٤-٨) التى سردت بالفعل الماضى، تبدو أشبه بإضاءات تاريخية تسهم فى إيضاح معالم الرؤيا الشاملة كما يرسمها المونولوج. ذلك أن المونولوج الدرامي تعبير عن حالة شعورية وليس حديثاً منطقياً متسلسل الحلقات. وبعبارة أخرى، فإنه فكر يتشكل بالصور فى اللحظة الراهنة وليس تعبيراً عن الفكر بواسطة الشعر.

فالأنا الدرامية للممثل الذى يرتدى قناع (محيى الدين بن عربي) تبدأ حوارها الوحيد الطرف فى اللحظة التى يبعث فيها من الموت. وهذا الحوار ينطلق من فكرة وجود حقيقة مستترة يمكن أن تسير فى لحظات نادرة من الحدس والبصيرة. وبالطبع. فإن الاعتماد على التاريخ يتيح للممثل أن يتحرك وفق فرضية المنهج الصوفى.

فهو يقدم سلسلة من التجليات المتمثلة فى صور مختلفة كل منها بمثابة تجلٍ خاص للفتاة التى تمثل الحق «عين الشمس».

ولكن الممثل فى قصيدة البياتى مزدوج شخصية. إنه ممثل، وتلك هي مشكلته الوجودية. فهو يعيش حياة على مستوى الوجه، وأخرى على مستوى الظل أو القناع.

يا سفن الصمت ويا فقاقر الماء وقبض الريح  
موعدنا ولادة أخرى وعسر قادم جديد  
يسقط عن وجهى وعن وجهك فيه الظل والقناع...

إن هذا المقطع الأخير فى القصيدة، قد يصلح مفتاحاً لولوج العنصر الدرامي؛ ذلك أنه يقترح طريقة لقراءة متشدة للمونولوج، تدخل فيها هذه المعطيات المستجدة.

لقد افترضنا منذ البداية أن القصيدة مونولوج درامى. ولكن هذا الافتراض كان يعنى أن ضمير المتكلم فى مطلع القصيدة:

أحمل قاسيون...

يشير ثلاثة احتمالات:

(أ) يعود الضمير على الشخصية التاريخية التى بنيت عليها القصيدة وهى شخصية محيى الدين بن عربي.  
(ب) يعود على شخصية الشاعر وقد تلبس الشخصية التاريخية.

(ج) يمثل (الأنا) الشعرية التى تقابل (الأنا) القصصية فى الروايات.

فالشاعر كالروائي ليست لديه أناه الشخصية، إنه مضطر إلى استخدام ضمير المتكلم لكى يتحدث إلى القارئ بلغة تدخل فى روعه أو توهمه بأن العمل الفنى أشبه بالتجربة التسجيلية أو التجربة التى يتحقق فيها عسر الإمكان. (وهذا هو الفارق بين الخلق/ الإبداع والاحتلاق/ الانتداع).

وفى ضوء المقطع الأخير من القصيدة يتجلى إصرار الشاعر على نفى الاحتمالات الثلاثة بأشكالها الحاسمة هذه. ذلك أن البياتى يعود بضمير المتكلم على الممثل الذى يقوم بالدور الأول فى القصيدة، وهو ممثل يرتدى قناعاً: أى يعيش على مستويين من الوعي، ويتمنى أن يسقط القناع وأن تتبدد



فهو «بومي» إلى الحركة ويرسم البعد الدينامي في عملية الخلق الفني. والشاعر عبد الوهاب البياتي يتقرى حقيقة شعرية ذات طابع ثوري، ولذلك فهي ليست حقيقة إستاتيكية وإنما هي ديناميكية دائبة التحول. وهو لا يلبث أن يعاود رصد حركة الحقيقة في صورتها الجمادية الأولى، ويحرفها في مسار جديد، فإذا هي تتقاطر وتستحيل بفعل الكيمياء الشعرية إلى صورتها البسيطة، وإذا بها ضوياً في متناول اليد مادة ملموسة (تفاحة تقضم) وطوراً آخر فكرة سرية، غامضة، مقلقة، يتعذب بها الشاعر:

أضمرها تحت قميص الصوف

نير أن الشاعر لا يستمر في كتمان السر. إن البوح والتصريح هما مهمته من حيث هو شاعر ثوري. وهو باحث أبدياً عن جمهور يتواصل معه. وفي الموقف الدرامي الذي تشكل القصيدة على أرضيته، يبحث الشاعر عن يوح له بالحقيقة التي حملها جبلاً، وشمساً، ووردة، وحملاً، وأبجدية، وقصيدة، فلا يجدن غير «العصفور وبردى المسحور». إن الشاعر متوحد يضم صورة الحقيقة المعذبة إليه تحت قميص صوفي خشن. إلا أنه لا يلبث أن يعاود الاكتشاف بأن الحقيقة ماثلة في كل تجلياتها، إذ إن المحبوب واحد مهما تعددت صورته وأسماءه. ولذلك فهو يتحدث بلسان محبي الدين بن عربي:

فكل اسم شارد ووارد أذكره: عنها أكنى  
واسمها أعنى وكل دار في الضحى أندبها  
فدارها أعنى.

إن الشاعر الذي يتلبس شخصية «ابن عربي» ينطق هنا بكلماته نفسها مع تخوير بسيط اقتضته الضرورة الشعرية. يقول ابن عربي في «ذخائر الأعلاق»: شرح ترجمان الأنواق:

فكل اسم أذكره في هذا الجزء أكنى وكل دار  
أندبها فدارها أعنى (٢)

إن البياتي لا يورد هذه العبارة على سبيل التضمين فحسب، وإنما هو يوحد بين الوجه والقناع، بين الممثل

إن الممثل يحمل «قاسيون»، الجبل الذي دفن على سفحه ابن عربي الشخصية التي يتلبسها. وهو بإعلانه عن ذلك إنما يبدأ المونولوج بالإعراب عن مسؤوليته تجاه الحقيقة وقد تجلت في أصعب صورها. فالحقيقة جبل من المتعذر زحزحته، إلا أنها ماثلة هناك يحمل الشاعر مسؤوليتها في جميع صورها وتحولاتها.

وإذا كان الفعل المضارع وسيلة للتعبير عن اللحظة الراهنة، فإنه يظل مفتوحاً على المستقبل، وبالتالي فإن الشاعر يتحدث عن فعل في طور الصيرورة، فعل ينسحب على الحاضر والمستقبل. فهو مسؤول باستمرار مهما تغيرت مسارح الحقيقة وتبدلت صورها وتنافرت تجلياتها أو تناقضت.

إننا هنا إزاء حركة توازي حركة تحول المادة إلى طاقة في الفيزياء؛ فالحقيقة تتجلى في أكثر من سماء ومسرحها العالم بظواهره وعناصره، وهي تتلبس بالاقترانات المتحولة دلالات ومعاني متجددة تتجلى في:

- (أ) الجماد (قاسيون).
- (ب) النور (غزاة) (١).
- (ج) النبات (وردة).
- (د) الحيوان (حمل).
- (هـ) اللغة (يفغو).
- (و) الفكر (أبجدية).
- (ز) الشعر (قصيدة).

إن هذه المنظومة من التحولات لا تلبث أن تتوج أخيراً بالشعر؛ ذلك أن في القصيدة الشعرية تكمن الحقيقة الروحية والمادية في نهاية المطاف. إنها المادة والشكل، الجوهر والمظهر، الصدفة والقانون، السبب والنتيجة. وهي تحقق وحدة المتناقضات، والتوازن بين الأضداد، والاقتران بين العام والخاص، والفكرة والصورة. فالحقيقة الشعرية هي الوحدة النهائية، «الطبيعة الثانية» أو «العالم الذهبي» على حد تعبير الناقد سدني معاصر شكسبير. ففي الطبيعة الثانية، أو العالم الذهبي، يتم التغلب على شرور العالم وليس استئصالها. ذلك أن «الاستئصال» معناه استئصال الصراع اللازم. أما «التغلب»

حسار الباب الهوى

فى الهوى وارتبكوا

فلم أشعر إلا بضربة بين كتنفى بكف ألين من  
الخز. فالتفت فإذا بجارية من بنات الروم، لم أر  
أحسن وجهاً ولا أعذب منطقاً، ولا أرق حاشية،  
ولا ألطف معنى، ولا أدق إشارة ولا أظرف  
محاورة منها، قد فاقت أهل زمانها ظرفاً وأدباً  
وجمالاً ومعرفة فقالت يا سيدى كيف قلت؟  
فقلت:

ليت شعرى هل دروا

أى قلب ملكوا

فقالت: عجباً منك وأنت عارف زمانك تقول  
مثل هذا؟

أليس كل مملوك معروف؟

وهل يصح الملك إلا بعد المعرفة وتمنى الشعور  
بعدمها والطريق لسان صدق فكيف يجوز لمثلك  
أن تقول مثل هذا...؟<sup>(٣)</sup>

إن المملوك هو السيد والعاشق وهو العارف أيضاً. ومن  
هنا فالشاعر دائب الحوار مع الحقيقة يداورها ويتلمسها فى  
استحالاتها المتعددة.

فالمعرفة أو الحقيقة تتجلى برزاً<sup>(٤)</sup> ينقضى فى آن،  
لنستحيل فى صورة أخرى سحابة<sup>(٥)</sup> مانعة لا يمكن تجاوز  
حدودها.

وهى تظهر لدى القطب<sup>(٦)</sup> كما تبدى فى حضرة  
المريد. ولكن الحقيقة أو المعرفة فى صورتها المثلى لا تنكشف  
لبصيرة الشاعر إلا عندما يتحد بالذات العلوية على طريقة  
الصوفيين.

وفى تلك اللحظة الخاطفة يمتلك الشاعر المعرفة أو  
الحقيقة ولكن لبرهة. إنه لا يكاد يمتلكها ويضع اليد عليها  
حتى يفقدها. فالحالات الصوفية تتميز بما يسمى بـ  
«الوقتيّة» على حد تعبير وليم جيمس فى كتابه (أنواع من

والممثل. وبالتالي فهو بحاجة إلى صوت من عربى لتحقيقي  
ليحسم لعبة الازدواج التى أشرنا إليها فى مطلع الدراسة. إن  
المطابقة بين الأنا الدرامية والأنا التاريخية. تتم على نحو  
يمكن تقريره فى الحضور التسجيلي «البثائقي» لصوت ابن  
عربى التاريخي. وتتمه المقطع الأول من القصيدة تؤكد أن  
هذه المطابقة مبررة كلياً وفق السياق الدرامي؛ ذلك أن الجزء  
يتوحد أخيراً بالكل، والوجه بالقناع، الجوهر بالمظهر، المضمهر  
بالمعلن.

مأساة «الوقتيّة»:

على أن صوت ابن عربى لا يلبث أن يختفى عن  
المسرح، ومع انتقال إيقاع القصيدة إلى العمل لماضى، يعاود  
الممثل الظهور. إنه يتحدث من خارج الحدث، كأنه يقدم  
إضاءة لما حدث. ولهذا، فإن البياني يعتمد على قاموس ابن  
عربى فى شرح برهة من تجربته الصوفية، عندما يخاطب  
الذات العلوية فى عدد من تجلياتها وصورها وخواصها

إلا أن رموز ابن عربى تقتصر فى هذه القصيدة على دلالات  
جديدة. فالسيد والعاشق والمملوك (المقطع الثانى) ليسوا غير  
صور لمختلف حالات الحقيقة أو المعرفة التى يحاورها الشاعر  
مستكشفاً.

ولعل إحدى حالات الشاعر، وتكون حالته (مملوكاً)،  
أن تتضح من خلال المثال التالى الذى يورده سحى الدين  
بن عربى فى معرض الإشارة إلى كون الامتلاك حالة تعقب  
المعرفة:

كنت أطوف ذات ليلة بالبيت، فطاب وقتى  
وهزنى حال كنت أعرفه فخرجت من البلاط  
من أجل الناس وطفقت على الرمل، فحضرتنى  
أبيات فأنشدتها أسمع بها نفسى ومن يلينى - لو  
كان هناك أحد -:

ليت شعرى هل دروا

أى قلب ملكوا

وفى لوى لوى

أى شمس سلكوا

أتراهم سلموا

أم تراهم سلكوا

حقيقة في ذاتها. والشاعر الأعمى غير قادر على اللحاق بها بعد أن خلفته في المنفى. إنه يرسم صورتها على الماء وفوق الرمل خلال زمن غير محدد. وزمن القصيدة نفسه يتوقف عند لحظة تختلط فيها الأزمنة ويستوى الموت والميلاد والماضي والحاضر. وبالتالي، فإن الممثل يكف عن التمثيل. إن قناع الممثل هو الآن جزء من وجهه. إنه لا يخاطب جمهوراً، وإنما هو يقرر أن عصر الثورة قد أزف. فالأشياء لا بد أن تسمى بأسمائها، ولا بد أن يتحد في ذات الشاعر، الممثل والشخص الحقيقي في آن.

في لحظة الرجسية الصوفية هذه أو لعلها لحظة تحقق الذات، يقف الشاعر أمام الموت وجهاً لوجه. ذلك أن لحظة صحوه هي لحظة موته التي تتميز بنزيف في الذاكرة وهي تتحرك جائشة، منطلقة، متحررة من قيود الزمان والمكان. لقد ترددت تجربة الشعر الصوفي لدى العرب بين ثلاثة أساليب:

- (أ) الصريح.
- (ب) المحتمل.
- (ج) الرمزي.

وكان شعر انحلاج تغلب عليه الصراحة إلى حد أنه أدى إلى الفشل به، وكانت تجربة محبى الدين بن عربي من النوع «المحتمل»، أى الذى يحتمل التأويل. وفي معظم النماذج الشعرية التي كانت تحتل التأويل أو تقترب من الرمز، لم يكن الرمز مقصوداً لذاته وإنما كانت الضغوط الاجتماعية هي سبب الابتعاد عن التصريح. ومن هنا، فإن «الأنا» الدرامية التي تمثل دور محبى الدين بن عربي في هذا المونولوج، تجابه بتجربة الموت في اللحظة التي تقرر فيها نزاع القناع والتصريح بالحقيقة السافرة.

ولكن القصيدة تعود في المقطع الثامن إلى لحظة البدء، أو اللحظة الدرامية التي بدأت منها: يبحث ابن عربي عن الموت، حاملاً مسؤولية المعرفة والحقيقة، ويروى قصة الموتى الذين طاردوه وأغلقوا عليه باب القبر ليمنعوا صوت الحقيقة الصامت من أن يصبح صائناً. بيد أن الحقيقة تظل بعد بعثه من الموت حبيسة الصدور تحت قميص الصوف. فالتجربة التي مرت بها شخصية الممثل المقنع في حلبة

التجربة الدينية. ولهذا، فإن المقطع الثاني من القصيدة تعبير درامى رائع عن مأساة «الوقتية» في تجربة الاتصال بالمعرفة أو الحقيقة. إلا أن «الوقتية» هنا تتخذ سماتاً مختلفاً عما هو الأمر عليه لدى الصوفيين.

فالشاعر هنا لا يفقد المعرفة أو الحقيقة لأنها سرعان ما تلاشت بعد أن كتمها في مطاوي النفس ودواخلها، وإنما هو يفقدنا لأنه سرعان ما يطلقها ليفيد منها الآخرون.

وهذا ينسجم تماماً مع صورة الشاعر في مطلع المونولوج باعتباره ذلك النموذج الثوري المؤمن بأن الحقيقة ينبغي أن تكون ملكاً للمجموع، وألا تكون حكراً لأحد.

غير أن مأساة «الوقتية» في تجربة المعرفة، هنا، لا تبدأ منذ اللحظة التي يتخلى فيها الشاعر عن المعرفة أو الحقيقة، وإنما تبدأ لحظة يصطادها الأغراب في مراعى الوطن المفقود.

إن البياتي يرسم صورة باهرة لهذه المأساة:

— فالمعرفة أو الحقيقة يمثل لها بشمس أو «غزاة» ما إن يطلقها الشاعر حتى يقتنصها الأغراب فتسلخ ويصنع من جلدها ربابة ووتر يشده الشاعر «فتتورق الأشجار في الليل ويكي عندليب الريح».

إن المأساة تستحيل ما هنا أسطورة قومية وإنسانية يصل بها عبد الوهاب البياتي إلى مستوى من التعبير يضعه في مصاف أعظم شعراء العصر.

#### عصر الثورة:

في المقطع الثالث يستأنف الشاعر رحلته إلى الزمن الحاضر: لقد فقد المعرفة والحقيقة، والقدرة على الإبصار. إلا أنه ربما كان ما زال محتفظاً ببصيرته التي تقوده إلى «عين الشمس».

وهو يوحى إلينا في المرحلة الرابعة من القصيدة أنه يستعيد تفاصيل قصة قديمة تلقى ضوءاً على الصيغة التقريرية التي اختزل بها حصيلة تجربته في المقطع السابق.

فالمقطع يروى جزءاً من قصته مع «عين الشمس» لقب الفتاة التي أحبها. غير أن الفتاة رمز للحقيقة قدر ما هي

معاصراً لتجربته، فإن ذلك يعنى أن عنصر الخلق يسوغ مجاوزة المصطلح إلى مصطلح آخر. وذلك شأن القصيدة: فابن عربى يقول بالتجلى ولا يقول بالتحول.

التجلى تجربة تأملية ثابتة. أما التحول فتجربة حركية تفترض الانتقال من حال إلى حال.

فماذا فعل البياتى فى قصيدته؟

هل اكتفى باستجلاء شخصية تاريخية ساكنة؟

هل تلبس شخصية جديدة؟

هل خلق شخصية متحولة؟

فى كل ذلك لك أن تقول إن القصيدة تواسج بين عنصر القص الذى يتجلى فى رواية التاريخ وعنصر الدراما الذى يضى على القصيدة طابع الصيرورة والاستحالة.

فالمقاطع المتحولة فيها جاءت بالزمن الحاضر، أى فى برهة لما تنقضى بعد: قلقة مفتوحة على المستقبل، دائبة التحول، لا تلتئم فيها صورة الحقيقة إلا لتكتسب سيماء جديدة.

المسرح تتكرر وتضعه مجدداً أمام ضرورة الثورة الموعودة، حيث يتلاشى الحد بين الفعل والتظاهر بالقيام به:

موعدنا: ولادة أخرى وعصر قادم جديد يسقط عن وجهى وعن وجهك فيه الظل والقناع وتسقط الأسوار.

غير أن برهة الحقيقة هذه لابد أن يسبقها الاستعداد للتظهر والشهادة:

من يوقف التزييف.. ويرندى عباءة الرلى والشهيد؟.

تجليات أم تحولات؟

تقف «أنا» الشاعر صنو «أنا» الشخصية التاريخية التى يتلبسها. ذلك أن من طبيعة الأشياء أن يوسع الشاعر من حجم حضوره إلى الحد الذى يضعه فى الموقع الذى تفترضه النظرة الدرامية فى المونولوج. غير أن الإشكال الذى يظل ماثلاً فى هذا النوع من الشعر يتصل بمسألة التعبير عن الشخصية والموقف التاريخي. فإذا كانت هذه القصيدة استعادة تاريخية لتجربة محيى الدين بن عربى، فإن هذا يحتم التقيد بلغته وبمصطلحه الصوفى. أما إذا كانت القصيدة تأويلاً

## الهوامش:

يقول: فاتخذنا من الظنى عقه وهو إشارة إلى النور. ذخائر الأعلام، تحقيق: محمد عبد الرحمن الكردى، ص ٥٤.

٢ - ص ٤، المرجع السابق.

٣ - نفسه، ص ٧.

٤ - التجلى الذاتى هو البارق لعدم ثبوته (نفسه، ص ٢٧).

٥ - «غشى على جبريل فى ليلة الإسراء، ولم يغش على الرسول لعظم روحه. فعندما جاءت السحابة البيضاء وقف جبريل وقال هذا مقامى لو تجاوزت شبرا أو فرسا لا احترقت (نفسه، ص ١١).

٦ - الإمام.

١ - يقول محيى الدين بن عربى فى ذخائر الأعلام: شرح ترحمان الأشواق:

فلا تنكرن يا صاح قولى عرافة

نضى لغزالان بعض على الدما

ويشرح البيت بقوله:

لا تنكروا هذا البيت مع كونى أريد عيباً واحداً، فإني لكل إشارة معنى مقصوداً والغزاة هنا اسم من أسماء الشمس وقد تكررت الفعند فى البيت الذى يأتي بعده:

فلظنى أجياداً وللشمس أوجها

وللدمية البيضاء صدراً وممصا

# قراءة النص فى ضوء علاقاته بالنصوص المصادر قصيدة القناع نموذجاً

عبدالرحمن بسيسو\*

بموقف كجاني حدائي، نسيج شبكة المتناقضات، ومن اكتشافه علاقاتها الممكنة؛ بغية تفعيلها، وفتح أقطابها المتناقضة على جدل حر ومفتوح يفضى إلى تجديد الذات، والشعر، والمجتمع.

ولأن الشاعر، من حيث هو كائن اجتماعي، وذات مبدعة، هو القطب دائم الفاعلية، المشتبك مع جميع أقطاب شبكة المتناقضات، لكونه متحركاً فى وسطها، أو لكونها منسربة فى داخله، تكبحه، فيما هو يواجهها إذ يواجه ذاته، ويواجه ذاته وواقعه، وواقع الشعر، إذ يواجهها؛ فإنه يضفر دوافعه جميعاً، ويسحر موعلاً فى أعماق نشاطه الإنسانى، ومجاله الحيوى الذى هو الشعر؛ كى يبدع القصيدة - التجربة، أو القصيدة - الرؤيا، لتكون، بدورها، مجالاً حيويًا، أو عالمًا من المرايا البؤرية الكاشفة، تتبدى فيه الخيوط متباعدة المصادر والألوان، وهى تنسج الشبكات الثلاث: المتناقضات وعلاقاتها الراهنة والممكنة، الدوافع، والوظائف. وهى

## تكوين القناع وبناء النص:

تعود محاولة تعرف دوافع التقنع فى القصيدة العربية الحديثة إلى الإطلال على شبكة المتناقضات التى تتخلل الواقع العربى مكبوحه عن التفاعل، وإلى تعرف طبيعة العلاقات القائمة بين الشاعر من جهة، وواقعه الاجتماعى - التاريخى، وذاته، والشعر، من جهة ثانية؛ وذلك على اعتبار أن موقف الشاعر؛ المتوجه نحو اختراق شبكة المتناقضات لفك كوابحها، وتفعيلها، هو المحدد الأساس لطبيعة علاقاته التى تعكس، من بين ما تعكسه، دوافع التقنع فى القصيدة، والوظائف التى يتطلب من القناع أن يؤديها فيها. فإذا تستدعى عملية اختراق شبكة المتناقضات نسج شبكة علاقات فاعلة ومؤثرة؛ فإن هذه الشبكة تنهض بدورها على شبكة دوافع متضافرة ومتفاعلة، تنبع من قراءة الشاعر المسكون

\* ناقد وباحث، فلسطينى.



غالباً، اسم الأنا المغاير الذي صار اسماً للقناع، أو الذي أدخلت عناصر منه مع عناصر أخرى تترد، غالباً، إلى أنا الشاعر، في تكوين اسم جديد للقناع، وعلى اعتبار أن المصاحبات النصية الأخرى: اسم الشاعر، المقدمة، عنوان الديوان، تاريخ الكتابة - إن وجد - تاريخ النشر... إلخ، تقدم معطيات كافية لتحليل علاقة الشعراء بشبكة مصادر التسمية على مستويات مختلفة، وفي ضوء منظور يتعامل مع قصيدة القناع بوصفها ظاهرة، وليس نصوصاً مفردة، ومستقلة.

إن عملية تكوين اسم جديد للقناع هي، من حيث البنية التي تنتجها، صورة مصغرة لعملية تكوين القناع ذاته؛ ذلك لأنها تمثل الحد الأدنى الذي يمكن لتفاعل أقطابه: أنا الشاعر وأنا الأنا المغاير، أن ينتج قناعاً. ونظراً لأن عملية تكوين القناع من حيث هي تجربة مروية في القصيدة، وهوية تتحقق فيها، لا تقتصر - كما تفصح عن ذلك معظم القصائد المقنعة - على المصدر الوحيد الذي استدعى منه اسم الأنا المغاير الذي أعطى للقناع، أو على المصدرين اللذين استدعيت منهما العناصر المكونة لاسمه الجديد. كما أنها - أي عملية تكوين القناع - قد تغاير المصدر الذي استدعى منه الاسم، مقارنة بعيدة، فتنأى بالقناع عن هوية الأنا المغاير المتحققة في ذلك المصدر، وتتوجه نحو مصادر أخرى، وذلك على النحو الذي يصير معه الاسم موحداً السمات والخصائص بصورة جزافية، كما نلاحظ في إيماءات اسم القناع: مهيار الدمشقي، مقارنة بخصائص هويته وشبكة دلالاته، أو على النحو الذي تبدو معه إichاءات الاسم وهي تسهم، بجلاء، في تكوين القناع وصوغ خصائص هويته، كما نلاحظ في كثير من القصائد، أو هي تسهم في ذلك بغموض وخفاء، كما نلاحظ في قصائد أخرى؛ فإن ذلك كله، بالإضافة إلى ما سيكشف عنه التحليل النصي، يؤكد أن مصادر التسمية ليست هي - دائماً - مصادر التكوين؛ وذلك لأن هذه الأخيرة لا تتعلق باسم القناع بقدر ما تتعلق بهويته التي تتحقق، دائماً، في سياق صيرورة تجربته المروية في القصيدة، وهو الأمر الذي يفصح عن أن تكوين القناع ليس إلا مصطلحاً مضمناً في مصطلح أوسع هو تكوين القصيدة، أو بناء النص. وعلى ذلك، فإن النص هو المجال الوحيد الذي

الشبكات التي تصطرع في الكون الذي يتحرك فيه القناع، ويحركه، باعتباره - أي القناع - معادلاً موضوعياً، أو موازياً شعرياً، للشاعر - الإنسان الذي يتحرك في الواقع الموضوعي ليجدد ذاته، ويجدده. فلئن كان الشاعر - على مستوى القصائد غير المقنعة، هو «محور تركيب القصيدة» الموضوع<sup>(١)</sup> وهو منشؤها، بوصفه دأماً مبدعة، أو أنا تخيل إلى ما اصطلاح على تسميته بـ«المؤلف الضمني» الذي ينظم النص، والذي يروي تجربته، بوصفه أنا مضمرة لا تخيل إلى الشاعر من حيث هو مؤلف حقيقي؛ بل إليه بوصفه «أنا من ورق»<sup>(٢)</sup>، على حد تعبير رولان بارت؛ فإن صدور قصيدة القناع عن تجربة رؤيا داخلية، أو تمام دياكتيكي، لا يفصى فحسب إلى إعادها عن التمرکز حول أنا الشاعر، أو حول هوية مجردة؛ هوية من ورق، يحيل إليها الصمير: «أنا»، بل إنه يجعل القناع الذي لا يطابق أياً من القطبين الأساسيين اللذين يشكلانه، يتبدى، في القصيدة، بوصفه رمزاً كلياً حسياً وعينياً هو محور تركيبها، وخائص تجربتها، ومحقق صيرورتها؛ ومبدعها الذي، يحقق انتماءها إليه إذ ينطقها، بانها بذلك كينونتها الموضوعية المستقلة عن الشاعر؛ حيث تتمحور القصيدة حوله، ليس فقط كمعادل موضوعي - شعري لتجربة الشاعر، أو لتجربة الشخصية، أو لكليهما معاً؛ بل كمعادل موضوعي لتجربة إنسانية مستمرة هي نتاج تفاعل كلتا التجريبتين في رؤيا الشاعر، وهي تجربة القناع اللامتناهي الذي يتواصل حضوراً في الحياة والتاريخ.

وإذ يولد القطب الأول في تشكيل القناع: الشاعر، سؤال الدوافع؛ فتفتح محاولة الإجابة عن هذا السؤال إمكان تحليل شبكة المتناقضات التي تحكم الواقع، وإدراك مكونات شبكة علاقات الشاعر مع ذاته، ومجتمعه، والشعر، على طريق بناء شبكة الدوافع متعددة المستويات والأبعاد؛ فإن القطب الثاني في تشكيل القناع: الأنا المغاير، يولد السؤال عن المصادر التي يستدعي منها الشعراء أناسهم المغايرة التي يعطون أسماءها، كلياً أو جزئياً، للأقنعة. ويقود إلى إجراء معالجات متعددة المستويات والمداخل لهذه المصادر، انطلاقاً من المعطيات التي تقدمها عناوين القصائد، والمصاحبات النصية الأخرى. وذلك على اعتبار أن عنوان قصيدة الشاعر يتضمن،

يمكن أن نبحث فيه عن مصادر التكوين، الواضحة أو الخفية.

ولا ريب أن حضور اسم الأنا المغاير، كاسم للقناع، أو كعنصر يشارك عنصرا آخر يرتد إلى أنا الشاعر في تكوين اسم جديد له، سيولد فرضا - قد يبدو هيئة بدهية - مؤداه أن المصدر الذى استدعى منه ذلك الاسم، أو أحد مكوناته، سيكون مصدرا مهيما في تكوين القناع، أو أنه، فى أقل تقدير، سيكون أحد المصادر البارزة فى تكوينه، الواضحة على سطح النص، أو الغائبة فى نسيجه، وفى ثنايا طبقاته العميقة. وقد يؤدى حضور أنا الشاعر كقطب رئيسى ودائم فى تكوين القناع: تجربة وهوية، وفى تسميته أحيانا، إلى توليد فرض مشابه يقودنا إلى مسألة سطح النص عن المكونات العائدة مباشرة إلى الشاعر وشبكة علاقاته مع واقعه، وسيرته الذاتية، وتجربته الحياتية، وفكره النظرى، وخصائص هويته التى يتميز بها فى الواقع الاجتماعى الذى يعيش فيه، والتى نعرفها مسبقا، أو نكوّنها لأنفسنا عنه.

وعلى الرغم من أن هذين الفرضين لا يتجاوبان مع المفهوم العميق لديالكتيك التماهى الذى يحكم العلاقة بين أنا الشاعر وأنا الأنا المغاير فى قصيدة القناع التكوينية المحكم، والذى تؤكد نتائجه أنه «بمجرد أن يعثر الشاعر على قناعه، ويصبح هذا القناع الشكل الخارجى لحياته الخلاقة، فإن هذا القناع يفقد الاتصال الحقيقى كله مع حياته الطبيعية»<sup>(٣)</sup>. وعلى الرغم، أيضا، من أن كلا الفرضين ينهض على تصور سطحى لمبدأ التقنع فى القصيدة، ولقصيدة القناع من حيث هى نص، حيث يتبدى القناع، فى هذا التصور، مجرد حيلة بلاغية، أو بوق ينطق كلمات كان بمقدور الشاعر أن يقولها على لسانه الشخصى، وبصوته الخاص. وتتبدى القصيدة وكأنما هى خزانة ذات أدراج متسلسلة؛ أى متتاليات شعرية، تحتوى بانفصال وعلى التوالى، شذرات من تجربة الشاعر، ومن تجربة الأنا المغاير، أو كأنما هى نسيج مرقع احتفظت كل رقعة منه بخصائصها المتميزة، ولونها الأصلى الذى يدل على الثوب الذى اقتطعت منه. على الرغم من هذا وذاك، فإن لكلا الفرضين المشار إليهما إيجابية أساسية تكمن فى تمكيننا من اكتشاف الطريقة، والدرجة التى يعمل فيها

ديالكتيك التماهى فى هذا النص أو ذاك، وهو الأمر الذى يتوضح من خلال إدراك القوانين والآليات التى تحكم «ديالكتيك التماس» الذى هو، فى التحليل الأخير، اقتناص وتجسيد لنتائج ديالكتيك التماهى.

وإذ نرى فى الفرضين المشار إليهما ما يوفر للتحليل منطلقا يبدأ منه؛ وذلك على اعتبار أنهما ينهضان على تصور سطحى لمبدأ التقنع يفضى إلى انبثاق المستوى الأدنى لديالكتيك التماهى، وإلى إنتاج التجلى الأدنى، أى التجلى البلاغى اللاتكوينى لقصيدة القناع؛ فإن فى ذلك ما يدفعنا إلى وضع كلا الفرضين، والتصور الذى ينهضان عليه، فى دائرة الاهتمام؛ كى تتمكن من خلال المواجهة بين الأدنى والأعلى من اكتشاف مستويات اشتغال كل من ديالكتيكى التماهى والتناس فى أى قصيدة نحللها؛ بغية اكتشاف مصادر تكوين القناع الذى ينطقها. فإذا تباين طاقات اشتغال ديالكتيك التماهى قوة وضعفا؛ فإن انعكاسه على النص يفضى إلى تباين الآليات الحاكمة لديالكتيك التماس، وإلى تعدد مستويات اشتغاله، وذلك على النحو الذى يفصح عن تباين درجات التفاعل بين الأقطاب المشكلة للقناع، وبين التجارب والنصوص المتداخلة فى بناء تجربته، وصوغ هويته المتحققة فى القصيدة.

ولئن كان كل نص، وعلى نحو معمّم، هو «لوحة فيسفائية من الاقتباسات»<sup>(٤)</sup>، أو هو «مجال لالتقاء خطابين على الأقل»<sup>(٥)</sup>، أو «سلسلة من العلاقات مع نصوص أخرى»<sup>(٦)</sup>، وذلك فى ضوء إدراكنا أن الحوار بين النصوص هو «ظاهرة معتادة على طوال التاريخ الأدبى»<sup>(٧)</sup>، حيث ينهض النص الجديد على «تشرب وتحويل لنصوص أخرى»<sup>(٨)</sup> سابقة عليه أو معاصرة له؛ فإن هذا الحوار، هذا التشرب والتحويل، يتحقق فى الشعر بطريقة بالغة الكثافة والحمق إلى درجة يغدوان معها ضرورين «لولادة معنى النص»<sup>(٩)</sup>، حين يصعب التقاط معناه، وبناء شبكة دلالاته، بمعزل عن إدراك القاع الذى ينهض عليه، عبر اكتشاف النصوص المتداخلة فى نسيجه.

وإذا ما كان هذا هو شأن الشعر عموما؛ فإننا نستطيع، بالنسبة إلى الشعر العربى الحديث، أن نذهب مع جوليا

### تفاعلات الأنا وتداخل النصوص:

وكي تتحقق تجربة التماهي، وكى يشغل التناص، لابد من توفر حد أدنى، وليس هذا الحد الأدنى إلا حواراً بين قطبين، تفاعلاً بين ذاتين فاعلتين ومنفعلتين، وتداخلاً بين نصين. وإذا تنطلق قصيدة القناع من قاعدة العلاقة التي يؤسسها القطبان الأساسيان: أنا الشاعر، وأنا الأنا المغاير، فإن بعض النصوص يضل لصيقاً بهذه القاعدة، أو قريباً منها، فيما ينطلق بعضها الآخر إلى فضاءات أوسع، فيحتضن، في إطار تجربة التماهي الماثرة في قاعه، كثرة من الأنا المغايرة، ويوسع عالمه بالحوار المتفاعل مع نصوص كثيرة تربو على الحصر.

وقد يكون لطول النص، أو قصره، أثر ظاهر في الدلالة على درجة اقترابه من تلك القاعدة أو ابتعاده عنها. فإذا افتتح طول القصيدة إمكان تعدد مصادر التكوين، وتوسع قاع النص، فإن قصرها يغلُق هذا الإمكان، أو يضيق مجاله، أو يحول دون تحقيقه على الشكل الفني الموائم. وعلى الرغم من المنطقية الظاهرة لهذه الفروض، ومن الاستخلاص النقدي الشائع الذي مؤداه أن القصائد العظيمة هي دائماً قصائد طويلة؛ وذلك بسبب من كمية الواقع التي لابد أن تتضمنها كمضمون ظاهر<sup>(١٠)</sup>، فإننا نحسب أن العوامل الخفية التي تحدد حجم القصيدة هي ذاتها التي تفضي إلى تصاقها بالقاعدة أو ابتعادها عنها. فليس حجم القصيدة إلا نتاجاً لتلك العوامل التي نعتقد أنه ما من عبارة قادرة على احتضانها جميعاً غير عبارة «طبيعة التجربة»، فالتجربة كما تبدى في القصيدة تحتضن الدوافع الكامنة وراء التفتح فيها. وتفصح القصيدة، عبر التحليل المتأن، عن تراتبات الدوافع وعن الدافع الأكثر هيمنة عليها. فحين يهيمن على الشاعر دافع معين مدرك من جانبه، كأن يتحاشى الاصطدام المباشر بالسلطة السياسية وأجهزتها القمعية، أو أن يعبر من خلال قناع عن موقف أو رؤية معينة لا يستطيع، لسبب أو لآخر، أن يثبهما على لسانه الشخصي، فإن هذا الدافع، وعلى الرغم من استدعائه دوافع أخرى تلازمه، هو الذي يحدد، بالضرورة، حجم النص بحجم الجزء المراد إضاءته من تجربة الشاعر عبر إضاءة ما يوازيه، أو يتجاوب معه، من تجربة الأنا المغاير، وهو

كريستيفا في تأكيدها أن التناص، أو التماهي النفسي، أو الحوار بين النصوص، هو «بالنسبة للنصوص الشعرية الحديثة» قانون جوهري، إذ هي نصوص تتم صياغتها عبر امتصاص، وفي الآن نفسه عبر هدم النصوص الأخرى للفساء المتداخل نصياً. وإذا تبدى قانون التناص قانوناً جوهرياً بالنسبة إلى النص الشعري الحدائي عموماً، فإنه بالنسبة إلى قصيدة القناع، قانون ضروري؛ وذلك لأن هذه القصيدة لا يمكن أن تتحقق دون أن تنهض على آليات اشتغال هذا القانون الذي هو - كما سبقت الإشارة - الوجه الآخر لديالكتيك التماهي: القانون الجوهري الذي عليه تنهض تجربة التفتح. فإن نحن نظرنا إلى الشاعر وإلى الأنا المغاير، كذاتين تتفاعلان في مجال رؤيا داخلية تفضي بالشاعر إلى اعثور على قناعه؛ فإننا نكون بإزاء ديالكتيك التماهي الذي نحسب أنه مصطلح ملائم للتعبير عن ذلك التفاعل. وإن نحن وجهنا النظر نحو عملية تحويل تجربة الرؤيا الداخلية إلى نص؛ أي إلى قصيدة قناع، فإننا نواجه ديالكتيك التناص الذي نسمي عليه القصيدة مجسدة تفاعل أنا الشاعر: بوصفها تجربة واقعية، ومكونات ثقافية، أي بوصفها نصاً مشغولاً من كثرة من التجارب والنصوص، مع أنا الأنا المغاير: بوصفها تجربة مبرزة في نصوص معينة، وبوصفها هوية متحققة في تلك النصوص، أو نصاً شفاهياً ينسرب في نسيج الواقع، أو في الحاضر المعيش، وفي وجدان الناس، وذلك على النحو الذي يفضي فيه التفاعل بين هذه النصوص إلى خلق القصيدة التي تجلّي انبثاق تجربة التماهي، أو الرؤيا الداخلية، وتنعكس فاعليتهما، فيما هي تعكس ناتجهما في تجربة القناع، وفي هويته المكتسبة عبر صيرورة تجربته المتحققة في القصيدة.

إن ديالكتيك التناص، في مسوّء ما سبق، هو الوجه الظاهر لديالكتيك التماهي؛ ذلك لأنه يعكس عملية تحول قطبي القناع من ذاتين متفاعلتين إلى مدنيين متداخلين، ويقتصر الحركة الباطنية التي تمر بها تجربة الرؤيا الداخلية، مجسداً نتائج صيرورتها وحركة حادّة وتفاعل أقطابها في جسد القصيدة، ومقتنصاً هوية القناع، من حيث هي هوية مجردة تتحقق عبر رؤيا الشاعر الداخلية. كي يحولها، باللغة، إلى تجربة حيوية، وحية، تجرى في مجال حيوي هو النص الذي يحقق لها الوجود في الحياة، والتاريخ.

الأمر الذى يحكم الأعم الأغلب من القصائد القصيرة، والقصائد - الومضة التى تبدى، وكأنما هى نص مكتوب فوق نص وحيد!

وحين يتجاوز الأمر حدود التعبير عن موقف محدد، أو الإشارة الجزئية إلى حالة معينة، أو اقتناص لحظة من لحظات تجربة واسعة، إلى الدخول فى تجربة رؤيا داخلية، بالمعنى الفلسفى أو الصوفى، وإلى تجسيدها فى النص بوصفه تجربة إنسانية كلية وشاملة؛ فإن اتساع التجربة بفضى، بالضرورة، إلى اتساع النص، دون أن يتطابق كلا الاتساعين؛ حيث كلما اتسعت الرؤيا، على حد قول النفرى، ضاقت العبارة<sup>(١١)</sup>. وإذ يفضى اتساع التجربة إلى اتساع النص؛ فإن كلا الأمرين ينهض على تعددية لافتة فى مصادر تكوين القناع، فمثل هذه التجربة التى تسمى إلى التوفيق بين ما يتناهى وما لا يتناهى، وإلى وصل الزمان بالأبدية، واقتناص الأزمنة كلها فى برهة رؤيا كاشفة، هى وحدها التى تفتح الأنا المغاير الذى اختاره الشاعر للتماهى به، على أشباهه، وتصله - إن كان متأخرا - بنموذجه الأصلي الموعول فى القدم، أو تبنى سلسلة تجلياته المتعددة بتعدد أسمائه - إن كان هو النموذج الأصلي الأقدم - حتى أقرب نجل له فى عصرنا، أو فى أقرب الأزمنة إلى عصرنا، بحيث يكون القناع هو التجلى اللانهائى، الموعول فى الماضى، والقائم فى الحاضر - واقعا أو رؤيا - والمفتوح على مستقبل مفتوح لذلك النموذج الأصلي وتجربته اللامتناهية، وبحيث تبدى القصيدة نصا مكتوبا فوق ما لا يتناهى من النصوص.

ولعلنا نستطيع أن نتوقف الآن، وقبل تحليل القصيدة المختارة: «كلمات سبارتكوس الأخيرة»؛ لأمل دنقل، عند محاولة لاستكشاف المداخل أو القنوات التى يمكن أن تنسرب من خلالها أنات مغايرة كثيرة لتفاعل فى تكوين الأنا المغاير الرئيسى الذى يتماهى به الشاعر، أو لتفاعل فى تجلية تحولات القناع نفسه إذ يدخل معها فى تجارب رؤيا داخلية تخمعه، أو توحد به، وهو الأمر الذى يتفظهر فى حضور نصوص متعددة المجالات والحقول والسياقات المصدرة، تنصهر فى نسج - أو تبدى على سطح - القصيدة التى تتخلق هوية القناع فى سياق صيرورتها من حيث هى تجربة.

حين تنهض القصيدة على تجربة رؤيا داخلية متسعة وشاملة، وحين تكتب القصيدة التجربة نفسها لا أثرها؛ فإن طبيعة العلاقة بين قطبي هذه التجربة تفتح الباب واسعا أمام تعددية المكونات التى تعود إلى كلا القطبين فى سياق تحولاتهما المستمرة التى تنعكس فى تحولات القناع وفى تجلياته الاسمية، أو الصورية المتعددة؛ ذلك لأن جدلية أنا الشاعر - أنا الأنا المغاير التى تتم فى إطار الرؤيا الداخلية هى، دائما ومن حيث الإمكان المجرد، جدلية مفتوحة على استدعاء أقطاب أخرى تنصهر فى مكونات أى منهما، بوصفها قنبا رئيسيا، وعلى استدعاء نصوص تم امتصاصها فى عملية صوغ خصائص هوية أى منهما، من حيث هى نص مكتوب فوق كثرة هائلة من النصوص. ولا ريب، هنا، أن جميع المداخل والقنوات المحتملة لانسراب الأناات المغايرة، ولعبور النصوص، تعود إلى هذين القطبين اللذين يولدان، تتفاعلان. تلك الجدلية المفتوحة التى تفضى إلى تحقق القصيدة بوصفها مجالا حيويا تتخلق فيه هوية القناع.

ولأن الشاعر، بوصفه ذاتا مبدعة، وأنا اجتماعية تبحث عن اكتمالها، وعن تحقيقها الإنسانى الأسمى؛ هو المجال الحيوى الذى تدور فى أعماقه تجربة التماهى، أو الرؤيا الداخلية التى تنتج هويته العميقة، فيما هى تنتج القصيدة؛ فإن اختياره هذا الأنا المغاير أو ذاك، وهذا النص المصدري أو ذاك، وهو الاختيار القائم، بطبيعة الحال، على مداه الشفائى، وعلى تجربته الحياتية، وعلى موقفه من شبكة متناقضات الواقع، وعلى طبيعة توجهاته الفكرية والشعرية، هو الشرارة الأولى التى قد تختزن، فى ضوء طبيعة الاختيار، طاقة تفجير هائلة، أو ضئيلة؛ وذلك لأن اختيار الشاعر لنموذج أعلى، أو لنمط أصلى، ليجمعه اسما لقناعه، ومحورا تدور حوله تجربة القصيدة، سيفضى - بما لهذا النموذج أو النمط من خصائص وميزات، وبما ينطوى عليه من إمكانات فنية وطاقات رمزية - إلى بناء التجربة فوق كثرة من التجارب، وإلى نهوض النص فوق قاع بالغ الاتساع والعمق؛ لكونه يحتضن كثرة هائلة من النصوص، وإلى جعل القصيدة برجا شاهق العلو، يرتقيه القناع فيما تمتد أسسه عابرة الأرض والزمان، صوب ما لا يتناهى من الطبقات. وكأنما القصيدة



أولهما: اتجاه صاعد يصل تجربة العلاج - إن تصريحها أو تلميحتها - بتجارب التمرد والرفض، والصلب والقيامة، الكثيرة والمتعددة، التي وقعت بعد تجربته، أو في زمن إبداع القصيدة ونشرها للمرة الأولى، أو في زمن قراءتها.

وثانيهما: اتجاه هابط يصل العلاج بنموذجه الأصلي الموعل في القدم عبر المرور بتجلياته المتعاقبة زمنياً، وفق تسلسل يهبط من الأقرب إلى الأبعد، بانياً، في سياق ذلك، كوناً أدبياً متكاملًا موسوماً بعنوان: الموت والانبعاث، وعامراً بحركة أبطال تجربة إنسانية - كونية لا تنتهى.

وقد يختار الشاعر شخصية معاصرة له، أو قرية عهد بزمنه. فيتفاعل مع شاعر، أو مفكر، أو قائد سياسى، أو مع شخصية من الشخصيات التي واجهت المصير الذي ناضلت طيلة تجربتها من أجل أن تخب الإنسان الوقوع فيه: السجن والتعذيب، أو الموت غدراً أو غيلة على يد سلطة شمولية طاغية، أو قوة إرهابية فاشية، أو رقة استعمار خارجى... إلخ؛ بحيث يمكن، والحال هذه، أن تأخذ القصيدة اتجاهها هابطاً يصل هذه الشخصية بنمطها الأصلي، ويحيلها، في ضوء هذه الصلة، إلى نخل من تجلياته اللامتناهية.

وقد يختار الشاعر أن يتماهى بالنمط الأصلي الأبعد، كأن يسمى قاعه باسم الإله الابن: دموزى، فتأخذ القصيدة في تجليها النصري الواضح، أو في إثارتها الحيوية متوازيات متعاقبة زمنياً، اتجاهها صاعداً يصل دموزى بأشباهه، وبآخر إنسان اختار أن يجلى في تجربته الحياتية تجربة هذا الإله المخلص، الفادى، ابن الإنسان.

وأما كان اتجاه حركة القصيدة، والتجربة المروية فيها، أو التجارب التي تثيرها، فإنها إذ تتحقق برصفتها قصيدة قناع وعلى النحو الذى أوضحناه، تستطيع أن تعبر عن التجربة الإنسانية في كليتها وشمولها، وأن توفق بين المتناهى واللامتناهى، وأن تفصح، في ضوء ذلك، عن رؤية عديقة للإنسان والوجود.

إن تعددية أسماء النموذج الأعلى، أو النمط الأصلي الراح، وتشابه تجارب الشخصيات أو الكيانات التي تحمل

سطح ظاهر لكثرة من النصوص القصيدة التي بنى عليها التحية العميقة.

وقد تبدى القصيدة، في حالات معينة، أساساً أو قاعاً يقبع في أبعاد طبقات الأرض غيورا، وخاصة حين يكون النموذج الأصلي الأقدم هو اسم القناع، الذي تجرته مهيمنة على تجربة القصيدة، فيصير تجريباً كئيباً طيلة من الطبقات التي تصل سطح النص بقاعه الموقر، تنجيا من التجليات النصية لذلك النمط الأصلي حين ينس إلى أعلى البرج، حيث تلتقى بأقرب أسمائه إليه، أو سمع المتجرب في رحاب عصرنا، أو المتطلع إلى حصار دهره، وتأسفنا القصيدة، في هذه الحال، هي القناع الذي صنعت حفرينات الشاعر إلى إظهاره وإضاءته، والذي يوفى على كثرته من التجارب والنصوص التي يوحى بها، يستشعرها، وسواء تحرك النص هابطاً من قمة البرج إلى أغوار الأبد، أو صاعداً من أعماق أغواره إلى قمته، فإنه مرشح - في كل حال - إلى المرور بالأسماء المتعددة للنمط الأصلي، فتضاهيها في نسجها على نحو ظاهر، أو إلى الإلهام، بكونها فيه، كما أنه مرشح، في ضوء ذلك، إلى اقتحام عدد لا يحصى من تجربة مختلفة، وإلى فتح دفات كثيرة من الكتب، وإلى استدعاء كثرة من التجارب.

وكى نوضح مغزى أى من هذه التجارب القصيدة والهابط، وكى نكشف عن دلالته الشعرية، والتعبيرية التي تجسد أيا منهما، فإننا نشير إلى إيمان الشاعر بالتماهى بشخصية تاريخية كالعلاج، مثلاً، وهي شخصية تبعد عنا، من حيث الحقبة التاريخية التي احتضنت تجربتها الواقعية، مسافة زمنية تربو عن ألف سنة، مما يعنى أن القصيدة التي تنطق صوته، كقصيدة العلاج، وليست للبياتى، على سبيل المثال، تختار لاضلافاً من طبقة تاريخية بعيدة عنا. غير أنها ليست مرغلة في العدم، وهو الأمر الذى يفتح تجربة العلاج - القناع على تجارب أخرى سابقة لتجربته أو لاحقة لها، تتجاوب مع تجربتها، بحيث يمكن، والحال هذه، أن تأخذ التجربة القصيدة اتجاهين:



وإضافة لما سبق، فإن لتعددية الإحالات الموضوعية لشخصية واحدة لذاتها في الواقع الاجتماعي، وفي التاريخ - كأن تكون الشخصية التي اختارها الشاعر للشعاع بها، هي، في آن، شخصية شاعر، وفيلسوف، وفارس، وقائد سياسي، وعالم فلكي، ومتصوف... إلخ؛ أي شخصية موسوعية - أثرها المحتمل في تعددية مصادر تكوين القناع؛ وذلك لأن مثل هذه الشخصية متعددة التجارب، تحقق لنفسها حضوراً نصياً في سياقات مصدرية متعددة الحقول والمجالات.

فوق ذلك، فإن لتوجه الشاعر نحو خلق القصيدة - الأسطورة، كتنجربة تتحرك فوق الزمان والمكان، ونحو تكوين القناع كوحدة للمتناقضات المتفاعلة داخل ذاته، كإله أسطوري، أثره البالغ في فتح النص على تعددية لافتة في مصادر بنائه، وفي مصادر تكوين القناع الذي ينطقه ويتحرك في مجالاته، خائضاً التجربة، محولاً لها، ومتحولاً بتحولاتها، ومكتسباً في كل محطة من محطاتها هوية جديدة تنهض على أنقاض القديمة وتتجاوزها؛ فالشاعر، في محاولة كهذه، يستدعي شخصيات ورموزاً وتجارب من مصادر متعددة ومتباينة، ويدخلها جميعاً في صلب نسج جديد، وفي إطار شبكة رمزية تدخل مكوناتها في إطار بنية علاقات جديدة تؤسسها، وذلك على النحو الذي يتبدى معه الشاعر وهو يعمل خارج مصادره التي ينطلق منها، وتتبدى معه القصيدة، على عمق قاعها واتساعها، وكأنما هي، من كثرة مالها من منابع، قصيدة بلا منابع، أو كأنما هي القاع، وهي المنابع.

تلك، إذن، هي أهم المداخل والقنوات التي تفتح الآفاق واسعة أمام تعددية مصادر بناء القصائد، وتكوين الأتعة التي تخوض تجاربها وتنطقها. غير أن هذه التعددية لا يمكن أن تكون تلقائية، أو فيضاً يتحقق بمجرد اتصال الشاعر بمصدر أو بنمط أصلي واحد، أو بمجرد اتصال القارئ بالنص. فلكي يطور الشاعر مثل هذه التعددية، حضوراً في النص أو غياباً فيه، ينبغي أن تكون موجودة بالنسبة إليه، وجوداً بالقوة أو بالفعل، أي حاضرة في ذهنه ومخيلته، أو غائبة في ذاكرته الثقافية، كامنة في أعماقه. وكى يتمكن القارئ من إدراك النص، وفهمه، والدخول في عوالمه الظاهرة والخفية، ينبغي أن يتوافر على ثقافة واسعة تمكنه، وهو يقارب

هذه الأسماء، وانصهار خصائصها جميعاً في جوهر واحد، يعتبر، في ما نظن، القناة الأهم التي تمر عبرها كثرة من الأسماء والتجارب والنصوص لتتفاعل، معاً، في صوغ قصيدة تنبني على اختيار اسم واحد من بينها للقناع. ذلك أن أياً من هذه الأسماء سيكون مرشحاً لاستدعاء شبكة الرموز التي ينتمي إليها، كى يحركها على محوره، موسماً مجال حركته ودلالته، بالدخول في مجالاتها، وبمحاكاة ذاته بها، وبتجلية تحولات هويته في صورها وأسمائها، ومن خلال خوض تجاربها.

ولا شك في أن تداخل النصوص المصدرية يعتبر، في حد ذاته، مداخلًا تلقائياً لاستدعاء النصوص الكثيرة التي انبنى عليها النص الذي يعود إليه الشاعر ليستدعي منه اسم ناه المغاير، (اسم قناعه)، وتجربته المروية فيه؛ فقد يذهب الشاعر إلى أحد أناجيل العهد الجديد كى يستدعي منه المسيح، والجانب الذي يريد إضاءته من جوانب تجربته، فلا يكون ذلك انفتاحاً على العهد الجديد، أو على أحد أناجيله فحسب، بل يكون، من جهة أولى، انفتاحاً على النصوص الأسطورية والدينية التي تقبع في قاع الأناجيل، أو تغيب في سيجها؛ لكونها قد تناصت معها وهي تحول تجربة المسيح من الواقع إلى النص، ومن التاريخ إلى اللغة. ويكون، من جهة ثانية، انفتاحاً على النصوص الأخرى التي تختزنها الذاكرة الثقافية للشاعر، أو للقارئ، والتي تناصت، على امتداد مراحل تاريخية متعاقبة، مع العهد الجديد، ونهضت على توسيع الكون الأدبي، واللاهوتي، لتجربة المسيح، كعمل ينطوي، ضمناً، على توسيع تجربة نمطه الأصلي الأبعد، إله - الابن - دموزي، أو تموز، وتجارب موازياته الكثيرة في الثقافات الإنسانية المتعددة؛ بحيث نرى إلى القصيدة وهي تتحرك فوق طبقات متراكبة تنطوي كل واحدة منها على تجليات نصية متشابهة، وغير متطابقة، لشخصية جوهرية واحدة تواصلت حضوراً في حياة الإنسان، وفي تاريخه، أو وهي تحرك طبقات تتراكب فوق سطحها، مشيرة إلى الواقع الذي تحوله القصيدة نفسها إلى نص تتسرب في نسجته، وفي شبكة دلالاته، الموازيات الواقعية للقناع، الموجودة في الواقع، أو التي يتطلع إلى انبعاثها فيه.

إن تعامل بعض المناهج مع النصوص الإبداعية، بوصفها وثائق أو مدونات تنتج نصوصاً قديمة، يفضي إلى تشظية النص المدروس، عبر تحويله إلى قطع متناثرة، غير متصلة؛ بغية رد كل قطعة إلى مصدرها وأصلها، أو بغية إعادتها إلى مصدر محتمل، قد لا يكون بالضرورة نصاً مكتوباً، كالأقوال المعبية، والتراث الشفاهي المتداول، وسيرة الكاتب، أو حالة من حالاته النفسية ... إلخ. ولا ريب أن التصورات النظرية التي تنهض عليها هذه المناهج لا تتوخى، في التحليل الأخير، غير الإعلان عن «موت الخيال» وانتحار الفكر، وتأكيد مقولة أن «لا جديد، أبداً، تحت الشمس»، وأن العالم قد أنجز نفسه، وصاغ هويته، وأن ليس بمقدور الإنسان أن يبدع شيئاً جديداً يغير ما سبق إنجازه، وأن كل ما يستطيعه هو أن يسكن إلى عالم ثابت، وإلى نص سابق الإنجاز، يتأيد على التحويل والتحوير والتطوير والإضافة، لأنهما كاملان مكتملان، مغلقان على ذاتهما ومكتفيان بهما، يعطيان ولا ينتقصان، وليسا قابلين لأية زيادة.

ولسنا، في ضوء ما سبق، بحاجة إلى تفصيل القول بأن هذه التصورات والمناهج تفتتت على الحياة والإبداع والعالم، وتحيل الإنسان إلى مجرد مستهلك سالب للزمان، ولإبداعات أسلافه، نافية عنه إمكان الوجود الفاعل في الوجود، محيلة حياته إلى صقيع بارد لا يث في الكون عبر برودة الموت. إنها تصورات ومناهج تهدر جهد الإنسان الخلاق المبدع، فيما هي تهدر وقت الناقد وجهده، إذ ترسله في متاهات البحث عن «سرقاات مزعومة»، وتركه لاهنا وراء خطوات شاعر مبدع؛ بنية التقاط ما يؤهله لتأكيد موت الإبداع والصاق تهمة «الانتحال» صخرة مقبحة على صدر إبداعاته.

إن الكلام «يفتح بعضه بعضاً»<sup>(١٣)</sup> وتلك هي بالضبط العلاقة الممكنة بين النص الإبداعي الأصل، أي المتأصل في الإبداع، والنصوص التي يستلهمها وينبني عليها، وسواء في ذلك أكانت هذه النصوص أدبية أم غير أدبية. إنها علاقة اتصال وانفصال، هدم وبناء، امتصاص وتحويل، أي أنها علاقة تفاعل وحوار، وليست بأية حال - طالما أن السياقات والعلاقات متغيرة - علاقة تنحدر من سلالة، أو علاقة فرع

نصاً مفرداً، من بناء كون أدبي شاسع الأرجاء، مترامي الأطراف.

ولعل في حاجة الشاعر إلى الثقافة الواسعة لبيدع النص العدائي، وفي حاجة القارئ إلى مثل هذه الثقافة كي يفك مغاليق ذلك النص، ويفهمه، ويدرك عوالمه، ما ينصح عن واحدة من أبرز الغايات التي تتوخى القصيدة الحديثة، وفي إطارها قصيدة القناع، أن تصل إليها، وأن تحقق حضورها العميق، في خصائص هويتنا، وفي سلوكنا اليومي، وفي مجالات حياتنا بأسرها. وليس من اسم لثالث الغاية غير الإبداع: أن يبدع الشاعر النص الذي يتجاوز الكثرة الهائلة من النصوص التي ينبنى عليها، وأن يقرأ القارئ النص قراءة إبداعية في ضوء ثقافة واسعة، وعميقة، تمكنه من إدراك عالم النص في سعته وغناه، ومن إعادة بناء الكون الأدبي الذي ينتمي إليه؛ بحيث يبدع في اللحظة التي يقرأ فيها النص نصوصاً، ويحقق لنفسه قراءة إبداعية خلاقة تنأى به عن الثبات عند أنماط القراءة التقليدية، التي تخيله إلى مجرد مستهلك سالب للدلالة الظاهرة على سطح النص المقروء.

وقد يكون في إشارتنا إلى الإبداع، من حيث هو محور تحرك عليه حركة الحدائق الشعرية، بل أية حدائق بإطلاق، كما قد يكون في كثير من الإشارات المضمنة، في الفقرات السابقة، بصدد العلاقة بين القصيدة ومصادرهما، ما يغني عن تسليط مزيد من الأضواء على المنظور الذي نرى من خلاله هذه العلاقة، والذي ينهض عليه تحليلنا لمصادر تسمية الأتعة وتكوينها في القصائد موضع التحليل والدرس. غير أنه يبدو مفيداً أن نلفت الانتباه إلى أن هذا المنظور القائم على رؤية لا تضحي بالإبداع من حيث هو أصل لإنتاج القصائد، سوف يمكننا من الابتعاد عن المناهج والتصورات التي اعتادت «الربط بين نتيجة فنية معينة وبين أصولها»<sup>(١٤)</sup>، والتي لا ترى في النصوص الإبداعية أية علاقات ممكنة تتعدى علاقتها بمصادرهما، مما أفضى إلى نفى الاستقلال والتميز عن هذه النصوص، إذ نظر إليها باعتبارها نوايع لأصل قديم، أو باعتبارها إعادة نشر يقوم على انتقاء عناصر ومقتطفات تعود إلى أصول قديمة.

للنص، نذهب إلى تحليل القصيدة المختارة بغية تعرف المصادر المتداخلة في بنائها، وفي تكوين القناع الذى ينطقها. فنحن لا نبحث عن المصادر كى نمسك بالشاعر متلبسا بـ «السرقه» أو «الانتحال»، وإنما نبحث عنها، حضورا أو غيابا فى النص؛ كى نتعرف الأساليب والطرائق التى يحقق عبرها الشاعر اتصاله بمصادره، وانفصاله عنها، استلهامه لها، وعمله خارجها، وكى ندرك الأسباب التى تجعل الشاعر لصيقاً بمصادره، عاجزا عن مغادرتها أو تجاوزها، وكى نتبين، فى ضوء هذا وذاك، التحليلات المختلفة للقناع من حيث التكوين الفنى، ومن حيث الوظائف التى تتأسس على هذا التكوين، وتستدعيه.

وإذا تنهض قراءتنا التحليلية للقصيدة المختارة، من بين ما تنهض عليه من فروض حاولنا إدراجها فى ما تقدم، على فرض مؤداه أن مصادر تسمية الأفعلة ليست هى بالضرورة مصادر تكوينها، وبناء التجارب المروية فى القصائد التى تنطقها. وتعمل مقتضيات تحويل هذا الفرض، والفروض الأخرى، إلى نتائج دالة، على تحديد الإطار الملائم لتحليل قصيدة القناع على مستويي البناء والتكوين؛ كمدخل صبرى لتحليلها على المستويات الأخرى. كما أن تحليل القصيدة انطلاقاً من إدراجها ضمن إطار المصدر الذى يستدعى منه اسم القناع الذى ينطقها، يشكل، فى ما نحسب، قاعدة ملائمة لتعرف مدى اقتراب القناع من مصدره، أو ابتعاده عنه، ولتتعرف المصادر المتداخلة فى تكوينه، ولتقرء ما يمكن أن ينطوى عليه العمل داخل مصدر واحد أو خارجيه، وداخل مصادر متعددة، أو خارجها، من انعكاسات على نسج القصيدة، وعلى بناها الداخلية، وبنيتها الكلية، ومن مدلولات محتملة لهذه الانعكاسات، وللأساليب والطرائق التى تنتجها.

ونظراً لأن الصوت المسموع فى أى قصيدة، والضمير المهيمن عليها، هما المدخلان الأساسيان لتعرف هوية ناطقها، ولتتعرف نوعها، باعتبار أن هذا التعرف ضرورى لفهمها، ولتتأصل دلالاتها؛ فإن هذا يؤهل الصوت والضمير لأن يكونا المحركين الأساسيين اللذين يدار عليهما أى تحليل نصى يترجم اكتشاف منظور التشخيص، ومنطلقه، واتجاه

بأصل، أو نسخة باهتة لأصل ساطع الضوء. وذلك لأن الشعر، والإبداع الأدبى والفنى عموماً هو «خلق يمارسه الشاعر، فيما يخلق مسافة بينه وبين التراث من جهة، وبين «الواقع» من جهة ثانية»<sup>(١٤)</sup>.

ولأن النصوص لا تنشأ مما ليس نصوصاً، ولأن «كل ما يوجد دائماً هو عمل تحويل من خطاب إلى آخر، ومن نص إلى نص»<sup>(١٥)</sup>، فإن هذا لا يجعل النص الإبداعى ثوباً مرقعاً، أو جسداً انتزع كل عضو من أعضائه من جسد آخر؛ بل إنه يحقق وجوده كمونود جديد يثرى عالم الإبداع، فقد تخلق فى رحم الرؤيا الإبداعية الخاصة بالمبدع، وسرى فى نسج خلاياه نسخ أفكاره ومشاعره، ورؤيته للعالم، واكتسب ثياب طريقتها الخاصة فى التشكيل والتعبير، مما أهله لأن يشق لنفسه سبيلاً خاصاً فى حقل الإبداع الذى ينتمى إليه، مبدئياً ما كان كامناً فى أعماق النصوص التى انبنى عليها، أو موحياً به، وذلك فى الوقت الذى يث فيه، إفصاحاً أو إيجاء، رؤية المبدع لتلك النصوص المفتوحة على ما لا يتناهى من القراءات والتأويلات، ولتواقع الذى قرأه، وأوله، كنص مفتوح.

وهكذا تكون القصيدة الجديدة، مثلها مثل الوليد الجديد، إنها:

تولد ضمن نظام مرجود من الكلمات، وهى تشبه بنية الشعر الذى تنصل به. والوليد الجديد هو مجتمعه؛ وقد تباين ثانية من خلال الفرد، والقصيدة الجديدة هى، أيضاً، تجسيد مجتمعهما الشعرى فيها<sup>(١٦)</sup>.

إن الابن منشبك بأبيه، ومتصل به، غير أنه فى الوقت ذاته متميز عنه، له خصوصيته، وله هويته المكتسبة عبر تجرته الخاصة، وكذلك هو، دائماً، كل نص إبداعى أصيل، وجديد.

وفى ضوء هذه الرؤية الإبداعية المقترحة: أشر تترخى إدماج المصادر بعملية إعادة الإنتاج والتأويل الخيالى، وتحول دون الانفتاح على التذوق الجمالى، والقراءة الإبداعية

بهما قصيدة القناع، وإنما يكشف الجدلية المولدة للمناخ التوترات الدرامية ممكنة الانتشار في مستوياتها جميعا، فيما هو يحدد الأطراف المتداخلة في احتمالات الإحالة، بوصفها أطرافا أساسية، ويكشف حقيقة أن قصيدة القناع تتميز، من هذه الوجهة، عن قصيدة الشخصية الشعرية المستقلة تماما عن الشاعر، في كونها قصيدة ذات مستويين متجادلين: ظاهري وباطني، أي ذات سطح وقاع، أو قناع ووجه، غير قابلين للتطابق التام، الذي تتميز به، من جهة أولى، قصيدة الشخصية الشعرية لكونها تنطلق من منظور موضوعي، ومنطلق درامي، يكفلان لها هذا التطابق بقصرهما الإحالة على صوت الشخصية الشعرية (الصوت الثالث)، وعلى أنها الغنائي المفارق للذات الشاعرة، أو الذي تتميز به، من جهة ثانية، قصيدة غنائية مسطحة من قصائد الاعتراف الرومانتيكي، والتعبيرية الذاتية المباشرة؛ لكونها تنطلق من منظور ذاتي، ومنطلق غنائي، يكفلان لها بانغلاقهما غياب الالتباس، والتطابق التام ما بين الصوت المسموع فيها وصوت الشاعر (الصوت الأول نادرا والثاني غالبا)، وما بين ضمير المتكلم المهيمن عليها وأنا الشاعر الغنائي، بمعناه السطحي والمباشر.

وإن كان لا سبق أن يعنى شيئا، مع ملاحظة الاختلاف النوعي بين القصيدتين (قصيدة الشخصية الشعرية، القصيدة الغنائية المسطحة)؛ فإنما يعنى أنهما لا تمتلكان، على صعيد حركة إحالة الصوت المسموع، والضمير المهيمن، غير المستوى الظاهري؛ وذلك لأنه لا يوجد في كل حال، غير الوجه فحسب، ولأننا مهما أوغلنا في عمق مفترض، هنا أو هناك، لن نعثر على وجه سواء. وليس لهذه الحقيقة إلا أن تكون حائلا دون القصيدتين وحياة المناخ المولدة للتوترات الدرامية المميزة لقصيدة القناع؛ لأن كلا منهما قد ألفت، بطريقتها الخاصة، الجدلية المنتجة لهذه المناخ. وفي حين أوجدت قصيدة الشخصية الشعرية جدليات أخرى تنتج توترات درامية قد تشترك فيها مع قصيدة القناع، وقد تنفرد بها؛ فإن القصيدة الغنائية المسطحة تظل عاجزة عن فعل ذلك طالما ظلت على حالها، مكتفية بجنسها، وبانغلاقها، وبعرفها المنفرد على أوتار صوت ملتئم، بلا رجوع، وبلا قرار.

حركته. فمثل هذا التحليل هو وحده أنحصر في تحديد هوية الذات الناطقة ونوع القصيدة؛ وذلك لأنه يرنو بنتائجه على الصوت والضمير ليحدد الجهة التي تذهب إليها إحالتهما، وليكشف، بالتالي، عن النوع الذي تنتمي القصيدة إليه. ولعلنا في غير حاجة إلى توضيح أن نتائج مثل هذا التحليل تتكشف في اكتشاف البؤرة الشخصية التي يؤسسها النوع لتعطي للقصيدة خصائصه، وميزاته الفارقة، ولتسم جسدتها بميسمه.

ولأن الجنس الدرامي الغنائي يطلق من أولوية الدرامية والموضوعية، منطلقا ومنظورا، على الغنائية والذاتية، محيطا واتجاه حركة، ولأنه لا يسند الغنائية، أو التعبير المباشر، أو غير المباشر، عن الذات، للشاعر، بل إلى الشخصية الشعرية المستقلة تماما عنه؛ فإن هذا يفسر حقيقة أن الصوت المسموع في قصيدة الشخصية الشعرية التي ليست قناعا للشاعر، وضمير المتكلم المهيمن عندها، لا يحيلان إطلاقا، إلى الذات الشاعرة، وإنما يحيلان فقط، ودون أي التباس، إلى الشخصية الشعرية الدرامية الغنائية المصروفة تماما للشاعر، وتلك هي الحال التي تنطبق - على سبيل تمثيل - على «الخبر» صوتا وهوية، في قصيدة «أحمد» «سحاب» والتي لا تنطبق، بالدرجة ذاتها، على «المسيح بعد الصلب»؛ حيث تظل الإحالة في هذه القصيدة، وعن غرار جميع قصائد القناع، موسومة بدرجة من درجات الالتباس الناجم عن انتمائها إلى الجنس الغنائي الدرامي الذي يظل أقرب إلى الغنائية منه إلى الدرامية التي يتوجه إليها، والذي لا يصل، أبدا، إلى موضوعية غير ملتزمة تطابق الموضوعية التي تتميز بها الشخصية في قصيدة الشخصية الشعرية؛ لأن منظوره ومنطلقه غنائيان أصلا؛ ولأن مبدأ التفتح بمسه لا يقتضي ذلك، ولا يكفله.

واستنادا إلى حقيقة أن انتماء قصيدة القناع إلى الجنس الغنائي الدرامي يتأسس على طبيعة حضور وغياب كل من أنا الشاعر، وأنا الشخصية أو الكينونة التي يتحد منها أنا مغايرا، في القناع، وفي القصيدة؛ أي على تجربة الرؤيا الداخلية المؤسسة لتكوين القناع، ولبناء القصيدة؛ فإن ذلك لا يفسر فحسب مسألة التباس إحالة الصوت والضمير اللذين يتميز



التجاوب الطردى، والعكسى، بين جميع مستويات القصيدة، لا يتكفل بتحكمين الناقد من اكتشاف القوانين والآليات الحاكمة لتكون القناع ولبناء النص، فحسب؛ وإنما يتكفل، فى تواشج متصل، بتوفير المعطيات الكافية لتحديد الانتماء النوعى للقصيدة، ولكشف انعكاساته الممكنة على الشكل الذى تلبسه. وليس ذلك لأن كلا الأمرين ضرورى لتأسيس قراءة إنتاجية لا تغفل نوع القصيدة، ولا شكلها، ولا أسلوب التشخيص الذى تعتمده، ولا المبدأ الذى تتأسس عليه؛ وإنما أيضا لأنهما يوفران، إذ يفتتحان أفق هذه القراءة، المعطيات الكافية لجعل التحليل النصى يحكم على القصيدة من حيث قدرتها، أو عدم قدرتها، على إشباع الدوافع التى استدعت ظهورها بوصفها قصيدة قناع تنتمى، من حيث المبدأ، إلى الحدائة الشعرية، وتنهض بإفجاز التجاوزات التى أرادت هذه الحدائة تبرير وجودها بإفجازها، أو تأسيس حدائتها عليها. وإذا يتخلى الناقد عن الأحكام المعيارية الخارجية، ويعطى التحليل النصى المؤسس على منظور نقدى، وإجراءات تحليلية تنبع من القصيدة، فرصة النطق بالحكم؛ فإنما هو، فى الحقيقة، يعطى هذه الفرصة للقصيدة؛ ذلك لأن الحكم يظهر وكأنما هو حكم تطلقه على نفسها، لأنها تتضمنه؛ ولأن مهمة الناقد، من هذه الوجهة، قد تركزت على اكتشافه، والكشف عنه.

وإذ ينبغى لأية قراءة إنتاجية لأى نص أن تنهض نفسها على القانون الذى يحكم بناء هذا النص، فإن تأسس قصيدة القناع على دياكتيكى تمام وتناس متجاوبين يوجب إنهاض أية قراءة نصية إنتاجية لهذه القصيدة على مواكبة مستمرة لصيرورة النص - التجربة. وذلك من خلال تعقب وتحليل حركة مؤشر بناء النص، الذى هو، فى الوقت ذاته، مؤشر تكوين القناع الذى ينظمه، وينطقه، ويخوض التجربة المروية فيه؛ بحيث تتكشف من خلال هذه القراءة السياقية - الرأسية، حركة دياكتيك التناس المواكبة حركة دياكتيك التماهى. ذلك أن الحركة الأولى هى التجلى النصى الظاهر للحركة الثانية التى تقع فى إطار تجربة رؤيا داخلية يتفاعل فيها أنا الشاعر بأنا مغاير، أو بأكثر من أنا مغاير، هو، أو هم جميعا، القطب الموضوعى فى تكوين القناع. وذلك بالمعنى

إن أية مقارنة نقدية لا تجعل من تحليل العلاقة بين ظاهر قصيدة القناع، وباطنها، محورا رئيسيا تركز عليه، وتنطلق منه فى حركة وثابة تتوخى اكتشاف الأبعاد والانعكاسات المختلفة لهذه العلاقة، لن تكون مقارنة فقيرة تفتقد المنظور النقدى الكفيل بإضاءة القصيدة، والإجراءات التحليلية النابعة من خصوصيتها فحسب؛ وإنما ستكون مسكونة، منذ البدء، بإغفالين أساسيين يهدمان صلاحيتها؛ إذ يفرضان بها إلى تعميم القصيدة عوضا عن إضاءتها، وإلى العجز عن التمرکز فى مفاصل استنتاجها. وليس ذلك لأنها تظل عليها من منظور لا ينبع من طبيعتها، أو لأنها تتعامل معها وفق معايير تنافى النوع الشعرى الذى تنتمى إليه؛ بل لأن عدم صلاحية المنظور، وتنافى المعايير، ليسا إلا انعكاسا مباشرا لغياب الوعى بالطبيعة النوعية للقصيدة، وإغفال مبدأ التفتح الذى تتأسس عليه.

واستنادا إلى ذلك، فإن تأسيس أية مقارنة نقدية، أو أية قراءة نصية، لقصيدة القناع، على التحليل متعدد المستويات والأبعاد للعلاقة ما بين ظاهرها وباطنها، سطحها وقاعها، أو ما بين وجه القناع الذى يخوض تجربتها وينطقها، ووجهى الشاعر وأنا المغاير، ليس مجرد خيار نقدى يمكن الأخذ به أو تركه؛ وإنما هو، فى ما نحسب، ضرورة يتوجب الأخذ بها إذا ما كنا من جهة أولى، جادين فى اعتقادنا أن القصيدة، أية قصيدة، توارى مفاتيحها فيما هى تبث إشارات تدعونا إلى العثور عليها، وتدلنا على مسارب الوصول. وإذا ما كنا، من جهة ثانية، ندرك الأهمية القصوى، والنتائج الثرية، لمواءمة منهج التحليل النصى، وإجراءاته، مع الطبيعة النوعية للقصيدة، ومع المبدأ الذى تتأسس عليه، ومع أسلوب التشخيص الذى تعتمده فى بناء النص، وتكوين القناع.

ولأن مبدأ التفتح، والنوع الفئائى الدرامى الذى تنتمى إليه قصيدة القناع، وأسلوب التشخيص الذى تعتمده، هى جميعا ذات طبيعة جدلية؛ فإن ذلك يفسر، إذا ما أدركناه، التجاوبات الطردية، والعكسية، ما بين ابتعاد قاع القصيدة عن سطحها، أو اقترابه منه، على أى مستوى من المستويات، وما بين المزايا الفنية، أو العيوب التى تحوزها القصيدة. وهو الأمر الذى يعنى أن إنهاض المقارنة النقدية على تحليل علاقات



واستنادا إلى الإمكانيات التي تتيحها القراءة السياقية - الرأسية التي أوضحنا معالمها الرئيسية، متوخين أن تكشف القراءة التحليلية للقصيدة المختارة عن آلياتها، وعن الإمكانيات الواسعة التي تتيحها لتوظيف إجراءات منهجية متعددة تستدعيها النصوص نفسها؛ فإننا نستطيع أن نتعرف - في مجرى تحليل نصي متعدد المستويات - العلاقات المتشابهة ما بين دوافع التقنع والوظائف التي يؤديها القناع في القصيدة، وما بين ديبالكتيكي التناس والتماهي، وما بين مكونات قاع القصيدة والعناصر المتفاعلة في نسيجها النصي، وما بين الشاعر وأناه المغاير، وما بين القناع والرموز، والذوات الأخرى الحاضرة في النص - التجربة. أي بإيجاز: ما بين البنى الثلاث التي تتشابك في بنية كلية ملتزمة تجسد تجليا فنيا متميزا من التجليات الفنية المحتملة لقصيدة قناع مؤسسة ومبنية، أو التي تتفكك عرى لحمتها؛ فتبقى القصيدة في دائرة التسطيع، والتقريبية والمباشرة، والغنائية الذاتية، والرومانتيكية الفجة التي حاولت أن تتجاوزها، دون أن تقدر على إنجاز ذلك.

وسيمكننا هذا المنهج القرائي الذي يعتمد التفكيك وإعادة التكوين في تلامز مستمر يواكب حركة مستمرة في مسارات النص الأفقية والرأسية؛ من قراءة العلاقات التفاعلية ما بين البنى الثلاث، في هذه القصيدة أو تلك. وسيمكننا بالتالي، من اكتشاف تجليات مختلفة لقصيدة القناع.

واستنادا إلى فرضية أن ديبالكتيكي التماهي والتناس هما القانونان المؤسسان لقصيدة القناع، وأن هذين القانونين ليسا إلا وجهين لعملة واحد: وجه باطن متخف، ووجه ظاهر متجل؛ فإن هذا يولد فرضية أننا لا نستطيع أن نتعرف الوظائف التي يؤديها القناع في القصيدة، بمعزل عن تعرف النصوص المصدرة المتفاعلة في بناء النص وتكوين القناع. وهو الأمر الذي يعني أننا لا يمكن أن نتعرف وظائف القناع المنبثقة من تشكل البنى الثلاث، إلا في مجرى اكتشاف علاقات التناس، وطبيعة العلاقات القائمة ما بين القصيدة - التجربة، والنصوص المصدرة التي تنهض على التناس معها، فيما ينهض القناع على التفاعل المستمر ما بين الشاعر، من جهة، وتجارب وهويات الشخصيات التي تجسدها تلك

الذي يجعل من ديبالكتيكي التماهي مؤسسا حقيقيا لديبالكتيكي التناس، بينما يكون ديبالكتيكي التناس تجليا نصيا لهذا المؤسس.

وإذ تفتح القراءة السياقية - الرأسية، أوسع الآفاق أمام تعرف النصوص المتداخلة في بناء القصيدة، وإدراك طبيعة العلاقات القائمة ما بين القصيدة والنصوص المصدرة التي تنهض عليها؛ فإنها تفتح، في الوقت ذاته، أوسع الإمكانيات لتعرف طبيعة العلاقة القائمة ما بين أنا الشاعر والأنا المغاير؛ صوتا ولغة وتجربة وهوية، وإدراك حركة التفاعل ما بين القناع الناتج عن الحركة السابقة، والمستمر في التكون بفعل استمرارها، وما بين أنات مغايرة، وأنماط أصلية أخرى، يفتح القناع على تجاربها، ويمتص جوهر هوياتها

وفي ضوء تعرف حركتي التناس والتماهي، وفي سياق تحليلهما، وإدراك العلاقات القائمة بينهما، تتكشف النصوص المصدرة الكامنة في قاع القصيدة. المتفاعلة فيه، والمتداخلة في نسيجها النصي، وتتكشف، بتكشفيها، وبناء الشبكات الدلالية الناتجة عن تداخلها وتفاعلها، الأنات المغايرة: الشخصيات والكينومات والرموز والأنماط الأصلية... إلخ، التي يفتح الشاعر على التفاعل متعددة المستويات معها، لتكوين الأنا المغاير، أو التي يفتح القناع نفسه، بعد انبثاقه، ليتفاعل مع تجاربها، وليجتاف بعض خصائصها ومكوناتها، موسعا ومعقفا، تجربته، هويته.

وبتكشف آليات اشتغال ديبالكتيكي التناس والتماهي، تتكشف الطريقة، أو الطرائق، الحاكمة حركة مؤشر بناء النص وتكوين القناع، وهو الأمر الذي يقصى إلى إدراك الآليات الحاكمة للبنى الثلاث: الموضوعية والرمزية والدرامية، وإلى اكتشاف العلاقات الداخلية لمكونات كل بنية منها، والعلاقات القائمة بينها جميعا، بحيث يقود هذا إلى اكتشاف البنية الكلية العميقة للقصيدة، وللقناع، في آن، وإلى قراءة دلالاتها دون اجترأ على النصوص شتمزيقها إلى ثلاث بنى منفصلة؛ وذلك لأن العلاقات التفاعلية المستمرة ما بين هذه البنى الثلاث التي لا يمكن أن توجد أي منها وجودا فعليا مؤثرا، بمعزل عن الأخرى. هي التي تكون البنية الكلية العميقة للقصيدة، والبنية العميقة للقناع

المؤلف الفعلى لكلمات سبارتاكوس التى يحضرنا العنوان للإصغاء إليها، دون أن يحدد هوية الصوت الذى ستأتى محمولة عليه. وما بين إغلاق هذا الإمكان وفتحه، وفى المسافة التى تصل الشاعر بسبارتاكوس وتفصلهما، وفى حركة إبعاد الأول وإظهار الثانى، وفى تركيز العنوان على الرسالة: الكلمات - القصيدة، وعلى المرسل المحتمل: سبارتاكوس، مؤشرات توحى بأننا لزاء قصيدة تتوافر على البنى الثلاث: الموضوعية، والدرامية، والرمزية، فتبتعد عن أن تكون محمولة على صوت الشاعر، أو دائرة على محوره، وتنطوى على إمكان أن تكون قصيدة شخصية شعرية، أو قصيدة قناع، يكون سبارتاكوس، فى كل حال، هو محورها الرئيسى، رمزها المحورى، خائض تجربتها، وصاحب الكلمات المنطوقة فيها.

نضىء جدلية الحضور والغياب، التى تحكم علاقة سبارتاكوس - الشاعر بالقصيدة، حضور الأول، وتغيب الثانى، دون أن تلغى حضوره المراوغ فى أعماق الأول، فتؤسس القاعدة الموضوعية التى تعطى القصيدة استقلالها عن الشاعر، وتفتح، عبر اعتماد أسلوب تشخيص مزجى: غنائى درامى، أو درامى غنائى، إمكان إنتاج البينيتين: الدرامية والرمزية. ويؤدى إسناد الكلمات لسبارتاكوس، وهو الإسناد الذى يؤسس، فعلياً، موضوعية القصيدة، إلى إنتاج مفارقة لافتة تتأتى من حقيقة أن كتب التاريخ، والنصوص المصدرة القديمة ذات الصلة، لم تحمل إلينا كلمات قالها سبارتاكوس التاريخى مباشرة، أو نقلت عنه على ألسنة رواة ومؤرخين؛ بحيث يمكن للشاعر أن يستدعيها، أو يبنى قصيدته على الحوار معها؛ فليس فى المصادر القديمة حضور نصى فعلى لشورة العبيد وقائدها، وإنما لهما حضور هامشى سطحي يكاد يشارف حدود الغياب<sup>(١٨)</sup>، وهو الأمر الذى يلغى افتراض أن تكون هذه المصادر التى استدعى منها اسم سبارتاكوس حاضرة، حضوراً جوهرياً، فى بناء النص - الكلمات، وفى تكوين تجربة، وهوية، مبدعة المضمّن، وسواء فى ذلك أكان شخصية شعرية مستقلة تماماً عن الشاعر، أم كان قناعاً لذاته العميقة. وباستعداد هذا الغرض، ودون إغفال انطواء المصادر القديمة على بذرة صغيرة قابلة للانغراس فى تربة الخيال

النصوص من جهة ثانية. ومن هنا، فإن القراءة النصية للقصيدة المختارة ستحاول اكتشاف مصادر تكوين القناع وتحليلها، وبناء النص بحيث تتأسس هذه القراءة على تعقب، وتحليل، حركة مؤشر البناء؛ والتكوين، لإدراك آليات اشتغال ديالكتيكى التماهى والتناص، وطرائق إنتاج البنى الثلاث، فى مجرى بناء النص، وتكوين القناع.

## قراءة فى قصيدة

### قناع المترو

### كلمات سبارتاكوس الأخيرة

تتكون البنية اللفظية - النحوية للعنوان: «كلمات سبارتاكوس الأخيرة»<sup>(١٧)</sup> من ثلاثة أسماء: مضاف، ومضاف إليه، وصفة، على التوالى. ولا تشكل هذه البنية جملة مفيدة إلا فى ضوء العلاقة التى تنسجها مع القصيدة التى هى عنوان لها، وعلى اعتبار أن هذا العنوان يحمل خبراً لمبتدأ محذوف هو اسم الإشارة: «هذه» الذى يشير إلى القصيدة، أو على اعتبار أن العنوان مبتدأ لخبر سيأتى، هو: القصيدة.

وإذ تغضى صيغة الإضافة: «كلمات سبارتاكوس» إلى جمل القصيدة رديفاً للكلمات، وإلى إسناد الكلمات إلى الشخصية التاريخية: سبارتاكوس، قائد إحدى ثورات العبيد فى الأزمنة الرومانية القديمة، فإن الصفة: «الأخيرة»، تغضى على الكلمات دلالة الحسم والقطع، فهى كلمات نهائية، أخيرة، لا يملك صاحبها، لسبب أو لآخر، أن يمدلها أو يغيرها، أو يضيف إليها، أو يتراجع عنها. وهى كلمات حاسمة قاطعة، إما لأنها تحمل وجهة نظر شخصية متعينة غير مطالبة بتقديم برهان أو دليل عليها؛ لأنها نتاج تجربتها الخاصة، وخلاصة رؤيتها لذاتها وللعالم، تلك الحكومة بمنظورها الاستثنائى الخاص، وتجربتها المتميزة. وإما لأنها حقيقة مطلقة تكرر تأكيدها على امتداد أزمنة التاريخ.

وهكذا يفلق العنوان إمكان إسناد الكلمات - القصيدة إلى الشاعر أمل دنقل، غير أن المصاحبات النصية، أو النص الموازى، تفتح هذا الإمكان، إذ تخبرنا أن أمل دنقل هو

الذى أنتجت فى ظل شروطه الخاصة، فيما هى تقول تجربة قديمة - مبتكرة، ترتبط بشخصية تاريخية يفصلنا عنها ما يقرب من ألفى عام؛ فليس اختيار الشاعر سبارتاكوس - الرمز، ليكون شخصية شعرية، أو قناعاً، تدور القصيدة على محوره، مجرد اختيار ذاتى معزول، أو مشروط برغبة خاصة، وإنما هو، فى تواضع متصل، اختيار محكوم بعلاقة الشاعر بالواقع الذى يعيشه، وبمبادئه، وبالرؤية التى تخلفه عن ذاته، وعن، والشعر الذى هو مجاله التعبيرى الخاص، والذى يتطلع إلى إثرائه وتجديده، مثلما هو مشروط بالجواهر التى تحتضن البذرة التاريخية، أو الشرارة التى تفتح أفق ابتكار تجربة سبارتاكوس القديم، عبر الإطلال على الواقع الذى عاشه وعاناه، وتمرد عليه.

ولعل فى ما سبق، وفى المحولات الدلالية - الرمزية لهذا الاسم - الرمز، ما يؤكد تداخل الدوافع الكامنة وراء اختيار الشاعر سبارتاكوس ليكون محورا لقصيدة يفتح حضوره فيها إمكانات واسعة لإيجاز وظائف، وأهداف، متداخلة، ومتعددة الأبعاد والمستويات؛ فليس لسبارتاكوس أن يكون قابلاً لتجسيد نزعة ذاتية معزولة، ومغلقة على ذاتها؛ ذلك لأن أعمق ما تبثه بذرة الدلالات الكامنة فيه، يتمثل فى انفتاحه على الآخر الشبيه، وصراعه مع الآخر النقيض، وإدراكه العميق تناقضات الواقع، ورفضه له، وتمرده عليه، انطلاقاً من رؤية ملوابة تضع المثل الأعلى القابل للتحقق فى مواجهة الواقع القائم، أو تضع الفردوس فى مقابل الجحيم، والحياة الحرة فى مقابل الوجود المؤجل.

وعلى الرغم من أن العنوان لا ينطوى على ما يحدد، بدقة وحسم، هوية صاحب الصوت الذى سينطق القصيدة، والذى سيحمل إلينا كلمات سبارتاكوس، فإن نهوضه بمطابقة القصيدة بهذه الكلمات، يضع احتمال أن يكون الإنسان المتمرد: سبارتاكوس، قناعاً للشاعر أمل دنقل، فى مقدمة الاحتمالات الممكنة، ومن بينها، بالطبع، احتمال أن يكون شخصية شعرية مستقلة تماماً عن الشاعر. وعلى ذلك، فإن تعرف طبيعة حضور سبارتاكوس، فى قصيدة تقول كلماته، يظل مرهوناً بتعرف هوية الصوت الذى تتحمل عليه هذه الكلمات، والذى يخوض تجربة القصيدة وينطقها، وهو

الخلق، تظهر فرضية أن يذهب مؤثر البناء والتكوين إلى استلهم النصوص الإبداعية المعاصرة التى أعطت سبارتاكوس، وثورات العبيد، حضوراً نصياً رسخ وجودهما فى الحياة والتاريخ، فيما هو يصل - أى المؤثر - على بناء تجربة جديدة - قديمة، لسبارتاكوس قديم - جديد، تنبع من قراءة الشاعر وتؤله الخاص للبذرة التاريخية القديمة، التى غرسها فى تربة الواقع المعاصر الذى انطلق منه ليستجليه فى مرآيا الماضى، فيما هو يستجلي للماضى، ويؤله، ويقتبس رؤيته له، فى مرآيا هذا الواقع، واصلاً الماضى بالحاضر، وفتحاً كليهما على الأزمنة.

يحدد العنوان انتماء القصيدة: «كلمات سبارتاكوس الأخيرة، إلى العالم الأدبى السبارتاكوسى الذى ينهض على بذرة تاريخية صغيرة أعيد غرسها فى تربة الواقع المعاصر منذ مطلع القرن العشرين؛ قرن الأمية وثورات التحرر التى تبنت سبارتاكوس وأشباهه، والإيديولوجيات والإبداعات الأدبية، والفنية، التى عملت، بقوة لافتة، على «أسطرته» من وجهات نظر متباينة، ومنظورات متغايرة.

يقود إدراكنا لما تقدم إلى توليد فرضية مؤداها أن القصيدة التى نقاربها ليست نتاجاً لغرس البذرة التاريخية فى تربة واقع يلتهم برؤية الشاعر، وحياله الخلاق، فحسب، وإنما هى نتاج غرس أحيط بالأجواء الناعقة عن غروسات هذه البذرة فى أراض مختلفة، وفى أحيلة مبدعين آخرين، خاصة الكاتب الروائى هوارد فاست Howard Fast، مبدع الرواية الشهيرة (Spartacus) التى ترجمت ونشرت<sup>(١٩)</sup> فى مصر قبل كتابة الشاعر القصيدة، وهى الرواية التى حولت إلى فيلم سينمائى تكرر عرضه قبل صدور ترجمتها، وبعده.

وإذ نجد، فى ضوء هذه الفرضية، أن القصيدة تبعد تجربة سبارتاكوسية تشق لنفسها سباقاً خاصاً فى إطار السياق العام للعالم الأدبى السبارتاكوسى، فإننا نفترض، فى ظل غياب حضور نصى متميز لسبارتاكوس القديم، أنها لا تعيد إنتاج تجربة قديمة، وإنما تبعد تجربة قديمة - جديدة، ستكون محملة بآثار وعلامات تدل على انتمائها إلى الشاعر الذى أبدعها، وإلى الحقبة الزمنية التى استدعتها، وإلى الواقع

هي القصيدة ذات البناء المونتاجي، الذي يفضى إلى تركيب جديد يوالف بين عناصر ومكونات متباعدة، ونتعرفه من خلال اكتشاف العلاقات الداخلية القائمة بين هذه العناصر والمكونات، أى من خلال تعرف البنى الجزئية العميقة لكل سطر شعري، ومتتالية، ومقطع، واكتشاف العلاقات الداخلية القائمة بينها جميعاً، التى تؤسس البنية الكلية العميقة للقصيدة بأسرها، بوصفها وحدة ملتحمة، وكيونة موضوعية لها استقلالها عن الشاعر؛ لكونها كلمات مسندة إلى سبارتاكوس، وسواء فى ذلك أكان شخصية شعرية، أم قناعاً.

ونظراً لأن المزج هو التقنية المعتمدة فى جميع المقاطع، فإن فى ذلك تأكيداً لوعى الشاعر بمبدأ التناس، باعتباره مبدأ جوهرياً فى الإبداع، وفى الشعر الحدائى بخاصة؛ بحيث يمكن أن نفترض أن غياب الحضور النصى لسبارتاكوس، لاسيما فى المصادر التاريخية القديمة، قد دفع الشاعر إلى توظيف هذا المبدأ، عن قصد وتعمد، بغية بناء تجربة هذا الإنسان المتمرد على نحو ما يرى إليها، وبقصد الإسهام فى تأسيس، وتوسيع، مدارات العالم الأدبى السبارتاكوسى، وتعميق حضور سبارتاكوس فى الأزمنة، وذلك بإبداع نص يرسخ حضوره فى قديم الثقافة العربية، وجديدها، وفى الثقافة الإنسانية التى تحتضن تفاعل الثقافات والإبداعات.

يمكننا، بناء على ذلك، أن نتوقع ابتعاد مؤشر البناء والتكوين عن المحور المؤسس على علاقة الشاعر بنصوص مصدرة تجسد تجربة سبارتاكوس التاريخى - المبتدع، تجسيدا مباشرا، ليذهب بعيدا نحو اختراق نصوص أخرى، عديدة ومتباينة، فيمتص منها عناصر ومكونات وكلمات يصهرها فى بوتقة بناء تجربة سبارتاكوس القديم - الجديد، ويلهبها بخيال شاعر خلاق يكونه، ويصوغ هويته، ويبتكر كلماته الأخيرة التى تقول تجربته، أو تكثف حكمته المستخلصة، فيما هى تحمل الإيحاء بقيمه العالية، ويجوهر رؤيته لذاته، وللعالم:

المجد للشيطان معبود الرياح

من قال «لا» فى وجه من قالوا «نعم»

من علم الإنسان تمزيق العدم

من قال «لا» فلم يمت

وظل روحاً أبدية الالم. (ص ٧٣)

الأمر الذى لا يمكن إدراكه إلا بمقاربة القصيدة، لتحليل حركة إحالة الضمير المهيمن عليها، ولتعرف طبيعة حضور كل من سبارتاكوس، والشاعر، فيها، وصلة أى منهما بالصوت الذى ينطقها، وذلك فى ضوء الإيحاءات التى يعكسها العنوان عليها، أو التى تمكسها هى عليه، لتعدل إيحاءاته، ولتعيد توجيهها، أو لتنسجها.

ما إن نغادر العنوان الرئيسى، وندخل القصيدة محملين بإيحاءاته، حتى نواجه عنواناً فرعياً يسم مطلعها: «مزج أول» (ص ٧٣) فنذكر أن المطلع، أو المقطع الأول، المكون من متتالية شعرية واحدة، يقوم على تركيب مزجى يعتمد تقنية مونتاجية Montage تمازج بين عناصر ومكونات مختلفة، فتغير طبيعتها، لتنشئ تركيباً جديداً يتجاوزها جميعاً؛ لأنه ينتج عن تفاعلها، وليس عن اجتماعها فى تجاوز مكبوح عن التفاعل. ولعل فى هذا العنوان ما يوحي، دون جزم أو تأكيد، باحتمال أن تكون مشاهدة الشاعر الشريط السينمائى المؤسس على رواية هوارد فاست، هى التى أوحى إليه بفكرة القصيدة، أو كانت على أقل تقدير، حافزاً قاده إلى تعرف تجربة سبارتاكوس فى مظانها المحتملة، ومن بينها، بالطبع، النصوص التاريخية والإبداعية، التى تتناول التاريخ الرومانى القديم، أو التى تجسد حضوراً نصياً إبداعياً لسبارتاكوس التاريخى؛ بحيث أدى هذا التعرف، متضافراً مع عوامل أخرى، إلى توليد فكرة مطابقة القصيدة بكلمات يفترض أن قائلها هو سبارتاكوس: الإنسان المتمرد الذى تدور القصيدة على محوره، وذلك على نحو ما تدور الرواية، والشريط السينمائى.

وإضافة إلى ما تقدم، فإن عنوان المقطع الأول يؤسس حتمية أن تحمل المقاطع الأخرى العنوان نفسه مع تباين الصفة التسلسلية، بحيث نكون إزاء أمزاج متوالية: مزج أول، ثان، ثالث، رابع، وهو الأمر الذى يوحد التقنية المعتمدة فى جميع المقاطع، ويشير إلى أن كل مقطع يشكل حركة، أو صورة مشهدية متسعة، مستقلة بذاتها، متصلة بغيرها، ومتداخلة معه، وكأنما المقاطع - الحركات والمشاهد، هى مرآيا متقابلة، أو متداخلة، تتبادل الانعكاسات المتزامنة، أو القبلية والارتيجاعية، لتصوغ حركة كبرى، أو صورة كلية،



مسكون بكثرة لا تنتهى من الأصوات الرافضة المتمردة: فى الماضى، وفى الحاضر، وفى المستقبل. وهو الأمر الذى يعمق درامية الصوت، ويرتفع بها إلى أعلى الذرى، وذلك على النحو الذى يجعل من تداخل الأصوات، والتحامها فى صوت كونى واحد، معادلا للإطلاقية الحاسمة التى تحيط بشبكة الدلالات التى تحملها كلمات المطلع. مثلما يجعل من التوتر الدرامى الداخلى لهذا الصوت الممتد بامتداد الأزمنة، والمسكون بأصوات كثيرة لا تنتهى من ذوات إنسانية تتكثف تجاربها، ومصائرهما، فى حكمة واحدة، وخلاصة أخيرة، معادلا دراميا صوتيا للتوتر الدرامى الدلالى، الفكرى والشعورى، الذى تنطوى عليه هذه الخلاصة وهى تؤكد أن انخراط الروح فى «أبدية الألم»، هو الشرط الحاكم الوجود.

وقد نذهب، فى ضوء انعكاسات العنوان الرئيسى، إلى افتراض أن صوت سبارتاكوس ينطق المزج الأول، وأن هذا المزج ليس إلا تطوياً يرفعه باسم الشيطان، وإليه، كأنما هو ديساجة تفتح الكلام، أو حكمة مكثفة سيأتى شرحها، وتوضيح منابمها، وبيان التجربة التى أنتجتها. ولكن هذا الفرض - المركب، الذى تؤصله مؤشرات نصية تقدمها الأمزاج الثلاثة الأخرى، حيث تؤكد - كما سنرى - أن سبارتاكوس هو ناظم القصيدة - الكلمات الأخيرة المنسوبة إليه - لا يفضى إلى إلغاء الفروض الأخرى، بل يعمل على إدماجها، حيث يمتص صوت سبارتاكوس جميع الأصوات ويوحدها فى صوته، فيكون الصوت الكلى الجامع للكثرة الهائلة من الأصوات العائدة لذوات إنسانية رفضت واقعها، فى الماضى، وتمردت عليه بحثا عن حريتها، وعن وجودها الإنسانى الحقيقى، وترفض واقعها الحاضر، وتمرد عليه، وسيكون لها الشأن نفسه مع المستقبل الذى سيصير حاضرا يتوجب التمرد عليه بغية توسيع مدارات الحرية الإنسانية، والصعود بالإنسان إلى أعلى ذرى الوجود الفاعل فى الحياة، ذلك لأن «الحرية هى المستقبل»<sup>(٢٠)</sup>، ولأن «الحق مرتبط بتحقيقها، والجمال نتيجة لتحقيقها»<sup>(٢١)</sup>، ولأن «الإنسان الحر هو الإنسان الحقيقى»<sup>(٢٢)</sup> الجميل.

وبافتراض أن سبارتاكوس هو صاحب هذا الصوت الكلى الجامع، فإننا نستطيع أن نتعرف، فى شبكة دلالات

ذاك هو مطلع الكلمات، أول الأمزاج، ابتهاج القصيدة الأول، وتطوياً الأخير، خلاصة التحرية المروية فيها، ذروة ذراها الدرامية، وحكمتها المصفاة. تتساكن فى كلماته الأفكار والرؤى ملتحة بالشاعر والأحاسيس، فتومض بالتوتر الداخلى العنيف لذات إنسانية حكمتها تجربة بالغة الضراوة، وانتهت إلى مصير أليم. فمن يكون صاحب هذا الصوت الذى تأتينا الكلمات محمولة عليه؟ ومن يكون صاحب هذا الصوت الفاوستى الذى يرفع التطويب باسم الشيطان، مبتكر الرفض، ومعبود الرياح؟ ومن يكون صاحب هذا الصوت الذى يبرم ميثاقا مع الشيطان، ويعلن أنه من سلالته؟ وما فحوى هذا الميثاق الذى يفتح الوجود، ويعلق مهاوى العدم؟

ليس فى المزج الأول أى مؤشر بارز يوضح هوية صاحب الصوت الذى ينطقه، فليس فيه اسم علم، أو إشارة، أو متعلق لازم يدل مباشرة، أو مواربة، عليه. كما أنه لا يتضمن ضميراً نوحياً، ظاهراً أو مستترا، يمكن تأمله، وتحليل علاقاته، لاكتشاف الذات الناطقة التى يحتمل أن يحيل إليها، إن الحاضر الوحيد، فى المطلع، وعلى هذا المستوى، هو الغائب الذى باسمه، وإليه، يرفع التطويب: الشيطان؛ بحيث يمكننا، فى ضوء غياب الشاعر عن نصه وكمون صوته فى القرارات العميقة لصوت ناظم هذا النص، واستنادا إلى أن العنوان الرئيسى لا يحدد، بدقة وحسم، مسألة نطق سبارتاكوس، وعلى نحو مباشر الكلمات المنسوبة إليه، أن نفترض أن الصوت الذى نصفى إليه فى المطلع هو صوت مجرد، أو هو صوت جماعة من المهتلين غير المرتبين، أو صوت جوقة مفترضة تنطق بلسانها الموحد كلمات تجربها عليه ذات إنسانية جوهرية، ومطلقة، مجرية وعارفة، لتقول، عبر هذا الصوت، حكمتها الأخيرة المستخلصة من تجربتها الموهلة فى الزمان، والمفتوحة على أزمنة تحىء

ونظرا لأن انعكاسات العنوان الرئيسى على المطلع، تولد إحالة مراوغة إلى سبارتاكوس باعتباره ناظما محتملا لكلمات منسوبة إليه، فإن هذه الإحالة لا تلغى الفروض السابقة، ولا تستبعد غياب صوت الشاعر فى أعماق قرارات الصوت المسموع، وإنما هى تعمل على تشتيت حركة الإحالة، وتولد الإيحاء العميق بأن الصوت الذى نصمى إليه هو صوت



وإضافة إلى إمكان قيام التواصل الذى يقيمه المزج بين سبارتاكوس، من جهة، والشيطان المجرد من أى دلالة دينية، وسلالته المستمرة، من جهة ثانية، على استلهم نصوص تنتمى إلى العالم الأدبى الفاضلى، وإلى الفكر النيتشوى، فإننا نستطيع أن نفترض أن هذا الاستلهم قد تم عبر نص وسيط، هو رواية هوارد فاست، أو هو الشرط السينمائى القائم عليها؛ وذلك لأننا نجد فى هذه الرواية، كما فى الشرط السينمائى، إلحاحا بالغا على إقامة هذا التواصل؛ بغية توكيد شخصية البطل: سبارتاكوس، وتعميق حضور الهوية التى يجسدها فى جميع الثقافات، والمجتمعات، والأزمنة، وهو الأمر الذى يتم باعتماد أساليب وتقنيات مختلفة، لمل أبرزها توزيع العبارات، التى تؤكد تواصل سبارتاكوس بأشباهه، على شخصيات روائية عديدة، تتباين مواقفها منه، ومن ثورة العبيد؛ فها هو الراوى، الذى هو فى الوقت نفسه المؤلف الضمنى للرواية، يرى أن المجالدين - العبيد، قد أحسوا، وهم يتحلقون حول سبارتاكوس، فى لحظة إعلانه رفضه وتمرده، بأن «شيطانا ما فى قلبه قليل من الشفقة قد مسه واحتواه»<sup>(٢٣)</sup>، وأن هذا الإحساس جعلهم يدركون أنه قائدهم الحقيقى القادر على إعادة حياتهم إليهم، وعلى إعادتهم إلى الحياة، وأن من واجبه «أن يتكهن بالمستقبل ويقرأ كما يقرأ الرجل الكتاب المفتوح، وأن يقودهم إليه، وأن يشق لهم الطريق إن لم تكن هناك طرق يسرون عليها»<sup>(٢٤)</sup>. يوضح الراوى أن سبارتاكوس لم يكن، بالنسبة إلى المجالدين و العبيد الذين انتفضوا معه فى وجه الأسياد، وضد العبودية والاستبداد، إنسانا مسه شيطان، فأصبح قائدا، وعرفاء، ومغامرا يفتح المجهول، فحسب، وإنما كان، أيضا، إنسانا مسه إله فأهله لأن يكون خلاق حياة؛ فقد كانوا :

مشبعين بالأساطير التى تدور حول الرجال الذين مستهم الآلهة. وكان هذا الإيمان ينطق فى وجوههم عندما يتطلعون إلى سبارتاكوس<sup>(٢٥)</sup>.

وإذا ما كان الراوى يتكفل، عبر السرد، بإقامة العلاقة المباشرة التى تجعل من سبارتاكوس، فى منظور المجالدين والعبيد، حسب رؤية الراوى أيضا، إنسانا مسكونا بشيطان رافض متمرد، وبإله خالق، فإن أقوال الشخصيات الأخرى،

المزج الأول، خصائص هويته، والقيم التى يعتنقها، والمشارع التى يتجتاحها وهو يكثف، فى التطويب الذى يرفعه للشيطان، خلاصة الحكمة المستخلصة من تجربته الإنسانية اللامتناهية، ومن انخراط روحه المخالفة فى ألم وجودى هبرى خلاق.

إن امتصاص صوت سبارتاكوس أصوات جميع الرافضين المتمردين، منذ فجر الوجود، وعلى امتداد الأزمنة، هو امتصاص لمكونات تجاربهم، ولخصائص هوياتهم، ولمصائرهم. وهى المكونات والخصائص، والمصائر، التى تتوحد فى النمط الأصلى الأعلى للرفض والتعبد: الشيطان، ذاك الذى كان لرفضه وتمرده أن يمزق العلم، وأن يفتح أبواب الوجود، والذى إليه تنتمى سلالة المتمردين الرافضين الذين لا ينضب رفضهم وتمردهم - كما سنرى مع متابعة التحليل - على قضايا لا تتصل بحياتهم على الأرض، وبوجودهم الدنيوى فى الوجود.

ويتواصل سبارتاكوس مع نمطه الأصلى الأبعد غورا فى الثقافة الإنسانية، والذى يصلنا بفجر الحياة، وبتفجراتها الأولى، حيث كان الإنسان يتصور أن الرياح أرواح هائلة تتدافع، وأن لا نبات فى الحياة، بل حيوية دائمة وتحولات مستمرة، فإنه يكون قد تحول، منذ مطلع القصيدة، إلى نمط أصلى، أو إلى نموذج عال يحتضن فى أعماقه جوهر أشباهه الذين تواصلوا حضورا منذ فجر الحياة، وحتى لحظة نطقه كلماته الأخيرة، بل حتى لحظة اتصال القارئ، فى أى زمان آت، وفى أى مكان، بهذه الكلمات.

وباندفاع مؤثر البناء والتكوين صوب النصوص المصدرية التى تجسد أول تجربة للرفض والتعبد فى تاريخ الإنسان، فإنه يكون، فى هبوطه وصعوده، قد اخترق كثرة هائلة من النصوص الأسطورية والدينية والفلسفية، ومن الإبداعات الأدبية والفنية التى يصعب حصرها؛ بحيث يمكننا أن نفترض وجود ما نعرفه، وما لا نعرفه من هذه النصوص، فى قاع المطلع، وأن نعتبر الحكمة التى يقولها خلاصة تكثف الخلاصات الأخيرة لتجارب جميع الذوات الإنسانية المتمردة الرافضة على امتداد الأزمنة، وفى شتى الثقافات؛ وبحيث يمكننا اعتبار هذا المطلع - الومضة، مفتاحا للولوج إلى عالم أدبى شاسع موسوم بعنوان: التمرد والرفض.

ولعل يؤتى التناص الأكثر أهمية، هما بؤرتان دلالتان تتمثلان في أمرين، أولهما: تحول المطلع، بالإضافة إلى كونه تطويلاً للشيطان، إلى ترنيمة أو نشيد للرياح المغيرة. وهو الأمر الذي نحسب أن نشيد المياه والرياح<sup>(٣٠)</sup> الذي كان سبارتاكوس بالرواية يترجم به على مسامع العبيد، والذي فيه «تكنم حكمة الشعب القديمة، وتحفظ لوقت المحنة»<sup>(٣١)</sup>، هو أحد المفجرات، إن لم يكن المفجر الرئيسي، لاندفاع الشاعر نحو ابتكار نشيد قديم - جديد، حاد وقاطع، ينطقه صوت سبارتاكوس القصيدة، ويفتح به كلماته الأخيرة.

أما بؤرة التناص الثانية، فإنها تتمثل في لاءات سبارتاكوس<sup>(٣٢)</sup> التي تمثل قلب المغزى الذي تنطوى عليه الرواية، والقصيدة، على السواء، بل قلب سبارتاكوس: قناع هوارد فاست، وأمل دنقل، للعالم. وباعتبار أن اللاءات المتكررة التي ينطقها في الرواية، أو في القصيدة، هي استحضار الواقع الممكن، وذلك في صيرورة هدم، وبناء، مستمرين.

ولا يقع التناص الحوارى الذى يحكم علاقة المطلع بمصادره، مع الرواية فقط، وإنما يقع مع نصوص مصدريه أخرى، عبر الرواية من حيث هي نص وسيط، أو من خلال اتصال مباشر، وهو الأمر الذى يصعب تحديده، بدقة، طالما أن النصوص جميعها تتداخل. غير أننا نستطيع أن نشير إلى أن المطلع يتناص مع نصوص أسطورية ودينية، ومع بعض مقولات الفكر الفلسفى النيتشوى، والوجودى، ومع حدوس تعود إلى الفلسفات الإشراقية، بالطريقتين معاً، فهو يستلهم من النص الأسطورى، عبر الرواية، فكرة الربط بين الأرواح والرياح، ويلمح إلى عبادة الأخيرة باعتبارها أرواحاً مقدسة هائلة القوة، وهو يستلهم من النص الدينى، مباشرة، قصة الرفض والتمرد، واختراق التابو بالتهام ثمرة شجرة المعرفة، وقصة السقوط واللغة الأبدية المسقط على إبليس، التى يعمد النص الشعرى إلى استلهاهم قرار الألم الأبدى المسقط على حواء ليستبدله بها، وليجعله مخصوصاً بالإنسان الراض، وذلك فى سياق إلغاء فكرة الخطيئة، وتجريد الشيطان من اللعنة، ومن أية دلالة دينية ما وراثية، وهو الأمر الذى يتحقق عبر تناص مباشر، وغير مباشر، مع النص الفلاوستانى المشيع

والأحداث والحوارات والمشاهد، تتكفل بترسيخ هذه العلاقة، فيما هى تتبنى حلقات السلالة التى ينحدر منها، فيها هو القائد الرومانى كراسوس يرى فى سبارتاكوس تجلياً من تجليات برومثيوس؛ فقد: «قرأ الدورة العظيمة التى كتبها أخيلوس [كذا] عن برومثيوس، ورأى جانباً من معناها يتحقق فى سبارتاكوس فى خروجه من حيث كان ليصبح شخصاً تعجز كل قوة روما من الوقوف فى وجهه عبيده...»<sup>(٣٦)</sup>. كما رأى فيه تجسيداً حياً للغز الأبدى: «لغز الرجل رهين القيود الذى يمد يده إلى النجوم»<sup>(٣٧)</sup>. وهامو المجالد اليهودى داود «يمثل أوديسيوس الحكيم الصابر، فى ذهنه، فى سبارتاكوس، وظل الاثنان... وبالنسبة له هما نفس الشخص»<sup>(٣٨)</sup>.

وبالإضافة إلى أن الرواية تقيم موازاة دائمة، وعبر طرائق مختلفة، بين سبارتاكوس وآلهة الموت والانمات، بلداً من رديف تموز وأوزوريس الإله آميس الذى يصلب على شجرة المعرفة - الحياة، وحى السيد المسيح الذى يصلب على خشبة من الشجرة عينها، فإننا نلاحظ أنها لا تفصله عن أشباهه الرافضين المتمردين معه، كما أنها لا تفصله عن قيادة ثورات العبيد السابقة على ثورته، أو التى أتت بعدها، أو التى ستأتى، وذلك مع إدراك اختلاف مضمون العبودية بين عصر وآخر، ومجتمع وآخر، فهو ينتمى إلى السلالة التى ينتمى إليها:

إيونوس الذى حرر كل عبد فى الجزيرة وحطم ثلاثة جيوش رومانية قبل أن يوقعوا به، وأثينيون اليونانى، وسالفيسوس التراقى، أو ندرات الألمانى، واليهودى الغربى ابن جوا الذى فر من قرطاجنة على ظهر سفينة وانضم إلى أثينيون<sup>(٣٩)</sup>.

وإذ لا نقصد من الإشارات شيئاً سوى الإلماح إلى انتهاج القصيدة - على غرار الرواية - خطة تحويل سبارتاكوس إلى نمط أصلى ورمز عال، وتأكيد نهوضها على تناص مباشر مع الرواية، والشريط السيمائى، فى آن، مع توضيح قدرتها على إثارة أجواء الرواية وعالمها الواسع، من خلال نص شعرى شديد الكثافة، فإننا نكتفى بما قدمناه من إشارات دالة، ونذهب إلى تعرف حركة تناص المزج الأول مع مكونات أخرى تعود مباشرة إلى الرواية.

برؤية نيشتشوية ترتبط بفكرتى: الإنسان المتفوق، ولادة القوة<sup>(٣٣)</sup>، ومع الفلسفات الإشرافية التي رأت أن «الألم هو أصل الموهبة»<sup>(٣٤)</sup>، وأن فى النضال من أجل الموهبة أملاً كامناً بالولادة للمرة الثانية، وذلك لأن العمل ولاد حياة.

وفى تلازم مع التناصر الدلالى المتجاوب أو المتعارض يتأسس المطلع على تناص بنائى إيقاعى حيث تكشف بنيتة الإيقاعية، منذ الوهلة الأولى، أنه يتناصر، إيقاعياً، وعلى نحو ظاهر، مع القرآن الكريم: سورة العلق، كما توضح أنه يتناصر، بدرجة أقل، مع ديباجات الخطب الدينية، واستهلالات الكتب القديمة، ومع مزامير داود، والتطويبات الإنجيلية، ومع قصائد قديمة تنحكم وزنيا للبنية الإيقاعية لبحر الرجز.

وإذ يعمل التناصر الإيقاعى، وبخاصة مع سورة العلق، والقصائد الرجزية، على إضفاء القدم على النص وناطقه، وتقريبهما من القارئ عبر تحريك البنية الإيقاعية الكامنة فى ذاكرته، مما يسهل عليه أمر إدراك النص، وحفظه، ومواصلة الترميم به، فإنه يعمل، فى الوقت ذاته، على دفعه إلى استحضار الشبكة الدلالية للنسيج النصى الذى احتوته البنية الإيقاعية القديمة، ولمقارنة دلالات النص الجديد بدلالات النص القديم، أو النصوص القديمة. وهو الأمر الذى يوضح، ويعمق، الرؤية المكنونة، أو الظاهرة، فى النص الجديد، مثلما يدفع القارئ إلى إعادة التفكير فى الدلالات الشائعة للنصوص القديمة، وإلى إعادة تأويل هذه النصوص انطلاقاً من إدراكها فى ذاتها، ووفق منظور يتجاوب مع تجربة القارئ، ومع مكونات وعيه، وحاجاته، وفى ضوء التجربة والخبرة التى اكتسبها من قراءة النص الجديد، ومن اكتشاف العلاقات التى يقيمها مع النصوص القديمة.

ويتجاوب الإيقاع الدرامى الحاد الحاكم للنسيج النصى للمطلع، والناجم عن الأثر المشترك لتفاعلات عناصر صوتية عديدة، كمتكررات تفعيلة بحر الرجز: مستغلن، وتوزيعاتها على الأسطر، وتعالقات الحروف الحادة المهيمنة، الحاء والقاف والميم، وتوزيعات القوافى الحادة المسكنة، المتناوبة والمتكررة: الحاء والياء والميم، يتجاوب هذا الإيقاع الدرامى الحاد مع التضاد الدلالى الحاكم الشبكة الدلالية لهذا

النسيج، والمؤسس على موقف رفضى قاطع ونهائى، وعلى فعل تمردى حاسم، وهما الموقف والفعل اللذان يدخلاننا دراما الإنسان والوجود؛ إذ يحيلان إلى نقائضهما، وإلى حركة الصراع المفتوح بين الأقطاب المتناقضة التى تتجاذب إنساناً عاجزاً، لسبب أو لآخر، عن اتخاذ موقف كيانى جذرى من الحياة؛ فتمزقه، وتفقدته هويته، وتخلق روحه فى مراوحة عابثة بين خيارات متعارضة تعارض الوجود والعدم.

وإذ يحاط كل ما تقدم بالنغمة المأسوية الساخرة التى تنحمل عليها فكرة اقتران وجود الحقيقة الإنسانية فى العالم بأبدية الألم، وهى النغمة التى تؤكد لها علامة التعجب فى السطر الأخير؛ فإن ذلك كله يولد دلالة الاستنكار؛ قرينة الرفض، لتضاف إلى الدلالات الناتجة عن التضاد الدلالى، وعن الدوال الإيقاعية التى بينهاها، ولتعمل معاً، عبر التفاعل مع مكونات الشبكة الدلالية للنسيج النصى، على تعميق إحساسنا بالتوتر الدرامى الداخلى العنيف، وبالألم الوجودى الخائق، وبالإصرار العنيد على الرفض والتمرد، المضطربة، جميعاً، فى أعماق سبارتاكوس - الإنسان الكونى، وبالحسم والإطلاقية اللذين يحكمان علاقته باعتقاده الراسخ بأن الرفض الجذرى هو مفتاح الوجود الإنسانى الحق؛ لأنه مفتاح الخلق، ولأنه المدخل الوحيد للحرية التى فطر عليها الإنسان.

وهكذا تتفاعل جميع العناصر والمكونات والبني، وتنصهر فى لهيب رؤية الشاعر وخياله الخلاق، لتصوغ مطلع القصيدة، ولتكسبه كينونته الموضوعية المستقلة، باعتباره كلاماً يقول نفسه، أو باعتباره كلاماً مسنداً إلى صوت كونى ينطق كلمات مسندة إلى إنسان جوهرى كلى أبدى الحضور، هو: سبارتاكوس. ولتجعل منه - أى من المطلع - ذروة درامية شعرية تكشف الخصائص العميقة التى تكتنزها هوية سبارتاكوس؛ حيث تبلغ به من العلو حدا يجعلنا نحسب أنه ذروة النثرى الدرامية فى القصيدة؛ فقد حملنا هذا المطلع ذو الأسطر الشعرية الخمسة إلى قلب أعماق سؤال وجودى: سؤال الموت فى الحياة؛ ذاك الذى نحاول تغييبه تحت ركام هائل، ومتكاثر من إيديولوجيات الاستبداد والقهر، والثبات، ومن مواقف القبول والرضا، والامتنالية الخائفة.

والتي تتركز على قول التجربة، وليس على تكثيف خلاصتها الأخيرة، كما هي حال المزج الأول.

وإذا كان المزج الأول قد اتسم بالخصائص الصوتية والإيقاعية والدلالية التي جعلت منه ذروة شعرية درامية، بالغة الكثافة والعلو، أو جملة شعرية توترية، تحمل شحنة دلالية وإيقاعية، بالغة الإحياء والتأثير، فإن الانتقال المفاجئ من الحدة الإيقاعية، والكثافة، ومن كونية الصوت، وإطلاقية الدلالة وقطعيتها - وهي الخصائص التي ميزت المزج الأول - إلى الرخاوة الإيقاعية، والسردية القصصية، وخصوصية الصوت، ونسبية واستثنائية التجربة التي يخوضها صاحبها، لا يفضي، فحسب، إلى تعميق إحساسنا بالهبوط من قمة الذروة التي حملنا إليها المزج الأول إلى صيرورة تجربة مخصوصة ذات امتداد أفقي سيأتي معكوس، يتأني من انطلاق حركة السرد من نهاية التجربة - المصير، وإنما يعمل، في سياق ذلك، على تعميق إحساسنا بالتناقض الحاد ما بين خصائص هوية الذات الكلية التي رفع التطويب باسمها، وإليها، باعتبارها ذاتا جوهرية مطلقة، أبدية الحضور، خالدة في المجد، ولا متناهية في أبدية الألم العبقري الخلاق، وما بين واقع الذات الفردية التي تبدأ، مع مطلع المزج الثاني، في قول تجربتها انطلاقا من نهايتها<sup>(٣٥)</sup>، أو من المصير الذي آلت إليه، والذي يؤكد أنها ذات متناهية، يحنى الموت جبهتها، وينهى آلامها. وبهذا التضاد الحاد، ما بين المجد الأبدى الذي اكتسبته الذات الكلية اللامتناهية، والموت الذي هو مآل كل حقيقة إنسانية مفردة، ومصيرها الأخير، يتبدى المتكلم، في مطلع المزج الثاني، بطلا تراجيديا ينحدر من قمة مجد مضى اعتلها بتمرده ورفضه ويفعله المغير، إلى قاع جحيم معتم تدفعه إليه أقدار لا ترد، أو واقع عصي على التغير.

وإذا يبدأ المتكلم في قول تجربته الاستثنائية الخاصة، بصوته الخاص، فإنه يبدأ في اتخاذ سمات الراوى، أو المؤلف الضمني الذي تم إظهاره، فيكون هو البطل المأساوى لتجربة مأساوية، ويكون هو الرمز الكلى، الحسى العينى، الذى تدور هذه التجربة على محوره، والذي يهيئنا مطلع المزج الثانى للإصغاء إلى صوته ناطقا القصيدة بأسرها، أو مهيمنا عليها، أو مسموعا فيها إلى جانب أصوات أخرى يحتمل حضورها.

بتكشف الخصائص الجوهرية لهوية سبارتاكوس، المحمولة على صوت كوني، يكون المزج الأول قد حقق له - أى لسبارتاكوس - وجودا نصيا يهيئ للشاعر أن يفتح عليه، للتفاعل معه، ولإنتاج الهوية المتحولة للقناع الذى يحمل اسمه، وذلك بالانتقال من قول الحكمة المستخلصة من التجربة إلى قول التجربة نفسها، ومن الصوت الكونى المعمم والإحالات المراوغة إلى الصوت الشخصى المتعين والإحالة المحددة، ومن الكثافة الشعرية الدرامية إلى السرد القصصى المشيع بطابع درامى شعري ينتج عن الصور الشعرية، وعن الرجوع والترديد، وعن تكرار اللوازم، وعن توزيع الذروات الشعرية الدرامية على مواضع مختلفة من النسيج النصي للأمزاج الثلاثة، وعن حركة الصراع المؤسسة على تناقض جذرى بين الوجود والعدم، والمتفتحة على إنتاج حركة صراع يحتمل وجودها بين متناقضات يحتضنها هذا التناقض الكلى، وعن إحاطة ذلك كله، وبالفكرة الدرامية الأشد كثافة وتأثيرا: فكرة الكلام من الموت، أو من الطريق إليه:

معلق أنا على مشاقق الصباح

وجبهتى - بالموت - محنية

لأننى لم أحنها حيّة

... (ص ٧٢ - ٧٤)

تلك هي المتتالية الشعرية الأولى من المزج الثانى، نحمّل على صوت ذات تقول كلماتها الأخيرة، فيما المشنقة تحمّلها إلى الموت. وعلى الرغم من انطواء مشهد الشنق على كثافة درامية عالية، تنبع من احتمال تحول الإنسان، في لحظة، من حقيقة وجودية إلى شبح، أو من فكرة الموت وهي تتجسد، وثيدا وثيدا، وتمتد؛ فإن انفتاح مطلع هذه المتتالية على قول تجربة محصورة، ومتعينة، لمتكلم مفرد يتوسل السرد القصصى بكثافة درامية شعرية تنتج عن تحول الصورة الفيزيقية لمشهد الشنق إلى رمز يث دلالات تتصل بالألم الأبدى الذى يعاينه هذا المتكلم، فى ذاته، وحضارته، وأمته، يفضى إلى إحداث انتقال مفاجئ يتأسس على تعارضات حادة، متعددة المستويات، ما بين خصائص المزج الأول، وخصائص مطلع المزج الثانى، بل خصائص أغلب المتتاليات التى تكون الأمزاج الثلاثة المتبقية،



نبدأ في البحث عن حضور ظاهر للشاعر في نصه، فلا نعثر على أية علامة أو إشارة، تدل على هذا الحضور؛ فالحاضر المهيمن هو سبارتاكوس (المتكلم)، وإخوته (المخاطبون والمتكلم عنهم)، وقيصير (المخاطب)، والأسماء - الرموز الأخرى التي تتوارد في سياق الخطاب الشعري، والتي يستدعيها سبارتاكوس نفسه، باعتبار أنها لوازم ومقترنات تتصل بتجربته. وإذا نبث عن حضور ضمنى للشاعر في هذه الأسماء - الرموز؛ فإننا لا نعثر عليه، فهو ليس حاضرا في موقع المخاطب، أو الغائب - كما هي حال الشخص الثاني (قناع الشاعر) المضمن في قصيدة «الخبر» للسياب على سبيل المثال - كما أنه غير مضمن في شخصية أخرى، فردية أو جماعية، يخاطبها سبارتاكوس. وهكذا لا يكون أمامنا إلا أن نبث عنه، أو لنقل عن غيابه، في سبارتاكوس نفسه، وذلك على نحو ما أدرنا غياب صوته في صوت سبارتاكوس الغائب في الصوت الثاني الذي نطق المزج الأول، أو الذي كان صوته هو هذا الصوت.

صحيح تماما أن العنوان، منذ البدء، يغيب الشاعر عن نصه، غير أن هذا لا يلغى احتمال اختراق صوت الشاعر صوت قناعه، وظهور وجهه على سطح النص، وذلك من خلال توقف اشتغال بؤرة التشخيص الغنائي الدرامي المزجي، التي نضمن أنها الشاعر في أنا القناع، لمصلحة تشغيل قناة البث الغنائي الذاتوي المباشر التي تظهر أنا الشاعر، منفردة ومعزولة، أو لمصلحة تشغيل بؤرة التشخيص الدرامي الغنائي التي تفصل أنا المتكلم (الشخصية الشعرية)، فصلا تاما، ونهايتيا، عن أنا الشاعر.

يتضح، مما تقدم، ومن خلال تتبع التقاء وتفاعل الانعكاسات التي يلقيها العنوان، والمتتاليات الشعرية السابقة، على النص، مع تلك التي تلقيها المتتاليات الشعرية اللاحقة عليه، أن الشاعر أمل دنقل، قد انفتح، منذ عنوان القصيدة، ومنذ الكلمة الأولى في مزجها الأول، على سبارتاكوس التاريخي، بوصفه أنا مغايرا يتفاعل معه في صيرورة تجربة رؤيا داخلية، وديالكتيك تمام خلاق ينتج شخصية ثالثة هي سبارتاكوس الذي نتعرف هويته من خلال تجربته المروية في القصيدة، وكلماته الأخيرة؛ والذي هو قناع للشاعر لا

وبانبثاق ضمير المتكلم المفرد «أنا» الذي يحيل إلى ذات مفردة متعينة، ليست هي الشاعر، تتولد فرضية مزدوجة لتحقيق القصيدة، فإما أن تكون قصيدة شخصية شعرية مستقلة تماما عن الشاعر، وإما أن تكون قصيدة قناع يتوارى صوت الشاعر في أبعد قرارات الصوت المهيمن عليها.

وبتحليل حركة إحالة الضمير تتكشف حقيقة أنه يحيل إلى سبارتاكوس صاحب الكلمات التي هي، بدلالة العنوان، القصيدة التي نقرأ. وتعمق هذه الحقيقة من خلال انطلاق المتكلم في قول تجربة رفض وتعدد وشنق، نعرف، أو يمكننا أن نعرف، أن سبارتاكوس التاريخي قد خاضها. غير أن اكتشاف الذات التي يحيل إليها ضمير المتكلم لا يوضح، بدقة، ما إذا كانت هذه الذات شخصية شعرية، أم قناعا؛ وذلك لأننا لم نتكهن، بعد، من معرفة طبيعة علاقة الشاعر بها.

ونظرا لأن نعرف هذه العلاقة، يتطلب تعرف طبيعة حضور جميع الأصوات الناطقة في القصيدة، واكتشاف علاقتها بصوت الشاعر، الظاهر أو المضمن، وبالصوت الذي أصغينا إليه في المزج الأول، وبهذا الذي نصفى إليه في مطلع المزج الثاني، فإن هذا يقتضى تحليل حركة إحالة الضمائر في القصيدة بأسرها بغية تعرف الذوات التي تخيل إليها، وإدراك العلاقات القائمة بينها.

وإذا أخذ في رصد الأصوات المسموعة في جميع متتاليات الأمزج الثلاث، ونكتشف أن الصوت الوحيد المسموع فيها هو صوت متكلم مفرد، يعود إلى سبارتاكوس، وأن الأصوات التي نصفى إليها، تأتي محمولة على صوته، لنقول ما يطلب إليها أن تقول، في مستقبل الزمان، وليس في حاضر النص، فإن هذا يحدد مسار تعرف طبيعة حضور سبارتاكوس في القصيدة، في خط وحيد، هو خط علاقته بالشاعر. وإذا عرفنا أن سبارتاكوس هو صاحب الكلمات - القصيدة، وهو ناطقها الوحيد، وبطل التجربة المروية فيها، ورمزها المحوري، فإنه لا يتبقى أمامنا إلا أن نعرف طبيعة حضور الشاعر في نصه، لنتعرف طبيعة علاقته بناطقه، ولنحدد، في ضوء ذلك، ما إذا كان هذا الناطق شخصية شعرية مستقلة تماما، أم قناعا.



يعكس رؤيته لذاته، فحسب، وإنما يحسد رؤيته لأناه المغاير: سبارتاكوس القديم، ولتجربته القديمة، ورؤية هذا الأخير لواقع الشاعر المعاصر، ولتجربته الراهنة، وذلك من منظور رؤية الشاعر الذي يسكنه.

وهكذا نكون إزاء قناع يتكون في صيرورة النص، قناع ينتج هويته ويتعرف ذاته فيما هو يحوض تجربته، ويكتشف كلماته، ويقولها، أى إزاء قناع يفكر الشاعر في رأسه، ويرى بعينه، ويدرك العالم بحواسه ووجدانه. ولئن كان الشاعر، في المزج الأول، قد تماهى بسبارتاكوس الكلي الجامع، من خلال تماهى سبارتاكوس التاريخي المتعبر بأشباهه المنحدرين من سلالة الشيطان، فإنه يكون، بذلك، قد كشف الخصائص الثابتة في هوية سبارتاكوس اللامتناهى باعتباره نمطاً أصلياً للتمرد والرفض، وللبعث الأبدى عن الحرية، والإبداع، والتجدد، الدائم، والخلق المستمر، وأسس القاعدة الثابتة التي سيرتكز إليها محور تحولات «هوية سبارتاكوس» القناع؛ باعتباره ذاتاً إنسانية خاصصة، في صيرورة حياتها وتجاربها، لتحولات لا تنهاى، ولتحليلات متديدة لجوهر إنسانى واحد، أو باعتباره واحداً من التحليلات الزمنية والتاريخية المتغايرة، لسبارتاكوس الجوهرى المطلق، الخارج عن محدودية الأزمنة والأمكنة، والمسافر، أبداً، في صيرورة الزمان.

يبدأ سبارتاكوس - القناع في حمل تجربته على صوته الناطق كلماته الأخيرة النابعة من اللحظة الدرامية التي تجسد مصيره الأخير: لحظة الشق. وما إن يبدأ في النطق وأصفا مشهد الشق، حتى نحس أننا إزاء ذات تتأمل ذاتها، وإزاء صورة شعرية هي عدسة تلتقط مكونات العالم الداخلى للمصور وتثبت دلالات تتصل باللحظة الدرامية التي يعانها، فيما هي تصف المشهد الخارجى، وذلك على النحو الذى يجعل من المشهد الفيزيقي معادلاً رمزياً لتلك اللحظة، ولذلك العالم الدفين، والذى يبدو معه المتكلم المشنوق وهو يواجه، من الموقع المقابل، ذاته الأخرى، وكأنا نحن إزاء مرتأتين متقابلتين، تمكسان، في لحظة واحدة، التأمل والتأمل، أى

الذات الواحدة وقد صارت أنا، وأنا مغايراً. وإذا يدل هذا الانشطار على تبادل المواقع بين الشاعر، والأنا المغاير، فإنه يدل على أن الشق الطبسى، أو الصلب، الذى واجهه سبارتاكوس التاريخى، يتحول إلى شق رمزى: نفسى، واجتماعى، وفكرى... إلخ، يعانى الشاعر، وأن كلا الشقين، على أنماطهما، هما الشق الكلى الذى يعانى القناع. وبناء عليه، فإننا نستطيع، إن نحن تتبعنا ومضات الصورة الشعرية، أن نكتشف كمون تجربتى سبارتاكوس التاريخى - الإبداعى، والشاعر المعاصر أمل دنقل، فى قاعها العميق، وأن نخرط مستغرقين فى ذلك التوتر الدرامى الذى ينطوى عليه صوت القناع المسكون بصوتين، وبتجربة حياة وموت.

ويتتبع حركة مؤشر بناء النص، وتكوين القناع، نلاحظ أن هذا المؤشر قد استلهم، فى بناء النسيج النصى للمسطر الشعرى الأول، مشهد الصلب الذى يفتح، ويغلق، الشريط السينمائى القائم على رواية هوارد فاست، وهو المشهد الذى يعتبر إضافة من مخرج هذا الشريط على النص الروائى، فليس فى الرواية أى مشهد يتعلق بصلب سبارتاكوس، وإنما فيها، بالإضافة إلى الستة آلاف صليب ومصلوب، الذين اعتبروا «رموز عقاب»، تركيز على صلب العبد اليهودى المجالد داود (٣٦). وجلى، هنا، أن حركة مؤشر بناء النص تدل على حركة التناص الحوارى مع الشريط السينمائى، حيث يستبدل القناع، ومن خلفه الشاعر، المشانق بالصلبان، فيما يفجر دلالة أنه ليس معلقاً على مشنقة واحدة، وإنما على «مشانق» عديدة؛ بحيث يمكننا أن نقرأ فى الاستبدال دلالة عصنة النص، وربطه بالواقع الذى أحاط بإبداعه، وأن نجد فى التفجير الدلالى اندياحاً لاشعورياً للمشهد الافتتاحى للشريط السينمائى الذى تضمن آلاف الصلبان، وتوسيعاً لدلالات الشق، وإسهاماً فى تحويله من شق فيزيقى إلى رمز مرشح - على حد تعبير جابر عصفور. كما نستطيع أن نقرأ فى ذلك حضوراً مضمناً للدلالة التى توخت الرواية تفجيرها من خلال تغييب سبارتاكوس عن أن يكون واحداً من المصلوبين، ذلك لأن كل واحد منهم هو سبارتاكوس مصلوباً، ولأن سبارتاكوس الغائب هو سبارتاكوس الحى الواعد، أبداً، بالجمعى.

مهيمن. وكذلك هو شأن سبارتاكوس نفسه، إنه ابن واقعه، وزمنه، وهو ابن كل واقع وزمن، مثلما هو ابن الموقف الذى يتخذه منهما، ومن ذاته، مستندا فى ذلك إلى الخصائص الجوهرية الثابتة التى هى قلب هويته، من حيث هو إنسان جوهرى مطلق يحاول القناع إثراء حضوره فى ذاته العميقة، فيما هو يحاول تأكيد حضوره فى العالم الذى يحقق فيه إحالته الموضوعية لذاته؛ باعتباره تجلجا متعينا لهذا الإنسان، وكائنا اجتماعيا يعجز عن تحقيق ذاته بمعزل عن التفاعل مع الآخر الشبيه، وعن الصراع مع الآخر النقيض، ومع ضرورات الحياة.

وإذا ما كانت العلامة النصية (...)، التى هى السطر الشعرى الرابع فى المتتالية السابقة، تدل على كلام محذوف يتصل بمسببات تفصيلية تعلق المصير الذى يلاقه سبارتاكوس المتمرد المنشوق، فإنها تعمل، فى الوقت ذاته، على إطلاق ما تكتنزه ذاكرة القارئ من متكررات تجارب الصلْب على امتداد التاريخ، ومن بينها، بالطبع، تجربة سبارتاكوس القديم، كما أنها تدفع القارئ لإدراك كمون هذه التجارب فى قاع تجربة سبارتاكوس الجديد، وذلك على النحو الذى يعمق صلته بأشباهه القدماء؛ ويفتح أشباهه الآتين على التواصل معه؛ بحيث يتأكد تحوله إلى نمط أصلى، ورمز كلى يتأسس على تواصله بأشباهه، وعلى تمايزه عنهم، وذلك لأنه، وهو يحتضن الجوهر الذى يحتضنونه، مشروط بزمنه، وبخصوصية تجربته، وبخصائص الواقع الذى يعاينه، وبمضمون الاستبداد الذى يواجهه، وبدلالات الحرية التى يتطلع إليها أو التى يعمل على تحقيقها، وعلى توسيع مداراتها.

ولكى يعمق النص خصائص الرمز الحسى العينى فى سبارتاكوس الجوهرى الكلى؛ فإنه يعمل على ترسيخ حضوره بوصفه ذاتا إنسانية تنتمى إلى واقع إنسانى متعين، وأنا اجتماعيا يكتسب خصائص هويته، ويصعد من خلال الإرادة التى تتطلبها الحرية، والوعى المدرك أسباب الاختيار الحتمى لموقف الرفض والتباعد، جوهرها الكامن فى أعماقه، الذى يصله بأشباهه، ويفتح حركة صراعه مع ذاته الكائنة، ومع نقائصه، لحظة أن يقرر الخطو باتجاه كماله الإنسانى،

وإضافة لما تقدم، فإننا نجد فى إسناد المشائق إلى الصباح: «مشائق الصباح» استلهاما مباشرا للمشهد السينمائى نفسه، غير أننا نستطيع أن نقرأ فى هذه الصورة الشعرية المتناقضة، أو فى هذا التركيب التضادى المزدوج، دلالات أعمق وأخصب، من تلك التى نلتقطها من المشهد السينمائى الذى سرعان ما يمر متبوعا بتاليه، ولا يترك للمشاهد فرصة التخيل أو فرصة التأمل المعقّ فى دلالاته وإيحاءاته. ولعل أعمق دلالة يمكن التقاطها، تتمثل فى كون المشائق تشنق الصباح، فيما هى تشنق سبارتاكوس، وذلك باعتبار الصباح - سبارتاكوس رمزا على إنعاش الآمال بالحياة المتجددة والحرية، أو باعتبار أن الإنسان الكلى المنشوق هو رمز على الصباح، بجميع إيحاءاته ودلالاته الممكنة، أو باعتبار أن اقتران لحظة الشنق بلحظة الصباح، هو شق للآمال التى يكتنزها بزوغ الصباح، وهبوط بالإنسان الآمل إلى قاع الإحباط واليأس، ودفع له فى طريق موت مجانى عدى عابث.

وإذا يبدو أن السطر الشعرى الثانى هو استكمال للمشهد السينمائى الأول، الذى يكتسب فيه سبارتاكوس سمت المسيح المصلوب وملامحه (٣٧)، فإن السطر الثالث، الذى هو جملة تعليلية تفسر المصير الذى آل إليه سبارتاكوس، وتوضح مسببه الرئيسى، يتناص مباشرة مع الرواية، أو يتناص معها عبر حوار الشريط السينمائى، من حيث هو نص وسيط؛ ففى الواقع التاريخى، كما فى الرواية، وفى الشريط السينمائى، كان صلب سبارتاكوس نتيجة لموقفه الكيانى الجذرى من ذاته، وواقعه: موقف الرفض المطلق للعبودية، والتباعد على الأسياد والواقع، والبحث عن الحرية، فهو، كما يقول الراوى، «لم يطأطأ الرأس قط» (٣٨)، وكان «رافع الرأس على الدوام» (٣٩)، لأنه كان «يرفض أن يكون حيوانا» (٤٠)، وكذلك هو شأنه فى القصيدة؛ إنه ينتهى على «مشائق الصباح»، لأنه أراد لذاته، ولأتمته، ولحضارته، خروجاً من العدم، ووجوداً فعليا فى الوجود، وخلاصاً من القهر والاستبداد، وانفتاحاً على تجدد مستمر، وعلى حرية هى، دائما، وعد مستقبل يجرى.

لم يكن مصير سبارتاكوس أمرا قدريا، وإنما كان نتيجة موقف يرفض علاقات اجتماعية بين عبد متمرد وسيد مستبد

تنطوى على سخرية مأساوية مرة، وعلى إدانة حادة وصارمة لمواقف الامتثال، والخضوع الراضى للعبودية والقهر، وللواقع الفاسد المتجذر فى الموت؛ بحيث نستطيع أن نعتبر الدلالات الظاهرة لكثير من الأسطر والمتتاليات الشعرية، دوال تنطوى على دلالات ضمنية مناقضة تماما لما تقوله الكلمات فى حال عزلها عن ثوابت هوية سبارتاكوس، من جهة، وعن علاقات النسيج النصى، من جهة ثانية.

ومن الحق أن الإنكار السابقة هى خلاصات مستنبطة من التحليل النصى لمتتاليات شعرية لاحقة، غير أن كمون بذرة هذه الأفكار فى التعارض القائم بين شبكة دلالات المزج الأول وشبكة دلالات المتتالية الأولى من المزج الثانى، دفعنا إلى التقدم بغية التمكن من بناء شبكة دلالات محتملة للنص بأكمله؛ وذلك باعتماد قراءة أفقية - رأسية، تهبط إلى قاعه وتصلد إلى فضائه، وتحرك تقدما ورجوعا، فى شتى اتجاهات نسيجه، لتفككه، ولتقرأ نقاطا خبئته، وبؤر تناصه.

منذ مطلع المزج الثانى، تتحول القصيدة إلى قصيدة تجربة صراعية تتقاطع جميع خيوطها فى لحظة المصير الأخير؛ فمن موقعه على «مشانق الصباح»، وبإيقاع متراخ يناسب حالة إنسان مشنوق يتكلم من الموت، وبطل على العالم من خلف لهيب آلام خانقة، يأخذ سبارتاكوس فى قول تجربته الخاسرة، عبر تضمينها فى قاع كلماته الأخيرة التى يوجهها إلى إخوته واصفا حال الخنوع التى تتملكهم (المزج الثانى)، أو فى قاع الكلمات الأخيرة التى يخاطب بها عدوه ونقيضه: القصر العظيم (المزج الثالث)، وذلك قبل أن يعود لإخوته بالحكمة الأخيرة المستخلصة من هذه التجربة الاستثنائية (المزج الرابع)، وهى التجربة التى يجعلها توازيها مع تجارب أشباهه المتكررة فى التاريخ، تجربة قابلة للتعميم؛ خلاصة، وحكمة أخيرة، وهوية بطل مأساوى استنسر فانكسر.

يتكون المزج الثانى، بالإضافة إلى المتتالية - المطلع، من سبع متتاليات شعرية كرسها القناع لمخاطبة إخوته «الذين

والتحقق الأقصى لكيثوثته، ولكينونات أشباهه، ولواقع عالمه. وإذا لا يمكن لشيء من ذلك أن يتحقق بمعزل عن إقدام الأنا على نسج شبكة علاقات متشعبة، ومؤسدة على موقف ورؤية، مع الآخر الشبيه، والآخر النقيض، ومع الواقع؛ فإن النص لا يكتفى بقول خلاصة التجربة وآثارها، وإنما يذهب إلى قول التجربة نفسها، فيكشف تشعباتها، ودلالاتها، فى رموز شعرية تقول التجربة فى صيورتها، وتوهم إلى العالم السبرى الممتد أمامها وبعدها، وحارج النص، وذلك على النحو الذى يجعل من تجربة سبارتاكوس القصيدة استمرارا فى الزمان: ماضيا ومستقبلا، لتجربة سبارتاكوس الكلى، لأنها تجربة استثنائية مشروطة بزمنها، وبالواقع الذى يعاينه بطلها، ويعاينه. ولكن نهض المزج الأول ذو المتتالية الشعرية الوحيدة بقول الخصائص الجوهرية الثابتة فى هوية سبارتاكوس، وتصوير مثاله الأعلى، وطموحه الطوباوى، وتكثيف خلاصة التجارب التى خاصها، وسيخوضها، فإن الانتقال المفاجئ من الذروة الدرامية التى حسدها هذا المزج، إلى سياق سردى شعري يقول تجربة متعينة، انطلاقا من نهايتها - لحظة الشنق، وابتداء من مطلع المرح الثانى، يومئ إلى أن بطل التجربة هو سبارتاكوس زمى ومتعين، وتحرك تجربته على مركز ثابت، هو الخصائص الجوهرية فى هوية سبارتاكوس الكلى، وموقفه الرفضى الحاسم. وفعله التمردى الهادف إلى تمزيق العدم، وإحياء الوجود؛ بحيث يمكن أن ندرك - فى ضوء هذا التأسيس - حقيقة أن تحولات هوية القناع، وتبدل مواقفه، أو تحركها بين النقيضين، ليست إلا نتاجا للشروط التى تحكم التجربة، وللعجز عن تحويل مسارها، وذلك بالمعنى الذى يجعل من التحولات السالبة المناقضة للتطلع، والمصير المناقض للهدف، كشفا عميقا عن تجذر الموت فى الحياة، وعن حقيقة أن حياة الحكام المستبدين تبنى على إمالة الشعوب، وأن التمرد الفردى إزاء واقع عصى على التغير لا يجدى، وأن التغير يكون جماعيا، أو لا يكون.

ونستطيع، بناء على خصائص سبارتاكوس اللامتناهى، وعلى معطيات العلاقات بين متتاليات القصيدة - التجربة، أن ندرك أن مواقف القناع، وأقواله المنطوية على ما يناقض هويته، ورؤيته للعالم، ليست، فى الحقيقة، إلا ردات فعل

أبنائهم الذين يفتحون لهم آفاق الوعي الممكن، والعالم الممكن، على مشائق القياصرة:

لا تخلجوا... ولترفعوا عيونكم إلى

لأنكم معلقون جانبي. على مشائق القيصر.  
(ص ٧٤)

وإذ يتضح، هنا، أن التقنية المونتاجية تدفع مؤشر بناء النص وتكوين القناع لالتقاط رمزين تاريخيين يوظفهما الشاعر للدلالة على السلطة المستبدة: الإسكندر الأكبر، والقيصر، فإننا نلاحظ أن الأول سابق تاريخيا لتجربة سبارتاكوس التاريخي، والثاني لاحق بها، وهو الأمر الذي يعمل على مد تجربة سبارتاكوس ١٩٦٢، في الزمان القديم، ويجعله موجودا قبل تسميته، وبعد التسمية، مثلما يجعله موجودا في كثرة لامتناهية من الأسماء والتجليات التي تبنى سلسلة متواصلة لهوية جوهرية واحدة هي هوية الإنسان المتشرد الواقف، أبدا، ضد السلسلة المناقضة: سلسلة الطفلة والمستبدين التي يجعلها النص منحدره من الإسكندر الأكبر، وممتدة في الزمان مروراً بزمان كتابة النص وبالزمن الذي أحاط بكتابته، وحتى آخر زمن مشابه سيأتي.

وهكذا لا يعود القناع يرى ذاته في مرآة ذاته، وإنما في مرايا أشباهه: ماضيا، وحاضرا، ومستقبلا، ولا يعود يرى نقائضه وأعداءه في أولئك الحاضرين راهنا، والرموز إليهم دون تسميتهم، وإنما يراهم في الأسماء - الرموز المتعاقبة على امتداد التاريخ: ماضيا، وحاضرا، ومستقبلا كالمرايا تعكس بعضها بعضا. وهكذا تصبح تجربة القناع تجربة كونية تحمل حروقه الناجمة عن احتراق بطلها بلهب الواقع المتعين الذي ترمز إليه، وتكفقه، وتقف في موازاته. وهكذا، أيضا، تنفتح القصيدة على الأزمنة، وتنفتح إلى سفر متواصل في الوجود.

ولكن كان القناع قد تماهى بأشباهه الرافضين المتمردين على امتداد الأزمنة، واجدا فيهم هويته العميقة المتطلع إليها، فإنه يقرأ هويته المتروكة في إخوته المستعبدين الخانعين، ويرى أنه القديم المرفوض في مرايا أناتهم الراهنة،

يمبرون في الميدان مطرقين» (ص ٧٤)، ولإلقاء نبوءاته عليهم. ويستمر اعتماد التقنية المزجية (المونتاجية) في بناء النسيج النصي: سطرًا، ومتتالية، ومقطعا (مزجا)، وفي تكوين تجربة القناع، وصوغ هويته، وإظهار تحولاته، ففي المتتالية الثانية، أو المشهد الثاني، يضعنا الشاعر، على نحو ما يضع نفسه، في عيون سبارتاكوس المشنوق، وفي عقله ووجدانه، لننظر، ولنرى، ولنشعر، ما ينظره، وما يراه، وما يشعره... فهي هو سبارتاكوس، قناع الشاعر، وقناعنا، معلق على مشائق الصباح يطل على إخوته المنحدرين في نهاية المساء في شارع الإسكندر الأكبر» (ص ٧٤)، فيلاحظ في انحدارهم صوب نهايتهم الملازمة لهم: الموت في الحياة، وفي خضوعهم لسطوة المستبد (الإسكندر الأكبر) انكسارا داخليا، وخجلا من العجز، ووجودا يؤكد حقيقة أنهم طاقات إنسانية خلاقة حولها الاستبداد المنسرب، بخضوعهم، إلى دواخلهم، إلى محض زحام هائل مؤجل الوجود؛ فهم لا يعرفون، في ظل شروط الاستبداد الطاغى، والعجز عن رفضه والتمرد عليه، كيف يمكنهم أن يكونوا حشدا فاعلا ومؤثرا، وخلاق حياة.

إن غياب المعرفة المشروط وجودها بالإرادة: لإرادة الرفض والتمرد على الواقع المستبد، لإرادة الحياة التي تدفقت لحظة أن التهم الإنسان ثمرة المعرفة، هو الذي يلفي الفارق بين المصير الذي يلاقه المتمرد الفردي المشنوق: سبارتاكوس، والمصير الذي يلاقه الخانع الجماعي المشنوق، الميت في الحياة: إخوته، أبناء شعبه وأمته، وكل المستعبدين في الأرض؛ فإذا ما كان تمرد سبارتاكوس، ورفضه الفردي، الناهضان على وعي عميق بالذات والواقع، وعلى إرادة الحياة والتحول الدائم نحو الحرية، قد قاداه إلى معاناة شتى أنواع الشنق، فإن الخضوع والامتثال الخانع، والانحدار المذل في طريق الموت الذي هياه الإسكندر الأكبر، أو القيصر - وهما هنا رمزان على الطفيلان والسلطة المستبدة، ينحدر ثانيهما من أولهما - تجعل الشعوب تواجه المصير ذاته، وتعيش في كل لحظة فيه، بالمعنى الذي يجعل من عجزهم، وغيبية وعيهم بإنسانيتهم، سببا مباشرا في موتهم في الحياة، وفي تعليق الرواد من



الحياة الحرة التي فطروا عليها، والتي لا يستطيعون، بمعزل عنها، أن يوجدوا في الوجود. إنها نبوة مرحلة لمستقبل يحاط بالاحتمال (لربما)، وبعلامة التعجب التي تحمل دلالة التشكيك واليأس. وإذ تأتي النبوة على هذا النحو، فإنها ترسم المثل المتطلع إليه، وتقول الرؤيا الطوباوية، وتدل على الواقع المناقض لها الذي يبدو عصيا على التغير، وعلى مطابقة الرؤيا؛ بحيث تكتسب القصيدة - التجربة، بنية جحيمية تقول الواقع، وبنية رؤياوية طوباوية تقول المثل، وبحيث يمكننا أن نجد في اصطراع البينيتين معادلا بنائيا نصيا للصراع الذي يمر في أعماق إنسان يمد يده إلى نجوم القبة السماوية المضيئة، بينما هو ينحدر إلى قيعان الجحيم.

ولا يكتفى القناع بمحاولة إدخال رؤياه الطوباوية: سقوط الصخرة عن أكتاف أسمياء سيزيف: الأجيال الطالعة التي ستقطع عنه، وعن تجربته العدمية العابثة، في عقل ووجدان إخوته، كما أنه لا يزين لهم هذه الرؤيا، ولا يجعل تحقيقها، في الواقع، بلا ثمن، وإنما هو يكشف لهم عن نقل الألم، وعن مرارات العذاب، وهو داوية المصير، التي ستتملك روح إنسان يقرر، منفردا وبمعزل عن الانخراط في حركة جماعية، أن يكون إنسانا حرا، وأن يخلق لنفسه، وللأجيال الطالعة، عالما أبهى وأجمل، فذاك هو ثمن البحث عن الحرية الفردية في عالم مستبد ظالم، وذاك هو، أيضا، ثمن الخضوع لشروط هذا العالم، بحيث لا يكون أمام الإنسان إلا أن يختار ما بين موت في الحياة، وحياة في الموت، وإلا أن يقرر لنفسه: فإما أن يكون قناعا أصم، منحدرًا إلى موت أخير، أو أن يكون إنسانا حرا، يفتح، بموته، أبواب الوجود:

والبحر كالصحراء.. لا يروي العطش

لان من يقول «لا» لا يرتوى إلا من الدموع!

.. فلترفعوا عيونكم للناثر المشنوق

فسوف تنتهون مثله.. غدا.

وقبلوا زوجاتكم.. هنا.. على قارعة الطريق

فسوف تنتهون ها هنا.. غدا.

فالانحناء مر..

مثلما يرى في مرايا الرموز القديمة، كسيزيف، حيواتهم العابثة، وهوياتهم الخاوية، ويتعرف مصيره في مصائرهم؛ يمكن أن نقرأ في تبادل المواقع، وتطابق المصائر، وتداخل الأمكنة والأزمنة، وحدة التجربة الإنسانية، ودلالة أن التمرد الفردي، على نبهه وسمو غاياته، ليس إلا فعلا عديمًا عابثًا؛ ذلك لأن المتمرد الفرد يكاد لا يرفع الصخرة عن صدره حتى تهوى عليه وتخطمه، ليأتي متمرد آخر يفعل الفعل نفسه، ويلقى المصير عينه، بينما استجابة الحشد للنداء المتمرد، تجعل هذا الأخير نائرا، وتجعل الفعل جذريا وشاملا، والتغيير جماعيا، وتحول دون انقلاب الهدف إلى نقيضه، وتخلص المتمرد الفرد من مصير يعجز عن رده، بقدر ما تخلص الحشد من الموت في الحياة، ومن الاستمرار في خوض تجربة سيزيف: رمز العدمية والعبث. وهي الأمور التي تجعل من موت المتمرد الفرد شرارة انبعاث ونهوض، وجسرا للعبور من العدم إلى الوجود، وذلك على نحو ما نقرأ في الفضاء الدلالي للمتتالية الثالثة:

فلترفعوا عيونكم إلى

لربما.. إذا التقت عيونكم بالموت في عيني

يبتسم الفناء داخلي لأنكم رفعتكم  
راسكم.. مرة!

«سيزيف» لم تعد على أكتاف الصخرة

يحملها الذين يولدون في مخادع الرقيق (٤١)  
(ص ٧٤).

إن رفع المستعبدين عيونهم، وتوجيهها صوب سبارتاكوس المشنوق، ليس إلا معادلا خارجيا لقلب عيونهم؛ بغية توجيهها صوب دواخلهم، فليس سبارتاكوس إلا رمزا عليهم، إنه تجسيد حي لمصيرهم المشترك، ولضراوة شروط الواقع اللاإنساني الذي هو قبر كبير يحتضن موتهم في الحياة. ولأن سبارتاكوس يدرك - بوعيه العميق ورؤيته النفاذة - أن امتلاك لإرادة الحياة مرة واحدة هو امتلاك نهائي لها، فإنه يلقي على إخوته نبوءة خلاص، ويشترط تحقيقها بامتلاكهم إرادة أن يكونوا بشرا خلاقين قادرين على استعادة



والعنكبوت فوق أعناق الرجال ينسج الردى

فقبلوا زوجاتكم.. إنى تركت زوجتى بلا وداع

وإن رأيتم طفلى الذى تركته على ذراعها

بلاذراع (٤٢)

فعلّموه الانحناء!

علموه الانحناء! (ص ٧٤، ٧٥)

إن المصير الذى يواجهه التمرد الفرد على المثنقة، هو المصير الذى يواجهه الممثل الخانع على قارعة الطريق، وليس لكليهما إلا أن يحترقا بلهب مأساة واحدة ذات وجهين، وإلا أن يرتويا بأملاح الدموع!.. فهل ينطوى هذا الأمر على دلالة أن التمرد الفردى، والخضوع الجماعى الذليل، ليسا إلا وجهين لحقيقة واحدة، لأنهما خياران ينتهيان إلى مصير واحد؟.. ربما تكون هذه الدلالة هى إحدى أهم الدلالات التى يمكن التقاطها من إقامة المماثلة بين المصيرين، ومن الدعوة إلى عدم تكرار تجربة التمرد الفردى. ولعل فى وصف القناع لنفسه بـ «الشاعر المشنوق»، ما يرمي إلى رغبته فى التحول، عبر استجابة الحشد لندائه بالانخراط فى حركة تغيير اجتماعى جماعى، من متمرد إلى ناثر. ولعلنا نستطيع، فى هذا الضوء، أن نفك التناقض الذى تنطوى عليه المتتالية الأخيرة من المقطع السابق، ما بين رفض الانحناء، لكونه مرا ميمنا، والدعوة إليه بوصفه خلاصا من الموت: «فعلّموه الانحناء! علموه الانحناء!»، ذلك لأن التجاور ما بين النقيضين لا يؤدى، فى ضوء الإيحاءات والدلالات التى يلقىها المزج الأول على النص بأسره، إلى حمل الدلالة الظاهرة للدعوة إلى الانحناء على محمل الحسم والقطع، وإنما يعمل على قلب دلالتها عبر تحويلها إلى دال ينطوى على مفارقة ساخرة تذكرنا بحالة النبى أيوب، فهو إن رفض واقعه، وتمرد عليه، اعتبر خاطئا، وهو إن قبل، وصمت واستكان، ترك ليموت على حوافى النفايات!.. وهكذا تتحول الدلالة الظاهرة إلى دال ينطوى على دلالة ضمنية مناقضة لها، ومتجاوبة، تماما، مع الرفض القطعى للمقبول بالعبودية والاستبداد، ومع الدعوة الحاسمة إلى الثورة الجماعية القادرة، وحدها، على التغيير.

\*

تستمر متتاليات المزج الثانى، بل جميع متتاليات المزجين الثالث والرابع، فى توليد المفارقات المأساوية الساخرة، وهو الأمر الذى ما كان له أن يتحقق بمعزل عن إظهار ثوابت هوية القناع، وعن استمرار شبكة دلالات المزج الأول، والمتتالية الأولى من المزج الثانى، ومتتاليات أخرى ترد فى مواضع مختلفة من القصيدة، وتناقض، دلاليا، متتاليات تسبقها أو تعقبها، فى بث هذه الثوابت، وفى التداخل والتشابك الذى يبنى شبكة دلالية كلية تعكس عالم الرؤيا الطوباوية، وتدعو إلى الرفض والتمرد الجماعى، وتناقض عالم الواقع الجحيمى، وتحول الدعوة الظاهرة إلى القبول به إلى نقيضها المضمن فيها.

ولاشك، هنا، أن علامات التعجب التى تثبت فى نهاية كل سطر شعري، أو متتالية، تعمل على التشكيك فى صدق ما يثانه من دعوة ظاهرة إلى القبول والثبات، وإلى الاستلام للإحباط واليأس المذلين، مما يفضى إلى تحويل هذه الدلالات الظاهرة إلى دوال تنطوى على دلالات ضمنية مناقضة يتم تعميقها عبر اندياح خيوط وإشعاعات الشبكة الدلالية الرؤياوية فى نسج الشبكة الدلالية الجحيمية، وعبر اختراقها الدلالات الظاهرة للدعوة العدمية العابثة:

الله لم يغفر خطيئة الشيطان حين قال لا!

والودعاء الطيبون ....

هم الذين يردون الأرض فى نهاية المدى

لأنهم لا يشنقون!

فعلّموه الانحناء ...

وليس ثم من مفر ...

لا تحلموا بعالم سعيد

فخلف كل قيصر يموت: قيصر جديد!

وخلف كل ناثر يموت: أحزان بلا جدوى...

ودمعة سدى! (ص ٧٥)

نصعرف من خلال هذه المواجهة المكونات والخصائص الأصلية التي تنصب في هوية القناع، والتي تشكل موقفه، وتفصح عن رؤيته للعالم وقد تحولت، دون أن تفقد جوهرها، من الجدية الصارمة إلى السخرية المأساوية.

يتكون المزج الثالث من أربع متتاليات شعرية ينطقها، جميعاً، سبارتاكوس القناع، موجهها كلماته إلى عدوه وقاتله: القيصر، ومغيباً في قرارات صوته أصداً صوتي: سبارتاكوس التاريخي - الإبداعي، والشاعر المعاصر أمل دنقل، ودافعاً مؤشراً البناء والتكوين إلى امتصاص مكونات وخصائص تعود إلى تجربة الأول، وهويته، وإلى تجارب ذوات أخرى يصهرهما في تجربته وهويته، ليعمقهما، وليوسع مداهما الزماني، متجاوزاً ضالة الوجود النصي لسميه التاريخي، وجاعلاً من كلماته، ومن تجربته المحملة عليها، معادلاً رمزياً، موضوعياً، لتجربة الشاعر المثقن به، ولتجارب قراء محتملين، في الحاضر، وفي المستقبل.

وإذا بدا واضحاً من تحليل المزجين الأول والثاني أن القصيدة تنهض على تناص حوارى مكثف، ومتعدد المستويات، مع رواية هوارد فاست، والشرط السينمائي، بالإضافة إلى نصوص أخرى - وهو الأمر المستمر في أغلب متتاليات الأمزاج - فإننا نلاحظ، هنا، أن الشاعر يستلهم الرواية في جعل المزج الثالث خطاباً يوجهه سبارتاكوس إلى القيصر، ولكنه يحدث انزياحات كثيرة في مضمون الخطاب، ليتجاوب مع الطابع المأساوي الساخر، من جهة، ومع تناقض موقفى سبارتاكوس الرواية، وسبارتاكوس القصيدة؛ فالأول يوجه خطابه، في لحظة انتصار، وعبر حندي روماني أسير، إلى مجلس الشيوخ<sup>(٤٥)</sup>، بينما الثاني يرفع خطابه، مباشرة، وفي لحظة انكسار وموت، إلى قاتله: القيصر؛ بحيث يبدو الأمر وكأننا إزاء سبارتاكوسين نقيضين: منتصر ومهزوم، متمرد يمتلئ، في لحظة نصر، بالعزيمة والتأكد من أنه ذاهب إلى انتصار حاسم، ومتمرد وصل إلى مصيره المأساوي الأخير، أو نكون إزاء حالتين من حالات سبارتاكوس واحد، وفي صلب لحظتين دراميتين استثنائيتين من لحظات تجربة

علينا، إذن، أن نقرأ في المتتاليات السابقة، أشباهها، حيثما وردت، دلالات تناقض دلالاتها الظاهرة، أن نجد في ثنائها دعوة سبارتاكوسية موارية، ولديها عذوبة، إلى ترك الوداعة، والرضى بالحال، وإلى الحلم بحالٍ سعيد، إلى الثورة على القياصرة، وإلى إثراء الحياة بموت حبسها.

ولكن كان انشطار القصيدة إلى سمتين متناقضتين: رؤياوية طوباوية، وواقعية جحيمية، لتتجلى في انشطار، ولانتهاء تجربته المستمرة إلى انكسار، فإن المفارقة السخرية، أو السخرية Irony المتولدة عن اصطراع هاتين البهتين، وليكتسبه، عبر هذا الاصطراع، وعبر الكثافة المفرطة في بونطها علامات التمتع، طابع السخرية الدرامية المظلمة المأساوية، ندو، في القصيدة، بوصفها وسيلة أدبية تلتصق بواقع المأساوي الساخر، وتتجاوب مع خصائص القناع التي لا يتفق مصيره، علياً، مع مواقفه، ومكونات هويته، ومع عذبة السخرية، وإنما يتفق مع تمركز خياراته النابعة من عودته إلى تفاؤله الواقع الضاري، في التمرد الفردي الذي هو أشبه بشفرة في الهواء، ومع موقفه الجديد الذي لا يقبل، من جهة، موقف القديم، وإنما يتطابق معه من وجهة نظرنا، في القناع - يستبدل السخرية المأساوية، بالتمرد المردى، يقول من خلال هذا الاستبدال، وبطريقة تدل في ذاتها، على جحيمية الواقع، الرؤيا الطوباوية نفسها، والوعى الشاعري المنطرب بين واقع معتم، ومثال مضىء، والمراوح بين يأس، وأمل.

ويمكننا، في ضوء نهوض القصيدة على السخرية، بوصفها وسيلة «القول أقل ما يمكن وتحديد ذلك القول أكبر ما يمكن من المعنى»<sup>(٤٦)</sup> أو بوصفها نظاماً كلامياً «بتجنب القول الصريح، وينكر المعنى الواضح ما ينزل»<sup>(٤٧)</sup> أن نقرأ، في كلمات سبارتاكوس الموجهة إلى القيصر، ولاسيما تلك التي تبث دلالات صريحة سحرية في حقل الاعتراف بالخطيئة، وإعلان الرغبة في التدمير عنها، ورفع رايات الاسترحام، والولاء، والخضوع، دلالات ضمنية تناقض هذا الحقل الدلالي. ويمكننا مواشحة هذه الدلالات، على تعدديتها وثرائها، بشبكات دلالية بينها متتاليات أخرى تتجاوب دلالاتها الصريحة مع دلالاتها الضمنية، بحيث

تمرد تبدأ بالاستسار، وتراوح ما بين نصر وهزيمة، وتنتهى بالانكسار:

يا قيصر العظيم: قد أخطأت ... إنى أعترف

دعنى - على مشنقتى - ألثم يدك

ها أنذا أقبل الحبل الذى فى عنقى يلتف

فهو يدك، وهو مجدك الذى يجبرنا أن نعبدك.

(ص ٧٥)

تضع الدلالات الصريحة لهذه المتتالية القناع فى موضع المنكسر المذل؛ فهو يعترف بأن تمرده خطيئة تستوجب العقاب، وأن مصيره يتفق، علماً، مع خصائص هويته وأفعاله، وأن المشقة تدفعه، وهو فى طريقه إلى الموت، إلى استبدال هوية العبد الخانع الذليل، بهوية الإنسان المتمرد الجسور الباحث عن حريته. ولكن النغمة المأساوية الساخرة التى تتحمل عليها الكلمات تحول دلالاتها الظاهرة إلى نقيضها، وتحول دون اندياحها فى بنية هويته العميقة. ولا يكتفى النص بتوليد السخرية من خلال التضاد الضمنى القائم بين البنيتين الرؤيوية والجحيمية، أو بين الهوية المتأصلة المكتسبة عبر صيرورة التجربة، والهوية المفروضة، بالإرغام والقهر، على القناع، وإنما يدعم هذه السخرية، أو ينتجها، من خلال التوظيف المتقصد لأداة النداء: «يا» التى تستخدم لنداء القريب والبعيد، والتى يفضى استخدامها، هنا، إلى إلغاء المسافة بين سبارتاكوس والقيصر، وإلى وضعهما فى حالة مواجهة تقوم على الندية والمداء، وهو الأمر الذى يعمل الإيحاء به - بالتضافر مع تقنيات وموحيات أخرى - على قلب الدلالات الظاهرة إلى نقائضها.

ولعل توظيف علامات الترقيم: علامة التعجب، الشرطتين، علامتى التنصيص، وعلامة الحذف، وغالباً فى غير ما وضعت له فى أصول استخدامها، أن يكون هو أبرز تقنية أسلوبية تعتمد القصيدة فى إنتاج الإيحاء بضرورة حمل المعنى على نقيضه، أو تحويله إلى دال ينطوى على دلالة السخرية، وذلك بالإضافة إلى استخدام بعض الأفعال والنوعت التى يعمل ورودها، فى سياقها، على توليد الدلالة الضمنية من قلب الدلالة الظاهرة، وعلى تعميق حدة التناقض بين الدالتين.

وهكذا نجد، على سبيل المثال، أن اقتران أداة النداء: «يا»، مع الصفة: «العظيم»، فى جملة النداء: «يا قيصر العظيم»، التى هى مفتتح المرح الثالث، يفضى إلى إحاطتها بنغمة تهكمية تخبرنا أن القناع يتقصد السخرية بعده، وبالعالم، وبالمصير الذى آل إليه، وتهيئنا لاستقبال كلمات سبارتاكوس الموجهة إلى القيصر باعتبارها كلمات تهكمية ساخرة، طالما لا توجد موحيات أخرى تعمل على تهيتنا لاستقبال الأسطر أو المتتاليات التى ترد فيها استقبالا مغايراً.

وإن كان هذا هو شأن توظيف أداة النداء، والصفة، فإن الجملة الاعتراضية «- على مشنقتى -» تؤدى وظيفة تحديد المقام الذى يحيط بالمقال، فتولد دلالة أن القناع لا ينطق عن إرادة حرة، وإنما عن إرغام وقهر، وأنه يعترف بخطيئة يدرك أنها أسمى ما يميزه من حيث هو إنسان، وأنه يلجأ إلى السخرية المضمنة، وإلى تفسير الكلام، كى لا ينسلخ عن هويته المكتسبة عبر صيرورة نضال مرير، وليضمن فى ثنايا خطاب يوجهه إلى قيصر رسالته الحقيقية الموجهة إلى إخوته وأقرانه.

وتتضافر الوظائف التى تؤديها جملة النداء، والجملة الاعتراضية، مع السخرية المضمنة فى إقامة المعادلة بين حبل المشنقة، ويدي القيصر<sup>(٤٦)</sup>، وفى جعل الحبل - الإرغام والقهر، قريناً للمجد الذى يبينه وسلالته على الموت؛ بحيث يفضى ذلك إلى وضع سبارتاكوس المشنوق على نقيض قاتله، وإلى استدعاء شبكة دلالات المرح الأول الذى يرفع فيه التطويب إلى السلالة السبارتاكوسية التى بنى مجدها على ابتكار الحياة والحرية.

ويكاد ما قلناه بصدد وظيفة الجملة الاعتراضية، فى المتتالية الأولى، أن ينطبق على وظيفة مثيلتها فى المتتالية الثانية التى توظف، بالإضافة إلى ذلك، علامتى التنصيص، وعلامة الحذف. وإذ تعمل علامتا التنصيص على تعليق دلالة كلمة: «الوجود» المحاطة بهما، وعلى توليد السخرية من «الوجود» الذى يمكن للاستبداد أن يمنحه للبشر، ومن رؤية الحاكم المستبد الذى يعتبر نفسه مانع وجود، فإن علامة الحذف (..) تفتح الكلام على الاستمرار والإضافة:

يا قاتلى: إني صفحت عنك..

فى اللحظة التى استرحت بعدها منى:

استرحت منك! (٤٨) (ص ٧٦)

دعنى أكفر عن خطيئتى

أمنحك - بعد ميتتى - جمجمتى

تصوغ منها لك كأسا لشرابك القوي

.. فإن فعلت ما أريد:

إن يسألك مرة عن دمي الشهيد

وهل ترى منحتنى «الوجود» كى تسلبنى «الوجود»

فقل لهم: قد مات.. غير حاقدا على

وهذه الكأس - التى كانت عظامها حميمته -

وثيقة الغفران لى. (٤٧) (ص ٧٦)

لم يصفح سبارتاكوس - القناع ولم يسترح، وإلا لما كانت القصيدة نصا فى الوجود، وكذلك أيضا، لم يترك عدوه، وقائله: القيصر، ليستريح؛ فقد منح القصيدة للأجيال الآتية، على امتداد الأزمنة؛ كى تواجهه، وتثور على استبداده وطفانيته، ومنحه جمجمته لتكون كأس موته الملازم، ولتكون هى السيف الذى سيجتز به هو نفسه - بعد موته - رأس قاتله. ولعل عشق القناع الحياة وإدراكه أن إمامتها على مشائق الاستبداد ليست راحة بل عذاب جحيمى، وأن الخلاص الفردى، بالموت، ليس خلاصا، وإنما الخلاص الحقيقى يكمن فى إقامة فردوس الحياة الدنيوية ليكون مجالا حيويا لإنسان حر خلاق وسعيد، لعل هذه، جميعا، أن تكون هى الدوافع الحقيقية للصيغة التى يحملها القناع للقيصر، فى المتتالية الرابعة، والأخيرة، التى اكتسب فيها، وهو يخاطبه، سم الشهيد والعراف:

لكننى.. أوصيك إن تشأ شئك الجميع

أن ترحم الشجر!

لا تقطع الجذوع كى تنصبها مشانقا

لا تقطع الجذوع

فربما يأتى الربيع

«والعام عام جوع»

فلن تشم فى الفروع نكهة الثمر!

وربما يمر فى بلادنا الصيف الخطر

فتقطع الصحراء.. باحثا عن الظلال

فلا ترى سوى الهجير والرمال والهجير

والرمال

والظلم النارى فى الضلوع!

يا سيد الشواهد البيضاء فى الدجى..

يا قيصر الصقيع! (٤٩) (ص ٧٦، ٧٧)

علينا، إذن، أن نحمل الكلام على تقيض دلالاته الصريحة؛ فالقناع لا يطلب التكفير، وإنما هو يسخر من الذين يطالبونه به، وهو لا يقصد منح جمجمته القيصر، وإنما يفضح أولئك الذين يجعلون من جماجم البشر أهرامات لمجدهم، وكؤوسا يحتسون بها ماء الحياة - دماء الناس، وهو لا يترك جمجمته وثيقة غفران لقائله، وإنما يتركها وثيقة إدانة، أو علامة موت ملازم، ويحد مستمر، فيصراع مفتوح، أو كأسا يصعد من قاعه التنين الذى صار المستند وهو يقيم حياته ومجده على الجماجم، ويصب نبع الحياة فى عروقه بارتشاف دماء الضحايا، ويوسع مدارات حريته باستعباد الآخرين. ولعل هذه الدلالات، وغيرها مما يدور فى حقلها، أن تتعمق من خلال اندياحها فى شبكة الدلالات المشككة فى فضاء القصيدة حتى الآن. وأن تعمق، بدورها هذا الفضاء، وذلك بقدر ما ستعمل الشبكات الدلالية للمتتاليات اللاحقة، من خلال الانعكاس الارتعاشى، على تعميق التضاد الدلالي للقصيدة بأسرها، فيما هى تتلقى انعكاسات الشبكات الدلالية السابقة وتدمج نفسها فيها، وتوسعها.

ولعل الذروة الشعرية التى تجسدها المتتالية الثالثة أن تكون مفصلا نصيا، أو بؤرة دلالية تتجمع فيها خيوط الدلالات القبلية والبعدية، لتعيد شها، بعد أن تحملها بموحيات التوجه الدلالي الحقيقى للقصيدة، ولكونات وخصائص هوية القناع، ورؤيته لذاته وللعالم

بالخطاب. واصلا، عبر التكرار والتحويل، مطلع المزج الرابع، بمطلع المتتالية الثانية من المزج الثاني التي افتتح بها خطابه إليهم، وهو الأمر الذي يشير إلى توظيف التقنية المونتاجية في إحداث القطع المتجسد في المزج الثالث، والوصل المتأني من تكرار مشهد عبور الإخوة في الميدان؛ بغية ربط المزج الثاني بالمزج الرابع، وإضافة مشاهد، وكلمات جديدة.

يتكون المزج الرابع من أربع مقتنيات تقوم أولاها على تناس داخلي مع المزج الثاني، ولاسيما المتتالية الثانية، حيث يتكرر سطرها الأول مع استبدال شبه الجملة: «في انحاء»، بالجملة «مطرقين» لتوليد دلالة الخضوع النهائي: «يا إخوتى الذين يعبرون في الميدان في انحاء» (ص ٧٧)، وحيث يتكرر سطرها الثاني: «منحدرين في نهاية المساء» (ص ٧٧) بتمام نصه، بينما يأتي السطران الثالث والرابع: «لا تخلموا بعالم سعيد.. فخلف كل قيصر يموت: قيصر جديد» (ص ٧٧) من تكرار السطرين الأول والثاني من المتتالية الأخيرة من المزج الثاني، بتمام نصهما، مع حذف علامة التعجب التي يفضي حذفها إلى استبدال اليقين والوضوح بالثقل والاستنكار، وإلى بث دلالات الإحباط واليأس التي لا تنسجم، في ما نحسب، مع الدلالات الضمنية التي تنتجها السخرية. ولعلنا نستطيع أن نفترض أن سقوط علامة التعجب هو، في الأغلب، خطأ طباعي، وليس عملا متقصدا من جانب الشاعر؛ بحيث يمكننا أن نقرأ، في المتتالية الأولى من المزج الرابع، وهي القائمة على تناس داخلي متجاوب، تكرارا يكرس دلالات المزج الثاني، وذروة شعرية تعيد قول ما قبل سابقا، وتكثفه، وتضيف إليه؛ لتصل بينه وبين ما سيقال في جميع مقتنيات المزج الرابع، ولتستعيد ربط الخيوط التي قطعها القطع المونتاجي، وذلك دون إلغاء الآثار والموجيات التي أنتجها، وبخاصة تلك المتصلة بالتناقض الحاد ما بين الرمزين المحوريين المتصارعين: سبارتاكوس، والقيصر، اللذين تقوم القصيدة على قول تجربة من تجارب صراعهما المفتوح.

ويتأكد صواب الفرض السابق من خلال اكتساب صوت القناع، في المتتالية اللاحقة، نبرات أليمة تنعني انهيار الحلم، وتحيل إلى معاناة حالم يائس، ونسر منكسر حاول التحليق، منفردا، في فضاء حجري بلا أفق، فانكسر. وإذ لا

ليست هذه المتتالية وصية فحسب، وإنما هي، أيضا، نبوءة يشترط تحققها بعدم تنفيذ الوصية، وهي نبوءة يلقيها القناع في وجه القياصرة الذين عاصروهم والذين سيعاصروهم؛ مثلما ألفاها سبارتاكوس التاريخي - الإبداعي في وجه مجلس الشيوخ، وأسياد روما، ومثلما ألفاها الشاعر، من خلف قناعه، في وجوه الحكام المستبدن الذي كان سبارتاكوس - القناع، وقصيدته، نتيجة من نتائج التصدي لأنظمة التابو التي ينهضون حكمهم عليها.

ولأن القناع يدرك أن القيصر ليس مؤهلا للتوقف عن إماتة الحياة؛ فإنه لا ينتظر منه أن يفعل ذلك، ولا يحمله وصية يأتمن عليها، وإنما هو، في الحقيقة التي يؤكدتها استمرار تحويل الأشجار إلى مشاقق وصلبان، يلقي في وجهه نبوءة سوداء؛ فالحياة لا تقوم على استبعاد طبقة لطيفة، أو فئة لفئة، أو جنس لجنس آخر، وإنما على انفتاح وتعاون وتفاعل. والقهر لا يقع على المقهورين فحسب، وإنما يترد، في النهاية، على القاهر، ذلك لأن تأجيل وجود الشعوب، وتحويل الأشجار إلى مشاقق، والبشر إلى خدام مطواعين، أو إلى مجالدين يتسلل الأسياد بموتهم، لن يفضي إلا إلى إحالة الحياة إلى موت، والوجود إلى عدم؛ بحيث يلقي القاهر مصير المقهور، ويصير القيصر حاكما ميتا لشعب ميت.

وإن كان لنا أن نقيم الصلة بين النص والواقع الذي استدعاه، وأحاط بإبداعه؛ فإننا نستطيع أن نقرأ في شبكة دلالات الوصية - النبوءة استكناها عميقا للشروط الضارية التي حكمت الإنسان العربي، وواقعه، والتي دفعت بهما، معا، وبالبلاذ، إلى صحراء صيف خطر، هو ذاك الذي يجتاحنا منذ يونيو - حزيران ١٩٦٧.

بعد أن يلقي القناع نبوءته التي يضمنها رسالته الحقيقية والتي يكشف فيها عن ثباته على مبدئه وموقفه، وعن تمسكه، على الرغم من الشق، بهويته الأصلية، وبرؤياه الطوباوية، ومثاله الأعلى، يتوجه، في المزج الرابع - وقدخلع سمات الشهيد والعراف، وأكسب صوته نبرات تختلف من متتالية إلى أخرى، وتتداخل: المتهمك الساخر، والحالم اليائس، والنسر المنكسر الأمل بنهوض - إلى إخواته



إلى انهياره؛ فهانيبال الذى «لم يأت» لن يأتى أبداً، وليس ذلك لأنه رمز على حلم مستحيل، بل لأنه لا يسقط فجأة من غيب، وإنما يتم تصميمه من داخل الذات، مثلما أن قرطاجة لا تحمّل كى تلقى فى روما، وإنما تصير روما قرطاجة حين يصير أهلها سبارتاكوسيين حاملين، واثارين قادرين على استبدال هانيبال - الإنسان الحر الكامن فيهم، بالقيصر - الطاغية المستبد بدواخلهم.

ولئن كان تلهف القناع إلى التحول من الاستعباد إلى الحرية، وإلى جعل روما التى يرفضها قرطاجة التى يحلم بها، هو الذى قاده - كما نفهم من الدلالات الضمنية - إلى التمرد من قبل أن تنضج شروط الثورة الجماعية المغيرة، وإلى الانتهاء على «حبال الموت»؛ فإن إلحاحه، وهو فى طريقه إلى الموت، على نقل رؤيا احتراق الحلم - قرطاجة المستقبل الأتى، إلى إخوته، يحمل دلالة استنهاضهم، وتخفيز إنسانيتهم، لإنقاذ ذاتهم الجماعية بإنقاذ حلمهم الجماعى، الذى يقترن إنقاذه بالعمل على تحقيقه:

وفى المدى: «قرطاجة» بالنار تحترق  
«قرطاجة» كانت ضمير الشمس: قد تعلمت  
معنى الركوع

والعنكبوت فوق أعناق الرجال

والكلمات تختنق

يا إخوتي قرطاجة العذراء تحترق<sup>(٥١)</sup>

لا نقول هذه الصورة احتراق الحلم فحسب، وإنما هى، أيضاً، توصف الواقع. فحين تحترق «قرطاجة» تنفرد «روما» بالوجود وتصير، وحدها، سيادة العالم الأرضى الجحيمى الذى تقيمه على خنق الحرية، وإماتة الحياة، وامتهان إنسانية الإنسان، وتحريم الكلمات. وبدخول «قرطاجة» نقيض «روما»، شبكة رموز القصيدة، يتعمق التضاد ما بين بيتى الرؤيا: الطوباوية والجحيمية، وتنتفح ذاكرة القارئ على استدعاء ردائفهما المتكررة فى الأزمنة والحضارات، ويتسع قاع القصيدة ويتعمق وتتحوّل تجربة القناع إلى تجربة إنسانية كونية لا تفارق الإحياء بالصراع

نجد ما يرر، فنياً، ونفسياً، ودالياً، انفلاق سبارتاكوس فى مخاطبة إخوته لإطلاعهم على حلمه، لو كان معتقداً بانهياره النهائى، أو كان لا يقصد عكس ما قاله لهم حين قال: «لا تحلموا بعالم سعيد»، فإننا نجد أن إطلاع سبارتاكوس إخوته على حلمه المنهار هو، فى حد ذاته، دعوة لهم، ومن وراء الرقابة القيصرية، لأن يستعيدوه، ولأن يعملوا، دائماً وبنات، على تحقيقه:

وإن رأيتم فى الطريق هانيبال

فاخبروه أننى انتظرتُه مسدى على أبواب  
«روما» المجردة.

وانتظرت شيوخ روما - تحت قوس النصر -  
قاهر الأبطال

ونسوة الرومان بين الرينة المعربة

ظللن ينتظرن مقدم الجيود

ذوى الرؤوس الأطلسية الجعدة

لكن «هانيبال» ما جاءت حوسه المجنونة

فاخبروه أننى انتظرتُه - انتظرتُه -

لكنه لم يأت!

وأننى انتظرتُه.. حتى انتهيت فى حبال الموت

وفى المدى: «قرطاجة» بالنار تحترق<sup>(٥٢)</sup>.

(ص ٧٧-٧٨)

يستلهم الشاعر، فى صياغة حلم قناعه، تاريخ الصراع بين «روما» و «قرطاجة». وإذا جعل الأول رمزا على الجحيم الأرضى وممالك العبودية، فإنه يجعل الثانية، كما سنشرح بعد قليل، رمزا على الفردوس الأرضى. وهو الأمر الذى يعنى ثنائية البنية النصية القائمة على الصراع، ويكسب على أن حلم القناع، ورؤياه الطوباوية، يتمركزان فى استبدال قرطاجة بروما، وهانيبال بالقيصر. وحين نضع الصراع عن أنه لم يكن وحده من انتظر هانيبال، كى يضع قرطاجة فى روما، إنما شاركه الحلم والانتظار الشيوخ والنساء، فإنه يؤكد جماعية الحلم، ويوحى بأن الانقراض عاجز (الشيوخ) والعاث (نسوة الرومان بين الرينة المعربة)، هو الذى أفضى

الصفافية التي سبقت موته. وذلك بالإضافة إلى أن تدوير القصيدة يجعل من مظلمها خاتمة لها، ويجعل من لحظة الوصول - المصير، لحظة بدء آخر، وهو الأمر الذي يفتح تجربة سبارتاكوس الابن على تجربة سبارتاكوس الأب، لا ليكررها، بل ليتابع الأمل الذي شيدته، وليستخلص حكمته، فلا يكون متعمدا فردا، بل نائرا ضمن ثورة جماعية تحرق روما، وتعلو صروح قرطاجة، تبنى الحياة على الحرية، والحق، والجمال، وتعطي الإنسان حرية أن يكون ما يستطيع أن يكون.

هكذا نصل إلى قرب نهاية رحلتنا مع «كلمات سبارتاكوس الأخيرة». ولئن كنا قد ركزنا تحليل حركتي التناص والتماهي، على المزج الأول، متخذين منه نموذجا دالا على القوائين والآليات التي تحكم هاتين الحركتين على امتداد القصيدة؛ بحيث بدا التناص الحواري وجها ظاهرا لديالكتيك التماهي، وتوضح نهوض القصيدة على تجربة رؤيا داخلية خلاقة، وعلى اعتماد التقنع بوصفه مبدأ تكوينيا؛ فإن تبعا حركة التناص الحواري، شديدة الكثافة، مع الرواية - الشريط السينمائي، أو إلماحنا السريع لنصوص أخرى: أسطورية، وديشية، وتاريخية، وفلسفية، وإشراقية، تناصت القصيدة معها، أو استلهمتها، لا يعني أن هذه هي وحدها النصوص الغائبة في القصيدة، أو الوامضة في نسجها موحية بتفاعلها الثرى في قاعها العميق، وإنما يعني، فحسب، أن هذه النصوص هي الأشد غيابا فيها، وفي المقدمة منها رواية: سبارتاكوس، للكاتب الروائي هوارد فاست، والشريط السينمائي القائم عليها الذي يحمل رؤية المخرج ستانلي كوبريك، وقد تفاعلت مع رؤية كاتبها.

ولا رب أن القصيدة تتناص مع نصوص أخرى أقل غيابا فيها، أو لها غيابها اللافت، على مستويات لم نتطرق إليها، ومن ذلك، مثلا: الشعر العربي القديم، بخاصة شعر أبي تمام والمتنبي. والحكايات الخرافية التي صيغت حول حدث يتصل بعلاقة الشاعر ديك الجن الحمصي مع جاريته وغلामه، أو حول جمجمة الشاعر الجاهلي الصعلوك: الشنفرى. فإذا نلّمح حضور المتنبي على مستوى الأعراف الفنية المعتمدة في بناء القصيدة: لغة، وإيقاعا، وبناء للصورة

الاجتماعي، فيما هي تعلو على الزمان والمكان، وتنداح في مدارات الوجود.

وحين يستعيد القناع، في المتتالية الأخيرة، نعمة السخرية، ونبرات المنكسر اليأس، ويكرر دعوته الملحاحة لإخوته أن يعلموا طفله الرضيع الانحناء، ملحا على ذلك بتكرار اللازمة: «فعلّموه الانحناء..» ثلاث مرات؛ فإن تعارض الدلالة الصريحة لهذه المتتالية - اللازمة، التي سبق ورودها بتمام نصها في المزج الثاني، مع الدلالة الصريحة للمتتالية السابقة لها، والتي ثبت الإحساس باحترق الروح مع احتراق قرطاجة - الحلم، يفضي إلى استنبات دلالات ضمنية تتجاوب مع شبكة الدلالات الكلية للقصيدة، وترسخ إلحاح القناع على تأكيد فكرة أن «الحياة نفسها هي الإجابة عن الرغبة في الحياة»<sup>(٥٢)</sup> وعلى طلب ما يناقض ظاهر الدعوة، وعلى استنكار موقف إخوته الخانعين للذل، والراضين بانتهاك إنسانيتهم، وبانتزاع أطفالهم منهم لإلقائهم في مخادع العبيد.

ولعل في تثبيت علامة الحذف (...) (٥٣) في نهاية اللازمة المتكررة: «فعلّموه الانحناء..» ما يوحى بإمكان استنباط الدلالة الضمنية عبر استدعاء الكلام المحذوف، أو عبر إقامة سلم استبدال يتضمن الكلمات التي تناقض ما اختاره القناع لإقامة سياق تهكمى ساخر؛ بحيث يمكننا استبدال كلمات من قبيل: الرفض، والتمرد، والثورة، بكلمة الانحناء وموازياتها المحتملة، ليكون في هذا الاستبدال فك لشفرات الرسالة المضمنة، ونزع لقناع السخرية الذي ألقته عليها الرغبة في التعبير الحر في ظل واقع يلقي صخرة الاستبداد على الأفواه، ويخفق الكلمات، وهو الواقع الذي دفعت شروطه الضارية الشاعر إلى التكلم من وراء قناع تتعدد نبرات صوته، وتباین أفعته، لتعكس الرغبة في الإفلات من شروط واقع يكبح حرية التعبير والرأى: حرية الحياة.

ولئن كان تكرار علامة الحذف ينتج ما تقدم إيضاحه؛ فإن تكرار اللازمة يفضي إلى تدوير القصيدة؛ بحيث تلتحم نهايتها المفترضة ببدايتها، وبحيث يكون المزج الأول الذي هو الحكمة المستخلصة، والتطويب الأول، والأخير، هو آخر كلمات قالها سبارتاكوس، الإنسان الحر، في لحظة الرؤيا

بوصفه رمزا محوريا تدور القصيدة عليه، فيما هو يخوض تجربتها. وفيما هو يتكر ذاته، ويقول رؤيته، إذ يتكرها وينطقها. ولأنك أن الانطلاق من لحظة الشق، التي تحتزن طاقة درامية ذرية يندر وجودها في لحظات غيرها، قد تكفل بتفجير منبع تشكل البنية الدرامية للقصيدة، وفتح المجال واسعا أمام اندياح مكوناتها وعناصرها في أدق وأصغر خللايا النسيج النصي القائم على الاضطراب المستمر بين بنية الرؤيا الطوباوية، وبنية الواقع الجحيمي، الذي يعتبر - أى النسيج النصي - مرآة بؤرية تلتقط حركة الصراع العنيف المائر في أعماق القناع، وفي قاع القصيدة، ثم تعيد بثها في فضاء دلالي مفتوح.

\*

إن نهوض القصيدة على تجربة رؤيا داخلية تجمع أنا الشاعر بالأنا المغاير: سبارتاكوس التاريخي - الإبداعي، وعلى ديالكتيكي تماء، وتناص، متواصلين ومتواكبين، هو المؤسس الفعلي لحضور سبارتاكوس: القناع والرمز، حضورا مهيما على القصيدة، وهو الحضور الذي تكفل بفتح إمكانات تشكل البنى الثلاث: الموضوعية والدرامية والرمزية، وتحقيق قصيدة تنتمي إلى النوع الشعري الغنائي الدرامي الذي يتجسد في قصائد قناع محكمة البناء والتكوين.

وربما يكون القارئ قد لاحظ، من خلال معطيات التحليل النصي الذي قدمناه، أن القصيدة تلبس شكل المونولوج الدرامي، وتتوافر على تكييفات خاصة بها لأهم وأعظم خصائصه؛ فالصوت المهيمن هيمنة مطلقة عليها هو صوت القناع والرمز: سبارتاكوس، متوسلا ضمير المتكلم المفرد الذي يتيح إمكان تعرف التجربة من الداخل، ومغيبا في صوته صوتي الشخصية التاريخية - الإبداعية، والشاعر، على نحو يكسب صوته توترات درامية تنبع من تفاعل الصوتين في أعماقه، ومن جدل انتمائيهما الزمني في صيرورة تجربته الحاضنة زمنيهما، والمفتوحة على الأزمنة، ومن غيابهما، معا، في قرارات صوته الذي هو صوت شخصية ثالثة تنتج عن تفاعلهما، وتوهم إليهما، فيما هي تؤكد حضورها الموضوعي المستقل، وكيونتها الوجودية الفريدة، وتجربتها الاستثنائية الخاصة.

الشعرية، ونفمة، فإننا نلمح بائية أى تمام الشهيرة التي مطلعها: «السيف أصدق إنباء من الكتب! في حده الحد بين الجد واللعب» وهي تومض في صورة احتراق «قرطاجة العذراء»، وفي دلالات الاستغاثة والاستهصاص التي تذكرنا بصرخة فتيات عمورية: «وا معتصما». كما أننا نلمح في ثنايا صورة الجمجمة الكأس، وفي امتداداتها، ودلالاتها، استلهاما لمحاكاة الشاعر ديك الجح الحمصي (عبد السلام بن رغبان ١٦١ - ٢٣٦هـ) مع حارثته ورد، أودينا ومع غلامه بكر؛ حيث روى أنه «كان شعوبا بحبهما غاية الشغف، فوجدهما في بعض الأيام محتلطين تحت إزار واحد، فقتلهما وأحرق جسديهما، وأخذ رمادهما وخلط به شيئا من التراب وصنع منه كوزين للحمر»<sup>(٥٤)</sup>، فما كان الكوزان إيقونتين يسترجع معهما الديك، براحة وشغف، ذكرى حب جميل، وإنما صارا جمرتين تشعلان لهيب عذاب أحمر، وعلامتي فجعة سوداء لا تمحوها الأيام. ويبدو أن الشاعر يمزج هذه الخرافة، والعناصر المستلهمة من الرواية، وغيرها، بخرافة أخرى تنسب للشعري، فقد قيل إنه أقسم أن يقتل مائة من مستعبديه، فقتل، في حياته، تسعة وتسعين، إلى أن أسر ومثل به حيا ومات. ولكن أحد أعدائه تعثر بجمجمته - بعد موته - فمات. فكان في ذلك وفاء الشعري الميت بقسم الشعري الحي. كأنما سبارتاكوس، القناع الأصل للشاعر أمل دنقل، قد أريد، عبر الإيحاء بوفاء الشعري، أن يجعل من هذا الوفاء معادلا رمزيا لوفائه، حيا وميتا، بوعد وقسمه، وعلى إخلاصه للحياة والناس.

إن اعتماد التقنية المونتاجية (المزج) في جميع مستويات تشكل القصيدة: الألفاظ المردوحة، الأسطر الشعرية، الأبيات والمثنائيات، المقاطع، السية الكلية، أو العلاقات الداخلية بين الأمزج الأربعة، لم يعمل على تجاوز ضالة الحضور النصي لسبارتاكوس التاريخي، بحسب، وإنما أدى إلى ابتكار نسيج نصي يقول خسرته، وحساساته هوية سبارتاكوس قديم - جديد، وإلى تركيز حركة التشخيص الغنائي الدرامي عليه، دون سواه. هم الأمر الذي رسخ القاعدة الموضوعية للقصيدة إذ أكسبها بنية تجربة تعود للقناع، مبعدا الشاعر عن نفسه، وفاخا فوق تركيز حركة التشخيص الغنائي الدرامي المزجى على الذات، وعلى تجربته

وبانخراط القناع فى تجربة صراعية: اجتماعية ووجودية، وبانبناء القصيدة على قول صيرورة هذه التجربة، تأسيس إمكان أن يستدعى الرموز المتجاوبة، أو المتصارعة معه، وصار ممكناً أن يخاطب هذه الرموز، متجاوباً أو متعارضاً، جاداً أو ساخراً، وأن يجعل من تجاوبه معها، ومن مناقضته لها، محورا تتحرك عليه تجربته ورؤاه، بحيث تحولت القصيدة بأسرها إلى شبكة من الرموز الحسية الدائرة على محوره، فتوافرت، بذلك، على خصائص القصيدة الرمزية، وعلى رابع خصيصة من الخصائص الفنية للمونولوج الدرامى: حضور مخاطب - السامع فى القصيدة، وهو الحضور الذى يتجسد فى مخاطبين: الإخوة والقيصر. ونظرا لأن كليهما سامع صامت؛ فإن هذا قد يوحى بالغاء ما يترتب على حضور المخاطب من حوار بين وجهات نظر متباينة، أو متصارعة، غير أن إمكان استنباط وجهة نظر السامع الصامت من خلال علاقات النص، وقراءة دلالة الصمت يلاشى هذا الإيحاء، ويجعلنا نصفى إلى صوته المضمن وهو ينطق وجهة نظر تناقض وجهة نظر القناع (القيصر)، أو يحاول الدفاع عن نفسه إزاء اتهاماته (صوت الإخوة)، بحيث يفضى جدل وجهات النظر إلى توجيه تعاطفنا الأساسى صوب صاحب الصوت الذى هو مدخلنا إلى القصيدة، وإلى التعاطف مع صوت الإخوة باعتبار انتماء القناع إليهم، أو باعتبارهم ضحايا القيصر، أو باعتبار أن صوتهم يحمل وجهة نظر تتجاوب مع القيم التى نؤمن بها، ومع المثالية التى يحملها كل منا فى أعماقه من حيث هو إنسان. وإذا بفضى التعاطف إلى تعليق الحكم، ويغيب إطلاق الحكم على وجهات النظر استنادا إلى قيم ومعايير خارجة عن التجربة النابعة عنها؛ فإن ذلك ينتج التوترات الدرامية التى تتميز بها قصيدة القناع حين تقلب شكل المونولوج الدرامى الذى يتوافر على خصيصة حضور السامع الصامت ذى الصوت المضمن.

ويتوافر كلمات سبارتاكوس الأخيرة على الخصائص السابق الإشارة إليها، فإننا نكون إزاء قصيدة قناع لها شكل المونولوج الدرامى وخصائصه الناتجة عن اشتغال ذوى بالغ الكثافة لبؤرة التشخيص الغنائى الدرامى المزجى المنتجة للأقنعة محكمة التكوين، وللقصائد المبنية.

وإذا بدا القناع غير مستغرق تماما فى الموقف الدرامى المحيط به، وإعيا حضوره الذاتى فى العالم، ومحوها الطاقة الدرامية للحظة الشنق من طاقة قابلة لإغراقه فى عدمية مطلقة، إلى طاقة نهكم ساخر، وسخرية مأساوية تعلو به على الموقف؛ إذ تجعل الموقف لحظة من لحظات تجربة كلية مفتوحة على صراع اجتماعى وجودى مفتوح، فإن هذا، بالإضافة إلى الخصائص التفصيلية التى بينهاها، يكسب القصيدة ثانياً أهم الخصائص المميزة للمونولوج الدرامى بوصفه شكلاً شعرياً تختاره قصيدة القناع بيتاً تحيا فيه، ونحييه.

وبانطلاق المتكلم من موقف درامى بتجربة صائرة، ممتدة إلى ما يسبق الموقف الذى انطلقت منه، ومفتوحة على احتمالات المستقبل: الحياة والموت، الوجود والعدم، يتاح إمكان استنباط وجهة نظره الخاصة من ثانياً تجربته، واقتناص الدلالات الضمنية لأقواله من خلال اكتشاف علاقات دلالاتها الظاهرة، أو من خلال خلع قناع السخرية المأساوية عنها؛ وهو الأمر الذى يحقق للقصيدة ثالث أهم خصائص المونولوج الدرامى؛ حيث يجعل وجهة النظر محايدة للتجربة، متولدة عن علاقاتها؛ ودالة على خصوصية المتكلم واستثنائية منظوره، وعلى تجربته الوجودية، وفردتها؛ بحيث لا نكون إزاء شخصية توضح فيما مجردة، وأفكاراً مسبقة الوجود، أو إزاء مثل أليجورى يشير إلى فكرة، أو إلى قيمة مفارقة ذاته، بل إزاء شخصية شعرية غنائية - درامية، هى سبارتاكوس القناع الذى تتأسس دراميته على غنائيته، والذى تنطلق عموميته من فرادته، والذى تكسبه وحدته الملتحمة، بوصفه قناعاً تكوينياً يحتضن فى ذاته الرمز والرمز، رمزية درامية عالية الكثافة، وعميقة التأثير. وليس ذلك لأنه اكتسب خصائص النمط الأصلى وأبعاده، فحسب، بل لأنه جسد تجلياً متميزاً عن التجليات المحتملة لهذا النمط؛ حيث أقام رمزته الكلية على حسبيته وعينيته، وحيث لم يكف على امتداد القصيدة عن إظهار تحولاته المؤسسة على رغبته اللاهية فى الوصول إلى درة جوهره الإنسانى، مثلما لم يكف عن هدم نفسه وإعادة بنائها؛ بغية العثور على تلك الدرة الكامنة فى أعماقه، وفى أعماق إخوته، التى يؤهلهم العثور عليها لأن يكونوا بشراً حقيقيين.



## الهوامش:

- (١) القول لـ «موخاروفسكى Mokharovsky» أوردته صلاح فضل: نظرية البائية في النقد الأدبي، مكتبة الأعلام المصرية، القاهرة، د. ط. ١٩٨٠، ص ٦٢.
  - (٢) رولان بارت: درس السيميولوجيا، ص ٦٤.
  - (٣) نورثرب فراي: الماهية والخرافة، دراسات في الميتولوجيا الشعرية، ص ٣٦٠.
  - (٤) القول لجوليا كريستيفا، أوردته: عبدالله العدامي: الخطيئة والتكفير، من البنيوية إلى التشرحية، قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر، ص ١٣.
  - (٥) القول ليهودين، أوردته: عمر أوكان: لذة النص أو مغامرة الكتابة لدى بارت، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، النسخة الأولى، ١٩٩١، ص ٣٠.
  - (٦) القول للبنت، أوردته: عبد الله العدامي: المرجع السابق، ص ١٣.
  - (٧) جوليا كريستيفا: علم النص، ص ٧٩.
  - (٨) القول لجوليا كريستيفا، أوردته: عبدالله العدامي: المرجع السابق، ص ١٣.
  - (٩) المرجع السابق، ص ٧٩.
  - (١٠) كريستوفر كودويل: الوهم والواقع، دراسة في سابع انشغاف، ترجمة: توفيق الأسدي، دار الفارابي، بيروت، النسخة الأولى، ١٩٨٢، ص ٢٢١.
  - (١١) محمد بن عبد الجبار النفرى: المواقف والخطابات، تحقيق: آرثر آربري، تقديم وتعليق: عبد القادر محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١١٥.
  - (١٢) جى ولسن نايت: «فى الفن التشكيسى»، مقال منشور ضمن ترجمة جبرا إبراهيم جبرا مسرحية تشكيس: العاصفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨١، ص ٣٧.
  - (١٣) ابن رشي: العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده، جزءان، تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٢، الجزء الثانى، ص ٢٣٦.
  - (١٤) أدونيس: الثابت والمتحول، الكتاب الثالث: صدمة الاختلال، ص ١٨.
  - (١٥) تزيطان تودوروف: الشعرية، ترجمة: شكري المبحوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، النسخة الثانية، ١٩٩٠، ص ٧٦.
  - (١٦) نورثرب فراي: تشریح النقد، ص ١٢٢.
  - (١٧) أمل دنقل: الأعمال الكاملة، ص ٧٣، ومى جميع المقتنيات اللاحقة، من هذا المصدر، سنكتفى بذكر رقم الصفحة، داخل المتن.
  - (١٨) انظر فى ذلك: أوريوسوس: تاريخ العالم، الترجمة العربية القديمة، حققها وقدم لها: عبد الرحمن سدي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢، ص ٣٧٣ - ٣٨٤. ولا
- يتمدى ما يكتبه أوريوسوس عن «الحرب العبيدية» الصفحة الواحدة، مركزاً كلامه على تسجيل الوقائع بإيجاز شديد.
- (١٩) هوارد فاست: سبارتاكوس (لوروا العبيد)، الجزء الأول، ترجمة: أنور المشرى، راجعه: محمد بدران، الألف كتاب (٣١٤) المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦١. الجزء الثانى، ترجمة: أنور المشرى، راجعه: على أدهم، الطبعة الأولى، ١٩٦٢.
- (٢٠) القول لأمل دنقل، أوردته عيلة الروينى: الجنوى أمل دنقل، مكتبة مدبولي، القاهرة، د. ط. ١٤، ص ١٤.
- (٢١) القول لأمل دنقل: المرجع السابق، ص ٢٢.
- (٢٢) القول لأمل دنقل: المرجع نفسه، ص ٨٢.
- (٢٣) هوارد فاست: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٦٤.
- (٢٤) هوارد فاست: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٦٤.
- (٢٥) هوارد فاست: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٦٤.
- (٢٦) المصدر نفسه: ص ٢٨٠.
- (٢٧) المصدر نفسه: ص ١٤٥.
- (٢٨) المصدر نفسه: ص ١٤٦.
- (٢٩) المصدر نفسه: الجزء الأول، ص ٢٥٥.
- (٣٠) المصدر نفسه: ص ١٣٥، وقارن بالمرج الأول.
- (٣١) المصدر نفسه: ص ١٣٦.
- (٣٢) المصدر نفسه: ص ٢٠٢، ٢٠٣. وقارن بالمرج الأول.
- (٣٣) انظر فى ذلك ما ورد فى سياق القراءة النصية لقصيدته: «أغاني مهيار الدمشقى».
- (٣٤) أ. و. ف. توملين: فلاسفة الشرق، ص ٢٢٠.
- (٣٥) وهكذا، أيضاً، تبدأ الرواية، والشريط السينمائى.
- (٣٦) انظر: هوارد فاست: المصدر السابق، الجزء الثانى، ص ١١٠، وما بعدها.
- (٣٧) لا يوجد فى الرواية مشهد يتعلق بصلب سبارتاكوس، كما لا توجد إشارة تحدد، بوضوح، مصيره، وإنما هناك إشارات تجعل هذا المصير مجهولاً، وتعمل على توليد دلالة وجوده المستمر، وإمكان ابتعانه المتجدد، ويقولون إنه مات، لكن غيرهم يقول إن الموتى يحيون» (هوارد فاست: المصدر السابق، ص ٧٩).
- (٣٨) هوارد فاست: المصدر نفسه، الجزء الأول، ص ١٩٠.
- (٣٩) هوارد فاست: المصدر نفسه، الجزء الأول، ص ١٩٠.
- (٤٠) المصدر نفسه: ص ١٩١.
- (٤١) فى هذه المتتالية نلاحظ تناسبا حواريا مع عبارات عديدة وردت فى مواضع متباعدة من الرواية، ومن ذلك قول الراوى: «ويحدثى سبارتاكوس إليهم ويفتش باحثا عن نوعه، عن بنى جنسه... ويقول لنفسه: تكلموا... خاطبوا بعضكم البعض. لكنهم لا يتكلمون، فهم صامتون كأنهم الموت مجسداً، ويضرب بينه وبين نفسه قائلاً:



للحالة النفسية السوداء التي اعترت كراسوس (القائد الروماني عدو سبارتاكوس الذي أنهى تمرد العبيد) لحظة أدرك أن قضاءه على التمرد لا يحقق له المجد، ولا ينهي صراعه مع سبارتاكوس: حيا وميتا. يقول الراوى «وبعد تناول الطعام جلس إلى زجاجة شراب سرفيوس، وهو شراب قوى من البلح كانوا يقطرونه في مصر». (هوارد فاست: المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص ٢٠٦). وبصدد الكأس - الجمجمة، وملزمة القتل لقاتله، نقرأ، فى الجزء الأول، مثلا، قول كراسوس الذى ينحمل على عكس ظاهره: «وأى شيء أكرهه فيه؟ فهد ميت وأنا حي» (ص ٦٣)، ونقرأ قول الراوى: «صحيح أن سبارتاكوس الميت يفرغ، وأنه هو يكره العبد الميت». (ص ١٥٦). وانظر مشاهد تحول قاع الكأس إلى مرة لوجه القاتل والمقتول، أو إلى كرة من لهب ساخن تغدق ذكريات الماضى (ص ١٥٥)، وانظر: الجزء الثانى، حيث نقرأ، مثلا: «إنكم تخبون هنا وشبح سبارتاكوس فى مخيلتكم...» (ص ١٢)، أو نقرأ: «كلهم يكرهون سبارتاكوس. وروح سبارتاكوس ملأ هذا البيت...» (ص ١٧)، أو نقرأ: «فكراسوس لن يفصل نفسه طيلة حياته عن ذكرياته عن حرب العبيد. فسيعيش مع تلك الذكريات، ينهض من نومه بها، ويذهب إلى فراشه معها. ولن يقول يوما لسبارتاكوس وداعا حتى يموت هو... عند ذاك ينتهى الصراع... لذلك عاد... فى ذلك الوقت إلى باب المدينة ليعيد النظر إلى كل ما تبقى على قيد الحياة من خصمه» (ص ١٨٨)، أو حيث نقرأ قول كراسوس: «لقد قاتلته عندما كان حيا، وسأقاتله اليوم وهو ميت» (ص ٢٨٧). وجلى أن الصورة الشعرية المكثفة تقول ما نقوله الرواية فى العبارات السابقة، وفى كثير غيرها، بصورة أشد درامية، وأغزر دلالة، وأبلغ تأثيرا من الرواية.

(٤٨) ونلاحظ أن هذه المتشالية، الذروة الشعرية، تستلهم فكرة أن موت سبارتاكوس لم يكن مبعث راحة لعدوه، وإنما مفجر حالة نفسية سوداء تمتلكه إذ أحس أن سبارتاكوس الميت حى فى تفاصيل حياته، وهى الفكرة التى تقوم عليها أحداث ومشاهد عديدة فى الرواية - الشرط السينمائي، وانظر، على سبيل المثال، الجزء الثانى من الرواية: ص ١٨٨ - ١٦٩.

(٤٩) وتعتبر هذه المتشالية بؤرة تناس حوارى بالغة الكشافة مع الرواية، وللقارئ أن يقارن نسيجهما النصي، والدلالي، بعبارات تصف الأشياء والأجواء، أو ترسم مشاهد روائية يستلهمها الشاعر فى بناء هذه الصورة الشعرية الحركية المشعة، ففي الجزء الأول من الرواية، وبصدد تحويل الأشجار اليابسة المشرفة إلى صلبان، نقرأ «وكان الصليب من خشب صنوبر حديث القطع لا يزال يفرغ عصارته الدامية القائمة» (ص ١١)، ونقرأ: «وكان الرومان دائما هم الذين يدقونهم بالمسامير فى الصلبان، هذه الأشجار الجديدة ذات الشمار الجديدة كيما يرى الجميع جزاء العبد الذى يرفض أن يكون عبدا» (ص ٢٥٥). أما بصدد المشاهد التى يستلهمها الشاعر فى بناء

ابتسموا... لكن أحدا لا يتشم...» (هوارد فاست: المصدر نفسه، ص ١٢٩). ومن ذلك، أيضا، قول الراوى: «لم أحس بهم يحيطونه من كل جانب، وأينما مد يده وجد وجه واحد منهم وكلها مغطاة بالدموع. آه، إن الدموع إسراف وتبديد». (المصدر نفسه: ص ١٣٤ - ١٣٥). ومن ذلك، أيضا، قول الراوى: «فما كانوا ليجرؤوا على النظر بعضهم إلى بعض من قبل» (المصدر نفسه: ص ٢٧٩).

(٤٢) وفى الرواية يودع سبارتاكوس زوجه فارينيا قبل أن تلد، حيث نقرأ: «وكان سبارتاكوس قد ودع فارينيا. ودعها وأرغمها على الرحيل.. وكانت مثقلة بحملها حينذاك. وكان سبارتاكوس قد أمل أن يرى الطفل يولد قبل أن يوقعهم الرومان فى المخطو. لكن الطفل كان مازال جنينا لم يولد عندما افترق عن فارينيا» (هوارد فاست: المصدر نفسه، الجزء الثانى، ص ٢٠١). ويدل أن الشاعر يستلهم، فى بناء الصورة الشعرية للادواع، رؤية المخرج ستانلى كوبريك المبهمة فى مشهد: الوداع... اللادواع، حيث نمر فارينيا بصليب كبير فتكشف أن المصلوب عليه هو زوجها سبارتاكوس، فنحاول، وهى تضع طفلها الوليد (سبارتاكوس الابن) على ذراعها، أن تلمس بالذراع الأخرى طرف قدم سبارتاكوس الأب المعلق على صليبه.

(٤٣) نورثرب فرأى: تشويح النقد، ص ٥٠.

(٤٤) المرجع السابق: ص ٥٠.

(٤٥) تنطوى رسالة سبارتاكوس على المفزى الكلى للرواية، وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى خطاب القناع فى القصيدة. ونكتطف، هنا، من رسالة سبارتاكوس الرواية ما نراه لازما لمقارنة كلماته ومضامينها بكلمات القناع ودلالاتها والعالم قد سمع أنشودة السوط... ونحن لا نرغب فى سماع تلك الأنشودة بعد الآن... كل ما هو طيب وخير فى البشر موجود فىنا... نيكى عندما تنتزع أطفالنا من أحضاننا ونخفى أطفالنا بين الأغنام لنستطيع أن نحفظ بهم وقتا أطول قليلا... أى جماعة فاسدة أنتم وإلى أى فوضى قدرة قد أحلتهم الحياة... قلبتم الحياة الإنسانية سخرة وسلبتوها كل قيمتها. أنتم تقتلون حبا فى القتل ومتعتكم الرققة هى رؤية الدم يتدفق... (لقد) شيدتم عظمتكم على سرقة العالم بأسره... نصبح عبيد العالم أن هبوا واتزعوا عنكم أغلالكم... وعندما تتحقق العدالة سنقيم مدنا أفضل، مدنا نظيفة جميلة بلا جذران - يعيش فيها البشر فى سلام وسعادة». (هوارد فاست: المصدر السابق، ص ٧٦، ٧٧، ٧٨).

(٤٦) يتناقض وصف القناع لبدى القيصر مع وصف باتيانوس، تاجر العبد وصاحب المجلد فى الرواية، لبدى سبارتاكوس: «والحقيقة أن الشيء الوحيد الجميل فيه كان يديه». (هوارد فاست: المصدر نفسه، الجزء الأول، ص ١٢٥).

(٤٧) نلاحظ، هنا، حركة تناس المتشالية الشعرية، حواريا، مع مشاهد وعبارات وردت فى مواضع مختلفة من الرواية - الشرط السينمائي، فعبرة «شرابك القوى» تأتى مع التناس الاقتباسى مع وصف الراوى

بوعى أو دون وعى، إلى موازنة قناعه بهانيبال وجعل الأخير مثالا مجسدا لهويته العميقة، ورمزا عليها. وإلى استلهاهم نصوص أخرى لاستدعاء «قرطاجة»، ولجعلها رمزا نقوضا لـ «روما»، وذلك فى سياق بناء شبكة رموز القصيدة. ويود ذكر «قرطاجة» فى الرواية، مرة واحدة فقط، وذلك فى الجزء الثانى، حيث نقرأ على لسان الراوى: «فالصلب كان شائعا جدا فى روما. فعندما غزت روما قرطاجة قبل ذلك بأربعة أجيال أخذت عنها أحسن ما استولت عليه: نظام المزارع والصلب... فقد استهوى روما شكل الصليب والرجل يتدلى منه. واليوم نرى العالم أن الصلب كان قرطاجيا فى الأصل، لأنه صار رمزا للحضارة فى كل أنحاء العالم» (ص ١٣٨). وواضح، هنا، أن الشاعر يناقض الدلالات السالبة التى يسقطها الراوى، ضحينا، على «قرطاجة».

(٥١) بسدد إحراق الرومان قرطاجة، انظر: أورسوس: تاريخ العالم، ص ٣١٣-٣١٥.

(٥٢) هوارد فاست: المصدر السابق، الجزء الأول، ص ٢٢٢.

(٥٣) ليست هذه علامة الحذف المتعارف عليها، وإنما هى علامة شاع استخدامها لأداء وظائف متغايرة، والشاعر يكرر استخدامها، بكثافة لافتة، لأداء وظائف الفاصلة، والفاصلة المنقوطة، وعلامة الحذف، وذلك إضافة إلى وظيفتها الإيقاعية.

(٥٤) ذاك جانب من رواية العامل فى الكشكول لهذه الخرافة، وتوجد روايات عديدة للخرافة ذاتها، راجع فى ذلك: مظهر الحمى: ديسك الجن الحمصى، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ص ٤٦، وما بعدها. والمقتبس، داخل المتن، من ص ٥٨.

الصورة الشعرية - النبوة السوداء التى ينفقها فى وجه القيصر، فإننا نقرأ، فى الجزء الأول، أيضا، عبارات كثيرة، تصف، على لسان باتيانوس، ما شاهده أثناء رحلة صعوده مع السل، بدءا من طيبة، ومرورا بصحرَاء النوبة، وحتى أقصى الحبوب حيث مناجم الذهب التى يسخر العبيد للعمل فيها، يقول باتيانوس: «انظر كيف تبدل التلال والهضاب الصحراوية إلى رمال ماعمة - دحان وبارود تصنها الريح فتفجر هنا، وتلقى بمقدماتها هناك.. صحراء أخرى رهيبة هى صحراء المسروق الأبيض المتحركة التى تتدر بانموت الزؤام.. توغل فى هذه الصحراء إذن، وانخط فوق هذا المسحوق الأبيض، واشعر بموجات الحرارة الفظيعة تنهال على ظهرك موجة إثر موجة... شق طريقك فى هذه الصحراء الساخنة الرهيبة يصبح الزمان والمكان لا نهائيين ومخيفين.. إن الحجم يبدأ عندما تسبح الحركة الضرورية فى الحياة شيئا رهيبا.. والأن أصبح كل من رهيبا: أن نسور أو أن نشنفس أو نرى ونفكر...» (ص ١٢٠، ١٢١، ١٢٢) ولا شك أن القارئ سيلاحظ اقتباس السطر الشعرى: «والعالم عام جوع» من قصيدة بدر شاكر السياب: «أنشودة مصر».

(٥٥) المصدر السابق، ص ٧٧. وترد الإشارة إلى هانيبال فى سياق موازناته بسبارتاكوس، فى موضوعين من الجزء الثانى من الرواية، فنقرأ على لسان كراسوس قوله: «ولم تكن لديه حياة قط، كما كان الحال مع هانيبال، ومع ذلك فقد كاد يرغم روما على أن تخثر على ركبتيها بصورة لم يحققها هانيبال» (ص ٨٧). ونقرأ قوله «كان يعرف بعض قواعد الحرب البسيطة، وكان يعرف مواطنيها الضعفاء والقوة فى الأسلحة الرومانية. وهذا أمر لم يعرفه إلا القليل غيرهم من بينهم هانيبال..» (ص ٩٠). ويبدو أن هاتين الإشارتين قد دفعتا الشاعر،



# التنافس سبيلا إلى دراسة النص الشعري وغيره

شربل داغر\*

هذه المادة في الجامعات العربية، في: جامعة أم درمان الإسلامية (منذ العام ١٩٦٦)، وكلية التربية في الجامعة اللبنانية (منذ العام ١٩٧١)، وجامعة البصرة (منذ العام ١٩٧٢)، وجامعة الكويت (منذ العام ١٩٧٦)، وجامعة اليرموك (منذ العام ١٩٧٧)، وجامعة الملك سعود (منذ العام ١٩٧٨) وغيرها من الجامعات العربية.

إلا أن ما يعنينا من الكتاب يقع في مكان آخر، مائل في صورة بيئة منذ عنوانه؛ إذ يقترح المناصرة مقارنة جديدة لـ «الأدب المقارن». فهو لا يكتفى بدراسة تقليدية له إذا جاز القول، وإنما يسعى إلى تناول نقدي للإشكال الذي ينهض عليه، عدا أنه يطلق تسمية «النقد المقارن» (السارية في الكتابات الأمريكية) بدل التسمية التقليدية «الأدب المقارن». هل تفوى هذه التناولات الجديدة - فيما لو صحت - على إخراج «الأدب المقارن» من حدوده الأكاديمية والبحثية الضيقة، ومن المسائل التي اختص بها من دون غيرها؟ ونحن

يخصص عز الدين المناصرة كتابه «المثاقفة والنقد المقارن: منظور إشكالي»،<sup>(١)</sup> لقضايا وموضوعات «الأدب المقارن» بعامة، ولها في سياق البحوث العربية بخاصة. وهو أكثر من كتاب في مجاله؛ إذ إن الكاتب الفلسطيني أفرد صفحات مطولة منه لكي يضع في متناول القارئ وثائق عديدة متصلة بقضايا النقد المقارن، سواء النظرية أو العملية (مثل تأسيس رابطة عربية للنقد المقارن، في مؤتمراتها وبحوثها وأعلامها). ويتوقف خصوصا في الكتاب أمام نشأة هذا السبيل النقدي في الدراسات الجامعية العربية، في العام ١٩٣٨، بداية، في «كلية دار العلوم» (جامعة القاهرة) قبل أن يصبح مادة جامعية مستقلة في العام ١٩٤٥. ثم يعرض الباحث، بالاستناد إلى معلومات وتحقيقات ميدانية وإلى نتائج استمارات أعدها بنفسه في السنوات الأخيرة، أحوال تعليم

\* جامعة البلمند، لبنان.

بالقول التالي: جعل الدارسون الفرنسيون من مقولة «التأثير والتأثير» بل من وجودها، بين نصين أو عمليتين أدبيين من لغتين - وثقافتين - مختلفتين، شرطاً لازماً لحصول المقارنة، ولكن بشرط حصول تفاعلات تاريخية محققة تؤكد حصول التأثير والتأثير بينهما، فإذا توافرت أسباب المقارنة - أو التشابه - بينهما من دون أن تكون لهذين العمليتين تبادلات تاريخية مؤكدة سقطت المقارنة حكماً. هذا ما قالته المدرسة الكلاسيكية - المستمرة، فقيدت حركتها سلفاً، في الوقت الذي تنسب من أن أشكال التأثير لم تعد بادية للعيان، أو يحتاج التأكد منها إلى مساع حاذقة ودقيقة.

هذه المدرسة التقليدية لاتزال نشطة في البحوث أو في التدريس الجامعي، إلا أنها ليست الوحيدة، ولم تعد بمنأى عن التأثيرات التي أحدثتها «المدرسة الأمريكية» - حسبما جرت تسميتها - وعن نفوذها المتحمدي خارج ديارها. ويمكن تلخيص نظرة هذه المدرسة إلى «الأدب المقارن» بأنها أكثر اتساعاً أو أقل ضيقاً وتحدداً مما هي عليه «المدرسة الفرنسية»، إذ إنها تميل إلى «المقارنة» حتى في حال عدم توافر «أدلة» على حصول عمليات التأثير. ومثل هذا الاختلاف لا يتطل باجتهادات علمية وحسب، وإنما يعبر عن حاجات مختلفة ومتباينة في الآداب الأوروبية (ومنها الفرنسي تحديداً)، من جهة، وفي الأدب الأمريكي، من جهة ثانية: فمن المعروف أن المدارس الأوروبية في النقد المقارن تميل أو تعتمد طريقة النظر الفرنسية، ويعود ذلك إلى أن آداب هذه الشعوب قديمة، ويمكن النظر إليها على أنها - في وقائعها وتطلعاتها - فاعلة ومؤثرة خارج ديارها الثقافية والحضارية، مستندة في ذلك إلى تراكم أدبي داخلي، بل «وطني» تلازم مع بناء الدول - القوميات فيها، وما تلاه من توسع استعماري ومن نفوذ لهذه الآداب خارج ديارها. أما في الولايات المتحدة الأمريكية فالحاجات مختلفة، واستجابات البحوث فيها لأحوال أدب ناشئ، من جهة، ومتفاعل أو متأثر بمصادر أدبية مختلفة ومتعددة، من جهة ثانية.

مجال الاجتهاد والدرس مفتوح، وما عاد يكفيه الفهم المقارن التقليدي، ولا الأمريكي المجدد، على ما نعتقد؛ إذ إن الأمر لا يستقيم بمجرد المقارنة، بأدلة أو من دونها، وإنما

لا تشير هذه الأسئلة في صورة اعتباطية، وإنما لاعتقادنا بأن هذا الأدب يعاني من مصاعب بينة تميزه أينما كان، في حاضرات الدراسات العربية، والأوروبية والأمريكية، بدليل قلة التجديد فيه، وتعرس سبل البحث فيه أيضاً.

ما يعيننا في المقام الأول، انطلاقاً من هذا الكتاب، هو مسألة العلاقة بين «الأدب المقارن» و«الثقافة»؛ أي العلاقة التناظرية الماثلة منذ العنوان. يجد الباحث الفلسطيني أن «اتساع حقل الأدب المقارن ليشمل الثقافة يحلق نوعاً من الفوضى»<sup>(٢)</sup>، ولهذا يقترح لإيضاح هذه العلاقة الأفكار التالية:

أولاً: ترتبط الثقافة بالأدب المقارن مباشرة وهي حقل يقع في دائرة اختصاص «الناقد المقارن» على وجه التحديد.

ثانياً: تختص الثقافة بمجال التفاعل الثقافي (...).

ثالثاً: تعتبر الثقافة هي «المجال التمهيدى» للأدب المقارن.

رابعاً: يتخصص النقد المقارن بمجالات التطبيقات النصية الأدبية<sup>(٣)</sup>.

يستبقى المناصرة في هذه المعالجة وضع «الأدب المقارن» بوصفه «أصل» الدراسات الواقعة في مجال التفاعل الثقافي، ومنها النصوص الأدبية تحديداً، ملحقاً به، مثابة «تمهيد» له، إطار «الثقافة». لا تريد أن تفهم الكيفية التي جعل فيها المناصرة من وضعية عامة، تاريخية وثقافية بحجم «الثقافة»، فرعاً أو تمهيداً وحسب لشيء هو، في الواقع، ناجع عنه، وهو التأثير والتوازي بين نصوص قائمة للنقد المقارن. ما يعيننا هو أنه تنبه إلى هذه المشكلة، وما عاد حائزاً في حسابه طرح إشكال التفاعل - أو الأخذ، أو الاقتباس وخلافها - بين النصوص الأدبية ضمن تحديداتها القديمة، وهي التثبيت من حصول - أو عدم حصول - مثل هذا التفاعل.

فمن المعروف أن «الأدب المقارن» حافظ منذ القرن التاسع عشر على قواعد وضعها الدارسون الفرنسيون (فيلمان - Villemain -، وسانت بروف - Sainte Beuve - وغيرهما)، وخصوصاً بهذا النقد الناشئ، ويمكن تلخيصها

ويعيشها عالم العربية، وقبل ثقافتنا وروايتنا وأشعارنا، تتسم بالتفاعل البين مع ثقافات وسلوكات أجنبية. وهذا يصح في علاقتنا بغيرنا، كما بعلاقات غيرنا بثقافتنا، أى ما يحتاج إلى سبيل علمى فى المقاربة يضع حداً لـ «المقارنة» التى تفترض وجود نص «أول» على أنه المؤثر على غيره، وهو النص الغربى غالباً، ووجود نص «ثان» على أنه الخاضع للتأثير، وهو النص غير الغربى غالباً. إلى هذا، فإن شروط التفاعل باتت صعبة الوصف، نظراً لوفرتها، ولحداقة الأدباء والفنانين فى إخفاء معالم التأثير، ما يدعونا إلى اعتماد مفهوم آخر قابل لتفكيك وضعيات التفاعل الناشئة، وهو ما يوفره مفهوم «التناس».

وينتبه عز الدين المناصرة إلى الأهمية النظرية لمفهوم «التناس» الناشئ فى الدراسات اللسانية، فيقول فى كتابه المذكور: «إن مقولة «التناس» أكثر موضوعية فى تناول المقارنة بين آداب الشعوب»<sup>(٤)</sup>، غير أننا لا نجد فى كتابه مسعى موافقاً لذلك، ما يشير إلى أنه يتطرق، فى خاتمة المطاف، إلى العديد من المسائل المستجدة التى تطرح نفسها على حاضرات الدراسات «المقارنة»، فيتمسكها فى صورة نظرية وسريعة، من دون أن تطرح تلمساته هذه على البحث وضعية هذا العلم (أى «النقد المقارن»، كما يسميه)، ومن دون أن يجعل لهذه المفاهيم الداخلة على الأدب المقارن (أى «المثاقفة» و «التناس») أية قابلية إجرائية.

سبيل «التناس» يتعدى، على أية حال، هذا الإطار القديم للمشكلة، لأنه يتحقق أساساً من أحوال التفاعل فوق مساحة النصوص. إلى هذا، فإن إدراج مسألة «المثاقفة» تحت باب «النقد المقارن» لا يفى بالمراد أبداً، وهو الانتباه إلى واقع التفاعل النصى الذى يقوم بين نصوص واقعة ضمن اللغة الواحدة، لا بين لغتين مختلفتين، كما هو عليه الحال فى الأدب المقارن فى صيغته التقليدية. كما نستطيع أن نزيد على هذين الاعتراضين اعتراضاً ثالثاً، وهو أن المنزع «المقارن» يقوم على موازنة أو تقابل أو مقارنة بين نصين، فيما يسعى الفهم «التناسى» إلى تبين حقيقة التفاعل النصى، أو «التنصيص»، فى النص نفسه، على أنه يشير إلى نصوص أخرى واقعة ضمن نصوص ثقافته أو خارجها، وفق علاقات من التفاعل، قد تكون استعادة، أو محاكاة،

يتطلب النظر إلى النصوص، وربما إلى غيرها من التناجات الثقافية، وفق منظور التفاعل الثقافى، بل ضمن «المثاقفة» أيضاً. لهذا، بدا لنا أن العملية التى قام بها المناصرة، وهى «فتح» حدود «النقد المقارن» على «المثاقفة» جدية بالبحث، عدا أنها تكسر الحدود الأكاديمية المتغلقة على نفسها. لنعد، إذن، إلى طرح السؤال الذى انطلقنا منه: هل تقنع محاولة «فتح» الحدود هذه؟ ألا يرتب المناصرة فى ذلك علاقة مفتعلة بين ميدان علمى ناشئ، هو المثاقفة وعلم قديم، هو الأدب المقارن؟

فنحن نعرف أن المثاقفة acculturation لفظ اصطلاحى جديد نشأ فى الولايات المتحدة الأمريكية قبل أن يتأكد مضمونه فى غيره من البلدان، ويشير إلى مسارات التفاعل التى تنشأ بين جماعات وأفراد، فى صورة متكافئة أو مختلة (كما فى حالات فرض الثقافة الاستعمارية)، وفى أجواء ودية أو قهرية، طلباً للتأثر أو المحاكاة أو التشوف، وإلى غير ذلك من الأحوال والأطوار التى تعين هذه العلاقات المركبة التى عرفتها الشعوب والثقافات، والنصوص فيما بينها بالتالى. ما كان للمناصرة أن يغفل، إذن، عن الإرباك المعرفى والمنهجى الذى يحققه مفهوم «المثاقفة» فى الميدان المنغلق والهنائى الذى يسم حال «الأدب المقارن». ولكن كيف رتب الكاتب، والحالة هذه، أمر العلاقة بينهما؟ إذا كان المناصرة يجعل من «المثاقفة» تمهيداً لازماً لأية دراسة «مقارنة»، فإنه لا ينهى المشكلة بذلك، طالما أنه «يلصق» هذا بذاك، كما لو أن مفهوم «المثاقفة» تاريخى الطابع وحسب، صالح للمقدمات والتمهيدات ليس إلا، من دون أن تكون له أية قابلية إجرائية! ذلك أن التحقق من العلاقة بين العلمين، الناشئ والقديم، لا يؤدى إلى تلازم بينهما، ولا إلى جعل الأول «تمهيداً» للآخر، وإلى حصر الثانى فى المجال التطبيقى.

نشدد على هذه المفارقات، بما أننا نجد أن مفهوم «المثاقفة» يصلح أكثر من غيره للإجابة عن وضعيات فى التفاعل الثقافى وخلافه، بين الجماعات والنصوص، وتحتاج هذه الوضعيات وتتطلب سبيلاً فى درسها يتعدى الإطار المقارن نفسه: فهناك وضعيات يعايشها العالم، كما عاشها



عاد مستساغاً في عهد تراجع البنيوية الحالي. هذا ما ننتبه إليه في واقعة أخرى، وهو أن «قاموس اللسانية»<sup>(٨)</sup> لا يتضمن - وهو معروف بجانبه المحافظ - أية إشارة عن «التنصص». ومع ذلك نقول بأن مفهوم «التنصص» شغل العديد من الدارسين؛ ولو تتبعنا عدداً من الكتب والدراسات الأوروبية، الفرنسية والإيطالية تحديداً، وعدداً من الكتب، وإن القليلة، العربية، لوجدنا حضوراً لافتاً لهذا المفهوم. فما حال «التنصص»؟ وما معنى التردد الذي يصيبه في مجال الدراسات؟

لعلنا نجد، على ما يفيد (القاموس المعرفي الجديد) المذكور، في شخص العالم الروسي ميخائيل باختين Mikhail Bakhtine واضع هذا المفهوم الجديد، وفقاً لاستعمالات الباحثة جوليا كريستيفا Julia Kristeva له. وعنى هذا المفهوم الوقوف على حقيقة التفاعل الواقع في النص، في استعمالاتها أو محركاتها لنصوص - أو لأجزاء من نصوص - سابقة عليها، بدل الفهم التقليدي الذي يتعامل مع كل نص في صورة متسقة على أنه صنيع مبتكر، مصدره فيه وغايته واقعة فيه كذلك. ماذا لو تبين حال هذا المفهوم في عدد من الدراسات الإيطالية والفرنسية، التي سعت، على ما سنتبين، إلى توسعة تعيينات هذا المفهوم ومجال عمله، مثلما سعت أيضاً إلى تعيين ميدان لاشتغاله أو لوجوده في النصوص؟

لعل الباحثة جوليا كريستيفا هي الأولى التي تطرقت إلى هذا المفهوم، وأجرت عليه استعمالات إجرائية لافتة، في دراستها الشهيرة (ثورة اللغة الشعرية)<sup>(٩)</sup>، التي عينت فيها «التنصص» على أنه «التفاعل النصي في نص بعينه»، وتوسعت في تبين قابلياته الإجرائية حين تناولت أحوال التنصص في شعر لوتريامون Lautréamont تحديداً، متوقفة أمام عمليات «التحويل» التي أقامها الشاعر على نصوص عديدة معروفة، بما يشبه «اختطافها» أو تحويلها عن مجراها. وتبقى دراستها في هذا المجال المثال الأنجح عن القابليات الإجرائية لاستعمال هذا المفهوم في مقارنة النصوص الأدبية.

كريستيفا شقت الطريق هذا، وسعى الباحث الإيطالي سيجريه Segre<sup>(١٠)</sup> إلى الوقوف على حقيقة هذا المفهوم، في وقفة نقدية - تاريخية، لعلها الأولى في هذا المجال، فوجد في دراسة نشرها في العام ١٩٨٥ أن هذا اللفظ «جرى اعتماد

أو تحويل، أو محاكاة ساخرة لهذه النصوص الأخرى التي يتم تملكها». فما التنصص؟

## ١ - التنصص: المساعي التعريفية

لا يحتل مفهوم «التنصص» بداً أو فصلاً مستقلاً في (القاموس المعرفي الجديد لعلوم اللغة) الذي أعاد صياغة مواده، وتبويب فصوله من جديد الباحثان الفرنسيان أوزوالد ديكر ووجان - ماري شافر Oswald Ducrot et Jean Marie Schaeffer بالتعاون مع عدد كبير من اللسانيين<sup>(١١)</sup>. ولو استعدنا فهرس المصطلحات لوجدنا «التنصص» وارداً في مادة واحدة؛ ولو عدنا إلى الصفحة المسماة للاحتضان أن وروده مصحوب بكلام مقتضب لا يزيل شيئاً من اللبس المحيط به، ولا يوفر له بالتالي قدراً من التعمين الدقيق

يرد الحديث عن «التنصص» intertextualité في المعجم الجديد في معرض الحديث الشامل عن «مبادئ» الدراسات اللسانية، وعن إسهام «الشكلانيين الروس» فيها تحديداً. ويعنى هذا أن واضع القاموس لم يجدوا ضرورة، رغم تبويسهم المنهج الجديد للمواد، واضطراهم إلى إجراء تعديلات وإضافات جوهرية على مواده، إلى أفراد فصل أو فقرة في فصل، لهذا المفهوم، ما يفيد أنه لم يبلغ، بعد، في حسابهم مرتبة العلم، أو المسعى المنهجي، أو التقنية اللسانية الجدالية أو اللافتة. والغريب في هذه العملية هو أن واضع القاموس «الجديد» استعادوا المفهوم ولكن من دون تعييناته السابقة؛ أي الواردة في القاموس القديم<sup>(١٢)</sup>، التي أبانت شيئاً من حقيقة النص، وهي أنه لا يحض «النظام» مبرم ذي فقرات متعاقبة ومتماسكة، وأنه لا يؤلف «بينة مغلقة»، وإنما تشغله وتنشط فيه نصوص أخرى، على أساس أن كل نص هو «استيعاب وتحويل لعدد كبير من النصوص»<sup>(١٣)</sup>.

وإذا كان التباين بين القاموسين، بل بين إصداريه، يفيد شيئاً فهو أن تعيين محتويات المفاهيم، الناشئة خصوصاً، يخضع للتقلبات والاجتهادات: ما كان مستحسناً ومطلوباً في أيام «عز» البنيوية (أي في الإصدار السابق)، أي تأكيد أن النص «ممارسة» (أي اشتغال النصوص المختلفة والمتباعدة في الكتابة النصية، كما كانت تقول جماعة «تل كل»)، ما

النص لا يعدو كونه ظاهرة «تضمنية» فى نهاية المطاف، لا يقوم على «ظاهر» نصي، وإنما على عمليات معقدة، فيها الصريح والضمنى فى آن، وتحقق منها فى النص نفسه، فى تراكيبه وصيغه.

يتم، إذن، توسعة هذا المفهوم، ويصل الأمر عند الباحث الفرنسى أريفى Arrivé، وهو مثل الباحث ريفاتير Riffaterre إلى تعيين مجال عمل هذا المفهوم، وهو «مكان التناص» intertexte، ويعينه الأول منهما على الشكل التالى:

إن مكان ظهور (هذه الوقائع النصية) ليس النص، بل مكان التناص، على أن هذا الأخير يفيد أو يعين مجموع النصوص التى تنشأ بينها علاقات تناص<sup>(١٤)</sup>.

يتألف «مكان التناص» إذن، من مواد عديدة تنشأ بينها علاقات تفاعل، على أننا لا نكتفى بدراسة، أو بتعيين هذا «المكان»، بل بتحديد سبيل تحليلى مناسب له يتحقق من عمليات «التنصيص» التى خضعت لها المواد المذكورة، أى ما نسميه بـ «الوقائع التناصية».

هذا ما ينتهى إليه غير باحث أوروبى، ولكن أليس هذا هو عينه الذى نتحدث عنه النقاد العرب القدامى فى باب «السرقات» - أو «التلاص» - حسب نحت المناصرة؟ فما «السرقات»؟

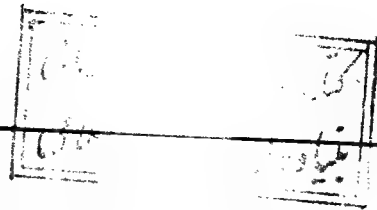
يقول الآمدى فى كتابه (الموازنة):

ووجدتهم فاضلوا بينهما (أى الطائى والبحتى) لغزارة شعريهما وكثرة جيدهما وبدائعهما، ولم يتفقوا على أيهما أشعر... ولست أحب أن أطلق القول بأيهما أشعر عندى؛ لتباين الناس فى العلم، واختلاف مذاهبهم فى الشعر، ولا أرى لأحد أن يفعل ذلك فيستهدف لدم أحد الفريقين...؛ لاختلاف آراء الناس فى الشعر، وتباين مذاهبهم فيه... أما أنا فلست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر، ولكنى أوازن بين قصيدتين من شعرهما إذا اتفقتا فى الوزن والقافية وإعراب القافية، وبين معنى ومعنى،

مؤخراً فى الدراسات الأدبية، وأنه يشتمل على مجالات عمل عديدة فى النص الأدبى، هى التالية: التذكرو أو الاستعادة، أو الاستعمال الصريح أو المقنع، الساخر أو الإيحائى للأصول واستعمال الشواهد<sup>(١١)</sup>.

ومن المعروف أن الباحث الفرنسى جيرار جينيت Gérard Genette تناول بدوره، فى كتابه (التطريسات)<sup>(١٢)</sup>، «التناص»، لكنه أدرجه فى تصنيف منهجى جديد للعلاقات النصية المفارقة، وقد أجملها فى خمسة أحوال: الاستشهاد والسرقة، علاقة النص بـ «عتبة النص» (العنوان، العناوين الفرعية، المقدمة، التمهيد، التنبيه وغيرها، مما يقع فى تقديم الكتاب)، والعلاقة القائمة بين النص والنص الذى يتحدث عنه، وعلاقات الاشتقاق بين النص والنص السابق عليه، والعلاقة بالأجناس الأدبية التى يفصح عنها النص. وهو فهم يؤدى إلى ربط النص بما يحيط به، وبما يسبقه ويحدده فى آن، وهو فى ذلك عمل «تربىي» له قيمته النظرية والإجرائية من دون شك، إلا أنه يبقى، فى مجال «التناص» المخصوص، رهين مفاهيم البلاغة وتعييناتها، مثل المحاكاة الساخرة والسرقة وغيرها.

أما الباحث فرنسوا راستيه François Rastier فيفيدنا أن التوسعة طاولت حمولات هذا المفهوم، باتجاه تعيين «إدراكى» له، ويجد ذلك مثلاً فى مباحث الدارسين الإيطاليين بوجراند Beaugrande ودريسلر Dressler، اللذين يضعان التعريف التالى لـ «التناص» فى العام ١٩٨٤: هو «الترابط بين إنتاج نص بعينه أو قبوله، وبين المعارف التى يملكها مشاركو التواصل عن نصوص أخرى»<sup>(١٣)</sup>. ونحن ننتبه إلى كون هذا التعيين الجديد يولى «التواصل» (مثل الكثير من الآراء اللسانية التى تخص الجانب التخاطبى بالاهتمام، على حساب المدونة، فى الدراسة اللسانية للنصوص) الأولوية فى تعيين هذا المفهوم، ما يعنى أن التناص لا يقع فى «النص نفسه»، وإنما فى عمليات التواصل الاجتماعى التى يتطلق منها ويعود إليها - أى التى تقع فى شروط إنتاجه، كما فى شروط تنقيه - فيما نجد التعيينات السابقة تحصره فى العمليات النصية «الداخلية» إذا جاز القول. ويخلص راستيه من مناقشة المفهوم إلى القول بأن



فأقول: أيهما أشعر في تلك القصيدة، وفي ذلك المعنى، ثم احكم أنت حيث على جملة ما لكل واحد منهما إذا أحطت علماً بالجيد والردى<sup>(١٥)</sup>.

يتجنب الأمدى، على ما نرى، عادات العرب القديمة<sup>(١٦)</sup>، في تعيين «الأشعر» بين عدة شعراء، أو البيت «الأجمل» في غرض بعينه، بأن يضع أصولاً له. «الموازنة» من دون أن يجنب إلى تمييز الشاعر، بل القصيدة، إلا أن هذا التوازي بين قصيدتين، وإن عني انتقالاً عما كان عليه مبدأ التفاضل السابق، يبقى ذوقياً واستسائياً، ولا يغيب، في هذه الحالة بالذات، كون الأمدى يستحسن شعر البحرى، على ما قال إحسان عباس:

ويؤثر طريقته ويعيل إليها، «ومن أجل ذلك جعلها «عمود الشعر» ونسبها إلى الأوائل وصرح بأنه من هذا الفريق دون موازنة<sup>(١٧)</sup>»

ما يعنينا في أمر هذه «الموازنات» عموماً، في سياق قولنا هذا، هو أنها لا تنفى بمرادنا، وتبقى بعيدة عما نعرفه في مجال العمليات «التناسية»، ذلك أنها تجعل سلفاً من «التفاضل» غايتها، ومن «التقابل» سبيلها إلى تبين حقيقة التبارى والتنافس، وإلى فرز «السبق» عن «السرقة»، وماذا عن «الأدب المقارن»؟ أليس سبيله المعروف هو سبيل «التناس»، ولكن بعبارات أخرى؟ ألا نستدل اسماً بآخر؟ ألا نستعوض تسمية سبيل منهجى - «الأدب المقارن» - بسبيل منهجى آخر - «التناس» - من دون أن نحدد طرائقه وإجرائياته بالضرورة؟

لا، خلافاً للظن، ذلك أن «التناس» لا «يقارن» بين نصوص عالجت موضوعات متشابهة، أو قامت فيما بينها علاقات تأثر وتأثير مثبتة. فنحن نعرف أن عمل «الأدب المقارن» ينتظم على أساس مقارنة بين نصين: بين نص سابق التحقق تاريخياً، بوصفه النص الأول والأصل وفاعل التأثير في غيره، من جهة، وبين نص لاحق تاريخياً على الأول، بوصفه النص الثانى والنسخة والحاض للتأثير بالتالى، من جهة ثانية. وهو انتظام يشه في ثنائيه أساس العلاقات في

الترجمة بين النص الذى تتم ترجمته (وهو الأول، والأصل، والمبتكر بالتالى)، وبين النص المترجم (وهو الملحق، والقابل لصياغات مختلفة، ما يعرضه بالتالى لحسابات وقواعد فى الأمانة). أما «التناس» فإنه يتجنب، بل يقلب تماماً هذا الأساس التفاضلى، اللازم فى أية عملية «مقارنة»، مطلوبة أو مستترة، إذ إنه يسقط مبدأ المقارنة نفسه، ويجعل من النص المطلوب دراسته بنية بذاتها، وإن تضمنت فى عناصرها وعلاقاتها ما يشدها إلى نصوص واقعة قبلها وخارجها، والمواد هذه تتحقق فى النص - أو يشير إليها تلميحاً أو تصريحاً - فى تراكيب نحوية ودلالية، هى «الوقائع التناسية». وهى وقائع تقوم فى تفاعلها وإنتاجها تبعاً لعلاقات مختلفة، قد تكون الاستعادة، أو التذكر، أو التلميح، أو إيراد الشواهد، أو التقليد، أو المحاكاة الساخرة وغيرها مما تقع عليه من فنون أدبية، متمممة أو عفوية، بفعل «الاختطاف» أو «التملك»، أو بمفاعيل «الذاكرة» الناشطة فى الكتابة. ولكن ماذا عن حال «التناس» فى الدراسات العربية؟ أما قام به بعض النقاد ولكن وفق تسميات منهجية أخرى، أو بأدوات أخرى؟

قلما انصرف الدارسون العرب إلى تبين ما يمكن مقارنته من نصوص أدبية عربية بنماذج مماثلة من نصوص الأدب العالمى، على الرغم من الدور الرهادى الذى قام به محمد غنيمى هلال فى هذا الميدان الدراسى، إذ انطلق من الأدب العربى وبحث عن تأثيره فى الآداب الأوروبية، وتتبع أيضاً تأثير الأدب العربى الحديث ببعض المذاهب الأوروبية الحديثة. وهو ما شرع به إحسان عباس فى الشعر العربى الحديث، فى كتابه عن الشاعر الراحل بدر شاكر السياب، وأبان فيه، وإن بشئ من التسرع، تأثير الشاعر العراقي بقصائد من الشعر الإنجليزى الحديث، ولاسيما مع إليوت<sup>(١٨)</sup>.

إن مراجعتنا لعدد من الكتابات الأدبية العربية، منذ «عصر النهضة» تحديداً، تدعونا إلى الوقوف أمام ظواهر التفاعل الثقافى المختلفة، وإلى التساؤل عن أسبابه وحقيقته، وهو تفاعل ما شهدته الكتابة العربية وفق هذه المقادير والأحوال فى تاريخها السابق: ما نقول عن أثر الرومانتيكية الإنجليزية على شعراء «جماعة الديوان»، أو أثر بودلير على شعر إلياس أبى شبكة؟ وأثر الرومانتيكية الفرنسية والإنجليزية

أهمية هذه الخصيصة النصية، ولكنها فضلت ترجمة المصطلح بـ «التناس» الذي أصبح شائع الاستعمال في الخطاب النقدي العربي ... ومن ثم فإن الطابع العفوي لترجمة «التناس» لا يسهم في إنتاج شبكة العلائق التي نستطيع بها الانتقال من وحدة إلى أخرى أو من جهاز مفاهيمي إلى غيره<sup>(٢٠)</sup>.

يشير بنيس في ملاحظته هذه إلى كتاب مفتاح المذكور أعلاه، وهو كتاب جعل من «التناس» علامة لعنوانه، على ما تبيننا، فما يعنى «التناس» - أو «التداخل النصي» - بينهما بعيداً عن الاجتهاد في أمر ترجمة المصطلح؟

يعتمد بنيس على خطة جيئيت في تناول النص الشعري، ولا سيما على مصطلحه في «النص الغائب» - أى الذى يتم استحضاره وتحويله فى الممارسة النصية - وتبين، أو يجعل القول فى عرضه هذا، على أن الشعر العربى الحديث بات متسماً بحضور لافت لـ «ثقافة موسوعية» هائلة من النصوص الغائبة. يقول بنيس:

بالنسبة للشعر المعاصر، فى الثقافة العربية، نلمس اتساع حقل التداخل النصي... ولكن اعتماد الشعر المعاصر نصوصاً من خارج الذخيرة الشعرية العربية، أو مما هو متداول فيها، يدلنا على أن عينة نصوص الشعر المعاصر مكثفة بنصوص غائبة قدمت من أمكنة ثقافية وحضارية متنوعة، يمكن من خلالها رصد ثقافة موسوعية أصبحت تميز الشعراء المعاصرين<sup>(٢١)</sup>.

ويعمد فى مسعى نقدي لافت فى النقد العربى إلى تبين حال «التداخل النصي» فى ثلاث قصائد معروفة للسياب («المسيح بعد الصلب») وأدونيس («هذا هو اسمي») ومحمود درويش («أحمد الزعرور»).

أما مسعى مفتاح فقد أتى بعرض مقنع ومتوسع ومتصل بغالب الاجتهادات والمقترحات، عارضاً لمختلف التعمينات الداخلة فى تعريف «التناس»، إلا أن مساعده بدا أقل

على شعر أى القاسم الشايب وغيرها من التأثيرات؟ وما نقول أيضاً عن تشابهات وتقاطعات فى مجالات أدبية أخرى، بين «بيجماليون» برنار شو وتوفيق الحكيم، أو فى الرواية الواقعية بين إسميل زولا ونجمب محفوظ، وفى مسرح العبث بين أوجين يونسكو وعصام محفوظ؟

يمكننا أن نعدد الأمثلة، وقد تناول النقد العربى الحديث بعضها بالدراسة والتحليل. فـ «التناس» مدرّوس فى بعض النقد العربى الحديث، فى عدد كبير من موادّه، ولكن فى عدد محدود للغاية من «وقائع»؛ ذلك أن الناقد يكتفى فى غالب الأحيان بتعيين أو عرض المواد - «المقارنة» أو التى تنشأ بينها علاقات تقابل - دون أن يمالى بالأشكال اللفظية والنحوية والدلالية التى تحققت بها هذه المواد فى النص المدرّوس، أى دراسة «الوقائع». وعلمنا فى هذا المجال أن نميز، بداية، بين السبيل التناسي وسبيلين فى «المقارنة»: بالإضافة إلى السبيل المقارن التقليدي (وهو دراسة التفاعل بين نصين قامت بينهما علاقات مؤكدة ومثبتة)، يمكننا الحديث، حالياً فى الدراسات، عن سبيل «مقارن» آخر لا يقوم بالمقارنة بل بالمقابلة: يقابل هذا السبيل بين نصين تقابلاً يبين لنا، على سبيل المثال، موقف أو نظرة هذا الشاعر، من هذه اللغة - والثقافة - إلى الموت، وموقف أو نظرة شاعر آخر، من لغة - وثقافة - أخرى، إلى الموضوع عينه، دون أن تكون بين الشاعرين أية علاقات تعارف أو تفاعل مؤكدة أو ممكنة. إلى هذين السبيلين عرف النقد العربى الحديث سبيل التناس، ونشير خصوصاً إلى محاولتين قام بهما الكاتبان المغربيان، محمد بنيس ومحمد مفتاح<sup>(١٩)</sup> فى السنوات الأخيرة.

يؤثر بنيس، منذ كتابه الأول، استعمال مصطلح «التداخل النصي» بدل «التناس»، ويعاود تأكيد تفضيله هذا فى كتابه الثانى، ويدافع عن كونه «أول» من تكلم فى النقد العربى عن هذا المنحى:

كان تناولنا لمفهوم «التداخل النصي» فى «ظاهرة الشعر المعاصر فى المغرب» جديداً على المتداول فى الخطاب النقدي العربى، وهو ترجمة لمصطلح l'intertextualité. وبعد هذا العمل ظهرت دراسات عربية فى المغرب أكدت



نفهم، على سبيل المثال، المنزع الأسطوري في الشعر الحديث - «المنزع التموزي»، كما جرت تسميته - خارج السياق الذي تعرف فيه الشعراء العرب المعنيون صنيع إليوت في هذا المجال تحديداً وحسراً؟ هذا ما يمكن أن نتبينه حتى في موضوعة متفرعة عن السياق هذا، مثل «الفراغ» الذي راح الشعراء يتبينونه في الحياة العربية على أساس «الخراب» الذي تحقق منه إليوت في الحضارة الغربية. هذا ما نتحقق منه في بعض «مفردات» و «حملات» الشعر العربي الحديث، كما يمكن لنا أن نتبينها في مسرد الألفاظ، ذات الحملات الفلسفية الأوروبية الناشئة، التي أخذ بها الشعراء العرب الحديثون، والتي أدرجها الشاعر كمال خير بك في كتابه عن (حركة الحدائث في الشعر العربي المعاصر)، أي ألفاظ «الشك» و «التساؤل» و «التمرد» و «الرفض» وغيرها؟ (٢٣) وماذا نقول عن أثر ناظم حكمت ولوى أراجون في شعر السياب وغيره، أو عن أثر نيرودا اللاحق على عدد من الشعراء الشيوعيين؟ وماذا عن أثر السورباليين، وقد بلغ الأمر ببعض شعراء العربية إلى التنافس على التركة وعلى الأمانة في حمل الرسالة؟

حتى لا ننساق في تعداد أمثلة متفرقة من «التنصص» في الكتابة العربية، لاسيما الشعرية منها، نجد ضرورة، في البداية، للوقوف أمام سؤال أساسي، هو التالي: ألا يكون لزماً علينا، قبل أن نتطرق إلى أحوال التنصص أو وقائعه في الشعر العربي الحديث - وغيره - أن نتناول بالتحليل مسألة ما إذا كان «التنصص» سبيلاً مستقلاً، قائماً بذاته، لدراسة النص الشعري، أم أنه مكمل لغيره (أي للدراسة اللسانية للنص الأدبي)؟

## ٢ - مصادر التنصص ومبادئه

إلا أن علينا، قبل الإجابة عن هذا السؤال، أن نعين حال الدراسة اللسانية رهناء، في نجاحاتها وانسداداتها، وإن في شكل تعرفي سريع ومختصر. يمكننا القول، بداية، إن الدراسة اللسانية باتت تدرس، اليوم، وقائع نصية تتعدى الجملة الواحدة في النص الواحد، بخلاف ما كان عليه الأمر في الأمس القريب، باحثة عن علاقات قائمة وممكنة في النص الواحد تجمع بين جملة كلها - كما في القصة القصيرة،

توفقاً في درسه أحوال «التنصص» في الشعر، كما نتحقق منها في مسمى بنيس. فقد توسع في عرض المسائل الداخلة في أمر «التنصص»، واتخذ من التعينات البلاغية القسط الأوفر من حملاته. إلى هذا فإن تعريفه «التنصص» يبقى متوزعاً بين «داخل» - هو النص المدروس - و«خارج» - «النص الغائب»، في تعيينات جينية - في قسمة بينة. لكنه يتوقف، إلى ذلك، في الحديث عن تنصص «ضروري»، وهو القائم في كل ثقافة - وهو ما تحدثنا عنه أعلاه بوصفه «التنصص اللازم» عند الباحث الإيطالي -، وآخر «اختياري»، وهو ما يطلبه الشاعر نفسه. كما أنه يقترح التمييز بين تنصص «داخلي»، وهو ما يصيب علاقة الشاعر بنتاجه السابق، وآخر «خارجي»، وهو ما يصيب النص في علاقته بحريطة الثقافة التي ينتمي إليها. أو يميز بين تنصص «اعتباطي»، وهو الذي يعتمد على ذاكرة الملقى، وبين تنصص «واحب» أي الذي «يوجه» الملقى نحو مظانه» (٢٢). ويتطرق الباحث مفتاح إلى مجالات عمل «التنصص»، باحثاً في «آلياته» في صورة لافتة، وإن بقت دراسته أسيرة التعينات البلاغية المعروفة.

محاولات بنيس ومفتاح لافتة، إذن، إلا أنها تبقى، رغم قراءتها الجديدة لنظريات «الموازنة» و «السروقات» عند النقاد العرب القدامى، محددة بما بلغته الدراسات الفرنسية خصوصاً في هذا المجال. كما تكتفي غالباً بلحظ وعرض مواد التنصص من دون وقائعه، كما نتحقق من ذلك، على سبيل المثال، في دراسة بنيس المذكورة لقصيدة «هذا هو اسمي» إذ يكتفي بإيراد ملخصات تعريفية لما تشتمل عليه المواد المضمونية في قصيدة أدونيس و«فصل في الجحيم» لرامبو، دون أن يحلل أو يدرس التحققات اللفظية والدلالية أبداً. كما نتحقق أيضاً من أن عودة مفتاح إلى التنصص لدرس قصيدة ابن عبيدون تبقى استثنائية، لا ضابط لها أبداً، ولا يقتضيها المنهج في صورة لازمة ومتسقة، إذا جاز القول. أي أن هاتين المحاولتين الرائدتين عربياً تفتقران إلى خطة إجرائية بينة، يتم الاعتماد عليها في العملية التحليلية.

سبيل «التنصص» لم يستثمر كفاية، ويتمتع في حسابنا بقابليات أداء واسعة. والعديد من المظاهر الأدبية وغيرها في الثقافة العربية المعاصرة قابل لدراسات تنصصية: كيف لنا أن



فى التحليل تقوى على دراسة المعنى قراءة متسقة، تربط الدلالات فى النص الواحد، من جهة، وتربطها بخارجها وبأوضاعها «الحوارية»، من جهة أخرى.

إن هذه التوجهات الجديدة تقودنا إلى تناول مسألة التناص تناولاً مريحاً أكثر مما كنا نظن؛ إذ إننا نتوصل، مع هذه التوجهات، إلى طرح مسألة التناص طرحاً مفيداً، يمكننا من الإجابة عن المشكلتين اللتين تواجهان أى تحليل تناصى، وهما: التناص بوصفه اتصالاً بخارجه، والتناص بوصفه اتصالاً ضمن النص الواحد. ولقد وجدنا الباحث راستييه يفسر بين «التناص الداخلى» intratexte ضمن النص الواحد، وبين التناص intertexte الاعتيادى، ويمكن تسميته بالخارجى، أى الذى يصل النص بنصوص أو مقتبسات من خارجه. ولقد توصل الباحث الفرنسى إلى تبين المشكلة التى أثارها أعلاه، وهى الإجابة عن كون التناص سبيلاً مستقلاً أم مكملًا، أى منضوياً فى غيره؛ إذ جعل الوظيفة التناصية الداخلية لازمة، بل منطلق التناص الخارجى. يقول راستييه:

الوظيفة التناصية الداخلية هى التى تعين الوظيفة التناصية الخارجية. إن لهذا التعيين محملاً عاماً: تنتسب الوظيفة التناصية الداخلية إلى نصاب المعنى (أى إلى مجموع العلاقات الناعمة لمضامين نص ما)، وتنتسب الوظيفة الناشئة بين أنظمة علامات مختلفة إلى نصاب التعيين.

خالصاً إلى القول: «إلا أن المعنى هو الذى يحدد التعيين»<sup>(٢٦)</sup>. وهو ما يمكن تلخيصه وتبسيطه بالقول التالى: إن توصل الدارس إلى معالجة التناص الداخلى، أى دراسة العلاقات بين المضامين المختلفة فى النص الواحد، يمكنه من دراسة اتصال هذا النص بالذات، أو تحده، بأنظمة علامات أخرى، قد تكون نصوصاً بدورها أو غير ذلك من أنظمة العلامات. وهو ما يقوله راستييه فى تعريف جلى:

قد نتوصل إلى برهنة كون النص مجموعة متتابعة من الإحالات، أو تلصيقاً من الشواهد، إلا أن ذلك لن يمكننا من فهم نصوصيته الخاصة، التى تجعله متميزاً عن جدول من

على سبيل المثال - أو بين جمل مختلفة فيه. مثل هذا المسعى دقيق، محفوف بالمخاطر والتسرعات، إلا أنه يسعى إلى تدبر أدوات تحليلية مناسبة لما يتحقق منه فى النصوص، وهو أنها تجمع علاقات فى البناء أو فى الدلالة قد تشمل القصيدة فى مجموع أبياتها أو فى عدد منها وحسب، ما يمكن أن نسميه بـ «كلياتية النص»، التى باتت داخلة فى حساب الدراسة اللسانية.

كما نتحقق فى الوقت عينه من تبلور طرق فى الدراسة اللسانية لا تكتفى بدراسة النص «فى ذاته»، وإنما بما يحيط به من خارجه. والخارج، هنا، يشير إلى ظروف النص فى صدوره عن «أنا - أو ذات - متكلمة» sujet parlant، أشبه برسالة، بإبلاغ، بخطاب موجه، أى أن دلالاته ومعناه متصل فى محمولاتها بـ «ظروف حوارية»، مشتركة بين المتكلم ومتلقيه المحتملين أو المرجوئين. «الظروف الحوارية» هذه تتضمن جداول من القضايا والأحوال المعيشة أو المأمولة، ومن الأفكار المتداولة - عند جهة ما أو جماعة - أو المبتثثة فى كلام الجماعة وقناعاتها السارية: هذا ما سعت إليه المحاولة «البراجماتية» pragmatique - أى الناظرة إلى اللغة فى جانبها الاستعمالى -<sup>(٢٤)</sup>، التى وجدت فى الطابع «التحادى» المنشئ لأى نص، وفى الطابع «التعليلى» الضابط للنص فيما يتعدى الجملة الواحدة، ما يفيدها فى مساهما التحليل. إلا أن احتمال النص على خطاب، أو على رسالة ما، لا يعنى أبداً فى حساب اللسانيين قيامه أو استناده إلى «رسالة مسبقة» أو مدبرة، وهو ما يوضحه راستييه فى قوله:

لا يمكننا اعتبار المعنى متضمناً فى النص مثل رسالة، وإنما مثل وضعية حوارية تشمل فيما تشمل مراسلاً ومتلقياً، مثل مجموعة من الشروط (قواعد، بما فيها نمط النص، وممارسة اجتماعية محددة)<sup>(٢٥)</sup>.

ذلك أن المساعى اللسانية فى دراسة النص الأدبى وضعت حدوداً، أو توقفت عن مساعيها السابقة، التى اكتفت بقراءة نحوية أو تركيبية للنصوص الأدبية (مثلما نتحقق من ذلك فى مساعى هاريس - Harris - أو شومسكى - Chomsky - وغيرهما)، طالبة وجهات أخرى

من الأحوال سبيلاً اختيارية - كجنوح الشاعر إلى التأثير الواعي بشئ من نتاج شاعر آخر -، أو وراثية - كتقيد الشاعر غير الواعي بالضرورة بحدود ثقافة وشعر توافرت له في إعدادة وتعليمه. هذا ما يمكن أن نتبينه في «الوقفه الطللية»، وهي أقوى المصادر القديمة، من دون شك، التي تقيدت بها صناعة الشعر العربي قديماً. وهذا ما يمكن أن نتحقق منه في العديد من الدعاوى الحزبية التي تنشط في كثير من الشعر العربي الحديث.

- المصادر «اللازمة»، وهي «الداخلية» في كلام مفتاح، وتشير إلى التنصص الواقع في نتاج الشاعر نفسه. ومن المساعي النقدية التي عالجت هذه المسألة، وإن في منظور غير تناصي، دراسة مالك المطلبى: (إنتاج ما أنتج: مقدمة نظرية ودراسة تطبيقية)، التي يتحقق فيها من أن قصيدتي السياب «غريب على الخليج» و «أنشودة المطر» تولفان «مقطعين في قصيدة واحدة» في الكل السيابي (٢٩). وفي العديد من الكتب والدراسات العربية، الخاصة بالتجربة الشعرية أو بموضوعات الشعر عند هذا الشاعر أو ذاك، تناولت مناسبة تفيد مثل هذا المسمى وتمكننا من الوقوف على الأشكال الشعرية أو القضايا التي شغلت الشاعر في غير قصيدة وديوان، حتى إنها تخترق نتاجه كله اختراقاً بيناً. كيف لا، وبعض الشعراء لا يتورعون عن كتابة «المنامخ» الشعرى نفسه، أو تنوعات عليه من تجربة إلى أخرى.

- المصادر «الطوعية» في حسابنا، وهي «الاختيارية» عند مفتاح، التي تشير إلى ما يطلبه الشاعر عمداً في نصوص مزمنة أو سابقة عليه، في ثقافته أو خارجها، وهي «المطلوبة لذاتها». وهي مصادر أساسية في الشعر العربي الحديث، بل نذهب إلى القول إننا لا نستطيع دراسة هذا الشعر من دون الوقوف عندها. وهي مصادر متعددة، تندرج فيها متون شعرية أجنبية وعربية في آن. هذا يصح في إقبال أعداد من الشعراء على محاكاة صنيع شعر سابقهم أو التأثير بصنيعهم المزامن لتجربتهم، مثل تأثيرات محمود درويش، في بداياته، بشعر عبد الوهاب البياتي ونزار قباني. وقد تكون المصادر الأجنبية فرنسية (لوتريامون، رامبوه، سان - جون بيرس، إيف بونفوا...)، وإنجليزية (إليوت، ستويل...)، وأمريكية (والث

الكلمات والجمل. باختصار، إن دراسة النصوصية - أي ما ينشئ نصاً ما - هي القدرة وحدها على تأسيس دراسة التنصص (٢٧).

التنصص، إذن، مكمل للدراسة اللسانية، أو جزء داخل فيها، إذا جاز القول، وهو غير ممكن دون المرور بالدراسة اللسانية، على أن تؤدي معالجة التنصص الواقع بين معطيات النص الواحد إلى ربطه بما يتحدد به من نصوص، «لازمة» أو «ضرورية» له، أو بما يطلبه منها في صورة اختيارية أو «طوعية»، أو بغيرها من العلامات الأدبية والثقافية والإيديولوجية وغيرها مما يشكل الظروف الحوارية المعينة له. ولكن كيف لنا أن نعين التنصص بوصفه سبيلاً إجرائياً بعد بوضوح صلتة وتفرعه عن السبيل اللساني نفسه؟

## ٢ - أ: المصادر التنصصية

لكننا لا نقوى على مباشرة السبيل اللساني قبل الوقوف على المصادر التي ينهل منها التنصص، وعلى المبادئ التي تجتمع فيها مواد المصادر هذه. ذلك أن التنصص يستمد مواد من مصادر متباينة، منها ما يتشكل كقوة أو عمداً في «الذاكرة» بفعل الدراسة والقراءة، أي في انخراط الشخص، الواعي واللاواعي، ومنها ما يتشكل بفعل معايشة «ظروف حوارية» معينة، ومنها ما يتشكل عند التخصيص نفسه - ويمكن تسميته: «التعميش» أيضاً - أي مما يطلبه الشاعر في صورة قصيدة واعية. ودراسة المصادر التنصصية دراسة ذات طابع نظري وترتيبي في آن، ولا تحصى الشعر وحده بالتالي، إلا أن لها فائدة بينة، وهي المساعدة على تعيين «مقاصد» التنصص، على ما سنوضح في فقرة لاحقة. وحصلنا إلى تعيين ثلاثة أنواع من المصادر التنصصية:

- المصادر «الضرورية»، كما أسماها مفتاح، وهي «اللازمة عند سيجريه، وعند راستيه أيضاً الذي يقول: «يوجد في كل فضاء (أو متحد) ثقافي انتظام متسق من العلاقات بين النصوص» (٢٨). وجرت تسميتها بـ «الضرورية» لأن التأثير فيها يكاد أن يكون طبعياً وتلقائياً، مفروضاً ومختاراً في آن، وهو ما نجده في كتابات بعض الكتاب العرب في صيغة «الذاكرة»، أي الموروث العام والشخصي، ويتخذ في العديد

الأحيان، ما يدعوننا إلى تبين أشد لطبيعة المواد. وهي تشتمل في المستوى الإيقاعي - النحوي على مواد متعددة ميزنا فيها «المنط»، ويشير في حسابنا إلى شكل ما - وربما مضمون ما ملاصق للشكل هذا - في ترتيب القصيدة، مثل منط «الهايكو» أو «القصيدة - اللقطة». وميزنا «التراكيب»، وتشير إلى أنواع معينة من الجمل، مثل الجمل «الحالية» التي تبدأ بالحال، أو الجمل الاسمية وغيرها. وميزنا «الصياغات»، وتشير إلى طريقة في شد الألفاظ بعضها إلى بعض، مثل تقديم الصفة على الموصوف وغيرها<sup>(٣١)</sup>. كما ميزنا في المستوى الدلالي «القضايا»، ونحدد قضية معينة، مثل الكثير من القصائد العربية الحديثة الموسومة بقضايا «الحرب الباردة»، أو بقضية القنبلة الذرية في هيروشيما، كما في قصيدة «هياي كونغاي كونغاي» لبدر شاعر السياب<sup>(٣٢)</sup>. وميزنا «الموضوعات»، مثل الغربة في المقهى، والوحدة في الشارع وبين الجموع وغيرها. وميزنا «المناخات»، وتعين في حسابنا أجواء شعرية، مثل الأجواء التشردية و«الصعلكة» والتمزق وغيرها.

ولقد وجدنا، إلى ذلك، ضرورة للوقوف عند مستوى ثالث، هو مسألة «الجنس الأدبي»، بل أن نفتتح بها دراسة الميادين، بعد أن تحققنا من كون هذه المسألة تاريخية أساساً، أي تتصل بدخول «أجناس» - أو أشكال - أدبية من أدب - أوروبي، في دراستنا - ما إلى الأدب العربي الحديث، إذ إننا لا نستوفي التناسق حقاً من دون تناول هذا المستوى التكويني في الشعر العربي الحديث.

## ٢ - ب - ١: في الجنس الأدبي

إن دراسة الأجناس والأشكال الأدبية لا تحظى بالعناية اللازمة التي تقتضيها مسألة إنشائها أو تأسيسها أو انتقالها من فضاء - أو متحد - ثقافي إلى آخر، على الرغم من أن دراستها قد تكشف عن نواقص، بل عن أغلاط فاحشة يقوم عليها تاريخ هذه الأجناس والأشكال والأنماط: فحجراً جينيت توصل في دراسة لافتة له<sup>(٣٣)</sup> عن الأجناس الأدبية الراجعة في أوروبا، والعائدة إلى الإغريق، بل إلى أرسطو، في حساب التاريخ الأدبي المتداول، وهي «الغنائية» و«الملحمية» و«الدرامية»، إلى برهنة أنها ترقى إلى القرن الثامن عشر ليس

وايثمان... وغيرها، عدا أن النص الواحد قد يشتمل على مواد من غير مصدر، وذلك في صور ضمنية وحاذقة أكثر فأكثر، ما يجعلها صعبة الالتقاط أو خافية في تضاعيف الكتابة الشعرية. وعلينا أن نشير في هذا السياق إلى أن انصراف هذا الشاعر أو ذاك إلى هذا المصدر أو ذاك قد لا تتوافر له شروط الاستقبال الصحيحة، بدليل أن عدداً من الشعراء العرب الحديثين اتصلوا بعدد من المصادر في صور ملتوية أو غير مباشرة: فإذا كان أنسي الحاج، أو شوقي أبوشقرا، يعرفان الفرنسية جيداً، أو جبرا إبراهيم جبرا وتوفيق صايغ الإنجليزية، حينما اتصلوا بما طلبوه من مصادر، فإن الأمر كان خلاف ذلك مع أدونيس (الذي اتصل بالفرنسية اتصالاً ضعيفاً في بداياته ما كان له أثره البين على ترجمته شعر سان - جون بيرس ووقوعه في أخطاء ناتجة عن عدم معرفته بالحمولات التاريخية والسياسية وغيرها للألفاظ الفرنسية)، أو مع السياب الذي اتصل بشعر أراجون في كتب إنجليزية، أو مع محمد الماغوط الذي عرف قصيدة النثر، منذ قصيدته «النبذ المر»، في العام ١٩٥٣ في مجلة «الأدب»، من ترجمات عربية لها.

## ٢ - ب: ميادين التناسق

بدا لنا مفيداً، بعد الوقوف على مصادر التناسق، دراسة الميادين التي تشتملها، ذلك أن التناسق يقع في مواد بعينها، على أنها تشتمل مستويات القصيدة كلها. فقد يعمل الشاعر على تقليد قصيدة ما، بحراً وقافية وموضوعاً على ما هو معروف في الشعر العربي القديم، وقد يلجأ إلى «أخذ» صورة شعرية ما، أو معنى ما، إلى غير ذلك من المواد التي تقع في هذا المستوى أو ذاك في القصيدة. لهذا لا يسعنا الحديث عن «ميادين التناسق» من دون الوقوف عند مستوى القصيدة، الإيقاعي - النحوي والدلالي، وهو ما بسطناه في عنوانين: في الأنماط والتراكيب والصياغات، وفي القضايا والموضوعات و«المناخات».

ولقد فضلنا استعمال هذه الألفاظ تحديداً، بدل ألفاظ أو مصطلحات أخرى معروفة في السبيل اللساني لدراسة النص الشعري<sup>(٣٤)</sup>، جاعلين من ميادين التناسق مواد متفرقة، ذلك أن استحضارها في النصوص ليس نسقياً، ولا متسقاً في غالب

الشعري الجديد في حياة الشعر العربي، وشرح وسائله وتقنياته المخصوصة.

لا يسعنا في هذه الدراسة التوسع في مسألة الأجناس الشعرية الجديدة، لأنها تتطلب عرضاً وتعمقاً في التناول، فيما يقصر غرضنا عن ذلك، مكتفين بتناول ميادين التناص في صورة تلمسية أولى. لكننا سنسعى، طمعاً بتبيين أوفى لما نريد أن نتناوله، إلى عرض مسألة وحسب تبين لنا جانباً من العملية التناصية في شأن الجنس الشعري، وهو جانب «وحدة القصيدة». فالشاعر العربي الحديث لم يأخذ بأجناس شعرية ما ألفها في الشعر فقط، وإنما أخذ أيضاً بطرق في بناء القصيدة. وهو مما نتحقق منه، بداية، في تجربة الشاعر خليل مطران (١٨٧٢ - ١٩٤٩)، الذي يعتبر في حسابنا النقدي، وفي اعتراف غير ناقد وجماعة شعرية، مثل «جماعة أبوللو»، الشاعر الذي انتقل من «البيت المفرد» إلى «جملة القصيدة في تركيبها وترتيبها». فهو يفيدنا في «المجلة المصرية» (٣٧)، أنه اطلع في «المجلة البيضاء» الفرنسية على قصائد ترتبط فيها الأبيات والمعاني «بعضها ببعض في القصيدة كلها قصداً إلى غاية واحدة، بخلاف ما عليه منظوماتنا القديمة والحديثة إلا ما يحاول صاحب هذه المجلة أن يحدثه من الطريقة الخارجة عن المألوف». غير شاعر، مثل مطران، ولا سيما في فترة ما بين الحربين، جعلوا من الاطلاع على الشعر الأوربي، أو من ترجمته، غرضاً مخصصاً للشعر العربي نفسه. فأبو شادي جعل، على سبيل المثال، من ترجمة الشعر الأجنبي «تطعيماً» للأدب العربي بأدب هذه الأمم (٣٨)، كما يفيدنا إبراهيم ناجي، في حديثه عن «جماعة أبوللو»، أن اتصالهم بالأدب العالمي، ومتابعتهم للتيارات الفكرية الجديدة، ومطالعنا المتعددة، جذدت طريقة نظرهم إلى الشعر العربي (٣٩).

يتحدث مطران عن الشعر الفرنسي، ولكن هل تعود نظرية «الوحدة العضوية» إلى المتن الفرنسي أم إلى المتن الإنجليزي، مع الناقد كولريدج تحديداً؟ وإذا عاد هذا المفهوم لكولريدج فعلاً، واطلع عليه مطران في نصوص فرنسية، فإلى أين نتجه في عملية تتبع الوقائع التناصية، وكيف نعامل بالتالي هذه النصوص الفرنسية بالنسبة إلى النصوص الإنجليزية «الأصلية»، إذا جاز القول؟

إلا. فما يمكننا القول عن الأجناس الشعرية في الكتابة العربية؟

لا يسعنا في نطاق هذه الدراسة تناول مسألة تأسيس الأجناس أو الأشكال أو الأنماط في الشعر العربي، على الرغم من قيمتها التاريخية والنقدية (٣٤)، مكتفين، في هذه الدراسة، بدراستها فقط في إطار التفاعل الثقافي منذ «عصر النهضة»، وفق أشكال مختلفة من التناص، خصوصاً في صيغه التشوفية. هذا يصح في إقبال كتاب على اعتماد فنون غير معروفة في العربية، مثل الرواية والقصة والمسرحية وغيرها من أنماط شعرية بعينها، بعد خروج الشعر العربي من أنواع وأغراضه التقليدية المعروفة. ويمكن الإشارة إلى الأنواع المعتمدة التالية: القصيدة الحكيمية على ألسنة الحيوانات، القصيدة التمثيلية، الملحمة، القصيدة - الحكاية، القصيدة الأسطورية، قصيدة النثر.

يمكننا أن نتوقف أمام هذه الأجناس الشعرية جنساً جنساً، ملاحظين إقبال أعداد من الشعراء عليها، فنرى انصراف أحمد شوقي إلى القصائد الحكيمية، و«جماعة أبوللو» إلى الشعر الرمزي والقصصي و«الأوبرات»، وشفيق المفلوف إلى الملحمة، وإلياس أبي شبكة وسعيد عقل وخليل مطران وعلي محمود طه وغيرهم الكثير إلى المطولات الشعرية ذات الأساس الحكائي - الأسطوري (٣٥). إلا أن هذه الأجناس تحديداً ما لبثت أن سقطت من الاستعمال تماماً، ما يشير إلى أن إقبال الشعراء عليها ما وراه، على ما يبدو، إقبال واستحسان ماثلان. وهو ما يدعونا إلى التساؤل: ألا يعكس «التسرع» في التخلي اللاحق، وإن في صورة معكوسة، «التسرع» في طلب اللحاق السابق؟

لكننا نستطيع، إذا شئنا، الوقوف طويلاً أمام نجاح أكيد حققه جنس شعري آخر، «قصيدة الشر»، الذي بات له مريدوه أينما كان في عالم العربية. ويمكن القول إن النزاع المستمر حول «وجوده» في الشعر العربي الحديث يبلغ، وإن في صورة غير وافية، عن عملية «دخوله» الناشئة. والعودة إلى بعض كتابات أدونيس الأولى، وإلى مقدمة ديوان (لن) للشاعر اللبناني أنسي الحاج (١٩٦٠)، تبين لنا كيف أن الشاعرين عادا إلى الكتاب عينه (٣٦)، للتعريف بهذا الجنس



تميل إلى نمو الفكرة وتطويرها في صورة متعادية ومتراكمة أشبه ببناء معماري، فيما لا تتسم القصيدة ذات النهج الفرنسي بمثل هذا البناء التراكمي، أشبه بمقطع واحد دون نمو داخلي وتدرجي. كما يوضح لنا السياب أيضاً أن «التأثر» شأن طبيعي في حركتهم التجديدية بل شأن يتم التشوف إليه، أي إلى الشعر «العظيم»، كما يسميه. وما لا يوضحه السياب في رده - وإن هو متعارف عليه بين جماعة «شعر» - فهو التعويل الشديد على نمط إليوت، تحديداً في الجمع بين الماضي الأسطوري والحاضر، وهو ما يقوله، في ردة فعله، الناقد منير بشور: «الماضي مهما كان يبقى ردة إلى الوراثة... إن بعض شعوري هذا هو ردة فعل لا تجاهلك الشعري في السنوات الأخيرة». وهو ما يثبت الناقد حلیم بركات في الإشارة إلى عدد معين من القصائد التي انتهى أدونيس إلى كتابتها، وهي القصائد التالية كما يذكرها بركات: «وحده اليأس»، «البعث والرماد»، «سبعة أيام في حياة منبوذ» و «الفراغ» وغيرها. ويبلغ الأمر عند جبرا إبراهيم جبرا حدود النقد الملطف، إذ يشير إلى أن أدونيس «أنقلها (القصيدة) بالرموز أكثر مما يحق للأذن أن تحتل ولكن لم لا؟». أما الناقد أسعد رزوق فيلثفت إلى واقعة أخرى في التناسخ هذا، وهو تعويل أدونيس على قصيدة الشر (الفرنسية)، أي إلى هذا النوع من الشعر الذي «يختزن طاقات هائلة لو أتيج للشاعر أن يضمه الكثير ويخلق منه الجديد».

إن ملاحظات النقد والشعراء هذه تتطلب، على ما نلاحظ، جهداً أكيداً في فك معلماتها، فكيف بمضموماتها! كما نستدعي سبلا في البحث باتت تشتت عملها عمليات التناسخ الحاذقة والمتعددة، كما نتحقق من وجودها في الشعر الحديث أكثر منها في الشعر السابق عليه.

## ٢- ب - ٢: في القضايا والموضوعات والمناخات:

نسوق مثلاً واحداً في دراستنا هذه، وهو الوقوف على واحدة من القضايا التي تشغل الحدائق الشعرية، بين ما انتهت إليه في فرنسا على سبيل المثال، وفي بلادنا، في الوقت عينه، وهي قضية «الحساسية الفردية» في النص الأدبي. فنحن لو راجعنا عدداً من الأدبيات عن الحدائق العربية لما وجدنا تنافراً

إن تتبع هذه الوقائع التناسخية ممكن ربما، إلا أن التحقق منها صعب من دون شك، وتحول دونه أمور واقعة في المواد نفسها (مدى حصولنا على مواد موثقة عن الفترة المدروسة وعن أسباب الاتصال فيها)، وفي المنهج كذلك، أي في الكيفية الإجرائية للتناسخ. نفع في كتابات ما بين الحربين - وقبلها أيضاً - على مواد عدة تفيدنا في عملية التتبع هذه، بخلاف ما هو عليه الحال في كتابات ما بعد الحرب العالمية الثانية، ولا سيما مع انطلاق «الشعر الحر». إلا أن قراءة بعض المجلات الأدبية، وبعض زواياها، مثل «قرأت العدد الماضي من (مجلة) الآداب» و «بريد الشعر» ومتابعات «خميس شعر» في مجلة «شعر» توفر لنا بعض المواد، بل المعلومات المثيرة لها. هذا ما يصيب إحدى قصائد أدونيس، «مرثية القرن الأول»، المنشورة في العدد الرابع عشر من مجلة «شعر»، إذ إن «بريد الشعر» في العدد اللاحق من المجلة يعرض مدونة مفيدة لدراستنا، تشتغل على ردود فعل شعراء ونقاد عرب معروفين على القصيدة المذكورة، وهي ردود تناول في مضامينها معالم «التناسخ» البادية في القصيدة، ومنها اعتمادها نمطاً يعينه من الشعر الفرنسي.

يقول السياب:

كانت قصيدتك رائعة بما احتوت من صور، لا أكثر... أين هذه القصيدة من «البعث والرماد» تلك القصيدة العظيمة التي ترى فيها الفكرة وهي تنمو وتتطور، والتي لا تستطيع أن تحذف منها مقطعاً دون أن تفقد القصيدة معناها، أما قصيدتك الأخيرة، فلو لم يبق منها سوى مقطع واحد، لما أحسست بنقص فيها. ليس هنالك من نمو للمعنى وتطور له. مازلت، أيها الصديق، متأثراً بالشعر الفرنسي أكثر من تأثرك بالشعر الإنجليزي الحديث، هذا الشعر العظيم - شعر إليوت وستويل ودلن توماس وأودن وسواهم (٤٠).

يميز السياب بوضوح، وإن دون توسعة وتبيان، بين «تأثر» وآخر، بين الفرنسي والإنجليزي في بناء القصيدة، مشدداً على كون القصيدة ذات النهج الإنجليزي في البناء



القول، ولن نخط بحمولاتها الفرنسية المذكورة، بل بغيرها. إن مسار هذه الفكرة أدى في التجربة الشعرية الفرنسية، على ما أبانتها غير دراسة، مثل كتاب جوليا كريستيفا المذكور أعلاه، أدى إلى جعل «الأنا - الذات - المتكلمة» في النص الأدبي - لا «الشاعر»، كما يسارع البعض إلى القول - ذاتاً «منفصمة»، أو إلى جعل القصيدة مجالا تشتغل فيه نزوعات مختلفة ومتضاربة متعايشة في آن، وتنفض بالتالي ما سبق أن قاله النقد التقليدي عن الشعر. فالتجارب الحديثة هذه أدت إلى تبديل نظرنا التقليدي إلى الشعر التي كانت تجعله «إلهاماً» أو صنعة خارقة، لا يدركها ولا يكابدها إلا نخبة منتخبة من المميزين الخارقين، والتي كانت تجعله أيضاً نتاجاً كثيفاً يعبر مثلما يصدر عن «ذات» متمحورة على نفسها، لها ما تقوله لغيرها، بوصفها مصدر قول مبرم. فغير شاعر مثل رامبو انتهى إلى القول مثله: «أنا (هو) آخر»، أى إلى التعبير عن الأحوال المتناقضة والمتغيرة لنفس إنسانية «متصدعة» - أو «فصامية»، كما يقال في علم النفس - لا متماسكة بالتالي. هل نجد الحال عينها في النصوص العربية؟

راجت طبعاً في الأدبيات النقدية العربية، منذ منتصف الخمسينيات، أقوال وتأكيدات نقدية ذهبت إلى إعلاء قيمة «الرؤيا»، بل إلى جعلها الشبكة الدلالية والمفهومية التي يصدر عنها الشاعر. مثلما نتحقق أيضاً في عدد من القصائد العربية الحديثة من وجود هذه «الحساسية الفردية»، التي قلبت معادلة العلاقة بين الشاعر والخارج: فما عاد الشاعر يتتبع المعاني في الخارج، ولا «في الشارع»، كما قال الجاحظ، وإنما جعل العالم مثل عالم صغير في عالم كبير هو الشاعر. فكم من شاعر عربي حديث بات يعين الأشياء في قصائده على أنها تصدر عنه، وأنه هو الذي يسميها، وهو ما يمكن أن نجمله ونرمز إليه في أحد أبيات أدونيس، حيث يقول: «وطنى في لاجئ».

إن صدور هذه الحساسية الفردية في النصوص الحديثة العربية أدى بطبيعة الحال إلى إنتاج شعر خرج عن أغراض الشعر المعروفة، وفتح بالتالي قنوات أوسع وأصرح بين الحياة والشعر، وهو ما افتقدناه طويلاً في تاريخ الشعر العربي. والشعر العربي الحديث يحمل في العديد من قصائده تعبيرات معيشة

أو تغايراً بين ما هي عليه وما شرعت به الحداثة في فرنسا مع بودلير ورامبو ومالارميه. كما لو أن السياب أو أدونيس وغيرهما نهلوا من ينبوع نفسه، أو اتخذوا الوجهة النصية ذاتها، فيما يبدو لنا أن الأمر يتطلب أكثر من وقفة نقدية فاحصة. فنحن نقع هنا أو هناك على دراسات جامعية أو نقدية تقيم التقارب والتشابه بين ما قاله بودلير في تعيينات الحداثة وما قاله أدونيس، على سبيل المثال، ولكن دون أن نتحقق تماماً من حقيقة التقارب والتشابه. فيغفل الناقدون عن حقيقة التفاعل الثقافي التي تقع في أساس هذا التقارب، وهي أن الشاعر العربي «أخذ» عن الشاعر الفرنسي بعض أفكاره، وهو أمر معروف في صلات المدعين والشعوب، على أنه مجال درس وتحقيق، لا إنكار وتمويه، كما هو عليه في ثقافتنا. فكم من الدراسات لا يعاب، أو لا يتحقق من الشروط التي تمت فيها «عمليات الدخول» هذه، كما لا يتوقف أمام الصياغات المختلفة التي انتهت إليها عمليات الأخذ في السياقات المحلية. فلو أثرنا، كما سبق القول، مسألة «الحساسية الفردية» في النص الأدبي، لوحدنا أنها أحد مجالات الالتباس والتمويه والبلبلية المعيزة

فنحن نعرف أن المنزع الرومانتيكي، قبل بودلير، عمل على إعلاء، بل على إلهاء «الحساسية الفردية» الشأن الأول في النص الأدبي، ولا سيما الشعرى منه: القصيدة تعبير مخصوص، هو مجال تحقق واشتغال لتناول فردى للعالم، وهو ما جرى التعبير عنه في صياغة أولى في مفهوم «الرؤيا». فالشاعر لا يولي الجمال المتحقق في الضمعة، ولا يجعله، كما في المثال الكلاسيكي، مرجعية الجمال، بل يتجه وجهة أخرى ترى التخجيل، والتناول المبكر، بل الحر والغريب أحياناً، ملكة أو قوة في إنتاج الحميل الكلامي. وهو ما لا نلبث أن نراه متحققاً في التصوير بعد الشعر؛ إذ يجتنب الفنان النموذج الطبقي المقترح والصياغات المثالية للواقع، ساعياً وراء جمالية قوامها الصورة الإحساسية التي يثيرها الواقع والطبيعة في نفس الشاعر.

لسنا في مجال عرض، ولا نقاش، هذه الفكرة الميسرة عن «الحساسية الفردية» في الحداثة الفرنسية؛ ما يعيننا قوله هو أن هذه الفكرة لن تنزل في منازلها العربية، إذا جاز

- ولكن دون أن تنقطع أبداً عن القضايا الجمعية، وعن هذه العلاقة الآمرة للأشياء والمعاني، ولو أنها تقوم في هذه القصيدة على إعلان استنكاف عن ممارسة هذه الآمرة.

ما نريد قوله هو أن حدثاتنا الشعرية، على الرغم من أخذها المتحادي والمستمر لموضوعات ومفاهيم وطرق أسلوبية في الصياغة والتركيب عن الحداثات المختلفة في العالم، فإن أخذها هذا، أو إزالتها هذه المواد والتأثرات يبقى موسوماً بتلاوين محلية لا تقرها تماماً من المثال الشعري الذي تتأثر به وتروج على أنها من معينه: فالحداثات الشعرية العربية لاتزال في العديد من تجاربها بعيدة كل البعد عن مقتضيات الحساسية الفردية في التعبير، وهي مقتضيات تصل بالشاعر إلى قول متردد، متعثر، متقلب بين أحواله، لا إلى قول مبرم، فاصل، ينتهي بأحدهم إلى وصف اسمه بأنه «لغم الحضارة»!

## ٢ - ب - ٣: في الأنماط والتركيب والصياغات

يمكننا أن نتناول في هذا الميدان شؤوناً عديدة متصلة بشكل القصيدة ونمطها البنائي وطرقها الصياغية والتركيبية، بعد أن تحققنا من تأثير الشعر العربي الحديث بها، بمقادير مختلفة. ويمكننا - في هذا السياق - أن نشير إلى عدد من الأنماط الراجحة في التجارب الشعرية الجديدة، مثل: القصيدة - اللحظة، أو القصيدة - المفارقة، أو القصيدة القصصية، أو الدعابة السوداء، أو القصيدة اليومية، وهي مأخوذة في أصولها من تجارب شعرية أجنبية. وهذا ما نستطيع قوله حتى في مجالات تركيبية ضيقة مثل التأثيرات القوية الناتجة عن التعرف على فنون التركيب في التجارب السورالية<sup>(٤٢)</sup> وغيرها، من «الكتابة الآلية»، إلى «الصدفة الموضوعية» وإنتاج الصور الغريبة والصادمة، إلى قلب علاقات الإسناد، أو تبديد صلة الشبه بين المشبه والمشبّه به، أو تقديم الصفة على الموصوف به في علاقات التقديم والتأخير وغيرها الكثير مما نلقاه في تضاعيف الكتابة الشعرية العربية الحديثة، حتى إنها باتت «متبينة» في صورة لافتة، ما يعيق عمليات تعرفها. وإذا كنا نشير، في هذه الأمثلة، إلى أطوار سابقة في «التناص»، بينة وجليّة، فإننا نجد صعوبة راهنة في تتبع آثار شعراء متفرقين، مثل ريتسوس اليوناني<sup>(٤٣)</sup> ودي بوشيه الفرنسي ونيرودا التشيلي ولوركا الإسباني وشعر «الهايكو» الياباني وغيرهم.

وأحوال مزاجية وتلاوين فردية ومدونات حميمية - أو «مهموسة»، مثلما قال مندور في الثلاثينيات -، وهو ما نلتزمه خصوصاً في الشعر الغنائي. إلا أن تحويل القصيدة إلى مدونة شخصية جعل منها تعبيراً عن رقة النفس الإنسانية وتصدعها في غالبها، كما كان لها أن تصير في فرنسا على سبيل المثال. فلقد أتى خروج الشاعر من الأغراض المعروفة ومن دوره التقليدي - الشاعر متكسباً أو في خدمة الجماعة - مثل «ثورة» فعلاً، لكن غرضها انتهى إلى أن يكون استلاماً للسلطة - الرزمة طبعاً - لا تغييراً لموضوعات التعبير ولكيفيته. فالشاعر الحديث قاتل الحق، أو «متنبه»، قبل أن يكون ذاتاً وموضوعاً عن هشاشة الشرط الإنساني وصعوبته. فهو شاعر يقول ما هو «حق»، في الوطن والسياسة والتاريخ والعالم، وما هو جدير بالتمثيل والتطلع إليه. هو شاعر موجه، مرشد، على أن تعبيراته أو إعلاناته في شعره طموح إلى أداء دور عام، إلى احتلال موقع، إلى مصادرة رمزية للتسمية والتعيين في المجتمع.

فنحن قلما نلتقي بشاعر عربي حديث في غرفته المغلقة، مثلما قال أحدهم ذات يوم، وهو «يتبصر في المخلوقات»، أو ينظر إلى مرآة، هي الورقة البيضاء، ذلك أننا نجد شاعرنا، حتى لو كان شاباً وشديد الحدّة - كما يدعى أو يتطلع هذا وذاك - واقفاً دوماً على منصة عالية، تصدر منها أقواله، وهي منصة القول الجمعي بالضرورة، وإن أتت في قوالب فردية. يقول الشاعر محمد الماغوط في قصيدة بعنوان «بعد تفكير طويل»:

قولوا لوطنى الصغير، والجراح كالنمر

إننى أرفع سبابتى كتلميذ

طالباً الموت أو الرحيل

ولكن،

لى بذمته بضعة أناشيد عتيقة

من أيام الطفولة

وأريدها الآن<sup>(٤٤)</sup>.

وفي قصيدته هذه صورة عن هذه العلاقة التي تبدو فردية - وهي كذلك - وانفصالية أو معارضة - وهي كذلك

## ٣ - التنصص: السيل الإجراني

علينا أن نوضح، بداية، تعبيراً اعتمدناه دون أن نوضح المراد منه واستعماله، وهو «الوقائع التنصصية»: يفيد هذا المصطلح في تحليلنا المواد اللغوية الظاهرة أو المخفية بها في النص، والتي تحيل إلى مواد أخرى، في نصوص أو معطيات حوارية خارجية. والفارق بين نوعي المواد، هو أن المواد الأولى هي منطلق الدراسة والتحليل، وتدرس على أساس لسانی، أي وفق بنائها اللفظي، أما المواد الثانية فهي التي تحيل إليها الدراسة أو تستعدها، وقد تدرس وفق أساس لسانی فيما لو اتخذت عملية التنصص شكلاً اقتصاصياً، أميناً أو محوراً، وقد تدرس كمادة «خام»، أي مادة مطروحة في معناها الأدبي والتقريبي، وتكون قابلة وفق هذه الصيغة إلى «قراءات» متعددة، منها القراءة التي انتهت إليها في النص المدروس.

## ٣ - أ: أشكال التنصص

إلا أن تعيين هذه «الوقائع» لا يكفينا أبداً عباء البحث عن الصيغ والأحوال والعمليات، أي عن الأشكال التي تصيب التنصص، ذلك أنها عديدة، لا تحصرها الأقوال البلاغية القديمة عن «التضمين» أو «الإحالات» في لغة النقد السارية. وبدا لنا أننا نحتاج إلى مفاهيم تقودنا في العملية هذه، وهي تدور، على ما نراها في كتابات عدد من النقاد، حول مفهوم «الاحتياز». كما نتحققنا في كتابات كريستينا ورولان بارت أيضاً، وإن في نطاق آخر.

يقول رولان بارت في معرض دراسته الشهيرة عن الأساطير: «إن الطابع الأساسي للمفهوم الأسطوري هو أنه قابل للاحتياز»<sup>(٤٤)</sup>. أي يدرس الجانب «الملكي» الذي تقوم عليه أي أسطورة في تنقلها بين الجماعات والشعوب، وهو تملك نتحقق منه في غير نطاق لسانی، مثل «الأدب الشفوي» (الحكايات الساحرة، الأمثال وغيرها)، ويمكن لنا أن نتحقق منه في التنصص الأدبي أيضاً. ذلك أن التنصص، في جميع أحواله، احتياز لنصوص - أو لأجزاء من نصوص - بفعل الإرادة نفسه، أي استحصار المواد السابقة في النص الذي يتم إعدادده، وأياً كان شكل الإرادة هذا (إيراد تام أو

مجزوء، أمين أو محور). هكذا تحدث النقد البلاغي العربي القديم عن «التضمين» أو عن «النقائص» أو عن «المعارضات» وغيرها. إلا أن المفاهيم البلاغية لا تكفي لمعالجة أحوال التفاعل بين النصوص، ولا سيما الحديثة منها. وهو ما نتحقق في دراسات لسانیة نظرت إلى القول اللسانی على أنه «فعل حواری»، مثل باخثين، بل يؤدي أيضاً إلى «فعل ما»، مثلما يقول اللسانی أوستن Austin في حديثه عن الأقوال اللسانیة المؤدية إلى أفعال ما، مثل أفعال «أعد ب...»، أو «أقر ب...»، أو «أمر ب...» وغيرها. فهي أقوال تستدعي من الملتقي، أو تفرض عليه شروطاً، ما يجعل القول اللسانی فعلاً ما، دون النظر إلى محتواه وحسب وإنما إلى بنيته التي تستدعي علاقة ما. فطرح السؤال يتطلب من الملتقي جواباً ما أو امتناعاً عنه، وهو ما تسميه كريستينا بـ «اقتصاد الحوار». وبنية الاستعمال اللسانی هي التي توفر اقتصاد الحوار هذا، وتتضمن وظيفتين أساسيتين: «الوظيفة القضائية»، والتي تجعلها كريستينا في جملة نموذجية هي التالية: «أفرض شروطاً وعلماً للخطاب»، و«الوظيفة التملكية»، والتي تمثل عليها بهذه الجملة: «أقر بما تقوله أو أرفضه، لكنني أملكه واستحوذ على في آن»<sup>(٤٥)</sup>. أي أن كريستينا، في دراستها لنصوص النصف الثاني من القرن التاسع عشر الفرنسي (لوتريامون مالارميه...)، تنظر إلى النص «الحديث» على أنه نص يسعى إلى «تملك» الوظيفة «القضائية» المفروضة عليه وإلى تحويلها.

المسألة «حيازة» إذن، على أن لها «آليات» مختلفة، كما يقول مفتاح. جرى الكلام كثيراً عن «التمطيط» (أي الانطلاق من معنى ما، أو من عبارة، والنسج على منوالها، أو تفريعها أو تطويرها)، أو «التركيز» و «الاختصار» (أي الانطلاق من مواد ما والتخفيف من حمولاتها، وضغطها وتكثيفها) وغيرها من العمليات التي تصيب عمليات التنصيص، أي «التنصص». والأشكال هذه مختلفة، قد تقوم على استعادة وحسب، لجملة أو لعبارة دون تبديل، في مسعى اقتباسي، تضميني بين، وهو ما نتحقق منه في عدد من أشعار أدونيس: يقول النفری في «موقف نور»:

أوقفتى فى نور وقال لى:

يا نور انقبض وانبسط وانطو وانتشر فانقبض  
وانبسط وانتشر وخفى وظهر<sup>(٤٦)</sup>.

ويقول أدونيس فى «تحولات العاشق»:

وقلت

أيها الجسد انقبض وانبسط واطهر واخفف

فانقبض وانبسط وظهر واخفى<sup>(٤٧)</sup>.

يورد أدونيس نص النفرى ناقلاً له، محولاً ركيزة المعنى من «النور» إلى «الجسد»، ومحولاً القائل من الله إلى أنا العاشق المتكلمة. نكتفى بهذه الإشارة، ذلك أن عدداً من الدارسين العرب توقف عند عمليات «التملك» التى تصيب كتابات المتصوفة فى شعر أدونيس، والتى تبلغ فى حساب أحد النقاد حدود «انتحالها»<sup>(٤٨)</sup>.

إلا أن هناك شعراء ينحون وجهة مختلفة فى التنصيص، وتقوم على «اختطاف» الجمل وتخويرها، بل على قلب معانيها قلباً يبدلها فى صورة نقضية لها. ففى شعر أنسى الحاج تتحقق من وجود مصدر لغوى، هو النسق الدينى المسيحى، وهى لغة التوراة والأنجيل والقداس والصلوات الكنسية وغيرها، ويمارس عليها الحاج فعلاً نقضياً، يشبه عمليات تحويل اللغة عن جريانها واستعمالاتها المعهودة. وهى العمليات المعروفة خصوصاً عند الشاعر لوتريامون تحت اسم détournement وعند السورباليين لاحقاً: يستعير الحاج جملاً دينية معروفة ثم يقلبها تماماً عن أغراضها، قلباً يذكر بأصولها ولكن فى صور عابثة وطريقة نقدية ولاهية: فالجملة الشهيرة فى ترتيلة عيد الميلاد: «المجد لله فى العلى وعلى الدنيا السلام...» تتحول فى شعره إلى العبارة التالية: «فعلى القبر السلام وفى القهر المسرة»<sup>(٤٩)</sup>. كما يستعيد فى صورة أخرى، هى التالية:

وتجىء العصور

ومجد العصور

وفى الناس الرعشة<sup>(٥٠)</sup>.

ويحول قصة السيد المسيح وتلميذه بطرس (الذى ينكر المسيح ثلاث مرات قبل صياح الديك) قلباً ساخراً فى هذه الجملة: «يسوع، ديكك لا يصيح»<sup>(٥١)</sup>، وهو ما يصيب البعازر أيضاً. ولا يتورع فى مواضع أخرى فى شعره عن استعادة العبارة التى طالما ردها المسيح على رسله، وهى التالية: «الحق الحق أقول لكم...»، لأداء حالات غير دينية أبداً.

يدل أنسى الحاج العبارات والصيغ الدينية ويقلبها، وهو ما يوضحه صراحة فى أحد الأبيات: «احتجزها وارو لها» حينما يسوع قال: «أجل لا تسل كم أرّوع كم أبدل! أحبوا بعضكم»، على كففك تحت إبطك تذكر، «بعضنا...»، أى أنا!،<sup>(٥٢)</sup>. الشاعر «يروع» العبارات، «ويدلها»، وفى ذلك ما يجلب له «لذة نصية»، إذا جاز القول. وهذه الظواهر وغيرها قد تنتج عن سليقة، أى غير واعية، أو عن تدبير محكم ومطلوب، وهو ما يتضح بجلاء فى التركيب وفنونه فى لغة أنسى الحاج الشعرية.

### ٣ - ب : مقاصد التناص

لسنا فى مجال دراسة الجانب «المقصدى» فى إنتاج النصوص الشعرية، وهو جانب تتحقق فيه من أن النص يصدر عن «قائل»، ويتوجه إلى «قارئ»، على أن فى محمولات النص ما يشير، ضمن «الظروف الحوارية» المعينة للنص وأطراف الحوار، ما يشير إلى «مقاصد» مستهدفة أو مرجوة أو متحققة دون أن تكون مطلوبة. ذلك أن القارئ، أو «المتلقى»، قد لا يتلقى ما استهدفه أو طلبه الشاعر بل غيره، كما أن الشاعر قد يضمن نصه ما لم يكن يتحكم به أو يطلبه أو يقصده فى تضاعيف العملية الشعرية فى جانبها اللاواعى، عدا أن عمليات التنصيص قد تؤدى، على ما نعرفه فى تجارب الشعر الحديث خصوصاً، إلى تلاقات وتدبيرات ومعان غير مطلوبة، بل أنتجت «الممارسة النصية» نفسها (أو «الممارسة المنتجة لمعنى ما»، كما تحددها كريستيفا - pra-tique signifiante). ولذلك سنتوقف فى هذه الدراسة عند جانب وحسب من جوانب المقصدية هذه، وهو دراسة مقصدية النص من جهة الشاعر - مسقطين جهة المتلقى فى التلقى - أى ما يقصده، وفى صورة واعية، بل عمدية إذا



فى أمريكا الشمالية والجنوبية وفى اليابان وغيرها أيضاً،  
وتقليده أو التأثير به.

وهذه استهدافات يقصدها الشاعر، وتقع فى باب  
التشوف، وربما التماهى أحياناً، مع صنيع شعرى - أو مع  
ثقافة - معين على أنه الأكثر تجدداً وحداثة، ما يدعونا إلى  
النظر إلى المقاصد هذه لا من وجهة تناصية وحسب، وإنما  
من وجهة أناسية أيضاً: تعويل النص الحديث على علاقة  
«إطلاعية»، لا عيشية، فى تجديد الأشكال والمعانى، ما يمكن  
نسبته إلى ثقافة «استعمالية» - حتى لا نقول: استهلاكية -  
لا إنتاجية، وهو يشير فى ذلك، لا إلى هشاشة التأصل  
الحداثى فى النخب الثقافية وحسب، وإنما أيضاً إلى دونية  
موقع الثقافة عموماً فى تبادلات المجتمع نفسه.

ذلك أننا لو ننظر، على سبيل المثال، إلى ما قام به  
شاعر، مثل لوتريامون، فى باب التناس، فى تحويل المقاصد  
الطوعية عن مدلولاتها واستعمالاتها التى عاد إليها، لبان لنا،  
أن التجديد يقوم على تعلق مع نصوص سابقة ومزامنة للحظة  
الكتابة، ولكن على أساس أن النص «ممارسة منتجة لمعنى ما»  
- دون أن يعنى المعنى رسالة مدبرة أو مطلوبة - فلا تكتفى  
بنقله، أو بتضمينه، أو بمحاكاته، أو باستيحائه، وإنما تعمل  
على قلبه، وعلى جعله محل نزاع فى خطاب المتكلم نفسه.  
وهو ما أبانته كريستيفا فى كتابها المذكور أعلاه، إذ أشارت  
إلى أن «التملك يتحقق دوماً [عند لوتريامون] من باب  
النفى»، على أنه نفى لسانى وغير لسانى كذلك، أى ينفى  
الشاعر المواد التى يعود إليها فى مبنائها اللفظى فلا يوردها  
كما كانت، وفى مبنائها غير اللسانى، أى حملولاتها  
الاعتقادية وغيرها التى تصلها بـ «الظروف الحوارية». تفيض  
كريستيفا فى شرح الأحوال المختلفة للنفى هذا، إلا أن ما  
يعنينا من هذه الأحوال كلها، هو تحققنا من كونها عمليات  
«إنتاجية»، وتصدر بالتالى عن «أنا» - أو «ذات» - مندرجة  
فى صورة عيشية وفكرية فى آن فى ما تكابده وتعانى منه  
وتسعى إلى التعبير عنه. وتتحقق فى الأحوال التناصية هذه  
عمليات «انزلاق» - حسبما تسميها الناقدة - تشير إلى  
«التخلى عن موقع التحكم بالنص بوصفه فعلاً  
تخاطبياً»<sup>(٥٤)</sup>، ما يعنى أن النص لا يشتمل على خطبة

جاز القول، وهو ما يتمثل فى العلاقات التى ينشئها الشاعر  
مع المصادر «الطوعية»، كما أسميناها.

فهناك توجهات ومقاصد معينة يطلبها الشاعر حين  
يقتدى أو يتمثل أو يقلد أو يضمن نصوصه مواد بعينها من  
تجربة هذا الشاعر - أو عدة شعراء فى آن - أو ذلك. ولا  
يكفى، فى هذه الحال، الوقوف عند الجانب «الأخلاقي» من  
هذه المسألة: هل «سرق» الشاعر أم «انتحل» أم تأثر فى صورة  
غير واعية؟ هل أغفل ذكر مصادره عمدًا أم سهواً؟ وهل  
كان «أميناً» أم «محرراً» فى عمليات أحده؟

علينا أن نتنقل، على ما أعتمد، من هذا المنظور<sup>(٥٣)</sup>  
الأخلاقي الذى يعود فى أصوله العربية، على الأقل، إلى  
منطق «التفاضل» - أو «الموازنة» - بين الشعراء، الذى يشير،  
فى واقع التبادلات التى تتحدد النص فى الظروف الحوارية  
المحيطة به، إلى دورة التنافس التى حصرت نطاقها فى الأبيات  
المفردة. وعلينا كذلك أن ننقد الأصول الأخرى لهذا المنظور،  
وتعود إلى التركة الرومانتيكية التى نظرت إلى النص على أنه  
ابتداع وخلق لا يشوبهما أى «تلوث». ذلّك أن المنظور  
التناسى بات يرينا النص فى كيفية تناسب أكثر طبيعته، وهو  
أنه داخل حكماً فى علاقات - مع نصوص أخرى - تنتجه  
وتحدد مقاصده: فلا يوجد نص مولود نفسه، وإنما هو  
حصيلة غيره وإضافة عليه كذلك. فكيف لنا، والحالة هذه،  
أن ننظر إلى المقاصد المطلوبة فى الشعر العربى الحديث؟

يمكننا القول إن الشعر العربى دخل، ابتداءً من «عصر  
النهضة»، أو طلب ثنائية ما كانت معروفة فى المصادر الطوعية  
المحسوبة فى التناس، وهى المصادر الأوروبية، بل يمكننا القول  
إن الشعراء جعلوا، منذ ذلك الوقت، من هذه المصادر أكثر  
من مواد يأخذون منها ويحولون إليها: جعلوها مثلاً للشعر  
ومآلاً له. وهو ما نتحقق منه فى مساعى نقولاً فياض وشلبى  
الملاط فى كتابة القصيدة القصصية، وفى مسعى نجيب  
الحداد إلى إدخال الشعر التمثيلى، موضوعاً و مترجماً إلى  
العربية، وفى مساعى العديدين غيرهم ممن لم يتوقفوا حتى  
أيامنا هذه عن تتبع الصنيع الشعرى الجديد - وربما القديم،  
ولكن غير المعروف فى العربية - لا فى أوروبا وحدها وإنما



مركزة، بل على تعبير مأزوم، لا متسق ولا مبرم كما هو عليه الحال في حدثتنا الشعرية التي تجمع غالباً بين مقاصد الحق الإيديولوجي وتركة «الفحولة».

#### ٤ - التناص ذو الأساس الأناسي

أبناً أعلاه أن كل نص، لاسيما العربي الحديث منه، واقع في علاقات تناصية بالضرورة، وأن على الدراسة اللسانية، بالتالي، أن تخص التناص بجانب مناسب له في كل مستوى من مستويات قراءتها. وهو ما دعانا إلى نقد نظريتي «المقارنة» و «المقابلة» التقليديتين، وإلى السعي إلى قراءة، «تناصية»، هي أكثر واقعية في تعرفها أحوال التنصيص التي تسم في صور متزايدة النص الحديث، العربي وغيره. إلا أن هذا السعي لا يجنب القراءة اللسانية نفسها النقد، أو مراجعة حدود عملها، ذلك أن التناص لا يحصر القراءة اللسانية في حدود النص، «في ذاته» كما قلنا، أو في عناصره المحدودة والمحسوبة في بنية مغلقة، وإنما يفتحها على التاريخ الأدبي، ومنه على تاريخ التبادلات في مجتمع ما، أي على «ظروفه الحوارية»، أي النص في منظور أناسي (أنثروبولوجي).

إلا أننا ننتبه، من جهة ثانية، إلى أن «التناص» قابل لأداء دور أوسع إذا جاز القول، لا في التحليل اللساني للنصوص الشعرية وحسب، بل لسائر أصناف النصوص، من السردية حتى الفكرية المحضة، وما يقوله بنيس عن «موسوعية» العناصر النصية في الشعر العربي الحديث يصح في غير باب كتابي عربي، ومنذ «عصر النهضة» تحديداً. وكنا قد تنبها أعلاه، عند مناقشة تعريفات «التناص»، إلى أن بعض الدارسين يميلون إلى النظر إلى التناص على أساس «إدراكي»، وإلى ربطه بأنظمة سيميولوجية أخرى واقعة في المجتمع، ما يعني أن النص متعلق مع غيره، وينسج تعييناته في سبل حوارية متعددة، منها مع نصوص سابقة أو مزامنة له، ومنها مع «مناخات» وجدالات وإلحاحات واقعة في تبادلات المجتمع.

التناص واقع في غير مجال من مجالات التبادل، ويستدعي طرقاتاً في المعالجة تتعدى النص الشعري. هكذا بدا

لنا مفيداً الجروح بهذا المفهوم، أي التناص، صوب مجالات عمل جديدة، لا تقصره، كما بدا ذلك في دراسات الفرنسيين والإيطاليين، على الوقائع النصية ضمن اللغة، نفسها، بل إلى غيرها من اللغات، وإلى غير لغة - إذا ما تطلب الأمر في النصوص نفسها - في النص الواحد أحياناً. والجروح به أيضاً إلى مساع لا تطاول النصوص الشعرية وحسب، بل غيرها أيضاً من النصوص، أي كل مدونة يقوم بناؤها على علاقات تصلها بغيرها. نشدد على ضرورة «توسعة» حمولات وتعيينات هذا المصطلح، لأننا نرى في الكتابة الحديثة حقلاً خصباً نتحقق فيه من حضور «التناص» بوصفه «فاعلاً نصياً» - حسب تعبير كريستيفا - في عدد كبير منها. وهذا ما نتحقق منه في صورة مزيدة في عالم بات شديد التفاعل و... «التناص» بين أطرافه ونصوصه المتباعدة، حتى إننا نستطيع القول إننا نتنقل من المجال الكتابي «المنفلق» إلى المجال الكتابي «المتفاعل».

وحاجتنا العربية واسعة في هذا المجال، لأن «التناص» قابل لأن يكون السبيل الأنسب في تناول أصناف الكتابة العربية، لا القديمة وحسب، بل الحديثة خصوصاً، منذ «عصر النهضة» تحديداً، ذلك أنه «عهد مثاقفة» في المقام الأول، أي عهد الدخول في علاقات تناصية، لازمة ومطلوبة في آن. وهذا ما يدعونا إلى طرح السؤال: ألا يمكننا أن نرى استعمالاً جديداً للسبيل «التناصي»، وفي مجال الأنثروبولوجيا الثقافية تحديداً، أي سبيل دراسة وقوع الجماعات البشرية، والثقافات عموماً، والأنماط السلوكية، والقيم والتصورات، في علاقات «تناصية»، هي الأخرى، بعضها طبييعي أو «واجب»، وبعضها الآخر مفروض وربما «قهرى»؟ وكيف لنا أن نفهم العمليات «النهضوية»، التي أدت إلى اتصالنا وتعرفنا، وإلى «تملكنا»، في كييفات مختلفة من «التيبة»، لمصادر ومنتجات وأجناس عديدة، من المطبعة والمسرح والجريدة حتى فكرة الديمقراطية الأوروبية والرواية وقصيدة النثر، إلا بوصفها علاقات «تناص» مميزة؟!

والتوسعة التي تطاول هذا المفهوم لا تقصره - وحسب - على فهم عمليات «التملك»، وإنما تمكننا أيضاً من فهم التوازنات والمسالك التي تطلب «التناص»، على أنها

كله فى معنى واحد وتعمسفى بالتالى لحرركته وأحواله، أى المعنى الواحد والمتشابه. فما كان يصح فى شوقى لا يصح فى أدونيس، أى أن فعلهما يقوم وفق «علاقات تناصية» مختلفة ومتفاوتة. وما يصح فى استيراد «التوموبيل» - كما جرت تسمية «السيارة» للمرة الأولى فى العربية - لا يصح فى تعلم عادات الذهاب إلى الأمكنة الثقافية «العامة» - المسرح، المكتبة العامة .... - على أنها علاقات «تمدن»، منذ «عصر النهضة»، ولا فى «تقبل» قصيدة النثر والطلب عليها فى الكتابة العربية. إن هذه الأمثلة كلها تنسب إلى أطوار فى الثقافة، بوصفها عهداً لتعرف الغير، للأخذ منه، ولا اعتماد «وتبسة» ما يقترحه فى مثاله الثقافى «التمدنى والتحديثى»، سواء فى المنتجات أو فى العادات والسلوكيات أو فى القيم والتمثلات والتصورات.

هذا يدعوننا، إذن، إلى دراسة مبادى «التنصّس» ومقاصده وأشكاله المختلفة، كما يدعوننا إلى التنبيه إلى أن التنصّس يمر فى أطوار، هو الآخر: فما كان جلياً فى علاقات التنصّس، أى فى علاقات التأثير النافرة، يصبح، لاسيما فى أيامنا هذه، أشد خفاء وتعقيداً ومعابنة بالتالى، خاصة أن الكاتب الحديث يعدد، فى أعمال بعضهم، مصادر التنصّس فى العمل الواحد، من جهة، عدا أنه يتخفف من سبيل المحاكاة أو يحسن، فى حال لجوئه إليها، إلى عمليات «تملك» حاذقة.

نوازع تشوفية، طالبة الثقافة - والقيمة - فى نص واقع خارج لغتها وثقافتها: التنصّس، إذن، سببلاً إلى دراسة ثقافتنا فى سياق أوسع، يدرجها، من جهة، فى إطار العملية «النهضوية» المستمرة، على أنها فعل «مناقفة» متماد، كما يتم فيها، من جهة ثانية، تناول النصوص - على أنواعها - انطلاقاً مما تقوم عليه من تحويرات وتملكات و«تبسة». ومعها نثير الأسئلة التالية: هل معنى هذا أن مودى هذا السبيل يجعلنا نتناول حاصل «الحدث»، فى نهاية المطاف، لا على أنه فعل تأثر وتأثير وحسب (وهو ما يحصل فى العلاقات «الطبيعية»، إذا جاز القول، بين الثقافات كما بين المؤلفين)، بل على أنه، أى هذا الاتصال فى صيغته التشوفية فى هذه الحالة، ناتج عن علاقة «تناصية»، كان للثقافة الأوروبية - مع الأمريكية حالياً - أن تؤدى الدور الأول والأصل والمبتكر، أى دور «الفاعل النصى» فى النص المحلى؟ وهل يعنى هذا أن مودى هذا السبيل التناصى يجعلنا نتبين الحالة التاريخية والنصية، التى تأسست فى عهد المناقفة ووفق شروطها، على أنها أدت إلى تغيير وضعية النص العربى فى علاقته الواجبة اللازمة بتنصّسه الداخلى، وجعلته ينتظم بالتالى وفق مقتضيات علاقة «غيرية» باتت فيها للعناصر «الاختيارية» و«الاستثنائية» - أى «الخارجية»، باختصار وتسرع - أن تؤدى دور المثال وتحدد مقاييس الاحتكام وتعين المآل؟

نعلق الإجابة فى هذه الدراسة عن هذه الأسئلة وغيرها، مكتفين بالقول إن هناك مساراً للمناقفة، لا يمكننا أن نجمله

## الهوامش:

٦ - Oswald Ducrot et Tzvetan Todorov : Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Paris: Seuil, 1972.

٧ - op. cit., p. 446.

٨ - Dictionnaire de linguistique : Paris: Larousse, 1973.

٩ - Julia Kristeva : La révolution du langage poétique, Paris: Seuil, 1974.

١ - علنا إلى الطبعة الثانية التى صدرت عن «المؤسسة العربية للدراسات والنشر» فى بيروت فى العام ١٩٩٦، وإليها نحيل الصفحات اللاحقة.

٢ - م. ن. ص ٧.

٣ - م. ن. ص ١٠.

٤ - م. ن. ص ١٢.

٥ - Oswald Ducrot et Jean-Marie Schaeffer : Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du Langage, Paris: Seuil, 1995.

- ٢٠ - محمد بنيس الشعر العربي الحديث... ٣... ص ١٨١.
- ٢١ - م. ن. ص ١٨٨.
- ٢٢ - محمد مفتاح: م. ن. ص ١٣١.
- ٢٣ - Kamal Khair Beik : *Le mouvement moderniste dans la poésie arabe contemporaine*, Publications orientalistes de France, 1978, pp 138 - 141.
- هنا ما سعى إلى تبينه، ضمن مسعى آخر، الشاعر سامي مهدي، إذ عرض ترميمات نقدية لعدد من السرياليين الفرنسيين، وأخرى لأدونيس، في المسائل التالية: الرفض، الهدم، البحث عن واقع أسعى (فوق الواقع)، رفض العقلانية والمنطقية، اللحظة السريالية، الشعر والسحر، الشعر والجنون، الشعر والاكتشاف، الشعر واستقصاء المجهول، رؤية جديدة للأشياء، الصيغ الجديدة، براءة الكلمة، الشعر والتزيين، وخلص منها إلى القول: «في ضوء ما تقدم من نصوص يتضح لنا أن أدونيس كان عيالا في مفاهيمه على التراث السريالي... وما تجده في نظريات أدونيس من المفاهيم السريالية يمكن أن نثرله على مطابفات في شعره. وقد لا يتسع المجال هنا لاستقصاء هذه المطابفات، ولكن العارفين بشعر أدونيس لا يفوتهم أن يلاحظوا أن الرضى، والتمرد، والهدم والانقطاع، والتجاوز، والمغامرة، والرقا، الحلم، والنسوة، والجنون، والمجهول، والمطلق، والبحث، والكشف، والمفتح، والتحول، والإشراق، وغير ذلك من مفردات القاموس السريالي، هي، في الوقت ذاته، محور قاموس الشعرى: سامي مهدي: *أفق الحدالة وحدالة النمط: دراسة في حدالة مجلة «شعر» يمد ومشروعاً ونموذجاً*، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٨، ص ١٧٠ - ١٧١.
- ٢٤ - ولما هذا المسمى هو الباحث الروسي ميخائيل باختين الذي نظر إلى النص الأدبي وفق «البيد الحواري» الذي يؤسسه، على أساس أن النص مسعى حوارى مع ما يحيط به.
- ٢٥ - François Rastier : *op. cit.*, p. 16.
- ٢٦ - François Rastier : *op. cit.*, p. 30.
- ٢٧ - François Rastier : *op. cit.*, p. 31.
- ٢٨ - François Rastier : *op. cit.*, p. 31.
- ٢٩ - مالك المطلي في كتاب: *الشعر العربي عند نهايات القرن العشرين*، المحور الرابع في جلسات الحلقة الدراسية لمهرجان المربد الشعرى التاسع: *أجهايات نقد الشعر العربي المعاصر*، إعداد: عائد خصبك، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٩، ص ٢٩٧ - ٣٤١، والشاهد ص ٣٢٥.
- ٣٠ - وهي ميوية ومنجحة في كتاب أ. ج. جريمانس
- A. J. Greimas : *Essais de sémiotique poétique-col.*, Paris: Larousse, 1972, p. 11-12.
- واعتمدنا في كتابنا الشعرية العربية الحديثة: تحليل نصي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٨.
- وقمنا، بعد كتابة هذه الدراسة، على فصل لاقت لحمد مندور، في كتابه *النقد المجهج عند العرب* (مكتبة نهضة مصر، القجالة - مصر، د. ت. ١)، يدرس فيه «السرققات» ص (ص ٣٥٢ - ٣٦٩)، وخلص فيه، بعد عرض آراء القدماء في
- ١٠ - الذي يورد آراءه الباحث الفرنسي فرنسوا راستيه، في كتابه: François Rastier : *Sens et textualité*, Paris: Hachette, 1989.
- ١١ - *op. cit.*, p. 29.
- ١٢ - Gérard Genette : *Palimpsestes*, Paris: Seuil, 1982.
- ١٣ - François Rastier : *op. cit.*, p. 29.
- ١٤ - M. Arrivé : *Langages*, 31, p. 61.
- ١٥ - الأمدى: *الموازنة*، تحقيق: محمد محى الدين عبدالحمد، دار الباز للطباعة والنشر، د. ت. ١٠ - ١٢.
- ١٦ - ونرى عينات كثيرة منها في كتاب *العملية لابن رشيق (العملية في محاسن الشعر وأدابه ونقده، حققه وفصله وعلق حواشيه: محمد محى الدين عبدالحمد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٢)*، ويقول في «باب السرققات وما شاكلها»: «وهذا باب متنع جداً، لا يقدر أحد من الشعراء أن يدعى السلامة منه، وفيه أشياء غامضة إلا عن البصير الحاذق بالصناعة، وأخر فاضحة لا تخفى على الجاهل المغفل» (ص ٢٨٠ / ٢)، نالاً عن غيره بعض أصنافها وتريفاتها، مثل: السرق والنصب والإغارة والاختلاس والاصطراف والاختلاب والاستلحاق والانتحال والاستدراف والاهتمام والنسخ والنظر والملاحظة والمواردة وغيرها الكثير (ص ٢ / ٢٨٠ - ٢٩٤).
- ١٧ - إحسان عباس: *تاريخ النقد الأدبي عند العرب*، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٦، ص ١٦٢.
- ١٨ - يمكننا أن نسرد عدداً من الكتب والدراسات العربية، التي صدرت منذ ذلك الوقت، والتي تخصصت بدراسة أوجه المقارنة بين نصوص عربية ونصوص أوروبية: محمد شاهين في *أثر إليوت في شعر السحاب وعبدالصبور*، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩١)، ومحمد عبدالحى في: *الأسطورة الإغريقية في الشعر العربي المعاصر* (القاهرة، ١٩٧٨)، وفي *أنشودة المطر: إليوت وشيلي والتراث العربي*. (مجلة المعرفة، أكتوبر، ١٩٧٨)، وسعيد علوش في *الترجمات العربية بين الثقافة والمقارنة* (مجلة الثقافة الأجنبية، العدد ٥ و ٦، سنة رابعة، بغداد، ١٩٨٤)، وأحمد عبدالمعز: *أثر لوركا في الأدب العربي المعاصر* وعبدالحمد إبراهيم: *جريمة قل ... بين إليوت وعبدالصبور* في مجلة *فصول*، عدد ٢، وغيرها.
- كما يمكننا ذكر محاور خاصة بالنقد المقارن في عدد من المجلات العربية: مجلة *عالم الفكر*، أكتوبر - نوفمبر، الكويت، ١٩٨٠، مجلة *فصول المصرية*، الجزء الأول، العدد الثالث، أبريل - مايو يونيو، ١٩٨٣، والجزء الثاني، العدد الرابع، يوليو - أغسطس - سبتمبر، ١٩٨٣، ومجلة *الموقف الأدبي*، السورية، العدد ١٨٦، تشرين الأول ١٩٨٦ وغيرها. كما نذكر أيضاً أعمال الملقى الدولي حول الأدب المقارن عند العرب، منشورات ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، جوان (حزيران)، ١٩٨٥، وغيرها.
- ١٩ - محمد بنيس في كتابه: *ظاهرة الشعر المعاصر في المغرب*، مقارنة تكوينية، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩، *والشعر العربي الحديث*، بنياته وأبدالاتها - ٣: الشعر المعاصر، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٩٠، ومحمد مفتاح في كتابه *تحليل الخطاب الشعرى: استراتيجيات المعاصر، المركز الثقافى العربى، الدار البيضاء، ١٩٨٥*.

٣٥ - غير شاعر عاد إلى متن الأساطير القديمة في مسعى محاكياتي أكيد: عباس محمود العقاد اعترف أن قصيدته «فينوس على جثة أدونيس» لم تكن سوى ترجمة حرة لعمل شكسبير (ديوان العقاد، أسوان، ١٩٦٧، ص ٢٥)، وهذا ما فعله المازني في قصيدته (الراعي المعبود) (ديوان المازني، الجزء الثاني، القاهرة، ١٩١٧، ص ١٦١)، أما إلياس أبو شبكة فعاد إلى القصص النبوي (شمشون ودليلة، لوط وبنته...) وغيرهم.

وهذا ما قام به أيضاً الشعراء المحدثون، أو «التموزيون» كما أطلقها جبرا لإبراهيم جبرا عليهم، في مسعى محاكياتي مختلف، إذ أخذوا بصنع (إبوت الشعرى القائم على الجمع بين الماضي، ومنت الأسطورة تخليداً، وبين الحاضر، وهو ما يؤكد عدد من الكتب التي تلوح للشعر العربي الحديث، مثل كتاب كمال خير بك المذكور، أو كتاب أحمد زروق الشعراء التموزيون: الأسطورة في الشعر المعاصر (الصادر، بداية، في دراسة، في مجلة أفق، صيف ١٩٥٩) الذي يؤكد فيه: «وقد نسج الكثيرون من شعرائنا المعاصرين على منوال إليوت وبتوا أسلوبه وتكتيكه وبعض رموزه. وقد يكون بينهم من تنبى شيئاً من مضمونه ومواقفه ومعتقداته» (الطبعة الثانية، دار الحمراء، بيروت، ص ١٦).

إلا أننا توصلنا في دراسة لنا، بعنوان «نواشيت الإيديولوجية والحداثة: أنطون سعادة وأدونيس»، إلى التوفيق على أسباب أخرى أدت إلى تناول الأسطورة في الشعر المعاصر، منذ ثلاثينيات هذا القرن، وهي دعوة المفكر أنطون سعادة، «زعيم» الحزب السوري القومي الاجتماعي، أعضاء الحزب وغيرهم، إلى «بعث الروح في الأساطير السورية القديمة»، وحسب عبارته، وهو ما فعله شعراء في هذا الحزب آنذاك، مثل سعيد عقل («بنت ففتاح»)، ويوسف الخال («هيروديا») وأدونيس (الملاحم الشعرية: «معزوفة الدم» و«هانيبال» ودليلة، والمسرحيات الشعرية: «ديلون» و«جلجامش»...) وغيرهم.

٣٦ - Susanne Bernard : Le poème en prose, de Baudelaire jusqu'à nos jours, Paris: Librairie Nizet, 1959.

راجع: أدونيس: «في قصيدة الشر»، مجلة شعر، العدد الرابع عشر، ١٩٦٠، ص ٧٥ - ٨٣، ومقدمة ديوان لن أنسى الحاج، دار مجلة شعر، بيروت، في السنة نفسها.

٣٧ - خليل مطران: المجلة المصرية، عدد ١٥ أغسطس (آب)، سنة ١٩٠١.

٣٨ - أحمد زكي أبو شادي: مجلة أبوللو، المجلد الأول، يونيو، (حزيران)، ١٩٣٣، ورد في كتب عبدالمعز الدسوقي: جماعة أبوللو، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٧١، ص ٣٣٣ - ٣٣٥.

٣٩ - إبراهيم ناجي مقدمة أطراف الربيع، مجموعة أبي شادي الشعرية، ١٩٣٣، ورد في المرجع أعلاه، ص ٣١٥ - ٣١٧.

٤٠ - مجلة شعر، العدد ٥، بيروت، ص ١٤٦ - ١٥٠.

٤١ - محمد الماغوط: مجلة مؤلف، العدد ٢، ١٩٦٩، بيروت، ص ٧٣.

٤٢ - يمكن العودة إلى غير كتاب في العربية درس تأثرات الشعر العربي الحديث بالسريالية، مثل كتاب أندرو مونتون لكميل قصير داغر (دار المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩)، الذي تضمن ملحفاً خاصاً بعنوان «ميترون عريباً؟ أو السريالية في بلادنا» ص ١٠٩ - ١٦٩، ويتوقف فيه عند أربعة شعراء: أدونيس وأنسى الحاج وشوقي أبو شقرا وعبدالقادر الجناني بالإضافة إلى علاقات مجلة شعر عموماً بالنزعة السريالية.

المسألة، إلى ضرورة التمييز بين أصنافها: لاستيعابها، وهو أد باني الشاعر أو الكاتب بمعان جديدة مما قرأه، واستعارة الهيكل، وهي أن يأخذ لشاعر أو الكاتب موضوع قصيدته أو قصته عن مواد سابقة، وبنت الحياة في هذا الهيكل»، و«التأثر»، وهو أن يأخذ الشاعر أو الكاتب بذهب غيره في الفن أو الأسلوب تتلمذاً أو دون وعي، و«السرقات»، وهي «لا تعن اليوم إلا على أخذ جمل أو أفكار أصلية وانتحالها بنصها دون الإشارة إلى مأخذها». ولا يلبث أن يضيف: «وهذا (أي السرقات) قليل الحدوث في العصر الحديث وبخاصة في البلاد المستنيرة» (ص ٣٥٤).

٣١ - استبعدنا من المستويات، والمواد هذه الشأن الصوتي - الإيقاعي العرف، بعد أن حققنا من كون المستوى هذا ما حظي في عمليات التعامل الثقافي ضمن مجال الشعر العربي الحديث بأعمال تأثرية، فيما حلا قصيدة لشاعر طبعاً التي تتناولها في مسألة الجنس الأدبي أدناه. وكان بإمكاننا، بالمقابل، مع الشأن الخلق لظهور القصيدة العربية الحديثة فوق الورق الطباع عناية دراسية ما، مد أن لاحظنا، في دراسة لنا، ثم في فصل من أحد كتبنا، تأثر الشعراء العرب العديدين بتجارب أوروبية وأمريكية، مثل تجارب أوليونيير أو «الشعر العصري» وغيرها راجع دراستنا: الشكل الخطي للقصيدة العربية الحديثة. مجلة دراسات عربية، العدد ٩، ١٩٧٨، بيروت، ص ٩٩ - ١١١، وكتابنا المذكور أعلاه، ص ١٣ - ٣٧.

٣٢ - درس المستشرق الألماني شيفان فيله هذه القصيدة اللاتينية في شعر الشاب، بل في الشعر العربي الحديث، ملاحظاً أننا لا نقع، فيما حلا هذه القصيدة، على أية آثار تذكر للثقافة الصينية في الشعر العربي الحديث: «بابل هي شيفهاى» ما هو صيني لدى بدر شاكر السياب، مجلة عبون، ١٩٩٥، السنة الأولى، العدد ٩، تصدر عن منشورات الجمل في ألمانيا، ص ٨ - ٢٠.

Gérard Genette, Introduction à l'architecte, Paris: Seuil, 1979.

ويخلص جينيت في الصفحة ٦٦ من هذا الكتاب، بعد تنقيب تالهي ونقدى عن المسألة هذه، إلى القول: «إن القصة الرومانسية واللاحقة عليها ما عادت تشير الغنائي والملمعي والدرامي مثل مقامات للفول وحسب، وإنما مثل أجناس أدبية فعلية، لها في تعريفاتها عناصر مضمونية أي تحمل من كن جنس أدبي خاصاً بمضمون ما، وإن كانت ضبابية».

٣٤ - هناك محاولات محدودة وجزئية وغير مثمرة فقدر كاف في معالجة هذه المسألة، منها ما يجعل البحور البسيطة، على سبيل المثال، ساسة على غيرها من البحور المستعربة، ومنها ما يجعل عدداً من البحور، مثل لرحز والهزج سابقة، هي الأخرى، لغيرها، على أنها مرتبطة بالبناء العفوس أو بالحداء، ومنها ما ينسب أنواعاً شعرية، مثل الطرديات والخمرات إلى المعنى المعلى، تخليداً، إلى غير ذلك من التحقيقات غير الكافية بعد في هذا النطاق.

يقترح نجيب محمد البهيتي، على سبيل المثال، دراسة أشكال الشعر العربي الأولى انطلاقاً من التشابه الحاصل بين القصيدة المروية على وزن الرجز، وهي عنده مثابة «الشعر المسجوع»، وبين سجع الكهان المعروف في الناحلية: الشعر العربي في محيطه التاريخي القديم، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، طبعة أولى، ١٩٨٧، ص ٤٣٦. ويتوصل الباحث عادل سليحان حمال مؤخراً في دراسة موفقة، إلى تعيين، بل إلى ترجيحات ما في «عصر» الشعر الجاهلي، إذ تضيف دراسته، حسب قوله «أكثر من قرن من الزمان إلى عصر اللغة العربية، وبالطبع الشعر الجاهلي»، «عصر الشعر الجاهلي عود على بدء، مجلة فصول، المجلد ١٥، العدد الثاني، صيف ١٩٩٦، ص ٣٠٦».



٤٧ - أدونيس: «الأعمال الشعرية الكاملة»، المجلد الأول، دار العودة، طبعة رابعة، ١٩٨٥، بيروت، ص ٥٢٧.

٤٨ - غير كاتب، مثل عادل عداة، وإسماعيل الدندى، والمنصف الوهابي وغيرهم ترقف أمام أحوال التناص في شعر أدونيس وكتاباته، وأصدر الكاتب كاظم جهاد كتاباً في هذه القضية، اشتمل فيه العديد من المواد، وتعود إلى كتاب قداماء، مثل انغري والبسطامي والأصمعي والمسمودي والمعري وابن الأثير وغيرهم، أو إلى شعراء أجناب، مثل رافير، وأوكثافيو باث وسان - جون بيرس وغيرهم، ورأى فيه أن ما قام به أدونيس انتحال ليس إلا، ميمراً، بين «السرقة»، وهي عنده، نقلاً عن أحد القدماء، «نقل معناه دون لفظه»، وبين «الانتحال»، وهو عنده «نقل معنى الآخر ولفظه كيهما معاً»: أدونيس منتحلاً، دار إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩٠، ص ٦.

٤٩ - أنسى الحاج: لن، دار الجديد، بيروت، طبعة ثالثة، ١٩٩٤، ص ٤٤.

٥٠ - أنسى الحاج: ماذا صنعت بالذهب، ماذا فعلت بالوردة، دار الجديد، بيروت طبعة ثالثة، ١٩٩٤، ص ١٠٣.

٥١ - أنسى الحاج: لن، ص ٥١.

٥٢ - أنسى الحاج: م. ن، ص ٧٨.

٥٣ - رغم أن ما يفعله بعض الأدباء العرب لا يخلو كونه، في بعض الأحوال، عمليات نقل حرفي أو محور لمقالات ودراسات أحياناً ولقصائد أجنبية أو عربية أحياناً أخرى، دون أن ينصرفوا إلى التناص في لعبة بنية، بل «يسترون» عليها، ولا يلبشون أن يصبحوا ما سبق لهم أن أعفوه، بصحح وأمية، مثل سقوط المزدوجين أو الهلالين!

Julia Kristeva : op cit., p. 343.

- ٥٤ -

كما درس الشاعر عصام محفوظ هذه التأثيرات في كتابه: «السريالية وتفاعلاتها العربية» (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٧)، وتوقف فيه عند غير تجربة عربية، في مصر وسوريا ولبنان والعراق، ولحظ فيه أن التأثير قد لا تتحقق مباشرة، وبغير النصوص الأصلية، بل عبر نصوص رديفة أو مترجمة مثل تعرف شعراء مجلة العراقية الشهر ٦٩، على سبيل المثال، على «البيانات» السريالية في نصوص جزئية عنها وبالإنجليزية، لا بالفرنسية، ص ١٠١.

ويمكن العودة أيضاً إلى كتاب سامي مهدي: «الحداثة وحداثة النمط، دراسة في حداثة مجلة «شعر» بنية ومشروعاً ونموذجاً، سبق ذكره، الذي درس فيه تأثيرات مجلة «شعر» بالحداثة عموماً، وبالمواقف السريالية خصوصاً.

٤٣ - يمكن العودة إلى دراسة فخرى صالح: «هانس ريتسوس في الشعر العربي المعاصر: ولادة قصيدة التفاصيل»، في كتاب المؤثرات الأجنبية في الشعر العربي المعاصر، الحلقة النقدية في مهرجان جرش الثالث عشر، تحرير: فخرى صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، طبعة أولى، ١٩٩٥، ص ١٤٣ - ١٦٠، وكما قد نظرنا في دراسة نقدية لنا، بعنوان «قصيدة الشباب: أسئلة الحداثة وتحدياتها»، (الحلقة النقدية في مهرجان المربد الشعري، بغداد، ١٩٨٧)، لهذه المسألة التناصية وغيرها.

٤٤ - Roland Barthes : Mythologies, Paris: Seuil, 1957, p. 204.

٤٥ - Julia Kristeva : op. cit., p. 338.

٤٦ - النفسى: المؤلف، موقف نور، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٤، ص ٧٢.





# قصيدة النثر العربية؛ الإطار النظري والنماذج الجديدة

فخري صالح\*

الذائقة الشعرية العربية التي مازالت تفصل فصلا تاما بين حقلي الشعر والنثر، مستندة في فصلها هذا إلى ضرورة وجود إيقاع وزني تستطيع الأذن تعرفه والتمتع بترديد صدها في الشعر. وإذا كنا نعثر على كثير من قصائد التفعيلة في مناهج تدريس الأدب في المدارس الثانوية، وكذلك في مناهج تدريس الأدب في الجامعات العربية، فإن قصيدة النثر لم تستطع - حسب علمي - أن تخترق قلعة التعليم الثانوي، وربما قلعة التعليم الجامعي في الكثير من الجامعات العربية. وبشير هذا الغياب إلى عدم تحصيل اعتراف الذائقة السائدة وتواصل الشكوك حول إمكان انتساب قصيدة النثر إلى عالم الإبداع الشعري.

إن تخلص قصيدة النثر من شرط الوزن والموسيقى يقف حائلا دون استقبال الذائقة السائدة لهذا الشكل الشعري وتقبله بوصفه واحدا من الروافد الجديدة في نهر الشعر العربي. ومع ذلك، فقد استطاعت قصيدة النثر، بما أنجزه

تنتسب الصياغة النظرية لمفهوم قصيدة النثر العربية إلى أفق الاحتكاك بالآخر، إلى المثاقفة والترجمة وإعادة تشكيل المفاهيم النظرية في ضوء التجارب الشعرية الجديدة التي أرادت التخلص من ثقل الموروث وضغط عمود الشعر العربي. وعلى الرغم من مرور ما يزيد على ثلث قرن على ظهور التجارب الشعرية الأولى لقصيدة النثر العربية على صفحات مجلة «شعر»، فإن التأصيل النظري لهذا الشكل الشعري لا يزال ضعيفا بسبب عدم حسم الجدل حول شعرية قصيدة النثر وإمكان عذها شكلا من أشكال الكتابة الشعرية العربية، مثلها مثل قصيدة التفعيلة التي استطاعت انتزاع اعتراف الذائقة الشعرية بعد أن حققت اعترافا نقديا بها. والحقيقة أن قصيدة النثر قد استطاعت خلال العقدين الأخيرين أن تنتزع الاعتراف النقدي بها. لكنها لم تستطع اختراق حصن

\* كاتب وناقد، الأردن.

فى مشروع الناقدة الفرنسية هو أن ظروف الرفض التى مرت بها قصيدة النثر الأوروبية تتكرر فى العربية، استنادا إلى مبدأ الضرورة الوزنية فى الشعر. وهى تعلن فى العبارة التى اقتبسناها أعلاه ارتباط الشعر بالموسيقى وإهمال العناصر الأخرى التى تحقق الشعرية، من إيقاع الجملة والقوة الإيحائية للكلام والصور الشعرية، لصالح النظم الشعرى. إن ما كان يجعل الشعر شعرا هو الوزن والموسيقى الخارجية التى تميزها الأذن. وبسبب هذا التصور الضيق لمفهوم الشعرية، أخذ الشعراء فى أوروبا وأمريكا يعيدون النظر فى مبدأ الشعرية نفسه. وأصبح الشاعر «يرفض وسائل الرقى الآلية جدا للشعر الموزون المقفى، ويطلب «مفاتيح» أكثر دقة من الكلمات نفسها ومن التوافقات السرية بين المعنى والصوت، وبين الفكرة والإيقاع، وبين التجربة الشعرية واللغة التى تترجمها» (ص: ٦٧) ونتيجة لبحث الشاعر عن مكونات أخرى للشعرية ولدت قصيدة النثر «من تمرد على قوانين علم العروض - وأحيانا على القواعد المعتادة للغة». (ص: ٢٠)

نتوصل مع سوزان برنار إلى أن قصيدة النثر الأوروبية قد أحدثت انشقاقا فى مفهوم الشعرية. لقد تمردت على الوزن والقافية واعتمدت شروطا أخرى لتحقيق الشعرية. وتمثل هذه الشروط الجديدة - التى أراد الشاعر التعويض بها عن شرطى الوزن والقافية - فى الوحدة والمجانبة والإيجاز (ص: ٢٣ - ٢٤). وفى موضوع آخر، تحمل برنار هذه الشروط واصفة لها هذه المرة بأنها «كلية التأثير والمجانبة والكشافة». (ص: ١٥١) وتعنى برنار بالوحدة «الوحدة العضوية»؛ فمهما كانت. «القصيدة معقدة وحررة فى مظهرها فإن عليها أن تكون وحدة واحدة، وعالمًا مغلقًا، خشية أن تفقد صفتها من حيث هى قصيدة»، أما بالمجانبة فتعنى أنه «ليس للقصيدة أية غاية بيانية أو سردية خارج ذاتها»، وإذا استخدمت القصيدة «عناصر سردية وصفية، فذلك بشرط تسميتها و«تشغيلها» فى مجموع ولأغراض شعرية بحت». إن فكرة «اللازمية» وعدم تطور القصيدة إلى هدف بعينه وعدم عرضها سلسلة أفعال أو أفكار، هى المحددات الرئيسية لشعرية قصيدة النثر من وجهة نظر سوزان برنار. ويضاف إلى هذه الشروط شرط أساسى هو «الإيجاز»، فقصيد النثر،

جيل الخمسينيات<sup>(١)</sup> فى الشعر العربى وما أنجزه شعراء جدد ظهورا فى السبعينيات والثمانينيات، أن تكون لنفسها مجموعات قرائية تذوقها بصفتها شعرا مثلها مثل قصيدة التفعيلة والقصيدة العمودية. ولكن هذا الإنجاز الذى استطاعت قصيدة النثر تحقيقه خلال العقدين الأخيرين لا يعنى أن الجدل قد حسم على الصعيد النقدي لصالح التحاقها بكتاب الشعر العربى، ولا يعنى أن الذائقة الشعرية السائدة سوف تتخلص من شكوكها قريبا، وتعلن قبولها لهذا الشكل الشعرى فى مناهج دراسة الأدب فى الجامعة والمدارس الثانوية.

ولعلنا لهذا السبب نجد أنفسنا مدفوعين إلى تأكيد مشروعية قصيدة النثر العربية من خلال إلقاء الضوء على النماذج المشرقة من هذه القصيدة لتوسيع دائرة قرائها، والتأثير على رأى العام السائد بين طلبة الجامعات والمدارس الثانوية حول أن هذا اللون من الكتابة لا ينتمى إلى حقل الكتابة الشعرية بل هو نثر فنى أساسا. إن منجز قصيدة النثر بحاجة إلى تسليط ضوء النقد عليه لتقريبه من الذائقة الشعرية وتوسيع دائرة قرائه.

## -١-

لكن قبل الخوض فى القراءة النصية لبعض نماذج قصيدة النثر، أريد أن أجمل بعض النقاش الذى دار حول قصيدة النثر، منطلقا من أطروحة سوزان برنار فى كتابها (قصيدة النثر من بودلير إلى أيامنا)، الصادر عام ١٩٥٩، الذى أثرت الأفكار الواردة فيه تأثيرا عميقا على شعراء قصيدة النثر العربية. ترى سوزان برنار أن:

الشعر يرتبط بحكم أصوله بالموسيقى ومن ثم بفكرة الوزن. ولكن إيقاع الجملة وعلاقات النغمات بالمعنى، والقوة المثيرة للكلمات، والحد الغامض للإيحاء الذى يضاف لمحتواها الواضح المحض، والصور إنما هى مستقلة عن الشكل المنظوم شعرا<sup>(٢)</sup>.

وتركز مشروع برنار فى استحداث مفهوم للشعر انطلاقا من نماذج قصيدة النثر الفرنسية نفسها. وما يهمنى

الصياغة في مواضع كثيرة من كتابات أدونيس النظرية حول الشعر وقصيدة الشعر، وكذلك في مقدمة أنسى الحاج، أو بيان النظرى لمجموعته الشعرية (لن) التى مثلت، حسب أدونيس، وقفا مع اللحظة الحرجة والحاسمة<sup>(٣)</sup>.

يتساءل أنسى الحاج فى مقدمة (لن) عن المفارقة التى تولدها تسمية قصيدة الشعر بافتراض أن الشعر والنثر نقيضان قائلا:

هل يمكن أن يخرج من الشعر قصيدة؟ (...)  
طبيعة النثر مرسله، وأهدافه إخبارية أو برهانية. إنه ذو هدف زمنى، وطبيعة القصيدة شئ ضد.  
القصيدة عالم مغلق، مكتف بنفسه، ذو وحدة كلية التأثير، ولا غاية زمنية للقصيدة. النثر سرد، والشعر توتر، والقصيدة اقتصاد فى جميع وسائل التعبير. النثر يتوجه إلى شئ يخاطب، وكل سلاح خطائى قابل له. النثر يقيم علاقته بالآخر على جسور من المباشرة، والتوسع، والاستطراد، والشرح، والدوران، والاجتهاد الواعى - بمعناه المريض - ويلجأ إلى كل وسيلة فى الكتابة للإقناع. الشعر يترك هذه المشاغل: الوعظ والإخبار والحجة والبرهان، ليسبق<sup>(٤)</sup>.

بهذا التصور الرؤيوى لـ «قصيدة الشعر» يحدد أنسى الحاج الأساس الذى يميز قصيدة الشعر عن النثر المكتوب لغايات الإقناع والبرهان والإخبار، عاملا على تقديم تمييز يصلح للتفريق بين الأنواع الشعرية والأنواع النثرية بعامة، دون أن يشير إلى الأساس اللغوى للتمييز بين النثر والشعر. لكنه يتساءل فى موضع آخر من مقدمته:

هل من المعقول أن نبني على الشعر قصيدة ولا نستخدم أدوات النثر؟ الجواب أن قصيدة النثر قد تلجأ إلى أدوات النثر من سرد واستطراد ووصف. ولكن، كما تقول سوزان برنار «شرط أن ترفع منها وتجعلها «تعمل» فى مجموع ولغايات شعرية ليس إلا»، وهذا يعنى أن السرد والوصف يفقدان فى قصيدة النثر غايتيهما الزمنية. (ص: ١٥).

حسب الناقدة الفرنسية «يجب أن تتلافى الاستطراد فى الوعظ الخلقى (...)» كما عليها أن تتلافى التفصيلات التفسيرية». ويمكن رد فكرة «كلية التأثير»، التى تضيفها برنار فى موضع آخر من كتابها، إلى إدجار آلن بو الذى طالب فى كلامه عن الشعر والقصة القصيرة بوحدة الانطباع وكلية التأثير قائلا إنه «لا وجود للقصيدة الطويلة، والمقصود بالقصيدة الطويلة هو تناقض حاد فى المصطلحات». أما الكشافة، التى طالبت بها برنار شاعر قصيدة الشعر، فإنها تعنى الإيجاز والقدرة على الإشعاع ولانهاية الإيحاءات (ص: ١٥١).

لكن هذه الشروط التى توردتها برنار معيارا لقصائد الشعر تظل شروطا غامضة شديدة النسبية لا تمتلك صرامة المعايير الشكلية الكلاسيكية التى تربط مفهوم الشعر بالوزن والإيقاع الموسيقى. ويمكن لبعض الأنواع الأدبية الأخرى أن تشارك قصيدة الشعر فى شروط الوحدة العضوية والإيجاز واللازمية (القصة القصيرة التى تقترب فى بعض نماذجها من الشعر). ولعل نسبة الشروط التى وضعتها برنار هى التى تدفعها إلى الحديث عن الإرادة الفوضوية الكامنة فى أصل قصيدة الشعر مما يفسر «تعدد أشكالها» وفسر «الصعوبة التى يواجهها المرء فى تحديد هويتها ومعالمها» (ص: ١٧). ثمة قوتان متعاكستان تشدان قصيدة الشعر: «ميل إلى الانتظام، إلى الكمال الشكلى، وميل إلى الحرية والتشوش الفوضوى أيضا» (ص: ٧٩). وتوضيحا للفكرة الجوهرية الأخيرة تقول برنار إن:

الشروط العضوية لقصيدة الشعر مضاعفة: فهى الشكل الشعرى لفوضوية محررة فى صراع مع القيود الشكلية - وكذلك نتيجة لإرادة تنظيم فى يسمح لها أن تتحد شكلا وتصبح كائنا موضوعا فنيا (٢٧٩).

تملنا سوزان برنار من ثم بالمهاد النظرى الذى استندت إليه قصيدة النثر الأوروبية والأمريكية، وهى أيضا تملنا بالفكر النظرى الذى ارتكز إليه شاعر قصيدة الشعر العربية فى نهاية الخمسينيات والستينيات. ونحن نعرض فى تنظيرات أدونيس وأنسى الحاج فى مجلة «شعر» على أفكار سوزان برنار معادة

ما نكتبه شعرا. والصورة من أهم العناصر في هذا المقياس، فأينما ظهرت الصورة تظهر معها حالة جديدة وغير عادية من استخدام اللغة (ص: ١١٢ — ١١٣).

لكن أدونيس، رغم الأساس الاستعمالي للغة الذي يستند إليه للتمييز بين الشعر والنثر، يعود بين حين وآخر لتقديم تصورات رؤية حول قصيدة النثر، فهو يقول إن:

في قصيدة النثر (...) موسيقى. لكنها ليست موسيقى الخضوع للإيقاعات القديمة، بل هي موسيقى الاستجابة لإيقاع تجاربنا وحياتنا الجديدة - وهو إيقاع يتجدد كل لحظة (ص: ١١٦).

ويرجع هذا التردد بين تقديم تفسير لغوي لمفهوم الشعر، يستند إلى الدلالة والصورة وتقديم تأويلات رؤية الطابع، إلى الصراع الذي خاضته قصيدة النثر على صفحات مجلة «شعر» والمجابهة المعقدة التي دخلها هذا الشكل الشعري الجديد.

إن تردد المنظرين لقصيدة النثر في نسبتها إلى الجذر الأوروبي - الأمريكي وطرح تأويلات خاصة بوجود هذا النوع في الكتابة العربية، قد جعل أدونيس يقر بالجذر الأوروبي - الأمريكي ويشير في الوقت نفسه إلى التراث الصوفي العربي بوصفه منبعاً للاستلهام تستطيع قصيدة النثر العربية أن تجذ فيه سنداً ومجالاً للتعرف والاقتداء والاعتراف من هذه التجربة شديدة الغنى. ومن هنا، يقر أدونيس أن قصيدة النثر هي «نتيجة لتطور تعبيرى في الكتابة الأدبية الأمريكية - الأوروبية»<sup>(٦)</sup>. لكن ذلك لا يعنى أن هذه القصيدة بلا جذر عربى، ففي التراث الصوفى يجد الشاعر العربى «أن الشعر لا ينحصر فى الوزن، وأن طرق التعبير فى هذه الكتابات، وطرق استخدام اللغة هى، جوهرها، شعرية وإن كانت غير موزونة»<sup>(٧)</sup>. ويستند أدونيس، على عكس أنسى الحاج، إلى النظرية الشعرية العربية لمجابهة جبهة معارضة قصيدة النثر. ومن ثم يمكن عده أول من حاولوا التأسيس لمشروعية قصيدة النثر. إنه يرى أن تحديد شعرية الشعر بالوزن/ القافية أخذ

إن تنظير أنسى الحاج لقصيدة النثر يظل رؤى الطابع قائما على حدس الميزات التي تفرق هذا الشكل الشعري عن غيره. وهو يقول: «فى كل قصيدة نثر تلتقى دفعة فوضوية هدامة، وقوة تنظيم هندسى» (ص: ١١٧)، ومن «الجمع بين الفوضوية لجهة، والتنظيم الفنى لجهة أخرى، من الوحدة بين النقيضين تنفجر ديناميكية قصيدة النثر الخاصة» (ص: ٢٠). لكن ما هذه الدفعة الفوضوية الهدامة، وأية قوة تنظيم هندسى يقصد، وعلى أى أساس يقيم الشاعر تصورات؟

من الواضح، عبر مقابلة الأفكار الواردة فى مقدمة (لن) بالأفكار الواردة فى كتاب سوزان برنار (قصيدة النثر من بودليس إلى أمانا)، أن أنسى يترجم عبارات الناقدة الفرنسية أو يعيد صياغتها للتعبير عن رؤيته لمفهوم قصيدة النثر. لا جديد فى كلام أنسى الحاج عن الأسس النظرية لمفهوم قصيدة النثر سوى الشحنة الحماسية والرغبة فى الهدم وإعادة بناء مفهوم الشعر والقصيدة فى نظرية الأنواع الأدبية العربية. وعلينا أن نشير هنا إلى أن حماسة أنسى ورغبته العامة فى كتابة قصيدة جديدة لاتوافق مع منجز الشعرى. إنه يكتب قصائد متمردة تتخلص من الإيقاع الوزنى، وتخرب قواعد اللغة وتطعم الفصحى بالعامية، وتنتهك المواضع الأخلاقية السائدة، ولكنها سواء فى (لن) أو فى «الرأس المقطوع» لم تستطع أن تنجز نصا شعريا كبيرا كما فعل أدونيس مثلا. وما يعد إنجازا فى شعر أنسى الحاج تحقق بعد ذلك بسنوات فى مجموعتيه الشعريتين الثالثةين: «الرسولة بشعرها الطويل حتى النبايع» و«ماذا فعلت بالذهب، ماذا صنعت بالوردة» اللتين ترجعان صدى «نشيد الأنشاد» واللغة الإنجيلية بعامة.

من رؤية أنسى الحدسية نفسها ينطلق أدونيس. وهو فى (مقدمة للشعر العربى) ينفى شرط الوزن عن القصيدة عاداً إياه تحديدا خارجيا سطحيا<sup>(٨)</sup>، قائلا إن:

طريقة استخدام اللغة مقياس أساسى مباشر فى التمييز بين الشعر والنثر. فحيث نجيد باللغة عن طريقها العادية فى التعبير والدلالة، ونضيف إلى طاقاتها خصائص الإثارة والمفاجأة والدهشة، يكون



والعناصر الجمالية - كنتاج محمد الماغوط  
وأدونيس - بنحو أسهل مما منح للأعمال التي  
تفضل «تقنية الصدمة والتأثير» على الجمالية  
الشعرية، كما هي الحال في أعمال توفيق صايغ  
وجبرا إبراهيم جبرا وأنسى الحاج وإبراهيم  
شكرالله وحتى يوسف الخال (٨).

وهو لا يغفل عن تقديم إشارة كبيرة الأهمية إلى  
طبيعة تشكيل قصيدة النثر لدى محمد الماغوط. فقد دلت  
تجربة الماغوط لأعضاء التجمع أن الامتيازات التي عاينوها في  
نتائج الشعراء الغربيين:

قابلة للتحقق على يد الشاعر العربي، إذا توصل  
هذا الشاعر إلى التعويض عن غياب الوزن والقافية  
بالتركيز على عناصر جمالية أخرى تميز فن  
الشعر. من هنا نبع هذا التمرد الحاسم على  
التعريف الكلاسيكي الذي يرى في الوزن  
والقافية شرطين لاغنى عنهما في الشعر، وكما  
لو كانا العنصرين الأساسيين اللذين يميزانه عن  
النثر (ص: ٩٣).

بناء على التصور السابق، يحاول خير بك أن يحل  
قصيدة للماغوط تحليلاً إيقاعياً مكتشفاً فيها «كتلاً» إيقاعية  
متناسبة بدرجة أو أخرى، حسب تعبيره. وهو يعتقد أن الشاعر  
يفكر بإرادة واعية في إعطاء نصه مساحة موسيقية منتظمة  
(ص: ٢٩٧ - ٢٩٨). كما أنه يشير إلى أن إيقاعية  
القصيدة لا تتحقق بمعزل عن طريقة الإلقاء، ويتحقق هذا  
التصور لقصيدة النثر، أو لقصيدة الماغوط على الأقل، بفهم  
نبرى للمعروض العربي (٩). ونحن نعلم أن طريقة الإلقاء  
تتحكم في النبر وتعطي الشعر في اللغات النبرية (استناداً إلى  
التشديد على مقاطع معينها وعدم التشديد على مقاطع  
أخرى) انتظامه الإيقاعي.

لقد أحببت أن أورد هذه الملاحظة المهمة التي يعلق  
بها خير بك على شعر الماغوط بسبب محاولته غير الناجحة  
للإحياء بوجود إيقاع منتظم في بعض قصائد النثر العربية.  
لكن ذلك التصور الإشكالي يعيدنا إلى نقطة البدء الأولى.

يضطرب منذ القرن العاشر الميلادي خصوصاً في الدفاع  
النقدي الذي قام به أبو بكر الصولي انتصاراً لشعرية أبي  
تمام، وفي آراء عبد القاهر الجرجاني. فقد نشأ ميل إلى  
التشكيك في أن يكون الوزن والقافية مقياساً للتمييز بين  
الشعر والنثر. وتقسيم المعنى عند الجرجاني إلى نوعين،  
تخييلي وعقلي، دليل بارز. فحيث يكون النص قائماً على  
المعنى الثاني لا يكون شعراً، وإن جاء موزوناً مقفى (المصدر  
السابق، ص: ١١).

وهكذا نجد أدونيس يزاوج بين تصورين لقصيدة النثر  
العربية: الأول يرى أن جذرها غربي، وأنها نشأت بفعل  
احتكاك الشعراء الطليعيين العرب بمنجز بودلير وزامبو وسان  
جون بيرس ولوترهامون ووالث وبتمان. والثاني يحاول أن  
يؤسس مشروعية هذه القصيدة بالعودة إلى تعقيدات نظرية  
الشعر العربية بأسمى تطوراتها وأكثرها تحديداً لهوية الشعر  
ومفهوم الشعرية في عمل حازم القرطاجني وعبد القاهر  
الجرجاني. وينبثق من التصور الثاني محاولة للنظر إلى النثر  
الصوفي العربي بوصفه شعراً يمكن قياس قصيدة النثر عليه  
وعدها تطوراً من تطورات. صحيح أن العامل المحرض لنشوء  
قصيدة النثر العربية كان المشاققة والاحتكاك بإتجازات قصيدة  
النثر الأوروبية - الأمريكية، وكذلك نظرية قصيدة النثر كما  
طرحتها سوزان برنار، ولكن وجود منجز عربي، ألحق خطأ  
بحقل النثر، يشجع الشاعر والناقد العربيين على إعادة النظر  
في التراث لتوفير سند لشكل شعري يلقي هجوماً عنيفاً من  
قبل قلاع التقليد الشعري. ويفتح أدونيس ميداناً غنياً  
بالإمكانات لتحليل قصيدة النثر العربية بربطه هذه القصيدة  
بالنثر الصوفي.

أما كمال خيربك فيشير في كتابه المميز عن حركة  
الحدائق العربية إلى أن قصيدة النثر قد أتاحت لأعضاء تجمع  
«شعر» أن يعاينوا امتيازات التحرر من الوزن والقافية وهو يرى  
أن قصيدة النثر استطاعت،

وبفعل «روح التصميم الحدائي» لحركة «شعر»  
- أن تنال (...) حق الإقامة في مدينة الشعراء  
وقد منح هذا الحق للأعمال المشحونة بالصورة

والقافية كذلك، يجعل من الصورة المكون الرئيسى فى شعرية قصيدة النثر. لكن الصور الشعرية ميثوقة فى الرواية والقصة القصيرة والمقالة، ولربما فى السينما والمسرح، كما أن وجود الصور الشعرية فى نص بعينه لا يجعل من ذلك النص نصا شعريا، لا يحوله إلى قصيدة.

ولعل هذا الإشكال المعقد الذى تضعنا قصيدة النثر إزاءه هو الذى يجعل حاتم الصكر، فى ملاحظاته حول قصيدة النثر، يحدد على علاقة القارئ بالنص الشعرى، قائلا: إن قصيدة النثر هى:

قصيدة قراءة تخاطب عبر الجسد الورقى عينى القارئ لا أذنيه: وهى تخاطب معرفته الكتابية لا الشفاهية. وهذا يربط مزايا كثيرة منها استثمار الورقة للتوصيل دون الإلحاح على الوسائل الشفاهية بقافية الوزن أو الصيغ أو القوالب اللغوية الشفاهية. لذا، فهى تستغل البياض مثلا لتوصيل الإحساس بالزمن، وعلامات الترقيم لغرض توصيل الانفعال... وهذا ما لا يمكن لنص آخر أن يستثمره وهو واقع تحت هيمنة الوزن والقافية واللغة الشعرية النمطية<sup>(١٤)</sup>.

إن قصيدة النثر، إذن، مدفوعة باتجاه استثمار كل ما يعوضها عن العناصر السماعية التى تتوفر عليها قصيدة الوزن، والاتجاه إلى تكثيف توليد الصور والاهتمام بالشكل الطباعى للقصيدة واعتماد لغة المفارقة، والاعتماد على ما تسميه سوزان برنار «جمالية الحد الأدنى»<sup>(١٥)</sup>. ولقد رأينا فى استعراضنا السابق كيف أن التحلى عن الوزن، والإيقاع الوزنى بعامه، يخلق بلبله فى نظرية الشعر العربية ويلجئ الباحثين فى شعرية قصيدة النثر إلى البحث عن معايير أخرى غير الوزن للوقوف على سر قصيدة النثر الداخلى. وقد أشارت سوزان برنار فى كتابها المرجعى، الذى عرضنا لبعض أفكاره حول قصيدة النثر، إلى تأثير الترجمات فى نشوء قصيدة النثر الفرنسية؛ إذ أثبتت الترجمة أن نقل الشعر بلغة النثر لا يجعل القارئ يخرج الشعر المترجم من دائرة النوع الشعرى. إن ما يخسره الشعر فى

لأنه يحرف التعميد النظرى لقصيدة النثر عن وجهته الصحيحة، إذ إن شعرية قصيدة النثر تتحقق خارج إطار الانتظام الوزنى أو الإيقاعى. وكمال خير بك نفسه يقرر فى موضع آخر من كتابه أن «الاتحاد الكبير عن المنطق الجمالى التقليدى» (ص: ٣٦٥) قد كان فى أساس شخصية قصيدة النثر وطموحاتها.

بالمقابل، يحاول كمال أبو ديب أن يقيم تصورا نسبيا لشعرية الشعر، تصورا يقوم على التعويض عما يغيب من عناصر الشعرية. يقول أبو ديب:

يبدو فى تاريخ الشعر العربى بشكل خاص أن طغيان الانتظام الوزنى فى الشعر يرافقه انحسار للصورة الشعرية عنه. وكلما خف طغيان الانتظام الوزنى ازداد بروز الصورة الشعرية فى النصوص المنتجة<sup>(١٦)</sup>.

وبناء على ذلك، يستنتج أبو ديب أن «نسبة ورود الصورة الشعرية فى قصيدة النثر أعلى بمرات من ورودها فى شعر التفعيلة». ولكن أبوديب لا يقرر أن الصورة الشعرية هى العامل المحدد لشعرية قصيدة النثر، بل يجعلها عاملا أساسيا لا يقل أهمية عن الانتظام الوزنى فى قصيدة التفعيلة. ومع ذلك، فإن تحديد شعرية قصيدة النثر بدرجة فى تعريف أبوديب للشعر وشعرية الشعر فى إطار نظريته فى الفجوة - مسافة التوتر<sup>(١٧)</sup>؛ حيث يرى أن قصيدة النثر تخلق فجوة - مسافة توتر بين عناصرها المختلفة مؤسسة بذلك شعريتها<sup>(١٨)</sup>.

فى السياق نفسه، يمين صلاح فضل أن قصيدة النثر تعتمد الجمع بين الإجراءات المتناقضة؛ أى أنها تعتمد أساسا على فكرة التضاد، وتقوم على قوانين التعويض الشعرى<sup>(١٩)</sup>. وسبق لنا أن بينا وجهة نظر كمال أبو ديب حول فكرة التعويض البنىوى حيث تزداد نسبة ورود الصورة الشعرية فى غياب الإيقاع الوزنى.

إن تركيز كل من كمال أبو ديب وصلاح فضل على قدرة الصورة الشعرية على تعويض غياب الإيقاع الوزنى،

الضوء الذى ينكسر مع حركة اليد، ويلف  
مع النول، ويعوم  
على المجلى  
والذى يدور فى الصيوان، ويرتفع  
على عمود الملابس، وينتقل  
على درجات الرفوف  
كانه يرفو زوايا البيت  
بازلا للآنية جلستها المطبخية  
للإطار الفضى سهوه المعدنى  
للمسوح المعلقة عظام قصة

إنه يدخل من ثوب القبة القديمة  
بدون أن يزيح الظل الرمادى  
ويدخل إلى المخدع  
فى هيئة النوم.

يذكرنا توزيع الأسطر الشعرية السابقة بما أشار إليه  
حاتم الصكر من اعتماد قصيدة النثر على توزيع أسطرها  
واستثمارها البياض على الصفحة لتوصيل الإحساس بالزمن،  
أو الحركة. إن عباس بيضون يوزع الكلام فى قصيدته بحيث  
يستطيع القارئ متابعة حركة الضوء فى المكان. الضوء يدور  
فى المكان كنول، كإبرة تخطط الموجودات إلى بعضها بعضا،  
ويعطى للموجودات شكلها إذ يسلط نوره عليها. إن حضور  
الضوء متكرر، أبدى، وحركته تخترق كل شئ وتفضح  
الكوامن. والمدهش فى صورة الضوء هو ربطه بالإبرة، والمفزل،  
تعبيرا عن فعل الرفو أو الخياطة أو وصل الأشياء ببعضها. ثمة  
فى هذه الاستعارة البعيدة بعدان دلاليان: الضوء الذى يشبه  
الخيوط المتكرر (كغرز فى ثوب، يرفو زوايا البيت)، وهى  
صورة تدل على الاستمرار والتواصل، والضوء الذى يخترق  
ويفضح وينير ما هو مظلم ومخبأ ومتوار عن الأنظار. ويتكاس  
هذان البعدان الدلاليان فى صفة الضوء الذى يعطى للأشياء  
شكلها إذ ينيرها (بازلا للإثناء المعدنى جلسته المطبخية)،

الترجمة يُبقى على عناصر أخرى تجعلنا نقرأ القصيدة  
الترجمة بوصفها شعرا. ولا يتصل ذلك بمعرفتنا أن النص  
المرجم كان موزونا فى الأصل، أو بمفهوم القصد والنية  
كذلك، بل إنه يعود إلى ما يظل متوفرا فى القصيدة من  
عناصر لم تخسر فى الترجمة. وما يطبق على قصيدة النثر  
الفرنسية ينطبق على قصيدة النثر العربية التى أنشأنا من قبل  
إلى أن الترجمة كانت أساس ظهورها فى الشعر العربى، إذ  
بتأثير الترجمات، وكذلك عبر الاحتكاك المباشر بقصائد النثر  
الأوروبية والأمريكية، ومن خلال الاطلاع على أطروحة  
سوزان برنار (قصيدة النثر من بودليير إلى أيمن)، اكتسبت  
قصيدة النثر العربية شكلها.

ثمة عناصر تجعل القارئ يميز شعرية قصيدة النثر بعيدا  
عن الوزن وإيقاعاته. وإذا كان العديد من القراء العرب  
لا يستطيعون أن يقيموا جسورا من الفهم مع هذا الشكل  
الجديد من أشكال الكتابة الشعرية العربية، فإن ذلك يعود إلى  
رسوخ الذائقة التقليدية وثقل الموروث الشعرى. وسوف نتبين  
فى قراءتنا بعض النماذج التى أنتجها بعض شعراء السبعينيات  
والعقدين اللاحقين كيف تؤسس قصيدة النثر شعريتها.

## - ٢ -

يعمل عباس بيضون فى شعره على ابتداع صور تغلب  
عليها الغرابة، رغم أنه يستقى المادة التى تتكون منها صوره  
من الحياة اليومية والأشياء الاعتيادية، مما يجعل التواصل مع  
عالمه الشعرى صعبا على القارئ العادى الذى تربت ذائقته  
الشعرية على التعبير الواضح والصور التى يسهل عليه إسناده  
إلى مراجعها الواقعية. ومنختار من شعر عباس بيضون  
ما يسهل علينا تأويله والوقوف على دلالاته. فى قصيدة  
«الضوء»<sup>(١٦)</sup> اشتغال على صورة الضوء الذى يرفو الكون،  
يخطه ويفضح فى الوقت نفسه، كوامنه.

الضوء الذى تكرر آلاف المرات

كغرز فى ثوب

والذى ينير داخل الاحذية والمرتات

كما ينير عيون النساء

كما ينير

هنا يوظف لغايات شعرية، حيث يولد التناقض بين الحالتين الموصوفتين للرجل العادي عنصر المفارقة الذي تقوم عليه شعرية النص. ونحن نلاحظ في الكثير من نماذج قصيدة النثر أن شعريتها تستند بصورة أساسية إلى المفارقة إلى إدراكنا ما بهجته المتكلم في قصيدة سركون بولص «تحولات تغب الرجل العادي».

في قصيدة قصيرة أخرى من المجموعة نفسها «ضياء» (ص: ٢٠) تكمن شعرية النص في كثافة الصور الشعرية والاستعارات، في الإيجاز الشديد، في التعبير عن فكرة الماضي المحال، اختفى وراء الحجب، والإشارة في الوقت نفسه إلى قدرة الراوي في القصيدة على إدراك ما يخفيه الماضي عنه وراء تلك الحجب:

تخفى ضياءك عنى

وراء ستائر لاتحصى أيها الماضي

لكننى أعرف أين دفنت اللؤلؤة وكيف بنيت من حولها  
المدينة.

إن القصيدة السابقة تعد مثالا شائعا لما يسمى قصيدة التوبيعات، القصيدة شديدة القصر التي تقول بكلماتها القليلة الكثير، وتضح في سطورها، التي لاتتجاوز في عددها أصابع اليد الواحدة، عن رؤية شديدة الكثافة للوجود والتجربة. ويقترب هذا الشكل من أشكال الكتابة الشعرية من الهايكو الياباني الذي يتألف من ثلاثة سطور شعرية تعبر عن فكرة واحدة أو حالة شعورية محددة، أو أنها تورد صورة وحيدة مفردة. وهو شكل يناسب قصيدة النثر بسبب كثافته وإيجازه ووحدة الانطباع والتأثير التي يولدها.

ويمكن العثور على مثال آخر يستفيد من هذا الشكل في شعر سبف الرحبي، في قصيدة بعنوان «شبه» (١٨) حيث يخترع الشاعر السطور الشعرية الأربعة بضربة مفاجئة تترك نصبا حادا غير متوقع لدى القارئ. وهي كما يتضح من سطورها الأخيرة تشير في مرجعيتها إلى قصة أهل الكهف تدلالة على العيش في قرون سائلة وعدم الانتماء إلى القرن العشرين:

وهيئتها إذ يعوم فونها. إن صورة الضوء في هذه القصيدة لا تستنفذ رغم كثافة التعبير والإيجاز ووحدة الانطباع والتأثير التي تقع عليها. ولا يقلل من عمق هذه الصورة غموضها والظلال الدلالية التي تولدها، ولا هدفها. إن الشاعر يتأمل البعد الوجودي للضوء الذي يعوم فوق الكائنات ويصنع للملابس حكاية ويفضح ما يخفى مبقيها على الظلال الرمادية التي تلقى بشقلها على الأشياء. ويمكن للقارئ أن يوسع هذه الأبعاد الدلالية ويلقى المزيد من «الضوء» عليها في إشارة دالة على الأعماق التي لا تستنفذ لمثل هذه الصورة، وعلى الفيض الدلالي لملاقاتها الداخلية. وفي الحفر على هذه العلاقات يستطيع القارئ أن يدرك العمق البيوي لقصيدة النثر في بعض نماذجها الغنية الناضجة.

إن الصورة، كما لاحظنا، هي المكون الرئيسي لشعرية القصيدة. لكن الشاعر لا يكتفى بتوسيع الأبعاد الدلالية للصورة وتعميقها وخلق امتدادات لها في ما يتولد من صور وظلال للصور، بل إنه يستعمل توزيع الأسطر على بياض الصفحة في تقنية إضافية تعمق دلالة القصيدة وتجعل القارئ يتواصل مع القصيدة ككيان نابض يراه بالعين مثلما يدركه بالفكر.

سأنتقل الآن إلى نموذج آخر من نماذج قصيدة النثر العربية الجديدة اختاره من مجموعة سركون بولص الأخيرة (تحولات الرجل العادي) (١٧) يعتمد المفارقة لإظهار التناقض والتشديد على حالة الانفصام التي يعيشها المتكلم في القصيدة:

أنا في النهار رجل عادي

يؤدي واجباته العادية دون أن يشتكى

كأي خروف في القطيع، لكننى في الليل

نسُرُّ يعطلى الهضبة

وفريستى ترتاح تحت مخالبى

يصنع سركون بولص من الكلام التفسيري، من الوصف البارد لحياة رجل يشبه نفسه بأنه خروف في القطيع، قصيدة. لكن القصيدة لاتكتمل إلا في المفارقة. إن الوصف



لم نعد نشبه هذا البحر

ولا هذه الأرض

يبدو أن قرونا مرت بزواحفها

ونحن نيام .

يكتب صلاح فائق بالطريقة نفسها مقدم شديدة القصر  
تنتظم في نص طويل يضع له عنوانا عاما يفسر بؤرة إشراق  
النص، أو الحالة العامة التي حرصت الشاعر على الكتابة.  
ونحن نمثر على هذا النمط من أنماط قصيدة النثر في معظم  
مجموعاته الشعرية. من نص بعنوان «ومضات»<sup>(١٩)</sup>، أمثل  
بالمقطع التالي:

لسبب واحد أكتب:

أن أروى لحيواناتي

أساطير هذا الكوكب المندس (ص: ٢٧)

تمثل السطور الثلاثة السابقة باء قصيدة الهايكو بصورة  
نموذجية، بغض النظر عن كون الشاعر قصد إلى ذلك أم لم  
يقصد. فالمهم في هذا السياق هو أن السطور الثلاثة تنقل  
تجربة شعرية محددة وتعبر بأقل الكلمات عن هذه التجربة  
الشعرية لكاتب يائس من هذا العالم الأرضي المندس.  
ويضفي الغموض الدلالي لهذه السطور الشعرية شحنة دافقة  
من الإيحاءات والظلال التي توسع بؤرة النص وتعمق أبعاده  
ومعانيه.

وفي نص آخر بعنوان «آلتي» توفر السطور الأربعة التالية  
صورة التقطتها عين كاميرا:

في الأعلى صقر حائر

فاردًا جناحيه يحرق في الوديان

لا شجرة، لا بيت، لا مريسة لا شيء

سوى ظل واسع لجناحين يتحركان.

(ص: ٧١).

هذه الصورة الثابتة، رغم الكلام على جناحين يتحركان،  
ذات ظلال دلالية شديدة الإيحاء. إنها تعبير عن الوحدة في

الأعلى، عن التجربة العيشية التي يكابدها الإنسان (الكاتب؟  
الشاعر؟ الفنان؟)، وعن الشعور بالضيق والحيرة في صحراء  
العيش المقفرة. إن الصورة التي ترسمها السطور الأربعة تعبير  
شديد الدلالة على تمكن عدد من شعراء قصيدة النثر من  
تحقيق أكبر قدر من الكثافة والاختزال في شعرهم، والتخلي  
عن ترهل بنية القصيدة وتوليد الصور المجانية للتغطية على  
فقر الرؤية ونضوب الخيال واقتقاد القدرة على تنظيم القصيدة  
وإعطائها شكلا متماسكا.

هناك نموذج آخر من نماذج الاعتماد على المفارقة،  
حيث يقود الشاعر القارئ إلى مفارقة الموقف معصوب  
العينين لتسطع في الضربة النهائية للقصيدة حقيقة المشهد  
المغايرة لما أوجت به السطور الشعرية السابقة على السطر  
الختامي للقصيدة. ويمكن لنا أن نمثل على ذلك بقصيدة  
«الحائكة»<sup>(٢٠)</sup> لنوري الجراح التي تصور من زاوية نظر  
المتكلم في القصيدة مشهد الصاعدين والنازلين إلى الحافلة  
بينما يقلل المتكلم ملازما مقعده منتظرا نفاذ الضوء من كوة  
تفتح في ما تحوكة الحائكة العمياء:

الجميع ينزل ويذهب

ينزل ويذهب.

حتى الذين صعدوا

نزلوا وذهبوا

إلا أنا

لا أنزل ولا أذهب

لا أصعد ولا أنزل

باق

على المقعد

بأطراف تكسرت من الرجرجة

أتأمل الحائكة العمياء

مستغرقة

إلى أن ينفذ النور من جدار حياكتها.

لا نامة .

البنفسج لائذ بالجدار ،

والغيم يوجل ، خلف الزجاج ، فى الزرقة الغامضة .

فجأة ..

وقع خفيض ناعم فى المر

فجأة ..

عميقا عارما

يملا الغرفة

غياها .

إن هذا النوع من القصائد يستند فى شعرته على المفارقة ولكنه يعمل على تعميق المفارقة من خلال التشديد على حسية المشهد، وإيهام القارئ بواقعية ما يصفه، لكى تكون لحظة سطوع المفارقة شديدة الوقع على القارئ. من غير هذه التقنيات يمكن أن تسقط قصيدة الشر فى الرتبة والنثرة، وتفقد تماسكها ووحدتها الداخلية وقوة الانطباع الذى يراد منها أن تحدثه فى نفس القارئ. وقد استطاع شعراء قصيدة الشر فى العقدين الأخيرين أن يخلصوا قصيدتهم من الذهنية البارزة التى كانت تسيطر فى قصائد توفيق صايغ وجبرا إبراهيم جبرا وأنسى الحاج، وذلك من خلال تمكنهم من استعمال أسلوب «تقنية الصدمة والتأثير» دون لفت انتباه القارئ إلى البعد ذهنى لهذه التقنية.

ثمة تنوعات أخرى فى إطار قصيدة الشر. إن استخدام المادة اليومية وتفصيل العيش يأخذ منحى فانتازيا أحيانا، كابوسيا أحيانا أخرى. ونحن نعثر فى شعر أمجد ناصر على قصائد تجدل المادة اليومية بالغريب والفانتازي. فى قصيدة «قمصان»<sup>(٢٢)</sup> يبدو المشهد الشعري كأنه تأملات حول القمصان، تداعيات حول القمصان ووظائفها، لكن الحديث عن القمصان يبدو فى النهاية مجرد وسيلة للتعبير عن خسارات الكائن وهزائمه، وسيلة لتفريغ الإحباطات وتعاست الليل التى تسفر عن وجهها فى الصباحات الطالعة على الخاسرين:

تتوفر القصيدة السابقة على صورتين متقابلتين: صورة الراكب الذى يلازم مقعده فى الحافلة، يصعد الصاعدون وينزل النازلون وهو باق لا يتزحزح من مكانه، وصورة الحائكة العمياء التى ينقطر الراكب أن يفلد النور من خلال ما يحركه. وتنعكس صورتان أبدية الانتظار وعبثيته فى تعبير مستحيل عن وصول جودو الذى لا يصل. إن نوري الجراح يكتب قصيدة تعتمد تفاسيل الحياة اليومية ولكنه يبنى من هذه التفاصيل صيغة الحلم أو الكابوس فى زمن الانتظار الطويل وتيبس الأطراف على مقاعد الحافلات التى تروح وتجي وتروح وتجي فى المدن الغريبة.

كل التجارب فى هذا العالم يمكن التعبير عنها فى قصيدة الشر، وكل أنواع الصور معروضة فى قصائد الشر الجديدة: من الصور السريالية شديدة الغموض، كما رأينا فى عمل صلاح فائق، إلى الاستعارات الحسية الكثيرة التى يسهل على القارئ تعرف مرجعياتها الواقعية وتأويلها. فى قصيدة «فجأة، عميقا عارما»<sup>(٢١)</sup>، يقوم وليد خازندار بوصف المنظر الداخلى لغرفة وموجوداتها: الكراسى والكنزة المفرودة لتجف على رخام النافذة، ونبات البنفسج المحتسى بالجدار، والغيم البادى من خلال زجاج النافذة. كل شئ يوحي بغياب المرأة عن غرفتها، ولكن سطور القصيدة الأخيرة تصور فجأة حضور المرأة فى المر وغياها العميق العارم الذى يرن وقعة داخل الأنا التى تقوم بوصف المشهد:

غرفتها الفارغة:

كرسى أسود جلد إلى اليمين

كرسى أسود جلد إلى اليسار

كنزة سوداء خضراء

ملولة

مستهامة

على رخام النافذة .

لاشئ: غرفتها الفارغة .

لاربيع

وتصير يداى جناحين لحميين  
وأخرج من النافذة  
وطواطا ضخما يحلق فوق البيوت  
فوق السيل  
فوق النهر المحروق  
ألوك خلاص مواليد العتمة والخوف  
أطفى الشمعة  
وأنكش الكابوس  
صارخا فى هذا الليل  
طيرا بلا ريش ولا منقار .

فى كل صباح  
نتهض من أحلامنا المفتالة  
وعلى أفواهنا أحماض الليالى  
وثمة فى الشفتين  
رغبات مهزومة ، وآخر الكلام .  
نهرع إلى الادراج والمشاحب  
وبحركات ملولة  
نبعث الثياب اليابسة  
بحثا عن قميص مناسب

إن القصيدة السابقة مثال واضح على قصائد تعتمد  
الغريب والفاثتازى للتعبير عن الكابوس . وذكرها محمد ، على  
عكس أمجد ناصر ، بمسح الكائنات ، يحول الكائن الإنسانى  
إلى وطواط . إن مراحل التحول ، أو المسح ، تندرج من التحاق  
المتكلم بالكائنات الأرضية الزاحفة إلى طيور الظلام تعبيرا عن  
انفجار المكبوت والصورة الشيطانية للكائن . ونحن نعثر فى  
القصيدة على ما يميل للشام عن هذا البعد الشيطانى فى  
عملية المسح (ألوك خلاص مواليد العتمة والخوف) . وشعرية  
القصيدة تركز بشكل أساسى إلى هذا البعد الخفى فى عالمها  
الداخلى ، إلى صور التحول وكشافة الصور المعبرة عن هذا  
التحول ، إلى الإدهاش والغربة ، إلى الضربة النهائية فى نص  
يجسد قمة اليأس والعجز عن مدافعة التحول إلى مسخ يطوف  
فى الظلام فوق البيوت والأنهار المحروقة وبلوك لحم العتمة .

- ٣ -

من النماذج السابقة لقصيدة النشر ، تلك التى عرضنا لها  
بالتحليل والإشارة ، نتبين كيف أن بالإمكان التحقق من  
شعرية قصيدة النشر الجديدة استنادا إلى بعض المعايير التى  
لخصناها فى هذه المقالة . إن معايير الإيجاز والمجانبة واللازمية  
والكشافة والوحدة توفر أدوات تمكننا من مقارنة قصائد النشر .  
لكن تلك المعايير لا تكفى وحدها لفهم كيفية بناء قصيدة

إن الشاعر يعمل فى السطور الأخيرة للقصيدة على  
إدخال المشهد الشعرى فى بؤرة الغريب والفاثتازى فى عملية  
تحويل للطبيعة وتبادل لوظائف اللابس والمنسوس ، بمعنى أنسنة  
الأشياء الجامدة لخلق إحساس من الألفة المتقدمة فى الحياة  
اليومية التى ترد الإشارة إليها من خلال القصصات .

فى الليل تهيم القصصان  
على وجوها ، بحثا عن المناك  
والأزوار المتساقطة

سأختم هذه الإشارات إلى نماذج من قصائد النشر التى  
يكتبها جيل السبعينيات والثمانينيات فى الشعر العربى  
بقصيدة لتركيا محمد بعنوان «الوطواط»<sup>(١٢٣)</sup> ، وهى تنتمى  
إلى نوع القصائد التى تستخدم الوصف والسرود وتوظفهما  
لإحداث صدمة فى وعى القارئ من خلال ما يحدث فى  
السطر الأخير من القصيدة :

بعد أن يغفو الأطفال  
وترقد الزوجة  
ويثبت الظلام  
تنبت لى أذنا فار

لها في بحث قصير نسبياً يخل بصورتها، ويلجئنا إلى الاجتزاء واعتماد أسلوب الطمس وإشاحة البصر عن مسائل أساسية لا يمكن تفصيل الحديث حولها، بسبب السرعة والرغبة في الوصول إلى نتائج بحث يمزج بين أسلوب العرض النظري والقراءة التطبيقية التي تلتقط المكونات الفعلية والمفاصل الأساسية في النصوص الشعرية، للبرهنة في النهاية على الحضور العميق لعناصر الشعرية في قصيدة النثر.

النثر شعريتها، والحل في رأيي يكمن في استخلاص معايير الشعرية التي تتوفر عليها القصائد من قراءتها وتعرف رؤيتها للعالم والوقوع على طريقة بنائها موادها.

وفي نهاية هذه المقالة، أريد أن أشير إلى أن اختياري لقصائد قصيرة لتحليلها لا يعني أنها هي النموذج الوحيد الشائع في قصيدة النثر العربية. ثمة عدد كبير من النصوص اللافئة التي تعتمد النمو والتركيب والامتداد، ولكن التعرض

## الهوامش:

(١٠) كمال أبو ديب، في الشعرية، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٧، ص: ٩١

(١١) يعرف أبو ديب مفهوم الفجرة - مسافة التوتر بأنه «الفضاء الذي ينشأ من إقحام مكونات الوجود، أو اللغة أو لأي عناصر تنتمي إلى مايسميه باكويسون «نظام الترميز» في سياق تقوم فيه بينها علاقات ذات بمدين متميزين، فهي: ١- علاقات تقدم باعتبارها طبيعة نابعة من الخصائص والوظائف العادية للمكونات المذكورة، ومنظمة في بنية لغوية تمتلك صفة الطبيعة والألفة، لكنها ٢- علاقات تمتلك خصيصة اللاتجانس أو اللاتطبيع: أي أن العلاقات هي تحديدا لا متجانسة لكنها في السياق الذي تقدم فيه تطرح في صيغة التجانس». المصدر السابق، ص: ٢١.

(١٢) انظر تحليل أبو ديب قصيدة أدونيس «فارس الكلمات الغريبة»، المصدر السابق، ص: ١١٦ - ١٢٢.

(١٣) صلاح فضل، أساليب الشعرية المعاصرة، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٥، ص: ٢١٩

(١٤) حسام العسكو، ما لا يزدبه الصفة: المقترحات اللسانية والأسلوبية والشعرية، دار كتابات، بيروت، ١٩٩٣، ص: ٩٣.

(١٥) تقول سوزان برنار عن «جمالية الحد الأدنى» إنها سوف تكون القاعدة في قصيدة النثر وفي قصيدة الشعر. وسوف يعيد الشعراء تركيب عالم غريب مختلف شتعر فيه بالغمرة كما لو كنا مسافرين على كوكب آخر باستخدام المواد الاعتيادية جدا والحقائق اليومية وكلمات الأيام العادية والأشياء المبتذلة. على الشعر ألا يتدفق من جمال التعبير قدر تدفقه من صيغة الرؤية. قصيدة النثر... ص: ٢١٨ - ٢١٩.

تنسء العبارة السابقة، الشديدة النفاذ في رأيي، معظم ما يكتب الآن من قصائد نثر في العربية. فريقة الشاعر هي التي تضفي الوحدة على ما يكتبه من شعر، وليس الوزن أو الإيقاع الداخلي الذي حاول بعض النقاد أن يستكشفوه في قصيدة النثر. إن التنوع الهائل في عالم قصيدة النثر يجعل

(١) ويمثل المنجز الرئيسي لشعراء هذه المرحلة في قصائد النثر التي كتبها محمد الماغوط وأدونيس.

(٢) سوزان برنار، قصيدة النثر: من بودلير إلى أمانا، ترجمة: زهير مجيد مفاس، دار المأمون، بغداد، ١٩٩٣، ص: ١٦.

(٣) «أن تعلم، نصرخ. في مجموعتك صراخ يفتح باب الرعب»، «يسرطن العافية». صحيح أن الصراخ قلما يكون وسيلة الشعر، لكنه في هذه اللحظة من تاريخنا، قدر نفسى بحكمنا. ومن يوقظ النيام المهدرين قد لا يكفيه الصراخ وحده.

هكذا تقرنا مجموعتك الشعرية من الوقوف، وجهها لوجه، مع اللحظة العرجة أو قل الحاسمة، في تاريخنا الشعري. وبهذه المجموعة، إذن، يزداد اتجاهنا صوب ما يجب أن نتجه إليه، في الشعر والفكر من رسالة إلى أنسى الحاج تليقا على صدور ديوانه لن انظر: أدونيس، زمن الشعر، دار العودة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٨، ص: ٢٢٦

(٤) أنسى الحاج، مقدمة ديوانه لسن، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢، ص: ٩.

(٥) أدونيس، مقدمة للشعر العربي، دار العودة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٣، ص: ١١٢.

(٦) أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، دار العودة، بيروت، ١٩٨٠، ص: ٣١٦

(٧) أدونيس، سياسة الشعر، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٥، ص: ٧٦.

(٨) كمال خير بك، حركة الحدالة في الشعر العربي المعاصر: دراسة حول الإطار الاجتماعي الثقافي للاتجاهات والبنى الأدبية، المشرق للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٢، ص: ٣٥٥

(٩) لا يشدد كمال بك على نبرة الشعر العربي حيث إن الأساس العروضي لإيقاع البيت في القصيدة العربية شيء مؤكد لديه. ولذلك، فهو يستنتج أن دور النبر تعويض غالبا ويقتصر على التقوية.

انظر تحليله بعض الأبيات من الشعر العربي ص: ٤٠٩ - ٤٢٨،

وكذلك ملاحظته ص: ٣٣١ في حركة الحدالة.



- (١٩) صلاح فائق، أعوام، منشورات الجمل، كولونيا، ١٩٩٣، ص: ١٦.  
(٢٠) نوري الجراح، مجازاة الصوت ورجل الكارمي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥، ص: ٢٣.  
(٢١) وليد خازندار، أفصال مضارعة، دار ابن رشد، بيروت، ١٩٨٦، ص: ٤١.  
(٢٢) أمجد ناصر، أكر العابر: مختارات شعرية، دار شرقيات، القاهرة، ١٩٩٥، ص: ٥١.  
(٢٣) زكريا محمد، الجواد يجتاز أسكندار، دار السراة، لندن، ١٩٩٤، ص: ٤٨.

- اكتشاف القرائن الداخلية لكل قصيدة عملا إبداعيا، لأن لكل قصيدة شكلها وانتظامها الداخلي.  
(١٦) عباس بيضون، الوقت بجرعات كبيرة، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٢، ص: ١٣.  
(١٧) سركون بولص، حامل الفانوس في ليل الذئاب، منشورات الجمل، كولونيا، ١٩٩٦، ص: ٦٧.  
(١٨) سيف الرحبي، جبال، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٦، ص: ٢٢.



الجامعة العربية



# التجريب فى القصيدة المعاصرة

أشكال التعبير عن دلالات التشظى والغياب  
فى القصيدة العربية المعاصرة وتكثيفات توظيفها

وليد منير\*

ويلقى كل ذلك بظله الثقيل على أنماط العلاقات الإنسانية حد أن تنشوه علاقة الأنا بذاتها، فضلاً عن نشوه علاقاتها بالآخر. هنا، لا يصبح «الآخرون فقط هم الجحيم» كما يقول «سارتر»، بل تصبح الأنا كذلك جحيماً فى عالم يمثل الجحيم لحمته وسداه.

يعبر الفكر المعاصر عن هذا الجحيم عبر احتفاله المتواصل بمفاهيم «الاغتراب» و«الجنون» و«السلطة» و«العيب» و«التمرد» و«التفكيك» و«التناقض» وتأكيد إياها. ويعبر الفن والأدب فى تياراتهما الحديثة عن هذه المفاهيم أيضاً بأساليهما الخاصة.

وبالرغم من أن صناعة الجحيم قد بدأت ونمت وتبلورت على صعيدى الأسباب والنتائج فى الغرب الرأسمالى؛ وشهدت ذروتها فى انفراد النظام العالمى الجديد بالهيسنة، فإن مشهد الجحيم بتفصيلاته المتزايدة قد امتد واتسع فى واقع المجتمعات غير الغربية على نحو أكثر تشويشاً

يبدو التشظى والغياب جزءاً لا يتجزأ من نسج العالم المعاصر، ومن صميم تكوينه، فحاضر الوجود الإنسانى يتسم بكونه حاضراً مبعثراً، ممزق الأوصال، مشحوناً بالتناقضات الصارخة التى تدمر إيقاعه تدميراً، وتجعل من صورته انعكاساً واضحاً لمعانى العيب والاستلاب واليأس واللاجدوى، أى تجعل منها تعبيراً عن نزوع الغياب لا عن قوة الحضور.

وبالرغم من حيوية الاكتشافات العلمية المستمرة، والتطور الدائب فى نظم المعلومات والتقنية على المستويات كافة، فإن الحياة نفسها تفقد دوافع نموها واتصالها على نحو عجيب، كأن التقدم يحوى بذرة الفناء فى داخله. ولعل فقدان الضوابط القيمية التى تحكم استخدام منجزات التقدم وتوظيفها هو ربح هذه المفارقة المؤلمة، فالاحتكاكات والحروب واختلالات التوزيع بأنواعها العديدة تؤصل المفارقة وتعمق من إدراكها.

\* شاعر وناقد مصرى.

يؤكد فروم كوننا مقبلين على كارثة، ويقرر أن جهداً جاداً لا يبدل لتلافيها، كأن الأمر كله قدر لا راد له.

هل تولد هذه الحقيقة الشعور بالخوف، بالعجز، بالفقدان، بالغياب، بانتصار العدم؟ وفى العالم الفقير كما فى العالم الغنى ثمة إدراك بعيد للمخاطر التى تنطوى عليها سياسة عدم الانساق بين الحرية والعقل، بين التراكم والتحقق الإنسانى الموسوم بالأصالة، بين نمو الأنساق والأنظمة والمؤسسات وانكماش الإحساس بالأمان والسعادة، بل إن البشر فى المجتمعات الإنسانية الفقيرة يخلخلهم شعور مزدوج بالقهر لأنهم ضحية التردى الداخلى والاستغلال الخارجى فى آن. وهم يعيشون، بالرغم من ذلك، نتائج منظومة غريبة عنهم، قفزوا إليها عبر عملية استيراد حضارى غير منتظم، فى بيئة نفد - بدءاً - مقومات استيعاب السلعة الواردة بقدر ما تفقد القدرة على مجاوزة الآثار الجانبية لها، فهى تشبه المريض الذى يتناول الدواء دون التفات إلى مقدار الجرعة الواجبة أو إلى احتياطات الاستعمال ونواحيه، لأنه لا يعرف خواصه الدقيقة، ويجهل تركيبه ومدى فاعليته.

تؤدى سياسة عدم الانساق إلى التشوه العام، ويؤدى التشوه العام إلى أشكال فردية من التشوه، وتعمل هذه الأشكال الفردية على انحراف الوقائع الإنسانية الصغيرة عن مسارها، وإضفاء طابع عيشى مأساوى - تدريجياً - على كل شئ. وعن طريق الانشطار والتسلسل كما يحدث فى التفاعلات الفيزيائية العالية، وعن طريق ما يصحب هذا الانشطار وذلك التسلسل من تبادل مستمر للآليات بين النظام العام والأشكال الفردية، يتأسس اليأس وفقدان الثقة والتباس الضمير واعتماد التخاطب والشعور الممض بالتنافر والسلب والكراهية. وربما تتولد الرغبة فى الانسحاب أو الرغبة فى العنف. وكلتا الرغبةيتين تعبير - فى الحقيقة - عن الغياب، سواء أكان غياب الأنا أم غياب الآخر أم كليهما معاً.

- ٤ -

يأخذ التعبير عن دلالات التشظى والغياب فى القصيدة العربية المعاصرة أشكالاً عدة أهمها فيما نرى: «الحذف»

واضطراباً، مما ضاعف تأثير النتائج، وحال دون مقاومتها مقاومة فعالة، وأفضى إلى فوضى القيم وتداخل المعايير بصورة فادحة.

- ٢ -

على حين يرث العالم من تاريخه القديم صورة الاستبداد والقهر، يستعير من عالم الغرب الحديث مظهر القيم التى أنتجتها آلة الحداثة التقنية دون مرشدين أو ضوابط. وبذلك فهو يجمع كل المآل فى سلة واحدة.

تؤدى هذه التوليفة الرديئة إلى نفى أصالة الوعى، وتفضى إلى زيف الفعل، وهكذا نشأت المصصلة الأخيرة بهزيمة محققة.

تستقبل المجتمعات الهزيمة فى سوره الانهيار السياسى - الاجتماعى - الاقتصادى، ولكن الفرد يستقبلها - على مدى أبعد - فى صورة الجنون وصورة التسعيل وصورة الانسحاق العيشى، مما يجعل الغياب المحور الأساسى فى حضور الخطاب، كما يجعل التشظى الرسالة الأم، الرسالة المفقطة التى تغوى الروح أن تجرب نفسها بعيداً عن الواقع الذى ينافسها بغرابته. أليس عليها أن تصنع من دنائها أضروحة موازية لأطروحة الواقع ومختلفة عنه فى آن؟ أليس عليها أن تثبت وجود الإمكان فى مقابل الضرورة حتى لو كان هذا الإمكان مسكوناً بكآبة سرية أو بشفافية معتمة؟! إنها إعادة إنتاج المفارقة أو تمثيلها على نحو آخر، لا شأن للخارج به، باطنى وشخصى وغير قابل للمحاكمة؛ يلتصق اخروج الذى انفتح على المحال دون أن يعي.

- ٣ -

يقول إريك فروم إن المجتمع الإنسانى المعاصر يقف على حافة الفناء ما لم يحدث تعبير أساسى فى قيم البشر واتجاهاتهم. بيد أن هذا التغيير لن يكون ممكناً - فى رأيه - إلا - حال اقتترانه بتغييرات اقتصادية واجتماعية جذرية، تنبع للقلب الإنسانى فرصة التغيير، وتسمح بالتعبير والشجاعة اللازمين<sup>(١)</sup>.

- ٥ -

«القلب»، «القطع»، «التشدير»، «إحلال التضاد»، «إشباع سياق النفي»، «التظليل»، «التشويه».

وترمى هذه الأشكال جميعها إلى أسلبة حالة العزلة الإنسانية وتشكيلها تشكيلاً موازياً لمضمونها. وتكاد أغلب هذه الأشكال أن تمثل قاسماً مشتركاً بين عدد من الفنون كفن الشعر وفن السينما وفن الرسم. إنها تصوغ شعرية الحالة في كل هذه الفنون، وتشحن طاقتها الإيحائية، وتبرز التفافها حول المعنى.

وليس غريباً أن تعمل هذه الأشكال، أو بعضها، على تسويغ عالم فانتازي مفارق لعالمنا المألوف، فمن طريق ذلك العالم المفارق فقط تستطيع الأنا المشظاة أو الغائبة أن تعثر على حضورها الأسطوري، وأن تكون قريبة من لا وعيها الذي يفضح سره لشدة ما يسهر عليه، كما يقول «باشلار»:

تتوقف الحركة من وضع إلى آخر على تلك القدرة التي تتشبع من خلالها الفانتازيا بالرمز، وفي وسع بعض قياسات التحكم الرمزي هنا أن تتحقق مادامت الفانتازيا تمنحنا هبة الفرار من الكينونة (٢).

لن تكون الكتابة، منذ الآن، بيت العالم، بل ستكون بيت الغريب الذي يبحث عن حضوره الآخر. الكتابة بيت في فضاء الزمن، واسع باتساعه، لا يتحد تضاريس المكان، أو كما يقول «أدونيس» عن «الشعراء»:

يصنعون

للفضاء مفاتيحه .

لم يقيموا .

نسباً أو يبيوتاً

لأساطيرهم

كتبوها

مثملاً تكتب الشمس تاريخها.

لا مكان ...

(كتاب القصائد الخمس تليها المطابقات والأوتل)

«الحذف» هو بلاغة الغياب الأولى. وهو يصنع قفزة مفاجئة فوق فجوة غير منظورة. الحذف نوع من المحو. هل نكون مفرطين في التأويل إذا قررنا أن الحذف يمثل نزوعاً طائغياً إلى استبعاد جزء أساسي من الوجود الملموس، من الأنا أو من العالم كي يؤكد حضور ما ليس ملموساً؟

يقول محمود درويش في «كان ما سوف يكون»:

مرت بين كفيّنا عصافير وموت عائلي .

ليس هذا زمناً . عاد شتاء آخر . ماتت نساء .

الخيال في حقل بعيد . قال إن الوقت لا يخرج مني .

(أعراس)

يحدثنا الشاعر عن «الانفلات»؛ عن مروق الذكرى، وعن الدوء العائلي الذي غاب بالموت، عن العصافير أو الأحلام الهاربة، وعن زمن لا تجد الأنا فيه هويتها. ويتم القفز من لحظة الذاكرة المفعمة بالأسى فجأة إلى حاضرمادى دون تمهيد. تبلور مسافة الفراغ لإحباطها عن طريق التداعي. ويستحضر فصل سقوط الأوراق والريح والمطر ذكريات عصف الماضي بالقلب، ثم تتم قفزة أخرى أوسع وأكثر حدة حيث تلمع فانتازيا الموت من جديد على نحو يثير الشجن، ويربط بين الأنوثة والنبالة والطبيعة في سياق التأمل والإيغال في التباعد والتلاشي. وتأتي القفزة الأخيرة لتصف الأنا بكونها محبس الوقت وقفصه وسكناء. ثمة أشياء مفقودة بين الذاكرة والحاضر، وبين الحاضر ومشهد الموت العجيب في المكان النائي، وبين ذلك المشهد والوقت الذي يقطن جسد رجل أو روحه. هذه الأشياء المفقودة لم تضيع ولكنها ضيبت لكي يحل محلها ما لم يكن موجوداً من قبل؛ تأثير الرغبة الذي يعكس الشهود في الغياب، فتصبح «أجسادنا أرواحنا» كما يقول المتصوفة، أو كشافة الزمن النفسي الداخلي الذي يختزل التدرج والتعاقب في منطق معاكس يجد تبريره في الحلم حيث تنكسر حلقات الاتصال الظاهرة في سلسلة الأحداث ليكون ما ليس في الإمكان ممكناً. ويقول سعدى يوسف في «كيف؟»:

- ٦ -

وفي الحلم

تدخل حتى الشجيرة

مثقلة بالسكاكين ...

... ..

... ..

... ..

هل قلت: إنا انتهينا؟

(لوحية: يستبفظ)

هنا يتم الحذف بطريقة أكثر إفصاحاً من نفسها. إن ما يقع عمداً من مشهد الدخول والخروج على مسرح الحلم يبادر - بدءاً - بتأكيد بدهة الغياب. فإذا كانت الغصون سكاكين فليس ثمة ما يرر سرد تفصيلات المذبحة. كان في وسعنا أن نتوقع من الشاعر قولاً من شأنه أن يضفي النجوة. المعتمة، وكان في وسعه أن يقول لنا

وفي الحلم

تدخل حتى الشجيرة

مثقلة بالسكاكين،

(تترك أغصانها جسد)

كالشبابيك

أنزف

حتى يدثرنى بعباءته الموت)

هل قلت: إنا انتهينا؟

بيد أن الشاعر لم يقل هذا. لقد ترك لنا أن نملأ السطور الثلاثة بالمراحل الثلاث: النعم، فالنزيف، فالموت. الغياب لا يحتاج إلى تأكيده بالكلمات. ولكنه يحتاج إلى تأكيده بالصمت، يكفي أن تدخل الشجيرة القاتلة غابة الحلم ليستدرك القتل بتساؤه ما كان قد نسب: هل قلت إنا انتهينا؟

يسعى «القلب» إلى نوع من الإبدال أو كسر التعاقب المعروف ليميز تفرد حدث ما، مذهش، وغريب، وخارق للمألوف. من ذلك قوله تعالى «ثم دنا فتدلى» فالأصل في ذلك «تدلى فدنا» أو قوله تعالى «فضحكت» فبشرناها بإسحاق» فالأصل في ذلك «فبشرناها بإسحاق» فضحكت» ولكن في حدث المعراج أو في حدث الإنجاب بعد تمكن الهرم من الإنسان ما يشي بالإعجاز والغرابة، مما دعا إلى تقديم ما وجب تأخير وتأخير ما وجب تقديمه لإظهار خرق العادة ومجاوزة الأسباب.

في سياق التعبير عن دلالات التشظى والغياب يعمل «القلب» على تأصيل عنصر المفاجأة أو البهتة، وتدشين عجائبية الحدث، واختطاف الواقع من واقعيته لإعادة تشكيله بوصفه فانتازيا مفارقة لمنطق اليومي والعادي والسائد.

يقول محمود درويش:

كان ما سوف يكون

فضحتني السنبلة

ثم أهدتني السنونو

لعيون القتل

(كان ما سوف يكون/ أعراس)

لقد صار المستقبل البعيد ماضياً قريباً. تم استعجال الموت إلى حد لم يعد للوقت به طاقة على الانتظار. الفضيحة والهدية يتقاسمان الخيانة، السنبلة والسنونو، الأرض والمدى. فقد المكان ضميره فنعكس الزمن مساره، وتدفع من المستقبل إلى الماضي ليكتمل غياب الأنا اكتمالاً أسطورياً في الحاضر الذي يصبح فيه القتل هدية لعيون قاتله. هذه المجانية الفادحة هي التي تؤكد مأساة الموقف، وتكشف عن عبثيته، في أن.

وإذا كان العنوان هو العلامة الأولية التي تهجس بالمعنى أو بالمدخل الذي يضئ - بدءاً - فضاء النص، فإن عنوان «كان ما سوف يكون» يضع الآتي موضع «المقلوب» منذ اللحظة الأولى. وعلى النحو نفسه يجعل محمد عفيفي



يقول عبد الوهاب البياتي في قصيدة (المغنى والقمر):

- ١ -

رأيتَه يلعب بالقلوب والياقوتُ

- ٢ -

رأيتَه يموتُ

- ٣ -

قميصه ملطخ بالتوتُ

وخنجر في قلبه

وخيط عنكبوتُ

يلتف حول نايه المحطم الصموتُ

وقمر أخضر في عيونهِ

يغيب عبر شرفات الليل والبيوتُ

وهو على قارعة الطريق في سكونية يموتُ

إن «الانحراف» الأساسى يكمن فى القطع الأول؛ أى فى الربط بين اللقطتين (١)، (٢) على ما بينهما من تباعد لافت، أما اللقطة (٣) فتتعد امتداداً للقطعة (٢)، ولكن اختزال اللقطات اختزالاً شديداً يمثل، إذا اقتصرنا بالقطع الذى ينهض بربط التباعدات، عصباً درامياً متوتراً ومشدوداً، ويعكس حالة من المداهمة والفجائية والدهشة. إن القطع ينطوى على «الحذف» أيضاً، ولكنه يتسم، إضافة إلى ذلك، بحدة أكبر وتحديد أشد نتوءاً لأنه يعتمد فى جوهره على الغزل.

إن اللقطة هى أصغر وحدة من المونتاج كما يقول يورى لوتمان، وليس تتابع لقطتين هو مجموعهما، بل هو اندماجهما فى وحدة دلالية مركبة من مستوى أعلى<sup>(٣)</sup>.

يطلق جون كوهين على هذا النوع من الربط «ربط المجاورة» وهو نوع يتخطى الربط عن طريق العطف، والربط عن طريق المجاورة.

يميل «الحذف» غالباً إلى الربط عن طريق المجاورة، ولكن «القطع» ينزع - فى أعلى مستوياته - إلى الربط عن

مطر لإحدى قصائده هذا العنوان: «وجوها ينتظف الدم» ليكون «القلب» هو العلامة الأولية فى القصيدة والمداخل إلى فضائها:

واركض فلان فلاة الروح واسعة

والموت ظلى قوافٍ، ربما انفتقت منه الجوارح

فى عينيك فانهملت هذى الوجوه :

فهل هذى الدماء إلى يوم القيامة ؟!

قال الراحلون : أجل ....

(وجوها ينتظف الدم) احتفاليات المومياء المتوحشة

تنبثق الوجوه من الدم أو تقطر منه ليصبح الدم هو الأصل الذى يخفى طيه الصور. وعندما يسيل يصير - بفتة - مرآة تفضح خلقة الخلائق. والوجوه، كذلك، دموع تهمل من العينين اللتين انفجرت فيهما القوافى على هيئة حيوان جميل ورشيق ولكنه يمثل استعارة للموت. هل الموت جميل ورشيق كالقصيدة؟ وهل القصيدة هدف للصيد أو للذبح كالغزال؟ يقول الراحلون: أجل. والراحلون هم الغائبون المنفيون بالموت أو السفر أو الصمت عن الكلام، وجوهرهم شظايا من مرايا الدم أو عقد دمع مفروط يرف مرثية القوافى إلى فلاة الروح الواسعة.

إن «القلب» مفارقة تعكس دورة الطبيعة والزمن والأشياء، لتتقدم النتيجة على السبب، والمعلول على العلة والقضية على البرهان. وهى بذلك تفترض الحقيقة المضادة دوماً بوصفها أصلاً وبداية فى تاريخ تأسيس الوجود المؤول أو الكامن.

- ٧ -

يمثل «القطع» شكلاً من أشكال الربط. ويقدر ما يكون التعاقب أو الاتصال قائماً بين لقطتين متباعدتين فى المغزى أو الدلالة تصبح الوحدة التركيبية أكثر تعقيداً وصعوبة. ويميز هذا الأسلوب واضحاً فى فن السينما، ولكنه يتفرد فى اللغة الشعرية بخلق حساسية على جانب كبير من العمق والغمرى والشفافية فى آن.

طريق المجاوزة لكي يحقق أقصى فاعلية وظيفية لتقنية «الفجوة». عم تعبر الفجوة ببساطة؟ إنها تعبر عن سقوط أشياء وأشياء في المابين. وبقدر ما يكون هذا المابين واسعاً، تصبح الأشياء المستبعدة أو المحذوفة أكثر عدداً. وفي التعبير عن دلالات الغياب تصبح الحاجة إلى «الفجوة» الأعمق متزايدة باطراد. الغياب ذاته فجوة شديدة العمق. الغياب عزل جارح. والغياب، أخيراً، اختزال عريض لتراكم الزمن والتفصيلات والمظاهر.

- ٨ -

«التشذير» تمزيق لأوصال الكلمة أو العبارة أو الصورة، وتفكيك لوحدها الواحدة، بحيث تبدو كل جزئية منها ذات كيان مستقل معزول عن نظيره، رغم اتصاله السياقي به. إنه تشكيل بصري مواز لمضمون التعبير والتأثير والتشظى. ودراسة الكلمة أو العبارة أو الصورة التي يقع عليها الاختيار للتشذير هي مناسبات استكناه الجانب المعنى من العلاقة، ووسيلة حل شفرتها.

تمثل الشذرات في النص علامة - وهي - بالتحديد - أيقونة التجزؤ والتبعض والتفتت والتكثر، أيقونة انحلال الوحدة الواحدة.

تنطوى عملية «التشذير» كذلك، على ما يسمى بـ «التصدر» Foregrounding، لأن اللغة تستخدم - في هذه الحالة - استخداماً غير متوقع، لافتاً للنظر، وغريباً، بحيث تكون الكلمة أو العبارة أو الصورة المشذرة محط اهتمام مفاجئ بما تمثله من تمييز شكلي وموقعي داخل سياق النص<sup>(٤)</sup>.

يقول سعدى يوسف في قصيدة «الكوفة»:

ما سمعناها لتكون مدينة

لم نبين بها إلا المسجد

والسور

وكوخ على ...

... ..

... ..

... ..

لكن القرن الاول لم يعد الاول

ها نحن أولاء نغادرها

م

ش

ن

و

ق

ى

ن

على ماسورات مدافع دبابات ...

(الوحيد يستيقظ)

تتدلى كلمة (م ش ن و ق ي ن) رأسياً كحبل

المشتقة تماماً. وهي «حال» تشير إلى هؤلاء «المفعول بهم»، العرب الآتين من الصحراء وقد بلغ منهم الجهد مبلغه:

نحن أتيناها ظمآنين جيافاً

نعرج من وهق الرمل

ونعنى من وهج الشمس ...

المشتقة هي الحاضر المعتم المستبد المهزوم في مقابل

الماضى مرفوع الرأس، حيث كان «المفعول بهم» «فاعلين» رغم الشظف والمسغبة والسفر الطويل المرهق:

قطعنا العالم: من مكة حتى قصر النعمان

قطعنا العالم بالسيف

إلى أن نتأ العظم بأيدينا ومحاجرنا ...

وابيض.

العلاقة، إذن، بين الماضى والحاضر هي العلاقة بين

(الحياة - الحضر - الوحدة) و (الموت - الغياب - التشظى).

إنها مفارقة ساخرة موجعة تجهد القصيدة في إبرازها بأكثر

من وسيلة لتعمق فينا إحساس الفجعية، وتعربنا من أقنعتنا الزائفة، وتركنا مأخوذين بعمق الهوة التي تفصل بين «كوخ على» و «ماسورة مدفع الدبابة» على هيئة فراغ منقطع في ثلاثة سطور محذوفة:

... ..

... ..

... ..

ويقول أدونيس في قصيدة «جسد»:

أنزل على مدية جرف مجهول

تنزل لغتي على مدية الهاوية

وبين نشوة الدوار

وشفا هلاك غير مرئي

أتدلى

لا ..... تقريباً

بين

في

ربما ..... أبداً

(مفرد بصيغة الجمع)

تقوم عملية «التشذير» هنا بتوزيع غريب، ولكنه محكم. لا يمثل شكل الشذرات «حالة انزلاق فوق جرف أو هاوية» بقدر ما يمثل، من خلال التناظر الهندسي لإحداثيات الألفاظ، حركة التدلي البطيء (في) عمق ما أو (بين) سطحين غائرين.

×

× ..... ×

×

×

× ..... ×

وعن طريق تأمل الارتباطات، نكتشف أن «الجسد»، الذي يذكر منكراً لا معرّفاً في عنوان القصيدة، يتدلى بين النفي (لا) والتقريب (تقريباً)، بين الاحتمال (ربما) والمستقبل الدال على الاستمرار (أبداً). وهو، في الوقت نفسه، يتدلى (في) النفي والتقريب، (في) الاحتمال والاستمرارية. الجسد يتدلى (بين) الأشياء، و(في) الأشياء معاً. ومعنى ذلك أن أشلاءه تتناثر وتنزلق: «أنزل على مدية جرف مجهول». كأنه يتشظى حين تمزقه المدية مزقاً. واللغة كذلك، تنزلق وتشظى بين النفي والتقريب، بين الاحتمال والديسومة، كما هو الجسد. الجسد لغة، واللغة جسد، والعلاقة بينهما هي الانزلاق والتناثر. الأنا مبشرة في اللغة، واللغة مبشرة في الأنا. كأن كليهما هاوية للأخرى، ومدية للأخرى في آن. هذا التبديد المتبادل يمنح «الهلاك» و «النشوة» معاً. إن لذة الموت تنطوي على موت اللذة، ولكن غياب الجسد واللغة أو تشظيهما بفعل بعضهما البعض يجعل من المسافة بين (النفي) و (التقريب)، أو بين (الاحتمال) و (الاستمرار) مسافة موهومة؛ لأن الداخل ينداح عن الخارج، والخارج ينداح عن الداخل. (بين) هي (في) دون أي فرق. الإيروس (الجسد) واللوجوس (اللغة) يتماهيان ويتنافران في الوقت نفسه. وهكذا يغيبان لصالح حضورهما المزدوج، حضورهما الذي يمزقه الالتباس.

- ٩ -

إحلال الشئ في نقيضه، والتعبير عنه به، هو ما نعبه بـ «إحلال التضاد». وفي قدرة هذا الإحلال أن يولد صورة شعرية مذهشة، ولكنها مشحونة بطاقة سالبة تنفي مفهوم الشئ نفسه.

يقول محمود درويش في قصيدة «مقتاليات لزمن آخر»:

كان يوماً مسرعاً. والغد ماضٍ

قادم من حفلة الشاي. غداً كنا!

وكان الامبراطور لطيفاً معنا. كنا غداً

... نشهد تدشين الركاب

(لماذا تركت الحصان وحيداً)

«إحلال التضاد»، أخيراً، تفرغ للملاء من ملئه، للمسافة من مسافتها، للاتساع من اتساعه، للزمن من امتداده، للحدث من فعله، وللأنا من ذاتها. إنه تخل عن المحتوى، ولكنه ليس تخلياً عن المعنى، فمعناه يظل قائماً في التراجع، في العكس وفي كف كل شيء عن الاحتفاظ بمفهوم له لزاء الأشياء الأخرى.

- ١٠ -

نعني بـ «إشباع سياق النفي» نوعاً من النفي المكثف الذي يوجه السياق ويتحكم في امتداده من خلال عنصرين هما: عنصر التكرار، وعنصر التقابل. فالسياق، في هذه الحالة، لا يستطيع أن يتنفس خارج هذه الحدود؛ لأنه يصير مشبعاً تشبعاً عالياً بالحركة الدورية لقوانين توليده.

يقول محمود درويش:

لا تاريخ للأيام منذ اليوم ،

لا موتى ولا أحياء .

لا هبة ،

لا حرب علينا أو سلام

(متاليات لزمن آخر)

ويقول:

هنا ولدت ولم أولد

سيكمل ميلادي الحرون إذا

هذا القطار

ويمشي حولي الشجر

هنا وجدت ولم أوجد

ساعتري في هذا القطار

على نفسى التي امتلات بضفتين لنهر مات بينهما

كما يموت الفتى

«ليت الفتى حجرٌ...

(مر القطار / لماذا تركت الحصان وحيداً)

«الغد ماضٍ»، ونحن كنا ولكننا لم يكن بالأمس، بل «كنا غداً». كتب عالم الرياضيات الغد ستيفن هوكينج ذات يوم يقول إن الكون إذا عكس مساره من التوسع والتعدد إلى الانخساف والتقلص فسوف يعيش الناس حياتهم رجوعاً إلى الوراء فيموتون قبل أن يولدوا.

إنه زمن آخر حقاً كما يقول محمود درويش في عنوان قصيدته؛ زمن يعود فيه الكون إلى نقطة صغيرة جداً، إلى حجم بروتون واحد كما كان في البدء، له كثافة لا متناهية بما يفوق الخيال. كأن رحلة العودة إلى الدثور أو إلى الهباء الشامل هي المعزوفة الفاتنة الباقية. سوف نشهد تدشين ركائنا في هذه الفانتازيا البهيجة، وسوف يحتفل بها كما يحتفل بنا الزمان الناكس على عقبيه. مستظمتا عوابة العدم في حنان ولطف لأن العدم سيد الجميع. ها يكشف الغياب عن ذاته بوصفه نعمة غير محدودة. ورحمة يتعذر وصفها، ألم نقل من قبل إن «الفانتازيا تمنحنا هبة الفرار من الكينونة»؟

يقول أدونيس أيضاً:

من الآن يلمح الأبد

من الآن يتحسس البدء

أ ب د = ب د أ

استفوه ، أيها النبض الذي يحكم الغيب

كن إيقاعه

امنح لرأسه أن يهوى بين ذراعيك

(جسد / مفرد بصيغة الجمع)

يتم هنا «إحلال التضاد» من خلال «التشذير» نفسه: أ ب د = ب د أ، ويلعب الجناس التام أيضاً بين «الأبد» و«البدء» دوره الواضح في تأكيد التعادل أو التساوي، ولكنه تعادل التشظي وتساوي التناثر والانفراط. هذا هو إيقاع التلاشي في «كن إيقاعه»، و«امسح لرأسه أن يهوى». الغياب هو الراحة. الغياب هو الحضور الذي لا يلتصق ثمناً فادحاً من أجل إثبات ذاته. إن شيئاً لا يدفعه ولا يضطره إلى دفعه أو الصراع معه. «إن فكرة العدم تطوى على شيء أقل مما تنضوي عليه فكرة شيء ما. وهذا هو مع السر كله»، كما يقول برجسون<sup>(٥)</sup>.

- ١١ -

«التظليل» منحى بصري ينحوه الرسام فى لوحته، ولكنه يعنى - فى الحقيقة - ما هو أكثر من كونه مقابلاً بسيطاً للضوء. إنه يعنى نوعاً من الاختباء والكمون. وهو ما دعا بونج ورفاقه إلى تسمية الشخص اللاواعى بالظل. الظل هو التوارى. وثمة ما يجمع، من حيث الصوت والدلالة، بين «التوارى» و «الوراء»؛ فالظل رجوع ما إلى الوراء، تأخر عن الإفصاح والإبداء وغياب عن التصدر أو نفى له.

يقول سعدى يوسف فى قصيدة «مصطفى»:

يا حلو يا مصطفى

يا زينة الشبان

مرت غيوم العدا

مرت على «حمدان»

يا حلو يا مصطفى

هان الذى ما هان

بعد الندى والندامى

ضعضوا البنيان

يا حلو يا مصطفى

يا سدره البستان

يا ليت شمس الضحى

حنت على الولهان

تابوت أخضر

وسماء بيضاء

ويطلع النخلة يبتل الماء

فى الضفة الاخرى: عمى

فى شاطئنا : كان أبى

يعتمد «إشباع سياق النفى»، فيما يبدو من المثاليين السابقين أيضاً، على قدر ملحوظ من «التداعى الحر» الذى ييلور روح الغناء. وللغناء أن يكون مرثية كما يكون رقصة عرس أو حرب. المرثية هنا احتفال بقدرة الغياب على التجدد. وفى عطف الثنائيات الضدية على بعضها البعض (الموتى والأحياء، الحرب والسلام، الولادة واللاولادة، الوجود واللاوجود) يجد التصالح معناه، ويمتلك التجاور غايته، مما يعزز دور النفى ذاته. ويجعل منه بؤرة لمدسة السياق التى تمتص حزمة الضوء دون أن تعكسها أو تكسرهما.

يعمل التكرار على إشباع نمط نحوى بعينه، وهو ما يطلق عليه ياكوبسون وعلماء الشعرية الآخرون «التوازي»، بينما يعمل التقابل على أن يغطى النفى مساحة الأشياء والمسميات والأفعال كلها على ما بينها من اختلاف، أو تناقض.

يصبح سياق النفى بفضل التكرار والتقابل مفعماً بتأكيد السلب، ويدعم «التداعى» الذى يعد شكلاً من أشكال التكرار هذا المظهر ويؤصله. هكذا يتسم النفى بالكلية والديمومة فيبتلع ما عده. ما الذى يدعو الأشياء، إذن، إلى الفعل: «سيكمل ميلادى الحرون هذا القطار، ويمشئ حولى الشجر؟» وما الذى يدعو مشهد الطبيعة والكون إلى التناغم والصفاء: «كل شئ هادئ فى ملتقى البحرين، لا تاريخ للأيام منذ اليوم؟» وما الذى يدعو أمنية الخلود القديمة إلى الانبثاق «ليت الفتى حجر؟» لعل هذه «المفارقة» هى التى تحيى معنى النفى ذاته بوصفه المعنى الأولى للموجودات، بل لعلها هى التى تصور لنا أيضاً، خضوع ماهيتين لمنطق واحد أصلاً. وهذا ما يفسره برجسون بقوله «إن الملاء طراز على نسيج الخلاء، وإن الوجود يضاف إلى العدم»<sup>(٦)</sup>. إن هذه «المفارقة» تبرز حقيقة جوهرية وتؤكددها، وهى أن الوجود والعدم كليهما يقعان على سن مدببة أو على حافة يعتورها قلق دائم، مما يجعل كلا منهما على أهبة الانزلاق نحو الآخر فى أية لحظة. وهذا ما يقرره العلم فى موجته الأخيرة، وما هجس به الشعر - كذلك - دون أن يكون له سوى أداة الحدس أو الخيال.



تدخل في الروح ....

هكذا تختبئ المدينة الجهيمة، يختبئ الحضور الظاهر  
الذي لقننا من قبل درساً بليغاً:

أيام أتيناك تعلمنا كيف يدور الفطر خبيثاً بين  
الظل وبين النخل.

هنا يتجلى الغياب بوصفه حضوراً يعلن أسطوره:

يا حلو مصطفى

يا زينة البصرة

نوم الهنا، مصطفى ...

ما أضيق الحفرة

هذا التبادل في الدور يجعل التظليل أداة طيعة مرنة،  
فالظل علامة تخضع للتحويل مادامت تفقد نفعيتها أو  
استعماليتها المباشرة، وتجاوز آلية وظيفتها. ويعتمد توليد  
الدلالة في هذه الحالة على إعادة إنتاج العلامة في سياق  
جديد.

يمثل «الحلم» أيضاً سراء أكان في البيضة أم المنام  
نوعاً من «الظل». إنه يبرج على منطقة مخبرة وغامضة،  
ويرسل نحوها أشواقه أو مخاوفه.

يقول حسب الشيخ جعفر في قصيدة «خيطة الفجر»:

في الفجر الشترى الناحل أبحت عن آثار خطاها  
فوق الثلج، وأتركها في حافلة المثلث تتسرب بين  
يدي، وأتبعها في الزحمة أرقبها ساعات مجنونا  
بالحب، أقرول لنفسي:

ها هي تبطن خطورتها لكنني أعبر

قنطرة تتهدم قرب الضنّة

(تلقائي، تنفّس في وجهي،

وتشير إلى الكهف المتضرر،

أخطر شاحبة في ثوب زفاني

في شط العرب: الزورق مخشّين بين البردي. وحيد.

لم يبق من النخل سوى أعجاز خاوية

أن سماء بيضاء

سماء كانت خضراء

تعد يديها نحو سماء ثالثة

وأنا عريانة

أنا عريانة

ذهبت بالنخل مدافعهم

ذهبت بالأهل مدافعهم

أنا عريانة،

والبصرة تدخل تحت شوارعها

تدخل تحت الماء أجاجاً

تدخل تحت الكتب المرصوفة

تدخل في الروح ولا تخرج إلا والروح ...

مدينتنا!

(مصطفى، مخارلات)

يأخذ الشهيد موضع التصدر دائماً من وجوده داخل  
إطار كإطار اللوحة. أما المدينة والذكريات التي ترتبط بها؛  
تاريخها وأحزانها وهزائمها وأحلامها، فتداعى خارج الإطار.  
المدينة ظل الشهيد وليس العكس. المدينة ذاكرة، والشهيد هو  
الذكرى التي تمد ظلالها متمثلة في المدينة بذكرياتها  
المختلفة. الذاكرة ظل لذكرى بعينها. كأن هذه الذكرى  
شجرة وارفة ظلّالها الممدودة هي المدينة بكل ما تحويه من  
ذكريات منفصلة عن ذات الشهيد. ومنصلة به في الرقت  
نفسه، إنه نوع من «القلب» الذي يسعى إلى أسطورة الموت  
البطولي. «مصطفى» هو المفارقة التي تؤسس لكسر التعاقب  
المألوف بين التجلي والكمون. لنقرأ

والبصرة تدخل تحت شوارعها

تدخل تحت الماء أجاجاً

تدخل تحت الكتب المرصوفة

## - ١٢ -

يشبه «التشويه» حلما كابوسيا مفزعاً، يتحول عبره الإنسان إلى مسخ، ثمة فنان قد اشتهر بإضافة الهلع إلى مظهر الجسد. هذا الفنان هو «ماريني» الذى يرى فى فنه تعبيراً عن الخوف. تقول أنيلا جافيه بصدد ذلك: فى جذر بأس كهذا يكمن اندحار الوعي<sup>(٨)</sup>.

نقرأ من «مذكرات الصوفى بشر الحافى» لصلاح عبدالصبور:

حين فقدنا جوهر اليقين

تشوهت أجنة الحبالى فى البطون

الشعر ينمو فى مغاور العيون

والذقن معقود على الجبين

جيل من الشياطين

جيل من الشياطين

(أحلام الفارس القديم)

ونقرأ من «الأعداء» لمحمد الماغوط:

تحت المصاييح المبقعة بالدم

رأيت ضرسى يطول

يلتفت نحو دموى كالحمامة

وأرجلهم الرفيعة تنتشابك كالخيطان تحت المناضد

(غرفة بملايين الجدران)

يلخص الرعب الذى يثيره شكل المسخ قضية «السقوط». أليس غياب الشكل الإنسانى للإنسان هو غياب للعالم لأنه غياب للأمل الذى نضعه فيه؟ أليس تشوه النسب وتداخلها هو المعادل التصويرى لغياب القيمة؟ وما الجمال سوى كونه مظهراً للقيمة؟

تعمل الرؤى المفزعة على تقويض منظومة المثل الجمالية، لا لتستبدل بها مثلاً جمالية أخرى، بل لتفتح الفضاء على وحشية القبح، وتؤكد تفهقر عوامل الاختيار

الأبيض، فى تاجى الذهبى،

وأكشف عن كنزى المخبوء.

وأترك عندك خيط الباب

إلى الليل السفلى، ويغلبك

النوم المتربص قرب الباب،

وأطفئ زينتى الليلية أنشر

عنوانى فى ذرات الريح الرملية...

(عبر الحائط .. فى المرأة)

إن الأنا والظل مرتبطان بالرغم من انفصالهما على النحو الذى يرتبط وفقاً له الفكر والشعور معا. ولكن الأنا - كذلك - فى صراع دائم مع الظل، كما يقول يوج من أجل اكتساب الحرية<sup>(٧)</sup>.

قد يشير «التدوير» نفسه إلى رمزية النفس التى رُسمت قديماً على شكل دائرة، وهناك «تهدم القنطرة» و «تضور الكهف» و «آثار الخطى» و «التسرب من اليدين فى زحام الحافلة». هناك، إذن، الغياب والانكسار ثم التشظى «أنشر عنوانى فى ذرات الريح الرملية». وسوف تعمق صورة المرأة فى ثوب الزفاف الأبيض والتاج الذهبى من إيقاع الحسرة والجنون والفجعية حتى يبدو (الظل) نفسه، فى النهاية، بمعناه الحرفى هابطاً نحو ضياع الأنا المحقق فى سراب الوهم الكثيف:

ويهبط ظلى السلم

تفتح فى وجهى الطرق المبتلة،

ثانية تدمج فى ورقى امرأة تتخفى عنى، تترك

لى آثار خطى ورداء أعصره عبثاً، وأضم الريح.

وبصنع انتفاء الوجود المكانى للجسد نهاية أسرة؛ حيث يعبر من خلال «الاستبدال» عن عمق التلاشى واتساعه، وعن قدر الغياب المتكرر الذى يجدد دورته إلى الأبد:

تدق على لهبى باباً لا تسمع دقته وتطوق

نادلة البوفيت وتبحث عن بدنى.

السوية. ومن ثم فهي تعرقل حيوية الحضور الإنساني في العالم، تعرقل النمو والتطور والارتقاء إلى أعلى، لتخلى الوجود أمام اندفاع اللغة، لتدشن مشهد الحميم.

ثمة عدسات، من شأنها عندما نركب في الكاميرا السينمائية، أن تشوه الصورة. هذا ما تفعله اللغة هنا عندما تخاكي ذلك النوع من العدسات. إنها تدمر علاقات التناسب المتعارفة، وتعيد صوغ العلاقة بين جزئيات الوحدة على نحو غريب ومثير للهللع. وبذلك فهي تقوم بتوصيل «رسالة» خطيرة الدلالة فحوها أن الإنسان الذي نعرفه لم يعد موجوداً، وأن الإنسان الذي نشده لن يأتي أبداً. ليس لدينا سوى المسخ الذي يصعد في طريق ممهدة لقيحه وقسوته وشهوة امتلاكه.

- ١٣ -

يقول هوبس: لقد كان الخوف هو حياتي الوحيد. ربما بدا لنا ذلك ترفاً بعض الشيء، ففي الهوى قدام ما من الاختيار وقدر ما من الفتنة أو الشغف. الخوف، في حالتنا، ضرورة تتحكم في الاختيار والشغف لأن الغياب أو التشظى، هنا، حالة قهريه وليس موقفاً. ليس نعمة إرادة أولية تدفع، في الشعر الذي امتحننا وامتحنه، إلى التكوّن، ليس نعمة نزوع باطني أصلي إلى ذلك. إن الآنية التاريخية/ الشخصية في ازدواجها هي التي أنشأت الإرادة أو النزوع، وهي التي وجهتهما فيما بعد. لعل مسارين متفارقين لحضارتين أو ثقافتين يؤديان، أحياناً، إلى بعض الشبه، إلى تسيجيتين متقاربتين ضمن منظومتين مختلفتين من النتائج. يؤدي المناخ الإنساني المفتوح إلى سيولة تفعل الشيء نفسه. بيد أن خطاً رفيعاً وحاداً، في آن، يظل قائماً. هذا الخيط هو ما يفصل فضاء عن آخر.

يتميز مفهوم «الغياب» في القصيدة العربية المعاصرة عن مفهوم «الغياب» في القصيدة العربية القديمة (مع اعتبار تعدد المراحل التراثية وسماتها)، من حيث كونه مفهومًا

يفضح فقدان القدرة على التكيف أو التصالح مع واقع ذي شرائح متجاوزة ومتعاكسة القطبية في آن، أي مع واقع يلقي بعضه بعضاً على نحو مشوش ومختلط دون أن يعطى نفسه أو يعطى من خارجه فرصة حقيقية أصيلة لاختيار إحالاته أو تشكيل منطق لجذله. إنه واقع مضطهد من ذاته ومن ما هو خارجه، واقع عشوائي مشذر، ومنفى ومشوه، وخاضع للحذف المطرد.

مفهوم «الغياب والتشظى» في القصيدة العربية المعاصرة مفهوم مركب، مفعم بالتدخلات والتخارجات، لأن وعي الخطاب قد صار أكثر تعقيداً من أحادية التصور التي يمثّلها النمط في اختزاله وتخفيفه من العلاقات التي تكسر المألوف. لذلك فإن صوغ النموذج يحتاج، دوماً، إلى تعدد مستوياته، أو تحتاج هذه المستويات إلى التعامل معها بوصفها نماذج مختلفة واقعة في مستوى واحد.

كان «الغياب» فيما مضى، دلالة لها شكل واحد أو أكثر من شكل. بيد أنه الآن، في تقديري، منظومة من الدلالات لها منظومة من أشكال التعبير. وذلك لأن الواقع - في الحقيقة - لم يعد واقعاً واحداً كما كان من قبل، بل أصبح أكثر من واقع نحاول أن نضفي عليها جميعاً طابعاً كلياً، حيث نعامل كل واقع بوصفه شريحة جزئية تجاور شريحة جزئية أخرى تمثل واقعاً معاكساً.

الغياب - أخيراً - في وعينا الشعري المعاصر، غياب إشكالي، لأن له ادعاءاته الفلسفية التي قد تتفق أو تختلف مع هيكله الموضوعي. إن ما نزعمه، دوماً، هو جزء من الوجه وجزء من القناع، ولكنه ليس الوجه محضاً أو القناع محضاً الغياب غيباناً. وهو يلقي علينا قولاً ثقيلاً. وعلينا أن نقرأ فلا ننسى، وأن نتساءل فلا نرعوى، وأن نجيب فلا يصدنا الهوى عن القصد، ولا يشغلنا المراء عن المرى، فالحقيقة لا تسفر عن وجوهها المتعددة إلا إذا أرجعنا فيها البصر، ولا تجدد تأويلها إلا إذا تقشر اللحاء عن اللب.

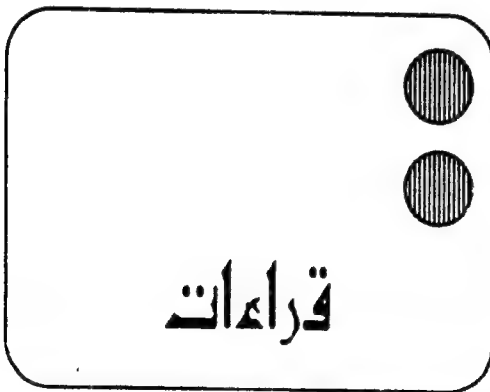
## الهوامش :

- (١) لريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، ت: سعد زهران، عالم المعرفة (١٤٠)، الكويت، ١٩٨٩، ص ٢٨، ٢٩.
- (٢) Elizabeth Wright, *Psychoanalytic Criticism, Theory in Practice*, London and New York.: Methuen, 1987, p: 82.
- (٣) يوري لوتمان، «سيمبوتيقا السينما»، ت: نصر أبو زيد: من كتاب مدخل إلى السيمبوتيقا، إشراف سيزا قاسم ونصر أبو زيد، دار إلياس المصرية، ١٩٨٦، ص ٢٧٧، ٢٨٠.
- (٤) المرجع السابق، ص ٢٤٨، ٢٤٩، ٢٥٠.
- (٥) هنري برجسون، التطور الخالق، ت: محمود محمد قاسم، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٣١٢، ٣١٣.
- (٦) المرجع السابق، ص ٣١٢.
- (٧) كارل جوستاف يونج وجماعة من العلماء، الإنسان ورموزه، ت: سمير على، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٤، ص ١٥٦.
- (٨) المرجع السابق، ص ٤١٩.





سازمان اسناد و کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران



قراءات







سازمان اسناد و کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران

# شعرية الخبر

## فريال جبورى غزول\*

من البداية، أحب أن أوضح عنوان مقالتي الملتبس «شعرية الخبر» وتفصيل قناعاتي النقدية. إن ما يهمنى، باعتبارى مهتمة أصلاً بالأدب المقارن، هو الإضافة الجمالية التى يقدمها أو يبرزها شاعر ما - لا بالنسبة إلى شعر أمته فحسب، بل إلى الشعر عامة فى أركان المعمورة؛ أى إن ما يهمنى من الشعر العربى لا توافقه وتراسله مع الشعر العالمى، بل «خصوصيته». ولا أقصد بهذا «محلّيته»، بل تمايزه عن غيره، أى تلك الخصوصية التى تشرى النتاج الشعرى فى العالم، لأنها تقدم نموذجاً جديداً أو استراتيجيّة فنية مغايرة للمعتاد والمهيمن. وليس الغرض من الدراسة تقديم النموذج باعتباره سلطة فنية أو مثلاً للاحتذاء، وإنما باعتباره رافداً من روافد الإبداع وعزفاً منفرداً فى سيمفونية متعددة الأصوات والآليات.

وقد اخترت عنوان «شعرية الخبر» ولم أتخذ من «قصيدة الخبر» عنواناً حتى لا أثير مشكلة تعريف القصيدة،

كيف نكتب الخبر؟  
كان بإمكانه أن يبتلع كل شئ  
السياق المضطرب  
والوقائع الملتبسة  
أما ما لم يكن يسمح به  
فهو الأقوال المرسلة  
التي لا تدعمها مصادر  
فأياً كان ما يجرى  
وأياً كان ما يتعلق به  
فإنه يطمئن إلى شئ أكيد  
أنه ينقل عن آخرين  
وأن شيئاً لا يشغله إلا  
سوى أى الصيغ أفضل  
لكتابة الخبر

محمد صالح<sup>(١)</sup>

\* أستاذ الأدب المقارن، الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

من موت أطفال وجوع شيوخ واغتصاب نساء ليس إلا شريطاً للتسلية وملء الفراغ، لاحقاً للتفكير والتأمل والمراجعة. فالخبر بتقنيات الاتصال الجماهيري يعطل الاستجابة ويطبّع الفضائح ويجعل القاطعة تبدو أمراً عادياً فلا تثير ولا تحرك. وما يقوم به محمد صالح هو إعادة إنتاج للأخبار في شكل يجعل المتلقي يستيقظ من غفوته، يستنهض فيه التأمل ويستنفر إعادة النظر فيما يجري حوله.

إن استخدام محمد صالح للخبر أو النبأ يجعل منه أكثر من وثيقة، وإن كان يحتفظ ببعده الوثائقي: إن يضيف على الخبر قيمة شعرية ترفعه من مستوى الصحافة إلى مستوى الأدب. وتداخل الوثائقي بالأدبي ليس جديداً في الرواية والمسرح والسينما، وقد كتب نقدياً الكثير عن تجاورهما وتداخلهما ولكن قلما يحدث ذلك في مجال الشعر. واكتفى في هذا السياق بالإشارة إلى رواية صنع الله إبراهيم (ذات) - ١٩٩٢ - حيث قابل المؤلف، في تعاقب، بين فصل سردى متخيل وفصل وثائقي منتزع من جرائد مصرية. وقام ألفريد فرج في مسرحيته (النار والزيتون) - ١٩٧٠ - بالترقيز بين التسجيلي والتشليلي. وأما في فيلم (المخدوعون) للمخرج توفيق صالح المقتبس عن رواية غسان كنفاني (رجال في الشمس) فنجد صوراً فوتوغرافية من المخيمات الفلسطينية ولقطات من السينما التسجيلية (اجتماعات الجامعة العربية وهيئة الأمم المتحدة) في نسج الفيلم.

ولمحمد صالح ثلاثة دواوين: (الوطن الجمر) ١٩٨٤، (خط الزوال) ١٩٩٢، و (صيد الفراشات) ١٩٩٦؛ وكل منها متميز ويمثل مرحلة شعرية مختلفة. ففي (الوطن الجمر) غنائية تدرج الديوان في مرحلة المد الثوري، و (خط الزوال) يمثل عنف الانكسار القومي وحديثه. أما (صيد الفراشات)، فيتمثل مرحلة ما بعد الانكسار حيث يعكف الشاعر على الانطلاق من نقطة الصفر ليقوم بصياغة لغة ما بعد الانهيار: إن يكسب قصائده قصيرة أو منمنمات شعرية. وهذا الكتابة التي تنطلق بعد نهاية حلم واستنفاد مشروع، تتوسل بالنجذور الشعرية لتشكّل ذاتها. فهي ليست قصيدة ساذجة، وإن كانت متقشفة؛ إنها قصيدة بدائية - بالمعنى

وهل يندرج النص الفلاني تحت لافتة الشعر أو الشر. فأنا أرى أن المعركة الماثرة حول قصيدة الشر معركة مفتعلة، ولا أرى تبريراً للذين يخطرطون فيها، سواء كانوا رافضين أو متبنين لها. فالنص الجميل جميل في ذاته ولا يبرده جمالياً أن نشرّفه بلقب «قصيدة» أو ينتقص منه كونه مجرد «نثر». لكن مفهوم «القصيدة» يبقى متغلقاً عندما ينطلق من مفاهيم مسبقة وجاهزة، لا من تحسّس آفاق الشعرية كما ترد في مختلف مستويات حضارتنا: حضارة المؤسسة والمعارضة، المركز والأطراف، الأدب الرفيع والأدب الشعبي.

وعند قراءتي ديوان محمد صالح (صيد الفراشات) (١٩٩٦) أحسست بمذاق مختلف ومتميز، حاولت أن أصفّه من خلال تحليلي واستقرائي فوجدت جماليته تتكشف فيما يمكن أن نطلق عليه «قصيدة الخير» - إن صح التعبير - حيث يتخذ الديوان النبأ مادة خاماً يضيف عليها شعريته الخاصة. ومن المعروف أن الخبر الإعلامي أبعد ما يكون عن الشعرية؛ بل إن الشعر كثيراً ما يقابل بخطاب الجرائد والصحف. فالخبر والشعر يكادان يكونان نقيضين، وجمعهما فنياً يحفز الذهن لما فيه من تقاطع الأضداد.

إن الإبداع التجريبي كثيراً ما يقوم على رفض السائد وتقديم البديل؛ وهو ما ألفناه في الأدب الطبيعي، لكن تجربة محمد صالح تتميز بكونها تستثمر شعرياً السائد والمتاح لتعيد تشكيله تشكيلاً جديداً، كأننا أمام عملية تدوير ثقافية توازي عملية التدوير البيئية، حيث يعاد استخدام الركام من المستهلكات الورقية أو المعدنية في دورة تحويلية تجعل من النفايات منتوجات ذات قيمة. فلقد أصبحت الأخبار - التي تنهال علينا من صحف العالم وإذاعات وبرامج التلفزيونية بأطباقها المتعددة - سيلاً إعلامياً يجرف المتلقي دون أن يهذب ذائقته أو يعمق وعيه؛ بل بالعكس يقوم بتبليده وترويضه. فيصبح المتلقي - قارئاً أو متفرجاً - مستلباً، فاقداً الحساسية الإنسانية والتعاطف مع متاعب الآخرين. فتكديس الأخبار وتتابعها وطرائق عرضها وتقاسمها تجرّ من القهر والفساد والحصار والتجريح أموراً عادياً، لا مفرّ منها وحتى لا بأس بها؛ وكثيراً ما تصبح ترويحوية، كأن من يجري في العالم

الدلالة وتترك الحدث بلا تعليق، وإن كانت تهز متلقيه، لتترك فيه أثرًا يكتمل عندما يلتقط رهاقتها ويقتنص معناها الأعماق. ويقول الأديب الكبير جاريثا ماركيز الذي مارس الكتابة الصحفية والإبداعية، متذمراً من تسلط التقنية على زمام الصحافة المعاصرة: «أصبحت قاعات التحرير مختبرات معقمة... عبر الحاسوب، حيث يكون التواصل مع الظواهر المعلوماتية أسهل من التواصل مع قلب القارئ»<sup>(٦)</sup>. إن هذا التغييب للعامل الإنساني في الإعلام يقابله في الخبر الشعري حضور إنساني مكثف يستدعي عقل القارئ وكيانه.

إن الخبر الشعري الأول «جد» الذي يفتتح به الشاعر محمد صالح ديوانه، بمسرح النسخ البطريكي القبلي عبر مشهد درامي:

كان لى جد

كان أعقب تسقا

وتسعين جارية

وبنين

ثم فى أخريات السنين

اصطفى طفلة

كان أصغر أحفاده يشتهيها

كان يجلس فى حجرها

وتميل تقبله

والقبيلة شاخصة<sup>(٧)</sup>.

ومضمون القصيدة يمكن أن نستحضر مثله الكثير في الأخبار التي يتناقلها الناس، إلا أن وقع القصيدة يتشكل إلى حد ما من المفارقة المتضمنة في العبارة المسكوكة «بطارد من هى فى سن ابنته» التي صعدت إلى «من هى فى سن حفيدته». وهناك انقلاب فى الصور الجاهزة، فعوضاً عن «طفلة فى حجر جدها» نجد العكس فى القصيدة: «الجد فى حجر الحفيدة». لكن مفعول القصيدة المؤثر لا يأتى فى نظرى من التفاوت والمفارقة، بقدر ما يأتى من تقديم الحدث من زاوية نظر مغايرة.

الإيتمولوجى للكلمة - فهى تبدأ مسيرة وتشكل شعرية البدايات. وهى تتشابه مع الأشعار التى نجدها فى ثقافات قديمة ومنقرضة: التعويذة، الحكمة، التهليل، النواح، وكل ما يصاحب الحياة والموت مما يجعل الإنسان ينشد أو يندب. وقد اختار محمد صالح من هذه الأصول الشعرية أو الجذور الإبداعية «الخبر» مبنى. والخبر نوع من أنواع التبليغ عن حدث، وهو يتجاور مع القصة والسيرة والحديث والحكاية والسمر والخرافة والأسطورة والرواية والنادرة والمثل والمقامة فى أشكال السرد العربية المتوارثة<sup>(٨)</sup>.

ويتميز الخبر بارتباطه بالواقع، لا بالمتخيل، وإن كان إمكان عدم صدقه وارداً، فهو «يقبل مولاً أو كتابة» ما حدث وما كان<sup>(٩)</sup>. وبالإضافة إلى كون «الحبر» جنساً سردياً تراثياً<sup>(١٠)</sup>، فهو أيضاً جنس إعلامى معاصر ومهيمن، فيمكننا أن نقول دون أى غلو إننا نعيش فى زمن الخسر والأخبار، زمن المعلومات والإعلام، لا زمن الشعر ولا زمن الرواية ولا زمن المسرح. فقد طغى الاتصال الجماهيرى الشفوى والمرئى، بشكل سرطانى قضى على الهمس الأدبى أو ككاد، وجعل من التجويد اللغوى فناً منقرضاً أو مقصوراً على نخبة. ومن هنا، أرى إسهام محمد صالح فى ديوانه الأخير حيث يفتح مسيرة الموجة الإخبارية ليطوعها لصالح الفن. وأعتقد أن الفنان محبى الدين اللباد الذى أشرف على إخراج الديوان وصمم الغلاف قد التقط خاصية الديوان، فاستخدم للغلاف - منطلقاً من عنوانه - حياضاً فراشة بجسد آدمى يحمل فى كفه اليمنى صحيفة يومية وفى يده اليسرى صندوقاً مغلقاً، وكأنه يشير بهذا الرسم التمثيلى إلى الصحافة المعلنة من جهة وأسرار الشعر المعلقة من جهة أخرى.

تتقمص قصيدة محمد صالح الحبر ولكنها تفرغه من الثرثرة والإسفاف، ففى ديوانه:

نفيز القصائد السعيدة بالوجل الناعم الزاحف

إلى الجوانب، أشواكاً تنفر فى الفؤاد بسبب هذا

التصميم على أن نحلو القصيدة من الضجيج<sup>(١١)</sup>.

وبقدر ما تنحو القصيدة نحو الصمت بقدر ما تؤثر فى

زمن الجمعية. إن قصيدة محمد صالح تبتعد عن تقرير

أن يبدأ بما يسمى بـ «النقطة الرئيسية» ثم «التوسع» وإضافة «تفاصيل الحدث» ثم «استشهادات» عنها وأخيراً «تفاصيل إضافية». فالترتيب يبدأ بالأهم وينتهي بالتفاصيل الأقل أهمية مما يطلق عليه بالهرم المعكوس. ويقال إن هذه الطريقة في الإخبار توصل للقارئ من السطر الأول جوهر الموضوع لإشباع فضوله، بينما تسمح لرئيس التحرير بأن يقتطع جزءاً من نهاية الخبر - لضرورات الجريدة - دون أن يستر الأهم<sup>(٨)</sup>. ومع أن الشاعر يقترب في تقديمه الخبر من الإيجاز الصحفي، إلا أنه على عكس الممارسة الصحفية يصعد إلى أن يصل إلى نهايته المفاجئة التي تجعل الذروة الختامية منطلقاً للمراجعة.

وبفاجئتنا الشاعر، في نهاية قصيدته «الكمين» (ص ٥١)، باغتيال في نقطة تفتيش، مع أنه يمهد للواقعة وكأنها توقيف روتيني سينتهي بمواصلة السير:

يتصادف أنهم يستوقفونه

كلما عاد متأخراً إلى بيته

يتفحصون الأوراق

ويسألونه عن اللوحات المعدنية

ثم يسمحون له بمواصلة السير

يتصادف أنهم يستوقفونه أخيراً

بكون قد تأخر أكثر مما اعتاد

ويكونون قد انتظروا طويلاً

دون أن يعثروا على ضالّتهم

يتفحصون الأوراق

ويتركونه مثلما يفعل كل مرة

يفادر السيارة

ليتأكد من وجود اللوحات ذاتها

في مكانها هناك

ثم يطلقون عليه الرصاص.

فالمذهل في هذا المشهد ليس نزق الجدل بقدر ما هو استجابة الصغيرة، أي تمريرها لفعليته، بل تقبلها لها. أما القفلة في «والقبيلة شاحصة» - بابتعادها عن الإدانة المباشرة والسخرية الفجة - فهي تدعو القارئ إلى تأمل هذه العلاقة «الشاذة» السارية في القبيلة، تلك القبيلة العاجزة عن الوقوف أمام ما يحدث من شدة هوله.

وفي قصيدة «الجثث» (ص ٤٠) يقدم الشاعر خيراً عن عمارة الموت التي انهارت عند حدوث الزلزال بكل التفاصيل التي قرأنا عنها في الصحف: المجوهرات بين الانقراض، الكلاب التي تشتم رائحة الأحياء المدفونين؛ لكن زيادة على النبأ الصحفي يفاجئنا الشاعر بأن الجثث التي عثر عليها كشفت عن فضائح غير متوقعة، وبالتالي فالانهيار أكثر جذرية من انهيار مبنى:

الامتعة والحلى

التي استنقذوها من بين الانقراض

كانت أكثر مما خمنّا وجوده

في البناية التي ضربها الزلزال

والكلاب المدربة

التي تجدّ في إثر الأحياء المطمورين

الجثث وحدها

هي ما أعياهم التعرّف عليه

عندئذ سمحوا لنا بالاقتراب

ولم تكن مصادفة

أننا استلمنا جنثاً

غير تلك التي انتظرناها.

إن البيت الأخير في القصيدة هو الذي يهزنا لأنه هو الذي يكشف عن الخيانة، عن المأساة في المأساة. ومع أن قصائد محمد صالح تكاد تكون تلغرافية كما في نشرة الأخبار، إلا أنها على عكس الخبر لا تقدم جوهره في المطلع، بل في الخاتمة. فالمتعارف عليه في الخبر الصحفي



صفحة الجريدة التي نكتظ بالكلمات ولا تترك مساحة إلا وتملؤها بالحروف. وأرى أن كثرة استخدام صيغة ضمير الغائب، ليس من باب الحد من الذاتية والتشويط العاطفي، كما يرى جابر عصفور<sup>(١٢)</sup>، بل من باب تقمص صيغة الخبر وانتحال شكل النبأ. كما يستدعي الشاعر مفهوم «الخبر» باستخدامه المفرط لفعل «كان»، حيث تقع عليه في أكثر من ستين جملة من جمل هذا الديوان الصغير. فهو يستهل قصيدته الافتتاحية «جد» بفعل «كان» الذي يتكرر فيها أربع مرات، كما أنه يستهل عشرين قصيدة (ما يقرب من نصف قصائد الديوان) بفعل «كان»، وكثيراً ما ترد «كان» في مطلع القصيدة ومتنصفها وخاتمتها مشكلة لازمة ومشيئة إلى عنصر الخبرية.

كما أن قصائده، على الرغم من قصرها، لا تندرج تحت شعر الهايكو المعروف بتركيزه على صورة في الطبيعة تكون مقابلاً لحالة نفسية. فمحمد صالح يوظف صوراً من الحياة، لا من الطبيعة، لا ليقدّم المقابل الحسي لحال داخلي، بل كناية عن وضع إنساني. وهو بهذا أقرب ما يكون إلى اللقطة الفوتوغرافية الشعرية، وكما تقع في الصحف والمجلات على صورة ومعهما عنوان أو تعليق، كذلك نجد قصائد محمد صالح غامضة يوضحها عنوانها وكأنه مفتاح لغز. والفارق بين استخدام الصحف للعنوان أو المانشيت وعنوان القصيدة عند محمد صالح هو أن الصحف تبتسر في عناوينها المادة الخبرية، لهذا يكفي أحياناً أن نقرأ المانشيت لنعرف ما يجري، فهي تختزل الخبر. بينما عند محمد صالح العنوان لا ينتزع من المادة الخبرية وإنما يكملها في علاقة تكافلية. فمثلاً القصيدة التالية المكتوبة بضمير المتكلم:

سأنهض من الضجة التي خلّفتها

وأصعد في الغبار الذي أثرت

وسأبدأ من ها هنا

من الحافة

وأتابع سقوطي

ويرى الشاعر سعدى يوسف أنه توتر القصيدة لا ينتهي إلا في البيت الأخير، «إلا أنه الانتواء الذي يماثل تلقياً زخه الرصاص»<sup>(١٣)</sup>. النهاية، إذن، مبالغية وحارّة عند شاعرنا، ومع أنه يصوغ قصائده كأخبار، إلا أنه يعكس الخبر في مرآته الفنية، وبمعدّل الهرم المقلوب، فموضوعاً عن إثارة القارئ في المطلع وطرح جوهر النبأ ثم الانتقال إلى التفاصيل الثانوية والتعزيات الاستشهادية التي تتضائل أهميتها حتى تتلاشى تماماً في خاتمة الخبر الصحفي. نجد استرجاعاً للقارئ وتصعيداً لفضوله ثم مبالغته بالخاتمة دون تفاصيل إضافية أو توضيحات إنشائية.

إن هذه القصائد الثلاث تمثل الأحداث اليومية التي نقرأ عنها بالصحف ولا نكاد نغيرها اهتماماً إلا إذا لامست حياتنا شخصياً: الشيخ الذي يتزوج صبية، العمارة التي تنهار بسكانها، المواطن الذي يفتال. إنها أحداث نمطية تقدمها الصحف عنيقاً: بأسماء محددة وأماكن معروفة. «أربع دقيقة» ويحاكي شاعرنا هذه التقريرية إلا أنه يرفهها إلى مستوى التجريد. وكما يقول جابر عصفور، كأن

الشاعر يتعمد أن يتحدث عن مبالغة التي يعيش فيها بوصفها مرآة المدن التي يعرفها... هي مدينة نعرفها على سبيل التحريد وليس التعيين<sup>(١٤)</sup>.

فليس المهم عند الشاعر التفاصيل وسعوت بل الهيكل والبنية، لهذا فنحن لا نعرف شكل الحفيدة، ولا عدد طوابق العمارة، ولا هوية المواطن. وما يجعل هذه الأخبار محرّضة للتفكير هو صدمة الخاتمة؛ فالشاعر يفعل قصائده الثلاث بأبيات تخرجنا عن المعتاد = تجاوب الصبغة مع المعجوز، استلام جثث غرباء في الشقق، إطلاق رصاص على عابر سبيل في نقطة تفتيش. ولأن القصيدة تمتنع عن الشرح والتفصيل فهي تستدعي التفكير، كأنها «حكاية مأزقية» كما ترد في الأدب الأفريقي، حيث تطرح إشكال عبر حكاية قصيرة أو خبر موسع ليترك حله للمتلقين فيتناقشون. حوله، ويقدم كل واحد تصوّره للخروج من المأزق<sup>(١٥)</sup>. وما لاشك فيه أن تصميم الصفحة الشعرية لمساحتها البيضاء وفراغاتها المؤطرة للقول الشعري يسمح ويشجع على التأمل، يعكس

ومع أن القصائد التي تشير إلى الأحداث السياسية كثيرة، خاصة في الشعرية العربية المعاصرة، فإن تمايز محمد صالح يأتي من ابتعاده عن أخبار السياسة الكبرى من حروب وانقلابات ومعاهدات ومؤتمرات، لينشغل برصد أثرها على مجرى حياة الناس البسطاء، وهو يتمثل حالة المنفى في قصيدة «السراب» (ص ٦٥):

هكذا دائماً على مسافة منا

البلاد التي أحببناها

وحيثما ينحسر الموج

تلوح جنث الغرقى

كما يتمثل تغير معالم الأحياء الناجمة عن الانفتاح الرأسمالي والتنمية العشوائية، مما أدى إلى تغير في حياة البشر، من نسق رعوى حميمي إلى تمدن اغترابي، في قصيدة «الكهل» (ص ١٦)، حيث يشير إلى الفارق بين ما تعود أن يراه إنسان في طفولته وما آلت إليه الأمور في كهولته وهو تغير يندرج تحت هموم البيئة، كما نقرأ عنها يومياً في الصحف:

كان الخلاء فيما يلي بيته مباشرة

ولم يكن يجهد هكذا

كى يرى شجر التوت والقطعان

القطعان التي كانوا يتخيرون أحلاها

يزفونها في المواسم

والتي ما كانوا يعرضونها

عارية هكذا

على واجهات القصابين

والفرق بين الهم البيئي في اقتطاع الأشجار وتقلص المساحة الخضراء كما يرد متواتراً في الإعلام وبين القصيدة المعنية به يتمثل في طريقة التقديم التي تطرح نقلة بين طقوسية الفلاحين في «زفاف القطعان في المواسم» ومنطق السوق بتركيزه على العرض والطلب في «واجهات

تتضح عندما نعرف أن عنوانها «الحجر» (ص ٥٥) والتكافل ذاته بين العنوان والقصيدة نجد في «الأضحية» (ص ٥٤):

حتى بعد ما أجهزوا على

ظل دمي حبيس جسدى

وعبثاً حاولوا

أن يلطخوا أكفهم

ويحتفلوا

إن هذه القصائد ليست ألفازاً تستعرض معرفة لغوية وإنما تثير صورا من إرادة المقاومة. فالحجر سيسقط لكن بعد أن يشير ضجة، والضحية تنحر لكنها لن تسمح لقاتليها بالاحتفال. الموت، إذن، ليس مجانياً ولا يمر بسكونية.

وأحياناً تأخذ هذه القصائد ملامح «البورتريه» كما في قصيدة «السرة» (ص ٣٦)، لمعجوز تتصنت:

كان هناك دائماً ما يخفونه عنا

ووسط التدابير الأكثر صرامة

كانت دائماً هناك

جدتى العجوز

بجسمها الضامر

وعينيها الكليلتين

يدها على الهواء

وأذناها على الصوت

كما نجد في قصيدة «العربة» (ص ٢٧) لقطة لمشهد عابق بالحسية، والعنوان بؤرة تتمركز الرؤية فيه وتتضح:

لم يكن الحوذى وحده

فحتى المهرة كانت تتلوح

والنسوة خليط مترجج

من الثياب والأثداء والعصائب

وغنج فائج

«الحكاية»؛ فالشخصيات فيها تبقى هلامية والحبكة القصصية غائبة، لأنها تقدم مشاهد تستحضر تاريخاً أكثر مما تقدم تاريخاً محكياً.

وأخيراً، نتساءل لماذا «صيد الفراشات» عنواناً لهذه المجموعة من الإخبارات الشعرية؟ ولو رجعنا إلى معجم محمد صالح الشعري لوجدنا أن الفراشة تحمل دلالات النشوة والدفء والجمال، فهو يقول في قصيدة له في ديوان (خط الزوال):

وخاطره منتشٍ

كفراش بلون الصباح الدفئ! (١٣)

كما يقول في قصيدة أخرى في الديوان نفسه:

أنت - ككل الفراش الجميل -

تضيئين في النار! (١٤)

وفي قصيدة «صيد الفراشات» (ص ٣٢) في الديوان الأخير، يقول الشاعر:

من أين جاء الخاطر المرء

أنه منذ ما يعي

ينتهي حيث بدأ

وأنه لن يعثر عليها أبداً؟

هناك هاجس الفشل «الخاطر المرء» يتلخص في عدم ثقته باصطياد الفراشات التي تشكل في قاموس صالح الشعري ومضات التجلي. إنه شعور الفنان أمام قدسية عمله ورهافة مشروعه. وهذا التشكيك الذي يساور المتحدث ما هو إلا التعبير عن غيرة الطريق، فجماليات قصيدة الخبر قد توقعها في لاشعيرة الخبر، وشعريتها قد توقعها في اللاخبر، فهنا الشاعر كمن يسير على حبل رفيع، إن لم يملك توازنه الصعب سقط يميناً أو يساراً. ولكن ليس لهذا التخوف ما يبرره، فقد نجح محمد صالح في تبطين أخباره بالشعر وشعريته بالخبر، بحيث يجعل من ديوانه بحياديته الظاهرة وانفعالاته الباطنة واقماً على تخوم الشعر والخبر في آن.

القصابين»؛ وما لاشك فيه أن القصيدة باختيارها العرس (يزفونها) في مقابل الذبح (القصابين) تنسجن الأول بالإيجابية والثاني بالاستنكار.

وفي قصيدة «الزيارة» (ص ٢٥ - ٢٦)، يرصد الشاعر استمرار معالم المكان وتغير البشر (كما نجد في الصحف في باب حدث قبل عشرين أو خمسين عاماً)، ليناجئنا في آخر القصيدة عبر تقنية الالتفات إلى الهم الكامن:

البيت الذي باعته الأم

بعدما اتسع عليها

ذو البابين على الناصية

الخشبي

المشرع على الشجرة التي

تطل عليها الشرفة

والحديدي

الموصد على الدرج المتأدل

كان هناك

والشقة التي تركتها إلى أخرى في الضاحية

شقيقتها التي كانا يزورانها

أيام كانا مخطوبين

والمقهى

الذي يسمع فيه الآن

الاغنية ذاتها

تتردد في خواء المناضد

ذات الرخامات الباردة

النادل وحده تغير

هي أيضاً لابد تغيرت

وعلى الرغم من الاستخدام المكثف لـ «كان» في قصائد محمد صالح التي تقدم حبراً، فهي تعتمد عن

## الهوامش:

٥ - محمد مستجاب، «فراشات محمد صالح»، أخبار الأدب، عدد ١٣٩ (١٠/٣/١٩٩٦)، ص ٣٠.

٦ - جارتيا ماركيز، «دفاعاً عن عودة الذكاء والأخلاق إلى الصحافة»، العلم (جريدة مغربية)، ١٢/١/١٩٩٦، ص ١٢.

٧ - محمد صالح، صيد الفراشات (القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦)، ص ١٠. وكل الصفحات في متن المقالة تمحّل إلى هذه الطبعة. ٨ - راجع:

Warren Agee et al., Reporting and Writing News (New York: Harper and Row, 1983), pp. 37- 38.

٩ - من مخطوطة لسمدي يوسف.

١٠ - جابر عصفور، «قصيدة النقص»، الحياة، ١٩٩٦/٤/١، ص ١٣. ١١ - راجع:

William Bascom, African Dilemma Tales (The Hague: Mouton, 1975).

١٢ - جابر عصفور، سبق ذكره، ص ١٣.

١٣ - محمد صالح، عخط الزوال (القاهرة - دار سعاد الصباح، ١٩٩٢)، ص ٣٤.

١٤ - المراجع سابق، ص ١٧.

١ - قصيدة غير منشورة من قبل (كتبت في ربيع ١٩٩٦)، تفضّل الشاعر محمد صالح بإطلاعي عليها بعد سماعه ملخص هذه الدراسة في مهرجان القاهرة للإبداع الشعري (٢٣ - ٢٧ / ١١ / ١٩٩٦)، وهي تتميز ما ذهبت إليه في المقالة. كما أنه أطلعني على قصيدة أخرى له غير منشورة موضوعها حديث بين امرأة وصحفي. وقد ذكر لي في مقابلة معه بعد الندوة بأنه أراد أن يدخل فرع الصحافة ولكن لأسباب عديدة لم يستطع وانتهى بالتخصص في الفلسفة «ليسانس من جامعة عين شمس». وقد تكون الرغبة المقصودة في التخصص الصحفي قد طفت بشكل لا واع على مساره الشعري.

٢ - انظر:

Abdel - Aziz Abdel- Meguid, "A Survey of the Terms Used in Arabic for Narrative and Story". Islamic Quarterly 1: 4 (Dec. 1954), pp. 195- 204.

٣ - راجع المعجم الوسيط (طهران: المكتبة العلمية، د. ت)، الجزء الأول، ص ٢١٣ - ٢١٤.

٤ - عن «الخبر» في التراث، راجع: محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٦)، ص ١٠٩ - ١٣٧. وسيزا قاسم «الخطاب التاريخي من التقييد إلى الإرسال في الأدب العربي: تعبيره عن الوحدة والتنوع»، إشراف عبد المنعم تليمة (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧)، ص ١٢٧ - ١٦٨.



# التشخص والتخطى فى أغانى مهيار الدمشقى\*

عادل ضاهر

فراة لغته الشعرية بأدواتها وأساليبها الفنية. فأدونيس، كأى شاعر كبير، يخاطبنا بلغة غنية بالدلالات والإيحاءات الفلسفية. وهذا الجانب للغته الشعرية، الذى نجده بارزا فى (أغاني مهيار الدمشقى) بخاصة، لم يلق أى اهتمام يذكر من قبل النقاد والدارسين. من هنا جاء اهتمامنا به وتركيزنا التام عليه فى هذه الدراسة.

إن مهيار الدمشقى، كما سيجى فى هذه الدراسة، يخاطبنا بلغة حملت إلينا، من حيث دلالاتها الفلسفية، الكثير من تفجرات عالم ما بعد الحداثة، يوم لم نكن نتقن بعد، لا على المستوى الفلسفى ولا على المستوى الشعرى، حتى لغة الحداثة. إنها لغة التشخصن الكبير كيجوردى ولغة السخرية والنفى والتبوة النيتشوية. إنها لغة متحررة من اللغة - أى من المفهومات والمعانى التى تجوهرت - ومنفتحة على الأشياء؛ أى على السر. إنها لغة الصيرورة المتحللة فى الغائية، لغة هيراقليطية خالصة، لغة اللعب الحر - اللعب الميتافيزيقى

يبتكر لنا أدونيس فى هذه المجموعة الشعرية شخصية فريدة «تتقمص خواطره ومشاكله ونوازعه وتحسد حياته وتجربته، كما جاء فى المقدمة القصيرة لهذه المجموعة»<sup>(١)</sup>. ستتحصر غايتنا فى هذه الدراسة فى تحليل هذه الشخصية الفريدة، أقصد شخصية مهيار الدمشقى، متغيب الوصول إلى جوانبها التى تضى لنا خواطرها وهواجسها الفلسفية. لن نعنى هنا بالتكنيك الشعرى والأدوات الفنية التى وظفها أدونيس فى عملية الخلق الشعرى. فحين لا نقصد أن نكتب دراسة نقدية بالمعنى الشائع المتعارف عليه. لا شك، طبعاً أن فراة أدونيس فى شعرنا المعاصر مرتبطة إلى حد كبير بالثورة التى أحدثها فى لغتنا الشعرية وفى فهمنا لمعنى الشعرية، وهذا لا يختلف حوله كثيرون. ولكن فراة لا تشفى فقط على

\* وتشكل هذه الدراسة صيغة معدلة لدراسة بعنوان «مهيار الدمشقى: شعره فى مجلة شعر، خريف ١٩٦٢، ص ١٠٨ - ١٣٧»



المباشرة لوضعه العيني الخاص. ما يختبره مهيار هنا لا يتحول إلى حقيقة له؛ إنه، بالأحرى، حقيقته الخاصة. إنه ما لا يمكن أن يتحول أبداً إلى موضوع أو أن يدرك إدراكاً عقلياً أو يحدد تحديداً نظرياً خالصاً. إنه الأصل الذي ينبع منه الفكر والفعل، والذي لا يمكن القبض عليه إلا عن طريق الوعي اليقيني به في لحظات نادرة من الرؤيا العيانية المباشرة. إنه مهيار وهو «مغلق كجذع شجرة، حاضراً ولا [يقبض] كالهواء» (مزمو، ص ١٣٨).

في عودة مهيار إلى هذا الوجود العيني، المفرد والخاص، إلى هذا الأساس المخبوء لذاته، عليه أن يتجاوز، أولاً، ذاته التجريبية. من هنا نفهم قوله «أمحو الآثار والبقع في داخلي أغسل داخلي وأبقه فارغاً ونظيفاً. هكذا تحت نفسي أحياء» (ص ٤٣)، إن فراغ الذات هو، قبل كل شيء آخر، خطوة في اتجاه تذويت الذات، في اتجاه تأكيد كون الذات ذاتاً وليست موضوعاً. ولذلك، فهو خطوة في اتجاه تجاوز الذات التجريبية هذه الخطوة هي بداية سيروية تنتهي به إلى اكتشاف ذاته الحقيقية القابعة تحت ذاته التجريبية، فيركن إليها ويعلم في نهاية هذه السيرة «وهكذا تحت نفسي أحياء». إنه، أخيراً، وجد ضالته ذاته؛ إنه الآن ذاته. ولكن هذه الحالة من التماهي مع الذات ليست حالة تمام ذاتي مطلق absolute self-identity، فالعودة إلى هذه الذات القابعة في قعر الداخل ليست عودة إلى جوهر ذاتي، وليس فيها، إذن، شيء من معاني الكثرة سوى معنى الأنوية. فالذات الجوهر شيء مكتمل وجاهز، فعل خالص. الذات المذوتة، بالمقابل، هي عكس ذلك. إنها مجموعة من الإمكانات لأنها «فارغة ونظيفة»، إنها، مصدر للفعل وحقل للفعل في آن. ولذلك، فهي لا يمكن أن تتسم بالتماهي الذاتي المطلق. إذن، إن عودة مهيار إلى الأساس المخبوء لذاته هي خطوة في اتجاه التماهي مع ذاته والانفصال عنها في آن. ففيما يعمل مهيار على تجريد ذاته من كثافتها التجريبية ويمضي في اتجاه التموند وتحقيق التماهي مع ذاته، يجد نفسه في النهاية قابلاً، باعتباره ذاتاً فاعلة، تحت ذاته «النظيفة».

إن عودة مهيار إلى ذاته ليست مجرد خطوة نحو التماهي الذاتي، حيث لا يقين سوى يقين الرؤيا العيانية المباشرة للأساس المخبوء للذات. إنها أيضاً مغامرة طويلة تحت

حيث لا قواعد سوى التي تنشأ في سيروية اللعب. إنها لغة الداخل التي لا تقع في فخ الكثرة في احتضان الأخيرة لمفهوم الذات - الجوهر، لغة الاختيار الخالص التي تطرح الألوهة الياسبرزية، لا الكوجيتو الديكارتية، شعاراً لنا، إنها لغة الرحيل في اتجاه الممكن، أي لغة الرحيل الذي يظل رحيلاً. ولكنها، قبل كل شيء آخر، لغة التموند\* باعتباره بداية التشخص.

إذن، إن الخطوة الأولى التي يخطوها مهيار هي في اتجاه ذاته: «أنتقدم صوب نفسي وصوب الأنقاض» (مزمو، ص ١٣٥) فهو يرى، كياسبرز، أن الإنسان، في تفتيشه عن اليقين، يجد أنه لا طريق العلم ولا طريق الفلسفة يقين بأن يوصله إلى هذا اليقين. فهذا العصر هو عصر الحقائق الاحتمالية حيث لم يعد ثمة معنى لأي يقين غير يقين الحقائق المنطقية والرياضية المجردة والمحددة بقوانين تحليلية عقلية خالصة. أما فيما يختص بالحياة الإنسانية - الحياة التجريبية بكل ألوانها وضروبها - فلا معنى لأي يقين خالص على الإطلاق. من هنا نفهم عودة مهيار إلى ذاته على أنها طريقه الوحيد نحو اليقين. إنها تصل وعيه بصورة مباشرة بحقيقة أصلية يقينية لا يمكن مطلقاً أن تتحول إلى موضوع، حقيقة تشكل الأساس المخبوء لذاته. إنها الحقيقة التي تسمح له أن يقول «أنا أكون»، والتي بها يتميز وجوده عن أي وجود آخر.

إن عودته إلى ذاته ليست، إذن، عودة إلى ذات تجريبية؛ لأن الأخيرة هي مجرد موضوع، ومعرفة لها تضافى عليها معنى نسبياً بتحويلها إلى حقيقة له، تماماً مثل معرفته لأي موضوع آخر خارج ذاته. فلا كينونة يمكن أن تدرك موضوعياً كما هي في ذاتها، وهذا ينطبق حتى على وجود مهيار كما هو معطى له في صورة ذات تجريبية. ولذلك، فإن نقطة البداية لمهيار هي ذاته كما هي معطاة له في التجربة

(\*) بنيت الباحث مصدر فعل عربي من monad وتعني الوحدة، أو الجوهر الفرد، وهو أحد عناصر الوجود الأولية وبخاصة في فلسفة ليبنتز، كما يعني أيضاً عنصر أو ذرة أو جذر أحادي التكافؤ والموناديزم هي نظرية ترى أن الكون يتكون من وحدات أولية - الحرز.

الجلد في اتجاه التشخص. لنبدأ، إذن، بمرافقة مهيار في مغامرته الطويلة هذه تحت الجلد. هكذا يمثل أماننا مهيار أول ما يمثل:

إنه الريح لا ترجع القهقري، والماء لا يعود إلى منبعه.  
يخلق نوعه بدءاً من نفسه - لا أسلاف له وفي

خطواته جذوره (مزمور، ص ١٤)

يضيء لنا مهيار في هذا القول أبعاد تجربته الشخصية كلها. إن هذا القول، في الواقع، مفتاح سر وضعه الإنساني بما هو وضع تشخيصي خالص. ومعظم ما سيأتي في هذه الدراسة يدور حول فض مكون هذا القول وإضاءة دلالاته الأساسية، بخاصة تلك الدلالات التي لها أهمية فلسفية.

لنحاول أن نفهم الآن ما الذي تعنيه عودة مهيار إلى ذاته باعتبارها سيروية تشخص. إن العودة إلى الذات في هذا السياق هي، قبل كل شيء أخرى، فعل اختيار. «أعجن خميرة السقوط، أترك الماضي في سقوطه واختار نفسي» (مزمور، ص ٤٢). إن اختيار مهيار لذاته هو، من منظور، الشرط الأول والأساسي لممارسته حرية الاختيار. بعبارة، إن كل اختيار حر، مهما كان موضوعه، ينطوي على اختيار الذات بما هو سيروية تجذير للذات في ذاتها أو تمحور حول الذات. ولذلك، يصبح اختيار الذات الخطوة الأساسية الأولى في اتجاه التشخص. إن مهيار، في اختياره لذاته، يحول الكوجتو الديكارتي إلى Eligo أنا اختار، إذن أنا موجود. إن هذا يضع مهيار في إطار ما صار يسرف بالأرثوذكسية الكيركيجوردية، مثله في ذلك مثل نيتشه وكارل ياسبرز من بعده<sup>(٢)</sup>. إن الأرثوذكسية الكيركيجوردية هي حالة توتر دينامي في أعماق الفيلسوف تمنعه من قبول أي شيء على أنه أمر نهائي مسلم به، لأنه هو ذاته ليس شيئاً نهائياً. إنه يجد نفسه دائماً في حالة وحدانية من النزوع نحو ما هو أكثر وضوحاً وتميزاً وقيمة في معناه الإنساني الأخير. إنه ينزع دائماً نحو وجود أعلى، كما يقول نيتشه. إن حالة التوتر الدينامي هذه يعانها مهيار بعدة فراه يتكرر ماء لا يرويه (ص ١٩١)، وينزع باستمرار نحو الممكن: «أتجه نحو البعيد والبعيد يقي» (مزمور، ص ١٠١) «ليظل تاريخاً من

الرحيل» (أرض بلا معاد، ص ٩٠) و«يولد في كل غد من جديد» (في عتمة الأشياء، ص ١٩٩)، ونراه يتوق حتى إلى «رب جديد» (نوح الجديد، ص ٢٢٧). إلا أن هناك شيئاً واحداً يمكن أن يقبل على أنه أمر أساسي ونهائي، هو أن لدى مهيار، باعتباره فرداً حقيقياً، الحرية لاختار. وهذا يعني له ما عناه ضمن إطار الأرثوذكسية الكيركيجوردية أن لديه الحرية لاختيار ذاته<sup>(٣)</sup>. وهذا الاختيار يتجه، في التحليل الأخير، نحو حقيقة التوكيد الذاتي. لذلك، فهو يعني في مضمونه الأساسي، أن لدى الفرد الحرية في اختيار سيروية صيرورته ذاته.

إن اختيار الذات هو اختيار للذات المتذوتة وليس للذات المتشعبة. فإن عودة مهيار إلى ذاته، كما رأينا في البداية، هي فعل تذويت لها فلا تعود معطاة بوصفها موضوعاً. وإذا كانت هذه الذات المتذوتة هي موضوع اختياره، إذن من الواضح أن اختيار مهيار لذاته هو فعل توحيد لها. إنه فعل يستهدف تنظيف الذات وإفراغها من كل ما علق بها من أشياء الخارج لتتحول إلى ذات خالصة ولا تعود منقسمة إلى ذات متذوتة وذات متشعبة. ولكن هذه الذات المتذوتة التي تشكل موضوع الاختيار ليست، كما رأينا، الذات - الجوهر التي أفرزتها الكثرة. إنها الذات بوصفها المصدر الذي لا ينضب للمعنى والقيمة، بوصفها نزوعاً دائماً ودققاً شعوريا لا يتقبل بقول نهائية. إذن، لا مفر من أن يكون اختيار مهيار لذاته، باعتباره الأساس لكل اختياراته الأخرى، هو، في أعماق معانيه، اختياراً للفعل في غياب أية معرفة موضوعية، وكأنني به يأخذ هنا بفهم ياسبرز للحرية على أنها تقوم على ما يسميه «علم عدم العلم»<sup>(٤)</sup> das Wissen des Nicht-wissens. إن ذاته النظيفة من كل «بقي وأثار» التشيؤ المجردة من كشافتها التجريبية والموضوعية، ذاته الموحدة، هي مصدر أفعاله الحرة. فلا مكان هنا للمعرفة الموضوعية لأنها نقل على الحرية؛ إنها تجرد الحرية من فاعليتها الذاتية العفوية. إن المعرفة الموضوعية تحرك الشخص بدوافع من خارجه فتعود به إلى قمقم التشيؤ. إذن، كل دافع خارجي غير متأصل في التجربة الشخصية ينقل على الحرية بسائق لا مشروطيتها. من هنا، لا يرى مهيار أنه يعرض نفسه للزلل أو الشطط لقطع

قائماً على التظاهر بأن كل شئ هو أفضل الأشياء الممكنة، وأن قوة العطالة التي تفرق الإنسان في نوع من أنواع السبات النبائي يجب ألا تمس، وإما أنه يولد حركة مضطربة تنتقل من تحول إلى تحول في شهيتها اللامحدودة، أبداً، للتأثيرات المسطحة والإحساسات القائمة على الملامسة الخارجية. وفي كلا الحالتين، يجد هيدجر أن النتيجة هي تغريب الإنسان عن ذاته Selbstfremdung ووضعه الإنساني الحقيقي. هذه النتيجة تعنى في التحليل الأخير تعطيل الإمكانيات الإنسانية واندخالها في الحياة اليومية المسطحة. إذن، لا خلاص للشخص الإنساني من هذه الحياة المشبعة بالمباشرة إلا بالانشقاق - الانشقاق عن حياة الآخر المعمم في سيرورة اجتماع وتركز ذاتيين تنتهى به، مرحلياً، إلى التعمود<sup>(٦)</sup>.

لم يكن هيدجر أول المتنبيين لهذه المشكلة، مشكلة مواجهة الشخص الإنساني للواحد أو الآخر المعمم. فقبل هيدجر تحدث كيركيغورد عن طغيان الجمهور أو العامة. إن مفهوم الجمهور أو العامة هو المعادل الكيركيغوردى لمفهوم الواحد عند هيدجر. ما يدل عليه هذا المفهوم ليس شيئاً عينيّاً؛ ليس الأمة ولا المتحد ولا الجيل، حتى ولا أفراداً معينين. إنه، فى نظر كيركيغورد، مفهوم يدل على قوى التجريد الهائلة فى المجتمع الأوروبى الحديث، هذه القوى التى تعمل باستمرار على سحق الوجود الفردى عن طريق سلبه ذاتيته وفرداته الخاصة وتجريده من عينيته<sup>(٧)</sup>.

إن مشكلة مواجهة الفرد قوى التجريد هذه الممثلة بالواحد أو الآخر المعمم أو العامة اتخذت شكلاً أكثر تعقيداً لدى بردياييف. لقد ميز بردياييف بين الأنا والشخصية. الأنا هو قبل كل شئ الذات الواعية الواحدة والكائنة وراء الشخصية. إن بإمكاننا تحديده، من وجهة نظره، على أنه الوحدة الثابتة وراء كل تغير فى الوجود الشخصى. كل «أنا» هو وجود مفرد ومميز، عالم بذاته. ولكن وعى الأنا لأى موضوع يحمل فى أعماق تلافيفه عنصراً اجتماعياً، حتى عندما يتخذ صورة وعى ذاتى. فحتى أعمى ذاتى ينبغى أن أعمى الآخرين. من هنا يبدأ الأنا يتحول إلى شخصية<sup>(٨)</sup>. الشخصية هي، فى المقام الأول، ذات شأن روحى. هنا يتفق بردياييف مع ماكس شيلر فى أن الشخصية تجسد وحدة

صلته المعرفية بالعالم الموضوعى، عالم الأشياء الحسية، : «ضيق خيط الأشياء وانطفأت / نجمة إحساسه وما عثرا» (صوت آخر، ص ١٨)، فهو لا يحتاج سوى إلى الإبحار فى عيبه لتكشف له الحقائق كلها، أى سوى للخروج من قمقم التشيؤ إلى رحاب عالمه الداخلى، دون الركون إلى أية معرفة موضوعية:

لأننى أبحر فى عيني

قلت لكم رأيت كل شئ

فى الخطوة الأولى من المسافه (قلت لكم، ص ٨١)

ما يوضحه لنا مهيار حتى الآن هو أن التعمود طريقه نحو التشخص، أى أنه ملزم بأن يتفردن حتى يتشخص. من هنا إعلانه «إنسان الداخل»: «أنا الساكن فى أصداف الحلم، المعلن إنسان الداخل»، (مزمو، ص ١٠٢)، وإضافته على ذاته بعضاً من خصائص أنوية الكوجتو الديكارتى. إن عملية التشخص تتطلب أول ما تتطلب الانشقاق عن ملامسة البيئة وعلى استعادة الذات ومحاولة القبض عليها من جديد، فى سبيل التجمع حول مركز من مراكز الذات والتماهى معها. فمهيار يدرك أن التحصن فى الداخل هو الضمان الوحيد لبقاء ذاته فارغة ونظيفة؛ فبعد أن ينبتنا أنه يصدد محو الآثار والبقع فى داخله وغسله داخله وإبقائه فارغاً ونظيفاً، يقول لنا بثقة: «وسأبقى؛ فأنا مسيح بنفسى» (مزمو، ص ٤٣).

ولكن ماذا يعنى على وجه التحديد تفردن مهيار وانسحابه إلى عالم الداخل ليتحصن فيه؟ إنه، قبل كل شئ آخر، يعنى انسحابه مما يسميه هيدجر عالم «الواحد» Das Mann أو عالم «هم» أو عالم «الإنسان - الجمهور»، L'Homme - masse، بحسب تعبير جبريل مارسيل<sup>(٩)</sup>. فكرة الواحد أو «هم» هي المعادل الوجودى لفكرة «الآخر المعمم» generalized other التى نجدتها فى كتابات عالم النفس الاجتماعى الذرائعى هربرت ميد Mead، فالواحد يفكر ويعتقد ويتكلم ويتصرف كما يفعل أى واحد منا. وهكذا فهو يجسد الامتثالية conformity فى أسوأ صورها، ويقع فريسة التشيؤ والاستلاب. فهو لا يعبر عن نفسه بالحوار، بل بالثرثرة اليومية. المحيط الذى يتحرك ضمنه يلد إما اكتفاء

(الموضوع الاجتماعي) لا يمكن أن تنفصل، كما يلاحظ سارتر، عن مشكلة وجود الذات. فالذات، في وعيها الخاص بوجودها، لا تعامل نفسها بوصفها موضوعاً؛ إنها تصبح موضوعاً فقط من وجهة نظر الآخر. إن اهتمام سارتر هنا ليس بعلاقة الذات بالآخر باعتباره تجسيداً لروح التجريد المتمثلة بالمجتمع التكنولوجي الحديث، بل بعلاقة الذات بالآخر باعتباره ذاتاً أخرى. فالذات لا تكون مهددة بالتحول إلى موضوع إلا من خلال كونها معرضة لأن تصبح موضوعاً لوعي الآخر. ولذلك انصب اهتمام سارتر في (الوجود والعدم) فقط على فض المكون الفينومولوجي لعلاقة الذات بذات أخرى، كائن ما كان الشكل الذي تتخذه هذه العلاقة.

أما جبريل مارسيل، فإنه يعود بنا إلى مشكلة علاقة الفرد بالمجتمع كما فهمها كيركيجورد. إن الشخصى الإنسانى يتحول إلى موضوع بواسطة روح التجريد المتجسد في المجتمع التكنولوجي الحديث. الفرد، كما يرى مارسيل، تحول بواسطة وسائل محطّة، كالداغية، مثلاً، إلى مجرد إنسان - جمهور L'homme - masse. وعى الانتساب إلى جمهور يصبح أكثر حقيقة وأكثر أهمية من وعى الذات الفردية، وتماهى الفرد معه يصبح الوسيلة السهلة لتجنب الفرد قلق الانفصال (separation - anxiety) الذى عالجه دور كيم بوصفه شكلاً من أشكال الاضطراب والانحلال في الحياة الشخصية والاجتماعية. ولكن الجمهور كمي ولاشخصي، مما يعنى تغريب الشخص عن ذاته في محاولته تجنب قلق الانفصال ووقوعه فريسة لشبكة التجريد في محيطه<sup>(١٢)</sup>.

الذات مواجهة، إذن، بوجود لاشخصي يهددها بالتجريد، من جهة، وتحويلها إلى موضوع، من جهة ثانية، وذلك يؤدي، شأن ما يؤدي إليه التفكير الهيجلي، إلى فصل الذات عن الموضوع في الوجود الفردى وإلى توحيدهما في الوجود المعمم التجريدى. إنه يؤدي، كما يعبر عمانوئيل مونييه:

لى نزعة الإطاحة بعملية التشخصن التى تهاجم الحياة، وتفرقل وتبثها، وتعرضها فى أنواع ذات نسخ متكررة، بصورة لا نهائية، وتفسد

أفعالنا وإمكاناتها. إنها الشخصية بالذات ما يشكل، فى اعتقاده، المشكلة الوجودية الأساسية<sup>(١٣)</sup>.

الفرد يختلف عن الشخصية من حيث كونه متولة بيولوجية طبيعية ويشكل، بالتالى، رباماً بين الأنا ومحيطه الإنسانى. إن الفرد، بعامل المستلزمات الوصعية لوجوده الاجتماعى، يحاول أن يؤدى دوراً فى محيطه وأن يشغل مركزاً اجتماعياً. وهو من خلال ذلك إما - يحاول توحيد ذاته بذات أو ذوات أخرى، أى يبحث عن الانتماء وتحديد هويته من خلال التماهى مع الآخر - ولكن ما يترتب - فى نهاية الأمر - على تأدية الشخصية هذا الدور الاجتماعى أو ذاك هو أنها لا تعود ذاتها الأصلية الروحية؛ إنها تصبح فقط شخصاً<sup>(١٤)</sup>.

ولكن الأنا، فى نظر بردياييف، لا يمكن أن يستنفد فى الشخص، ولذلك فهو دائماً مهدد بالضمح فى تأسيس علاقات حقيقية مع الآخرين، أو مع الله - إن هذا هو ما يشكل أساس فهمنا المشكلة الوجودية للفنى والاغتراب. فوجود الأنا، باعتباره شيئاً متميزاً عن الشخصية، وباعتباره الوحدة الثابتة وراء كل تغير فى الوجود الشخصى، يشكل حاجزاً ثابتاً بين الفرد ونجاحه، من خلال أدواره الاجتماعية، فى تحقيق تماه تام مع محيطه الاجتماعى. لا مفر، إذن، من وعى الشخصية بذاتها بوصف هذه الذات شيئاً مميزاً عن حياة الجنس، عن محيطها الاجتماعى. والشعور بالاغتراب، فى ما يذهب إليه بردياييف، ينمو جنباً إلى حب مع نمو الشخصية فى وعيها بتميزها عما هو محيط بها. إن الشعور بالاغتراب يبلغ أقصاه عندما يجد الشخص الإنسانى نفسه، وسط العالم الاجتماعى، المجرد والموضوعى، عرضة لضغوط قوى التشبؤ والتجريد العاملة على تحويل شخصيته الذاتية إلى موضوع<sup>(١٥)</sup>.

إذا كان بردياييف قد أعطى المشكلة طابعاً سيكوسوسولوجياً، فإن جان بول سارتر أضاف إلى هذا الطابع معنى فينومولوجياً. لا يعالج سارتر فى (الوجود والعدم) العلاقة بين الفرد والمجتمع بصورة مباشرة، ولكن من خلال معالجته علاقة النفس الذاتية subjective self بالموضوع الاجتماعى social object. مشكلة وجود الآخر alter



من هنا نفهم انشقاق مهيار عن محيطه، معنى انفلاقيه المونادية. إن مهيار يرد على عوامل التجريد والتشيعى اللاشخصية فى محيطه عن طريق التحصن فى ذاته. إنه يرفض أن يكون مسجوناً خارج ذاته، يأبى أن يكون مجرد مركز بسيط لتلقى النتائج الموضوعية، يتمرد على كل ما من شأنه أن يجرده ذاته ضمن إطار الآخر المعمم اللاشخصى. ولذلك يعلن لنا مهيار: «وسأبقى، فأنا مسيح بنفسى» (مزمو، ص ٤٣)، وأنه مذك عرف الآخر المعمم استدار (عرف الآخرين/ فرمى صخره فوقهم واستداره الآخرون، ص ٣٧). استدار إلى أين؟ إنه استدار إلى الذات استدارة انطوائية فى عملية استغوار تشخصى. إن مهيار، لكى تكون ممارسته للدالكيتيكية السقراطية ذات معنى، يغوص فى دخيلته يحدد علائقها بما حوله، يفهم وضعه التاريخى فهماً لا يخفض لأية مسلمة قبلية أو لحقائق غير الحقائق التى يكتشفها هو فى داخله. ومهيار يفعل كل هذا بمعزل عن الآخر المعمم، مؤكداً لنا: «لاشئ يجمع بيننا - وكل شئ يفصلنا» (مزمو، ص ١٣٧). إن عملية التشخصن الحقيقية لا يمكن إلا أن تمر فى مرحلة التعموند وأن تتمثل أنوية الكوجتو الديكارتنى. إن تذويت الذات الذى يعنى إعطاء الذات قوانينها الخاصة المحددة لمعناها الخاص واتجاهها الخاص ستوجب، قبل كل شئ آخر، إفراغ الذات من شئيتها. من هنا نفهم قول مهيار الذى أشرنا إليه سابقاً: «أمحو الآثار والبقع فى داخلى. أغسل داخلى وأتركه فارغاً ونظيفاً. هكذا تحت نفسى أحياء». هذا يعنى أن مهيار يقطع الأسباب بينه وبين الواحد أو الآخر المعمم، إنسان اليوميات والتوافه، إنسان العادى والسطحى، الإنسان الذى لا يعدو كونه وظيفة من الوظائف وموضوعاً من المواضيع. ومهيار يفعل كل هذا ليصل إلى هذه النتيجة، نتيجة وجوب كونه ذاتى البدء والخريطة التى ترسم نفسها» (مزمو، ص ١٣٩). الموناد هنا ابتدأت تتخذ شكلها الأخير الذى يتبلور ضمن القوانين الخاصة للذات ويتحدد بها تحديداً كيانياً. بغير هذا الانشقاق المونادى عن محيطه، يغرب مهيار عن ذاته ويصير مجرد رمز فى سلسلة، محدد بقوانين هذه السلسلة. مهيار يأبى أن يصير مجرد رمز فى سلسلة، وكأنى به فى تأكيد وجوب كونه «الخريطة التى ترسم نفسها» يكرر احتجاج كيركيجورد:

الاكتشاف بإحالة إلى آليات، وتتابع عن طريق العطالة حركات لا تلبث أن تنكفى ضد غايتها. إنها تخفف من توتر الحياة الاجتماعية والفكرية، فى نهاية الأمر، من جراء تراخيات العادة، ومن العياد، والفكرة العامة، والثثرة اليومية<sup>(١٣)</sup>.

مهيار يجد نفسه أيضاً مهدداً بوجود لا شخصى، أى بقوى التشيعى والتجريد اللاشخصية العاملة فى محيطه. إن قوى التشيعى والتجريد هذه ليست وقفاً على مجتمع معين أو على وضع تاريخى معين. فهى، أصلاً، ليست وليدة عوامل وظروف مؤقتة، بل نجدها فاعلة فى كل المجتمعات فى كل ظروفها ومراحل تطورها، وإن لم يكن بالقوة نفسها أو بالقدرة نفسها على التجريد. إن الفرد دائماً مواجه بالواحد أو الآخر المعمم، لأنه لا يمكن أن يوجد إلا فى محيط اجتماعى معين. «الحياة التى أحياءها، فيما يقول ياسبرز،» هى جزء فى المحيط الاجتماعى الذى أرتبط به أنا بروابط تاريخية؛ أنا لا أوجد كذرة معزولة ولكن كعضو فى عائلة أو جماعة، كجزء من هذا القطيع أو ذاك...<sup>(١٤)</sup>، ولكن المشكلة الأساسية بكل خطورتها ليست مشكلة وجودى فى محيط اجتماعى معين. المشكلة، كما أشار ياسبرز، هى، بحق، مشكلة أن أخضع محيطى خضوعاً لا مشروطاً ودون أى وعى لوجودى الشخصى الفريد. المشكلة هى أن أفسل فى مقاومة عوامل التشيعى اللاشخصية المستهدفة تخويل ذاتى إلى موضوع وأن أقع فى فخ التجريد.

هذه هى المشكلة الأساسية التى يواجهها مهيار، فالعالم الذى يعيش فيه لم يفته التفتن فى ابتكار الوسائل ذات القدرة الهائلة على التجريد. الإنسان فى عالمه شيئاً ويعمم فى عملية موازنة تجريدية تخيله ليس إلى قطاع واسع من قطاعات حيواته المثقلة بالإلحاحات الخارجية فحسب، بل أيضاً إلى مركز بسيط لتلقى النتائج الموضوعية. الإنسان فى عالمه يضيع فى نوع من الملاشاة فى شبكة من العلاقات الهندسية، وهو لذلك يسلب حضوره الحق تحت طبقة التجريد والتخارج والتشيعى. إننا فى هذا العالم - لنستمر قول فاليرى - «مسجونون خارج ذواتنا».



«ضعني في سيستم فتفتني - أنا لست قط رمزاً رياضياً - أنا أكون».

إن احتجاج كبير كيجورد كان موجهاً بالأخص، ضد هيجل: الذات والموضوع، الفكر والوجود، متوحدان في نظام هيجل الفلسفي التأمل، بينما هما منفصلان في الوجود الفردي. الذي يعني مهيار، كما عني كبير كيجورد من قبله، من هذا النوع من التفكير الهيجلي هو أنه ينفي حقيقة الوجود الفردي في نظامه العقلي مجرد الفرد بات مجرداً من كل معنى ذاتي وفق خطط التفكير الهيجلي، الذي شأنه شأن مهيار لا يمكن أن يقبل بهذا النوع من التفكير الذي بموضع الشخص الإنساني في شبكة من العلاقات الضرورية القابلة للفهم. مهيار، كما رأينا، «يخلق نوعه بدءاً من نفسه، لا أسلاف له وفي خطواته جذوره». وهو بمجرد إدراكه لهذه الحقيقة، حقيقة كون فاعليته الشخصية محددة مساره، يدرك، مع كبير كيجورد، أن الوجود الإنساني من حيث هو وجود فردي، هو، بالضرورة، وجود عيني لا يقبل التعميم أو التجريد. وهو، لذلك، يعكس ما قال به هيجل، يمكن أن يخضع لهذا المفهوم أو ذاك وأن يتجرد من ذاتيته. إن تفكير مهيار، في وعيه الوجود الفردي في عينيته المطلقة، يصور على رفض قاطع لمنطق الوحدة، ينتصر للبيتز ضد هيجل واسينوز أيضاً. إن الهيجلي والسينوزي، سواء بسواء، رفضاً رؤية التعدد والكثرة. منطق الوحدة، لهما، هو المنطق الوحيد المشروع. لقد نسف هذا المنطق قوانين النسب والعلاقة، ونسف معها، بالتالي، التعدد والكثرة. أين أحرف الجر؟ أين الأفعال؟ النظر الفارق في وهم المطلق لا يستطيع رؤية هذه الأشياء الصغيرة. وهكذا تنفي الذات الفردية في نظام عقلي مجرد وينحول الشخصي الإنساني إلى مجرد مجموعة من الأدوار المرسومة قبلها وفق منطق الكلي أو منطق الواحد المطلق.

من هنا نعود إلى النقطة التي بدأ منها مهيار. إن مهيار، كما رأينا، هو «الخريطة التي ترسم نفسها». هذه هي الناحية الأساسية التي تضعنا في الطرف الآخر المضاد لهيجل. دون أن يكون مهيار «الخريطة التي ترسم نفسها» لا يستطيع أن يبلغ مرحلة التوكيد الذاتي. تغير هذا تظل ذاته مجرد مجموعة من الإضافات الخارجية، لا تكشفها وتباوراً من الداخل. إنها تبين مجرد رمز في نظام عقلي مجرد. لذلك

رأينا كيف لا يجد مهيار بديلاً للثورة على المنطق الهيجلي فيجعل ذاته فارغة ونظيفة ويعربها من شيعيتها ويموندها. إن مهيار يريد أن يمتلي فقط بذاته، أن يكون. ولكن تموند مهيار أو انصرافه إلى نوع من أنواع أنوية الكثرة هو مرحلي. فما إن تبلغ ذاته الوضع الأخير لتسرداها، ضمن أطرها العازلة، حتى تعود فتطلق إلى الخارج، ولكن من الداخل. إن التجمع في الأعماق يبيت هنا استعداداً لوثوب جديد. هذا الاستعداد يضع الذات في محاذاة العالم، لأنه ملئ بالتحدى والامتلاك. ولذلك إذ يخاطبنا مهيار قائلاً، «لا أستطيع أن أحيا معكم لأستطيع أن أحيا إلا معكم» (مزمور، ص ١٣٧)، نبدأ ندرك أن الموناد على وشك أن تكسر أطرها المغلقة وأن أنوية الكرجتو تحمل في تلافيفها بذور البث. ليس في قول مهيار هذا أية مفارقة. إنه إذ يقول «لا أستطيع أن أحيا معكم»، يعبر عن هذا النزوع القوي فيه للتوكيد الذاتي. وهو هذا النزوع للانشقاق عن كل ما من شأنه أن يعطل ذاته في عملية تشخصها. وإذا يستطرد في لهجة موهمة للتناقض «لا أستطيع أن أحيا إلا معكم»، يعبر عن هذا النزوع القوي فيه للبث. ليس بين الانشقاق والبث أي تناقض. البث لمهيار هو توكيد حضور الشخص وتجسده في العالم وإمكان التحدى والامتلاك، وليس حركة في اتجاه ذوبانه في الآخر المعمم أو تماهيه مع الواحد. إن البث، كما سنوضح فيما بعد، هو حركة في اتجاه امتلاك العالم والأشياء عن طريق تذويتها، وليس حركة في اتجاه موضوعة الذات.

إن سيروية التشخص لدى مهيار تبدأ، إذن، بالتفرد لتنتهي بالانفتاح على العالم والآخرين. إنها تنتقل به من كونه فرداً إلى كونه شخصاً. وأفضل ما يمثل هذه السيروية القصيدة التالية:

ضيق خيط الأشياء وانطقات

نجمة إحساسه وما عثرا

حتى إذا صار خطوه حجرا

وقورت وجنتاه من مل

جمع أشلاءه على مهل

جمعها للحياة وانتثرا

(صوت آخر، ص ١٨)

الإنساني كما تختبره بصورة مباشرة، معرى من كل سماته الجائزة، من كل ما يتراكم عليه جراء نظرا إليه تحت تأثير ما يسميه هوسرل «الموقف الطبيعي» Natural attitude وهكذا فالقاعدة الأساسية في التفكير الفينومولوجي الحديث هي هذه: لننظر قبل أن نفكر، لنلاحظ قبل أن نمجرد في إطار النظر، لنصف الموجود هناك في العالم أو في داخلنا كما يتكشف لنا في ذاته، وليس كما نراه من وجهة نظر علمية أو فلسفية تقليدية. لننظر إلى الموجود ونوضحه دون أن نطلق عليه حكما مسبقا وفق مقاييس ثابتة، وفق مقولات قبلية أو مفاهيم نظرية. ليس المنهج الفينومولوجي، إذن، منهجا علميا. إنه يصف ولكنه لا يفسر. يوضح الخصائص والعلاقات التي تمثل في حقل التجربة الإنسانية المباشرة، دون أن يعنى بالعلاقات السببية وراء هذه الظواهر. المنهج الفينومولوجي يدعونا إلى فهم Verstehen العالم لا إلى معرفته Wissen. المعرفة تخضع لمقولات ومعايير سابقة على التجربة، بينما الفهم لا يخضع لأي شروط سابقة.

من الواضح هنا أن الدعوة إلى العودة إلى الأشياء في ذاتها باعتبارها الشعار الأساسي للفينومولوجي هي في حقيقة الأمر دعوة إلى العودة إلى المفرد والمعنى والخاص الذي لا يمكن القبض عليه عن طريق المفاهيم المجردة، أي الذي لا يمكن أن يشكل موضوعا للفاهمة Verstand بل للفهم Verstehen. إنها دعوة إلى العودة إلى ما يمثل في حقل التجربة الشخصية المباشرة<sup>(١٥)</sup>. من هنا صارت العودة الفينومولوجية إلى الأشياء في ذاتها مبدأ أساسيا لما يسميه نايت «الأدب كفسلفة»، أي أدب الفينومولوجيين من أمثال سارتر وجيد وسواهما. فالأدب، بعامه، ليس وسيلة إلى المعرفة بل إلى الفهم، ليس أداة للتفسير بل للوصف. إنه طريقة جديدة للنظر إلى الأشياء لا تخضع سوى للشروط التي تنشأ في سيرورة اختيارنا للأشياء. ولذلك فهو ينطوي على «رؤية» الأشياء كما تتكشف لنا من داخلها. ولكن هذه «الرؤية» غير ممكنة إلا بعد قيامنا بعملية رد فينومولوجي تتيح للظاهرة أن تتعري من شبيبتها - من كثافتها التجريبية وعلاقتها السببية، بل من كل سماتها الجائزة وما أضفى عليها من خارجها من جراء إخضاع الإدراك لمقتضيات الموقف الطبيعي.

أول ما نلاحظه هنا هو أن مهيار يبدأ بقطع الأسباب بينه وبين العالم الخارجي (عالم الأشياء المحسوسة) الذي يهدده بالتشويش، أي يعلق عمل حواسه لينسحب إلى عالم الداخل. ولكن هذا الانسحاب من العالم الخارجي إلى عالم الداخل ليس غرضه الانسحاب من عالم الفعل، إنه يستهدف من ورائه، أولا، توحيد ذاته بأناه (تجميع أشلائه على مهل) بعد أن جردها بالتشويش من الطاقة الذاتية على الفعل، فلم تعد أفضل من أشلاء ميتة، ليوجه ذاته الموحدة من ثم إلى عالم الفعل (الحياة) فلا يبقى «خطوه حجرا». إن ما يأتي بعد توحيد ذاته هو استعداده لوثوب جديد، استعداده للثب، لأن يملأ العالم بأفعاله، لأن ينتشر في جميع الجهات أفعالا حية - لا أشلاء ميتة.

إن عودة مهيار إلى ذاته، من حيث هي تحصى في الداخل، تحمل إلينا، كما رأينا، شيئا من معنى الكثرة، شيئا من معنى الأنوية والتحموند. أما عودة مهيار إلى ذاته، من حيث هي حفر تحت طبقات التشويش المتراكمة عليها من الخارج بحثا عن وجوده العيني، الخاص والمفرد، فهي تحمل إلينا شيئا من معنى الرد الفينومولوجي. إن مهيار، كبير كيجورد من قبله، ينظر إلى الوجود على أنه، في أقصى تجليه، لا يتخطى كونه وجودا فرديا خاصا. إن عدوه الرئيسي هو التجريد.

إن العودة إلى المعنى، المفرد، بمعناها الفلسفي، تصاحب اسم الفيلسوف إدموند هوسرل والحركة التي أطلقها باسم الفينومولوجيا. لقد حضنا هوسرل على العودة إلى الأشياء في ذاتها Zuruck zu dem Sachen sebst، وقد استجاب له كثيرون من بينهم الفلاسفة هيدجر وسارتر وميرلوبونتي والكاتب الفرنسي المشهور أندريه جيد الذي لم يكن سوى صدى لهوسرل عندما قال: Nous irons vers les choses. لقد كانت دعوة هوسرل إلى العودة إلى الأشياء في ذاتها مستهدفة، في الأصل، تأسيس فهم جديد للمعرفة متحرر من السمات التقليدية للمنهج العلمي، سواء في شكله التجريبي أو في شكله الإجرائي operational، سواء اتخذ من الاستنباط أو من الاستقراء أداة استدلالية له. فما هو مطلوب، فيما يذهب إليه هوسرل، هو منهج مطابق لموضوع العالم

الإنساني وفق منطق الضرورى هو حاكم على هذا النظر أيضا. إن مطلقته القيمية تفترض أن ما نجد تحت طبقات التاريخ من أنظمة فكرية وقيمية، هو ما ينبئ أن يشكل المعايير النهائية لفكرنا وقيمنا فى الحاضر. وهنا يصبح التاريخ أيضا، وبعامل الضرورة، مقياس ذاته الأخير. الإنسان، هنا، لا يمكنه أن يقيم التاريخ وفق معايير مستقلة، بعامل عدم امتلاكه أى معايير غير مستمدة من ماضيه. التاريخ، إذن، معيار ذاته. وهكذا نصل - وفق خطط النظر هذه - إلى النتيجة الآتية: التاريخ يفعل بمعزل عن الإنسان وفق منطق خاص وضرورى، كامن فى حركة التاريخ الداخلية؛ وكأنى بالتاريخ هنا قوة واعية تملك حق تقييم النظر الإنسانى وتحديد فاعليته الإرادية. قوة تجرد ذاتها فى إطار غائى، بحيث تصبح هى ذاتها هدفا لذاتها، وفى إطار قيمي، أى بحيث تصبح هى ذاتها مقياسا لذاتها. فى عالم ملجوم بالماضى يصير التاريخ موضوع فاعلية النظر وموضوع فاعلية الإرادة ومجههما معا.

انطلاقاً من هذه النظرة إلى التاريخ، تتخذ القيم التاريخية، بل الموروث بكليته، شكلاً مطلقاً وسلطوياً. هنا نتوصل إلى الحكم على ما هو كائن وما سيكون باسم ما كان - الذى كان هو وحده الحقيقى ووحده المحدد. ما هو كائن وما هو ممكن يكتسبان معنييهما من هذا الذى كان. ماذا يمكن أن يكون وضع الشخص الإنسانى فى ظل تفكير كهذا؟

الشخصى الإنسانى مدعو هنا إلى أن يرضخ لسلطة التاريخ المطلقة. إنه مدعو إلى أن يقف أمام جبروت التاريخ، كما يقف أى مؤمن بأحد الأديان السلطوية أمام جبروت الله: يجرد قواه باستمرار ويسقطها على الله فى شكل قوى لامحدودة تتخطاه، بما هو كائن محدود. وهكذا، بعد أن يجرد كل قواه ويسقطها على الله، يبيت فى النهاية لا يملك شيئاً سوى شعوره بالخطيئة والإثم. هذا أيضاً شأن الذى يقف أمام جبروت ومطلعية التاريخ المفترضين. فعندما يجرد الإنسان قواه ويسقطها على ما هو خارج ذاته، مسبقاً عليها، فى وضع التجريد، طابعاً مطلقاً لا محدوداً، يتوهم أن هذه القوى، فى لامحدوديتها ومطلعتها المزعومتين، تتخطاه، بما هو محدود،

إن شعر أدونيس ينتمى، دون أدنى شك، إلى هذا النوع من الأدب الذى يعمل بمبدأ هوسرل. إن العودة إلى الذات، كما رأينا، تعنى لمهيار العودة إلى العيني، الفرد، والخاص الممثل فى حقل التجربة المباشرة. فهى عودة إلى رؤية الذات فى فرادتها التى لا يمكن القبض عليها عن طريق الفاعمة. ولذلك عندما يعلن مهيار أنه «مفلت كجذع شجرة، حاضر ولا [يقبض] كالهواء»، فهو إما يصف لنا ذاته ضمن إطار اختياره الفينومولوجى لها، أى ذاته وهى مختبرة بصورة مستقلة عن كل المفاهيم المسبقة، وكل مقولات التجريد الفكرى والنظرى وجائزية العلائق السببية والإضافات الموضوعية. إنه بمعنى آخر، يصف لنا ذاته بعد رده لها، فينومولوجياً، (أى بعد محوه للبتع والآثار من داخلها وغسلها لتبقى فارغة ونظيفة)، بحيث لا تعود تخضع لأى مفاهيم جامدة مسبقة ولا تعود قابلة لأن تتشأ أو لأن تتجوهر.

إن عودة مهيار الفينومولوجية إلى ذاته، من حيث هى عودة إلى ما هو عيني ومفرد وخاص، لا تستوجب منه فقط أن يدير ظهره للواحد أو الآخر المعمم، بل أن يدير ظهره أيضاً للماضى. «أترك الماضى فى مقوطه وأحترق نفسى» فيما يقول لنا مهيار. الماضى قمقم والعالم الذى يعيش فيه مهيار «بركة للقطيع» [المدينة (أصوات) ص ١٤١]. ولكن مهيار فى عودته الفينومولوجية إلى ذاته، أى فى اختباره وجوده العيني الخاص محرراً من كل ما من شأنه أن يعمم ويجرد ويخرج هذا الوجود، بات واحداً من الذين «كسروا خاتم القمام» (شداد، ص ١٦٣)، وانصرفوا عن «بركة القطيع» ليسبحوا فى منابع الداخل.

إن عالم مهيار ملجوم بالماضى، حيث لامعى إلا للنبات، وحيث كل شئ محتوم مسبقاً. التاريخ فى هذا العالم يشكل حدوداً نهائية لفاعلية الإرادة وفاعلية النظر. إن عالمه يقع ضحية النظر إلى التاريخ، على أنه يحضن لمنطق ضرورى فيكتسب طابعاً جبرياً وليس فقط طابعاً حتمياً. إنه ينظر إليه على أنه ذو نظام خاص به لا يحتل فيه الإنسان وضع العنصر الفاعل بل العنصر المطاوع. ووفق خطط النظر هذه يكتسب التاريخ مطلعية قيمية: فالتاريخ - النظام المحدد مسبقاً للنظر

الحقيقة بشئ آخر وراء ذاتها. إذا كنت تصر على معرفة هوية الحقيقة، تجد أن الحقيقة هي ما تختبره على أنه حقيقة. الحقيقة هي كما تراها وتسمعها وتحسها وتشمها وتحياها.

أن ترى هذا يعني أن تصير إنساناً دون موقف. أقصد أن تخرج من إطار الفكر والتجريد إلى العالم، أن تذهب إلى ما وراء اللغة - إلى الأشياء. هذا يعني أن تتوقف عن أن تكون فريسة شبكة من المجردات الفكرية - النظرية أو شبكة المفاهيم والمعاني التي تجوهرت، أو أن تكون أى شئ آخر من الأشياء المضفة من الخارج على ذاتك. أنا إنسان دون موقف، يعنى أنتى فقط تؤكد وجودى الخاص، يعنى أن «فى خطواتى جذورى»، أو على حد تعبير كبير كيجورد «أنا أكون»<sup>(١٦)</sup>.

فى هذا الاتجاه تكمن الفوضى واللاأخلاقية والجنون أو إن شئت كل «الأشياء المحتقرة». ولكن هنا أيضاً تكمن الحرية.

عندما نفهم هذا، نستطيع أن ننظر من خلاله إلى مشا كل عصرنا. عصرنا ليس عصر الإنسان الحر، الإنسان القابض على مصيره، الإنسان القابض على الطبيعة والتاريخ. إنه عصر «الخضوع والسراب» (مزمور، ص ٤٢) حيث التاريخ يسود لا الإنسان، حيث المبادئ تسود لا الإنسان، حيث الآلة تسود لا الإنسان، أو قل حيث كل شئ يسود إلا الإنسان. إنه عصر نقيم فيه الأسباب بيننا وبين الموت.

الإنسان ذو واجبات فقط تجاه نفسه، وهذا يعنى أنه دون واجبات. هو فقط يمتلك الحياة المتحركة فى داخله. وإذا ينكر «هذه الحياة» يصبح إنساناً ذا واجبات. المسؤولية إيجابية فقط عندما تكون حراً، ولكنها سلبية عندما تصير مقيداً، يعنى عندما تصير أخلاقياً. لهذا ينصب مهيار نفسه «ملكاً للرياح» (ملك الرياح، ص ٥٨)، وينتظر «الله الذى يجى مكتسباً بالنار» (رؤيا، ص ٦٩) ويعلم «الأسرار والسقوط» (السقوط، ص ٥٤)، ويحمل إلينا «رياح الجنون» (رياح الجنون، ص ١٣١)، اللاأخلاقية، الفوضى، الجنون ثالث الثورة. إذن، لا نظام بعد ذلك.

إن هناك نظاماً آخر غير الذى نشير إليه عندما نشر عن معنى النظام. إنه النظام الذى تتخذ بواسطته النبتة أو أية كينونة حية الصورة form التى لها بالمفهوم الأرسطوطاليسى

فيقف عندها ويستسلم لجبروتها. لا يعود فى الإنسان عظمة؛ إذ إن أية عظمة تبقى له أمام عظمة التاريخ لا يعود فى الإنسان نبل، إذ إن أى نبل يبقى له أمام نبل التاريخ. لا يعود فى الإنسان قوة، فأية قوة تبقى له أمام قوة التاريخ. وهكذا، إذ يجرد الإنسان كل ما فيه من عظمة ونبل وقوة لا يبقى لديه - أخيراً - سوى شعوره بمحدوديته وصغارته وشعوره بالخطيئة، على حد تعبير المحللين النفسيين.

من هنا، يمكننا فهم قول مهيار: أقبل فى هاوية مليئة/ بفرحة المنبئ والذئير/ فرحة أن أصير/ خطيئة وخاطنا يحيا بلا خطيئة (هاوية، ص ٦٠). إن خطيئة مهيار هي فى تحرير ذاته من الخطيئة، فالتحرر من النظرة السلطوية للتاريخ خطيئة ميمية للذين يعتبرون الاستسلام والإذعان لسلطة الماضى فضيلتهم الكبرى. والاستسلام لهذه السلطة، كما أوضحنا، إن أدى إلى شئ، فهو يؤدى إلى شعور المستسلم بضعفه ومحدوديته، وأخيراً شعوره بالخطيئة. وهكذا، إذ يحير مهيار ذاته من النظرة السلطوية إلى التاريخ ليتحصن فى قواه الذاتية، يكون قد تحرر من الشعور بالخطيئة الملازم عادة لاستسلام الإنسان لقوى سلطوية لامحدودة تتخطاه، بما هو كائن محدود، وفى الوقت نفسه يكون قد ارتكب فى نظر المستسلم لهذه القوى خطيئة التحرر منها.

تحرر مهيار من النظرة السلطوية للتاريخ تكريس لجداً مهم، مبدأ إنسانية التاريخ؛ إنه يعيد إلى التاريخ فى عالمه وجهه الإنسانى. فهو يعود بنا إلى مبدأ سيادة الإنسان لسيادة التاريخ، سيادته على قواه وإمكاناته. ومهيار، فى هذا التحرر، يبنه الإنسان فى عالمه إلى قواه الذاتية، ويدعوه إلى التحصن فيها ووعى حضوره الخاص فى العالم، الذى يظل، من أية زاوية نظرنا إليه، حضوره هو الخاص الفريد. لهذا يخاطبنا مهيار بلغة نيتشه وكامو إذ يقول: «أفتح باباً على الأرض أشعل نار الحضور» (الحضور، ص ٦٥)، ذلك أن مهيار، كما يقول فى القصيدة نفسها، يخلق وطناً من «رماد الجذور»، وطناً من رماد «المومياء» التاريخية التى أحرقتها.

أن تشعل نار الحضور يعنى أن تشور على المشالية الفلسفية باحثاً عن الحقيقة أو العالم خارج الإطار الأنطولوجى الفكرى الخالص. النقطة الأساسية ليست توحيد



إلى النتيجة المنطقية التي لا بد من الوصول إليها لمن يقف موقفه. وإن لديه الجرأة النادرة في «عصر الخضوع والسراب، عصر الدمية والفراغة» (مزمور، ص ٢٠) ليعلم نفسه، في القصيدة نفسها، «حجة ضد العصر»، أى ليعلم أنه بلا دليل. في عصر طابعه الخضوع والانقياد، ألا يبيت مهيار «حجة ضد العصر» عندما يتحرر؟ مهيار إنسان لم يعد معنى له شيئاً أن يحيا وفق خطط التفكير القيمي السائدة في عصره، التي يحاول عصره فرضها عليه من الخارج. إنه، في الواقع، كما أصبح واضحاً من تحليلنا السابق، ينتزع ذاته بعيداً عنها، كى يحيا بذاته ومن ذاته. هو لم يعد شيئاً آخر غير ذاته. هو فقط مهيار. قد نقول هنا بكثير من التأفف: ما هذا الإنسان الضائع دون اتجاه وغاية؟ ولكن مهيار يجيبنا، بهزء نيتشه وعنفه، بهذا القول الذى أشرنا إليه سابقاً: «أنتم وسخ على زجاج نافذتي ويجب أن أمحوكم - أنا الخريطة التي ترسم نفسها». هذا يعنى أن له اتجاهًا، وهذا الاتجاه هو خاصته. إنه اتجاه نابع من داخله، وليس مفروضاً عليه من الخارج. وهذا يعنى أيضاً أنه هو يفقد حياته ويعطيها شكلها، بوعى أيضاً.

من هنا يوصلنا مهيار إلى هذه الخلاصة: أن تنظر إلى الداخل يعنى أن تصل إلى فهم ذاتك، لا أن تصل إلى فهم فسولوجيتك وسيكولوجيتك وبنيتك التشريحية. يعنى أن تصل إلى إيجاد التماس الحميم بينك وبين ذاتك بكليتها. يعنى أن ترى ذاتك كشيء خاص مفرد، رؤية فلسفية - فينومولوجية، لا رؤية علمية. بهذه الوسيلة يمكننا أن نصل إلى معنى الباطني والروحي والسرى، أى معنى الأشياء التي تشير إلى ما هو خاصيتي بالمعنى التمييزي الخالص، والتي لا يستطيع إنسان آخر أن يشاركني فيها. إنها الأشياء الفريدة في وجودي؛ ولذلك هي الأشياء المسترسة البعيدة. إنها ذكرياتي، اشتياقاتي، أحلامي، تصوراتي، الحوادث الخاصة في حياتي، الصورة التي رسمت، الأغنية التي غنيت. وأى شيء يمكن أن يكون خاصيتي غير الذى أخلق؟

عندما يصل واحدنا إلى أن يحيا، كمهيار، من ذاته وبذاته، عندها لاشئ آخر ذو أهمية: لا الملك، لا النظم، لا العادة، لا الفكرة. إن الناس يتعلقون بممتلكاتهم بسبب أنهم لا يحيون من ذاتهم وبذاتهم. إنهم يستبدلون ممتلكاتهم

للمصورة. كل نظام بالمعنى العادى مضنى من الخارج يهدم الشئ الذى يضفى عليه. إن الحل لمفارقة أن الحياة لا يمكن أن تكون دون نظام يكمن في رؤية طريقة نالشة من طرق الحياة؛ طريقة تقع بين الحياة الحالية من النظام والحياة المتوازنة ضمن نظام بالمعنى الاعتىادى العام. هذا النوع الثالث متحرر من النظام الاعتىادى. إنه النظام الذى ينبع من الداخل فقط.

لكن هنا قد يجد أحداً دعوة إلى الانحلال الاجتماعى، أو إلى تحويل المجتمع إلى كيونات فردية - مونادية (أو ذرية على حد تعبير هيجل) معزولة ومسودة بقوى عدائية هائلة. بيد أن مهيار، في أقصى فوصاه وأخلاقيته وجنونه، لا يقصد تعطيل الحوار. إنه يؤمن به إيمان كارل ياسبرز. لا حوار حيث لا أطراف تتحاور. الحوار المقصود هنا هو، قبل كل شئ آخر، حوار بين أشخاص، لكل منهم ذاتية وفردية. الحوار يبطل حيث يلجم الشخصى الإنسانى بقوى تتخطاه، أو ينفى في نظام أخرق مجرد. الحوار ينقطع حيث الشبات في أساس كل مقياس من مقاييس الفكر. ليعود للحوار مكانه في هذا العالم، يجب أن يحذر الشخصى الإنسانى من قيود الموروث ومن عمليات الموازنة المجردة لوجوده الخاص، ومن التوضع فيما نتوهم أنه نظام مطلق وكلى. وهذا يعنى لمهيار ضرورة تمرکز الشخص في حيزه الخاص. حيث لا حرية، لا حوار. الحوار الذى يمكن أن يكون له معنى هو الذى يحتضن أطرافاً حية، لكن منها ذاتية وشأنه الخاص. أما أن يقوم في عالم مسطح، حيث منطق الوحدة هو منطق التاريخ والقيم والاجتماع، فأمر ليس من طبيعة الحوار الذى لا يقوم، أصلاً، إلا على منطق التنوع والكثرة. إذا تعطل الحوار في عالمنا، فلن يكون مهيار مسؤولاً عن ذلك، بل سيرورة التجريد الجمعى التي تنتزع الشخص وتحيله إلى وظيفة من الوظائف. إن مهيار، في دعوته إلى أقصى ما يمكن من تشخص، يدعونا إلى أقصى ما يمكن من حوار.

وعندما أقول: «أنا إنسان بلا موقف، ألا يعنى هذا أننى بلا دليل أيضاً؟ مهيار يجيبنا عن هذا السؤال بالإيجاب. فبعد أن «يهيج الضباع فينا ويهيج الآلهة»، يعلمنا أن نسير «بلا دليل» (مزمور، ص ١٣٧)، شأنه هو طبعاً إن مهيار يصل



هذه هي المشكلة الأساسية التي تقود إلى الاغتراب والنفى. فلسفة الوجود الحديثة فهِمت مقتضيات هذه المشكلة منذ دعت الإنسان إلى العودة إلى ذاته. أورتيجا اى جاسيت Ortega y Gasset يعبر عن اعتقاد مشترك بين كل مفكرى هذه الفلسفة الحديثة للوجود، عندما يؤكد أن الإنسان الحديث، فى خوفه من النفى الوجودى يحاول أن يتسلل بذاته إلى المجموعة الاجتماعية Social Collectivism اللاشخصية واللامحددة. فالعودة إلى الذات، بما هى حركة انطوائية فى عملية التشخصن، تبدأ، كما رأينا، بتحقيق انفصال الشخص الإنسانى عن ملامسة المحيط، وتقود، فى التحليل الأخير، إلى الحرية. ولكننا نخاف الحرية، لأنها تقودنا إلى الانزلال والنفى. لذلك بدل أن نختار الحرية، لأننا نخاف مسئولياتها، نعود فنسقط فى هوة التقليدى والعادى والسطحى - هوة الواحد أو الآخر Das Mann. فهذه القيود التى ننود إلى حملها نمت وبقيت فينا منذ طفولتنا الأولى. فليس من الصعب، إذن، التكيف وفقها وقبولها ذواتنا بقولها، وهى المفروسة فينا منذ ألقينا فى هذا العالم. لذلك، نحن هنا نحاول تجنب خطر النفى المصاحب للتوكيد الذاتى طلباً للسلامة، ولكننا نكون قد خسرنا أنفسنا. ميجل دى أونومونو Miguel de Unamuno رأى فى الإنسان الحديث شيئاً كدون كيوخوته. هذا الإنسان ملزم ببحث مضطرب عن جوهره الخاص، وإلى هذا الحد، فهو يورط نفسه فى مغامرة وجودية مجهولة الغاية والمصير. إنها مغامرة من نوع الضياع الوجودى.. إنه يقول: الإنسان يجب أن يلقى فى المحيط مجرداً من كل مرسى، حتى يستطيع أن يتعلم مرة ثانية ما معنى أن يحيا كإنسان. النفى والضياع، إذن، هما الثمن الذى يدفعه الإنسان ليتعلم «ماعمى أن يحيا كإنسان».

مهيار لم يدفع أقل من هذا الثمن. مهيار، قبل كل شيء، لم يرفض الحرية طلباً للسلامة، ولم يتخل عن توكيد ذاته اجتناباً للخطر. قال مخاطباً الصخرة:

رضيت بما شئت: أغنياتى خبى

ومملكتى كلماتى

فيا صخرتى أثقلى خطواتى

حملتك فجراً على كتفى

رسمتكَ رؤيا على قسماتى (الصخرة، ص: ٥٩)

بحياتهم؛ وانتزاع هذه الممتلكات منهم معنى لهم انتزاع حياتهم. وهذا يصح أيضاً على معتقداتهم وأديانهم وألتهم ونظمهم.

أن ترى هذا كله معنى أن تصل إلى وضع النفى الخالص قبل كل شيء ويعنى أيضاً أن تصل إلى نظرية نبتشه فى إعادة التقييم لكل القيم Transvaluation of all values؛ أى أن تذهب إلى ما وراء الخير والشر. لندخل فى تحليل هذين الأمرين، مبتدئين بالأول منهما.

وضع الإنسان الحديث، وضع النفى والاغتراب alien-ation ليس جديداً. الاغتراب كان قائماً منذ زمن طويل. فالذى حدث مؤخراً هو أن فكرة الاغتراب والنفى انتقلت إلى ما وراء الأبعاد السوسولوجية والسياسية واتخذت بعداً وجودياً. اتخاذ الاغتراب بعداً وجودياً، بالنسبة إلى ماكس شيلر، يعود إلى حقيقة كوننا الجيل الأول فى التاريخ الذى بات تحديد الإنسان مشكلة كيانية له<sup>(١٧)</sup> - (و الجذر هو الإنسان، يقول ماركس) - هذا لأننا لا نعرف ما يعنى هذا التحديد، ولا نعرف أيضاً أننا لانعرف. وهكذا فالعوامل الموضوعية التى شاركت فى إيجاد وضع الاغتراب والنفى كانت مدفوعة بأزمة نظرية وبردة فعل ذاتية دفعت بالفشل الوجودى إلى مركز الدائرة من الوعى الإنسانى. إنها الأوضاع الخاصة، التقنية، الاجتماعية، السياسية، الفكرية لعصرنا التى استدعت إعادة النظر فى وضع الإنسان فى هذا العالم، إعادة النظر فى معناه الأخير. ولكن لا يمكننا أن نجد ونفهم معنى الإنسان فى هذا العالم كما يفهم ويحدد الفسيولوجى وظائفه الفسيولوجية والتشريحية، والعالم النفسى وظائفه النفسية. أى لا يمكننا فهم معنى الإنسان وتحديدده بالنظر إليه بوصفه موضوعاً من المواضيع. معنى الإنسان يتكشف فقط بنسبة وعى الإنسان نفسه لذاته ووضع التاريخى. هذا يعنى أن الإنسان لا يمكن أن يفهم ويحدد معناه باستشارة كتاب من الكتب، أو الاعتماد على نظرية من النظريات، أو الرجوع إلى عالم من العلماء. فهم الإنسان وتحديدده لذاته يقوم فى غياب كل معرفة موضوعية. إن معناه فقط ما يتكشف من داخله فى عملية استغواره لهذا الداخل. وفهمه هذا المعنى هو ما هو فى أقصى وعى الإنسان لذاته.

ازدادت التصاقاً بذاتك، ازدادت إحساساً بالهوة التي تفصلك عن عالم ليس من صنعك. ففي أقصى مرحلة من مراحل التشخصن والتوكيد الذاتيين تصل، بعامل النفي والتخطي المستمرين، إلى وضع تقف فيه «فارغ الداخل نظيفه» لتجابه عالماً فارغاً أيضاً.

إلى هذا الحد يصل بنا مهبّار فيذكرنا وضعه بوضع ريلكه كما يصوره في قصيدته «الليلة العظيمة»، حيث يشعر ريلكه أنه مغلق ووحيد مع ذاته. فحتى «الأشياء الأقرب لم تقم بأدنى محاولة لتصير معقولة». إن مهبّار يجد نفسه «ملقى»، على حد تعبير هيدجر، «في مكان ووضع ليسا من صنعه، ولم يكن له أى شأن في اختيارهما». يواجه مهبّار في هذا الوضع عالماً عدائياً مهدداً ذاته باستمرار بإذابتها ونفسيها في إطار نظامه الكلي. إنه مطارد دائماً بشبح التشيؤ. ولكن مهبّار يدرك أن عليه أن يبقى دائماً على استعداد للرد والمجابهة. «انظر وراءك يا أورفيوس، تعلم كيف تسير في العالم» (مزبور، ص ١٠٢).

إذن، مهبّار في وضع النفي الخالص الذي يجد نفسه فيه لا يستطيع أن يتهرب من واقع كونه ذا تجسد حضوري في العالم. لذلك هو مدعو إلى المجابهة. صحيح أن مهبّار الآن إنسان حر؛ وهو يعلم أن «الإنسان الحر هو الذي يستطيع أن يقطع العهود وأن يخون»، على حد تعبير جبريل مارسيل. ألم يغن مهبّار للخيانة؟ ألم يهتف بقوة: «آه يا نعمة الخيانة... أيها العالم الذي خنته وأخونه»، ويعلن نفسه «سيد الخيانة» (الخيانة، صص ١٢١ - ١٢٢)؟ ولكن مهبّار، إذ يدرك ذاته عن طريق الحرية و«الخيانة»، حرته من كل المعطلات الخارجية لعملية تشخصنه وخيانتته للعالم المتداعي الذي يعيش فيه، لا يفعل ذلك طلباً للتخطي المتعالي للذات، شأن الرومانتيكي. إنه لا يهمل، كالرومانتيكي، للذة الألم والنفي بوصفهما حالة سابقة للموت؛ ذلك أن مهبّار لا يكره الحياة؛ فهو، كما رأينا، «جمع أشلاءه على مهل / جمعها للحياة وانتشرا»، وهو لا يخون العالم في عملية تشخصنه، عن طريق الحرية، ليبحت عن عالم آخر خارج التاريخ والحياة. كذلك فإن مهبّار لا يطلب التحلل من كل عمليات التفكير الاعتيادي؛ بحيث يؤدي تحلله هذا إلى الانصراف كلياً

في هذا القول تنبه ووعي كيميائيان لكل مستلزمات المغامرة التي يزرع مهبّار بنفسه فيها. كذلك في هذا القول قبول عميق لمعنى هذه المغامرة المأساوى. لقد بدأ مهبّار رحلته بالعودة إلى الذات، كما رأينا، ليستهي في الأخير إلى نوع من الضياع والنفي الوجوديين، وليلقى في المحيط مجرداً من كل مرسى. إنه الآن «ناقوس من التائبين» (صوت، ص: ١٧) يغنى لدربه «اللابسة الأمواج والجيال» (لا حد لي، ص: ٧٦)، شارداً «في مغاور الكبريت» (أبحث عن أوديس، ص: ٨٨)، «باحثاً عن أوديس». (ص: ٨٨)، منصّباً نفسه «أسيراً على الفراغ» (السدود، ص: ٧٧)، ومصادفاً الموت. كل هذا يرتبط بعملية الانفصال المونادية التي تحدثنا عنها. ذلك أن مهبّار في هذه العملية يصل إلى إدراك ذاته على أنها شيء مفرد ومميز عن حياة المحيط حوله. إنه يواجه الآن من كوة في الداخل عالماً لا شخصياً. وهو في هذه المواجهة يقطع آخر خيط من خيوط الانتماء بينه وبين هذا العالم. لقد كان دوركيم (Durkheim) بين العلماء الاجتماعيين الأول الذين فهموا وعللوا مقتضيات الانشقاق لقد فهم دوركيم أن الانشقاق الشخصي تكريس لواقع أن لا انسجام بين الإنسان الشخصي والعالم. وليست من قبل وجد أن انعدام الانسجام بين الوجود الشخصي والعالم حوله مقولة أساسية من مقولات الوجود الشخصي. إلا أن دوركيم، بوصفه عالماً اجتماعياً، وجد في الانشقاق ظاهرة اجتماعية خطيرة. ذلك أنه يقود إلى اللاتنماء، واللاتنماء، بالتالي، يقود إلى الانحلال والاضطراب في الحياة الاجتماعية والشخصية. في وضع اللاتنماء، القائم على انعدام الانسجام بين الشخص الإنساني والعالم، يكمن وضع النفي والاغتراب. في هذا الوضع يكون الشخص قد خسر كل شيء، ولم يربح شيئاً. إنك إذ تدرك ذاتك كشئ مفرد ومميز، شأن مهبّار، لاتكون في الواقع قد حصلت على شيء. إنك فقط تكون قد صرت شيئاً. إنك انطلقت من وضع كنت فيه خارج حيزك الشخصي إلى وضع صرت فيه داخل هذا الحيز، أي صرت فيه ذاتك. فأنت هنا، في أقصى تحسك بكثافتك الكيانية - الشخصية، من خلال فعل التخطي، تدرك أنك لم تصل إلى هذا الوضع الشخصي الخالص إلا بعامل النفي المستمر - negation للعوامل التي تحول بينك وبين صيرورتك ذاتك. فكلما

سيرورة استبطانه الداخل، من جهة، وفي سيرورة تخطيه لوضعه التاريخي، من جهة ثانية. أقصد لاشأن له إلا مع ما يخلق. وهكذا، فإن مهيار في سيرورة تخطيه هو، كاطبيعة، فاعلية هدفية بلا هدف معين. من هنا نفهم لماذا الريح رمز مهم في شعر أدونيس، كما كانت لريلكه من قبله. فالريح تتقدم ولا تعود القهقري دون أن تكون لحركتها غاية محددة. ولذلك يوحد مهيار نفسه بالريح؛ «إنه الريح لا ترجع القهقري»، «يمشي في الهاوية وله قامة الريح» (ص ١٤). ويحيا في ملكوت الريح» (ص ١٦)، وينصب نفسه «ملكاً للرياح» (ص ٥٨)، و«يصرخ» كي تتوالد في صوته الرياح» (ص ١١٥)، «ويخلق للريح صدرًا وخاصرة ويسند قامته عليها» (ص ١٩١)، ويجعل لغته مليقة بالريح «يا أمير الفراغ يا لغة تفرغ فيها الرياح والأبعاد» (ص ٧٧). وعندما يتملكه اليأس، فإن ما يدركه وهو في حالة يأسه ليس فقط أن المستقبل ملئ بالغموض والسر، بل أيضا أن الريح التي ترمز إلى حياته لا تجلو هذا الغموض «لا غداً آت ولا ربح نضي» (ص ١٧٧).

مهيار، إذن، كالإنسان الأعلى لدى نيتشه، فاعلية هدفية دون هدف محدد. ولكن ما يشكل المعادل الأدونيسي لإرادة القوة لدى الإنسان النيتشوي هو إرادة الخلق لدى مهيار. إرادة الخلق هذه ترقى في أعماق مهيار للتوحد مع الأشياء:

في حنين غير هذا الحنين  
غير الذي يملأ صدر السنين  
تقترب الأشياء منه كأن  
لا تعرف الأشياء إله  
تقول ما شئت لولاه  
كانه أكبر من حاله  
يعلو ويمتد ولا يرضى  
يريد أن يخرج من نفسه  
ويحضن السماء والأرض

(حنين ص ٢٠٧)

لاكتشاف ميكانيكية اللاوعي. لقد بنى مهيار «من الغياب/ صنماً من تراب/ و«رجمه» بالحضور» (الطريق، ص ١٧١). إن من هذا شأنه يدرك أنه، إلى جانب كونه ذاتاً مميزة، هو أيضاً كائن موضوعي ومركوز، بالتالي، في صدر العالم. إن هذا بالذات ما يجعل مهيار في وضع دائم من المجابهة والإحساس الثقيل بالحضور حيث يشعر، في أقصى تحسه الكياني بالحضور، بأقصى تحسه الكياني بالنفي.

عندما يصل مهيار إلى هذا الحد من وضع النفي الكياني، يتجه «نحو البعيد والبعيد يبقى» (مزمور، ص ١٠١)، ويقطع «الحبال بينه وبين الشاطئ الأخير» (لا حد لي، ص ٧٦)، ويظل «تاريخاً من الرحيل» (أرض بلا معاد، ص ٩٠). وهو بذلك يعيد إلى أذهاننا إنسان نيتشه - الإنسان المتجول الهائز، الساخر، العنيد، المنفي، الذي انطلق إلى هدف اشتياقاته البعيد، أخطار كثيرة غير متوقعة كمنت في طريقه، حيوانات غريبة، بحار عاصفة، أناس قساة لا يشون بوجه الغرباء المنفيين؛ كل هذا جند شجاعته ومهارته. مواجهها بكل هذه الكوارث والأخطار، وقف هذا المغامر المنفي الغريب هائزاً، وفي الوقت نفسه، واثقاً من حكمته. على الرغم من الألم العميق - الفأض من الألم، كما يقول ريلكه، - لم يغير اتجاهه ولم يستسلم. إنه انطلق من مقامرة إلى مقامرة دون أن يكون في انتظاره مرفأً واحد أخير ودون أن يكون لديه أي «بنلوب» تصلى لعودته. هذا ما يلخصه لنا مهيار إذ يقول: «لا حد لي لا شاطئ أخير» (لا حد لي، ص ٧٦).

في لانهائية الرحيل هذا يجسد لنا مهيار مع زرادشت مبدأ «السيرورة الخالدة»، فيطلق «سراح الأرض ويسجن» السماء» كي يجعل العالم غامضاً، ساحراً، متغيراً، خطراً؛ كي «يعلن» التخطي» (مزمور، ص ١٩٢). بغير التخطي ماذا يبقى من السيرورة؟ لا مقاييس خارجية تقود مهيار في هذا التخطي؛ لأن المقاييس الوحيدة، كما بات واضحاً لدينا حتى الآن، هي التي يخلقها في مجرى تخطيه. إن شأن مهيار الوحيد هو مع الديالكتيكية السقراطية من حيث هي عملية استبطان لـ «حقائق» الداخل. لا جاذب غائي أيضاً يحتم وجهته في هذا التخطي غير الجاذب الكامن في القوى المحركة له من داخله. هو يحفر مجاريه ويسير وفق المنطق المرسوم بحركته. إذن، لا شأن لمهيار إلا مع ما يكتشف في

من هنا كانت إرادة الخلق، لدى مهيار، انعكاساً للعالم الهيراقليطي حيث الصراع والحركة والتناقض بطلانة العالم. هيراقليطس وجد في النار العنصر الأساسي للعالم، العنصر الدائم الذي هو في أساس كل تغيرات الوجود المرئي، العنصر الواحد الوحيد الذي هو جوهر التعدد والكثرة - جوهر الصيرورة. إنه عنصر متحرك لا ساكن، متحرك في اتجاهات متعاكسة. وفي تحركه الدينامي يخلق التناقضات التي تجتد تعبيرها المرئي في ظواهر التغير والتطور الدائمين. هذا المبدأ، كما فسره نيتشه، هو:

صيرورة وموت، بناء وهدم دون أية مسؤولية أخلاقية، في براءة خالدة... كما الطفل والفنان يلعبان، هكذا تلعب النار الخالدة المقدسة؛ إنها تبنى وتهدم ببراعة.

أليس هذا شأن مهيار؟ ألا تجده يبحث عن «... إله... يبارك حتى الجحيم... ويرد لوجه الحياة البراءة» (ص ١٢٩) ويفتت العالم كى يمنحه الوجود (ص ١٠٣)، ويهدم العالم وينيه، باحثاً عن معنى «ينظم فيه الأرض والله» (ص ٢٠٥)، وينادي الفراغ ويفرغ الممتلئ (ص ١٦٧) ويجمل المكان «مدوراً كمينيه» (ص ١٩١)، «ويستكر ماء لا يرويه» (ص ١٩١)، «ويولد في كل غد من جديد» (ص ١٩٩)، ويبحث عن صورة أخرى «تصاغ لهذا الوجود» (ص ٢١٢)؟ مهيار، كنيثشه من قبله، يحمل إلينا النار الهيراقليطية - يهدم وينى باستمرار ببراءة الطفل. إنه يرفض أن تكون علاقته بالوجود حوله علاقة ساكنة، أو أن يكون هو فيها مجرد مركز لتلقى النتائج الموضوعية. وهو يرى أيضاً أن إرادة الخلق لا يمكن أن تقتزم في نظام أو تقف في فاعليتها عند حدود ما أضفاه سواه من صور على الأشياء، صور نظنها ثابتة ونقف أمامها مبهورين، كأننا بلغنا بها المعنى الأخير للعالم. مهيار يريد أن يرى العالم وراء كل هذه الإضافات رؤية جديدة. إنه مدعو إلى أن يتخلى عن كل المسلمات الجاهزة، وأن يخلق مسلماته الجديدة. بمعنى آخر، إنه يريد أن يسبق على الأشياء معان جديدة. ولكن مهيار يعود فيجد، بسائق طبيعته الهيراقليطية، أنه ما من سبب واحد ضروري لأن تكون المعاني التي يسبقها هو على أشياء العالم هي

ولكن هذا التوق للتوحد مع الأشياء هو توق لتذويتها، توق لخلقها وإعادة خلقها دون توقف. فإرادة الخلق تتحرك دائماً إلى الأمام تحركاً تتكشف من خلاله وتنبولور فيه حرية الفعل غير المشروطة. ولكن تحركها الأمامي لا يعنى أنها تتجه نحو نقطة معينة ثابتة في الوجود. ذلك أنه ما إن تتحدد لها غاية أخيرة حتى تتقلص هذه الإرادة وتتحصر في نظام معين. ولكن لا يمكن لأى نظام، حتى النظام العقلي الذي ادعى مفكرو التنوير العقليون اكتشافه في العالم، أن يحتضن هذه الإرادة ويحيط بفاعليتها المتأصلة في الحرية. إنها توحد بين مهيار والكون عن طريق ما يضيفه مهيار من ذاته الخلاقة على أشياء العالم من صور ومعان:

وحد بي الكون فاجفانه

تلبس أجفاني

وحد بي الكون بحريتي

فاينا يبتكر الثانى؟

(وحدة، ص ٢٠٢)

هذه الوحدة بين مهيار والكون لا يكون وضع مهيار فيها كوضع الجزء في النسق الضروري الذي ينتمى إليه هذا الجزء. فالجزء يتحدد وضعه في النسق الذي ينتمى إليه وفق قوانين ثابتة تربط كل أجزاء النسق ربطاً مطلقياً ضرورياً. إن وضع مهيار، إذن، في الكون المتحد به ليس كوضع الأشياء في الجوهر السبينوزي، حيث كل منها يصير تجلياً للكل اللامتناهى ومحدداً بقوانينه، أو كوضع الأشياء في المطلق الهيجلي حيث كل منها، من خلال انصهاره في الوحدة التجسدية للمتناقضات، يبيت مرحلة من مراحل تحقيق المطلق. إن وضع مهيار في هذه الوحدة هو وضع العنصر الفاعل لا العنصر المطاوع. الكون يقدم أشياءه له بوصفه مواد خاماً، وهو، بدوره، يصوغ هذه المواد على صورته ومثاله. إرادة الخلق، إذن، توحد مهيار بأشياء العالم، عن طريق الحرية؛ إذ تحول علاقته بهذه الأشياء من علاقة تحارج خالص إلى علاقة جدلية في علاقات التبادل والخلق، حيث العالم يتذوت على يديه.



في تذويت مهيار العالم والأشياء يبدأ هوسرليا ولكنه ينتهي نيتشوبا. إن تجريد العالم في شيعيته وتحويله إلى موضوع قصدي يحمل إلينا الكثير من معنى الرد الفينومولوجي. ولكن فيما يسير بنا مهيار في اتجاه الرد الفينومولوجي للعالم نراه فجأة يحول مساره، وكأنني به يرى لنوه ما سيؤول إليه هذا الرد ويروعه ما يرى. فمهيار يساير هوسرل إلى حين، أي إلى الحد الذي يكون عنده الرد الفينومولوجي للظواهر بحثا عن معان لها كامنة وراء كشافتها التجريبية وسماتها الجائزة، خلف شيعيتها. فهو، كهوسرل، لا يريد أن ينظر إلى الأشياء نظرة العالم الطبيعي إليها. إنه لا ينظر إلى ما فيها من امتداد وميكانيكية وحركة. إنه يحاول الذهاب إلى ما وراء هذا كله ولكن - وهنا يبدأ تحوله الجذري عن هوسرل - ليس في اتجاه ماهية مفترضة لها بل في اتجاه إعادة خلقها. إن مهيار لا يمكنه أن يساير هوسرل هنا في نفيه أي نوع من أنواع النسبية وفي افتراضه أن هناك ماهية للحقيقة كما أن هناك ماهية لكل فكرة أخرى، وهي ماهية تنعكس في كل الحقائق الجزئية. إنه لا يمكنه أن يساير هوسرل في اعتقاده أن الماهيات الفردية هي الموضوعات القصدية للوعي وفي عودته إلى مبدأ واقعية الماهيات realism of essences الذي اتخذ شكله المتطرف في الإستمولوجيا الواقعية كما عرفناها لدى أفلاطون وديكارت. فمهيار، كما رأينا، عدو الثبات، وهيراقليطس هو الذي يحتل في سيروية تذويته للعالم الوضع الذي يحتله أفلاطون في سيروية الرد الفينومولوجي. من هنا نفهم قول مهيار «أطلق سراح الأرض وأسجن السماء، ثم أسقط كي أظل أمينا للضوء، كي... أعلن التخطي» (مزمور، ص ١٩٣). إن السماء رمز لما هو مطلق وثابت وجاهز ومكتمل، أي لما لا إمكان فيه، بينما الأرض رمز لما هو نسبي ومتغير وغير مكتمل، لما هو ملئ بالإمكان. ففي السماء تتجهر الأشياء بتجوهر المعاني، ويتنصر أفلاطون على هيراقليطس، ويظهر العالم واضحا ومتملكا بذاته. إن الرد الفينومولوجي على الطريقة الهوسرلية ينتهي، إذن، إلى أسر الأرض كشرط لتحرير السماء. إنه يرى السماء مغلفة بالأرض ويرى أن مهمته الأساسية افتراق الأرض في اتجاه السماء، أي للوصول

معانيها النهائية. من هنا نستطيع أن نفهم جيدا لماذا يحمل مهيار النار الهيراقليطية - لماذا يهدم ويبنى باستمرار. إن مهيار ينزع دائما إلى وجود أعلى. إنه يبحث دائما عن معان جديدة للأشياء.

هنا يبدأ يتضح لنا أن عودة مهيار إلى ذاته هي، في آن، تذويت للذات وتذويت للعالم والأشياء، فإذا به الشجر أوراق في [دفاتره] والحجر قصائد [مثله] (مزمور، ص ١٦٨)، والتاريخ يقتل في عينيه (مشهد [حلم]، ص ١٣٠). إن هذا التذويت للعالم يبلغ أقصاه في قول مهيار عن نفسه «إنه فيزياء الأشياء» (مزمور، ص ١٣)، أي القوة المنظمة للأشياء. من الضروري أن نلاحظ هنا أن تذويت مهيار للعالم خلو تماما من أي مدلول أنا وحدي، سواء فهمنا الأنا وحدية بمعناها الإستمولوجي أو بمعناها الأنطولوجي. إنه ذو مدلول قيمي أولا وأخيرا. إن عودته إلى ذاته هي، إذن، عودة إلى الذات باعتبارها منبع القيمة والمعنى حيث يرتع العالم ليس بكثافته التجريبية طبعاً ولا بتماميته الموضوعية. إننا نجد هناك بما هو موضوع قصدي تمت تعريته من شيعيته، وتم تحويله إلى حقل للفاعلية الذاتية باعتبارها تجسيدا لإرادة الخلق. من هنا نفهم قول مهيار «أنادي الفراغ أفرغ الممتلئ. حتى الصوان رخو، حتى الرمل يتأصل في الماء...» (مزمور، ص ١٦٧) على أنه إعلان لتحول العالم من شيء جاهز مكتمل («ملئ كالبيضة»، على حد تعبيره، ص ١٠٢) إلى دفق مواز لدفق الوعي: إلى سيروية من الإمكانيات. هنا يصبح العالم هبولى قابلة لأن تتشكل على يديه على النحو الذي يختاره، تصبح أرضه بكرة («أحرق ميراثي أقول أرضي بكرة» لغة الخطيئة، ص ٥٦)، ولا يعود ثمة هاجس لديه سوى هاجس الخلق. وهو إذ يذوت الأشياء إنما يخلقها على صورته ومثاله:

«أنقش وجهي على الريح والحجر، أنقش وجهي على الماء. أسكن في ثنية الأفق... والبحر توأمي وشبيهي» (مزمور، ص ١٠١)، «أجعل المكان مدورا كمعنى» (مزمور، ص ١٩١)، «أصير الجبال كلمات وأموسق الحفرة» (مزمور، ص ١٠٣).

هنا يصبح العالم، بعد تذويته وتحويله إلى موضوع قصدي خالص، امتدادا له.



يتضح كيف تتحول سيرورة تذويت مهيار ذاته، عن طريق إرادة الخلق، إلى تذويت العالم.

إن هذا تماماً ما جعلنا نقول إن مهيار ينتهى نيتشويًا، على الرغم من أنه يبدأ هوسليًا. إن هذا يظهر أكثر ما يظهر فى احتضان مهيار لغة اللعب الحر النيتشوية، حيث لا قواعد سوى القواعد التى تنشأ فى سيرورة اللعب. وهذا يوصله، كما أوصل نيتشه من قبله، إلى الموقف المقتضى إعادة تقييم كل القيم Transvaluation of all Values. وإذا كان نيتشه قد وصل إلى هذا الموقف عن طريق مبدأ إرادة القوة، فإن مهيار يصل إليه عن طريق مبدأ إرادة الخلق. فعن طريق مبدأ إرادة القوة يصبح الإنسان النيتشوى «الإله - الإنسان»، خالق القيم الجديدة. وعن طريق مبدأ إرادة الخلق يصبح مهيار «نبياً وشكاكاً» (مزبور، ص ٤٢)، «لغة لإله يحيى» (أورفيوس، ص ٦٧)، حاملاً بالطبع القيم الجديدة لهذا العالم.

لنفحص الآن باختصار المغزى الأساسى لمفهوم إعادة تقييم كل القيم لدى نيتشه حتى نفهم على ضوء ذلك شخصية مهيار.

بينما كان اليونان القدماء يهتمون فقط بمشكلة النفاذ إلى الكوسموس (الكون)، اهتم آباء الكنيسة والإسكلايون باستقراء نظام مخلوق مقدس للوجود فى هذا الكوسموس. من خلال هذا النظام وحده - كما أصر آباء الكنيسة - يجد الإنسان طريقه إلى الله. إن طريق الأخلاق المسيحية، كما وصفها توما الأكوينى، «هى انتقال المخلوق العقلى نحو الله». وكما أن عمل كل مخلوق ينبع من وجوده، كذلك عمل كل مخلوق عقلى أن يتوافق مع طبيعته العقلية التى - بما هى - ذات قدرة على إدراك النظام الهرمى للوجود. فالإنسان، فى محاولة تكيف وجوده لجوهره، مدعو إلى أن يتحقق من معنى حياته فى العالم المخلوق؛ فى الطاعة لنظام الوجود ولذاته الخاصة ولله الذى يجسد فى كينونته الماهية والوجود معا.

النظرة المركزة فى الكوسموس الوثنية القديمة والنظرة المركزة فى الله المسيحية أخلينا الطريق فى العالم الحديث لنظرة الحقيقة مركزة فى الإنسان. فى ميتافيزيقا هيجل، كما

بواسطة الحدى أو الاكتناه الباطنى إلى محتوى جوهرى موضوعى مزعوم للأشياء. أما الرد الفينومولوجى على طريقة مهيار، فإنه يرى الأرض مغلفة بالسما وبرى السماء شبكة من المفهومات اللغوية ليس إلا، عالماً من المعانى الإنسانية التى تجوهرت. ولذلك يرى مهيار أن المهمة الأساسية للرد الفينومولوجى كامنة فى اختراق السماء فى اتجاه الأرض، أى فى اتجاه الأشياء ذاتها، وبالتالى فى اتجاه الانفتاح على السر، على ما يظل كامناً وراء اللغة - النظام، وراء المفاهيم أو المعانى التى تجوهرت. إنه يهجر السماء «ليحيا مع الأشياء» (الأشياء، ص ١٤٩)، وبالتالى - «ينتظر ما لا يأتى» (مزبور، ص ١٣١)، «ويحيا فى ملكوت الريح/ ويملك فى أرض الأسرار» (ملك مهيار، ص ١٦)، «ولـ «يحلم أن ينهض أن ينهار / كالبحر - أن سيتعجل الأسرار» (آخر السماء، ص ٣٠)، وليبقى «فى عتمة الأشياء فى سرها» (فى عتمة الأشياء، ص ١٩٩)، وليجعل من «الحر والنار والوليمة» ملكته ومن «الضباب» جيشه (الهزيمة، ص ٨٢).

إن إرادة الخلق هى حلقة الوصل الأساسية بين تذويت مهيار ذاته وتذويته العالم. فهى، إذ تدفعه فى اتجاه إفراغ ذاته من كل ما علق بها من آثار التشيؤ تخوله إلى طاقة غير مقيدة للفعل الخلاق فى الوقت الذى يجعله يدرك أن معنى العالم خارجه، كما وعاه قبل إفراغه ذاته، ما كان ليكون له لولا أنه كان يرى العالم من خلال منظور الواحد أو الآخر المعمم. من هنا تبدأ سيرورة تذويت الذات تتحول إلى تذويت العالم، يبدأ اكتشاف مهيار أن العالم ليس معنى مطلقاً، بل إنه يعيش فى رحم اللغة باعتبار الأخيرة أداة لتوليد المعانى. يبدأ اكتشافه أن العالم، كما كان معطى له قبل تجريد ذاته من شيعتها، هو عالم الآخر - المعمم، وأن اختباره له، بالتالى، كان أسير المفهومات والمعانى التى تجوهرت. وما يشكل خاتمة المطاف لاكتشافه هذا هو إفراغ ذاته، الذى يعنى، كما رأينا، تجريدها من كل آثار الآخر - المعمم، هو، فى الوقت نفسه، تحرير اختباره العالم من كل معانى الآخر - المعمم. إنه آن يتحمل وحده مسؤولية خلق معان جديدة للأشياء، أو إعطاء الأشياء - على حد تعبير أرنست كاسير - بعدها الثالث الذى هو، أولاً وأخيراً، بعد إنسانى (١٨). وهكذا

وضع نيتشه أمامنا «نظرية إعادة تقييم كل القيم». الإنسان الأعلى، أو إذا شئت الإله - الإنسان الذى هو وراء الخير والشر (Beyond good and evil)، «وراء الإله والشیطان»، يصبح الخالق الجديد لكل القيم الجديدة.

ماذا يعنى مهيار من هذا كله؟ لقد رأينا، خلال هذه الدراسة، كيف أن مهيار حقق عودته إلى ذاته بتخط ونفى كلين لكل العوامل التى من شأنها تعطيل عملية تشخيصه. وهو، فى عمليتي التخطي والنفى هذين، وصل أخيراً إلى أن يكون إنساناً حراً، إلى أن يكون «الخريطة التى ترسم نفسها». يقول سارتر إن الإنسان الحر، الإنسان الذى يستطيع أن يصنع نفسه بحرية، هو بالضرورة وراء الخير والشر. هذا ما فهمناه من نيتشه أيضاً. ذلك أن الإنسان الحر ليس ملزماً، فى مجمل اختياراته، بغير اختيار الأفعال التى تؤكد وجوده الشخصى، بما هو وجود خاص، فريد. وهو، إذ يصل إلى هذه النقطة، يخرج من إطار اللغة إلى الأشياء، كما ذكرنا فى مكان آخر من هذه الدراسة. إنه، بمعنى آخر، ينظر إلى الأشياء معاً من كل الإضفاءات الإنسانية الخارجية. فمنذ الساعة التى ينظر فيها ألدنا إلى الأشياء، من خلال الإضفاءات الخارجية المسببة عليها، يصبح فريسة شبكة من المجرّدات والمعمّات - فريسة اللغة، فيختلط عليه فهم ذاته وفهم العالم الذى يحتضنها. ولكن مهيار، كنيته وسارتر، إنسان حر يرفض أن يكون فريسة من المجرّدات والمعمّات - فريسة اللغة. يقول مهيار: «رضيت أن أحيّا مع الأشياء». من هنا نستطيع أن نفهم معنى ذهاب مهيار إلى ما وراء الخير والشر - إلى ما وراء هذا التجريد اللغوى الذى يعمل على تصنيف الأشياء تصنيفاً ثابتاً نهائياً. إن هذا يلخصه لنا مهيار بقوله: «دربى أنا أبعد من دروب الإله والشیطان» (لغة الخليفة ص ٥٦)، «لا إله أختار ولا الشيطان» (ص ٥٥). ذلك أن مهيار يريد تحرير العقل من جزئية التجريد وأوهامه، حتى يستطيع هذا العقل أن ينفذ إلى ما وراء اللغة - إلى ظلمة الأولى والبسيط فى أعماق الأشياء ذاتها. هذا يقودنا توّ إلى مذهب نيتشه فى إعادة تقييم كل القيم. فعندما يستطيع العقل التحرر من حتمية التجريد اللغوى المزعومة، عندها لا شىء يمكن أن يعطى القيم معنى مطلقاً ثابتاً. عندها لا شىء غير التحول

رأينا، كل الموجودات موضوعة فى المطلق (أو الله)، ولكن بوصفها موجودات مقررة ديكالكتيكياً، أو مراحل للحركة التاريخية التى تجسد المطلق فى تحقيق وعيه لذاته. هذا النوع من التفكير الهيجلى تحول تحولاً جذرياً على أيدي الهيجليين الشبان (Young Hegelians)، أى فورباخ وماركس وستارنر. يجد الإنسان نفسه، لدى هؤلاء الفلاسفة، دون إله، مواجهاً بالمهمة البروميثية فى أن يصير الخالق الوحيد لكل الحقيقة ولكل القيم. منذ ذلك الحين والوجود الإنسانى يتأرجح بين الرغبة فى تأليه الذات وتجربة الفشل والسقوط. الإنسان، فى وضع كهذا، يعيش أزمة كيانية. ومنذ الساعة التى تبدأ فيها هذه الأزمة، يبدأ الإنسان - هذا المخلوق الشكاك فى جوهره - يبدأ فى معاناة نوع من أنواع القلق الكيانى محاولاً النفاذ إلى معنى ذاته ومعنى وجوده فى العالم، على حد تعبير هيدجر.

كل من نيتشه وكيركيغورد عارض النظام التركيبى الهيجلى للفلسفة الإيديالية. كلاهما عارض أغلال الفرد فى العملية التاريخية - المنطقية (Historio logical) الفكر وكل أشكال تأليه الدولة. وكلاهما اعتبر الاغتراب المتنامى للفرد فى العالم الموضوعى الجماعى الحديث. هذا الاغتراب، كما فهمه نيتشه وكيركيغورد، يؤدى إلى الضياع، والضياع، بدوره، يؤدى إلى اليأس. إلا أن اليأس قد يلد الخلاص فيما لو استطاع الشخص، وجهاً لوجه مع اللاشئ، أن يوقظ ذاته إلى وجوده الحقيقى. كلاهما، إذن، يواجه الإنسان بقلق وجوده غير الحقيقى فى هذا العالم فاقد المعنى. وهما يحذرانه. أيضاً. من هذا، ويدعوانه إلى ذاته الحقيقية. إلا أن كيركيغورد يعود ويجرد ذاته فى اتجاه التعالى المطلق، بينما نيتشه أعلن موت الله، واستعد لتحمل المسؤولية.

الله مات والعالم، بسائق ذلك، مرمى فى نوع من العبث واللاعقلى للذين يرافقان دائماً فقدان القيم. هناك حاجة ملحة لخلق قيم جديدة، أو كما قال نيتشه لـ «إعادة تقييم كل القيم» (-tansvaluation of all values) (١٩). هذه الحاجة، فى نظر نيتشه، لم تكن لتسدها الحركات الملقحة بالعدمية كالحركة الإنسانية أو المنفعة أو الاشتراكية. إن هذه الحركات لم تكن جريفة الجراً الكافية لتخطى كلياً نظم التفكير القديم. ليجعل هذا التخطى ممكناً،

عن معان جديدة للأشياء. من هنا نفهم قول مهيار «وحيرتي حيرة من بضئ/ حيرة من يعرف كل شيء» (حوار، ص ٥٥). إن هذا القول يضع الحيرة والقلق والشك وما إلى ذلك في أساس محاولة الإنسان فهم ذاته وفهم الكون المائل حياله. أليس حرياً بالإنسان، إذن، أن يعود إلى ذاته في محاولة فهمه للوجود والعالم؟ أليس حرياً بالإنسان، بالتالي، أن يتوقف عن رؤية وجوده والأشياء حوله من خلال مجردات ثابتة مطلقة؟ أليس الإنسان، إذن، ملزماً بأن «يخلق نوعه بدءاً من نفسه»؟ هذه هي الأسئلة التي يضعها أمامنا مهيار. وبهذه الأسئلة نختم نحن رحلتنا مع مهيار، حيث رافقناه بدءاً من عودته إلى ذاته وانتهاء بتخطيه التقييمي لكل القيم الذي يعود به إلى حيث ابتدأ - إلى ذاته.

إن (أغاني مهيار الدمشقي) تجربة حية تلخص لنا قلق إنساننا المعاصر بكل ما فيه من زخم التمرد وتوتر الخلق - تجربة تمثل لنا محاولة الإنسان الأكثر شمولاً وعمقاً في فهم معنى وجوده في العالم ومعنى الكون المائل حياله. ولذلك لن أتوسع نحن القول إن (أغاني مهيار الدمشقي) تجربة جديدة في الخلق الذاتي self - creation.

والنفي والتخطي - غير الصيرورة. لا يعود الإنسان هنا سجين اللغة، سجين مصنفات مفترضة الثبات، سجين ما هو مضفى على الأشياء في شكل حدود وعلائق وسبب وكيفيات تفرضها مفاهيم لغوية مسبقة، قيمة وغير قيمة. إنه يصبح الخالق الوحيد لكل القيم ولكل الحقيقة. وهو في ذلك يدع ذاته ويبدع العالم بإبداعه ذاته. ما يرسخه لنا مهيار، إذن، كنيته من قبله، مبدأ أن الإنسان هو مصدر كل القيم، وبالتالي مصدر الحقيقة باعتبارها قيمة. وحيث يصير الإنسان مصدر القيم، لا يعود ثمة وازع خارج إرادته ووعيه لحضوره الخاص الفريد يمنعه من الذهاب إلى ما وراء الخير والشر - إلى ما وراء الإله والشیطان؛ أي لا يعود ثمة وازع يمنعه من إعادة تقييم كل القيم.

هنا يعود بنا مهيار إلى حيث ابتدأ، إلى ذاته. ولكن عودته إلى ذاته، في هذا السياق، هي عودة سقراطية؛ أي عودة دياكتيكية بالمعنى السقراطي. إنها عودة إلى ذات يتملكها الشك والحيرة، ذات ترفض أن ترى الأشياء من خلال المواضع اللغوية والمفاهيم الجامدة، باحثة في داخلها

## إشارات:

- ١ - جميع الإشارات في المتن هي للطبعة الأولى من أغاني مهيار الدمشقي، دار مجلة شعر، بيروت: ١٩٦١.
- ٢ - Edward A. Tyriakian, *Sociologism and Existentialism*, Prentice-Hall, Inc., 1962, p. 414.
- ٣ - المرجع نفسه، ص ١١٥.
- ٤ - Karl Jaspers, *Philosophie*, III, (Berlin: Verlag von Julius Springer, 1932), p. 78.
- ٥ - Adel Daher, "The Concept of Mass- Man in Existentialism," in Mourad Wahba (ed.), *Philosophy and Mass- man (Proceedings of the Fifth International Philosophy Conference)*, Cairo: The Anglo-Egyptian Bookshop, (1985), pp. 23- 48.
- ٦ - المرجع نفسه، ص ص ٢٧ - ٢٩.
- ٧ - المرجع نفسه، ص ص ٢٣ - ٢٦.
- ٨ - Tyriakian, op. cit. p. 126.
- ٩ - المرجع نفسه.
- ١٠ - المرجع نفسه، ص ١٢٧.
- ١١ - المرجع نفسه.
- ١٢ - Daher, op. cit., pp. 34 - 38.
- ١٣ - عمانوئيل مونييه، هذه هي الشخصية، ترجمة تيسير شيخ الأرض، ص ٣٦.
- ١٤ - Karl Jaspers, *Man in the Modern Age*, Trans. by Eden and Cedar Paul, (London: Routledge & Kegan Paul, Ltd., 1951), p. 149.
- ١٥ - Hans Meyerhoff, "The Return to the Concrete," *Chicago Review*, Vol. 9, No.2, Summer, 1959.
- ١٦ - Paul Wienpahl, "Philosophical Reflections," *Chicago Review*, vol 13, No. 2, Summer, 1959.
- ١٧ - Hans Meyerhoff, op. cit.
- ١٨ - Ernest Cassirer, *An Essay on Man*, (New Haven and London: Yale University Press, 1944), p. 170.
- ١٩ - Kurt F. Reinhardt, *The Existentialist Revolt*, sec. ed., (New York: Frederick Ungar Publishing CO., 1960), p. 116.

# اللغة الشعرية فى قصيدة «انتظار»

للشاعر السورى

ممدوح عدوان

## علوى الهاشمى\*

خاصة سوى الجمع فى حيز مكاني واحد بين «قصيدتين». ولعل الأمر فى حالة الشاعر ممدوح عدوان لا يختلف عما كان عليه فى حالة إبراهيم العواجى (انظر المقالة المذكورة منشورة فى جريدة «الرياض» بتاريخ ١٤ مارس ١٩٩٦).

غير أننى فى مثل هذه الحالات غالباً ما أنظر للحيز المكاني الذى تنشر فيه القصيدتان، وإلى رغبة الشاعر الخاصة فى نشرهما مجتمعتين فى ذلك الحيز المكاني والزمانى المشترك، على أنهما يؤثران ضرورة النظر إلى القصيدتين باعتبارهما نصاً واحداً متماسكاً أو متكاملأً حتى وإن لم يكن الشاعر - أو الناشر أحياناً - قد قصد ذلك قصداً. فهو فى نظرى من المسكوت عنه مما يقع عادة فى هامش اللاشعور الذى يستحق الالتفات إليه نقدياً. وذلك ما حاولت أن أؤكد فى مقالتي التحليلية حول قصيدتي العواجى سالفتي الذكر. وهو ما أرى المجال إليه أوسع، والنظر فيه أؤكد، حين يتصل الأمر بتجربة شعرية وثقافية طويلة وخصبة متنوعة بين الشعر

كان يمكن أن تقرأ قصيدة الشاعر العربى السورى ممدوح عدوان «انتظار» المنشورة فى جريدة «الرياض» بتاريخ ١٤ ديسمبر ١٩٩٥ م من ملحق «ثقافة اليوم»، باعتبارها قصيدتين منفصلتين:

الأولى بعنوان «انتظار» والأخرى بعنوان «وحش»، وعلى اعتبار أن العنوانين يقمان تحت عنوان ثالث كبير، كثيراً ما يلجأ إليه الشعراء فى مثل هذه الحالة، وهو «قصيدتان» على النحو الذى ألمحت إليه سابقاً فيما يخص قصيدتين لإبراهيم العواجى حين تم تحليلهما فى مقالة سابقة. وقد أشرت فى حينها إلى ملاسبات التداخل بين القصيدتين أثناء نشرهما فى طبعة «الرياض» الأولى، ثم كيف تم تصويب هذا التداخل فى الطبعة الثانية، بالفصل بين العنوانين ووضعهما تحت عنوان واحد ليس له أية دلالة

\* شاعر وناقد، البحرين.



والصحافة والمسرح والحضور الأدبي الممتد عربياً على مدى ثلاثين عاماً، كتجربة الشاعر ممدوح عدوان التي أصدر خلالها اثنتي عشرة مجموعة شعرية، وكتب ثمانى عشرة مسرحية، وله فيها عدد من المترجمات وسيرة ذاتية وثلاثة كتب حول المسرح (انظر ترجمة الشاعر فى مجسم البابطين للشعراء العرب المعاصرين).

ولابد أن يعنى نشر قصيدتين فى حيز مكاني وزماني واحد بالنسبة إلى شاعر يعمل صحفياً مد عام ١٩٦٤، وله كل هذه التجربة الشعرية والثقافية الحسنة، شيئاً أبعد من صورة هذا الجمع الزمكاني، بل يتعداه إلى ما هو عضوي وبنوي على المستوى الفني والفكري، خاصة إذا جاء نشر القصيدتين برغبة وطلب من الشاعر نفسه. ناهيك عن كون القصيدتين عبارة عن قصيدة واحدة فى الأصل على النحو الذى نشرت به، ولم يكن هناك أى خلل فى الإخراج أو تداخل فى النشر. وهو أمر محتمل كذلك. غير أن المحصلة فى الحالتين واحدة، كما يظهر من الطريقة التى أحاول بها مقارنة مثل هذه الحالات مقارنة نقدية.

إن هذه التوطئة جد ضرورية فى حالة الوقوف نقدياً أمام قصيدة ممدوح عدوان أو قصيدتيه، لأن ترتيب القصيدتين عندئذ يغدو ذا أهمية خاصة على مستوى الترابط الداخلى المحكم لبناء القصيدتين بما يسمح أن يحيلهما إلى نص شعري واحد يفسر أحدهما الآخر ويلقى بظله عليه ويكمله ويتراسل معه، ولو فى إطار الحيز الزمكاني الجامع بينهما.

وبدءاً يصعب قراءة النصين فى حيزهما الزمكاني الواحد، دون الجمع بين عنوانيهما جمعاً تلتقطه العين عمودياً أول الأمر هكذا «انتظار... وحش»، ثم لا يلبث الذهن أن يحيله إلى قراءة تراكية أو تحاورية كما يسميها الألسنيون، هكذا «انتظار وحش» وبذلك يسرز أول مظاهر الربط الزمكاني بين النصين المنفصلين تحت عنوان غير ذى دلالة خاصة وهو (قصيدتان)، متجسداً فى عنوان ضمنى جديد هو (انتظار وحش). ويستطيع ذهن المتلقى ذى الخصائص التفاعلية، بطاقته التخيلية ذات الخصائص الترابطية المستمرة أن يضيف إلى هذا العنوان النصي الجديد

فائحة يستهل بها، ضرورة، للتعبير عن حالة المرواحة الزمانية والنفسية والفنية بين عملية الانتظار نفسه من جهة، والوحش المنتظر من جهة ثانية. ولتكن هذه الفائحة الاستهلاكية حرف الجر (فى)، ليصبح العنوان فى صيغته النهائية هكذا «فى انتظار وحش». ويمكن أن يلعب هذا الحرف البسيط وظائف مهمة، إذا نظرنا إلى حالة المرواحة بمستوياتها الثلاثة المذكورة آنفاً (الزمانية والنفسية والفنية). فهذا الحرف يفيد من الناحية اللغوية معانى الظرفية - يبعدها الزماني والمكاني والسببية التى غالباً ما تربط بين البعدين المذكورين. ويربط «فى» بلفظة «انتظار» يضيف على هذا المصدر الصرفى أو اللفظة الاشتقاقية دلالة عميقة بتجمد الزمان فى المكان يعبر عنها بتجمد الفعل «ينتظر» فى مصدره «انتظار». وكل تلك المرواحة الزمانية الثقيلة والطويلة تعبر عن شعور باليأس والرغبة والخوف من المنتظر «الوحش». وهو شعور يفترس صاحبه قبل أن يفترسه الوحش نفسه، وقد يكون هذا الشعور المرير هو الوحش بعينه أو يقوم مقام الوحش. وهنا المرواحة النفسية الناتجة عن استخدام حرف الجر (فى) مطلع العنوان. أما الوظيفة الفنية فتتمثل فى المرواحة النصية بين نص «انتظار» الأول ونص «وحش» الثانى، لدى قراءتهما قراءة لولبية من شأنها أن تتدرج فى حياكة نسيج النص الواحد المشترك بعنونه الجديد «فى انتظار وحش» على النحو الذى تم إيضاحه فى الخطوات السابقة. ومثل هذه القراءة اللولبية المرواحة بين النصين المتداخلين، أو بين وحدتى النص الكلى، هى ما تتوسمه مقاربتى النقدية لقصيدة ممدوح عدوان فى هذه المقالة، معتمداً فى ذلك على مظهر الثنائية الذى يوجه حركة النص فى معظمه.

يتمثل مظهر الثنائية، بالإضافة إلى ما تم ذكره وتحليله من خلال المقدمة المسهبة السابقة، تمثلاً لغوياً دقيقاً فى استخدام خواص تراكيب الثنية وعناصرها من ضمائر وأسماء وصفات وأفعال مثل «هاهما/ ينتظران» ومثل «يست أيديهما» و «منذ أن جاء» و «حينما غط على وجهيهما حلم» و «ضيقاً من أجل هذا الحلم ما كان شاباً... إلخ. كما يتمثل مظهر الثنائية على نحو دلالي خاص فى تلك اللازمة المتكررة عدداً من المرات وهى «هاهما ينتظران».



عن حالة الانكفاء اليائسة. وهو ما جعل الجسم البشرى ينحن ويقع على كفيه كالحيوان، فتتحول بذلك قامة الإنسان الممدودة إلى تكوير يشبه الكهف بتجويفه المظلم. ثم تكتمل الصورة، صورة الإنسان المنتظر الذى حوله اليأس إلى كهف أجوف لا يحس، حين يقوم العنكبوت بمد خيوطه واتخاذها من ذلك التجويف مسكناً واصطياد ما يكفيه من القوت قبل أن يلط فى نبض الشرايين ليغرف من دمائها المتبقية زاداً وشراباً. وهكذا يفترس الانتظار حضور الإنسان وآماله وصورته ويحوّله إلى كهف أجوف يعيش فيه العنكبوت.

ولا تستطيع هاء التنبيه فى أول اللازمة المذكورة أن تعيد الحياة والحيوية إلى هذا الوجود الإنسانى المتييس «هاهما ينتظران» لذلك نجد اللازمة تتخلى عن هذه الحقنة المنشطة التى لم يجد استعمالها شيئاً مرتين قبل ذلك، تتخلى عن هاء التنبيه فى المرة الثالثة مستسلمة لحالة اليأس التى تعبر عنها اللازمة المتكررة فى صورتها الأخيرة، هكذا:

هاهما ينتظران

منذ أن جاء إلى بادية العمر

هما ينتظران

وعلى الرغم من هذه النتيجة القاطنة، فقد ظلت الرؤية الشعرية تتحسك بذيل الأمل الرخو المتبقى فى جوانب الجملة الفعلية «ينتظران» وفى دلالة الانتظار نفسه، وأهم من ذلك كله فى استمرار مظهر التنبيه الذى هو تعبير عن شكل من أشكال الوحدة بين المنتظرين كليهما، فى التاريخ والوجود والمصير. وهو ما يبعث بعض الأمل الرخو الذى يوضحه المقطع التالى من نص «انتظار»:

وتمطى أمل رخو

محا خطو الزمان

حينما غط على وجهيهما حلم

أضواء الفاجعة

ضيعا من أجل هذا الحلم

ما كان شياياً

ولعل استخدام الجملة الاسمية التى خبر مبتدأها جملة فعلية فى هذه اللازمة المتكررة، من شأنه أن يشير إلى تلك المستويات التى تمت الإشارة إليها من المراوحة الزمانية والنفسية والغنية. وهو ما يجسده هنا تركيب اللازمة اللغوى. فالمبتدأ عبارة عن ضمير منفصل «هما» أى أنه اسم فى أقصى درجاته من الانكماش والتخفى والانكفاء على النفس، غير أنه مرصود من قبل الغير؛ أى أنه يقع فى إطار الرؤية الشعرية الكاشفة، وذلك من خلال جعله ضمير غيبية لا حضور. أما خبر هذا المبتدأ المنكمش الغائب المتقلص فهو على نقيضه: جملة فعلية تتخذ من فعل المضارعة زماناً للاستمرار والاستقبال والانتهاء أو النهاية المفتوحة. وهو ما يضى شعوراً درامياً على هذه اللازمة مصدره التناقض المذكور فى الجملة الاسمية الواحدة بين المبتدأ فيها والخبر، وهى الدلالة نفسها التى ينتجها المصدر «انتظار» فى عنوان النص الأول على النحو الذى تمت الإشارة إليه، بحيث تبدو طاقة الفعل مجمدة فى صيغة المصدر، مثلما الجملة الفعلية «ينتظران» محاصرة بإطار الجملة الاسمية التى هى مجرد خير لمبتدأ فيها «هما ينتظران». وهى لازمة مفتاحية تختزل فى هذا التركيب اللغوى الدقيق مجمل الحالة الشعرية المتصلة بفعل الانتظار اليائس الذى تعبر عنه القصيدة فى جزئها الأول «انتظار». وهو ما يمكن استشفافه فى هذا المقطع منه:

يبست أيديهما فى الأرض

مد العنكبوت

مسكناً.. واصطاد

ما يكفيه قوت

ثم فى نبض الشرايين لطا

يغرف زاداً وشراباً

إن هذه الصورة الشعرية قد استطاعت أن تصرف ذهننا عن فعل الانتظار إلى حال المنتظر نفسه، وهو فى حالة تنبيه، بحيث كشفت لنا الصورة تجمّد هذين المنتظرين وتحولهما من فعل شامل «ينتظران» إلى فعل جزئى ذى دلالة سالبة، يحتص بأحد أعضاء الجسم وهو اليد «يبست أيديهما» التى لامست الأرض وتيبست فيها، بعد تجمّد الأرجل طبعاً، تعبيراً

هاهما ينتظران

قد يجيء الغيم

أو ينهض نبع

ربما يرسل أفق غامض حتى غرابا

وواضح في هذا المقطع الاستهلالى انعدام الرؤية الواضحة «أفق غامض» والواعية الواقة التي لا تتوسل في انتظارها بأدوات لغوية مثل «قد» و «ربما» الاحتماليتين، كما لا تجعل حصيلة انتظارها مرهونة بأى شيء حتى لو كان نقيضا للون الأمل والحلم «حتى غرابا». ففي هذه الحالة لن يكون الانتظار مقترنا سوى باليأس، منذ البداية. وهو ما أفصحت عنه نهاية النص الأول، حين فتحت عنوانه «انتظار» على عنوان النص الثانى «وحش» عبر مراوحة متشابكة عبر عنها حرف الجر «فى» الذى أوحى هذه القراءة بوجوده الموهوم أمام العنوان الجامع للنصين «فى انتظار وحش».

ينفتح أفق الانتظار الذى وسم النص الأول على نقيضه المتخلى فيه كما رأينا، وهو اليأس والانكفاء والتبؤ. وبذلك، تنفتح لفظة «انتظار» على لفظة فظة شرسية هي «وحش» لترتبط اللفظتان المتناقضتان عن طريق الإضافة، فيصبح الأول «انتظار» مضافاً والثانى «وحش» مضافاً إليه. ويبدو أن انزياح النقيض إلى نقيضه مسألة حتمية فى رؤية الشاعر النصية التى اتخذت من الضعف التكويني فى جسد المثني المتحد علة وسبباً جوهرياً من أسباب انتظاره اليأس، ومن ثم تحلل المثني المتحد وتفككه وانفصاله إلى أول وثان، لكل منهما مساره الخاص المختلف عن الآخر: أفقياً «امتد على الأرض» وعمودياً «امتطى الثانى/سلحفاة اليأس». إلا أن ما يجمع المسارين تحجرهما فى نقطة تقاطع واحدة، وعجزهما معاً عن السير والحركة منفردين مثلما عجزا عن ذلك مجتمعين. ولذلك، كان الاتجاه الوحيد الذى أخذه فعل الانتظار العاجز واليأس، بدليل نجمده داخل صيغته الاسمية المصدرية، هو السير نحو إضافة «وحش» الذى تولد منه.

ومن الطبيعى أن يتحول النص الثانى «وحش» إلى ما يشبه الشهادة المريعة التى يدلى بها الشاعر فى إطار من الرؤية

وهنا تكون خاتمة الأمل «الرحو» الذى لم يفعل أكثر من الكشف عن حقيقة هذا الوجود الوجودى الهش، فقد حرك الأمل ذلك الحلم الذى عطف طويلاً على وجه هذين المنتظرين منذ مبتدأ علاقتهما أو وجودهما معاً: «منذ أن جاء إلى بادية العمر». إلا أن هذا الحلم لم يستطع أخيراً، حين حركه الأمل اليأس، سوى أن يكشف الواقع المفجع «أضاء الفاجعة» المتمثل فى هذين المنتظرين الحائمين المتحجرين منذ زمن بعيد، بعد أن «ضيقا من أجل هذا الحلم ما كان شباباً».

وتكشف هذه الرؤية الشعرية فى نهاية نص «انتظار» حقيقة هذه الوحدة الثنائية الهشة التى كانت هشاشتها سبباً فى عدم قدرتها على التماسك والتعاقل واستلاك القوة لمواجهة التحديات. لذلك نجد نهاية النص تتخلى عن بنية التثنية التى كانت تحرك مجمل النص قبل ذلك، حين أفصحت هذه النهاية عن تحلل كامل لتلك الوحدة الثنائية بالتخلى عن مظهر التثنية واستخدام ضمير المفرد وصفته المميزة (الأول/الثانى) بدلاً من ذلك، هكذا:

عجز الأول أن ينهض

فامتد على الأرض سرايا

وامتطى الثانى، إلى ما يتبقى،

سلحفاة اليأس

حتى ذاب فى الوجه سرايا

وبصرف النظر عما يرمز إليه الطرفان المنتظران فى نص «انتظار» سواء أكانا بلدين أم شخصين أم حزينين أم اتجاهين أم عقيدتين، فإن التكوين الأساسى العاجز والضعيف لكل طرف يجعل الطرفين معاً حين مجتمعين فاقدين لقوة النهوض والتغلب على يأس الانتظار الفارغ الذى هو فى ذاته وحش كاسر يفترس ضحاياه منذ بداية الإحساس به، على النحو الذى يوضحه مطلع «انتظار» منذ الوهلة الأولى المشحونة بالأمل اليأس، هكذا:

وهذا هو واقع حال الإنسان العربي، اليوم على الأقل،  
فكل تلك الآلام والمجازر وألوف النازحين وأنهار الدم وجثث  
القتلى، يتم اختزاله في خبر نسمعه يبرود عبر وسائل الإعلام  
وكان الأمر لا يعنيننا. إنه مجرد «نبأ» أو كما تقول القصيدة:

دمنا لا يبيل الظما

يشتهي أن يراق

(نريق الدماء بتضحية

ويريق دمانا الذي لا يحب

سوى أن تكون العروق بأجسامنا فارغة)

دمنا لا يبيل الظما

وحين تبحث الرؤية الشعرية عن السر وراء هذه الحال  
المأساوية التي يعيشها الإنسان العربي منذ زمن بعيد، فإنها  
تجده في ذلك التكوين الذاتي المنقسم أو الفصام الروحي  
الذي يحاول الإنسان العربي أن يداريه ببنية المثني المتحد،  
حسب القصيدة الأولى، وآل به المآل إلى التفكك والتحلل  
والتفسيخ بعد أن حوله الانتظار اليائس إلى جثة هامدة أو  
كهف أجوف. فهل يمكنه التستر بعد اليوم بأية ملامح  
قديمة أو جديدة؟

لم تعد حاجة للتستر

خلف ملامحنا

فترات.....«.....» فينا اهترا

بقيت نقلة العلم في عالم

غص بالدم حتى امتلا

ومن الطبيعي أن يخرج الوحش من جوف الإنسان نفسه  
الذي حوله الانتظار إلى كهف:

كان في الكهف وحش

تشمم رائحة الدم

واستعذب الطعم

أنيا به الزرق في لحمنا والغة

حيث أجسامنا لقمة سائغة

الشعرية القاتمة من فرط اليأس. ولذلك، تفتتح الرؤية/  
الشهادة بما يفيض به كأس التراث العربي من شعر يدلى  
بالشهادة نفسها قبل أكثر من ألف عام، حين كان المتنبي  
يتجرع مرارة ذات اليأس وهو يصرخ:

من يهن يسهل الهوان عليه

ما لجرح بميت إيلا

ولعل ممدوح عدوان بهذا الاستهلال التراثي لقصيدته  
الثانية «وحش» أراد أن يفتح أفق الرؤيا، لكي يستدير واسعاً  
على مشهد الإحباط العربي، ولكي تمتد حالة الانتظار  
اليائسة الضاربة بجذورها العميقة في تربة التاريخ العربي  
وضمير الشاعر العربي المعذب بها. وهو ما أوصل حالة  
الانتظار إلى وحش اليأس القاتل الذي راح يقضي على ما  
تبقى من الأمل الرخو والحلم الهش. ولتصوير ذلك التآكل  
الروحي المتصل، فإننا نرى الشاعر الجديد، ممدوح عدوان، لا  
يحتاج لأكثر من مقطع متآكل وجملة غير تامة يقطعها من  
بيت الشاعر الجد «المتنبي» ويوظفها في مطلع قصيدته عن  
الوحش، هكذا:

ما لجرح بميت...

ومالي بما يتساءل عنه الملا

وكأنني بالشاعر الجديد يريد أن يوحى، من خلال  
التوظيف الشعري التراثي المتآكل، بالعمق والسعة للذين  
بلغتهما حدود حالة الانتظار التي أنتجت على المدى التاريخي  
والحضاري الطويل ما نحن فيه اليوم من عدم اكتراث بما  
يسيل من الدم العربي المراق، بعد أن تحجر وجود الإنسان  
وصار انتظاره كهفاً يسكنه العنكبوت على النحو الذي تمت  
رؤيته في نص «انتظار». أما الناتج فإننا نجد في قصيدة  
«وحش» على هذا النحو:

ليس هذا سوى جثة،

ألف نازحة،

وثلاثون ألف قتيل:

نبأ

«فى انتظار وحش» الذى أغرأنى شخصياً بهذه المقاربة النقدية.

### القصيدة

انتظار

هاهما ينتظران

قد يجيء الغيم

أو ينهض نبع

ربما يرسل أفق غامض حتى غربا

يبست أيديهما فى الأرض

مد العنكبوت

مسكناً.. واصطاد

ما يكفيه قوت

ثم فى نبض الشرايين لطا

يغرف زادا وشرابا

هاهما ينتظران

منذ أن جاء إلى بادية العمر

هما ينتظران

وتعطى أمل رخو

محا خطو الزمان

حينما غط على وجهيهما حلم

أضاء الفاجعة

ضيعة من أجل هذا الحلم ما كان

شبابا

عجز الاول أن ينهض

فامتد على الأرض

ومثلما استدارت القصيدة لكى تخرج الوحش من ظلمات الكهف البشرى، استدارت كذلك لكى تخرج الدم من جوف العنكبوت بعد أن غرف منه زاده وشرابه ولما فى نبض الشرايين واصطاد ما يكفيه من قوت، على نحو ما تم تحليله فى نص «انتظار». إلا أن هذا العنكبوت فى نص «وحش» قد تكاثر وتحول نفسه إلى وحش كاسر يتشمم رائحة الدم ويستعذب طعمه، بل نراه يعود ليتخذ له شكل إنسان دموى متوحش فى نهاية القصيدة الثانية، هكذا:

كان فى الكهف وحش

أزاح شبك العناكب عن وجهه

وتقدم من ضعفنا جلفاً

واثقا

مطمئن الخطى

وابتداً

وهكذا يمثل النصان، الأول والثانى، دائرة نصية محكمة وبنية فنية متماسكة، على الرغم من مظاهر النصل العامة بين النصين مما تم التطرق إليه، ومما لم يتسع المجال للتطرق إليه مثل العلاقة بين النصين فيما يتصل بالبنية الإيقاعية، بحيث يتكى النص الأول على تفعيلية وزن الرمل «فاعلاتن» طويلة المقاطع التى تشبه حالة التمثلى والانتظار الطويل «وتعطى أمل رخو/ محا خطو الزمان»، فى حين يتكى النص الثانى على تفعيلية وزن الحبيب السريعة ذات المقاطع القصيرة المتلاحقة التى تعبر عن انفجار الدم وخروج الوحش من كهف الانتظار اليائس، إنساناً مشحوناً بالعنف والوحشية وبرودة الأعصاب. وإذا أضفنا إلى هذا التقابل الوزنى بين النصين صورة التماثل والتطابق الموسيقية الناتجة عن تشكيل القوافى فيهما، فإن حالة التكامل الزمانى التى تم تأكيدها فى مقدمة هذه المقالة تكون أكثر بروزاً وعمقاً فى ارتباطها بالجوانب اللغوية والإيقاعية والدلالية التى تمت دراستها أو الإشارة إليها، الأمر الذى يعزز الدائرة البنيوية المحكمة بين قصيدتى الشاعر أو بين نصى «انتظار/ وحش»، وهو ما ينتج أخيراً نصاً شعرياً عميقاً محكم البناء هو نص

إلى أن صار فى الأرض تراباً  
وامتطى الثانى ، إلى ما يتبقى ،  
سلحفاة الياس

حتى ذاب فى الوهج سراباً

## وحش

ما لجرح بميت ...  
وما لى بما يتساءل عنه الملا  
ليس هذا سوى جثة  
ألف نازحة ،  
وثلاثون ألف قتيل :  
نبأ .

دمنا لا يبيل الظماً  
يشتهى أن يُراق :  
(نريق الدماء بتضحية  
ويريق دمانا الذى لا يحب  
سوى أن تكون العروق بأجسامنا  
فارغة)

دمنا لا يبيل الظماً  
لم تعد حاجةً للتستر خلف  
ملاحنا  
فترات..... فينا اهترا  
بقيت نقلة العلم فى عالم  
غص بالدم حتى امتلاً  
لم تعد حاجةً للتشيت :  
بالوحش : ماذا قرأ  
كان فى الكهف وحش  
تشمم رائحة الدم  
واستعذب الطعم  
أنيابه الزرق فى لحمنا والغة  
حيث أجسامنا لقمة سائغة  
كان فى الكهف وحش  
أزاح شباك العناكب عن وجهه  
وتقدم من ضعفنا جائعاً  
واثقاً  
مطمئن الخطى  
وابتداً





# لعبة المحو والتشكيل فى أخبار مجنون ليلى \*

معجب زهرانى\*\*

استهلال

حكاية:

قيل له يا قيس أنق فقد أناق العاشقون (لكنه لم يفعل) وسكنت نار قلوبهم (لكنه لم يفعل) وهذا جزع المحبين (لكنه لم يفعل) وأوشك من انشغل بالنساء على السأم (لكنه لم يفعل) ورجع الذين أفرطوا فى الوله (لكنه لم يفعل) وسلا المتيمنون (لكنه لم يفعل) واثنى الموعلون فى غيهم (لكنه لم يفعل) وثاب المخطئون (لكنه لم يفعل). وحسنا فعل. فلو فعل شيئا من ذلك لم يبق لنا عذر نحتج به على من يلومنا فيما نحن فيه.

(ص ٨٤).

\* صدر عن «الكلمة للنشر والتوزيع»، البحرين، الطبعة الأولى، مارس ١٩٩٦، والقراءة متركرة، هنا، على كناية قاسم حداد مقدم  
\*\* قسم الأدب العربى، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض.

وطنى أن الأسطورة التى أراد الرواة إنفاذها فى قصص العرب عن قيس لم تلبث أن خرجت عن سطوتهم واتخذت من المسارات ما لم يكن فى الحسين، ليصبح قيس حركاً بجنونه، ليس من سطوة السلطان والقبيلة فحسب، ولكن خصوصاً من الحدود التى اختلقها له الرواة. وإننا نراه مايزال يمعن فى هذا الخروج والتفلى.

(ص ٧٣).

لطيفة:

.. وأن الحقيقة فى هذا الموقف ليست بشئ  
فالرواة يعشون بالسيرة  
والأخبار تلهو بنا  
وفتتنا الشعرى.

(ص ٦٩)

## ١ - مداخل:

### ١ - ١

والغيري، فإنه يباشر مغامرة الكتابة الشعرية الجديدة بطريقة تجعل النص المنجز «ملتبسا» فلا يقبل النمذجة والتصنيف وفق أى مبدأ نقدي أو إبداعي مسبق.

وبصيغة ربما جاءت أكثر دقة ووضوحاً يمكن القول بأن عملية الصوغ والتشكيل الشعرية موجهة في بعض النصوص أو النماذج، وبمقصدية ما، ضد عملية التموضع «والجنس»، وكأن مبدأ العدول، أو الانحراف أو الانزياح، يطال في الوقت نفسه أسلوب الكتابة والشكل أو المظهر العام للنص المكتوب! هذا ولعل القيمة الإجرائية لهذه الفرضية الأولية تتضح بمجرد معاينة النص أعلاه ومحاولة توصيفه وموضعيته في سياق تجربة الكتابة الإبداعية الخاصة لقاسم حداد.

### ١ - ٣

أشرت في دراسة سابقة إلى أن المنجز الإبداعي لهذا الشاعر يتيح ويسمح لنا، من حيث كنهه ونوعه، اعتباره أحد الشعراء العرب القلائل الذين تحولت الكتابة الإبداعية عنده إلى سحور الارتكاز الأول والأهم في الحياة. فاللغة لم تعد هنا مجرد أداة أو وسيلة تعبيرية، كما أنها كفت عن أن تكون فضاء اتصال وتواصل مع العالم الخارجي بهدف الاندماج فيه والتعايش أو التصالح معه. لقد تحولت عنده إلى مجال للبحث الجاد والمتصل عن معاني الوجود الأكثر خفاء وعمقا وجمالاً فصارت «عالمًا بديلاً» يسكنه هذا الكائن - الشاعر المسكون بهاجس اختلافه وتميزه وفرادته مثله مثل كل الشعراء المتميزين حقاً.

وتعبير ناقد آخر، يمكن القول إن تجربة قاسم حداد الشعرية هي في الوقت نفسه «الدال» و«الدليل» على أنه أحد الذين «يعيشون في الأرض بطريقة شعرية» (التعبير لمحمد اليوسفي بقليل من التصرف)؛ أي ممن يعملون في لحظات الصمت والقول والكتابة على تأكيد حضورهم في المكان والزمان والعلاقات من منطلق هذه الرؤية، الرؤيا الحلمية الأسطورية في جوهرها و«الملتبسة» بطبيعتها.

ففي مرحلة أولى، عبرت عنها ومثلتها مجموعاته الشعرية الثلاث الأولى (البشار) ١٩٧٠، (خروج رأس

أبدأ، كما وطأت نفسى عليه، بإيضاح منطلقات المقاربة وتحديد غاياتها أو أهدافها وأدواتها النظرية والإجرائية التي يفترض أن تصل المنطلقات بالغايات. فمثل هذه الإيضاحات والتحديدات أصبحت من شروط الكتابة النقدية العارفة أو «المتخصصة» الموجهة بطبيعتها إلى قارئ مفترض يشتغل في المجال المعرفي ذاته وينتمى إلى التخصص ذاته. لكن ما يتعين تأكيده منذ البدء أن في عملية الإيضاح ذاتها ما يشي بالالتباسات المحايثة لكل كتابة إبداعية متميزة، وهي التباسات لابد أن تنتقل، في جزء منها على الأقل، إلى الكتابة عن مثل هذه الكتابة، فلا يعود للوضوح المطلق مجال هنا. إنها محاولة أو مغامرة، فلنحاول ونغامر دونما ثقة مفرطة في «المعرفة» ودونما يأس مفرط من «تلك اللذة النادرة» المحايثة لقراءة النص الإبداعي المتميز.

### ١ - ٢

تتجه الكتابة الشعرية العربية الراهنة إلى النشر والنشرية بصيغ وفي أشكال متعددة ومختلفة؛ بحيث لم تعد الحدود بين ما هو «شعري» وما هو «نثري» واضحة وذات قيمة معيارية أو إجرائية. ولعل دراسة بعض النماذج والعينات التي ينتجزها الشعراء، من أصحاب التجارب، لا من أصحاب القصائد، تساعد الشعرية النقدية؛ أي «علم الشعر» كما يحدده جان كوهين، على تفهم هذا التوجه واستكشاف أفق احتمالاته ومن ثم بلورة بعض التساؤلات المطروحة وتعميقها بحدة على الشريحتين الإبداعية والنقدية.

هذا تحديداً ما تسعى وتطمح إليه هذه المقاربة التي تتخذ من كتابة قاسم حداد في (أخبار مجنون ليلي) موضوعاً ومنطلقاً لها. أما الفرضية الأولية التي تنهض عليها المقاربة وتحاول اختبارها وتطويرها لاحقاً فيمكن صوغها، اعتماداً على الملاحظة العامة أعلاه، على النحو التالي:

في سياق تعلق الشاعر الحديث بمبدأ التجريب والتجاوز المستمر للمنجز الإبداعي السابق والسائد، الذاتي

يدل على أن هاجس الكتابة الإبداعية «المشتركة» قديم عند قاسم وإن لم يتحقق إلا في فترة لاحقة، وما يهمنا من هذه المغامرة هو التباسها المزدوج.

فقد اعتمدت لعبة الكتابة على شكل من أشكال التواطؤ على محو وتغيب أي أثر نصي يسمح للقراءة النقدية أن تميز - بشكل حاسم - ما كتبه قاسم وما كتبه أمين لوضعه في سياق التجربة الإبداعية الخاصة بكل منهما، وهي شعرية عند قاسم وقصصية عند أمين كما نعلم. ثم إن اللعبة ذاتها قصدت إلى محو الحدود بين الكتابة الشعرية والكتابة القصصية، كأن تجربة الكتابة الإبداعية الحديثة - كما يراها المؤلفان - المبدعان لم تعد تسمح أو تعنى بمثل هذه الحدود، وهو ما يجعل الالتباس يتحول هنا إلى قيمة جمالية مجاوزة؛ إذ إن مقاطع كثيرة في هذا النص ترقى إلى مستوى الكتابات الفكرية التأملية ذات المنزع الفلسفي.

كذلك في (أخبار مجنون ليلي) تتجلى ظاهرة الافتتان بالآخر / المبدع متخذة أشكالاً ودلالات جديدة تماماً على تجربة قاسم، وعلى التجربة الإبداعية العربية، مما يفترض معه أن تواجه القراءة النقدية التباسات من نوع آخر أكثر تعقيداً وعمامة وإغواء مما تجده في «الجواشن». فالفروق النوعية بين النظامين اللغوي والتشكيلي لا تدع، في الظاهر، مجالاً للخلط بين الكتابة الإبداعية اللغوية لقاسم والرسوم التشكيلية لضياء عزاوي، لكن كتابة قاسم ذاتها ملتبسة من غير وجه وفي أكثر من مستوى. فعنوان النص يفترض أنه شكل من أشكال «السيرة الغريبة» التي كتبها شاعر حديث عن أحد أسلافه من الشعراء العشاق. لكن هذا التوقع يخيب وينكسر منذ البدايات؛ إذ إن النص كتب مرة بلغة شعرية استعارية - تصويرية مرة، وبلغة نثرية خبرية تقريرية مرة أخرى، مما يدل على أن السيرة الغريبة هي هنا سيرة ذاتية أيضاً. أكثر من ذلك فإن «الأخبار» المستعارة من المدونة التراثية، الأدبية والتاريخية، خضعت لعمليات محو ونقض وإعادة تشكيل بحيث لم تعد «أخباراً» تحمل وتنقل معلومات ما، وإنما أجزاء أو عناصر في نص جديد يحتفل بذاته من خلال نقض وتقويض الخبر القديم ومدونه التراثية. ثم إن المقاطع النثرية ذاتها تتحول، أو «تحول»، في مواضع كثيرة إلى كتابة لها وفيها كل سمات

الحسين من المدن الخائنة) ٧٢، (الدم الثاني) ٧٥، كان هذا الشاعر «الشاب» يمارس الكتابة الشعرية «الفعالة» أي التي ترى وتسمى القبح والظلم والشر وتدعو أو تخرس على مقاومته وتبشر بإمكان وقرب التغلب عليه وتجاوزة.

لكن مجموعتيه (قلب الحب) ١٩٨٠ و (القيامة) ١٩٨٠ تمثلان بداية مرحلة ثانية تغير فيها وعي الشاعر بالذات والعالم واللغة متجهاً إلى «القطيعة» مع المرحلة السابقة، وأضع «القطيعة» بين مزدوجات لأنها تأتي هنا بمعنى «التجاوز» لتلك المرحلة باعتبارها مرحلة البدايات الأولية لهذه المغامرة الإبداعية والوجودية. ففي هذه المرحلة تحول عالم الذات بما ينطوي عليه من أقيام وأفكار ورغبات وهواجس ورؤى إلى مدار ومجال الاستكشاف. وهنا تحديداً أصبحت اللغة ذاتها موضوعاً للتشكك ومجالاً للبحث الجمالي والفكري المعمق عن السري والغائب والمعلوم من معاني وأشكال حضور الكائن في العالم والكون. كل المجموعات التي صدرت له إلى (عزلة الملكات) ١٩٩١، وعددها سبع، هي تنويعات على رحلة البحث الأنطولوجي - الإبداعى هذه. وقد هيمنت عليها «القصصية النثرية» من حيث الشكل العام لكن وحدة التجربة وسفيتها تتجلى أساساً في التغلغل عن تلك «الشعرية الفعالة» أو «شعرية الشعراء» التي لم يكن من الممكن أن توصل إلى عالم الذات المنطوية على «العالم» والتي أصبحت في المركز من تجربة الكتابة - الحياة الإبداعية كما ألمعت إليه في الدراسة المشار إليها أعلاه. (قدمت في الملتقى النقدي الأخير لجائزة البابطين. أبو ظبي ٢٨ أكتوبر ١٩٩٦ وعنوانها: «من سوبر العالم إلى تطوير التجربة»).

في مرحلة ثالثة، وهي الراهة، حدث تحول لافت للانتباه، لعل أبرز سماته أو علاماته الماثرة تمثل في توجه مغامرة البحث الجمالي - الفكري إلى لحظات التقاء الذات المبدعة بقرينها وشبيهها، لا في مستوى لعبة الكتابة الخاصة التي تبيح استحضار الأصوات والرموز والأقنعة فحسب وإنما في مستوى لعبة «التأليف المشترك». وقد تخطى هذا التوجه في نص «الجواشن» الذي كتبه قاسم حداد مع أمين صالح، وقد سبق وأن أهدى إليه مجموعته (القيامة)؛ لأنه «رأى» مما

الراهنه واستكشاف بعض أفق احتمالاتها وبلورة بعض التساؤلات المطروحة على المبدع والناقد، كما أشرنا إليه منذ البدايات.

#### ١ - ٤

يتضمن مفهوم «اللعبة» معاني التجريب والمغامرة والإنجاز؛ إذ إنه يحيل مباشرة أو مداورة إلى مجمل العمليات التي يفترض «أن الشاعر اختار بعضها» قبل عملية الكتابة وتوصل إلى بعضها الآخر لحظة الكتابة ذاتها. وفي كل الأحوال، فإن آثارها ماثلة في النص المنجز كما تراه القراءة النقدية في صورته الراهنه. فإذا كانت هذه العمليات تسمى وتحيل في جزء منها إلى المقصد الواعي لدى الذات الكاتبة فإنها لابد أن تشير أيضاً، وفي الوقت نفسه، إلى ما يفيض عن أى مقصد وعن أى قرار ينبثق عن «الوعي» ويخضع لشروطه ويتحقق وفق مقتضياته؛ ذلك لأن طبيعة التجربة الإبداعية، هنا كما في أى مجال آخر، تتضمن بالضرورة أثر «القوى الفكرية» مثلما تتضمن أثر «الاهتداءات الخاطئة» بعبارة حازم القرطاجني. فإذا كانت الكتابة الشعرية، بالمعنى العام والواسع للمفهوم، هي نوع من اللعب باللغة، سماه القدماء «عدولاً» ونسميه اليوم انزياحاً؛ أو انحرافاً، يحرفها عن وظيفتها الاتصالية إلى وظيفتها التخيلية، فإن الفن كله نوع من أنواع «اللعب الحر» بالعناصر والمواد والخامات كما يقول كانط.

ولعل أهم ما في هذا المظهر أو البعد اللعبي في التجربة الإبداعية أنه مما يتعين حضوره أو استحضاره في كل مرة تحدث فيها عن مبدأ «المتعة» أو «اللذة» التي يجدها المبدع في عملية الإبداع، مثلما يختبرها المثلي إذ يتفاعل مع المنجز الإبداعي الجمالي، وقد تبلغ حد الفصل بين «الذهن» و«الجسد» كما وصفه وحلله ناقد مبدع مثل رولان بارت.

أما مفهوم «المحو» فينطوي على معاني التفتيب والنقض والتشتيت للدوال أو الدلالات، ويحيل هنا إلى ما أصبح في حكم المعروف والشائع والمقبول في الفكر النقدي الحديث من أن الكتابة الإبداعية، بل أية كتابة، لا تبدأ من فراغ مطلق ولا تتحقق أو تنجز على بياض أصلى نقى أو خال من

وخصائص الكتابة الشعرية الراقية المعهودة في تجربة قاسم الطويلة والغنية كما نعلم. وتزداد سمات التعقيد والالتباس الشكلي والدلالي للنص حين يعمد الكاتب إلى استعادة أبيات مختارة مما ينسب إلى قيس ليعيد كتابتها و«تشكيلها» بطريقة مخصوصة (جديدة) في هامش المتن السردى؛ بحيث تعضد القابلية النقضية التفويضية للأخبار ومرجعياتها من جهة وتعزز، من جهة أخرى، الفعالية التشكيلية التي تشمل مجمل الفضاء الكتابي أو المظهر البصري للنص، مما يشير إلى التداخل - في المستوى العميق للنص - بين «الكتابة» و«التشكيل» بالمعنى المحدد لكل من هذين المصطلحين!

لن أعرض هنا للعمل الأخير لقاسم بعنوان «قبر قاسم» المسبوق بـ «فهرس المكابدات» والملاحق بـ «جنة الأخطاء»، إذ لم ينشر ويتداول بعد على نطاق واسع، رغم أن التباساته الخاصة تغرى بإدخاله في هذه المرحلة الثالثة التي تتجه فيها تجربة الكتابة إلى ذروة عمليات المحو للذات الفردية بحثاً عن... ووصولاً إلى «الذات المطلقة» التي هي «كل أحد» وهي «اللا أحد». في اللحظة نفسها (العمل اختزال وتكثيف شعري باهر لحياة القبر ولما قبلها وبعدها من حيوات كما يراها مبدع ينتمى إلى «الثقافة الكتابية»، لكنه يختار ويختبر شكل ومعنى انتمائه بطريقته الخاصة كأى مبدع متميز).

فقط أؤكد مجدداً على أن التباسات النص الذي يشكل مجال المقاربة الراهنه لا يمكن أن تجلوها أو تمحوها القراءة النقدية الراهنه، بل قد لا يمثل هذا المطمح هدفاً وجيهاً ومشروعاً لأية مقاربة لأنها لا تدعى إمكان السيطرة التامة على نص إبداعى، أو فكرى، متميز حقاً حتى تسقط في ادعاء «العلمية المستحيلة» التي بشرت بها بعض النظريات والمناهج النقدية منذ بدايات هذا القرن، وقد تجاوزها الفكر النقدي الحديث وكشف عن بعض جوانب التوهم فيها، فكر ما بعد الحداثة خاصة.

من هذا المنظور سنحاول تحديد المفاهيم النقدية المتضمنة في عنوان المقاربة لا باعتبارها قابلة للتحويل إلى «مصطلحات» حدية ودقيقة الدلالة، وإنما باعتبارها أدوات إجرائية فعالة يمكن أن تقرّبنا من تفهم التجربة الإبداعية



وأعمق دراسة نقد للموضوع هذا في سياق الثقافة العربية المعاصرة هي دراسة المرحوم محمد الماكرى (الشكل والخطاب) التي تنطلق من المزاوجة الخلاقة بين الظاهراتية والسيمائية المحدثتين لمقاربة مختلف الجماليات الكامنة في الأشكال الشعرية العربية القديمة والوسيلة والمعاصرة من هذا المنظور.

فضلاً عن هذا، لا شك أن هذا المفهوم ينتمى إلى أخص ما يحدد ويحيز الثقافة الكونية الراحنة باعتبارها ثقافة صور وأشكال تضطلع «التقنية» بتوليدها وتنويعها ونشرها وتعميق تأثيرها في مختلف مجالات الحياة الحديثة ومستوياتها، حتى أصبح التمييز بين الواقعة، الكتابية وغيرها، وصورها، السيمولاكريه أمراً متعذراً. بناء على هذا كله لا يتطابق مفهوم «التشكيل» هنا مفهوم «الكتابة»؛ لأنه يتضمن ما يفيض عن عملية تحويل المنطوق إلى مكتوب، أى أنه يشمل الصوغ النحوى الأسلوبى للجملة والتوزيع المقطعى للفقرة والعبارة، ويمتد إلى مجمل عمليات هندسة النص على / فى بياض الصفحة، وهى عمليات تتدخل بقوة فى تفريد النص وتنويع سمات اختلافه عن غيره، كما سبق أن رأينا عند قاسم حداد.

هكذا يتضح أن بين هذه المفاهيم من التعالقات الدلالية قدر ما بينها من الفروقات والتمايزات، وفى مستوى التجربة الإبداعية ونظرياتها، وبالتالي فلا يمكن فصلها نهائياً بعضها عن بعض إلا افتراضاً وبقدر ما يسمح هذا الفصل للقراءة النقدية بتوصيف مظاهر ومستويات التجربة الإبداعية الواحدة.بقى أن نشير إلى أن عنوان هذه المقاربة، والمفاهيم المتضمنة فيه أو المنبثقة عنه، مستعار مع بعض التعديل، من قول قاسم حداد فى مرحلة شعرية إبداعية سابقة :

لا أنا ذاكرة الناس

ولا غيمة تسكن الجبل

أنا المحو والتناسى (شظايا ص ٣٩)

ونأمل أن تساعدنا هذه الاستعارة على إضاءة التجربة من داخلها وكشف بعض التباساتها المتولدة عن سلسلة من

أى أثر. فمن منظور التناص أو تداخل النصوص يذهب جويرار جينيت إلى أن عملية الكتابة أشبه ما تكون فى العمق بعملية المحو والكتابة مجدداً على الطروس التي تعاقب عليها وفيها كتابات لا حصر لها، ولا يمكن لعملية «المحو» التي تنهض بها وعليها الكتابة اللاحقة أن تزيل كل أثر للنصوص السابقة، أما المعرفة النقدية فلا يمكنها أكثر من تسمية وكشف أبرز أشكال التناص القابلة للتحديد البلاغى - المنطقى؛ لأن كل نص يتطوى بالضرورة على ما لا حصر له من النصوص (وهى عند جينيت كما وضحتها فى «طروس» التداخل النصى، توازى النصوص، ما وراثية النص، التعالى النصى للنص، جامعية النص). أما ميخائيل باختين فكان يلج على التمييز بين اللغة الشعرية «المبولوحية» واللغة انثرية «الحوارية» ليصل إلى أن الأولى تتأسس على مبدأ محو الذاكرة الدلالية للكلمة، لا الكلمة ذاتها، وعلى محو «نوايا الآخرين» من الجملة والعبارة الشعرية مرادة لذلك الحلم (المستحيل) الذى يشترك فيه كل الشعراء. وهو «امتلاك اللغة الخاصة» من اللغة العامة الموسومة أبداً بأراء ومعتقدات وأفكار ووجهات نظر الآخر والغير.

من جهة، ومن منظور فكرى - فلسفى أعم وأشمل، يشير دريدا إلى أنه لا يمكن تصور أى وجود وحضور واشتغال لأية كتابة فردية أو ذاتية أو شخصية تنسب إلى الاسم العلم الذى يوقعها دون مفهوم «التكرار»؛ لأن هناك دائماً أثر أصل وكتابة أصلية هى ما يسمح للدال المعوى بالانكتاب والانقراء فى فضاء أو على شاشة واسعة من «الاختلافات» التي يتعذر حصرها واختزالها (هذا ما يفسر تحول الكتابة الفكرية - النقدية الإبداعية عند دريدا إلى لعبة تكرار ونقض وتشيت كما عند بارت أيضاً).

كذلك مفهوم التشكيل لا بد أن يتضمن هنا معانى الصوغ والتحويل والتركيب أو التأليف بحثاً عن ذلك «الشكل» الذى لم ير من قبل، وهو يحيل أساساً إلى الوعى الحديث بأهمية المظهر البصرى للعمل الإبداعى باعتباره «شكلاً» كما يرى آرنست كاسيرر وسوران لانجر، وباعتبار أن عملية الإدراك أو التلقى الأولى إنما تنحى إلى «الشكل العام» لا إلى الجزئيات، كما كشفته النظرية الجشتالتيه. ولعل أهم



واستحضاره، انطلاقاً من وعيها بأهمية المخفى والمغيب والمهمش والمصموت عنه في مجمل المدونة التراثية «التقليدية»؛ لأنه ما يؤسس لوجهاتها ومشروعيتها الإبداعية والذكورية في الراهن أو «الحاضر»، كما يظهر في مستوى العلاقة بين شعرية قاسم من جهة وشعرية مجنون ليلي (وهي شعرية تتجاوز الشعر المنسوب إلى هذه الشخصية لتشمل الكثير من أخباره وحكاياته التي حولت هنا إلى مقاطع وعناصر إبداعية في نص قاسم هذا).

٢ - ٢

### خبر قيس في شعر قاسم

يتنوّى نص الأخبار هذا بمقطع شعري يمتد في ثلاث صفحات (١١، ١٢، ١٣) مطلعته جملة «سأقول عن قيس» «التي تتكرر أربع مرات في المقطع مفصولة دائماً عما بعدها بنقطة (علامة) دالة على استقلاليتها النسيبة. من هذا المنظور يمكن قراءة هذه الجملة باعتبار علاقاتها بالعنوان العام للنص وباعتبار علاقاتها مع المقاطع الشعرية التي تليها، مما يشير إلى أن عمليات الاتصال والانفصال المشار إليها أعلاه معقدة أو مركبة في هذا المقطع وفي مجمل النص.

فالمفترض المتوقع من العنوان العام للنص، وهو تسميته وعتبة الدخول إليه كما يرى جبرار جينيت، أن يسند الخبر عن قيس إلى الرواة والمدونين باعتباره من كتب مجمل المدونة الأدبية والمعرفية والتاريخية التي ترد فيها حكاية هذه الشخصية الشعرية الملتبسة. لكن هذا التوقع ينكسر أو يمحى ليحل محله توقعات جديدة ومفاجئة للقارئ، أول أسبابها ومولداتها تتمثل في عودة «الاسم العلم» وغياب الصفة الطارئة أو التسمية اللاحقة «مجنون» التي ترد في العنوان. ففي هذه العودة أو «الاستعادة» ما يوحي بتركيز المؤلف - الشاعر الحديث على هوية قيس التي لا تتحدد بـ «الجنون» أو بعناصر الشخصية القاعدية (عائلته - قبيلته - لغته - معتقده... إلخ) وإنما بإبداعه أو «شعرية» التي هي ما يهم «الشاعر - المؤلف» الحديث، كما تصرّح به الجملة الشعرية التالية بأكثر من صيغة:

الألا عيب الكتايبية التقنية والجمالية التي لم يكف عنها الشاعر ولا هي كفت عن إغوائه، وهو المسكون أبداً بهاجس المحو والتشكيل والتناسي أو «التجاوز» المتصل لذاته ولغيره.

وفي نهاية هذه الفقرة من المداخل النظرية، لعل من الضروري الإشارة إلى أن لعبة المقاربة النقدية لن تتجه إلى تحليل اللغة الشعرية ولا إلى كشف وتحديد مجمل النوى الدلالية في النص، وإنما ستوجه أساساً إلى لعبة «تشكيل الشكل العام» لهذا النص المتعدد والمفتوح والمتنيس مبني ومعنى، كما سنحاول إيضاحه في الفقرات التالية، قدر الممكن.

### ٢ - التأسيس - المنطلق

٢ - ١

تكشف القراءة النقدية الوصفية - التحليلية للمقاطع الثلاثة الأولى من «أخبار مجنون ليلي» عن أعم وأهم مظاهر ودلالات لعبة المحو والتشكيل المؤسسة لعملية الكتابة الإبداعية هنا، إذ إنها تتكرر في بقية المقاطع وبالطريقة نفسها تقريباً. هذا تحديداً ما يبرر التعامل مع هذه المظاهر البنائية والدلالية باعتبارها مؤشراً قوياً دالاً على مرحلة «التأسيس» التي تنهض عليها أو تنبثق عنها الكتابة في هذا النص. ولكي تتحقق للمقاربة النقدية الأولية هذه بعض شروط التماسك النظري والإجرائي، اخترنا التركيز على أشكال «الاتصال» و«الانفصال» في العلاقات بين العنوان العام للنص وهذه المقاطع من جهة، ومن جهة أخرى بين التسميات العامة المعروفة للشخص التي تتعلق بها «الأخبار» والتسميات التي يتدعها أو يعيد صوغها الكاتب في نصه الخاص بطريقته الخاصة لتصبح هي ذاتها «أسماؤه» وأخباره الخاصة به، بأكثر من معنى، كما سنرى. فالاستراتيجية العامة للكتابة، كما تتجلى في هذه المقاطع الاستهلالية، تكشف عن علاقات توتر تعارضى أو تناقضى بين أخبار القدماء عن «مجنون ليلي» وطريقة الإخبار ذاتها بين أخباره وإخبار قاسم عنه. كما تكشف عن علاقات توتر إغوائى واستهوائى مزدوج أو مضاعف. يظهر هذا التوتر في مستوى العلاقة بين ما يخفيه ويغيبه الخبر القديم وما تعمل الكتابة الحديثة على إظهاره

سأقول عن قيس .

عن هوى يسكن النار، عن شاعر

صاغنى فى هواه

عن اللون والاسم والرائحة

عن الختم والفاخرة ..

(ص ١١)

- عن اللون والاسم والرائحة

- عن الختم والفاخرة

- عن جنة بين عيني ضاعت

- عن هواه أسعف الطير

- عن كلما هم بى تهت

- عن العشق يلتاع فيه الحجاز ويشغف

ضفتيه الخليج ... إلخ.

(ص ١١، ١٢)

فجعل القول «عن قيس» يتحول هنا إلى فعل إنجاز لغوى - شعري «تواجد» فيه الذاتان المبدعتان، وأضع كلمة «التواجد» بين معقوفتين لأشير إلى أن دلالاتها تفيض عن مجرد الحضور المشترك فى ذات الفضاء اللغوى - الإبداعى لتشمل معنى البث والإفشاء والبوح الوجدانى بين ذات تلهم الأخرى، فلا تلبث هذه أن تتقمصها وترجم عنها هذا تحديدا ما يبرر محو الاسم العلم من جملة لأخرى، ليستبدل به هذه السلسلة الطويلة من التسميات الاستعارية التى تقبل الإحالة إلى اسم «قيس» مثلما تقبل الإحالة إلى اسم «قاسم» من حيث هو مؤلف ينجز القول الشعرى بطريقته الخاصة وبما يتفق مع رؤيته الخاصة. فقيس الاسم العلم الدال على حقيقة من حيث هو كيان أنثروبولوجى أو شخص تاريخى أو اجتماعى لم تعد له أهمية لانقطاع وجوده العينى من جهة ولنشأت و«ضياح» خبره بين الرواة والروايات من جهة أخرى. أما قيس الشاعر المبدع، فهو حاضِر كملهم وحاضِر كآثر وحاضِر كرمز وحاضِر كقناع، وبالتالي فلا غرابة أن يتحقق حضوره حتى بالمعنى «الحسى» فيكون «اللون» الذى يرى ويؤثر و«الاسم» الذى ينطق فيسمع ويعقل و«الرائحة» التى تشم وتستطاب، لأنه النهاية أو «الخاتمة» والأصل أو «الفاخرة» كما يقول عنه الشاعر/ المؤلف.

وتكتمل علاقات الحضور والتواجد بين الاسمين فى الجملتين الأخيرتين؛ حيث يتخذ الاتحاد والتماهى بينهما دلالة جديدة أكثر تحديداً :

هنا يظهر جلياً أن قاسما الشاعر يحكى «مباشرة» عن قيس باعتباره أحد أسلافه، من غير أن يتصل به عبر «الخبر» الذى رواه ودوّنه الرواة والمدونون من غير المبدعين، بل فى سياق الأثر الإبداعى، أو الكتابة الشعرية، التى هى أثرهما المشترك القديم والمتصل بمعنى ما. هكذا تتضمن الجملة الاستهلالية «سأقول عن قيس» دلالة القرار بالقطع والانفصال عن أخبار ذلك الشخص «المجرب» كما حفظتها المدونات التراثية مثلما تتضمن دلالة الرمز والاتحاد بذلك الاسم - الرمز الذى تحول إلى «هوى» يسكن نار الإبداع ويذكيها وإلى «شاعر» يستهوى الشاعر الحدث ويصوغه فى هواه، وكأنما علاقات الاستهواء والتماهى هى وحدها ما يليق بهاتين الذاتين المبدعتين. فالشاعر يحدث أنبا يقول ويكتب عن «قيسه - ذاته»، دونما وسيط، نوعيه بأن «الزمن الذى يخرب القصور والمعارف إذ يمر عابها هو ذاته الذى يحفظ وينمى الطاقة الإغوائية للشعر والشعراء»، كما يقول بورخيس (حينما يستعيد أثرأ شعريا لرهير من أبى سلمى فى سياق قصته بعنوان «بحث ابن رشد»).

من هذا المنظور الإبداعى - الفكرى تتحول الجملة الاستهلالية السابقة إلى جملة شعرية «أسيسية»، إذ تتكرر الصيغة النحوية - الدلالية أربع مرات ونحدد مظهر البنية الشكلية العامة للمقطع الشعرى (وهو رباعى). كلما تولد فى عموم المقطع سبع عشرة جملة لها ذات السية النحوية المكونة من الجار والمجرور، وكلها تعزز وتوغل بدلالاتها الاستعارية المختلفة علاقات الاتصال والاتحاد أو التماهى بين الذاتين المبدعتين .

- عن هوى يسكن النار

- عن شاعر صاغنى فى هواه

ويا قيس يا قيس جنتنتي أو جنتنت

كلانا دم ساهر في بقايا القصيدة

فالنداء هنا يدل ظاهراً على البعد أو الانفصال لكنه يدل في العمق، أو، باعتبار لازم القول الشعري، على القرب أو الاتصال؛ لأن تكرار صيغة النداء يؤكد ذلك «التواجد» المشار إليه أعلاه. فالشاعر المحدث يعمل منذ بدء المقطع على ترهين وتحمين أبقي وأجمل ما في سلفه القديم، وبالتالي يتكرر التأكيد بصيغة أخرى في نهاية الجملة الأخيرة ويتخصص معنى ووظيفة الحضور بأنه من أجل إنجاز أو إنقاذ «بقايا» تلك القصيدة المشتركة التي تصيح «الأثر الأبقى» أو «الأثر الجمالي» المحترق لحدود الزمان والمكان والخارق لمنطق اللغة ولمواصفاتها المادية.

## ٢ - ٣ - خبر قيس في نثر قاسم

في البدء بمقطع شعري ما يدل على أن سياق الكتابة عن «مجنون ليلى» هو المدونة الشعرية لا المدونة المعرفية، الأدبية أو التاريخية، وبالتالي فإن عمليات الترهين والتحمين لقيس الفنان المبدع ولأثره الإبداعي الجمالي هي في أساس لعبة الكتابة ومبتدئها. هذا ما اختاره وقرره قاسم الذي ما إن اتصل بقيس حتى فتته وجنته و «صاغه في هواه»؛ وبالتالي كان لابد له أن يعيد صوغ وتشكيل مسيرته الشعرية كأنها سيرته الخاصة. من هنا ما إن ينتقل من المقطع الشعري إلى المقطع «السردى النثرى» حتى تتخذ لعبة المحو والتشكيل هيئة اللعبة الواضحة المكشوفة؛ لأن من طبيعة الكتابة النثرية الكشف عن المقاصد والغايات والإجراءات كما نعلم. فالأخبار القديمة تستدرج في النص الحديث ليخلخل وينقض ويشتت بعضها البعض الآخر، مرة من «داخل» المتن السردى ذاته ومرة من «خارجه» أو هامشه، كما سنرى.

فالجملة الاستهلاكية في هذا المقطع تبدأ هكذا:

هو قيس، وهو معاذ بن كليب، وهو الأقرع بن معاذ، وهو المهدي، وقيل اسمه قيس بن الملوح من بني عامر، ولما سئلت عنه بطون بني عامر بطناً بطناً أنكروته وقالت «باطل وهيهات»، ثم قيل إنه لا أحد. (ص ١٤).

فمن الواضح أن المؤلف لا يفعل هنا أكثر من جمع وتأليف الأخبار من مصادر شتى لينظمها في جملة واحدة تشتت المعلومة في كل جزئية؛ بحيث تفقد الجزئيات كلها أية قدرة على التدليل. بصيغة أكثر معرفية يمكن القول بأن علاقات الترابط النحوية بين جزئيات الجمل الاسمية المعطوف بعضها على بعض بالواو لا يقابلها في المستوى الدلالي المنطقي أية علاقات انسجام. هذا تحديداً ما يكشف عن مرامي لعبة الكتابة التي تعمدت إسقاط القيمة والوظيفة الإخبارية «المعلوماتية» عن الجملة لتعزيز مظاهر القيمة والوظيفة الجمالية للجملة ذاتها باعتبارها مبنية أو مشكلة وفق مبدأ المحاكاة النقدية الساخرة أو «البارودية».

فالكاتب لا يستخدم عبارة «قيل عن قيس أنه» التي يمكن أن تقابل «سأقول عن قيس» في المقطع الشعري السابق، بل يبدأ بجملة اسمية مفيدة للتوكيد ثم يعطف عليها سلسلة من الجمل المماثلة تؤكد كل منها شيئاً آخر، فتتحوّل الجملة اللاحقة الجملة السابقة وتتفجر دلالة المفارقة في الجملة العامة من طريقة وأسلوب الصوغ والنظم فحسب. كما أن هذه المفارقة تتعمز وتكتسب دلالات أخرى في الجملة الثانية المعطوفة هي ذاتها على الأولى بالواو، رغم أنها تنفى آخر ما تعلته من انتساب قيس إلى «بطن من بطون بني عامر». هنا تبلغ المفارقة الساخرة ذروتها الدلالية والجمالية لا من تعاقب التوكيد والنفي فحسب، وإنما من تكرار التوكيد اللفظي بطناً بطناً، لما في هذه التسمية القبلية «التقليدية» من مفارقة في سياق الكتابة الحديثة والفكر الحديث والرؤية الحديثة للإنسان والعالم. كما أن نفى تلك «البطون» لانتماء قيس الشاعر المبدع إليها ما يعيد ذلك الإشكال الذي حكم ووجه علاقات الشاعر العربي بالقبيلة؛ إذ ما إن يخرج عن عاداتها وقيمها ومثلها وسلطانها حتى تنفيه إلى هامش «الصلب» أو إلى متاهة «الجنون» وهو ما حدث لقيس. من هنا ينكشف أساس آخر للعبة الكتابة التي تقصدها وجربها قاسم في هذا النص بأكمله؛ وهو تحديداً هذا النفي المتضمن في عبارة «ثم قيل إنه لا أحد». فالنفي في مثل هذا السياق الإبداعي / اللعبي يتضمن بالضرورة نفيه فيكون «اللا أحد» هذا «كل أحد» أي كل مبدع يتجرأ على خرق المنظومات،

اللغوية والاجتماعية والفكرية، السائدة، وبهذا يتحول قيس من مجرد شاعر إلى «أسطورة» بل إلى ذات مطلقة متحررة من كل قيد ومجازة أى نفى أو إثبات

هكذا يتضح أن خلخلة الخبر القديم ونقضه وتشتيته لم تكن تهدف إلى إثبات «حقيقة» قيس بقدر ما كانت تعمل على ترهين وتحجيم وفتح أو إطلاق أسطوره لأنها إحدى الأساطير المؤسسة والمحايطة لكل إبداع متفرد حقاً.

فالنفي لحقيقة قيس أو لوجود قيس حقيقى «هناك» و«أنداك» يتضمن بالضرورة تحرير قيس الأسطورة من وطأة كل خبر وقيد وكل مصدر وكل مدونة، ليحضر أو يستحضر فى الأثر ومدونته الإبداعية، كما يشتهى ويريد مؤلف النص الحديث المتوضع فى «الآن» و«هنا».

وتتنوع وتتعزز معانى حضور قيس الأسطورة المفتوحة على كل الأزمنة والأمكنة عندما يستحضر الكاتب - الشاعر المحدث صوت سلفه وقرينه، ليقول عن ذاته فى هامش المتن السردى:

ولى ألف وجه قد عرفت

طريقه

ولكن بلا قلب إلى أين أذهب" (ص ١٤)

فإعادة تدوين وتشكيل البيت بهذه الطريقة، وفى هذا الموضع، هى جزء من عمليات التأسيس للعبة الكتابة فى مجمل النص المرن أو الحجين، إذ تتكرر فى كل المقاطع المماثلة اللاحقة، وبالتالي يحسن المتوقف عند أبرز وأهم سماتها الجمالية أو الفكرية، من هذا المنظور لاشك أن طريقة الصوغ والتشكيل توحى هنا بنوع من «الاحتفالية» التى تكشف عن علاقات الاستهواء والتماهى بين المبدع الحديث وسلفه أو قرينه المبدع القديم أو «الأصلى». هذه الاحتفالية تتأكد بمجرد المقابلة بين طريقة الصوغ والتشكيل هذه وطريقة صوغ وتشكيل أخبار الرواة والمدونين التى رأينا كيف تحولت إلى موضوع أو مجال للعبة المحو الساخرة التهامية النقدية النقضية التشتيتية. كما أن هذه الاحتفالية تتكرس وتأخذ بعداً جديداً إذ نتذكر أن هذا النص الشعرى يدعم فى

الوقت نفسه فراغية الخبر السردى ويكشف عن هشاشة «قيس الحقيقية» فى المدونة المعرفية وعن تلك القوة الخارقة لقيس الأسطورة فى المدونة الشعرية. ولهذا كله تنقلب تراتبية العلاقة بين «المتن» و«الهامش»، لأن نص الهامش يظهر كأنه الأهم والأعمق فكراً، فضلاً عن كونه «الأجمل» باعتبار شعرية الأصلية وباعتبار شعرية المتولدة عن إعادة رسمه وتشكيله بهذه الطريقة الجديدة أو «الحديثة» الكاشفة عن وعى عميق بأهمية المظهر البصرى للبيت، ولجمال النص الذى يرد فيه بوصفه جزءاً من أجزائه.

وأخيراً، لابد أن البعد الاحتفالى إنما هو فى العمق احتفال بنص الذات، وبالمقاطع الشعرية منه على وجه التحديد والتخصيص، ذلك لأن الاحتفالية هى ذاتها بعد أساس وتأسيس فى أية كتابة إبداعية متولدة ومعبرة عن الرؤية الحلمية - الأسطورية التى يتمنى كل مبدع وكل إبداع، بهذا المعنى لما أجاز لقاسم أن يقول، فى هذا البيت وغيره، عن قاسم لأن الصوت واحد وإن تنوع، والاسم واحد وإن تعدد، والخطاب واحد وإن اختلفت أشكاله، والمدونة الشعرية مشتركة وإن حضر فيها كل مبدع بنصه الخاص وبإضافته الإبداعية الخاصة التى تحمل بالضرورة توقيعه الخاص.

## ٢ - ٤ خبر ليلى فى نص قيس وقاسم

تخضر ليلى فى هذه الكتابة الشعرية - السردية كما يليق بها فى مدونة لم تشارك فى إنجازها، لكنها لم تكتب إلا عنها ولها باعتبارها اسم الرغبة المتمذرة والحلم الممكن. ولعل أولى وأعم مظاهر ودلالات الحضور لهذا الاسم منبثقة عن غيابه وتغييبه فى مجمل المدونة الثقافية الرسمية التقليدية، بحيث لا يحضر أو يستحضر فى المدونة غير الرسمية، والإبداعية أساساً، إلا ضد ذلك الغياب أو التغييب.

من هذا المنظور، ما إن نقرأ عنوان النص الراهن حتى نتكشف أبعاد جديدة للتوترات التى تؤسس للعبة الكتابة وتعمل على ترهينها بقدر ما ترهن وتعيد طرح إشكال المرأة فى مجمل الثقافة الرسمية الأبوية الذكورية والقبلية. فتسمية «مجنون ليلى» من المنظور التقليدى تلحق القيمة السلبية فى الكائن - الرجل بالمرأة، أى «الجنون» بسببه وعلته ومصدره،



عن الرمانة الكسلى

عن الفتوى التى سرت لى التشبيه

بالقند

عن البدوية العينين والناارين والخد (ص ١٦)

ففى هذه الجملة والمقطع الجزئى تنزل ليلى إلى مرتبة الموضوع الشهى للملذات الحسية الأكثر عادية وحقيقية و«جسدية»، ولا نجد أية صعوبة فى تحديد هذه الدلالة المنبثقة من هذه التمثيلات الاستعمالية «العادية» فى شعريتها لأنها تكشف أكثر مما تشف وتصرح أكثر مما تلمح. الصعوبة الحقيقية يمكن أن تأتى من هذه السهولة إذا ما عرفنا شعرية قاسم بمثل هذه الأقاويل التى يفيض بها الشق الحسى الشهوى من المدونات الشعرية الغزلية منذ عمر بن أبى ربيعة إلى نزار قباني. وإذا ما نسينا لعبة المحو والتشكيل التى تؤسس للكتابة الشعرية والسردية فى هذا النص، سنجد أنفسنا أمام تنوعات غريبة تتمثل فى هذا المقطع وفى العديد من المقاطع النظرية المتمركزة حول الرغبة الحسية مثلها. من هنا، ما إن نعود إلى تلك اللعبة حتى نكتشف أن قيمة هذه المقاطع لا تكمن فى شعريتها بقدر ما تكمن فى «وظيفتها» فى سياق علاقات التوتر التعارضى والتناقضى بين الكتابة الحديثة عموماً والكتابة أو الثقافة التراثية التقليدية عموماً. فإذا كانت هذه الثقافة اعتادت التكرار لطبيعة الحب ومارست قمع المحبين ونأست على تغييب وتهميش المرأة فإن هذه التمثيلات والمقاصع تأتى صريحة عارية لشعرى خطاب تلك الثقافة ولتكتشف أن حرية وحقوق الجسد من منظور الفكر والإبداع الحديث هى جزئية جوهرية من حرية وحقوق الكائن الإنسان، رجلاً كان أو امرأة، عادياً كان أو مبدعاً. هكذا تتجه عملية المحو والتشكيل هنا إلى ما يمكن أن نسميه بالمحتوى الفكركى - الإيديولوجى الذى قد لا يتطلب لعبة صوغ وتشكيل متطورة قد تغطى على «الإشكال» وتحيله إلى العتامة الشعرية فيغيب البعد المأسوى فيه.

هكذا يأتى المقطع الثانى لتتحول «ليلى» من موضوع

للذة إلى تسمية للمعاناة الجماعية المنبثقة من ذلك الإشكال المأساوى:

وهو هنا «ليلى» المرأة الفتانة بطبيعتها. فمحو الاسم العلم ومحو علاقات الانتساب إلى الأب أو القبيلة هى - من هذا المنظور - ضمن إجراءات النفى والتغريب التى لا بد أن يتعرض لها أى «رجل» يسلم قلبه وعقله للمرأة، خصوصاً إن كان «شاعراً» لأن شعرته تفضح أمن المؤسسة والسلطة القبلية وأمرهما على أوسع نطاق تداولى، لما فى الشعر من قابلية للحفظ والانتشار، ولما فيه من طاقة إغوائية استهوائية.

لكن قراءة هذا العنوان ذاته فى علاقاته بالنص الحديث هذا تكشف عن لعبة مضادة تماماً وعن وعى فكرى وإبداعى يقطع بحسده مع أشكال الوعى الفكركى والإبداعى «التقليدى»، سواء كان قديماً أو معاصراً. فهذا العنوان يصبح هنا من اختيار قاسم، وعليه فإنه جزء من استراتيجية الخلخلة والنقض والنفى والتجاوز لنظام التسمية فى اللغة والثقافة التقليدية، ثم إن الاحتفال بقيس الشاعر وبنصه الشعرى وبالمدونة الإبداعية التى ينتظم فيها ذلك النص والنص الراهن لا بد أن يشمل هذا الاسم الحاضر فى المركز من شعرية قيس ومن كل شعرية تتصل بها، قديمة كانت أو حديثة، فهو اسم الجمال الفتان والملمهم، وبالتالي لا غرابة أن ينتسب إليه كل قيس.

هكذا تخضر «ليلى» بعد العنوان فى المقطع الشعرى الثانى فى النص، وهو يمتد فى ثلاث صفحات مثله مثل المقطع الأول «عن قيس» (ص ص ١٦، ١٧، ٢٠) كما أنه مثله يبنى على الطريقة نفسها ويصاغ بالشكل المتولد نفسه عن الجملة الاستهلالية - التأسيسية «ساقول عن ليلى». وجه الاختلاف يظهر هنا من كون «ليلى» ليست شاعرة مبدعة وإنما امرأة جميلة عادية حولها شعر قيس إلى امرأة غير عادية وجميلة بشكل مطلق، أى إلى رمز وإلى أسطورة، وهذا ما يحاول وينجزه قاسم من بعده، على مراحل، معبراً عن فنتته الخاصة بـ«ليلاه» الخاصة.

ففى المرحلة الأولى من عملية الاستحضار كما نظهر فى الجملة الشعرية الأولى نقرأ:

ساقول عن ليلى

عن العسل الذى يرتاح فى غنجد على الزند



ساقول عن ليلي

عن القتلى. وعن دمنا الذى هدروا

عن الوحش الصديق وفتنة العشاق

والليل الذى يسعى له السهر (ص ١٧)

فقسام هنا يتحدث عن قيس وعن ذاته وعن كل مبدع يفتنه الحلم والمثال الذى ما إن ينزل إلى مرتبة الواقع المتحقق حتى يفقد فنتته فلا يعود مصدرا للإلهام أو مجالا للإبداع، كأن نار الشهوة غير نار الإبداع، فلا تتحقق وتطفأ الأولى حتى تطفئ الثانية، كما فى حكاية وأسطورة بجماليون الشهيرة.

### ٣ - الاستطارد - التحول

٣ - ١

بعد المقاطع الثلاثة الأولى، وهى مكونة من مقطع شعري عن قيس وآخر عن ليلي يفصل ويصل بينهما مقطع سردي كما رأينا، تتصل عملية الكتابة فى شكل مقاطع سردية متعاقبة لا يفصل بينها سوى مقطع شعري واحد قصير يحكى خبر قيس الشاعر العاشق الداهل عن ذاته وأشياء وألمه، مثله مثل أية ذات مبدعة اتخذت من النص الإبداعي عالما بديلا عن كل عالم (ص ٤١).

ورغم أن اتصال الكتابة، بهذا الشكل، قد يوهم بحدوث تغيير جوهري فى استراتيجيتها التأسيسية التى كشفنا عن أبرز مظاهرها ودلائلها فى المقاربة الأولية السابقة، فإن القراءة النقدية المعمقة تكشف أن الأمر ليس أكثر من استطارد وتكرار وتنويع ينطلق من تلك الاستراتيجيات فى أعم مظاهرها وأهمها. فنحن هنا أمام نص إبداعي ينهض فيه الاستطارد والتكرار بالوظيفة ذاتها التى - ينهض بها «التراكم» فى سياق الخطاب المعرفي، إذ إنه يفضي ولا بد إلى «تحول» يأخذ معنى أو دلالة خاصة، كما سنراه فى فقرة لاحقة من هذه القراءة.

من هذا المنظور، يمكن التوقف عند ثلاثة مظاهر لهذا الاستطارد التكراري التنويعي تذكر بما سبق أن توصلت إليه الفقرة السابقة ونمهد لما يتعين كشفه فى هذه الفقرة.

فمن حيث علاقات النص الحديث بالأخبار التقليدية القديمة، تتصل علاقات التلقى التناقضي بكل ما تتضمنه وتفرضه من فعاليات الخلخلة والنقض والتشتيت. وهى فعاليات تبلغ ذروتها الأدبية والفكرية بفضل تكرار اللعبة الأسلوبية

فنص اللذة المشتهاة الممنوعة والمحرمة هناك يقابله نص المعاناة والحرمان الواقع والمتاح هنا، ويليى الشهية تلك تقابلها ليلي الضحية هذه، وفى كلا المقطعين لا يتعلق الأمر باللذة أو المعاناة المأساوية الفردية أو الذاتية وإنما بما هو جماعي وعام فى المقامين لأن «ليلى» هنا مثلها مثل قيس، تحولت إلى اسم رمزي منفتح ومنطلق الدلالة.

فلعبة الكتابة مؤسسة على شكل من أشكال التباعد عن موقع وموقف «الشاعر العالم» والتقارب من موقع وموقف «النائر الواعي» الذى يحدد ويعلن رأيه وخياره الفكري - الإيديولوجي الرافض والمنفرد للمنظومات والسلطات والمؤسسات التى تقمع الرعة لدى المدعين، كقيس وأمثاله، أو لدى الناس العاديين، أمثال ليلي البدوية والجميلة الشبيهة تلك. وسنرى لاحقا أن هذا التوجه ما إن ينتقل من مجال القول الشعري إلى مجال القول النثري السردى حتى يتحول إلى نوع من خطاب الأدب الرغبوي المكشوف، وكأن شهوة الفضح والكشف لابد أن تكون من الصراحة و«العنف» بحيث تعادل سلسلة الكبت والتمنع، إذ لا توسط هنا ولا فى أى علاقة عطف ماثلة. أما الآن فنكتفى بالإشارة إلى أن لعبة الكتابة هى فى الأساس والغاية لعبة كتابة إبداعية لافكرية أو إيديولوجية. وبالتالي فإن الكاتب - المؤلف يعود فى نهاية هذا المقطع إلى موقع وموقف الذات المبدعة التى تشغل بليلى الحلم والنص أكثر مما تشغل بليلى الرغبة والواقع. من هنا يختتم المقطع بجملة تعبر عن لذة الفقد والجنون والموت فى المقام الشعري وفى سياق علاقات المحبة لا فى سياق علاقات الرغبة والشهوة

ليلاى لو يدها على. ولو يديى منذورة تهب  
الرسولا

ساقول عنها ما يقال عن الجنون إذا جننت

ولى عذرا إذا بالغت فى موتى قليلا (ص ٢٠)

البيولوجية وإما عن «الحبة» بوصفها عاطفة لا يمكن إسنادها إلى أية مرجعية معرفية أو علمية دقيقة لأنها ناتجة عن «تساكل وتآلف الأرواح»، كما يقال أو كما يقول قاسم عن قيس:

تعلق روحى روحها قبل خلقنا  
ومن بعد أن كنا نطافا وفي المهد  
فعاش كما عشنا فأصبح ناميا

وليس وإن متنا بمتقصف العهد (ص ١٥)

أشرنا في فقرة سابقة إلى أن لعبة قاسم في هذا المستوى هي في أساسها محكومة وموجهة بالموقف الفكري والإيديولوجي الذي تتحول معه عمليات المحو والتشكيل إلى عمليات كشف وفصح، فيها من الصرامة والصرامة قدر ما فيها من القوة والعنف المضاد للموقف الفكري والإيديولوجي التقليدي.

هذا يستعيد من الأخبار القديمة ذاتها ما يمكن توجيهه هذه الوجهة:

ويرى أن قيسا حكى فقال عند «غدير الوادين  
نورد الغنم وتزاحم على المورد بمرح صاحب ..  
فصادف أن قاربتها فتلامسنا، ومس كسفى  
صدرها، ولم يكن بعد قد أكعب ولا استنهد ولا  
استدار، لكننى شمعت ساعتها بخيط رهيف من  
البرق يجتاح أعضائى ورأيتها تختلج وتتصاعد  
منها شبه نحيب كمن مسه الهلع. (ص ٢٢).

ثم يتدخل مباشرة فيعلق في مقطع آخر على الأخبار القديمة ذاتها قائلا:

مما يستشف من نفث الأخبار .. أن قيسا لم  
يكف عن ليلى بعد الزواج ولاهى عفت عنه،  
فكانت تستقبله في غياب زوجها حيناً وتطير إليه  
في القفر أو الجبل حيناً آخر. (ص ٤٢)

يتدخل صوت ليلى في حفلة الاعتراف والمكاشفات  
في نص الرغبة هذا عبر الخبر عن إحدى ليلالى المتعة تلك  
نفراً:

التشكيلية ذاتها، أعنى المفارقة أو المحاكاة النقدية الساخرة أو الباروديا، ومن حيث علاقات الشعرى بالسردى تبقى النصوص الشعرية الغيرية، أى المنسوبة إلى قيس في الهامش، لكنها تكثر من حيث الكم مما يعزز من فعاليتها النقضية الشعرية التي تنتمى إليها مثلما ينتمى إليها نص قاسم هذا ومجمل تجربته الإبداعية. أما النصوص الذاتية، فلا تعود مستقلة بفضائها الخاص - عدا ذلك المقطع الوحيد المشار إليه أعلاه - لأنها تقم وتدمج في النص السردى لتتموضع فيه ملفنة كل الحدود الحاسمة بين النثرى والشعرى بالمعاني السائدة. هذه النصوص، أو المقاطع بالأصح، هي ذاتها ما يرتقى جماليا بالنص في مجمله، كما أنها هي ذاتها ما يفضى إلى «التحول» به إلى مستوى التجربة الإبداعية التي تضيف إلى تجربة قاسم الشعرية الخاصة وإلى التجربة الإبداعية الحديثة عامة، بل إلى المدونة الشعرية العربية بشكل أعم. وتؤكد هذه الوظيفة أو «القيمة» التحويلية - بمعنى التطور والتجاوز - من خلال استثمار المؤلف الشاعر كل الأشكال الشعرية الحديثة، من التفعيلية والمدورة والنثرية، بحيث يخرجها عن تشكيلاتها المهود السائدة اليوم ويدخلها في أفق التجربة الإبداعية «الجديدة»، كما سنتبين في آخر فقرة من هذه المقاربة.

وبما أن بقية النص هنا تتصل في شكل كتابة سردية - كما رأينا - فقد اخترنا، انسجاماً مع لعبة الكتابة، تتبع اتصال وتحول عمليات المحو والتشكيل في مستوى مظاهر «التساكل» التيماتية - الدلالية، وذلك من خلال التمييز الإجرائي بين «نص الرغبة» في اتصاله «بنص المجدد» و «نص الجنون» بـ «نص العقل» و «نص الوجدان» في اتصاله بـ «نص الروح»، حيث تبلغ عملية المحو ذروتها فتطال الذات الفردية المبدعة ذاتها، كما ستحاول القراءة في الفقرة التالية بيانه وكشفه، قدر الممكن.

### ٣ - ٢: نص الرغبة - نص الحبة

هناك مقاطع عديدة، شعرية وسردية ترد في المتن كما في الهامش، يمكن الجمع بينها باعتبارها تمثل عينة متساكلة لتمحورها حول قيمة الرغبة أو موضوعيتها بوصفها حقيقة حسية جسدية أولية وأساسية متولدة إما عن «الحاجة»

وتزيد تناقضات الخبر ومرجعياته الفقهية إذ يختلق المؤلف وينسج على منواله خبرا يقول:

يروى أن قيسا كان يختلف إلى فقيه يقال له «كلام بن وحش» يستفتيه .. فى ما يزعمون بأن علاقتهما ضرب من الزنى فقال له «الزنى هو بذل جسدك لمن لا تحب أما إذا العشق حصل والشوق اتصل فلا زنى فيما قدر الله»، وقيل إن «كلاما» مال على قيس وأسرله «يابنى اعشق ما تيسر لك وتمتع بما تسنى ولا تطفئ جذوة العشق بالعرس ما استطعت». قيل فلم يفعل المجنون غير ذلك. (ص ٧٧).

فهذه المقاطع، وغيرها من أمثالها، وهى ليست كثيرة بحيث تطفئ على النص، يتم صوغها وتشكيلها وإعلانها بطرق متعددة، لكنها كلها تتمحور حول الرغبة الشهوية الجسدية التى كان ينشدها وينالها «قيس» و «ليلى» باعتبارهما شخصيتين عاديتين لم يمنعهما العائق الاجتماعى والأخلاقي والدينى من تحقيق معانى المحبة الأكثر عادية و«طبيعية». من هنا تتجه لعبة المحو فيها إلى الإلغاء أو التحييد المؤقت لشخصية «قيس» الشاعر فيقدم على أنه «رجل» فى مقابل «ليلى» المرأة البدوية الجميلة الشبيهة و«الشهوانية» فى الوقت نفسه. لكن هذه اللعبة تتجه وتوجه أساساً إلى خلخلة وتقويض وتجاوز منظومات القيم الأخلاقية الفكرية والإيديولوجية السائدة وكشف جوانب العنف فيها وما يمكن أن يولده من عنف مضاد يتجلى أو يتخفى بحسب وضعيات علاقة القوة بين السلطة والمؤسسة الاجتماعية - الثقافية من جهة والأفراد المتمردين عليها والرافضين لها من جهة أخرى. هنا تحديداً تتكشف لنص الرغبة أبعاد ووظائف تتجاوز دلالاته الظاهرة، إذ إن تعديد الأخبار والمصادر التى تتمثل فى هذا النص الرغوى إنما يدل فى العمق من وعى الكاتب بأن هناك إشكالاً لم يزل فى حيز المهمل والمسكوت عنه والممنوع التفكير فيه، وبالتالي يعبر عن حضورها بطريقة ملتوية ماثلة فى الهذيان الجماعى الذى يستثمر حكاية «قيس وليلى» للتعبير عن ذاته.

وروى عن جارة لها سألتها عن تلك الليلة فقالت: «والله إنها لليلة تجل عن الوصف». فلما استزادتها زادت «لعمرى ما اشتملت النساء على رجل مثله قط». (ص ٤٢)

أما رواية الأثر الشعرى فقد أسعفه بيتين هما التثنية ذاته، جمالياً ودلالياً، فى الشعر العذرى من المدونة الشعرية الغزلية هما قول قيس :

فإن كان فيكم بعل ليلى فإبنى

وذى العرش قد قبلت فإها ثمانيا

وأشهد عند الله أنى رأيتها

وعشرون منها إصبعا من ورائها

(ص ٧٢).

ويتعزز خبر هذين البيتين الركيكين الفاضحين بتعليق لراو حديث يمعن فى لعبة الفضح والكشف إذ يقول:

وما علينا إلا أن نتخيل العشرين إصبعا من ليلى مشتبكة فى ظهر قيس وهى متعلقة به قبلاً فى حضنها، لنذكر أنهما ما كانا يزجيان الوقت فى البكاء كلما سنحت الفرصة، مثلما تحاول الروايات المتواترة أن تزعم لنا. (ص ٧٥)

وتتصل اللعبة على لسان المؤلف الراوى إذ يجاور خبر الرواة ومرجعياته الفقهية قائلا:

واستكر بعضهم الذهاب إلى هذا المعنى واعتبروه مسا بالحرم وتباعداً عما يشيع فى شعر المجنون. وحين يقال لهم «وما المقصود بالحرم يا سادة» يحتجون بما ذكره ابن الجوزى فى أخباره عن النساء حيث «زعم بعضهم أن للعنيق من جسد العشيقة نصفها الأعلى من سرتها فما فوق ينال منه ما يشاء من ضم وتقبيل ورشف على أن يكون النصف الآخر للزوج، وهذا مما تمارف عليه عرب سبقوا الإسلام». (ص ٧٦)

الحب مع الرغبة، ويظهر فيه قياس قاسم وكأنه في دور «رسول المحبة»:

قيل إنه حين يفيض به الوجد وتدركه التجليات، يخرج في المضارب، يكشف أشعار الكوى في جوانب الخيام وخدور النساء، مناديا في بني عامر «ياغلظة الأكباد افتحوا كي يتخلل الحب قلوبكم وتنتابكم الرعدة البهية .. وسموا كل شئ باسمه وقولوا هو الحب لعلكم تنالونه وتقعون على نعمته وتستطعمون بعض ما أنا فيه، لكي لا يكون فكاك لكم ولا أنتم تبرأون». (ص ٤٣)

«حينما يعنى الآخر عن طبيعة المحبة وطبع المحب يدور الحوار فلا يتحقق منه إلا المزيد من الانفصال بين الطرفين. قيل له «إنما هي واحدة من النساء»، قال: «هل في النساء مثل هذا؟» قيل له: «وأكثر من هذا لو أردت، ويحبونك أيضا». فقال: «لكنني لا أحب غير ليلى فإنها الواحدة بينهم». وطفق مبتعداً عنهم متبرما «أقول لهم هي الشمس، لكنهم يعمهون عنها ويخلطون .. وكلما أشرت لهم أن انظروا إليها راحوا يحملقون في طرف الإصبع ولا يرون شيئا». (ص ٤٨).

أما الجسد فلا يحضر في مثل هذا السياق إلا باعتباره فضاء للمعاناة المزدوجة، مثله مثل النص الشعري:

«لم يكن جسدا، صديقه الحصن كان. وكان الجراح تتضح مثل ورد كلما وضعت يدها عليه، للحضن هذا الجسد وليس للقصف .. وأخذت نمر بأناملها على جسده كمن يقرأ كل هذه الجراح في جسد صغير إلى هذا الحد؟» فيقول «أنتظر أكثر من هذا وأقدر عليه لو أنك تصبرين على وتصفين لي» فسمع منها ما أوشك اليأس أن يمحوه من كتابه. (ص ٣٢).

أما نصوص الحب الشعرية المنسوبة إلى قيس فتتملأ الهوامش لأن قيسا كله، جسداً وخطاباً، استحلال وحول إلى

من هذا المنظور، لا تعود المقاطع المشكلة والمثلة النص أعلاه هدفاً في ذاتها، ولا تكمن قيمتها الوظيفية في ما تقوله وما تصرح به وإنما في ما تومئ إليه وتوحى به، مثلها مثل أية مقاطع أخرى في هذه الكتابة الإبداعية. فالكاتب يستحضر نص الرغبة ويحتفل به رغم أنه يمثل نشوءاً في تجربته الخاصة، كما في مجمل المدونة الشعرية التي تنتمى إليها شعرية قيس لأنه لا يريد أن يمارس عبر الكتابة قمع الجسد، في كتابة تتأسس على مبدأ الحرية الإبداعية والفكرية كما رأينا. فالرغبة هنا اسم من أسماء الحب العادي و«الطبيعي»، والتعبير عنها بالشعر العادي والنثر العادي هو الأمر الطبيعي بالنسبة إلى كتابة لا تخفي انحيازها إلى الإنسان بكل ما فيه من شهوات وعواطف وطاقات. ذلك لأن حرية وحقوق الجسد عنده، وفي مجمل الفكر الحديث الذي تتموضع فيه كتابته، هي جزء أساسي وجوهري من حرية الإنسان وحقوقه، بغض النظر عن التمييز بين المبدع وغير المبدع في هذا المستوى.

أما إذا تعلق الأمر بالحب كما يليق بالمبدع أن يعيش ويعبر عنه في إبداعه، فإن الرؤية تتغير، وبالتالي يتغير النص الذي ينشئ عنها، لأن مناط القول، والخطاب، هو تحقيق تلك «اللذة النادرة» التي ترد في أول مقطع شعري بوصفها إحدى التسميات الاستعارية - الشعرية لقيس المبدع والملمهم في الوقت ذاته. (ص ١٣).

كثيرة هي المقاطع التي يتألف منها «نص المحبة» وكثيرة هي أشكالها الخطائية، وأكثر من هذا كله إحياءاتها الدلالية، لأنها في مجملها مصروغة بأساليب أدبية ذات سمة شعرية بارزة. ولا غرابة في هذا، لأن الكتابة هنا تنتسب إلى الذات المبدعة وهي تحكي عن:

أول عاشق يكتشف هذه الكلمة (الحب)، وقيل اخترعها وذهبت في لغة العرب دالة على وصف ما لا يوصف من خوالج الناس، ولم يدركوا كلمة بعدها على مثل هذا القدر من الجمال. (ص ٣٧)

لنختار منها نماذج تكشف عن تلك الأشكال والسمات، ونبدأ بمقطع يأخذ الشكل الخطابي ويتداخل فيه

ومقاطعها، ولكنها تختزل وتكشف في مقامين لا يعبر عنهما سوى العشر الفتان. المقام الأول يظهر في المقطع الشعري الاستهلاكي وسمينه «الاستهواء» الذي يبلغ درجة «التماهي» و«التواجد» كما رأينا. أما المقام الثاني فيظهر في المقطع الشعري الاختتامى وهو نص الحب بامتياز، ومنه:

قل هو الحب

هواء سيد، وزجاج يفضح الروح وترتيل يمام

قل هو الحب

ولا تصنع لغير القلب

لا تأخذك الغفلة

لا ينتابك الخوف على ماء الكلام (ص ٨٨)

قل هو الحب

وما ينهار ينهار، فما بعد العرار

غير مجهول الصحارى، وتفاصيل الفرار

غير تاج الرمل مخلوعاً، على أقدامنا

والذى يبقى لنا تقرأه عين الغبار. (ص ٨٩)

ونسلمية نص الحب بامتياز لأن علاقات الفتنة والإغواء بلغت الذروة؛ حيث إن «التماهي» و«التواجد» لم يعد في هذا المقام أكثر من عتبة انتقال، دخولاً ووصولاً إلى اتحاد الذاتين المبدعتين بما يتعالى بهما إلى مرتبة الذات المطلقة، لأن فتنة الشعر وفتنة الحب امتزجتا واتحدتا لتفضيا إلى «غياب» قيس وقاسم وأحائهما في هذه الكتابة الشعرية التي تتخذ من النص القرآنى المعجز أنموذجها. وفي المقطع فضلة سنعود إليها في فقرة لاحقة.

### ٣- نص الجنون - نص العقل

لا يحفر قاسم في حكاية الجنون وأخباره من منظور الفكر والمعرفة، لكنه يستعيد ما تراكم وحفظ ووصل منها وعنهما من أقاويل وشروح وتأويلات لبعيد تنزيدها وتنسيقها وتشكيلها من منظور الكتابة الإبداعية التي تستصبح جل منجزات الفكر النفسى والفلسفى والأنثروبولوجى حول هذا الإشكال دونما تصريح.

نص المحبة النموذج والمثال بامتياز، وهذا سر فتنته التي لا تقاوم وطاقته الإغوائية، الاستهوائية والسحرية، التي لا تنفذ. من هنا يحكى عنه الكاتب - الراوى أنه هو الذى «اكتشف» أو «اخترع» كلمة الحب فى العربية وهى أجمل كلمة فيها، كما رأينا. وعن النص الذى انبثق من هذه الكلمة - العلامة التأسيسية، أو «النواة» أو «الصوم» يقول إنه «شعر غزله المجنون فى ليلى، صار عطرا نافذ السحر» ذاع فى بدو الجزيرة وحضرها». (ص ٣٩)

وتتجلى فتنته على خاصة النساء إذ يتحلتن حوله:

فيستشدهن شعراً يفت الحلاميد، والنسوة يطلعن التهنيدات وهى (ليلى) سمع، يتفجع لهن بالفلذات، وهن يستردن وهى تسمع. الناس يمرون بنوافذ أجسامهم الواسعة، يأخذون أشياء المشورة (فص فيروز شائع / حق بشماله العتير/ كوفية طفل لهلها الرمل/ حصلة شعر غامضة/ ما يرجع فى السرج من الحرب/ قنق) ويعبرون، والنسوة يتطايرون فتنة وإعجاباً. (ص ص ٢٤ - ٢٥)

وتبلغ فتنة هذا الشعر مرتبة أعلى إذ يحكى أنه هو الذى فتن «ورداً» وقد «استحوذت عليه ماهية قيس حتى استبطنته وتقمصها، وما سعيه للزواج من ليلى إلا نزوعاً لاحتياز الحلم الذى ابتكره قيس فى شعره». (ص ٤٠)

بعد هذا، لا غرابة أن يفتش هذا الشعر - السحر حتى الوحش فيغير طبيعته فيتأنسن، ثم يغير طبعه فيصبح كائناً مرهفاً ووديعاً كأى عاشق. هذا ما يتجلى فى حكاية ذلك الذئب الذى أكل ظبية تشبه ليلى ومقتله قيس لسموت فيه طبيعة الوحش وتخل فيه طبيعة الإنسان من روح الظبية - ليلى.. «ومن ساعتها لم يعد ذلك الذئب يفارقتى وكلما سمع منى شعرا ذكر فيه ليلى اعروقت عيابه وأصدر عواء أجمل من نحيب بشر فى الحب» كما يقول قاسم عن قيس. (ص ٣٨)

أما فتنة هذا الشعر على الكاتب - الشاعر فدالها ودليلها نصه هذا كله، وآثارها مشونة ومشتتة فى كل جزئياته



وتتكرر اللعبة ذاتها والخبر ذاته في سياق ومجال اجتماعي - ثقافي آخر مختلف، إذ يروي المؤلف عن راء حديث هذه المرة يسميه «أمين صاحب الحجرة» (صاحبه - ذاته) «خبر» شاعر عشق فتاة من بدو الجزيرة «تزوجت سواء على كره، فذهب الشاعر إلى أن يشعل النار في القبائل»، فانطلقت في هواء الجزيرة خالقاً النص والخبر، وقال كل شيء عن المجنون الذي لا حرج عليه». (ص ٢٣)

فالخبر القديم يواجه السلطة القائمة بالحيطة، أي بالشعر الذي ما إن يشيع منسوباً إلى شخصيات وهمية حتى يتحول الشخص إلى «حقيقة» في الكلام. أما الخبر الثاني فيتقدم بلعبة المحو والتشكيل خطوات أخرى، لذاتيتها وحدائتها، فتتولد دلالة المصادمة والمجاهبة مرتبطة بذلك «الشاعر» الجريء المغامر، الذي حرم من ليله فقرر أن «يشعل النار في القبائل» وممكنه «شاعريته» و «وعيه» من خلق النص والخبر محولاً وموجهاً المرجعية «الدينية» و «العرفية» التي ترفع القلم والخرج عن المجنون، ضد ما تولده وتكرسه من منظومات قيم وأفكار وسلوكات ! ويتضح أثر التدخل الذي يمارسه الكاتب على لعبة المحو والتشكيل أكثر في نهاية الخبر، حيث تتجه اللعبة إلى تشتيت حكاية الجنون لتتكاثر العناصر البنائية للنص بحيث يبعد لذاته المبدعة وللذات المبدعة للمؤلف المشارك - أي الرسام التشكيلي - دوراً أكثر بروزاً وفاعلية. هكذا تتحول عملية السرد إلى تعليق يكشف عن لعبة الكتابة والتشكيل ذاتها:

فطاب لكل ذي ريشة أو قلم أن يفعل ما لذه من الجنون، لئلا يقال إن ثمة زماناً شغل من أصحاب العشق واللوعة، فانها لم مجنون اللون على مجنون الشعر بالنيران من كل جانب وبعث الحرارة في ذاكرة مشبوبة مثلما تهب الريح في شهوات الجمر. (ص ٢٣).

نفى هذه المقاطع يتحول الجنون إلى لعبة تستهدف مرة مخادعة ومقاومة العقل السائد لخلخلته ونقضه سواء في مستوى العلاقة مع سلطة المؤسسة الرسمية، أو في مستوى العلاقة مع المؤسسة الاجتماعية - الثقافية «المدنية» بادية

نفى أول خبر نثرى عن قيس يروي الكاتب - المؤلف عن الأصهباني، عن رجل يرى غيب الناس قال:

ثلاثة لم يكونوا قط ولا عرفوا، ابن أبي العقب صاحب قصيدة الملاحم، وابن القرية، ومجنون بني عامر. (ص ١٤)

فمجنون بني عامر هذا يكون مجرد أكذوبة من قبيل «تكاذيب الأعراب»، وهي أكذوبة مشتهة لأنها تسمح لكل أحد أن يستثمرها إما بالتركيز على جانب أو بعد «الجنون» فيها وإما على وجه وبعد «الشعرية» فيها المتصل بقيس الشاعر المبدع. هذا تحديداً ما يجعل «مجنون ليلي» غير «مجنون بني عامر» من منظور لعبة الكتابة التي تجعل قاسماً يلح في أول مقطع سردي عنهما على رسم وتشكيل صورتيهما بطريقته الخاصة. فقيس يبدو منذ طفولته الباكورة «كثير الشرود، باكر الحزن، ميالاً للعزلة، يأنس لرفقة البهم في المرعى، ويرجز في قطيعه مواجد حسبها الناس كلاماً حفظته سليقة الصبي من مسار الرعاة»، وليلى تظهر «كثيرة الأحلام، غزيرة الخيال غريبة الأطوار، روت قريبتها أنها من الجن إلا قليلاً ومن الإنس بمقدار». (ص ٢١). فكلهما، إذن، ميسر للفتنة والافتتان، أي للجنون بهذا المعنى الخاص والمختلف بالضرورة عن معاني الجنون عند الآخرين، كما سنرى بالتفصيل لاحقاً.

أما من حيث «الوظيفة» فالأكذوبة أعلاه تتحول إلى طريقة ملتوية أو منحرفة أو «إبداعية» للتعبير عن حالة العشق الذي يخشى وطأة القمع، خصوصاً من جهة السلطة والمؤسسة الرسمية، فيجابهه بطريقة ملتوية وأكثر فعالية من أية مواجهة مباشرة. وهذا ما أدركه بعض رواة الخبر القديم دون أن يتبينوا كل أبعاده كما يرد في الخبر:

خالط الشك سيرة المجنون ليختلف الرواة في شعره فردّه بعضهم إلى شاعر من بني أمية عشق زوجة الولاة وخشى أن يشيع خبرهما، فأطلق النص على اسمين لم يكونا في مكان، تناقله الرواة عن ليلي ومجنونها (ص ٢٣).

جنون كان سندس طريقنا الملكية إلى الفراديس .  
فماذا يفعل القوم بنا ونحن خارج المعنى تتلابس  
مثل النصل والقمند بمعزل عن الزلة والخلة .  
صوابهم يعقل مكبوت النفس وجنوننا يطلق  
مكتوب القلب . (ص ٦٧)

(نفتح قوساً لنشير إلى أن لنا عودة إلى هذا المقطع لما فيه من  
فيض دلالي ليس هنا مقام بيان) ، فحكاية الجنون لا يحى  
أو يزاح جزء وبعد منها إلا ليظهر مكانه أو بهجازه جزء أو بعد  
آخر لأنها أصبحت حكاية كاتب - شاعر يعي جيداً أن : «ثمة  
بين جنون العقل وجنون الفؤاد شسع يسع الشعر كله والعشق  
جميعه» (ص ٦٨) ، وهذه المسافة الشاسعة ، أو الهوة ، وهى ما  
تعمقه وتوسعه لعبة الكتابة باعتبارها هى ذاتها مجال التحقق  
وفضاؤه الأمثل و «الوحيد» لأعمق عواطف الإنسان وطاقاته  
العلاقة وأجملها .

هكذا يبنى نص الجنون ، مرة ليقابل ويعارض ويصادم  
نص العقل السائد ، ومرة يجاوره ويوازيه ليلخلخله ويشته دونما  
صدام مباشر معه ، ومرة ثالثة يجاوزه ويسمو فوقه لأنه هنا  
«جنون الفؤاد» الذى لا يحيط من شأن «جنون العقل» بقدر  
ما يحيط من شأن «عقل العقل» الذى يعنى هنا كبت أسمى  
طاقات الكائن وعواطفه وأجملها ، أى «الحب» والإبداع .

أما الأبيات الشعرية التى يرد فيها خبر الجنون وتشكل  
منها نصه المنسرب إلى قيس ، فلا ترد إلا فى هوامش المقاطع  
الأخيرة من النص ، وهى فى مجملها لا تخرج عن اللعبة  
المشار إليها ، وإن كانت تدل على بعد آخر من أبعاد عملية  
المحو لحكاية «جنون العقل» التى كانت تختلط فى الخبر  
التقليدى بحكاية «جنون العقل» . هذا البعد يكمن تحديداً فى  
أن مجرد وجود هذه الأبيات ينهى عن قيس ، وعن أى مبدع  
مثله ، جنون العقل ، لأن خطاب مثل هذا الجنون لا يمكن  
أن يرقى إلى مستوى الخطاب العادى ، فكيف له أن يسمو  
إلى مرتبة الإبداع الجمالى الفتان ؟! هذا ما كان يعيه قيس  
أو من نخله الشعر كما تعبر عنه نماذج مثل :

- قالت جننت على أيش فقلت لها

الحب أعظم مما بالمجانين

وحاضرة . وتستهدف مرة أخرى ، أو فى مستوى آخر ، إذكاء  
نار الإبداع لدى الشاعر والرسام ، والمبدعين عموماً قديمهم  
والحديث ، بحيث يتحرر المنجز الإبداعى من منطق العقل  
السائد وعلاقات المؤسسات والسلطات السائدة فى اللغة كما  
فى الممارسة الحياتية اليومية للحياة .

هكذا ، يتصل النص معززاً هذه المرة حكاية الجنون  
بكل المعانى أعلاه ، عدا المعنى المباشر أو المبتدل الذى يكشف  
عن «حمق الرواة» أكثر من أى شئ آخر ، وفى اتصاله ما  
يكشف عن تفاصيل العنف الذى تتعرض له أية ذات عاشقة  
مبدعة فى وصفيات يهيمن عليها العقل السلطوى بمختلف  
أشكاله وتجلياته .. هكذا نقرأ :

مجنون هو إذا كان ذلك يكفيه شرهم . لكنه لم  
يكن كافاً ولا كافياً ، فقد كان العنف أكبر من  
ذلك . حجبت عنه وأكرهت على زواج عاطل .  
حبس وعسف به وطورد مهدور الدم وصار  
الجنون ملجأ العقل عما يصفون . وأكثر الظن أن  
قيساً أسهم فى شيوع جنونه فى غير موضع .  
(ص ٦٦) .

ويستحضر صوت لىلى مدعماً الخبر أعلاه ومضيفاً بعداً  
جديداً إليه :

قالت : أنا لىلى التى قال فيها قيس شعراً علم  
العرب العشق . قلت و «الجنون ؟» قالت لم  
يكن الجنون قط ، وإنما تماريت فيه عن القبيلة  
وتماهى به عن السلطان .

فالجنون هنا يتداخل مع حائثى العشق والإبداع  
وبالتالى يتمكن قيس من تعليم العرب العشق عن طريق  
الشعر فيعود جنونه لىلى حليماً حماعياً مشتركاً يتطلبه  
ويتعلمه ويحققه كل واحد كما يرى ويريد .

هنا يتحول الكاتب - الشاعر ذاته إلى مجنون يتداخل  
صوته بأصوات قيس ولىلى وبكل الأصوات المماتنة ، فيتحول  
السرد بنص الجنون إلى مرتبة النص الشعرى الذى يتداخل فيه  
الفكرى والجمالى ويتحدان :

الحب ليس يفيق الدهر صاحبه

وإنما يصرع المجنون في الحين

(ص ٦٦).

- إذا ذكرت ليلي عقلت وراجعت

روائع عقلي من هوى متشعب

(ص ٧١).

- يسمونني المجنون حين يرونني

نعم بى من ليلي الغداة جنون

- وإنى لمجنون بليلي موكل

ولست وفا عن هواها ولا جلدا

- وجأؤوا إليه بالتعاويز والرقى

وصبوا عليه الماء من ألم النكس

وقالوا به من أعين الجن نظرة

ولو عقلوا، قالوا : به نظرة الإنس

(ص ٧٦).

وهذا أيضا ما أدركه بعض رواة ونقاد الشعر من المحبين

له العارفين به وهو عينه ما يلح عليه الكاتب - المؤلف - الشاعر في بعض المقاطع، فيستعيد الخبر ليشكله من جديد بما يعبر عن رؤيته الجديدة المختلفة عن رؤية القدماء، كما ورد في الخبر: «لو حلفت أن مجنون بنى عامر لم يكن مجنونا لصدقت» قال ذلك ابن سلام فصدقناه، ليس لحلفانه ولكن لشيء في النفس يحضنا على هذا وشئ في القلب يهدينا إليه ثم يهيمن التعليق على الخبر في قوله : «ورحمة ألا تتفق الأخبار على جنون، فقد وجدنا في ما قرأناه من الشعر مالا يستقيم مع الجنون حين يعنونه حمقا أو خيلا أو انحرافا في العقل». وفي نهاية المقطع يتحول الخبر والتعليق عليه إلى تأويل عميق و «جميل»: «لقد كان في قوسين من تجليات الولوج وتساعد الانسحار بالآخر وهذا من طبيعة الشعراء في الأصل، تضاعف الأمر هنا لحدوث العشق، ويشي الشعر بما نعى ونذهب» (ص ٦٤).

وما «يشي» به الشعر ويصرح به الفكر وتدعمه المعرفة

الإمبريقية «العلمية» أن نص الإبداع في أعلى وأجمل مراتبه أى «الشعر» هو الأثر النقيض تماما للآثار الصادرة عن - أو الدالة على - جنون العقل بمعنى حمقه وخبله واختلاله وانحرافه، مثلما أن نص الفكر في أعرق مستوياته وأهمها، الفلسفة أو الحكمة، هو أيضا أثر - نقيض آخر لذلك «الأثر». فآثر كهذا لا يمكن أن يكون نصا إلا إذا اندرج - بوصفه «موضوعا» للقراءة - في نص المعرفة النفسية التحليلية، أو حينما يستدرج بوصفه «مجالا» للصوغ والتشكيل في الكتابة الإبداعية، وهو تحديدا ما يشي به ويدل عليه نص قاسم هذا إذ يأتي جامعاً ومؤلفاً بين العديد، بل الكثير، من النصوص خالقا بينها علاقات انتظام وانسجام تجعل للانحراف و «الشذوذ» قيمة ووظيفة اللعبة - الظاهرة الفنية الجمالية. وهذا أيضا ما يلح عليه ويكرره ويستطرد فيه الكاتب - الشاعر / المفكر إذ يكتب عن لعبة كتابته هذه في مقطع لاحق متمم ومتصل بالمقطع ذاته :

وقد جربنا في أخبارنا على ما يروق هوانا ويشحذ خيالنا بشطحه، وما يستقيم ويسلك في وصله بين النص والخبر. فحين يصدر القول عن معنى جنون الغوادر أخذنا به وقبلناه وزدنا عليه وبالفناء، وعندما ينزع القول إلى أن قيسا كان مجنونا عقله عرضنا عنه وغفلناه عسى أن يطيب هذا معنا لصنفين من الناس: الشعراء والعشاق، وفي جميعنا قدر من هذين. (ص ٦٤).

من هذا المنظور أو «الوعي» المزدوج لا يتقبل الكاتب - الشاعر العاشق كل النصوص والرموز الجميلة أى خلط بين «الجنونين» لأنه دليل حمق واختلال في الذهن، وقد يدل عسى ما هو أقبح وأجدر بالرفض، أى دليل قمع وتسلط في الشخص أو في اللغة التي يختارها وينحاز إليها. هذا ما يتضح في تعليقه على خبر الأصمعي، ولغة كل أصمعي، كالتالي: لم يكن مجنونا وإنما به لونة:

يالله يريدنا الأصمعي أن نعتبر اللونة أمرا غير مس الجنون، هل تفيض الألفاظ بغير ما يصبه دورق

لأنه يحدس جيداً أن المقام هنا محال أصلاً وإما لأنه يعي جيداً أن ذلك الخطاب ظل معتقداً داخل المرجعية التولوجية - الغنوصية، مما أعجزه عن التحول إلى «فكر» للكائن في الزمن والمكان لا خارجهما. هذه الفتنة تظهر جليلة في «أخبار مجنون ليلي» - وقد استشعرها طويلاً الخطاب الصوفي «التقليدي» كما نعلم، لكنها لا تطفئ على النص، كما رأينا؛ لأن لعبة الكتابة لا تسمح لها بمثل هذا الحضور الطاغى أو المهيمن، أو بشكل أدق لأن هذه اللعبة محكومة وموجهة بوعي جديد أو «حديث» ينقطع فكراً وإبداعياً عن أية مرجعية تقليدية، وإن كان للقطيعة هنا معنيان مختلفان باختلاف مجال الفكر ومجال الإبداع.

من هذا المنطلق نقارب ما سميناه بـ «نص الوجد» نص الروح» باعتبار هذا النص ممثلاً للحظة الذروة التي يتحد فيها الفكر والشعر وتحول اللغة إلى إشارة رمزية مفتوحة الدلالات إلى حد الإطلاق، أي حد القدرة على أن تعني «كل شيء».

ولعل أوضح وأقوى الأدلة على وجاهة هذا المنطلق نظرياً، وفعاليتاً، إجرائياً، أن مثل تلك المقاطع لا ترد مستقلة بذاتها وإنما تأتي في نهايات مقاطع تبدأ بمقام النثرية الواضحة، وتنتقل إلى مقام الشعرية المعتمة نوعاً ما بطبيعتها لتصل في نهاية المقطع أو «خاتمتها» إلى ذلك المقام الترميزي الذي تبلغ فيه العتامة غايتها، فلا تعود الدلالة ممكنة إلا بضرب من التأويل المبرر بالقراءة أكثر مما هو مبرر بالمقروء ذاته.

أما دليلنا الثاني - ودلالة «الدليل» هنا لا بد أن تكون نسبية - فيتمثل في قلة هذه المقاطع من حيث المنظور الكمي العام للنص في مجمله، ولكن أيضاً من منظور مقارنتها بما خصصناه بتسمية «نص الرغبة» / «الحب» و «نص الجنون» / «العقل». ونعتقد أن في هذا المظهر: التعلق بـ «اقتصاد النص» ما يوحي سلفاً بأن الكلمة والجملة والعبارة في مثل هذا المقام بعشر من أمثالها في مقامات أخرى وفق ذلك المبدأ المعروف والمعترف به لدى «العارفين»، وهو مبدأ التناسب والتلازم بين «اتساع الرؤية» و «ضييق العبارة» حسب مقولة النفرى الشهيرة.

القواميس، هل الإرث معنى أكثر غير تركية الكلام الأول، وهل حكمت الجنون والهوامش إلا شروحهم. هل الجنون نفس وهم لدونة. هل نحن الأقداح وهم الأباريق. أيا الحسرة وأيا الترنج. لقد استطاب الجنون سراً لما لا يتركه الآخرون، يسلك ما يريد من غير أن يسمعه عنبل الناس. شاغله أن تدرك ليلي، وقد أدركت، إنما الجنون تقية يدرعان بها لأجل العذبة، لأجل سر يسترقانه وشعر يلثان فيه «مصرعاً».

ولعله من الواضح أن لعبة الكتابة في هذا المقطع تبلغ إحدى ذراها الفكرية - الإبداعية أو الدلالية - الجمالية إذ تظال عملية المحو، بكل المعاني السابقة، من معاني الجنون السلبية (الحق، الاختلال، الانحراف، التهمة...) التي كان «بعض» الرواة يلحقونها بقيس. فادّمرها لا يتعق بغير أن يرى شخصي وإنما بخطاب ولغة، ومؤسسة وسلطة كانت ومازالت مصدر المعاناة خاصة لدى صنفين من الناس: الشعراء والعشاق، وفي جميعنا فخر من هذين! (هذا إن صدق قاسم ونظنه من جهتنا صدقاً وكلياً. ومع هذا، فإن نص «جنون الفؤاد» الذي هو نص قيس وقاسم وكل عاشق مبدع، لا يتجه ضد نص جنون العقل، لأنه غير موجود أصلاً، وإنما ضد عملية أو لعبة التحين التي يمارسها العقل السائد «عقل الناس» والخطاب السائد على كل شخص أو خطاب يختلف عنه ويواجهه ويصادفه ويرفضه ويتنفضه ويحاول تجاوزه.

عند هذه الذروة تتحول لعبة الكتابة إلى مقام لتعالى كما يظهر في المقطع الذي يتصل بالمقطع السابق، الذي ستخذه القراءة في الفقرة التالية عتبة دخول أو «سرى صعود» إلى «نص الوجد والروح» حيث تابع عمليات المحو والتشكيل فعاليتها القصوى وعجزها المطلق، كما سمين، قدر المتاح المباح!

#### ٤ - نص الوجد / نص الروح

أشرت في دراسة سابقة إلى أن قسم سداد مفتون بالنص الصوفي منذ «القيامة» لكنه لا يقيم فيه طويلاً؛ إما



ويستصحبه المقطع أعلاه إلى «رموز» معماة في مثل هذا المقام ولا نغنى فقط كلمات / رموز مثل السر، الجنون، العشق، الجبة، النفي، الإثبات، وإنما تسميات «قيس» و«ليلي» ذاتها! ( قيس العاشق مطلقاً وليلي المعشوق مطلقاً). وأهمية هذا المستوى تكمن في أنه يقلب ويعكس ترتيبية العلاقة بين هذين الاسمين، من منظور معين، في النص كله، فيتراجع أو ينزل اسم قيس الذي تعلو لعبة الكتابة من شأنه في المقاطع الأخرى من النص باعتباره «مبدعاً»، ليتقدم عليه أو يسمو فوقه اسم ليلي. فهذه الليلى لم تعد تلك الفتاة البدوية الجميلة الشهية التي يرغب الكثيرون في احتيازها في الواقع أو في الحلم. كما أنها لا تعود مجرد امرأة جميلة فتاة يفتن جمالها الشعراء فيحولونها في نصوصهم إلى امرأة - أنموذج لا يلبث أن يفتن غيرهم لتتصل الفتنة من قيس إلى غيره منتجة مدونة شعرية ونثرية متصلة في الزمن منتشرة في المكان، وفي المستويين اللغويين - الثقافي والفصيح والشعبي. لقد صارت أو «صيرت» بفعل ذلك الخطاب الصوفي ذاته اسم الجمال «العلوي» المطلق الذي يشعل الوجد فلا ينشغل بغيره ويخلق بالروح، في كل كائن، إلى أفق التعالي المطلق، أي إلى مقام «الروح المطلق». أما قيس فإنه، مهما تعددت أسماؤه وصفاته ومهما فتن شعره وخبره ومهما ألهمت حكاياته وأسطورته، فيظل في ذلك الخطاب وفي تلك المرجسية رمزاً للكائن «الدنيوي» الذي يتطلب ويتشوق ويتشوق ويعاني ويكابد دون أن يصل أو يكتشف أو ينال، إذ كيف ينال ما لا يمكن الوصول إليه أو الكشف عن حقيقته وسره؟

هذا ما يعيه قاسم ويعبر عنه في لعبة الكتابة في هذا المقطع. وفي مقاطع أخرى، بما لا يعيد تلك العلاقة الترتيبية إلى شكلها ومعناها السابق، وإنما بطريقة تفضي إلى محوها واستبدال أثر بشي بالتحاد الإسمين - الرمزيتين بها، وفي أدنى أو أسنى مراتب الحب. منه يكتب:

أحب أبواب، عبرها قيس كلها ونحن في العتبة

ثم يفصل القول عن الحب في مقامات أو أبواب «المودة» «الشوق» «الولع» «الهيام» ليختم الكتابة بـ:

لنقرأ هذا المقطع في اتصاله وانفصاله بالمقطع السابق، أي بوصفه جزءاً منه وخاتمة له:

ذهاب غامض يسمت كيان قيس ويمنح ليلي تكوينها «فقد جن من وجدى بليلى جنونها» هي التي أسرت لقيس «أن الذي لك عندي أكثر من الذي لي عندك» هل الذي عندها نحسبه ضرباً من الجنون بوصفه عشقا، أو هو ضرب من العشق بوصفه جنونا. وعهدنا أن المجنون لا يقول ذلك عن نفسه، إلا إذا كان في حال جبة النفي والإثبات. (ص ٦٥).

حين نقرأ هذا المقطع من المنطلقات السابقة نلاحظ أولاً أن لعبة المحو والتشكيل هنا منظومة علي - ومولدة لـ - أكثر من التباس يتجلى في محو العديد من علامات التمايز - الفصل والوصل - بين الجمل (النقاط والفواصل)، كما يظهر في تضمين شطر من شعر قيس في ليلي بلبس معاني ودلالات الجنون، إذ لا يمكن القطع بأي الطرفين مصدر جنون الآخر أو أنه «الوجد الأصل» مصدر جنون الطرفين، كما ينكشف التباس آخر في ذلك الخبر الموضوع بين علامات التنصيص المزدوجات أو الأهلة وينطوي على «السرية» في مبناء ومعناه، خصوصاً أن التساؤل الذي يعقبه يعمق التباس الخبراء إذ «يؤوله» باتجاه غموض العلاقة بين «الجنون» و «العشق» في هذه «الحال» أو في هذا «المقام». ثم تأتي الجملة الأخيرة لتبلغ عملية التلبس (أو الكشف؟) ذروتها إذ يتحدث الصوت الجماعي مرة بلساننا (: منطقنا) مشيراً إلى أن المجنون عقله لا يمكن أصلاً أن يعي أو يقول ذلك عن نفسه (معرفة) ومرة أخرى بلسان آخر غير لساننا فيستثنى من خطاب المعرفة المشتركة حالة تخص «من يكون في حال من جبة النفي والإثبات»، إذ يجوز هنا أن يقول عن نفسه «مجنون» لأنه يصدر عن «معرفة» أخرى (معرفة جماعة العارفين بالمعنى الصوفي أو معرفة جماعة المبدعين من شعراء وغيرهم)!

وتولد التباس آخر في مستوى بعض المفردات التي تحولت (حولت) في الخطاب الصوفي الذي يحيل إليه



(هنا نلاحظ أن المقطع/ النص هذا يرد سابقاً على المقاطع/ النصوص الأخرى أعلاه ولا غرابة بالتالي أن يحكى ذروة الوجد وبدء العبور أو السفر أو المسرى إلى ليلى. ونشير إلى هذه الملاحظة لأن «منطقية» الكتابة النقدية تفترض أن نوردها فى بداية هذه الفقرة عن نص الوجد الروح لكن منطوقها - لعبتها جاء بها إلى هنا فاختارناها).

وتبلغ عملية المحو، المترتبة على لعبة التشكيل والمتناغم معها والمحاشية لها، الذروة الأخيرة فى نهاية ذلك المقطع الشعرى الاختتامى، الذى أشرنا إليه من قبل، ونضيف هنا أن «النهاية» هنا لا تعنى فقط «ختام الختام» وإنما أيضاً الذروة الجمالية - الدلالية لهذا النص:

قل هو الحب

كان الله لا يحنو على غيرك لا يسمع إلاك

ولا فى الكون مجنون سواك

لكأن الله موجود لكى يمسح حزن الناس

فى قلبك

يفدّيك بما يجعل أسرارك فى تاج الملاك

قل هو الحب

الذى أسرى بليلى

وهدى قيساً إلى ماء الهلاك

قل هو الحب

يراك

(ص ٩٠)

### خاتمة

بدء : ظله يتبع الشمس وعينه مأسورتان بما يمنح العشب لونا (لنا)، لا يسأل الماء من أين أنت ومن أنت (فينا)، بغسل أخبار قلبك يمسح عن كتفك غبار الطريق (إلينا) يؤث القفر غرته بالهدوء لكى تأمن أحلامه وتنام. (ص ٥٨ - يتصرف بسيط).

باب الشهوة: عرس اختلاط. ملع فى العناصر. جحيم وجنة وما بينهما. وحدكما. تختليج فى الغياب والخصى. داء بلا دواء. كله ولا يكفى. (ص ٧٤)

فالتصريح فى بداية المقطع بأن قيساً وحده عبر الأبواب كلها بقباله التلميح فى خاتمة المقطع (= ذروته) بأنه عبر إلى ليلى لا غيرها فوجدتها «هناك» (قبله أو فتره)، فاختد ببعضهما وبالاختلاط والعناصر الأخرى فى الوجود (ولقاسم رؤية متميزة فى «العناصر الأربعة» التى تكون الوجود، بما فيه الإنسان، عبر عنها فى «القيامة» بشكل متميز). ومن غير هذا التأويل لا يكون الحب ولا يصير العبور، إذ لا معنى لهما وفيهما خارج هذه اللعبة الإبداعية (الشعرية - الفكرية) التى تفتح المقطع/ النص على المتعدد والمتكاثر من الدلالات التأويلية. وما يدل على أن الشهوة فى الباب (المقام - الحال) هذا غيرها فى الأحوال والمقامات العادية، أو أنها هى ذاتها لكنها صعدت إلى مرتبة اللذة العليا أو النادرة أو المطلقة ما يرد فى خبر آخر على لسان ليلى هذه المرة:

.. فى تلك الساعة تفلت الأزمة والأعنة ولا تكون القيادة محصورة فى واحد/ ولا يدس عليها اثنان ولا يمود للحدود معنى فالغيم نازل يمسح العلامات والملامح ولا يسعف البصر ولا البصيرة وتبدأ حواس لا حصر لها فى الشغل حيث لا نكاد نعترف هل نحن فى حلم أم أننا الحلم الخالص (ص ٧٦)

هذا ما يصرح به قيس آخر لليلى أخرى قائلاً فى مقطع آخر:

أتيك أتيك، لا أنت فى الشك ولا أنا فى الغفلة. أمضنى السفر وثلججه، الصمت وجحيمه، أمضتنى القفار وسيرة الوحش. وما عليك إلا أن تظنى بى الظنون ولا أخذلها، وتطلقى خلفى الكتب لكى أخذك، فلا مفر ولا خلاص مما اخترناه إلا اختياره. أتيك فابذلى الوقت وبالفى فى الحب لنصاب بالسهجة ويصاب الناس بما يريدون. (ص ٦٢)

الذات الواحدة المتعددة؛ أعنى ذات قاسم وقد تقسم بين الأسماء والصفات والأصوات والشخص «المبدعة» حتى طاب لكل الشعراء والعشاق فينا وفيه.

أما في مقام الوجد فاللعب أدق أو أجل من أن ندرك؛ لذا يترك فضاء الكتابة كله حراً أو مفتوحاً لتلعب فيه الإشارات والرموز به وبناء فلا نعود في مقام اليقين؛ إذ يفيض الخطاب عن أصوات أخرى مختلفة وغير قابلة للتحديد في الزمن والمكان والهوية. وهنا فإن اللذة لا تسمى ولا تحد ولا ترصف بقدر ما تعاش كل لحظة عابرة خاطفة توهمن بأننا والآخرون والمطلق واحد.. لحظة «اليقظة الحاملة» ذاتها أو «الحلم اليقظ» ذاته أو لحظة الحدس - البصيرة في أعماق وأخفى تجلياتها (فاليري، برجسون).

ولا شك أن تجربة كتابة كهذه تتطلب أو نغرى بتجريب أدوات نقدية، نظرية وإجرائية، لا تنغلق على ما قدمت «الشعرية» - علم الشعر - المحدثة خصوصاً؛ إذ تنزع إلى العلمية فتفقد التجربة الإبداعية الخاصة خصوصيتها لأنها تكون منشغلة بتماسكها وشموليتها واكتمالها أكثر من انشغالها بالنص ذاته.

## ٢-٥

ماذا نسمى نصاً كهذا؟ كيف يمكن للقراءة النقدية أن تتناول - تتفاعل - مع نص جامع بين أشكال كثيرة من السردية والشعرية كما رأينا هنا؟ هل تكفى القراءة الواحدة، ثانياً كانت، لكشف الالتباسات في مثل هذا النص المتشعب بأكثر من معنى وفي أكثر من مستوى؟ ألا تكون القراءة النقدية «الخاصة» بكتابة - تجربة إبداعية كهذه هي الأكثر حاجة وفعالية أو الأكثر «محايدة» وملاءمة؟ وفي التحليل الأخير أليست كل قراءة هي خاصة و«ذاتية» بمعنى ما؟

هذه التساؤلات كانت منذ البدايات حاضرة في مجال الروعي، وبالتالي فإنها تشوي وراء قراءتنا لهذا النص المتشعب كأجلى وأجمل ما يكون الالتباس المحايث لأي تجربة إبداعية موجهة أصلاً ضد تكرير أي نموذج إبداعى سائد، وسواء للكاتب - المبدع ذاته أو لغيره كما أكدنا منذ البدايات. واستعادتها هنا تهدف إلى طرح إشكال يبدو أنه لم يزل غير

وسط : غابت عنه وهو في انتظار يجل في غرفة الطريق. أشياءه منشورة للنسيان والتذكر، والناس يعبرون مثل الأثير. ( ص ٢٤ - دون تصرف)

نهاية : قيل له «ماذا لو أن ليلي لم تكن؟»  
قال : «لكنك بكيت البكاء كله لكي تكون».

قلنا : لكان أحب الحب كله  
وجن الجنون كله  
ولقال الشعر كله  
فتكون.

( ص ٥٣ - بتصرف أكبر)

## ٥ - مخارج

### ١ - ٥

لا بد أن قاسم حداد مارس كل اختبارات وألاعيب وشهواته وهو يعيد كتابة أخبار مجنونه - مجنون ليلي بهذه الطريقة التي تراوح وتزاحج بدرية ومهارة ومكر بين جمالية الشعر وقوة الفكر وفيض الوجدان؛ إذ يفيض عن حدود ما هو «شعري» وما هو «فكري» مجاوزاً لهما ومنظوماً عليهما في اللحظة ذاتها.

فقد رأينا كيف يلعب حيناً بالأخبار التقليدية ليركها تتعارض وتتناقض ليقوض ويشتت بعضها البعض الآخر مؤمناً لنا لذة «الدراية الحديثة» التي تستصحب فرويد ونيثشه وفوكو فلا تقع في أي من شركاء المعارف القديمة أو التقليدية ورواة أخبارها الذين لم يميزوا، لأسباب إستراتيجية أو إيديولوجية، بين «النص» و «الخبر»، أو بين جنون الفؤاد و جنون العقل.

وحيناً آخر يلعب مع الشعر لينميّه فتنمو أشجاره مرة في هامش نص الخبر السردى، ومرة في متنه وصلبه في فضاءات مستقلة، وكل هذا ينوع أسباب ومصادر الفتنة واللذة القصوى في شعرية تستصحب كل الشعرية القديمة والحديثة، وأشكالها، وتضيف إليها الجديد لتصير هنا شعرية

ولكى لا يفهم من هذا كله أن فيه تبريراً ما لقراءتنا الراهنة أعود فأؤكد، ومن منطلق الوعي الذى أشرت إليه، أن أية قراءة نقدية تطبيقية هى بطبيعتها تجريبية - اختبارية (مغامرة أو محاولة كما قلنا منذ البدايات)، وبالتالي فإن مشروعتها، أو وجاهتها تتحدد فقط بالكشف عن طبيعتها وأهدافها وأدواتها النظرية - الإجرائية من جهة، وبمدى قدرتها على التفاعل مع النص المقروء، فى خصوصيته وتميزه وفرادته، من جهة أخرى.

٥ - ٣ هامش:

ورد فى الهامش صفحة (٩١) ما يشير إلى أن (أخبار مجنون ليلي) الذى قدمنا عنه هذه القراءة النقدية جزء من أعمال تشمل كتاباً بعنوان (وردة الجنون)، وهو عبارة عن مختارات من شعر قيس بن الملوح، وتشمل «أربعة أعمال مطبوعة بتقنية الشبكة الحرة»، وهذا كله بمثابة عمل فنى متكامل، ضمن صندوق واجهته مزينة بعمل من الخشب وملونة بصباغة الإكلريك، ومن تصميم الفنان - ضياء عزاوى - كما ينص عليه الهامش.

وقد بحثت عن هذا الصندوق فى الرياض ولم أعثر عليه، وسألت عنه بعض الأصدقاء فلم يعثروا عليه، ولم أجرؤ أو لم أرد أن أثقل على قاسم حداد لسؤاله عنه وطلبه منه؛ إذ قد لا يكون عنده منه سوى نسخته - صندوقه الخاص، ولا بد أن ثمنه باهظ فكيف أجرؤ على تكليفه بشرائه وإرساله إلى .. ثم من يضمن وصول رسالة قيمة جداً وثمينة جداً كهذه؟!

كل هذا دفعنى إلى الاكتفاء بما قرأته من نص قاسم هذا، مع تيقنى من أن القراءة النقدية لجزء من عمل لابد أن تكون جزئية بالضرورة؛ أى غير مكتملة أو مفتوحة أو خاصة: أى لا أكثر من محاولة ومغامرة.

أما عندما تواتى الفرصة وبسببنا الحظ فننال ذلك الصندوق، فالمؤكد أن وجوه الفتنة ستتعدد بتعدد محتويات الصندوق، بل بشكل الصندوق الفتان ذاته. عندئذ ربما تتولد شهوة الكتابة من جديد عن ذلك العمل فى مجمله، شكله ومحتواه، وستعبر تلك الشهوة، المنتظرة المحلومة، عن ذاتها فى مقارنة نقدية أخرى، قد تتصل بهذه، وقد تتقاطع معها، وقد تلعب معها لعبة المحرر والتشكيل ذاتها، لا أقل ولا أكثر.

حاضر بما يكفى فى وعينا وخطابنا النقدى المعاصر، وهذا ما يفسر، فى جزء منه، غلبة سوء الفهم، وأحياناً سوء الظن، على النقاشات والمداخلات التى تعقب هذه الندوة أو تلك.

يتحدد هذا الإشكال بعدم الاعتراف بمشروعية، وضرورية، التمييز الصارم بين القراءة النقدية التطبيقية التى تتخذ من النص المفرد مجالاً ومنطلقاً لها، والقراءة النقدية النظرية، أو التنظيرية، التى تتخذ من الموضوع ذريعة ووسيلة لإثبات، وتثبيت، البنية العامة للنظرية. أعنى لنظرية ما.

فالقراءة الأولى من مقتضياتها الأولية التوضيح على محور علاقة التجاذب بين القارئ والنص الإبداعى؛ لأن عملية التلقى الأولى الحر للنص هى متعلقة، وبالتالي ما إن تبدأ حتى تظهر آثار تكييف «النظرية» بما يتناسب مع النص من جهة ومع أثره فى القارئ / الناقد من جهة أخرى.

أما القراءة الثانية، فشرطها الأول والأهم التوضيح على محور العلاقة بين المعرفة الغيرية والمعرفة الذاتية، فلا يستحضر النص إلا فى مقام «الشاهد»، أو - وهو لأسوء - فى مقام «الشيء» المحايد أو الصامت أو الجامد، كما لا يخلخل أو يربك العلاقة بين المعرفتين السابقتين و«المشتتين».

هذا الإشكال الذى يكاد يكرس من خصوصيات المؤتمرات والندوات النقدية العربية، لا شك أنه مرتبط بإشكال أعم أفضى فى السياق المعرفى - الثقافى الحديث، الغربى خاصة، إلى تبلور الوعي بأن النموذج النظرى فى المجال الأدبى - النقدى ما إن يقترب من سمات «العلمية» الشمولية، التجريد، الاختزال، حتى يضمحى - بوعى - بالكثير من جماليات النص الإبداعى، بل أحياناً، بتجارب إبداعية كاملة، لما تبديه من مقاومة للنموذج المعرفى النظرى (البراداييم أو الإيستمي) المشيد أو المراد تشيده.

من هنا، أعتقد أننا فى أمس الحاجة إلى مثل ذلك التمييز ومثل هذا الوعي الذى لا شك أنه حاضر مائل بقوة عند بعض الأفراد، وفى جل الأنظار العربية، لكنه لم يتحول بعد إلى وعى سائد معروف ومعترف به لا فى المؤتمرات الأكاديمية ولا فى الندوات والمؤتمرات النقدية.

# مدخل إلى قراءة النص الشعري

## المفاهيم معالم

محمد مفتاح\*

أولاً: بابل النظريات والمنهجيات:  
١- البرج:

تأويلات عديدة، وتلقيات متنوعة، ونبويات منشطرة،  
وسيميائيات أوروية، ودليلات أمريكية، وتأريخات «حولية»  
وتأريخات «فوكوية»، وضروب من النقد الثقافي والنسائي.

ومع أن هذه النظريات والمنهجيات متداولة بين المختصين،  
فإن أقربها إلى طبيعة الشعر هي النظرية والمنهجية اللسانية،  
والنظرية والمنهجية السيميائية والدليلية. فقد انتشرت المقاربة  
اللسانية لتحليل الخطاب الشعري، فتناولت الوزن والإيقاع  
ورمزية الأصوات ولغة الشعر، والمجاز، والتكرار، والتوازي،  
والرسالة الشعرية والوظيفة الشعرية. ومهما تعددت الكتب في  
هذا الاتجاه اللساني، فإنها استوحت من اللسانيات  
«السوسورية» كثيراً من مقولاتها ومفاهيمها لتطبيقها على  
النص الشعري، مع افتراض بعض المفاهيم الدليلية لمقاربة  
البعد البصري فيه، أو بعض المفاهيم السيميائية لإثبات  
انسجامه. ذلك أن كثيراً من الباحثين استغل بعض المفاهيم  
الدليلية «البرسية» لتحليله، خصوصاً من قبل بعض الكنديين

اختلاف النظريات والمنهجيات الخاصة بالنشاط الأدبي  
قديم قدم هذا النشاط، وقد ازداد هذا الاختلاف في الوقت  
الحاضر، ويتجلى في الكتب والمقالات والملتقيات والندوات  
الخاصة بالنظريات الأدبية والمناهج النقدية بصفة عامة، ويحتل  
فيها التنظير للخطاب الشعري مكانة مهمة. وذكر ما هو شائع  
من النظريات والمنهجيات المتعلقة بالأدب وبالشعر قد تسود فيه  
صفحات عديدة. بيد أن أشهر هذه النظريات والمنهجيات هي  
فلسفة الظواهر، وعلم التأويل، ونظرية التلقي، والبنوية،  
والدليلية، وما بعد البنوية، بما فيها من تحليل نفسي  
وتأريخية جديدة، ونقد ثقافي، وتفكيكية. وكل نظرية من  
هذه النظريات، وكل منهجية من هذه المنهجيات، تفرعت  
عنها تيارات متعددة؛ فهناك تيارات فلسفية ظاهرية، وهناك

\* كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط.

سيتمخذه هذا المخطط معالمة الرئيسية من السيميائيات والدليلية، وتدقيقاته من علم النفس المعرفي ومن نظرية العماء، ويهدف - بكيفية أساسية - إلى إبراز التعالق بين كل عناصر الكون، ومنها التعالق بين عناصر النص. وإذا كان الأمر هكذا، فإن كل فوضى وراءها نظام، وإن الفوضى نفسها جميلة ومفيدة، وليست قبيحة وحشوية، وإنما هناك نقص في المفاهيم لإبراز جمال النص الشعري المعاصر وتماسكه واتساقه وانسجامه

## ثانياً - منهجية دليلية:

مستندنا الأساسي، إذن، هو بعض مفاهيم الدليلية التي هي الدليل، والمدلول، والدال، والتدلال - المرجع. ١- الدليل:

سنبتني تعريف «بيرس» الذي يقول: «الدليل هو شيء ما تسمح معرفته بمعرفة شيء آخر»<sup>(١)</sup>، وهذا التعريف يخول لنا أن نجعل أي شيء في الكون دليلاً إذا ما ذهبنا أبعد مما هو ظاهر، ابتداء من الدليل الأكبر إلى أصغر دليل.

### (أ) الكون الأكبر:

منحت الكون الأكبر فلسفات عالمة تراتباً مبسوطاً في الكتب المختصة، كما أن كثيراً من الثقافات الشعبية لها تصورات تراتبية؛ غير أن ما يهمنا هو استيحاء روح هذه التراتبية، ورصدها في النص الشعري؛ وهذه التراتبية ذات ثلاث درجات أو بنيات: بنية مجردة متماسمة، وبنية إنسانية بما فيها من أنشطة جنسية ولغوية، وبنية طبيعية تتكون من الحيوان والنبات والجماد والمائع؛ على أنه فوق هذه البنيات ما هو متحكم فيها ونابعة منه؛ فهي، إذن، تنتمي جميعها إلى تلك الوحدة التي انبثقت منها. لذلك، فإن هناك علاقات وثيقة بينها وإن تباينت ظاهرياً، وهي علاقات حاضرة من أرقى الكائنات إلى أحطها. والكائن البشري - في طفولته - كان يشعر أنه مندمج مع كل ما هو موجود في الكون، والشعر الذي هو المعبر عن الطفولة وعن الفكر الشمولي يعكس هذه الإحيائية والطوطمية. وهكذا صار كل ما في الكون حياً، وكل ما فيه من مخلوقات وكائنات متوازياً. وقد تحققت هذه الصفات والخصائص بوسائل تعبيرية مختلفة؛

والأمريكيين. هكذا يجد القارئ حديثاً عن الأيقونة والمؤشر، والرمز، والمؤول، والذات المؤولة، والممثل. كما أن بعض السيميائيين وظفوا الدليل، والدال، والمدلول، والمعنى، ومعنى المعنى، والتشاكل، والنسق، والبنية، والتواصل، والتلفظ، والخطاب، والمؤشرات، والمعينات. وقد هيمنت على هذه المقاربة سيميائيات جريماس ونظرية التلفظ «البنفسية».

وقد اهتمت المقاربات الأوروبية، بصفة عامة، بإنتاج الدليل، والنص، وآليات الإنتاج، وبكيفية بناء الدلالة بغض النظر عن مرجعية النص الشعري لأنها سلمت بالاستقلال الأنطولوجي للنص، ودينامية النص، وانتظامه الذاتي، وإحاطته على نفسه. وأما نموذج «بيرس» فهو يشمل كل هذا مع أخذه بعين الاعتبار جميع المرجعيات.

## ٢- المنارة:

في خضم عباب هذه النظريات وما نضرع عنها من منهجيات، نقترح إطاراً جزئياً أو إن شئنا تسميها مجعلاً لدراسة النص بصفة عامة، ودراسة النص الشعري المعاصر بصفة خاصة؛ والتصميم إذ يستفيد من برج بابل النظريات والمنهجيات فإنه تمرّد عليها والتجأ إلى منارة يشرف منها على الخطاب الشعري بدليله ومدلوله وداله وتدلاته - مرجعيته، ويطل منها على الأبعاد الأنثروبولوجية والشروط الإنسانية، ويقترح مفاهيم متدرجة حتى يتجنب الاختزال والإقصاء والإبعاد، وإذا ما وجد القارئ مفاهيم كثيرة فترجى منه أن لا ينظر إليها بعين رضا كلية، لأن المفاهيم معالم تهدي الباطل إلى سواء الدقة في الوصف، والصحة في التأويل، وإلى مراعاة طبيعة الشعر العربي قديمه وحديثه ومعاصره. فالشاعر المعاصر يعيش في عالمين: عالم قديم له كونه الثقافي، وعالم معاصر له مناخه الخاص المتجلى في شروط سياسية واجتماعية وثقافية ذات حيثيات خاصة، وهو يتفاعل بها ويفعل فيها بخطابه الذي يحمل رؤاه الملتزمة؛ فالشاعر العربي المعاصر - بصفة عامة - ليس عبثياً وليس عديمياً، وليس شعره مجرد إشباع ثقافي، وعلمي، وتروفي سياسي. وعليه، فإن نقل أية منهجية جاهزة لتحليل الشعر العربي المعاصر بها قد تسلب هذا الشعر رسالته وخصوصيته في مجتمعات ذات خصوصية.



## ٢- درجات التعالق:

إذا ما ثبت أن هناك تعالقات بين النصوص الشعرية، فإن التعالقات - مع ذلك - ليست فى مرتبة واحدة، وإنما هى فى مراتب متعددة. ومراعاة لهذه التراتبية فإننا نقترح عدة مفاهيم تستمد تسميتها من درجات التعالق. وعليه، فإننا سنعتبر التعالق مقولة يمكن أن تدرج إلى المفاهيم التالية: التطابق، والتفاعل، والتداخل، والتحاذى، والتباعد، والتراصى. وهذه المفاهيم تهدف إلى إثبات التعالق داخل النص نفسه، وإلى إثبات تعالقه بجار، وهذا التجاور هو ما سندهو بالتعالق الخطى. على أننا حينما نستبدل بالخطية اللاخطية، فإننا حينئذ مضطرون إلى الجمع بين الأشباه والظائري. وتبعاً لهذا، فإننا نقترح مفاهيم أخرى متدرجة؛ هى: التطابق، والتماثل، والتشابه، والتحاذى، والتشاكل، والمضاواة.

## (أ) العلاقة الخطية:

يحتوى ديوان (إنها تومى لى) على قصائد ومقطوعات وشذرات، وكل واحدة منها لها فضاؤها ودلالاتها مما يوحي باستقلال كل واحدة منها عن الأخرى، ولكن القارئ حين يتجاوز الظاهر والسطحى إلى العميق فإنه يجد علاقة وثيقة بينها

لقد افترضنا قبل أن هناك ثلاث بنيات مترابطة ومتفاعلة؛ وهى البنية المجردة، والبنية الإنسانية، والبنية الطبيعية؛ وعناصر هذه البنيات لا يخلو منها، كلها أو بعضها، نص. وإذا صح الفرض، فإن العلاقة بين البنيات ثابتة بين النصوص على المستوى الخطى مهما تباعدت المسافات المادية والمعنوية. وإذا ما ثبتت العلاقة بين القصائد فإن كل قصيدة يمكن أن تفسر بأخرى أو تشرح بها؛ فالقصائد، إذن، «تتشارح» و«تتفاخر»؛ وعليه، فإن كل قصيدة تشترك مع أخرى فى بعض العناصر، وتختلف معها فيها. ومن ثمة وجب تدريج العلاقات وترتيبها. ولهذا نقترح ما يلى:

## ١- التطابق:

ونسى به أية قصيدة تتطابق مع أخرى فى شكلها وفى مضمونها، وهذا التطابق قد لا يتحقق إلا فى الاستنساخ.

لعل أهمها هى اللغة الطبيعية. واللغة الشعرية هى من هذا القبيل، فهى تجعل العرى والصلات وثيقة بين كل أثاث الكون جميعها، ووسيلة الجعل هى التشبيهات والاستعارات والمقاييسات.

والإنسان - فى كل زمان وفى كل مكان - يحاول جهد استطاعته أن ينشئ العلائق والصلات حتى يمكن له أن ينتقل من مجال إلى مجال، وأن يوظف المعلوم للكشف عما هو مجهول، وأن يحقق الألفة بينه وبين محيطه؛ على أن هناك أطروحات أخرى تعتقد فى اللانظام، وفى الانقطاعات، وفى التشعبات، وفى التشتييات؛ ومع ذلك، فإن هذه الاعتقادات لا تمنع من وجود مبدأ منظم أو واحد يتحكم فى جميع الكائنات والمخلوقات.

## (ب) الكون الأصغر:

ضمن هذا الروح الذى يسلم بوجود مبدأ منظم وواحدى يضمن التعالق بين الموجودات نظرنا إلى بعض النصوص الشعرية المعاصرة متخذين من ديوانى الشاعر المصرى المعاصر رفعت سلام اللذين هما: (إنها تومى لى) و(هكذا قلت للهاوية) أمثلة للبرهنة على صحة الفرض. وسنوظف مفاهيم متعددة لإثبات التراتب والتعالق بتدئى بالتحليل بالمقومات وتنتهى بالأيقونات.

## ١- مؤشرات التعالق:

من يقرأ ديوان (إنها تومى لى) تواجهه عناوين القصائد والمقطوعات؛ وهى عناوين متعددة، مثل: «حان»، و«فتيلا»، و«تهمى» و«رماد»، و«من»... وهذه العناوين تحتوى على أسماء وأفعال وحروف. وقد يظهر أن لاعلاقة بين هذه العناوين. ولكن القارئ حينما يربط العنوان بالقصيدة أو المقطوعة ويضعه فى سياقها، يمكنه أن يستخلص دلالة مشتركة بين كل القصائد والمقطوعات. والدلالة هى الهلاك. وهى دلالة لها ما يسند لها فى نصوص (إنها تومى لى)، و(هكذا قلت للهاوية). فالهلاك والهاوية والخراب والدمار... هى ما يهيمن على رؤيا الشاعر المساوية والكابوسية.

## ٥- التباعد:

إلا أن هناك من النصوص ما يكون متحاذيا فضائيا، ولكنه يكون متباعدة بنية وانتماء ومعنى. ويمكن التمثيل للتباعد بكتب الأدب في الثقافة العربية الإسلامية وبعض شعر ما بعد الحداثة. فكتب الأدب تحاذي النص الديني للنص القرآني، ولكنها تجاور أيضا بين آية قرآنية أو حديث نبوي وبين نكتة باردة، كما قد يحاذي حديث عن النوكي حديثا عن الحكماء والذهاء... وأما أشعار ما بعد الحداثة فتحتوي على تشظيات وعماءات وهباعات.

## ٦- التقاصي:

قد يبلغ التباعد بين النصوص أقصاه، بحيث يكون هناك تباعد فضائي، وتباعد انتمائي، وتباعد دلالي ورسالي كما هو شأن المسافة بين «التطابق» و«التقاصي»، إلا أنهما ليسا إلا درجتين من سلم للمعاني وللقيم تابعة من «واحد» مع افتراضا التطابق أول درجات السلم العليا المتصلة بالمنطق والتقاصي آخر درجة منه فإننا نفى التقاصي الذي هو معنى الإبعاد والتناقض.

## ب- العلاقة اللاخطية:

إذا تأكدت العلاقة الخطية بين النصوص ذاتيا وغيريا، مهما كان الكتاب أو الديوان، فإن هذه العلاقة تبرز أكثر حينما يتبنى المحلل طريقة لاخطية؛ بحيث يجمع بين الأشباه والنظائر بعد التحليل الدقيق. وعملية إثبات التعالق تتم عبر اقتراح بنية ذات عناصر ستة، وسندعوها بنية التطابق؛ وهي بنية مرجعية نقيس عليها. فإذا احتوى المقيس على ستة عناصر كان متطابقا، أو على خمسة كان متماثلا، أو على أربعة كان متشابهًا، أو على ثلاثة كان متحاذيا، أو على اثنين كان متشاكلا، أو على واحد كان متضاهيا.

هذه العملية التدريجية لدرجات التعالق اللاخطي تصح إذا روعي منطوق النصوص فقط. وأما إذا روعي المنطوق والمسكوت عنه بقيام الباحث باستنباط عام أو باستنباط استصحابي، فإن البنية المقيسة تصير متطابقة مع البنية الوالدة إن لم تكن بالفعل فبالقوة. إلا أن الشعر المعاصر الذي ينبع من التجربة الفردية الأصيلة لا يسمح بهذه الإجراءات الآلية التي توظف بنجاح في المجالات المنطقية والميادين الرتيبة.

## ٢- التفاعل:

مادما اعتبرنا القصائد تتشاور ببعضها بعض، فلا ريب أن هناك تفاعلات فيما بينها. فالتفاعل متفاعلة رغم الفضاء الفاصل والعناوين المتباينة. والقصيدة الواحدة تتفاعل عناصرها فيما بينها. إلا أن الرؤيا الإنسانية والكوايس جعلت الشاعر يستقى نصوصا معينة لخدمة المقصد الأساسية. هناك إشارات للحجاج ولأهل العراق، وذكر للقيامة والتفخ في الصور... إلخ، ولكن الصناعة الشعرية مارست مهارتها فيها فوجهتها لخدمة مقاصدها.

## ٣- التداخل:

نقصد به من الناحية الخطية مساحة نص لنص يليه، أو قصيدة لقصيدة تليها، ولكن الدخول والاختلا والتداخل لا تصل إلى درجة التفاعل، كما نرى به من الناحية الذاتية - ذات النص، أو القصيدة - تداخل نصوص فيما بينها لخدمة رسالة مركزية. ومقياس التداخل هو إعلان كل «نص» عن انتمائه ووضع الاعتباري: الاقتباس، الاستشهاديات، والأمثال، والإجازات، والإجابات، والمعانيات. والتداخل يحتل حيزا كبيرا في الشعر العربي. إلا أن الشاعر المعاصر المحيد لا يكاد يشعر القارئ بتداخل النصوص لديه، فإذا ما اقتبس أو استشهد أو تمثل - إلخ، فإنه غالبا ما تكون اقتباساته أو استشهاداته أو تمثالاته محيرة ومقلوبة وسخورا منها.

## ٤- التحاذي:

نهدف منه التنبيه إلى العلائق بين نصوص المتجاورة والمتتالية، والتحاذي يكون إما معنويا مستنظا؛ فهو معطى في الشعر العربي المعاصر المعتمد على تفاعل الموضوعات وتداخلها ووحدة الرؤى، وهو مستنظ في بعض الشعر العربي المعاصر والشعر الغربي العمائي الذي يكون مشتتا ومتشظيا، كما أنه مستنظ في بعض الكتب الأدبية التي تجمع من كل فن طرفا.

البنية التي نقترح بعد التوليف بين البنيات الثلاث، هي:

اسم القصيد	البنية	المرادف	الاستن	المعبر	البناء	الجماد	الشم	نوع العلاق
قصيدة مكدًا ثلاث للمهاوية	+	+	+	+	+	+	+	لتأويل
قصيدة دكان	+	+	+	+	+	+	+	لتأويل
قصيدة مكدًا	+	+	+	+	+	+	+	لتأويل
قصيدة مكدًا	+	+	+	+	+	+	+	لتأويل

تلك أمثلة من استخلاص العلائق ودرجاتها، ويمكن للباحث أن يعدد التطبيقات حتى يتمكن من إيجاد كل الدرجات وكل العلائق، وهو واجدها فعلا.

(ج) درجات الدليل:

يتبين مما اقترحنه من مفاهيم لإثبات أنواع العلائق بين النصوص ودرجاتها أنه قام على نوع من القراءة والتأويل، وهما قراءة وتأويل لم يكونا على درجة واحدة من حيث الجهد لاستخراجهما من الدليل، فهناك الدليل الواضح، وهناك الدليل المعتم. ولذلك يخطئ من يسلم بأن اللغة شفافة، وكذلك يخطئ من يعتبر أن اللغة عماء وأن الخطاب حجاب. ونجيب للأخذ بأحد الطرفين دون سواء، فإننا نقترح درجات الدليل من حيث طبيعة معناه؛ وهى الدليل الواضح، والدليل البين، والدليل الظاهر، والدليل المحتمل، والدليل الممكن، والدليل العمى؛ على أننا لن نقصر الدليل على معناه المتداول، وإنما سنجعل القصيدة دليلا، بل النص الطويل دليلا.

١- النص الواضح:

نقصد به ما لا يقبل التأويل من الكلام بإطلاق، مثل الأوامر والنواهي مهما كان مصدرها، ولتكن أوامر الضباط أو الأطباء أو المدرسين، ولكن حسب قواعد وأعراف وشروط؛ ومن الشطط في القول أن نعتبر أوامر هؤلاء ونواهيهم ملتزمة أو حاجبة. بل إن النص الشعري يستحيل أحيانا إلى نص واضح الدلالة لاحتاج إلى تأويل. والشعر المعاصر نفسه قد يكون معنى بعض نصوصه واضحا كأن يدل العنوان عليه،

مثل قصيدة «مرادة» من ديوان (إنها تومى لى)، كما أن المحلل إذا ما اهتدى إلى رؤيا الشاعر المركزية فإن نصوصه تصبح ذات دلالة واضحة.

٢- النص البين:

وإذا كان النص أقل وضوحا، فإننا سنمنحه تسمية «النص البين»، حيث يدل فيه مؤشر العنوان والمعجم وقرائن أخرى على معناه؛ مثل قصيدة «انطفاء»، وعناوين الدواوين نفسها؛ (هكذا قلت للمهاوية)، (وردة القوضى)، (إنها تومى لى)؛ ومع أن هذه العناوين تكون محتملة لمعان آخر، فإن دلالتها تكون أبين في جهة من الجهات دون سواها.

٣- النص الظاهر:

قد يتردد المؤول في اختيار معنى هذه المعاني المتعددة، ولكنه - باعتماد على مقتضيات السياق وعلاق المساق - يميل بالمعنى إلى جهة البيان؛ لأن هذه الجهة أظهر من غيرها. مثلما هو الشأن في قصيدة «أرق»، فقد تداخلت الدلالات فيها، ولكننا أظهرنا الدلالة الجنسية على ما سواها.

٤- النص المحتمل:

النص بصفة عامة، والنص المعاصر بصفة خاصة غالبا ما يعتمد على بعض الدلالات المؤسسة للنص نفسه، خصوصا الدلالة الجنسية؛ ولعل قصيدة «بيننا» تصلح مثالا في هذا الصدد. فقد أبرزت الدلالة الحيوانية والدلالة المائعة، والدلالة اللغوية وغطت الدلالة الجنسية التي لا يتوصل إليها إلا بعد التأويل، وإلا بعد الغوص في أعماق اللغة، ولربما كانت هي المتوخاة في القصيدة.

٥- النص الممكن:

غير أن استخراج المعنى من النص أو منح النص معنى مشروعا قد يكون أعسر مما تقدم؛ فقد لا يظهر في القصيدة إلا مؤشر واحد قد يوجه نحو دلالة ما في قراءة، وقد يوجه نحو دلالة أخرى في قراءة ثانية. وقصيدة «ديننا» مثال لهذا، فقد يحترق القارئ في ضبط عنوانها، فإذا ضبط الدال بالفتح كان للقصيدة دلالة على بعض أنشطة الإنسان الدنيوية، وإذا ضبط الدال بالكسر كان للقصيدة دلالة على بعض أنشطة

الإنسان الدينية؛ ولكن ورود كلمة «النبي» مؤشراً يرجع الدلالة الدينية المصاحبة بالدلالة الحيوانية.

## ٦- النص العمى:

إلا أن هناك حالة قصوى من النصوص تقابل حالة النص الواضح، وهي «النص العمى»؛ وهذا النص يقدم مؤشرات عديدة تتداخل فيما بينها وتشابك حتى تصوير عبارة عن متاهة متعددة المسالك، فلا يدرى الذى يريد أن يخرج منها أية طريق يسلك. والنص نفسه يكشف عن حاله بكلمة «عماء»، أو «هباء» أو «فوضى»، كما فى «الآيات» التالية:

- صرخة صخرية مغروسة فى مفرق العماء.

- أنا سيد الهباء.

- متاهة.

مسكونة

بالغامض المضىء.

- منذور للرمادى الصفيق.

- مساحة منذورة للغامض الرمادى

## ٧- المدلول

### (أ) آليات التأويل:

نلاحظ من خلال هذا الترتيب أننا تدرجنا من طرف أول، هو النص الواضح إلى طرف أقصى هو النص العمى؛ وقد اقترحنا هذا الترتيب والتدرج؛ لأن النصوص اللغوية من حيث دلالتها على معناها ذات مستويات متعددة، وهذه المستويات موجودة قديماً وحديثاً، ومع ذلك؛ فكل نص معرض للتأويل وقابل له، ومن ثمة وجب اقتراح استراتيجيات لتأويل النص قد توظف كلها أو جلها.

نعلم أن هناك تيارين متقابلين فى النظر إلى تعابير اللغة الطبيعية؛ أحدهما تيار ما بعد الحداثة، وثانيهما تيار علم النفس المعرفى والذكاء الاصطناعى، وما بين هذين التيارين اتجاهات أخرى. لقد أنبأ تيار ما بعد الحداثة الناس بموت الاستقراء والاستنتاج؛ لأنهما يتطلبان اتجاه التاريخ نحو خلاصة - وجهة - معينة، ويقتضيان تراكمات للمعلومات. أى

أن «الاستقراء والاستنباط ناتجان عن توالٍ للقضايا عبر الزمان»<sup>(٢)</sup>، بمعنى أن اتجاه التاريخ وتراكم المعلومات يتحققان فى النصوص التقليدية الرتيبة التى تكفى معرفة نماذج منها ليتمكن التنبؤ بمضمون النصوص المماثلة لها، ومعرفة عنصر واحد منها يودى إلى استنباط العناصر الأخرى. وأما النصوص المعاصرة فهى فردية تقول ما لم يقل قط. ونظراً لفردانيتها فلا يصح فيها الاستقراء والاستنباط؛ لأن قراءتها وتأويلها يعتمدان على التجربة الفردية أيضاً. إلا أن هذا التيار لم يقدم آفاقاً للقراءة والتأويل وإنما استند إلى التدقيق وإلى مفاهيم فلسفية ظاهرية، أو مفاهيم علمية تقول بالفرد، وبالانقطاع، وباللعب اللغوى.

وأما التيار الثانى فهو معيارى تجريبى يستفيد من علم النفس المعرفى والذكاء الاصطناعى لقراءة النصوص وتأويلها. وهذا التيار يوظف استراتيجية الاستقراء والاستنباط. وقد صاغ مفاهيم عديدة مثل الأطر والمدونات والخطاطات والنماذج الذهنية. وهذا التيار يهيمن فى العمليات التعليمية وفى مجال المعلومات بصفة عامة.

بين هذين التيارين مواقف قرائية وتأويلية متعددة؛ مثل السيميائيات والدليليات والتأويلات، تستفيد من التفكيكيات حيناً ومن المعرفيات حيناً آخر، ومن نظرية الكوارث، ونظرية العماء حيناً ثالثاً.

لقد انطلقنا من استنتاج هو أن هناك ثلاث بنيات مندغمة يتمحور حولها أى نص: بنية فوق إنسانية، وبنية إنسانية، وبنية طبيعية. وهذا الاستنتاج لم يوضع وضعاً، وإنما استنبط من النصوص نفسها بعد عناء القراءة والتأويل وتجميع الأنشأ والنظائر. حقاً، إن الشعر المعاصر يوحى بموت الطرق التقليدية فى الإبداع وفى القراءة والتأويل معاً. إذ قلما يكون عنوان القصيدة دالاً على مضمونها ودلالاتها، وقلما يكون المعجم حقولاً دلالية منسجمة، وإنما تكون هناك مفردات مبعثرة ومبددة تجعل الموضوعات تتداخل وتتراكم. إلا أن من يريد أن يستخلص النظام من الفوضى، وأن يضيف على الظواهر صفات المعقولة، فلا بد له أن يوظف الآليات المؤدية إلى النظام والانظام والمعقولة، وأن لا يكتفى بشعار موت الاستقراء والاستنباط؛ فإذا كان هذا الشعار يريح من عناء



على الأقل؛ ويفترض هذا الاشتراك في باقي قصائد الديوان.

### ٣- الاستراتيجية التقييسية:

يبد أن الاستراتيجية التصاعدية إذا كانت مكلفة في فهم قصيدة ما، فإنه يمكن التخلي عنها، وبالتخلي عنها لا يمكن أن تستجمع عناصر ثابتة تكون أساسا لانطلاق الاستراتيجية التنازلية، ومن ثم يجب اللجوء حينئذ إلى الاستراتيجية التقييسية، وتعني هذه الاستراتيجية توظيف ماهو معلوم لفهم ماهو مجهول، والخبرات السابقة لفهم الأوضاع المستجدة.

يمكن التمثيل لها بقصيدة «برىء». ليس في هذه القصيدة ذكر لأي طائر، ولكنها مادامت تنتمي إلى النص نفسه، ومادامت هناك خبرة في تحليل قصائد من النص نفسه، وهي قصائد تحتوي على بنيات إنسانية وطبيعية «متسامية»، فإن هذه القصيدة تقاس - لفهمها - على القصائد السابقة، وهذا التقييس ليس خاطئا، إذ هناك عناصر كثيرة جامعة بينها وبين غيرها من القصائد في نص الديوان، وهي الحديث عن الإنسان، والمائع، والنبات، والزمان.

يبد أن هذه العملية التقييسية تكون سهلة حينما تنتمي القصيدة إلى النص نفسه، ولكنها تصبح صعبة إذا كانت القصائد من نصوص مختلفة، إلا أن هذه الصعوبة يمكن التغلب عليها باعتبار نصوص الشاعر جميعها نصا واحدا، ونصوص الشعر المعاصر نصا واحدا. وهكذا، ما دامت هذه الاستراتيجية مؤسسة على ما علم. وعليه، فإذا ما تعسر على قارئ ما فهم قصائد (هكذا قلت للهاوية)، فإنه يمكن أن يستثمر تجاربه التي اكتسبها من قراءة (وردة الفوضى الجميلة)، ومن (إنها تومى لى)، أو من تجاربه مع الشعر انعاصر أو الشعر بصفة عامة لحل مشكله.

### ٤- الاستراتيجية الاستكشافية:

إلا أن القياس يبقى مجرد قياس، فهو إذا كان يجمع بين الأشياء والنظائر فإنه يبعد عناصر من المقيس أو المقيس عليه، وقارئ النص مطالب بأن يتعرف الاختلافات أيضا، وقد تكون هذه الاختلافات هي جوهر النص، كما أن القياس قد يكون سطحيًا، وقد يكون خاطئا. لذلك لا مفر من اللجوء إلى الاستراتيجية الاستكشافية، ولعلها مطلوبة للولوج إلى عالم

التفكير والتدبير فإنه لن يقدم البحث العلمي، وينمى الرغبة في الكشف عما وراء الظاهر، ولن يتجاوز لذة القراءة إلى لذة التنظير.

### (ب) استراتيجيات التأويل:

تجنبنا لما يطرحه الاستقراء والاستنباط من حمولة منطقية، فإننا سنتجنب استعمالهما ونستبدل بهما تسميات أخرى شائعة في علم النفس المعرفي والذكاء الاصطناعي؛ وهي الاستراتيجية التصاعدية والاستراتيجية التنازلية، ويضاف إليهما الاستراتيجية الاستكشافية والاستراتيجية التقييسية.

### ١- الاستراتيجية التصاعدية:

تبتدئ هذه الاستراتيجية من فهم الكلمات والجملة ثم إلى فهم جملة أخرى تليها ثم ربط الجمل بعضها ببعض إلى نهاية النص. وقد توظف هذه الاستراتيجية في فهم القصيدة الواحدة، ثم قد تتخذ هذه القصيدة بمثابة الكلمة أو الجملة تفسر في ضوءها القصيدة والقصائد الأخرى؛ أي اعتبار الديوان كله نصا شعريا، وهو كذلك.

في ضوء هذه الاستراتيجية يمكن قراءة قصائد ديوان (إنها تومى لى) مبتدئين بالأولى فالأولى ما يليها: **القصيدة الأولى** تتحدث عن الصرخة التي هي بمثابة كائن طائر رآمر للهلاك. ودلالة الهلاك أكدتها قصيدة «قتيلا»، ثم «تهمى»...

### ٢- الاستراتيجية التنازلية:

تبعًا لتعبير قصائد ديوان (إنها تومى لى) عن «الهلاك»، و«الموت» و«ما رادفهما»، فإن أية قصيدة منه نعتبرها تدل على هذه «الموضوعة» وعناصرها؛ أي أننا نستعمل الاستراتيجية التنازلية باعتماد على المعارف المخزنة في ذاكرتنا. ومفاهيم علم النفس المعرفي اقترحت لهذه الاستراتيجية مفاهيم عديدة؛ مثل الأطر والمودونات والخطاطات والنماذج الذهنية؛ يمكن التدليل على نجاعة هذه الاستراتيجية بأية قصيدة من الديوان المذكور دون سابق اختيار. وهكذا، فإن قصيدة «أرق» تتكلم عن «الطيور» و«الصقور»، ونذكر أن قصيدة «صرخة» نتحدث عن طائر؛ فهما - إذن - تشتركان في هذه الموضوعة



نوظفها في النص الشعري وأن نجعلها تقوم بأدوار «طبيعية»، وهذا التوظيف الدينامي اضطرنا إلى بعض التعديل لقانونيتها والعلائق هي:

#### (أ) مافوق التناقض:

ونفترض أنها تكون بين تيارين ثقافيين متناقضين. فالشعر المعاصر، خصوصاً الشعر المنتمى إلى ما بعد الحداثة، قلب أو نقض كل القيم والمعاني المتداولة في أشعار من سبقوه، حتى إذا كانت قيم ومعاني الشعراء الرومانسيين.

#### (ب) التناقض:

ولكن هناك درجة أقل من «مافوق التناقض»، وهي التناقض، وهو يتجلى على مستوى الفقر ومستوى الجمل ومستوى المفردات. ومن الأمثلة التي يمكن أن تتخذ مثالا للتناقض قصيدة «لى» من ديوان (إنها ترمي لى) حيث يقع التناقض بين: الليل / الصباح. تقول القصيدة:

فى الليل

ينبت لى جناح من غبار

.....

وفى الصباح

أبتنى بيت الفرار

كما يوجد تناقض بين: الصباح / المساء، فى قصيدة «نهاية»:

كنت فى الصباح جحرا،

أو شجرة .

.....

وفى المساء :

أقتفى نهايتى المنتظرة .

وأما التناقض على مستوى الجمل فهو متعدد، نمثل له بما ورد فى قصيدة «التقاء»:

يلتقيان

لا يلتقيان

وأكثر منه ما يحدث من تناقض بين المفردات.

الشعر المعاصر. قد يكون من الحيف تفسير انقارء أو انؤول على التقبيس لإدراك أبعاد قصائد (عكس ذات للمهاوية)؛ حقاً، إنها تشترك مع غيرها فى البنية وفى الموضوع العامة، ولكن لها خصوصيات واحتمالات خاصة بالكشف عنها والاهتداء إليها، والترجيح بين تلك الاحتمالات؛ ومع ذلك، يمكن اعتبار الاستراتيجية التقريبية بمثابة فروض للاستراتيجية الاستكشافية.

#### ٥- الاستراتيجية الاستلزامية:

تلك استراتيجيات أربع: اثنتان تشتركان فيما يمكن أن نسميه بالاستراتيجية الاستلزامية، وتخصدها أن فهم النص يستلزم فهم جملة، وفهم جملة يحتاج إلى فهم جملة سابقة، وفهم الجملة يستلزم فهم الكلمة، والاستراتيجيتان هما التصاعدية والاستكشافية. وقد عرفنا بين الاستراتيجيتين باعتبار أن التصاعدية تتعلق بما وضح من الكلام أو غمض، فى حين أن الاستكشافية خاصة بالنصوص الغمضة

#### ٦- الاستراتيجية الاستنباطية:

وأما الاثنتان الأخريان؛ أى التناظرية والتفريبية فإنهما تشتركان فى الاستراتيجية الاستنباطية، إذ تشتركان كلياً في توظيف ما يعرف لإدراك ما يحتمل. أما وضع أوضاع وإرجاع النصوص إليها؛ مثل وضعنا للبيان الثلاث وجعلها متحركة فى النصوص الشعرية.

#### (جـ) درجات التأويل:

إن ما هدفنا إليه من وضع مفاهيم تثبت علائق القصائد الشعرية، ومفاهيم ترصد درجات معاني النص، ومفاهيم تضبط استراتيجيات القراءة، هو أن نسحج الدلالة العامة للنص؛ وهذه الدلالة العامة سنقترح تسميتها بـ «القلب»، قلب المعاني السائدة، وقلب القيم المتداولة، وقلب تراتب جمل القصيدة؛ إلا أن هذا القلب درجات، وباعتبار تدرجه فإننا سنقترح مفاهيم خاصة بدرجة «المنطقية»، ومفاهيم متعلقة بالدرجات الدلالية.

#### ١- الدرجات «المنطقية»:

تبنى المنهجيات السيميائية الحديثة علاقات منطقية إنسانية، وهى علاقات تناولها الباحثون من حيث انتمائها ومن حيث عددها ومن حيث أدوارها؛ وما يهمنا نحن هو أن

(ج) التضاد:

نقصد به أن طرفين يشتركان في بعض الصفات ويختلفان في أخرى، وإذا كان الأمر هكذا، فإن كل جملة أو قصيدة تتضاد مع أخرى. وينتج عن القصد الذى توخينا أن هناك تكاملاً بين الطرفين (طرف + طرف)، أو أن هناك رفعا للطرفين. فى ضوء هذه التكاملية يجب أن ينظر إلى الجمل وإلى القصائد. وإذا إنه من السهل الإتيان بأمثلة، فإننا سنكتفى ببعض الآيات:

وخلفى قطعان ذبيحة ترتل أورادها الشجية

خلفى أشجار أفلول تثمر النعاس والبكاء

(د) شبه التضاد:

وهناك علاقة أخرى غير علاقة التكامل أو الرفع، تلك هى علاقة الشوب، وتدعى اصطلاحاً بـ «شبه التضاد»، وتعنى الشوب بين طرفين، أو الامتزاج بينهما، وقد تؤدي إليه الطبيعة أو الثقافة. فمما تؤدي إليه الطبيعة الاحتضار الذى يكون فيه الكائن الحى بين الممات والحيا.. أو تؤدي إليه الثقافة، مثل الجمع بين البياض والسواد. ويسود الشوب والخلط والامتزاج فى الأوضاع الموقفة والغامضة. وقد ألفت كثير من قصائد ديوان (إنها تومى لى) إلى هذا الوضع، جاء فى قصيدة «تأوى»:

برهة غامضة

مساحة منذورة للغامض الرمادى

(هـ) الانتماء إلى التناقض:

ونعنى به ما كان معناه أدخل فى «التناقض» من غيره من الحدود. وإذا كان «التناقض» من أقوى درجات القلب فإن ما ينتمى إليه يحتوى على نسبة كبيرة منه. يمكن أن نتخذ أمثلة له من قلب تعابير معينة أو قلب بعض مكوناتها، وبطبيعة الحال، فإن التعابير المقلوبة تكون سابقة على القالبة. جاء فى (هكذا قلت للهاوية):

هكذا

قلت للهاوية افتحى لى،

وامنحني خيولك الذهبية،

واتسعى لى

هكذا

قلت للهاوية اتسعى لى،

وامنحني خيولك الذهبية،

واتركيني فى العراء

مثال آخر:

أمشى خطوات من نسيان

لا يصحبنى أحد : أرفسه إلى وراء

وأشعل النار فى المسافات السابقة.

لا بأس - إذن - أن أشعل النار فى الأغصان،

وأمشى خطوات من نسيان

(و) الانتماء إلى التضاد:

وهو ما يكون معناه أدخل فى «التضاد»، ولكنه أقل درجة من «الانتماء إلى التناقض» من حيث قوة المبنى والمعنى، مع أنه يعتمد على آلية القلب نفسها، ومثاله:

قلت لها : أنت

هوة

وأنا

حجر

أنت هوة

أنا طلبة عابرة

ومثال آخر:

أقتفى ظللى على مياه النعاس

على مياه النعاس أقتفى أثرى

٢ - الدرجات الدلالية:

تلك علائق منطقية «ضبابية» اقترحناها على النص الشعرى فتقبلها، وهى ما فوق التناقض، والتناقض، والتضاد، وشبه التضاد، والانتماء إلى التناقض، والانتماء إلى التضاد، وقد اقترحنا ما يضاهيها من درجات معنوية، وهى:

#### (أ) الاحتقار:

إن ما يهيمن على الشعر العربي المعاصر هو احتقاره غيره: احتقار الفاعلين والإيديولوجيات والشعارات، ولكل ما أدى إلى الهاوية؛ أى أنه احتقار لثقافة كاملة شاملة. والأمر أوضح من أن يمثل له.

#### (ب) الاستصغار:

ولكن إذا كان الاحتقار عاما شاملا، فإن هناك درجة أقل منه، هي «الاستصغار»؛ إذ هو متعلق ببعض الفاعلين المجتمعين، وبعض الممارسات الفكرية: «التيران الليبية»، «الكلاب السعرة»، «الملتصقون بحذاء المؤسسة»، ولعل ديوان (هكذا قلت للهاوية) يحتوى منه حظوظا وافرة.

#### (ج) الاستهزاء:

إلا أن هناك مقطوعات وأسطرا وحملات تكون أقل حدة من الاستصغار؛ وهذه الدرجة من القلب دعوناها بـ «الاستهزاء»؛ وأمثلة كثيرة منها:

وأعبر الاطلال والركام مرحا

- «عتمت مساء أجمل الغرسكن»

أين راحت خيولكم الشاهقة

يا لها من ذئاب عارمة»

#### (د) السخرية:

كما أن «الاستهزاء» قد تقل حدته فيتحول إلى «سخرية». ومع افتراضنا لترتيب السخرية هذا فإنها هي الأكثر على مستوى التعابير الشعرية المعاصرة؛ إذ لا يكاد تعبير يخلو منها، ولكنها تحصل في مستوى التعابير الجزئية لا على مستوى المقاطع أو الرؤى؛ ومن أمثلتها

حجر من الماء اللذيذ

حقل من سهر

مرآة من حجر

وردة الخطر

إنها تعابير جمعت بين مقولات لغوية مختلفة وحقوق دلالية متعددة فارتكبت قلبا في الأعراف اللغوية

والدلالية والقيمية. وقد تنبه قداماؤنا إلى مثل هذا فأسموه بـ «الاستعارة التهكمية»، وأثروا لها بأمثلة: فبشرهم بعذاب أليم، وذق إنك أنت العزيز الكريم.

#### (هـ) الهزل:

وقد تتداني درجة السخرية فتصير هزلا جامعا بين ما هو جدى وما هو لعبى كالتعبيرات التى هى من هذا القبيل:

يمشى مرحا يغنى للخسارات القديمة.

ويصفر التشيد الوطنى

وهو سادر فى التشيد

وهاهم الملوك الغابرون جاءوا فى العربيات  
الذهبية ذات الأجراس بعد أن ذهبوا حفاة عراة  
منبوذين.

#### (و) الدعابة:

وقد يمزج الشاعر بين الهزل والاستهزاء مع قسط وافر من الهزل، فيكون أقرب إلى السخرية، وقد يأخذ حظا مهما من الاستهزاء فيكون المعنى أقرب إلى الاستصغار، ولكن غالبا ما يتم المزج بين الطرفين فينتج معنى مشوب مزيج من السخرية والهزل مكتسب كيانا خاصا، وسندعوه بـ «الدعابة»، والشعر العربي ملئ بها، وكذلك الشعر المعاصر.

يتبين مما تقدم أن ما يهيمن على دلالة الشعر العربي المعاصر هو هذه الرؤيا القديحة الشاملة ذات الدرجات المختلفة، وهى رؤيا لا يدل عليها المضمون وحده، ولكن الشكل يرسم قسماتها أيضاً.

#### ٣ - الدال:

إن الشكل دال على مدلوله، وهما قصديان فى الشعر عموما، وفى الشعر المعاصر خصوصا، إذ القصائد أيقونات ومؤشرات ورموز تصير أيقونات بدرجة ما، وإن قارئ دواوين (وردة الفوضى الجميلة) و(إنها تومى لى) و(هكذا قلت للهاوية) يلفت انتباهه شكل إخراج القصائد، ومهما كانت وراء الإخراج ضرورات الطبع، وأيد وأفكار غير يدى الشاعر وفكره فإن القارئ لا يعبأ بذلك، و«يقتل» الشاعر والمخرج ولا

يكثر بالضرورات المتعددة وينظر فى النص على ما هو عليه ليؤول دواله.

لحسن الحظ، فإن الدال يتحدث أحيانا عن نفسه فيصف نفسه بـ «الموضى الجميلة»، أو بـ «الإيماء» أو بـ «الهاوية». وقد ورد فيه ذات مرة:

متاهة

مسكونة

بالغامض المضىء.

وهذه الازدواجية هى التى تحكم النص الشعرى على مستوى الشكل أيضا، فهو يكون أحيانا منظما، ويكون أحيانا أخرى مشتتا، ويكون منتظما تارة، ويكون مبدداً تارة أخرى، وقد يكون عبارة عن عماء، ولكن يمكن استخلاص نظام من ذلك العماء.

(أ) البياض / السواد:

تجلى هذه الازدواجية فى البياض والسواد وفى التفاوت بين طول الأسطر وقصرها، وبين دقة الحرف وغلظه. وسنركز على جدلية البياض والسواد؛ وجرياً على عادتنا فإننا سنضع مفاهيم لضبط هذه الجدلية، والمفاهيم هى السواد الكبير، والسواد الأكبر، والسواد الكبير، والسواد الصغير، والسواد الأصغر، والسواد الصغار. ويقابلها البياض الكبير، والبياض الأكبر، والبياض الكبير، والبياض الصغير، والبياض الأصغر، والبياض الصغار.

نقصد بالسواد الكبير السطر الذى يتجاوز ست كلمات، وأما ما كان فيه خمس فأكبر، وأربع فكبير، وثلاث فصغير، واثنان فأصغر، وواحدة فصغار، وإن الأمر بعكس ذلك فى البياض، فالسطر الذى فيه كلمة واحدة يهيمن فيه البياض الكبير. والذى فيه اثنان يسيطر فيه البياض الأكبر والذى فيه ثلاث كلمات البياض الكبير والذى فيه أربع كلمات البياض الصغير، والذى فيه خمس كلمات البياض الأصغر، والذى فيه ست كلمات البياض الصغار؛ يمكن

التمثيل لكل ما سبق بقصيدة «قتيلا»:  
على خاصرة الأرض، أمضى

جميلا

كفأى : فارغتان

قلبي : شاسع للطعنة المفاجئة.

فكل شئ يشبه الشبق المراوغ : لى .

ولى : شجر أعلمه الكتابة والغناء .

ثم

أمضى عنه

- على خاصرة الأرض -

قتيلا .

ولعل الديوان الذى يمثل جدلية البياض والسواد هو (هكذا قلت للهاوية)؛ إذ تبتدى القصيدة الأولى فيه بكلمة واحدة فكلمة واحدة أخرى، ثم تتوالى الجمل الشعرية يفصل بين بعضها بعض بياض، ثم يعيد الكلمة الثانية المنطلق منها:

قتلونى

فانفرطت

قطارات تعوى .....

.....

.....

وانفرطت

ثم يأتى بعد هذا جمل قصيرة مكتوبة بخط غليظ، وكأنها عبارة عن خلاصة مركزة:

تلك آيتى

ولاغفران

وقصائد هذا الديوان مليئة بهذه التقنية؛ أى البداية بكلمة واحدة ثم تنفرط الجمل الشعرية ثم يأتى التركيز فى فضاء ضيق، ثم يتلوه انفرط ثم يردفه انكماش وتركيز. وهكذا فى تناوب مستمر.

الاعتبار التعريف الشائع للتوازي؛ أى تشابه البنيات واختلاف فى المعانى، ولكن علينا أن لا ننخدع بالظاهر، وأن نبحت عن النظام والانتظام فى الفوضى والتشتت، وتحليلاتها فى التوازي وفى اللاتوازي. وللجمع بينهما علينا أن لا نأخذ مفهوم التوازي بالاعتبار المتقدم، وإنما علينا أن نقترح مفاهيم متدرجة؛ وهذه المفاهيم؛ هى التوازي الظاهر، والتوازي الخفى.

#### ١ - التوازي الظاهر:

نقصد به التوازي الذى نراه بأعيننا فى فضاء الصفحة، وسنحدده بأنه ما تكافأت بنيتة ومعناه تكافؤا كليا أو جزئيا. إن هذا التحديد يحتم التدرج والترتيب.

##### ( أ ) التوازي «المتطابق»:

وهو ما «تطابقت» بنيتة ومعناه من جهة النظر البصرى، وأما من جهة النظر الفكرى والواقعى، فإن التطابق عسير المثال وعزيز الوجود؛ ومن أمثله:

- على خاصرة الأرض

- على خاصرة الأرض

.....

- أهشها

- أهشها

- قطرة

- فقطرة

.....

- أنتظر

- فأنتظر

##### ( ب ) التوازي المتماثل:

وهو ما تماثلت بنيتة واختلف بعض معناه؛ مثل:

- تحط فوق شعري

وقد قلنا: إن القصائد كانت تكشف عن مضمونها وشكلها، وقد قدمنا أمثلة، وها نحن الآن نأتى بمثال آخر؛ نقول قصيدة «مسافة».

##### مسافة شائكة:

دم ، وصديد ، كسرة حاسنة من سماء

جنية تعدو على ماء ، وأسراب الزسوس

تكسر النسيان ، فى الماصى ستشسع الليالى

.....

.....

دخان جرى

هكذا وظف الشاعر دال البياض والسواد، ودال الطول والقصر، ودال الدقة والغلظ. كما أنه وطف التشتت والانتظام على مستوى الجمل ومستوى المفردات ومستوى الأصوات؛ وأغلب قصائد الشاعر محكومة بهذه الشائكة، فقد تناولت هذه المظاهر فى (وردة الفوضى الجميلة)، وجاءت بعد القصائد والمقطوعات فى (إنها تومئ لى) شذرات «مرأة تطل.. امرأة.. لى»، وتلت القصائد المتراكمة فى (هكذا قلت للهوية) أسطر نحيفة أو غليظة، وجاء على أثر سعة لأصوات بجميعها، كما هو الشأن فى المثاليين التاليين:

مثال أول:

ولا لى تطل أطويه فى طيات طاعتى الوطنية.

مثال ثان:

وأرمى لكم قافية طرية سهلة الهضم وأستل مينية سما وسيفا وسوطا وسهما لأسوءكم سوئى وسيئائى أوسوس لكم وأسوءكم بسخطى فتسلمون لى سنة من سهام أو عباس.

##### ( ب ) التوازي/ اللاتوازي:

قد يكون من الغريب الحديث عن التوازي فى النصوص الشعرية المعاصرة التى تظهر مشتملة مبعثرة أو متراكمة بعضها فوق بعض، وخصوصا إذا ما أخذنا فى



- تحط فوق قلبي

.....

- صفصافها يموء فى جسدى

- صفصافها يغوص فى صدرى

.....

- ولى - فى كل آن - جلوة

- ولى - فى كل آن - صبوة

(ج) التوازى المتشابه:

وهو ما اختلفت بعض بنيته وبعض معناه؛ مثل:

- كنت ألهو برماد الوقت، وقتاً.

- وألهو فى سماء من هشيم

.....

- طائر من الهروب والكلام،

- طائر من الفخار يهوى من سماء مرة...

(د) التوازى المتشاكه:

وهو ما اختلف فى كثير من بنيته وفى كثير من معناه؛

مثل:

- بيننا احتضار مرجاً

- بيننا عصف وبيل

.....

- تأوى إلى جسدى طيور البحر...

- ترتوى البحار من دمي

(هـ) التوازى المتشاكل :

وهو ما اختلفت بنيته واتفق فى بعض معناه؛ وهو كثير

جداً، إذ يمكن التعبير عن معنى واحد بأشكال مختلفة؛

ومثاله:

- خنجر يرف - فى الهواء - رفتين.

- يهوى على سهوى.

.....

- تأوى إلى جسدى طيور البحر،

والصبايا.

و- التوازى المتضاهى

وهو ما اختلفت بنيته ومعناه، وهو عزيز ونادر إذا

التمس ضمن القصيدة الواحدة، أو النص الواحد؛ ونعنى به

ما كانت فيه درجة ضئيلة من التكافؤ؛ مثل:

- كَفَّها فى كفى اليمنى

- وسماء تمطر الأرق النحيل

.....

فكيف شبت بين كَفَّينا

نخيل من عويل

تلك هى درجات التوازى الظواهر؛ وهى التوازى

المتطابق، والتوازى المتماثل، والتوازى المتشابه، والتوازى

المتشاكه، والتوازى المتشاكل، والتوازى المتضاهى. وهذا

التدرج يؤكد جدلية النظام والقوضى، والانتظام والتشتت فى

الخطاب الشعري. فما يضمن النظام والانتظام هو وجود

درجة ما من التكافؤ، وغير وجود تكافؤ حق يوحى بشئ من

القوضى؛ إلا أن التكافؤ قد يبرز إذا التجأنا إلى التقديم أو

التأخير أو التقدير، وحينئذ لا تراعى الخطية، أو نزال

اللاخطية. ولنضرب له بثلاثة أمثلة:

١ - صرخة تحط - فى الصباح - فوق شباكى

(صرخة) تحط (- فى الصباح -)

فوق شعري

(صرخة) تحط (- فى الصباح -) فى

قلبي

أهشها

أهشها

أقول

٢ - قطرة من الصمت تفصل بين نافذتين

على هاوية

٥ - جراح تتكى على مساء بارد

٦ - ولم أكن وحدي

٧ - فظلي كان يتبعني كشيطان رجيم

٨ - ثم

٩ - يسبقني إلى الحانة ،

١٠ - يحتسى دوني ،

١١ - ويتركني إلى وقت الحساب

وهاوية من اختلاف الوقت تفصل بين

سمايين على جثة عارية

وجثة من اشتعال الوقت تفصل بين

منتشرين على مقبرة خالية

يلتقيان

لا يلتقيان

٣ - وهذا مثال أزيلت خطبته بإعادة كتابته:

قطارات تعوى

قبائل مدججة

جرة مقلوبة

٢ - التوازي الخفي:

إلا أن رؤية العين غير كافية لإثبات توازي تحليل الخطاب الشعري، ولذلك لابد من إعمال عين الفكر أيضاً، وإعمال هذه العين يحتم تجاوز ما هو ظاهر إلى ما هو خفي، وما هو سطحي إلى ما هو عميق حتى يمكن إثبات النظام والانظام الكامن وراء بنية الشعر المعاصر المعقدة، ولاكتشاف الخيط الناظم العميق، فإننا نقترح بنية مجردة تتكون من ستة مكونات، وعناصر البنية هي: المنفذ، والمعاني، والآلة، والمصدر، والهدف، والزمكان. وبحسب الدرجة التي تتحقق بها البنية يمنح لها اسم؛ وهكذا، إذا احتوت بنية ما على العناصر الستة فهي تواز خفي متطابق، وإلا فهي تواز خفي متمائل، أو تواز خفي متشابه، أو تواز خفي متشاكه، أو تواز خفي متشاكل، أو تواز خفي متضاه.

ولنوضح هذا بمثال قصيدة «دوني» من ديوان (إنها تومي لي)، تقول القصيدة:

١ - رياح تكنس الشارع من بقايا العابرين

٢ - لم أكن وحدي

٣ - نباح مارق في الليل يحتسى بالسيستان

٤ - لم أكن وحدي

	المنفذ	المعاني	الآلة	المصدر	الهدف	الزمكان	نوع التوازي
١	الرياح	الشاعر	الرياح	الرياح	بالأما العابرين	الليل	توازي خفي متطابق
٢	وحدي						متضاه
٣	النباح	السيستان				في الليل	متشاكه
٤	وحدي						متضاه
٥	براح	على مساء				على مساء	متشاكه
٦	وحدي						متضاه
٧	ظلي شيطان رجيم	الشاعر					متشاكه
٨							تواصل
٩	الظل	الشاعر				الحانة	متشابه
١٠	الظل	الشاعر				(الحانة)	متشابه
١١	الظل	الشاعر				وقت الحساب	متشابه

يتضح من هذا المثال:

- أنه يمكن إدماج بعض الحالات في بعضها البعض، وتبعاً لذلك، فإن الحالات الأساسية هي المنفذ والمعاني

اللاتوازي؛ وأن هناك نظامًا وانتظامًا وراء ما يظهر أنه لا نظام وفرضى على مستوى الدليل، كما أوضح ذلك مفهوم: التعالق الخطي/ التعالق اللاخطي، كما أن هناك نظامًا وانتظامًا على مستوى المدلول كما بين ذلك مفهوم: الدرجات المنطقية/ الدرجات المعنوية. وهذا النظام والانتظام يعبران وجود تدلال معنوي وهو أمر لا شك فيه، ولذلك علينا أن نجارزه إلى البحث عن التدلال المرجعي.

إن الكشف عن تدلال مرجعي يحتم علينا افتراض قصدية الخطاب الشعري؛ أي أن علاقته بمرجعيته علاقة ضرورية وطبيعية وليست اعتباطية؛ ومع ذلك، فإننا سندقق - في هذه العلاقة - بوضع مفاهيم متدرجة؛ وهذه المفاهيم هي الأيتون المتطابق، والأيتون التماثل، والأيتون المتشابه، والتناقل، والتعاقد والتواطؤ.

#### (ب) أيتونية التدلال:

##### ١ - الأيتون «المتطابق»:

تكون العلاقة في الأيتون المتطابق مؤسسة على تطابق البينيتين، بعضهما مع بعض؛ أي أن عناصر النص متطابقة مع عناصر البنيات المرجعية. وقد وضحنا قبل أن هناك بنيات ثلاثا: بنية متسامية على البشر، وبنية إنسانية تتجلى في الحياة وفي الممات وفي اللغة وفي التدوين وفي الملكية، وفي باقي الحاجات الأخرى من أولية وثانوية، وبنية طبيعية تتجلى في الحيرانات وفي النبات وفي المائعات وفي الجمادات. وتطبيقا لذلك الوضع، فإن القصائد لن تأتي إلا متطابقة مع هذه البنيات، أو فلنقل: إنها تحاكيها محاكاة تامة؛ ومن ثمة تأتي البنيات اللغوية منعكسة في البنيات اللغوية؛ إذ هذه مرآتها، كما أن تلك مرآة هذه؛ أي إنه انعكاس متبادل.

##### ٢ - الأيتون التماثل:

إلا أن هذا التطابق ليس خاصا بالنص الشعري، وإنما هو ينعكس في كل نص؛ وأي نص لا يستطيع التعبير - بإحاطة - عن كل تلك البنيات، وإنما يعبر عن كثير منها أو

والزمكان، ولكن عدت الحالات حتى يمكن وصف مجمل الوقائع اللغوية.

- أن أغلب درجات التوازي موجودة في هذه القصيدة، وأن أي سطر لم يخل من حالة معينة مما يؤكد العلاقة بين الأسطر على المستوى العميق؛ وهذه العلاقة هي النظام الذي وراء الفوضى والانقطاعات والتشتتات.

- أن «حالة» بينية تقوم بالصلة بين الأسطر والحالات، وتبعا لوظيفتها منحت اسم «تواصل».

### ٣ - تكامل مفهوم التوازين:

قد يلاحظ القارئ وجود تطابق بين مفاهيم التوازي الظاهر ومفاهيم التوازي الخفي، ولكن هذا التطابق ليس من كل الجهات. فلو كان من كل الجهات لكان التقسيم باطلا، ولكنه تطابق من بعض الجهات دون غيرها؛ إذ هناك اختلاف في الوظيفة المسندة إلى مفاهيم التوازي الظاهر عن الوظيفة المسندة إلى مفاهيم التوازي الخفي. ذلك أن المفاهيم الأولى ترصد ما ظهر من توازن باعتماد على حاسة البصر والسمع والنفوذ، إلا أن هذه الحواس والملكات قد لا تحيط بتصنيف كل الظواهر التعبيرية فتبقى متبقيات. وأما المفاهيم الثانية المستندة إلى عین الفكر فتذهب إلى ما هو أعمق وإلى ما هو أكثر تجريدا فتدبر أمر المتبقيات؛ إلا أن الحالات القليلة تغلب عليها اللغة الطبيعية الملتبسة والمحتملة فتتداخل مما يصعب ترجيح إحداها على الأخرى. ومع كل ذلك، فإن مفاهيم التوازي الظاهر ومفاهيم التوازي الخفي ليست إلا وجهين لعملة واحدة: هذه العملة هي إثبات النظام والانتظام واستخلاصهما من اللانظام والفوضى.

### ٤ - التدلال المرجعي:

#### (أ) قصدية التدلال:

إذن، هناك نظام وانتظام وراء ما يظهر أنه نظام وفوضى على مستوى الدال، كما يبين ذلك مفهوم: التوازي/

### (ج) التمثيل بالنبات:

وهو أنواع عديدة؛ مثل الصفصاف الذى يموء،  
وحقول الأرجوان، وأشجار النحيب والتوت المنكر، وغابة  
السيبان .. وأغلب ما مثل به هو نباتات وأشجار ضارة غير  
نافعة ليس فيها من ثمار إلا ثمار الوهم والأشواك المؤذية.

### (د) تفاعل العناصر :

يعثر القارئ فى قصيدة واحدة على عنصر المرأة،  
وعنصر الحيوان، وعنصر النبات، وعنصر الماء، وكثير من  
القصائد تمثل هذا التفاعل الظاهر؛ ولعل أظهرها قصيدة  
«برهة» . ففيها تفاعل الماء والمرأة والحيوان والنبات:

لم يكن نهر

كأنت امرأة تفتش فى رمادى

.....

بحار من نواح

منقاره يمتد فى دمي

وردة من براح

### (هـ) طوطمية المجتمع :

فى هذا الكون الذى امتزجت فيه البنيات وتجاذبت  
فيما بينها وأثر بعضها فى بعض يمكن القيام بموازاة  
وتطابقات بين البنيات الثلاث، إلا أن ما نريد التنبيه إليه هو  
إمكان الموازنة بين مجتمع الإنسان والمملكة الحيوانية،  
والمملكة النباتية؛ وهكذا، فإن المجتمع غابة، والمدن سراع؛

يارا غابة من الضحك

.....

الثيران الليلية

.....

ذاكرة أهبها للكلاب السعرائة.

.....

عن بعضها. وإذا كان النص الشعري ذا طمعة خاصة، فإن له  
أدواته التعبيرية المميزة. ولذلك سنبين على تمثيلات النص  
الشعري «الأيقون التماثل». ومن طرق التمثيل التى يمر بها  
النص الشعري الأحلام وأحلام اليقظة والكوابيس  
والهلوسات، أو يمكن أن يقال إن هناك تحليلات لهذه الآليات  
النفسانية فى القصائد الشعرية المعاصرة؛ وهى آليات ناتجة عن  
الحيط الثقافي والاجتماعى والسياسى. فى إطار هذه الآليات  
يمكن أن نقرأ قصائد: «إنها تؤمى لى»، و«هكذا قلت  
للهاوية» وغيرها؛ ففى هذه القصائد تمثيل بالجنس،  
وبالحيوان، وبالماء، وبأفعال الإنسان، وبالزمان، وبالمكان.

### (أ) التمثيل بالجنس:

ما دمنا افترضنا أن أية قصيدة تقتوى على عنصر الجنس  
فإن الإتيان بأمثلة لهذه الموضوعية يصير تمثيل حاصل؛ ومع  
ذلك، فإننا ملزمون بالتمثيل حتى يتحلى ما خفى من أمور.  
وهكذا، فإن قصيدة «ربما» تتحدث عن المرأة الشامية ذات  
الورد الثلجى التى هم بها الشاعر الذى لم ينل أربه منها،  
وقصيدة «مراودة» تعبیر مباشر عن الجنس كما يقتضيه من  
مراودة ونعاس ورغبة.

إلا أن هذا التمثيل بالجنس لا يقف على الفحولة  
المنهزمة أو على الرجولة ذات البهيمية، وعلى الإحباط  
والفشل الذريع؛ وتعبير آخر إنه أيقون لا على واقع حقيقى،  
ولكنه أيقون على الأوهام، إذ لما هذا الأيقون المباشر بل  
استحالت المرأة من «قطرة» إلى «حجر» . يتحول الشاعر من  
جذوة الاشتهااء والرغبة إلى «حجر انطفاء»

### (ب) التمثيل بالحيوان:

ويأتى التمثيل بالحيوان لتقسيم هذه الصورة - صورة  
الأوهام والمتاهات؛ والحيوانات تنقسم إلى أنواع عديدة؛ منها  
الثيران، والطيور، والعصافير، والصفقير، والوعول، والذئبة،  
والكلاب، والأسود. وهو يعبر بها عن افتقاد العقل والعقلانية  
وهيمنة الخرافة والاستيحاش والإفقار والإفلام والتهيه. وقلما  
كان لبعضها دلالة إيجابية.

وخلفى قطعان ذبيحة ترتل أورادها الشجيرة،

خلفى أشجار أقول تثمر النعاس والبيكاء

٣ - الأيقون المتشابه :

هو أيقون يشبه بالأحلام المزعجة، وبالرؤى الكابوسية وبالهلوسات، إنه أيقون يتجلى فيه انفصام الشخصية التي تعيش في عالمين: العوالم الواقعية بكل إحباطاتها ونكساتها وخساراتها، والعوالم الممكنة التي هي امتداد للعوالم الواقعية. الأمثلة كثيرة:

حينما استيقظت كان منتصف الليل

أبها النوم الجبان

لما جعلتني ضحية اللصوص والقتلة

وغيمة من الحلم الطفيف

وكنت نوما فوق ماء ،

كنت ماء نائما على خريف

وقد جاء شكل القصائد شبيها بهذا الوضع الوجودي المضطرب؛ إذ كل قصيدة تشابه وضعاً أو حالة أو موقفاً مع درجات من التشابه. فقصائد (إنها تومى لى) ليست مشابهتها إلا إيماء. فقد استغلت الفضاء ولكنه استغلال لا يشير الانتباه كثيراً إلا فى قصائد مثل «تأوى» و«بارا» و«مسافة»، وفى الشذرات. ولكننا نجد مشابهة ظاهرة فى قصائد «هكذا قلت للهواية»، إذ شكلها يدل على الانفرط والتبدد والانحلال، وانقلاب القيم، ثم يتحول الانفرط إلى انتظام، والتبدد إلى تجميع، والانحلال إلى انعقاد، والانقلاب إلى استقامة. وما بين الحالات توالى للجمل مفصول ببياض. فالتقاط الأنفاس فاستئناف فانقطاع فتكثيف فى حروف غليظة. إنها مظاهر شكلية تشبيهية للحالة المرضية والحالة السوية ولما بين الحالات من أطوار.

٤ - التعالق :

نقصد به الكناية والحجاز المرسل ولما لهما من معان وعلاق كاللازمة والملزومة والجزئية والكلية والحالية والمحلية. والتعالق ليس مبنياً على المشابهة، وإنما هو ناتج عن ارتباط شئ بشئ، وإيهاء شئ بشئ. وما يتحقق به التعالق العناوين بصفة عامة. وهكذا، فإن العناوين التالية تعالقات: (وردة الفوضى الجميلة)، (إنها تومى لى)، (هكذا قلت للهواية). هناك فوضى، وهى فوضى المجتمع، وهناك إيماء إلى الهلاك والاحتضار والعجز، وهناك أسباب مؤدية إلى الواقعة وإلى الهواية.

بالإضافة إلى المؤشرات العنوانية، فإن هناك مؤشرات أخرى تتجلى فى بعض الكلمات المعجمية المحورية والحروف الغليظة، وطول الأسطر وقصرها؛ فالكلمات مثل الانفرط والهباء والوليمة والحدد.. والتشديد وطبيعة الكتابة مثل:

قتلوني

- أنا سيد الهباء

هل آن آتى الآن ؟

٥ - انعقاد :

إلا أن هناك مؤشرات لا تعود إلى القرائن اللغوية، ولكنها ترجع أساساً إلى تعاقدهم بين مجموعة من الناس لإسناد مدلول ودلالة لدليل ما، مثل تعاقدهم مجموعة من الناس على أن يرمزوا للعدل بالميزان، وبالصليب للديانة المسيحية، وبالهلال للديانة الإسلامية.. وتعاقدهم على إصدار أحكام على بعض الحيوانات والوظائف والمهن والمظاهر الثقافية. وهكذا حينما تذكر الشيران والوعول والكلاب والديبة، والصقور والأسود والعصافير، والقراصنة والبرابرة والانكشافية وأصحاب النياشين والأوسمة، فإنها كلها ترمز إلى معنى خاص حسب ما تم من تعاقدهم بين المستعملين.



دام المستقبل ليس ملكاً له فلن ينال إلا الفجیعة والثشت  
والتبعثر:

لك اختيار المكان أما الزمان فلى

.....

لى المكان والزمان ليس لى

.....

هناك ماضٍ متورٍ ومستقبل مأمول، ولكنه غير مأمون،  
وفصول يهيمن فيها الخريف، ونهار خامل، وليل نشيط  
بأحلام اليقظة والكوابيس المزعجة:

أنشع الزمن

ياؤى إلى جسدی وبنى عشه باتساعی،

قشة فقشة من الفصول البائدة .

لهم جسدی - فى النهار - سریر ،

ولیلی - لهم - يقظة حاقدة

أزمنة تتقاتل .

.....

٦- التواطؤ:

قد يستند بعض الناس إلى مفهوم التواطؤ فيظعن فى  
كل ما قدمناه من مفاهيم متعلقة بالتدلال المرجعى، بدعوى  
أن اللغة اعتباطية وليست قصدية، ويدعوى أن الشعر المعاصر  
هو ضد المحاكاة. يصح هذا الطعن لو نظر إلى اللغة باعتبارها  
مفردات منعزلة غير مركبة، ولكنها بمجرد ما تركب تصير  
ذات دلالة قصدية وطبيعية، كما أنه يصح لو لم ندرج  
المحاكاة.

لقد درجنا المحاكاة فابتدأنا بأقواها درجة وهو الأيقون  
«المتطابق» وانتهينا بأقلها درجة فى المحاكاة، وهو التواطؤ.  
فالتواطؤ، إذن فيه درجة ما من الأيقونية. ونستند إلى مسلمة  
هى أن أى نص شعري مهما كانت تجريديته ولا عقلانيته  
وتشظياته، له درجة من الإحالة على «الواقع» والوقائع، ومن  
ثمة تشبهه بها بعض التشبه. ولعل من نفى المحاكاة عن الشعر  
المعاصر إنما كان يقصد محاكاة «الواقع» والوقائع والمعاني

بيد أن التعاقد ليس على درجة واحدة، فقد يكون  
عاماً، وقد يكون خاصاً، وقد يكون ما بينهما. فإذا ما استطاع  
الناس أن يدركوا العلاقة بين الإنسان والحيوان بسهولة  
لاستمرار البقايا الطوطمية فيهم فإن قليلاً منهم هو الذى  
يعلم مرجعية استعمال الزمان بما فيه من فصول وأوقات، وما  
وقع به من تشبيهات، كما أن أقل القليل هو الذى يفهم  
تعبير «سهم الزمان».

وقد استعمل الشاعر التعاقد العامى المتبدل والتعاقد  
الخاصى؛ وقد أشرنا قبل إلى بعض التعاقدات العامة والمتبدلة،  
وأما الآن فنسمثل لبعض التعاقدات الخاصية.

كنت فى الصباح حجراً.

أو شجرة

أمشى

.....

وفى المساء

أقنتى نهايتى المنتظرة .

.....

إلا أن ما يثير الانتباه هو اتجاه سهم الزمان. فقد تقرر  
لدى الأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع وعلماء الفيزياء على  
الخصوص أن اتجاه سهم الزمان تقدمى، ولكن الشاعر يوجهه  
نحو الوراء؛ أى إلى الزمان الماضى؛ يقول:

سنلتقى فى الأمس

حين ينفجر الفضاء

إلى عزاء

إنها رؤيا تضاد بعض علماء الفيزياء الذين يعتقدون أن  
سهم الزمان متجه نحو المستقبل، فى تصور فوسوى ينتج عنه  
«الموت الحرارى»، ولكن رؤيا الشاعر أيضاً سائرة إلى انفجار  
فى الفضاء وإلى الموت المادى والمعوى، ولذلك فهو يريد أن  
«يتخلى» عن هذا الماضى وينتجه نحو المستقبل بهبة ذاكرته  
للكلاب السعرائة ويتمنيه سيده السيان أن يدركه، إلا أن  
المستقبل نفسه ليس ملكاً له وإنما غيره هو الذى يملكه، وما

وقد سعينا من خلال هذا التدرج إلى مجاوزة البنيات الثنائية باقتراح تقسيم سداسى، وهو تقسيم مستقى من السيميائيات أساسه الثنائية البنيوية والتقابل المنطقى. وقد أبعانا الروح المنطقى وتبيننا استراتيجية علم النفس المعرفى ونظرية المعاء؛ إذ كل منهما يتحدث عن الانتظام التراتبى وعن تحليل الهدف الكبير إلى أهداف صغرى، وعن الدوامات والحلزونيات.

المتعارف عليها والمتداولة بين كثير من الناس ولا يقصد أن الشعر المعاصر لا يخلق محاكاة جديدة ناتجة عن تواطؤ مجموعة من الناس؛ فلو قدمت هذه الدعوى لكانت منقوضة من أساسها. فقد بينا أن الشعر المعاصر هو شعر حكائى بامتياز، ولكنها حكاية ساخرة من مؤسسات وقيم وأعراف.. وحكاية معززة لقيم جديدة.

### ثالثاً: - تضاхийات:

#### ١ - ما بعد الثنائية:

فى ضوء هذه المفاهيم عالجتنا العلاقة بين الأدلة باقتراح مفهومى: الخطية/ اللاخطية، ومعنى الأدلة بمفاهيم: النص الواضح/ النص العمى، والاستلزام/ الاستنباط. وقاربنا الدلالة بمفاهيم: ما فوق التناقض/ شبه التضاد، والاحتقار/ الدعاية. وشخصنا خصائص الدال بـ: السواد/ البياض، والتوازى الظاهر/ التوازى الخفى. كما اقترحنا تدرجاً للتدلال المرجعى. والخطاطة التالية توضيح لما سبق:

لدراسة هذه الحكاية وضعنا مخططاً صيغت خريطته من بعض المفاهيم السيميائية والدليلية وعلم النفس المعرفى ونظرية المعاء مع تعديلات وتحويرات. ولهذا وسعنا مفهوم الدليل فجزأناه إلى دال ومدلول وتدلّال معنوى وتدلّال تداولى ومرجعى، وكل مفهوم احتوى على درجات؛ إلا أن توسيع مفهوم الدليل وتدرججه ليس إلا خطوة لتوسيع المفاهيم الأخرى وتدرججها.

العلاقة بين الأدلة		معنى الأدلة		الدلالة		الدال		التدلال		
٦ -		التطابق	النص الواضح	الاستلزام	ما فوق التناقض	الاحتقار	السود الكبير	البياض الصغير	التطابق	
٥ -		التفاعل	التماثل	النص البين	التصاعد	التناقض	الامتصاص	السود الأكبر	البياض الأصغر	التماثل
٤ -		التداخل	التشابه	النص الظاهر	الاستكشاف	التماثل الخفي	الاستهزاء	السود الكبير	البياض الصغير	التشابه
٣ -		التحاذي	التحاذي	النص المحتمل	التنازل	التضاد	السخرية	السود الصغير	البياض الكبير	التحاذي
٢ -		التباعد	التشاكه	النص الممكن	التقييس	الانزياح	الهزل	السود الأصغر	البياض الأكبر	التشاكه
١ -		التقاصي	التضاهي	النص العمي	الاستنباط	شبه التضاد	الدعاية	السود الصغير	البياض الكبير	التضاهي
									التواطؤ	

#### ٢ - ما بعد الفوضى:

يظهر من خلال هذه الخطاطة أن هناك نظاماً وانتظاماً وراء الفوضى والمعاد. وأن الباحث ملزم بأن يذهب إلى ما هو أبعد من الظاهر ليستخرج القوانين العامة الشمولية التى

واضح أن ما يجمع بين مكونات هذه الخطاطة العامة هو تكونها من ست درجات تتنازل أو تتصاعد تدرجياً، وأما ما يجمع بين الخطاطات الفرعية فهو التضاهى أو التقابل، أو التطابق، فالتضاهى فى خطاطات: العلاقة بين الأدلة ومعنى الأدلة والدلالة، ويجمع الدال بين التقابل والتطابق.

مضروباً لما يمكن أن تعالج به ظواهر أخرى. لذلك، فإن ما اقترح ليس إلا من قبيل الاستراتيجية الخاصة بحل المشاكل؛ والنص الشعري ليس إلا مشكلاً من بين المشاكل.

تتحكم ظواهر الكون. فالظواهر بينها علاقات مهما تبينت مختلفة الأجناس والأنواع والأصناف. وإن استخلاص النص الشعري وانتظامه من الفوضى والعماء، ليس إلا مثلاً

### مراجع :

٤ - سامي أدهم، ما بعد الفلسفة. الكابوس، الشطى، الشيطان الأعظم، بيروت: دار كتابات، ١٩٩٦ .

٥ - رفعت سلام:

- ورثة الفوضى الجميلة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧ .
- إنها تسمى لى، القاهرة: وزارة الثقافة المصرية.
- هكذا قلت للهاوية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣ .

١ - انظر: Michael Riffaterre, *Sémiotique de la poésie*, Paris, Seuil, 1983, pp. 11 - 32.

٢ - انظر: William Frawley, *Text and Epistemology*, Ablex Publishing Corporation, 1987, p. 55.

٣ - انظر: James Gleick, *La Théorie du chaos, vers une nouvelle science*, Paris, Albin Michel, 1989.

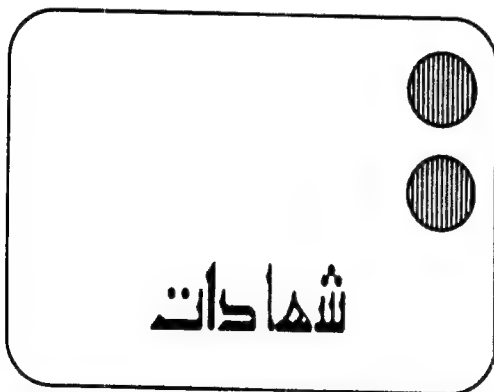
### فى العدد القادم من «فصول»

#### دراسات وشهادات مترجمة عن أدونيس:

روحية مونية. ألان بوسكيه. جاك لاكارير. كلود استيبان. باتريك هوتشنس. هنرى ميشونيك. جان إيف ماسون. سيرج سوفرو. مكسيم رودنسون. صلاح ستييه. أثيل عدنان. دينيس لى.



سازمان اسناد و کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران







سازمان اسناد و کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران

# الشعر المعاصر بين التجربة والتجريب

محمود أمين العالم\*

فى عناوين أغلب المداخلات فى مؤتمرنا هذا، بل فى المداخلات جميعاً، كان مصطلحُ «التجريب» هو المصطلح السائد. بل الوحيد. تقريباً فى معالجة الإبداع الشعرى، اللهم إلا مداخلة واحدة هى مداخلة الدكتور «محمد عبد المطلب»، التى تناولت مصطلحاً آخر هو مصطلح «التجربة» الذى تمّ تجاهله تماماً فى أغلب المداخلات الأخرى.

وما أعتقد أن فى الأمر مصادفة، أو أن مصطلح «التجريب» كان يتضمن مصطلح التجربة. بل أرى أن سيادة مصطلح التجريب كان تعبيراً عن سيادة رؤية منهجية محددة.

حقاً، إن المصطلحين ينسبان إلى جذر اشتقاقى واحد، ولكن لكل مصطلح منهما دلالة خاصة متميزة. ولعلنا بتحديد هذا التمايز نحن ذواتنا مصطلح التجريب فى معالجة الإبداع الشعرى فى إطار مفهوم الحدأة عند بعض النقاد الحدائين

انتقد الدكتور محمد عبد المطلب فى مداخلته مفهوم التجربة الذى شاع فى الواقع الإبداعى العربى فى الخمسينيات، والذى يشكل كما يقول من ثلاثة خطوط. يعود أولها إلى الواقع الخارجى، بوصفه المثير للتكوين النفسى الداخلى، ثم التكوين النفسى الذى هو ثمرة هذا الأثر الخارجى، ثم الخط الثالث المتمثل فى

\* ناقد ومفكر مصرى.

ارتداد الخطين إلى الخارج فى تشكيل صياغى، بمعنى انتماء التجربة إلى الخارج كما يقول. والدكتور محمد عبد المطلب يتجاوز هذا المفهوم للتجربة، ويعدّه غير صالح لمعالجة الإبداع الشعري فى منجزاته الإبداعية الأخيرة، وهو يكاد يقصر هذا المفهوم الثلاثى الخطوط على مفهوم الكلاسيكية أو الرومانتيكية أو الواقعية. ولهذا، يجتهد فى تقديم مفاهيم أخرى غير مفهوم التجربة الذى تحولت عنه - كما يقول الدكتور عبد المطلب - الشعرية الجديدة هى مفاهيم الموقف والأحوال والمقامات ثم اللحظة. على أن هذه المفاهيم هى فى تقديرى أبعاد مختلفة لمفهوم التجربة نفسها، تعمقه وتفصله دون أن تلتفه، خاصة لو نهمنى التجربة لا باعتبارها مجرد انتقال من الواقع الخارجى، إلى التكوين النفسى الداخلى ثم إلى التشكيل الصياغى الخارجى. فليس هناك خارج محض، ولا داخل محض، فى أية تجربة حية، خاصة تجربة الإبداع الشعري. وإنما التجربة خبرة حية، يتداخل ويتفاعل فيها الخارج، بالمعنى الثقافى والموضوعى الشامل، مع الداخل بمعنى الخبرات السابقة والموروثات والثقافات والقيم والمعتقدات الدينية والإيديولوجية والأخيلة والذكريات تداخلا وتفاعلا وجدانيا باطنيا متوترا، هو أقرب إلى المعاشة الحميمة والمعاناة القلقة الملتبسة، يكون تشكيلا عن التجربة الباطنية وليس تشكيلا لها.

وبرغم العنصر الذاتى الأساسى فى التجربة الوجدانية الحية من حيث هى مصدر للإبداع، فهى فى تحقيقها الجمالى والدلالى، جزء من النسيج والسياق الثقافى العام السائد، وإن تكن متمردة عليه، ومجاورة له.

ولهذا، فالقول بالتجربة الباطنية أو الوجدانية لا يحصر الإبداع الشعري أو يقصره على المذهب الكلاسيكى أو الرومانتيكى أو الواقعى، بل لعله أن يكون جوهر كل إبداع، إن كان إبداعا حقا.

ومن هنا، فإنه لا سبيل - فى تقديرى - إلى استبعاد مفهوم التجربة من المنجزات الإبداعية الجديدة، مهما تنوعت وتعددت تجليات هذه التجربة.

فإذا انتقلنا إلى مصطلح التجريب الذى يقتصر عليه العديد من النقاد الحدائين فى معالجتهم للحركة الإبداعية الشعرية الجديدة، لوجدنا أنه يكاد أن يكون عملية أدائية إجرائية خارجية - معرفية بالطبع - لا تصدر عن تجربة المعاناة والخبرة الوجدانية الباطنية. بل يكاد يغلب عليها طابع الاصطناع والقصد والغائية، أو طابع الانتقائية أو التلقائية المحضنة، بل المصادفة العابرة فى بعض الأحيان.

حقا، إن كل تجربة - بالمعنى الذى ذكرناه - لا تخلو من تجريب. فالفعل الإبداعى لا يولد كما تولد «أثينا» من رأس «زيوس» شاكية السلاح، مكتملة العناصر كما تذهب الأسطورة اليونانية، وإنما تخضع التجربة نفسها لعمليات إجرائية من التنقيح والتعديل والحذف والإلغاء والإضافة والتغيير فى رحلة تخارجها وتحقيقها، ولكنه تجريب يتم فى إطار هذا الفيض الصادر من التجربة المتوترة الباطنية نفسها. بل هناك أحيانا تجريب وجودى لا يتعلق بالمنتج الإبداعى بل يتعلق بالمنتج أو المبدع نفسه؛ أى بالإعداد النفسى لعملية إنتاجه وإبداعه. فأحيانا يصطنع بعض الشعراء والفنانين عامة تجارب باطنية اصطناعا كمنطلق لمغامرة اكتشافية لرؤى ومشاعر غير عادية. لعلنا نعرف ما كان يتعمده رامبو من اصطناع تجارب باطنية من ممارسات جسدية وسلوكية ومزاجية حادة، تطلعا إلى اصطياد أو انبثاق رؤى مطلقة متوالية وراء خبرته العادية التلقائية! وما أكثر ما يمكن أن يقال عن ذلك فى حياة بعض الأدباء والفنانين فى ثقافتنا العربية.

وعندما نتحدث عن التجريب كما تتبناه الشعرية الحديثة، فإننا لا نقصد هذا التجريب التنقيحى أو الوجودى المصطنع، المرتبط بتجربة باطنية؛ وإنما المقصود التجريب الذى هو نقطة البدء فى رحلة الإبداع

نفسه؛ أى يكون التجريب عملية إحرائية أدائية غير مشروطة بشكل مباشر بالتجربة الباطنية بالمعنى الذى ذكرناه. وإن كان من المستحيل بالطبع إعمال أثر الباطن فى أى تجريب. ولكن المسألة تتعلق بالمصدر الأول والأساسى لفعل الإبداع. فهو فى التجريب الحدائى فعل غائى إجرائى يستهدف التعامل الحر مع مفردات اللغة وإنتاج أبنية إبداعية مغايرة أو ضدّة للأبنية السائدة الدالة المستقرة، والقطيعة معها.

أخشى أن أكون متحيزاً للحدّة، عندما أقول إن هذا المفهوم للتجريب فى شعرية الحدّاة، يكاد يكون أقرب إلى ما يسمى فى ترانسا الشعرى القديم بالصنعة بمستوى أو بآخر. وأذكر هنا بيت المتنبى المشهور «أنام ملء جفونى عن شواردها» وسهر الخلق جرّاه ويختصم» على أنى ما أعتقد أن المتنبى نفسه كان ينام ملء جفونه، بل كان يقوم بالتجريب كذلك تصويماً وتجويداً لتجربته الإبداعية وليس اصطناعاً لها.

أردت بهذا أن أُميّز بين التجربة، بوصفها مصدراً للإبداع بالمعنى الذى حدّدته من قبل، والتجريب بالمعنى الذى يدور الحديث حوله فى شعر الحدّاة، بل تتم ممارسته كذلك.

وفى تقديرى أن وراء هذا التجريب الحدائى منهجية ألسنية تغلب الدال على المدلول، فى تحديد الإبداع الشعرى، وتجعل الأولية له، بل تقول أحياناً على لسان بعض النقاد بأحاديته المطلقة. ويتبعهم فى هذا الشعراء الحدائيون. فالشغل فى الدال اللغوى، أو بتعبير آخر فى التشكيل الخارجى أساساً، هو منطلق الإبداع الحدائى أو ما بعد الحدائى. نخباً لشمعانى الكلية والمضامين والإيديولوجيات، والإسقاطات الذاتية. وبهذا تفقد المفردات اللغوية معانيها وما وراءها من خبرات ثقافية وتاريخية، وتصبح مجرد عناصر فى بنية متعددة الإمكانات التشكيلية وربما خالية تماماً من المعنى بل حريصة على اللامعنى أحياناً عند البعض. إن المقبول بل المنشود بالطبع هو أن يتحقق للمفردة اللغوية المتمردة على معجمها تحدّد دلالى ومعنوى وجمالى، تتجدد به اللغة والمعارف والأذواق لا أن تتحول إلى حجارة صماء معتمة! على أن هذه المنهجية الألسنية التقنية الخالصة، تستند إلى رؤية إبستمولوجية وشعبية للواقع الإنسانى والطبيعى، فلا ترى فيه إلا ما هو جزئى متشظّ، وتنكر بالتالى الكليات والتعميمات، وبرها سلطات قامعة لا بد من التحرر منها فى مختلف المستويات الفكرية والثقافية والإبداعية عامة. ولما كان الواقع متحرّكاً، متشظياً، فإن هذا يفتح للشاعر آفاق حرية المطلقة للتشكيل الإبداعى غير المشروط بأى شئ. سيكون الشاعر - هنا - خالقاً بحق، بالمعنى الأشعرى الذى يذهب إلى أن كل شئ مكون من ذرات أو جواهر فردية؛ كما أن الزمن مكون من آتات منفردة منفصلة، وأن الله يتدخل فى كل لحظة ليصوغ كيانات العالم جمعاً، المادية والنباتية والحيوانية؛ إذ لا علاقة سببية بين أشياء العالم وموجوداته ولا ترابط بينهما ولا تخفى كمالاً لها إلا بالتدخل الإلهى المباشر فى كل آن! وهكذا يقوم شاعرنا الحدائى بتشكيل عالَمه الشعرى عبر آفة شروط موضوعية. وهكذا يتم التجريب الإبداعى أو المغامرة الإبداعية فى تشكيلاتها المتحررة من كل ساحة مسبقة، أو أية غاية مستهدفة أو دلالة محددة، غير الإبداع ذاته. وبهذا، يصبح مفهوم الإبداع مرادفاً لمفهوم القطيعة المطلقة لكل ما هو سائد قائم. ولهذا، قد تتبين فى كثير من الظواهر الإبداعية الحدائية أرواحاً فى البنية الإبداعية نفسها بين تخطيطها العقلانى، ولا عقلانية أو انعدام هذه الدلالة. ومن هنا، فى تقديرى يبدو الإبداع الحدائى - أحياناً - على درجة عالية من الغموض، ليس الغموض الذى هو من طبيعة كل إبداع أدبى وفنى، وإنما الغموض الذى يصل إلى حد الإبهام والعتامة، وقد يبدو أحياناً أخرى على درجة مبدئية من السج العادى لبنيته اللغوية. فالمهم هو المغامرة المتمردة على ما هو سائد مسيطر، ولكنها أحياناً المغامرة العشية أو العدمية أو اللعب اللفظى الذى لا يكاد يقضى إلى دلالة. وما أكثر الأمثلة

وما أشد تنوعها، من تشكيلات طباعية ذات هياكل مربعة أو مثلثة أو مستديرة، أو تحويل للأبنية الشعرية إلى رسوم لحوانات أو نباتات أو كتابتها بخطوط زخرفية حديثة أو قديمة إلى غير ذلك.

وهكذا، يتحول الشعر أحيانا إلى أشكال خالية من دلالتها، التي يحملها معجمها اللغوي وتراثها الثقافي، ودون أية إضافة إليهما، وقد يتحول إلى علاقات متشابكة أفقية أو رأسية، لا يوحدها رباط معنوي كلي، اللهم إلا خروجها على منطق الترابط التقليدي دون أية دلالة جديدة وقد تجمع بين أبنية مختلفة لغوية سردية أو غنائية أو توثيقية إلى غير ذلك.

وتختلف هذه التجارب بين التسطح والرصانة، بين العبث الخالص والاجتهادات الجادة، فضلا عن تنوع التشكيلات التجريبية. وأكثرى بمثاليين من هذه الاجتهادات الجادة الرصينة، حتى لا يكون حكمنا على التجريبية الحدائية حكما سلبيا مطلقا.

المثال الأول هو ديوان شاعر كبير على درجة عالية من الثقافة والدربة والخبرة والرؤية الإنسانية، وله دواوين أخرى لا ينطبق عليها ما ينطبق على ديوان «آية جيم» الذي أعدّه مسرحا للعب لغوي محض، وإن كان لعبا يتضمن معاني مستترة، يمكن استخلاصها واستنتاجها عقليا بالمفارقة اللغوية أو المعنوية، ولكنها لا تسهم في أن تجعل لهذا الديوان قيمة شعرية حقيقية.

أما المثال الثاني فهو (الكتاب) لأدونيس، الذي أعدّه أهم ما أصدره في السنوات الأخيرة. وهو كما يقول في مدخله: «مخطوطة تنسب إلى المتنبي يحققها وينشرها أدونيس»، وهو يضع له عنوانا فرعيا هو «أمس المكان الآن»، مما يوحي بتاريخية متصلة في أجزائه التالية بعد هذا الجزء الأول من (الكتاب). و(الكتاب) عبارة عن تأريخ يتخذ من السنة الحادية عشرة هجرية سنة تأسيسية له ويمتد حتى أواخر القرن الثاني عشر للهجرة. و(الكتاب) يكاد يذكرني - في الحقيقة - بديوان (مجنون إلسا) لأراجون، الذي هو ملحمة تاريخية شعرية مجيدة تجمع بين السرد والقصائد الغنائية والدرامية والسرد العادي أحيانا، وتصور محنة خروج العرب من الأندلس وما عانوه من جراء ذلك. وهو من أجمل وأنبيل دواوين أراجون.

و«كتاب» أدونيس هو تأريخ شعري كذلك لما تعرض له شعراء وعلماء وفقهاء ومتصوفة وأدباء لصنوف التعذيب والامتهان والقتل طوال تلك المرحلة المحددة، وهو يجمع في تأريخه بين السرد العادي والسرد شبه الشعري والشعر الغنائي والإشارات التوثيقية. ويكاد يتلخص الكتاب في بيت شعري هو:

كأنما التاريخ مشجب تعلق عليه الرؤوس.

وهو يكرس كل صفحة من صفحات أقسامه الأربعة في جزئه الأول لشخصية من تلك الشخصيات التي تعرضت لمحنة. فيعرض لمحتتها على لسانها، بأشعارها أو بكلماتها أو على لسان راوية. على أن كل صفحة تنقسم إلى هامش على اليمين يتحدث فيه الراوية، وهامش إلى اليسار للتوثيق في أغلب الأحيان وفي وسط الصفحة مستطيل في أعلاه بعض الملامح الحياتية للشخصية، وفي أسفله ما يمكن أن نعدّه بلورة شعرية دالة على محنة أو تجربة هذه الشخصية. وهناك تنوعات تشكيلية أخرى في الكتاب.

والكتاب يسوده التخطيط الدقيق والعقلانية المحكمة في تتابع الشخصيات والتحقيب التاريخي لها. وهو تجربة تشكيلية تحمل دلالة واضحة تكاد تغلب على دالها الشعري. ولهذا، فهو نموذج آخر للتجريب الشعري



نقرؤه بعقولنا وثقافتنا أكثر مما نتذوقه تذوقاً شعرياً اللهم إلا في صفحاته الأخيرة التي يطلق عليها اسم «توقعات»، وما أجدر هذا «الكتاب» بقراءة تحليلية تفصيلية.

وأشير، أخيراً، إلى سمودج استمعنا إليه في هذا المؤتمر في مداخلة الدكتور كمال أبو ديب. وما كان لي أن أنجب الحديث عنه، وأرجو ألا أكون مغالياً إن قلت إن هذا النموذج يكاد يكون نموذجاً فذاً لما يمكن أن يحققه المغامرة التشكيلية الحاصصة، التي هي في الحقيقة ليست إلا الامتداد الطبيعي والمنطقي للفلسفة التي تذهب إلى حصر الإبداع في الدوال وتغييب، بل إلغاء، الدلالات. فالنتيجة لهذا التجريب النموذجي هو إلغاء التاريخ الإنساني والانتقال إلى الجغرافيا الضامّة، أي إلى واقع تشكيلي غير إنساني يفتقد أية دلالة، اللهم إلا التواجد في مكان، أو بالأحرى في زنزانة مكانية مصمّمة.

وأكرر أن نقطة البداية نتى تفصل بالإبداع إلى هذا المصير هو قصر الإبداع على الدوال دون الدلالات، فضلاً عن التفريق الحاد بينهما (تمنيت لو كان بحث الدكتور كمال أبو ديب بين أيدينا، لأننا نحن لنا ذلك تحليلًا تفصيليًا له).

على أننا نتبين، في ضوء هذه الأمثلة الثلاثة، أن هناك أكثر من تشكيل تجريبي، بل هناك مالا حد له من التشكيلات. كما تتبين اختلافًا وتنوعًا في المستويات.

وهناك، بغير شك، أمثلة أخرى، لعلها استطاعت أن تحسن التفاعل بين دوالها ودلالاتها، أو جنحت إلى هذا الجانب على حساب الجانب الآخر.

وأقول في النهاية إن قصة التجريب في الشعر الحدائي تكاد تستعيد في الحركة النقدية من جديد قضية العلاقة بين الدال والمدلول. أي الصياغة والمضمون، رغم محاولات طمسها طوال السنوات الماضية، وإن تكن تتجلى على مستوى جديد أكثر التباساً وتعقيداً من تجليها السابق.

إن قضية التجريب في الشعر الجديد، رغم ما تشيره من تساؤلات، وما قد تفضي إليه من فضاءات مصمّمة، تشكل - بغير شك - حصيرة في الحركة الإبداعية والنقدية على السواء، وهي التي تفجر ما نسميه «بأزمة الشعر العربي المعاصر، وتعطل تواصله مع الجماهير القارئة بل المثقفة».

على أنها، في تقديرى، ليست مجرد أزمة شعرية، بل هي جزء من أزمة عامة في ثقافتنا وأوضاعنا العربية المعاصرة عامة، نتمنى أن نكون محاضراً - مع اجتهادات أخرى في مختلف المجالات - إلى مرحلة إبداعية وإنتاجية وقومية جديدة نأز بها واقعنا المأزوم.

## الشعر والنقد

محمود الربيعي\*

ما الشعر؟

«الشعر محاكاة للطبيعة، غايتها التطهير، بإحداث توازن في النفس، يخلصها من القدر الزائد عن حاجتها من عواطفها الغريزية، وبخاصة من القدر الزائد من عاصفتي الخوف والشفقة» (أرسطو).

بل

«الشعر محاكاة للطبيعة غايتها المزاوجة بين المتعة والفائدة» (هوراس)

بل

«الشعر محاكاة للطبيعة هدفها تعليمي أخلاقي» (سدني).

بل

«الشعر تعبير تلقائي عن فيضان المشاعر الغلابة» (وردزورث).

بل

«الشعر غيبوبة أوبيوم» (كبلاخان كوليردج).

\* ناقد ومترجم، مصر.

بل :

«الشعر نقد الحياة» (ماثيو أرنولد).

بل :

«الشعر بنية هندسية من الحواس المشخصة المعادلة للمشاعر» (اليوت)

بل :

«الشعر تحفيز اشتراكي هدفه العمل على إزالة الفوارق بين الطبقات» (الواقعيون الاشتراكيون).

بل :

«الشعر تحفيز وطني عام» (وطنى لو شغلت بالخلد عنه.. نازعتنى إليه فى الخلد نفسى).

بل :

«الشعر تهيج شعورى عام» (وفى ذلك نماذج لا تحصى!).

ولن أدخل فى تعرف الشعر من وجهة نظر سيكولوجية، أو سوسولوجية، أو بنيوية، أو تفكيكية، فإن ذلك قد يورثنى موارد الشجار مع الآخرين، أو الإشفاق عليهم، أو السخرية بهم، وأنا لا أحب شيئاً من ذلك. لذا أستمر فى طريقي:

ما الشعر؟

«الشعر دعوة للخيال ليكون فى خدمة المنطق» (جونسون).

بل

«الشعر إحلال العاطفة فى الفكرة والكلمة» (جون ستوارت ميل).

بل

«الشعر أن تصنع بالكلمات ما يصنعه الرسام بالألوان» (ماكولاى).

بل

«الشعر هو التجسيد الموسيقى للجمال» (إدجار آلان بو).

بل

«الشعر هو الفكر الموسقى» (كارلايل).

بل

«الشعر إرساء ركائز نبيلة للعواطف النبيلة» (راسكين).

بل

«الشعر أن تقول شيئاً عظيماً بطريقة بسيطة» (إدوارد فترزجيرالد).

بل

«الشعر أن تقول كلاماً خالداً يبقى على الزمان» (أودن).

بل

«الشعر هو تسجيل ردود فعل الإنسان في مواجهة الحياة» (لويس ماكنيس).

بل

«الشعر مجال يرتاد فيه المرء دهشته الخاصة» (كرستوفر فراي).

والى القارئ هذه المحاور القصيرة بين بوزويل وجونسون:

بوزويل: ما الشعر؟

جونسون: إنه لأسهل على كثير أن أحدد لك «ماليس بالشعر»، أما تحديد «ما الشعر» فأمر في غاية الصعوبة؛ ذلك أن الناس جميعاً يعرفون الضوء، ولكن من منهم يستطيع تقديم تعريف له؟

والآن: هل نياس من تقديم تعريف للشعر مادامنا لا نستطيع تقديم تعريف للضوء؟ أو نمضى لطرح محاولات أخرى قام بها قدامة بن جعفر وحازم القرطاجني وغيرهما في النقد العربي الحديث، وقام بها البارودي وشوقي من شعراء العرب في العصر الحديث، ثم قام بها مئات النقاد والشعراء ممتازين وأوساطاً؟ أو ترانا نكون على الجادة حين نقول إن كل قصيدة جيدة تقدم تعريفها الخاص للشعر ضمننا، وذلك بتمييزها وانفرادها عن القصائد الأخرى الجيدة؟

على أننا ينبغي، في جميع الأحوال، أن ننصت قبل طي هذه الصفحة إلى هذا الكلام البديع لأكتافيو بات:

الشعر حالة ما بين:

ما آراه وما أقوله.

وما أقوله وما أسكت عنه.

وما أسكت عنه وما أحلم به.

وما أحلم به وما أنساه.

(ترجمها قيصر عفيف، وتصرفت أنا في الصياغة تصرفاً يسيراً).

هل نستطيع أن نستخلص شيئاً مما سبق؟ أو هو الشتات؟ إنني أرى من بين هذا الذي يبدو شتاتاً صيغة يمكن استخلاصها والاتفاق عليها؛ هي أن الشعر فن قولى، لا هو صوت خالص كما هو الحال في الموسيقى (وإن كان الصوت جزءاً لا يتجزأ منه)، ولا هو لون كما هو الحال في الرسم (وإن كانت الصور البصرية -

وجوهرها الألوان - جزءاً لا يتجزأ من خامسة الشعر) ولا هو نحت أو فن تشكيلي (وإن كانت الهندسة والتشكيل عنصرين ملحوظين في كل تجسيد شعري فعال). وإذا لم تثر عبارة «الشعر فن قولي» خلافاً كبيراً (ولا بأس بأن تكون ليست جامعة مائة)، فإننا نستطيع أن نبني عليها القول بأننا إذا دخلنا إلى الشعر من باب لغته نكون قد دخلنا إليه من باب الطبيعي، وإذا دخلنا إليه من أبواب أخرى (التاريخ أو الجغرافيا، أو السياسة، أو القومية، أو علم النفس، أو علم الاجتماع أو حياة صاحبه، أو حتى علم اللغة)، نكون قد دخلنا إليه من الباب غير الطبيعي، فنكون قد أخطأنا المدخل، أو على الأقل نكون قد أخطأنا في ترتيب أولويات الدخول إليه.

وأقدم الآن إلى سؤال آخر: ما موقف النقد من الشعر؟ أو بعبارة أخرى تؤدي المعنى: ما علاقة الناقد بالنص الشعري؟ وما الذي يحرك الناقد لاختيار النص الشعري الذي يتعامل معه؟ وأستريح في الإجابة عن هذا السؤال إلى كلام كنت قد قرأته وسببت صاحبه، والمصدر الذي قرأته فيه، ولكنني لم أنس فحواه، بل بقي هذا الفحوى يكبر في نفسي على مر السنين، وبذا أثر على معتقدي النقدي تأثيراً كبيراً. يقول هذا الكلام إن ناقد الشعر مثل كلب الصيد، وإن القصيد مثل أرنب الحقل، فإذا رأى كلب الصيد أرنب الحقل تحرك من فورهِ - وبغريزته - إلى العمل. هذا الكلام جميل، مركز، بعيد المرمى، وهو محتاج منا إلى أكبر قدر من التأمل، وطول النظر. الكلب لا بد أن يدرك (ولا ما تحقق له هذا الفعل الشرطي في القيام الغريزي للعمل) وأرنب الحقل لا بد أن يظهر (وذلك حتى يوم الحساب الآخر الضروري للفعل الحيوي)، وتلك العملية الحيوية الشرطية (شبه الغريزية) عملية أبعد ما تكون عن ميكانيكية (وإن بدت في عدم تخلفها كذلك)، وذلك لارتباطها بملابسات وشروط معقدة غامضة، تحس ولا تكاد توصف.

وأود أن أضيف إلى المثال السابق مثالا آخر أمدني به صديقي السعيد بدوي، وذلك إثر حادثة «نقدية» حدثت لي من سنين طويلة. كنت قد نشرت بحثاً نقدياً طويلاً عن نص شعري واحد قصير، فكتب معلق يقول إن البحث جيد والقصيدة ضعيفة. لعلهُ أراد أن يدخل السرور عليّ، ولكنني استأثت بالطبع لأن منهجي النقدي العملي القائم على العمل من داخل النصوص يأبى أن ينقسم النص عن النقد الذي يتناوله، بحيث لا يصح الحكم على أحدهما حكمه. فاجابني بالتحكم على الآخر. وأراد السعيد بدوي أن يواسيني فكتب لي رسالة شخصية يشرح فيها نظرتي إلى الشعر. الناقد قال: إن القصيدة عنده تمثل «نقرة أبو الغيط» والناقد يمثل «المرأة المريوحة» (وهي التي تلبس جسدها الشيطان). فنحن نراها جالسة في «حفلة الزار» عليها الهدوء والوقار حتى إذا جاءت نقرتها هبت للعمل. إنها لا تدخل أبداً حتى تجيء النقرة، وهي لا تتأخر لحظة عن مجيء هذه النقرة.

وأقول تأسيساً على ما مضى - وإرتياحاً له - إنه إذا حركت قصيدة تناول السياسة ناقدًا فدخلها من باب السياسة، يكون صاحب «نقرة سياسية» لا «نقرة نقدية أدبية»، وقس على ذلك كل عمل شعري يحرك «ناقده» من باب الموضوعي لا من باب اللغوي؛ ذلك - وأكرر - أن الشعر شعر والسياسة سياسة، والشعر شعر والوطنية وطنية، والشعر شعر والتاريخ تاريخ. أما إذا حركت القصيدة الناقد من باب لغتها فإن نقرته الصحيحة في هذه الحالة تكون «نقرة نقدية أدبية». ويمكن لمثل هذا الناقد بالطبع أن يدخل لغواً، وينتهى سياسياً، أو وطنياً، أو ما شئت، ولكن ما يبده من سياسة، أو وطنية، أو تاريخ، لا يمكن أن يكون عندئذ مطابقاً مطابقة معرفية للسياسة أو الوطنية أو التاريخ الذي هو متاح له قبل دخوله نسيج القصيدة (وأذكر هنا - دون أدنى نية للتحرش بالفهم المشوه لمعنى الحادثة بمعنى قول الجاحظ دون أن أعني نص عبارته: إن المعاني مطروحة في الطريق.... وإنما الشعر جنس من السور... إلخ).



ولن أدع قارئى فى منتصف الطريق، وإنما أعرض عليه نصا شعريا قصيرا هو واحد من آلاف النصوص التى تمثل «نقرتى» فى الشعر العربى، وهو (وياللدهشة) نص يعرفه القاصى والدانى، وهو (وياللدهشة كذلك!) للمتنبى:

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا  
وعناهم من شأنه ما عانا  
وتولوا بغصة كلهم منه  
وإن سرّ بعضهم أحيانا  
ربما تحسن الصنيع لياليه  
ولكن تكرر الإحسانا  
وكانا لم يرض فينا بريب  
الدهر حتى أعانه من أعانا  
كلما أنبت الزمان قنا  
ركب المرء فى القناة سنانا  
ومراد النفوس أضفر من أن  
نتعاضد فيه وأن نتفانى  
غير أن الفتى يلاقى المنايا  
كالحات ولا يلاقى الهوانا  
ولو أن الحياة تتبقى لحي  
لعدونا أضلنا الشجعانا.  
وإذا لم يكن من الموت بد  
فمن العجز أن تكون جبانا  
كل مالم يكن من الصعب  
فى الأنفس سهل فيها إذا كانا

يسود جو «الصحبة» فى المطلع، ولكن لا ينتهى البيت إلا ومعنا عنصر مضاد (مناوش) هو «العناء»، وهذا العنصر المناوش سرعان ما يفعل فعله، فنجد أن الأمر تحول فى البيت الثانى إلى سيادة عنصر «الفصّة»، فى حين يقتصر عنصر «السرور» على المناوئة. وهكذا تتبادل الأجواء مواقعها، فتخلى الصحبة موقعها للعناء (أو تكاد)، ويخلى السرور موقعه للفصّة (أو يكاد). كل هذا فى مساحة مركزة جدا، مساحة بيتين اثنين!

وحين يمتد التعبير الشعري يصبح العنصر القائم من الحياة عنصراً سائداً؛ ولكن تكدر الإحسانا (البيت الثالث)، وتأمل «لكن» المستقرة المطمئنة في جانب الكدر، و«ربما» الاحتمالية المترددة في جانب «إحسان الصنيع».

على أن القصيدة تعمل حادثة منذئذ - وبعد الأبيات الثلاثة الأولى - في تنمية المعنى وتطويره؛ إذ ليس الزمن وحده هو الذي يمثل العاء والغصة والكدر منذ الآن، بل ينضم العنصر البشرى رافداً إضافياً فعالاً يعين الدهر على الختل والريب. وهذا يجعل المعنى يبدو مقيداً ومفتوحاً في آن؛ فإذا نظرنا إلى الرافد الجديد في حدود أنه مساعد ومعين كان جيداً، وإذا لحظنا العموم المتمثل في كلمة «من» كان إطلاقاً. وعنصر الإطلاق هذا هو الذي يساعد على استمرار المعنى صاعداً إلى ذروة محتومة في نهاية القصيدة.

لقد أرست الكتلة الشعرية المكونة من الأبيات الأربعة السابقة ركيزة صلبة أسست مقدمة واسعة للمعنى، في نسق متوازن دقيق، تأرجح بالحياة حتى استقر بها في أذهاننا على نحو يجعل «الشقاء» فيها أصل مستقر، و«السعادة» لمحات. وقد هيأ هذا الجو المناسب لإرساء النتيجة على المقدمات، وأكد أقول إرساء «السقف على الحيطان»، وهذه هي النتيجة الأولى:

كلمتها أنست الزمان قناة

وكنب المرء في القناة سنانا

وبرهاني على أن هذا البيت يبيجتها أنه خلاصة مستخلصة على نحو متوازن مركب للعناصر الموزعة بطريقة فعالة جداً في الأبيات الأربعة السابقة. وبرهاني على أنه يكون «سقفاً» متيناً لما مضى أنه يسوده معجم صلب محسوس (تأمل أنست المرء/قناة/القناة/سنانا - وتأمل كذلك التوازن الدقيق على مستوى توزيع التعريف والتكبير)، في حين أننا نلاحظ أن معجم الأبيات الأربعة السابقة: يكاد يخلص للمجردات (الصحة/الزمان/العناء/الأمر/التولي/الفصحة/السور).

على هذا النحو تكون القصيدة جاهرة الآن للتقدم نحو بناء كتلة شعرية جديدة تصبح ذروتها نتيجة أخرى أشد تركيباً وتعقيداً؛ ذلك أن هذه النتيجة الأولى التي فرغت من الكلام عليها ستدخل في النتيجة الأخرى - أو نتيجة النتائج - وتصبح خيطاً في نسيجها:

ومراد النفوس أصغر من أن

نتعادي فيه وأن نتفاني

ثمة «مراد نفوس» قريب، وهو الذي يعبر عنه هنا، وسترده القصيدة عما قريب «بمراد نفوس» من نوع آخر. ويمكن القول إن هذا «المراد» «مراد صغير» وآية صفه أنه لا يصح أن ينهض سبباً للتعادي (ولاحظ صيغة «التفاعل»)، ذلك من أنه ينهض سبباً للتفاني (ولاحظ أيضاً صيغة «التفاعل»). وينتج عن هذا - بداهة - أن صيغة السلام (الوجه الأخر للتعادي)، أو قل معنى «الصحة» - التي أشارت القصيدة إليه في مطلعها - صيغة حيوية في الحياة، وهي كذلك لأنها لازمة لحفظ الحياة (الوجه الآخر للتفاني). ثمة مطلبان حيويان، إذن، هما السلام والحياة، أو الجهاد في سلام، وهما مطلبان يصغر إلى جانبهما التعادي والتفاني. إنهما لا يصغران فحسب، بل يصيران «أصغر»

لكن مهلا ! فكل هذا مرتبط بالمعنى السابق للحياة. هذا المعنى الذى ستقلبه القصيدة رأسا على عقب، وذلك بتقديم معنى آخر للحياة يصبح المعنى السابق إلى جواره مرفوضا بسلامه (نفى التعادى) وسلامته (نفى التفانى):

غسير أن الفتى يلاقى المنايا

كاحات ولا يلاقى الهوانا

إذا كانت الحياة التى قررتها القصيدة فى الأبيات السابقة - والثى يصغر فيها «مراد النفوس» - تنقض هنا بكلمة واحدة هى كلمة «غير»، فلا بد أن يكون الذى سنواجهه منذ الآن نوعا آخر من الحياة مضادا فى مفهومه للمعنى السابق. وكلمة «الهوان» هى حجر الزاوية الذى يؤسس عليه المعنى الجديد؛ إذ الحياة الجديدة هى حياة «الهوان»، وهى نوع من الحياة يلزم لردّها إلى صوابها - وهى الحياة الخالية من الهوان - لا التعادى والتفانى فحسب، بل التعادى والتفانى فى أبشع صورة لهما: «المنايا كالحات».

وتقف كلمة «الفتى» فى مطلع هذه الصورة الجديدة، التى قلبت الصورة السابقة رأسا على عقب، ماثلة مساحة الرؤية كلها. وعلينا إذا أردنا التمكن من هذه الصورة أن نخلص الذهن أولا من الظلال التى تحيط بمعنى «الفتوة» فى السياق الشعبى الحديث، بخاصة ما يتصل منها بالجانب الذى لا يخلوها من «العنجهية»، والصخب، والتدمير. فإذا فعلنا ذلك ودخلنا بنوع من «الحس التاريخى» على مادة: فتى بدأ لنا لقاء «المنايا كالحات» فى ضوء جديد، «ضوء» يقف مضادا لما يحمله «التعادى والتفانى» من «ظلال». لقد أصبح الخيار لا بين الحياة والموت، وإنما - وباللهشة! - بين الهوان والموت، بل ينبغي أن أقول: بين الهوان وأبشع صور الموت. وهكذا يتجلى الهوان باعتباره «موتا نموذجيا»، تتضاءل إلى جواره ألوان الموت الأخرى، متدرجة فى صورتها من الموت العادى (تفانى) إلى الموت غير العادى (المنايا كالحات). وهكذا تقدم لنا القصيدة فكرة الموت فى ثوب جديد، أو - بعبارة أخرى - تلفت أنظارنا إلى مقابل جديد للحياة النموذجية هو ذلك الموت النموذجى («الهوان»).

وهكذا تتركنا القصيدة مع ألوان من الحياة: حياة العناء والغصه والكدر، وحياة الهوان، وحياة عدم الهوان، ولكننا إذا أعمنا النظر وجدنا أنها تقدم لنا خيارا واحدا، أو بديلا واحدا للحياة، وهو بديل يضحي من أجله بالحياة (لا يلاقى الهوانا). فإذا ما لاح هذا البديل الوحيد جهدت القصيدة فى أن تقدم لنا برهاناً أو براهين لتثبيت هذا المعنى الجديد فى أذهاننا، وإقناعنا به، وهى برهنة «منطقية - شعرية» - إن أمكن القول - تنتشر على مساحة بيتين كاملين، وتتجه إلى أكثر من طاقة من طاقات الإقناع لدينا؛ فمنها ما يتجه إلى حسنا الغريزى بالحرص على الحياة العادية، ومنها ما يتجه إلى أبعد من ذلك. فى الجانب الأول نحاج القصيدة قضية الحرص على الحياة فى معناها العادى بأنه كان يكون ذلك مبررا لو أنه يضمن استمرار هذه الحياة، لكن ذلك لا يمكن أن يتحقق، لأن التجربة الحسية فى رؤيتنا انقضاء كل حياة تثبت ذلك، ثم لسبب آخر منطقى عظيم هو أنه لو كان ذلك صحيحا لكان الشجاع أحق الحمقى؛ لأنه يضحي بشئ يمكنه أن يستقيه دون انقطاع.

أما فى الجانب الآخر، فنتجه القصيدة إلى «الموت». وإذا كان وجه العملة الذى يعرضه البيت الأول من البيتين أن الحياة منقضية على كل حال، فإن وجهها الثانى الذى يعرضه البيت الثانى - وهو لازم الأول - أن الموت حتمى، وكما فرضت القصيدة فى البيت السابق حتمية الإقدام الناشئة من حتمية انقضاء الحياة،

نفرض هنا حتمية الإقدام الشائنة من حتمية الموت. وهكذا تحشد القصيدة جزئيات المعنى في اتجاه واحد، لا يدع مجالاً لتعدد المواقف، فيتركنا مع موقف واحد ناشئ من نتيجة المعادلة التالية: إما حياة منقضية (مع الجبن) أو حياة منقضية (مع الشجاعة) أو إما موت حتمي (مع الجبن) أو موت حتمي (مع الشجاعة)، وبوسع كل صاحب عقل وعي أن يختار! وإذا اتضحت القضية على هذا النحو فمن منا يلتبس عليه طريق الاختيار؟

# الديمقراطية والاستبداد فى تناول النص الشعرى

مريد البرغوثى\*

تكتب فتسوافا تشمبورسكا قصيدة الفكرة ذات الهاجس الفلسفى إلى جانب قصيدة المفارقة العابرة التى تقود إلى الدهشة أو الابتسام. ويرثى شيموس هينى شهداء الكفاح الأيرلندى، ويكتب المقطوعات متساوية الأسطر، ويصف فلاحات البطاطا، إلى جانب نصوصه التى تقيم حوارها الحميم مع دانتي. وأراجون لا يتردد فى منح شكل النشيد لقصائده عن المقاومة الفرنسية جنبا إلى جنب مع نصوصه السبيرية وسيرة حبه لزوجته. ويانيس ريتسوس الذى فتن الشعراء العرب بقصائده القصيرة، وفاتيم الالتفات إلى إغريقياته الشاسعة، لا يقل شأنًا عن مواطنه صاحب جائزة نوبل أوديسوس إيليتيس الذى ظلت عينه مفتوحة على مفردات الأوليمب من إيقاع وآلهة. إنهم مبدعون واثقون، لا يخشون قساوسة الحداثة والمبشرين بالنظريات التامة. إنهم يعرفون جيدا أن الشاعر يواجه سؤال التجديد مع كل قصيدة جديدة؛ لأن كل قصيدة تطالب شاعرها بجماليات خاصة بها. وهم، فى ساعات الكتابة، لا يعملون على تلبية مطالب الموضة الأحدث فى «بوتيك» النقد، بل يلبون مطالب مسوداتهم هم. وشعرنا العربى القديم، فى أوج ثقته، حمل على صفحته توقعات نظراء لا يتشابهون؛ كامرئ القيس والخنساء وأبى تمام وأبى نواس والمتنبى وأبى العلاء؛ وحاو المصائر والكؤوس، وتنقل على هواه بين الجليل والعاير، وبين العمود والموشح، وبين المقدس والشبقى؛ قبل أن يدركه انحطاطه الزخرفى الطويل ويتأنى عليه أن ينتظر خمسة قرون لينهض مرة أخرى.

\* شاعر، فلسطين.



وكان من الممكن لثورة الشعر العربي الراهنة أن تتأمل أسئلتها الجوهرية، وأن تتحاور فيها الاقتراحات الإبداعية وتتجاوز، في إطار من الاختلاف الواسع، لو امتلكت الثقة بالنفس التي لا غنى عنها لكل مشروع راديكالي هاجسه الجمال. فالتقليل من حريات غزيرة واجتهادات متدفقة بلا تأثيم ولا تحريم هو الذي يصون حيوية الفنون وينقذها من الانقراض. لكن اهتزاز ثقافتها أدى إلى انشغالها بمعارك ميكروسكوبية تشير ما لا يتوحد: الشفقة والضحك. كأن يتمنى صاحب اقتراح شعري إبادة الاقتراحات الأخرى؛ وأن يفترض ناقد ما أن منهجه هو المنهج الوحيد الحدير بالاعتماد وأن ذائقته هي ذائقة الأمة كلها. والطرفان لا يدركان أن انتفاخ الثقة بالذات هو العلامة على امتلائها بالهواء.

يمتزج في لاوعى بعض مثقفينا أمران متناقضان ظاهريا هما اطمئنان القبيلة وتوجس الريف. الأول يتمثل في أخلاقيات العصابة الخاصة بأقوال السعادة وأوهام التأكد، والثاني يتمثل في التطلع الريفى الدابل إلى المدينة. لكن مدينتنا ترى نفسها وبغا للعالم الغربي وتنظر نظرة انكسار وانبهار إلى منجزات سواها. ولهذا، فإن أصحاب الوصفة الإبداعية الجاهزة يقننون على سياجهم المطمئن كل العصافير القلقة التي لم يصدرها لها هم بطاقة الهوية وإذن المرور. والشاعر الملائى يفاضل لا ليكتشف كواكب جديدة في عالم الشعر بل للالتحاق بمواكب شيوخ الطرق الشعرية التي يقيم الشيخ واللايث وراء الشيخ احتفالات النفاق المشترك حيث ينثر كل منهما الترحس على أكاف صاحبه. كأن الشاعر التابع ريف والشاعر المتبوع هو المدينة؛ لكنهما معا، بسبب غياب الثقة بالنفس، ناعمان. مسألة لا تقتصر على الشعر وحده. إن نفرا غير قليل من المجددين في الرواية العربية يخشون استخدام الحكاية أو السرد الواقعي أو السياق البوليسي أو المواضيع التاريخية أو الفلسفية كتلك التي «لا يخشاها» مجدد. إن شيئا «أميرتو إيكو» مثلا. إن شعوبا سلب منها حق المشاركة في صياغة مصيرها طوال قرون عديدة لاندأ أن يفتقد ثقافتها بذاتها. وإن كثيرا من مبدعيها ونقادها لن يستطيعوا ممارسة الحريات الفنية المتاحة للمبتكرين الأحرار. وفي ثقافة الحزب الأوحده والزعيم الأوحده والشاعر الأوحده والجيب الأوحده والحقيقة الواحدة لا ينجو من الخوف والارتباك شيء، بما في ذلك قراءة نص أو كتابته. إن حدانة القشور ألحقت ضررا بثقافتنا أدى إلى اختصار السياسة في الهجاء واختصار المرأة في الجنس. فهل هذا هو المستقبل أم الماضي؟

إن ازدياد التعددية عندما أمر لا تمارسه النخبة السياسية المهيمنة وحدها. النخبة المعارضة أيضا ترفض التعددية. وفي المجال الثقافي، يرفضها عددون كما يرفضها التقليديون بالضبط. إنه نسق فكري أصولي بامتياز حتى لو ارتدى قناع الحدانة. هناك مدخلان لتناول النص الشعري: مدخل استبدادي، ومدخل ديمقراطي.

المدخل الأول مسبق ومعلق، صاحبه يكون رأيه في النص «قبل» التعامل معه. إنه لا يفكر فيما يرى بل يرى ما يفكر فيه. وهذا ما اعتاد أن يرتكبه كل من يريد تحويل إيديولوجيته إلى ذائقة جمالية؛ أو من يريد تحويل ذائقته الجمالية إلى إيديولوجية. وهذا واحد من تعريفات الاستبداد. إن شاعرا ذائع الصيت قد يكتب قصيدة رديئة، لكن أفراد «قبيلته» من نقاد وصحفيين يهرولون للتهليل لها أيضا وكأنهم ليسوا بحاجة لقراءتها أصلا. يكفيهم أنها من إنتاجه لتكون كاملة الأوصاف و.. تفتنهم. إن هذا السلوك هو سلوك عصابة سعيدة. العيب هو عيب «الآخرين». «نحن» دائما على حق. وهذه الـ «نحن» لا تشمل المهيمن الذائع الصيت فقط. إنها تشمل الحدائي والتجريبي الرصع أيضا عندما يتوهم أن حدائته هي القول الفصل الذي لا قول بعده وأن تجريبته هي التوزيع النهائي لمسيرة الشعر في العالم!

أما الثاني فهو تناول طازج متفتح. صاحبه يسلم نفسه للنص الشعري بقوانين ذلك النص لا بقوانين الأرفف المساء. إنه يضع مسلماته النقدية جانبا (لبعض الوقت) مهما كانت جذارتها ليدخل دخولا «بريئا» (ومؤقتا أيضا) إلى الاقتراح الفني الذي تطرحه القصيدة. قد يلقي بها «بعد» ذلك إلى سلة المهملات، لكن ليس «قبل» ذلك. وقد بمجدها، لكن لا اعتبارات «تنبع» من داخلها، لا اعتبارات من خارجها «تصب فيها». أصحاب هذا الاتجاه هم الأكثر وعيا بحريتهم وبحرية الفن معاً، وهم الذين يدركون أن بوسعنا تعليل عصير البرتقال وليس النظريات الإبداعية، ويدركون أيضاً أن التعميم الوحيد الذي يمكن تعميمه باطمئنان هو أنه لاوصفة في الفن.

لم يعبأ العقاد بهيمنة شوقي فشنّ عليه هجمته المعروفة. لكن العقاد، بعد ذلك، اتخذ موقفاً معلّماً من صلاح عبدالصبور؛ وأحال اقتراحه الشعري إلى لجنة النشر «للاختصاص» (وهنا أفتح قوساً لتحية شيخ من شيوخ النقد الديمقراطي هو إحسان عباس الذي رغم تدريبه الكلاسيكي كان أبرز وأول المرحبين بشعر الحداثة المتمرد على الذائقة الكلاسيكية كلها في أواسط هذا القرن. وهو الآن ينظر باحترام إلى تجربة قصيدة النشر). لقد تجاوزت أسئلة الشعر وأسئلة النقد الآن واقعة شوقي والعقاد وعبدالصبور؛ لكن لها دلالة لا يمكن إغفالها في الحديث عن «تناول النص الشعري».

إن لدى العقاد اطمئناناً معدنيا بشأن الشعر يشبه اطمئنان الوند. مأرق العقاد، وهو أيضاً مأرق العديد من وعاظ الحداثة الآن، أن الشعر «متغير» بينما مدخلهم لتناوله مهياً «سلفاً». إن دخول النقاد والقراء من منطلق البراءة إلى قراءة السياب أدى إلى إقرار اقتراحه الشعري المختلف عن اقتراح المتنبي. ولولا هذه البراءة لما تم الاعتراف بكافكا الذي هو ليس تولستوي أو بيازوليني الذي هو ليس إيزنشتاين، أو بلوكة «المهرج» لبيكاسو التي هي ليست «الجرنيكا»، أو بفيروز التي هي ليست أم كلثوم... إلخ. إن الاطمئنان إلى وصفة واحدة في الفن يؤدي إلى فئائه. واليقين المغلق هو الذي يفرخ كل أشكال الأصوليات يمينا ويسارا.

نعرف جيداً الانقلاب المذهل الذي قاده بريخت بثورته على المسرح الأرسطي؛ عندما خرج على العالم بنظريته عن المسرح الملحمي، بحيث أصبح المؤرخون يتحدثون عما قبل بريخت وما بعده. لكن دعونا نصت إلى ما قاله هذا المجدد العظيم:

يجب أن لاننسى أن مسرحنا اللا أرسطي ليس إلا واحداً من أشكال المسرح؛ إنه يدعم أهدافاً اجتماعية معينة ولا يدعى أنه النموذج الأوحى في المسرح عموماً. إنني شخصياً أستطيع استخدام الشكلين، الأرسطي واللا أرسطي، في عروض مسرحية بذاتها.

والتناول النقدي الأكثر شيوعاً عندنا مرتبك في تناول الراسخ والجديد ارتباكاً مركباً. فمن التقديس التام للأول والتجاهل التام للثاني يصبح العيب معكوساً؛ فيتم استقبال بعض الجديد الزائف بقرع طبول التمجيد والثناء المبالغ فيه (فليس كل جديد جيداً)، ويتم تجاهل الراسخ الذائع الصيت (وليس كل راسخ مرفوضاً). واللافت للنظر أن هناك اختلالاً في النسبة بين نصيب الشعراء المرموقين عندنا من الإعلام ونصيب إبداعهم من التناول النقدي الجاد. الأول فائض عن الحاجة والثاني لا يلبىها على الإطلاق.

ككل طاقات مجتمعاتنا تبدو حركة النقد الأدبي، في مجملها، مكبلة، حالها كحال النقد الديني والسياسي والاجتماعي. فعندما تصبح الأحزاب المعارضة مضحكة، والاجتهادات المخالفة للمؤسسة محرمة،

والتفكير الحر المستقل معطلا، نستعبط عن إنجاز الشيء بالحديث الإنشائي والإشادى عنه، إن اللفظ العربى حول الحدائى أصبح بابليا مختلف فيه الأضغاث. وزاد من ذلك ارتباطه بالإعلام. فالنقد الإعلامى عاجز عن المراجعة الجريئة وعن الاكتشاف الجريء. وهو لن يتورع عن اختلاق قيمة فنية لقصيدة مجرد أن صاحبها ذو تاريخ شعري سابق، أو ذو منصب رفيع، أو مجرد أن رقبيا غبيا اعترض على نشرها لسبب (هو دائما سبب لا فنى) أو مجرد تبنيها شكلا من الأشكال أو مضمونا من المضامين.. إلخ. وعندما تكون هذه القصيدة ممتازة حقا فالنقد الإعلامى لا يخبرنا بماذا تميزت. إنه يرسل إشارات متضاربة للقارئ تبعده عن الشعر برمته.

إن هناك أسئلة كثيرة حول المشهد الشعري والنقدى الراهن تتعلق بمسلماته ومرجعياته وسعة ثقب غرياله. فهل أجدنا قراءة الاستقراء وراء القلق؟ أم أن النقد عندنا مصاب بفكرة «المبايعة» ولم يتعود بعد على فكرة «الانتخاب» واختيار جديره لكل نص على حدة؟ هل استطاع أن يقيم صلة مقنعة بين وسائله النظرية والنص المحدد الذى يتناوله؟ هل يقضى لهدم أضداد التمر أو رفع الأقنعة؟ إن هيبة المنجز ينبغي أن لا تتحول إلى التهييب من تجاوزه. فحسب الزماد مثلا فتبع نوافذ واسعة وأدخل هواء نظيفا إلى جملة الشعر العربى، وقدم إنجازا تاريخيا محفوظ القيمة، أمام لكن مستقبل بعض شعرائه أصبح الآن وراءهم لا أمامهم. ومن ناحية أخرى (ولأن سوق الشعر لا أبواب لها)، فإن الأكثر معادة وصراخا من بين الأجيال الشابة اللاحقة لا يدركون الهوة بين صلابه مزاعمهم ورواد نصوصهم!

إن التناول الجريء والبرى لهاتين الظاهرتين هو وحده الكفيل بعقلنة الهيبة والتهييب معا، وهو الكفيل بجعل مرور القيل من الغريال أمرا يتفوق على بعض الصعوبة.



## عن ترجمتى للشعر...

### عبد الغفار مكاوى\*

- «أبها المترجم، أبها الخائن!» (مثل إيطالى).  
- «الشعر لا يستطيع أن يترجم، ولا يجوز عليه النقل، ومتى حول تقطع نظمه، وبطل وزنه، وذهب حسنه، وسقط موضع التعجب...».

(الجاحظ، «الحيوان» ج ١، ص ٧٥)

- «... ومعلوم أن أكثر رونق الشعر ومائه يذهب عند النقل، وجلُّ معانيه يتداخله الخلل عند تغير ديباجته، لكننى مع ذلك أثبت ببعضها لإفصاحها (أى ببعض أشعار هوميروس) مع ما تقدم وصفه، عن كل معنى دقيق وعلم غزير...» (عن المنتخب من صوان الحكمة، لمؤلف عربى مجهول من القرن السادس الهجرى، نقلا عن كتاب «صوان الحكمة المفقودة» لأبى سليمان المنطقى السجستانى المتوفى بعد عام ٣٩١هـ).

- «لا يقتصر دور المترجم (أى مترجم الشعر) على ترجمة لغة إلى لغة، بل يتعداه إلى نقل شعر إلى شعر. إن للشعر روحاً غير ظاهرة، تختفى أثناء سكه من لغة إلى أخرى. وإذا لم تتم إضافة روح جديدة خلال عملية النقل فلن يبقى منه سوى جثة هامدة» (السير جون دنهام ١٦١٥ - ١٦٦٩).

- «على المترجم أن يفكر بما يستعصى على الترجمة، عندئذ يمكننا أن نفهم الأمة الأجنبية وال لغة الغريبة...»

(جوته، «الحكم والتأملات»، الحكمة رقم ١٠٥٦).

- إن ترجمة الشعر محاولة عقيمة تماما، مثل نقل زهرة بنفسج من تربة أنبتتها إلى زهرة. فالعود لا بد أن ينمو من سرة إلا ما طرح زهرة، وتلك هي تبة بابل...»

(شيلي، «دفاع عن الشعر»، ١٨٢١).

١ - عندما تلقيت هذه الدعوة الكريمة للإدلاء بشهادة عن تجربتى مع ترجمة الشعر - وهى التجربة التى استمرت ما يقرب من أربعين سنة! - كنت قد فرغت لتوى من ترجمة قصائد (الديوان الشرفى) لجوته ترجمة جديدة، غير الترجمة التى سبق أن قدمها أستاذنا الجليل عبدالرحمن بدوى قبل حوالى ثلاثين سنة، وكنت أعيش فى عفوان هذه التجربة الأخيرة أو أعاش ما يربو على الثلاثمائة قصيدة من أرق وأعذب «شعر التجربة» الذى عرف به جوته، بل من أرق وأعذب ما عرفه الشعر الألمانى والعالمى، فى محاولاته العديدة للتواصل مع روح الشرق... فوجدت بعض نماذجه من الأدبين الفارسى والعربى محاكاة خلاقة، أو على الأقل استلهاها والحوار معها مستعصا فى ذهنى صور المعاناة التى مررت بها أثناء محاولتى للتغلغل فى الكيان المنعم الحى لهذه القصائد... فكثرت الأيام والليالى، بل الشهور الطويلة التى أخذتها منى قصائد سابقة حاولت الاقتراب منها بكل «دفع»، فكانت تصدنى وتردنى خائبا، كطفل صغير يعوقه السور الحديدى الشائك عن الدخول إلى الحديقة من باب له وتقدم حواصم بأريجها وألوانها، فيكتفى فى النهاية بالتطلع إليها من خارج السور وفى نفسه ما فيها من الأسى والحسرة. لن أذكر أمثلة لهذه القصائد الكثيرة التى طالما حاولت الاقتراب منها، أو بالأحرى ما استعصى فيها على أى ترجمة مهما توافر للمترجم من دقة العالم الأمين وحساسية الشاعر والفنان... وفى الذاكرة نصوص معذبة لشعراء كبار مثل رامبو ومالارميه وهلدلين وفاليرى وغيرهم من شعراء عصرى الحداثيين الذين أنلفت نحوهم الآن وقلبى ولسانى يهتفان: سامحكم الله!!). وحسبى أن أقرر الآن أننى عشت مع قصائد الديوان الشرقى الذى ذكرته شهورا طويلة، حاولت فيها أن أتذوقها وأتناغم معها وأنقص راحته، وأحرب فى نفسى تجربة صاحبها ومشاعره التى أحس بها عند كتابتها وتجربة قارئه المعاصر له ومشاعره عندما يقرأها منه، وأهدده فى كيانى وقلبى حقيقتها وسرها الذى يتجلى فى إيقاعاتها وجرس كلماتها وأوزانها... وهى وسورها وسياقاتها المختلفة وإيحائها وإشعاعاتها الحسية والمعنوية، تماما كما تهدد الأم ولدها على صحتها وتتجاوب مع ضحكاته وصرخاته ونظراته وهمساته، أو كما يجود الصوفى بمواجهه ومجاهداته وتضامنه مع موعه، لينخلع عن ذاته ويتخلى عنها وعن الدنيا كلها، لعله يفوز بالفناء فى الذات الأسمى أو على الأقل يقترب من حضرتها السنية ويقتبس شعاعا واحدا من نور نورها.

٢ - أجل! إن ترجمة الشعر أشبه بالمخاطرة فى أرض حرام، فى منطقة غامضة تقع على الحدود الغامضة بين الإنشاء أو الإبداع الخائض والتفل الحرفى الدقيق والأمين. والسبب بسيط، فهى تحاول إعادة إبداع عمل سبق إبداعه، فلا عجب إذن أن تقع فى دائرة «الاستحالة» التى أكدها الكثيرون من الجاحظ إلى شيللى وغيره من الشعراء الرومانتيكيين إلى العصر من النقاد وعلماء الترجمة فى عصرنا الحديث. ولكن لماذا ومن أين تأتى هذه الاستحالة الخفيفة، مع أن حدث التاريخ والواقع تشهد بأن الشعوب والآداب على اختلافها لم تتوقف أبدا منذ العصور القديمة، وحتى أيامنا التى نعيشها، عن ترجمة الشعر وسائر الأجناس الأدبية بعضها عن بعض؟



ألأن ترجمة الشعر تتميز عن ترجمة الفنون الأدبية الأخرى بأنها قلما وفقت فى أية لغة أو أى أدب؟ أم لأنها لا تقنع بتحقيق الدقة والأمانة بجانب الجمال والحساسية اللذين تشترطهما، بطبيعة الحال، كل ترجمة أدبية تقوم على العلم والفن معا؟ وماذا عسى أن يكون هذا الشيء البعيد أو شبه المستحيل الذى تتطلبه ترجمة الشعر، إذا صح أن ترجمته ممكنة على الإطلاق؟ وإذا كان المثل الأعلى لأية ترجمة للشعر هو التوافق مع الأصل، أو التوحد معه إلى الحد الذى يغنينا عن الأصل، كما يقول حوته، أو إلى حد التعادل أو التكافؤ معه كما يقول بعض النقاد وعلماء الترجمة المعاصرين، وذلك من ناحية صورته وروحه أو شكله الداخلى الفعّال فيه - كما يتمثل ذلك فى معنى القصيدة وتوجهها ولونها العام ورسالتها إلى المتلقى وصورها وتركيباتها وسياقاتها المختلفة التى لا يصعب نقلها وتحويلها إلى لغة أخرى، مادام من المتعذر نقل الجماليات الخاصة بجرس الكلمات وموسيقى الحروف والمقاطع والأوزان، وغيرها من القيم الصوتية من نظام لغوى بعينه إلى نظام لغوى آخر - فما العمل إذا كان هذا التوافق أو التكافؤ الكامل بين الأصل والترجمة أمراً مستحيلاً فى رأى الجميع، لأن التكافؤ الممكن أو التقريبى هو أقصى ما يسعى إليه عباقرة ترجمة الشعر فى كل العصور والآداب دون أن يحققوه تحقيقاً تاماً أو شبه تام؟ وما العمل أيضاً إذا كانت هناك على الدوام روائع من شعر الشرق والغرب التى تسحرنا وتحدانا أن نتصدى لها، فنعجز عن الوفاء بمضمونها وشكلها، ونقدم مع ذلك على المحاولة الخطرة المدهشة متذرعين بأن ما نكسبه بترجمتها لا يقل عما نفقده، وأنها واجب ثقافى وحضارى لا غنى عنه لمد الجسور بين الأمم والحضارات، ومحاولة الوصول إلى الحقيقة الشعرية الواحدة وراء الأنظمة اللغوية والصوتية المختلفة؟

إن هذه الأسئلة وأمثالها التى لا تحصى تؤكد - فى تقديرى المتواضع - أن ترجمة الشعر بوجه خاص لا يجوز أن يقترب منها إلا شاعر كبير فى لغته، أو على الأقل إنسان سكنته حساسية الشعر، وأنها ستظل على الدوام مشكلة عميقة يبقى الأمر فيها متروكاً لذوق وتقدير المترجم الموهوب الذى يجمع فى صورته المثالية النادرة بين رفاة الفنان المبدع وموضوعية العالم المتمكن من دقائق لغة المنبع ولغة المصب، أى اللغة التى ينقل منها واللغة التى ينقل إليها. وماذا أستطيع أن أقول الآن عن هذه المشكلة العويصة التى تنطوى على مشكلات أخرى لا آخر لها (عرضتها فى مقال سابق عن ترجمة الشعر يمكن أن يرجع إليه القارئ إذا شاء، ونشر فى مجلة «فصول»، المجلد الثامن، العدد الثانى لسنة ١٩٨٩، وكانت كتابته تحية لذكرى الصديق العزيز المرحوم ناجى نجيب الذى ترجم إلى الألمانية عدداً كبيراً من روائع الأدب المصرى الحديث).

حسبى، إذن، فى هذا السياق المحدود، أن أنتقل إلى تجربتى فى ترجمة الشعر منذ أن بدأتها قبل حوالى أربعين سنة، فأقدم عرضاً مختصراً لتطورها التاريخى والنصوص المختلفة من الشعر الشرقى والغربى الذى قمت بترجمته، مع إلقاء شئ من الضوء على مكانة هذه النصوص من نصوص أخرى فلسفية ومسرحية نقلتها خلال رحلتى مع الأدب الألمانى والأدب العالمى، وأخيراً مدى تأثير هذه الترجمات على نتاجى المتواضع فى القصة والمسرح والفلسفة.

٣ - تزامنت بدايات ترجمتى للشعر مع تعرفى صديق العمر صلاح عبدالصبور واقتناعى الكامل - ربما تحت تأثير شعره الأصيل وشاعريته المطبوعة - بأننى أفتقد الأصالة والفرد اللذين لا غنى عنهما لقول الشعر، ثم إيمانى - فى ليالى الصديق الطويلة مع النفس! - بأن الموهبة الوحيدة التى يمكننى الزعم بأننى أملكها هى «التعاطف» مع الكائنات والقدرة على احتضانها والنفاذ فى روحها والإحساس بمواجهها وأفراحها، والقصائد

تأتى فى مقدمة هذه الكائنة حجة تفتى يتغلغل فيها الحدس بكل ما فى الطاقة من الحب والحنان والخشوع لأسرارها الجوهرية. ومن هنا الإنصات للموهبة الوحيدة، جاء الاختيار القاسى للتخلى عن محاولة قول الشعر، فتركته بغير رجعة (وبالرغم من الحسرة الدائمة على كثره الضائع فلم أشعر بالندم، لأن كل ما نظمته أثناء المرحلة الجامعية وقبلها بسنوات لم يكن يبشر بأى خيرا)، وجاء كذلك القرار الحازم بأن أعيش حياتى خادما متواضعا فى محرابه، أى من أجله تفتى ثقفته ومن أية جهة حملته الريح إلى ولمس وترا فى قلبى، مع المزاوجة بين الترجمة والدراسة كلسنة صحت الضرورة إلى الفهم والتفسير وشرح غوامض «النبوءة» أو «الرسالة» التى يريد النص الشعرى أن يبلغها القارئ. وبإله من تعويض أو عزاء للعارف المسكين الذى رضى عن طيب خاطر أن يكون صدى لا صوتا، وضى ضئيل لأضواء الممعن فى البعد والعلو والاستحالة! كنا - صلاح رحمه الله وأنا - نشترك كثيرا فى قراءة بعض شعراء الغرب الذين صور لى الوهم أو الغرور أننى أحببتهم وفهمت شيئا منهم، وكان فى مقدمة هؤلاء الشعراء - الذين طالما جرت سيرتهم على لسان أصدقاء أكبر منا فى السن - ت. إس. إليوت ورينيه ماريا ريليه. ومعنى الجرأة ونزق الشباب إلى محاولة ترجمة بعض روائع أولهما، وبالأخص «الأرض الخراب» و «أغنية الحب وفروك»، على الرغم من أن عدتى وزادى من اللغة الإنجليزية قد كانا - ومازالا إلى حد كبير - أمة محيرة من أن يسرغا المحاولة الخطرة. وفى سنة ١٩٥٢ نشرت بتشجيع من أصدقاء الجمعية الأدبية المصرية بعض هذه الترجمات على صفحات مجلة «الثقافة» فى أحد أعدادها الأخيرة التى عهد بها إلينا أستاذنا المرحوم محمد فريد أبو حديد قبل أن تحتجب عن الظهور إلى الأبد! ولازمتنى الرغبة المشهورة بعد ذلك، فنشرت الترجمة المنشورة فى أسرها مع خمس عشرة قصيدة لإليوت فى الجزء الثانى من (ثورة الشعر الحديث) الذى سيأتى الحديث عنه بعد قليل.

٤ - كانت الخطوة التالية هى ترجمة بعض قصائد الشاعر الاشتراكى والكاتب المسرحى الشهير برتولد برشت الذى كنت قد قرأت القصيدة وعنه فى سنة ١٩٥٦، ونقلت عن الفرنسية مسرحيته التعليمية الصاحبة (الاستثناء والقاعدة) التى اعتقد اليوم أنها أخذت عندنا من الشهرة فوق ما تستحق، والتصقت باسمى على الرغم منى أكثر مما تمنيت، فقلت:

ومن مدينة فرايبورج عاصمة الغابة السوداء - التى كنت قد سافرت إليها للدراسة فى أواخر سنة ١٩٥٧ - أرسلت إلى مجلة «المجلة» حياى عشرين قصيدة ترجمتها عن الأصل قبل أن أقطع فى تعلم اللغة الألمانية شوطا كافيا، ولابد من الاعتراف بأن عددا من زملاء الدراسة وزميلاتها قد ساعدونى على التجزؤ على هذه القفزة الخطرة. وبدؤ أن ينس تحرير المجلة فى ذلك الوقت، وهو أستاذنا العالم والمؤرخ والأديب والموسيقى الكبير، والسندباد القديم، المعاصر المرحوم حسين فوزى، أعجب بهذه القصائد ونشرها فى أحد أعداد «المجلة» سنة ١٩٥٨، بل قرر لى - معذرة - فعت على رأسى فى ذلك الحين وقوع كثر من السماء وبلغت ثمانية عشر جنيها. وتوالى اهتمامى بالشاعر برشت بعد رجوعى إلى الوطن فى أواخر سنة ١٩٦٢، فترجمت عددا كبيرا من مسرحياته وأشعاره التى ظهرت فى سنة ١٩٦٧ تحت عنوان (قصائد من برخت).

وكم يطيب لى اسم أن أذكر إشادة الشاعرين الكبيرين عبدالرحمن الشرقاوى وصلاح عبدالصبور رحمهما الله بهذه الترجمة، فوسل الأمر لى حد كتابة ناقد كبير - هو زكى العشماوى مد الله فى عمره - عن إحدى هذه القصائد التى حباها، وهى «إلى الأجيال المقبلة»، وتأثر كثير من شعراء الشباب بما فيها من ثورية وعدوانية وعدمية ساخرة ومدمرة فى آن! ولن أترك الحديث عن برشت قبل أن أقول إننى شعرت بالحنين

للرجوع إليه فى السنة نفسها التى دوى فيها انهيار البنيان الاشتراكى فى الاتحاد السوفيتى السابق وتوابعه. فبينما كنت أقلب فى أوبرا المبكرة (صعود وسقوط مدينة ماهاجوني)، وجدتنى أترجمها على الهامش فور قراءتها على طريقة الشعر الحديث أو «الشعر الحر»، ثم سلمت اترجمة مع مقدمة طويلة عن أقدار المدن ومدن المستقبل (اليوتوبيات) إلى «دار الهلال» التى مازالت ترضن عليها بالنشر منذ خمس سنوات، ربما من باب الاعتزاز بها أو بى أو بيرشت لا أدرى.

٥ - فى تلك المرحلة أيضا، من أوائل الستينيات، بدأت فى تفريغ الشحنة المعرفية والوجدانية الرهيبة التى تكاثفت فى داخلى إبان الدراسة فى تلك الجامعة العريقة التى ارتبطت بأسماء هوسرل وهيدجر وبعض الكانطيين الجدد. وكنت وأنا أتعلم اليونانية القديمة وأحضر لشهادة أولية فيها وفى اللاتينية قد قرأت بعض أغنيات سافو (أو بسافو!) أول شاعرة غنائية فى تاريخ الأدب الغربى. ولعلنى قد انجذبت إليها عن غير وعى، متأثرا بحبى القديم لعلى محمود طه وأشعاره وأغنياته إلى (شاعرة الحب والجمال). وظهرت ترجمة الشذرات الكاملة عن دار المعارف سنة ١٩٦٦، وبقي الحلم الغامض - على الرغم من تأكل معرفتى المتواضعة باليونانية القديمة - بتقديم قيثارة الشعر اليونانى، مجرد حلم راقد بجوار غيره من الأحلام والخطط والمشروعات الموءودة فى جبانة الذاكرة والذكريات. وفى الوقت نفسه تقريبا، أقدمت على ترجمة ثمانين مقطوعة من الشعر الصينى القديم، ضمسها كتاب فنتنى بسحره وغموضه قبل ذلك فتنة لم أجربها من أى كتاب آخر من كنوز الأدب والحكمة العالميين. ذلك هو كتاب (تاو - تى - كنج) أو كتاب الطريق والفضيلة) للحكيم الصينى لاو - تزو مؤسس الديانة الطبيعية والصوفية المعروفة باسم الطاوية (نسبة إلى الطاو أو التاو وهو طريق الحقيقة أو طريق الحياة الفاضلة المستتيرة...). وما زلت أذكر أننى تمنيت فى مقدمة الكتاب لو قبض لهذا النص المذهل من أبناء وطننا من ينقله مباشرة عن الصينية بدلا من الترجمات الأوروبية، ولا أدرى ما الذى يمنع أحد أبنائنا فى قسم اللغة الصينية بكلية الألسن من تحقيق هذه الأمنية.

٦ - كانت الترجمات السابقة أشبه بالمقدمات أو فاتحات الشهية التى تسبق المأدبة الكبيرة الحافلة. فقد اتفقت فى تلك السنوات مع الصديقين صلاح عبدالصبور وعبدالرحاب البياتى على تقديم كنوز الشعر الحديث والمعاصر للقارئ العربى. وقسمنا ميادين العمل - كما أشرت إلى ذلك فى مقدمة (ثورة الشعر الحديث) - حسب اللغات التى يعرفها كل منا، وبدأت العمل وغرقت فيه بما عرف عنى من الجدية والبراءة أو «العبط»، حتى اكتشفت بعد حوالى ست سنوات من العمل المضنى أنني الساذج الوحيد، وأن كلا الشاعرين - وحسنا فعلا! - قد انصرف لشعره وحياته ولم يحسا نفسيهما فى الكهف السحرى القاتل. وصدر الكتاب - الذى اعتمد على كتاب تذوقته ولم أترجمه ترجمة حرفية - للأستاذ هوجو فريدرش الذى طالما استمعت لمحاضراته عن الأدب الفرنسى فى فرايبورج بين سنتى ١٩٧١ و ١٩٧٤، مع دراسة طويلة لبنية الشعر الحديث والثورة التى اجتاحت تقاليد القديمة منذ عهد الشعراء الفرنسين الكبار المسؤولين إلى حد كبير عن هذه الثورة وتلك البنية، وهم بودلير ورامبو ومالارميه مع ترجمة أهم قصائدهم، حتى شعراء القرن العشرين أو على الأصح النصف الأول منه. أما الجزء الثانى فضم نماذج من الشعر الأوروبى الحديث فى إسبانيا أو من الشعر المكتوب بالإسبانية (من أونو مونو وماتشادو إلى بالمو بيرودا) وإيطاليا (من إمبرتو سابا وأنجارتى وكوازيمودو) وفرنسا (من فيرلين وقاليرى إلى رينيه شار) وألمانيا (من شتيفان جثورج وركله إلى انجيبورج باخمان وباول تسيلان وانسنز برجر، وغيرهم من شعراء الشباب فى ذلك الحين الذين أصبحوا مثلى كهولا!...). وولد الكتاب الضخم أو وئد كما وئدت وولدت ميتة كتيبى الأخرى التى سكت عنها النقد

ونجاهلها تجاهلا تاما (بإستثناء صديق قصير به فى «الهلال» للصديق والراعى الكبير يوسف الشارونى، وندوة عنه فى البرنامج الثانى شارك فيها المرحومان صلاح عبدالصبور والأخت العزيزة سامية أسعد أحمد).

بيد أن الكتاب - لعزائى أنه شائى! - تسلسل فى الصمت والخفاء إلى عيون وقلوب الشباب من شدة الشعر الحديث، وربما أتخمل به من المسؤولية - ولا أقول الوزر! - عما يسمى اليوم بقصيدة النشر التى تستخدم الممارك حولها. ويقتنى أن الأسفل منها سيخرج فى النهاية من غبار المعركة منتصراً بفضل ما فيه من شعرية، أو شاعرية إذا حرمتها من صفة الشعر.

وتتابع منذ ذلك الحين ترجمات شعرية أخرى غير الترجمات التى شغلتنى أيضاً لنصوص مسرحية وفلسفية بحكم اشتغالى - أو سؤالي - تورطى - فى تعليم الفلسفة على مدى ثلاثين سنة! وسأتوقف قليلا عند هذه الترجمات بما يشبه مجرد بحث لا أطيل على القارئ من ناحية، ولأنها متوافرة بصورة أو بأخرى، على الرغم من غياب الناشر المقيم الذى نفتقده جميعا والذى لم يفكر لحظة واحدة فى شئ اسمه المسؤولية الثقافية لا المنفعة التجارية، حسب ما يبيع والشراء والكسب والخسارة!

٧ - توجهت بعد (ندوة الشعر الحديث) إلى شاعر الوحدة والاكتئاب والحنين للأصول والعهد الأسطورية القديمة وهو فريدريش هوفمير، وذلك فى أعقاب حب رومانتيكى خائب لابنة الجيران ومشروع زواج فاشل كانا فيما يبدو أقصر طرى من فى الغياب الشعرى مع ذلك الغائب الحاضر العظيم. وأظن، مجرد ظن، أننى بترجمة معظم أشعاره، التى تسمى الكسرى - فى إطار شبه روائى ضم سيرة حياته المأسوية التى انتهت بإصابته بجنون الاكتئاب بعد فدية فى الحب والأدب والحياة - وقد داويت الداء بالتي كانت هى الداء، وشربت من كأس المرارة ما يكفى من المرارة، ودخلت كهف الحزن والكآبة لأخرج منه راضيا، وعلى شفتى ابتسامة الحكيم العارف - فى صمت بعد ذلك أن تفاجئه طعنات الغدر والخسة والتجاهل وعدم الاحترام التى اقتربت فى بعض الأحيان من حدود الإهانة. وكأنى كنت طوال سنتين أو ثلاث سنوات أعيش فى مواجهة الجدران الباردة الخرساء، أسمع مع ذلك للخروج من الكهف الشتوى والتملى برؤية آيات الأمل ترفرف فى الريح:

ويلى! لى داء شفاء أين ساقطف أزهارى

وألقى نور الشمس وظل الأرض؟

تبدو السماء اليابس باردة خرساء

والرايات ترفرف فى الريح

وخرجت من الكتاب - جزء من الشعرى - أى بحياتى التى وهبتها للشعر وعشتها فى الشعر وبالشعر. وربما كان هذا إلى الأبد، هو عزائى الوحيد عن اختيارى الحر للوجود الشعرى فى الظل، بعيدا عن أضواء المسرح وطبول الشهرة التى سرقها الذين هم أشطر منى وأعلى صوتا وأكثر اهتماما بالأنا التى تعذبهم وتعذبنا. وربما لا يخلو من ذلك أيضا أننى أهديت الكتاب - الذى صدر قبل أكثر من عشرين سنة - إلى الرائد الكبير عبدالرحمن - الذى لا يخشى المستحيل ولم يترفق أبدا بالشعر - لاسيما فى ترجمات المنظومة التى لا تخلو من المعازن الشعرية. وقد لا يخلو أيضا من الدلالة أن الكتاب صدر - دون أن أعلم أو أقصد - فى الوقت نفسه الذى صدر فيه كتاب الشاعر اللبناني الرقيق العميق فؤاد رفقة عن الشاعر نفسه؛ الأمر الذى

حدا بأحد المستشرقين الفضلاء، وهو الأستاذ بيتر باخمان بجامعة جوتنجن، أن يقارن بينهما فى بحث طويل مدقق بينما النقاد عندنا صامتون متجاهلون.

٨ - إن أنس لا أنسى كيف اندفعت فى هذه الفترة الزمنية نفسها، أو كيف اضطرت، إلى كتابة بحث طويل عن الشعر الألماني بعد الحرب العالمية الثانية، وفرغت منه خلال ثلاثة أسابيع وصلت فيها الليل بالنهار. فقد رجعت من العمل فى فرع جامعة القاهرة بالخرطوم لمدة سنة لم تتكرر فوجدت خطابا من مجلة «عالم الفكر» المشهورة تطالبني بمقال لعدد تنوى إصداره عن الشعر. ولم يكن من الممكن أن أتردد فأقبلت على السير فوق أشواك الشعر التجريبي المؤلم وأسس النظرية وظروفه التاريخية الأشد إيلاما. وصدر المقال بعد ذلك سنة ١٩٧٤ بسلسلة «المكتبة الثقافية» بعد حوالى العام من زميل له عن التعبيرية فى الشعر والقصة والمسرح - وفيهما قدر لا يستهان به من القصائد المترجمة عن شعراء كبار ابتداء من رلكه وجبله حتى أجيال المجددين من شعراء الألمانية الكبار الذين جددوا لغة الشعر حتى وصلوا بها إلى حدود الصمت، من أمثال جوتفريد بن وباخمان وسيلان اللذين سبق ذكرهما وغيرهما، إلى النموسى إريست ياندل وأصحابه من رواد ما يسمى بالشعر المحسّم.

وأحسب أن هذا الكتيب - وهو (لحن الحرية والصمت) - قد كان له بعض التأثير على أبنائنا من دارسى الأدب الألماني ومن شدة الحداثة المغريين إلى حد الانغلاق والصراخ فى حجراتهم المظلمة!

٩ - يكفيني الآن أن أشير، إشارة سريعة وموجزة، إلى بعض الكتب التى ضمت عددا كبيرا من الترجمات الشعرية لأنتقل بعد قليل إلى الأبعاد الأخرى التى وعدت بالتطرق إليها فى بداية هذه الشهادة. هذه الكتب هى (قصيدة وضوء) - ١٩٨٧ - الذى أحسب أن موضوعه الطريف - وهو تأثير الشعراء عبر العصور أو تراسلهم مع الفنون التشكيلية - قد وصل إلى عدد كبير من القراء بفضل نشره فى سلسلة «عالم المعرفة» المرموقة، وكذلك كتاب (جذور الاستبداد) - الذى ظهر أيضا فى السلسلة نفسها وشاء إخواننا الكويتيون أن يغيروا عنوانه الأصلي وهو (حكمة بابل) - وضم كل نصوص ما يعرف فى علم الأسوريات باسم أدب الحكمة البابلية، وهى قصائد طويلة تغنى فيها أصحابها المجهولون برئاء النفس، وشكوا مر الشكوى من الظلم راسخ الأقدام فى أرضنا سيئة الحظ منذ عهد حضارتنا القديمة.

ولأن المجال لا يسمح بالكلام عن القصائد التى ضمها هذان الكتابان، فسوف أسارع بالتحول إلى بعض الأسئلة التى لا يصح إهمالها فى هذه الشهادة:

ما مدى تأثير هذه الترجمات على ترجماتي الأخرى لنصوص الفلسفية والمسرحية؟

وهل أثرت بعض التأثير الصريح أو المضمحل على نتاجي المتواضع فى القصة والمسرح؟

والى أى حد أصابنى التوفيق أو الإخفاق فى القصائد التى أرغم الآن أنها فرضت نفسها على دون أى تعمد أو تعمل فترجمتها فى شعر منظوم؟

١٠ - من الصعب أن أجيب إجابة مفصلة عن هذه الأسئلة، لأنها من شأن الناقد أو النقاد الذين أقر للحقيقة والتاريخ أن معظمهم - إن لم يكن جميعهم - لم يكلف خاطره حتى بالاطلاع عليها، دع عنك بالحكم عليها وتقييمها سلبا أو إيجابا. لكننى سأحاول، على كل حال، مع التزام القصد والاقتصاد بقدر الإمكان.



فأما عن السؤال الأول، فحسب أن أسلوب وجودى وتفكيرى الشعرى قد فرض على - إلا فى حالات نادرة اقتضتها ضرورات أمكن بعض أو تعليم الفلسفة فى جامعات القاهرة وصنعاء والكويت على مدى ثلاثين عاما شديدة المראה والقسوة - أن يبنى أحسب أن هذا الأسلوب قد تخكم إلى حد كبير فى اختيار النصوص التى لمست فيها فترا من الشاعرية أو التى لمست قلبى قبل أن تحرك عقلى. من ذلك مثلا ترجماتى لكتاب (الطريق والفضيلة) الذى سبق ذكره، ولنصوص الحكماء السبعة وأفلاطون (الرسالة السابقة ضمن كتاب «المنقذ - قراءة لكتاب أفلاطون») وأرسطو (فى نصه الرائع البليغ الذى كان مفقودا وعثر عليه بالصدفة قبل عقود قليلة وهو «دعواه السبعة»)، بجانب ثلاثة نصوص تفيض بالشاعرية رغم وعورتها وشدة غموضها لفيلسوف الوجود الأكبر من غير هيجل (ضمن كتاب «نداء الحقيقة») ونص أخير (كان بالصدفة أيضا هو آخر نص كتبه الفيلسوف كارل ياسبرس - وهو «تاريخ الفلسفة بنظرة عالمية»). وأهم من التأثير على اختيار النصوص هو أسلوب الكتابة الفلسفية الذى سرت عليه، أو بالأحرى فرضته طبيعته وأسلوبى الشعرى فى الوجود كما تجلّى فى دراساته الفلسفية المختلفة التى طالما اتهمت بأنها حولت الفلسفة إلى شعر، وهى تهمة أعتقد أنها ظالمة من أكثر من زاوية؛ لأنها تهمل مقتضيات الدقة والمنهجية والعقلانية التى تفرضها الكتابة الفلسفية، حتى عند الفلاسفة ذوى النزاع الفنى والأدبى من أفلاطون على أقل تقدير حتى كبير كجور وفلاسفة الوجود وبعض النيويين والتفكيريين المعاصرين، ولأنها كذلك لا تعترف بالحدود الضيقة والحواسز المصمتة التى يفرضها كثير من نقادنا الفلاسفة. من كل إنسان وكل شئ فى خانة أو فى تابوت «مصرى» خائض للأنفاس، ولا يعترفون بأن الشعر والفلسفة سهى كلاهما إلى احتضان صاحبه، وأنهما - كما تقول عبارة مشهورة لهيدجر! - يسكنان على مفترق مسارات متجاورين وإن كانا منفصلين. وليت هؤلاء النقاد من ذوى «البعد الواحد» أن يتفضلوا ويسألوا أنفسهم: أين ساء الشعر أو أين تنتهى الفلسفة، وكيف نفرق بينهما فى أعمال الأدباء والمفكرين العظام عند غيابنا؟

وأما عن الشق الثانى من السؤال، فقد كانت اختياري للنصوص المسرحية القليلة التى ترجمتها نابعة من الموقف نفسه والتوجه الشعرى أو شاعرى للوجود. وربما يقتنع القارئ بصحة هذا الزعم - الذى أتمنى ألا تعلق به آثاره من الغرور والادعاء أو الترحسبة والتضخم التى يعلم الله والأصدقاء العارفون أننى أبعد الناس عن الإصابة بوبائهما المستشرى بين عدد كبير منا نحن المثقفين العرب. وحسب هذا القارئ أن ينظر فى ترجماتى لمسرحيات مختلفة من جوته وبشر، وبشت وبعض الكتاب التعبيريين حتى الكاتب المسرحى المعاصر تانكريد دورست.

١١ - وتظل الإجابة عن السؤال الثانى عن التأثير المحتمل للترجمات الشعرية على نتاجى المتواضع فى القصة والمسرحية أمرا شائكا يتجاوز حدود قدرتى المحدودة، كما يهدد بالوقوع فى الأمراض المستعصية التى أشرت إليها. لكننى سأحاول القول بأنها - أى تلك الترجمات - قد أكدت شاعرية أسلوبى فى القصة وأثرته بالصور الفنية، بل جاوز ذلك المنافع الذاتى، فجعلت من الصعب التمييز فى بعض الكتابات - كالبكائيات على سبيل المثال، وبالأخص البكائية الأولى والثانية والبكائية إلى صلاح عبدالصور التى تصور بعض الطيبين أنها ديوان شعرا - بين الشعر والشعر الشاعرى الذى يكثر للأسف من الإيقاعات المسجوعة. والأهم من ذلك أن بعض ترجماتى وقراءاتى الشعر قد أثرت على اختيار الموضوعات نفسها، وأكتفى بأمثلة قليلة لعلها تعينى من الحرج الذى يسببه مثل هذا الحديث: فقصة «الذئب الذى أراد أن يدخل فى جملة مفيدة» من مجموعة (الحصان الأخضر يمو) على شوارع الأسفلت) - ١٩٨١ - مستلهمة من قصيدة للشاعر الألمانى الساخر كرستيان مورجن شتيرن (١٨٧١ - ١٩١٤)، ومسرحيات الطويلة تنهج أسلوبا ملحميا لا أستطيع أن أنكر تأثيره

بترجماتي لأشعار برشت وبعض مسرحياته. وفي معظم مسرحياتي القصيرة والطويلة قصائد منشورة هنا وهناك، اقتضاها الموقف أو جرت على لسان بعض الشخصيات التي تتغنى بها، بل إن الكورس في إحدى هذه المسرحيات (وهي البطل) كتب كله شعراً، وأذكر أنني لم أجد في ذلك أية مشقة. ولو اطلع أحد على آخر مسرحية نشرت لي، وهي مسرحية (هو الذي طفئ أو محاكمة جلجاميش) ١٩٩٢، لرأى كيف تأثرت بقراءتي للمحكمة جلجاميش البابلية الشهيرة التي ترجمتها بعد ذلك (١٩٩٤)، وكيف تأثرت كذلك مسرحياتي المتواضعة - التي جمعتها تحت عنوان «القيصر الأصفر ومسرحيات أخرى شرقية» ١٩٨٩ - بترجمة القصائد الثلاث الطوال من أدب الحكمة البابلية الذي أخذ من عمري ما يقرب من ثلاث سنوات أضافت قطرات مرة إلى كأس الاكتئاب الذي زاد وفاض في ذلك الحين.

وآخر ما أود الإشارة إليه، في هذه الشهادة التاريخية والفنية، هي ترجمتي الشعرية التي سبقت الإشارة إليها لإحدى المسرحيات التعبيرية (وهي «المنقذون» ضمن كتاب، «المسرح التعبيري» - ١٩٨٤) أوبرا (ماهاجوني) لبرشت التي ذكرتها قبل قليل. ولا أنسى للحقيقة والأمانة أن أعترف بأن الكسور الكثيرة قد تسلفت رغماً عني إلى عظام هذه الترجمات الشعرية وغيرها من القصائد التي فرضت عليّ ترجمتها نظماً وتناثرت في كل ترجماتي - ومرجع هذا إلى جهلي التام بعروض، وعجز الأذن الحساسة لموسيقى الشعر عن تلافي الإساءة إليه وإلى العبقري المتفرد (الخليل بن أحمد) الذي أبدعه إبداعاً فريداً مثله.

١٢ - وأخيراً، ربما كان أفضل ختام يصل نهاية هذا الحديث ببدايته ليكمل الدائرة التي مازلت أتحرّك داخلها إلى أن ت شاء رحمة الله، هو تقديم مثال واحد للترجمة الشعرية المنظومة التي حاولت فيها - بقدر الطاقة - الجمع بين أمانة الترجمة وجمالها.

والمثال مأخوذ من الترجمة التي ذكرتها في بداية هذه الشهادة (الديوان الشرقي) للشاعر الغربي جوتة، وهي قصيدة يرى غالبية النقاد والدارسين أنها هي درة عقد هذا الديوان الفريد، وواحدة من أروع أشعار جوتة الغنائية على الإطلاق. ومن أسف أن المجال لن يسمح بتحليل هذه القصيدة وبيان دلالاتها الصوفية والكونية التي عبر فيها أمير الشعر والشعراء الألمان عن رؤيته وتجربته الشعرية التي لا ينفصل فيها الدين عن الحب عن وحدة الوجود الحيّ الفعال إلى الأبد.

واليك قصيدة «الحنين المبارك» التي ربما تكفر عن ثورتى السابقة:

لا تقل هذا لغير الحكماء	ربما يسخر منك الجهلاء
وأنا أثنى على الحيّ الذي	حنّ للموت بأحضان الهيب
في ليالي الحب والشوق الرطيب	يصبح الوالد والمولود أنت
يحتوى قلبك إحساس غريب	ومن الشمعة إطراق وصمت
تترك السجّ الذي عشت به	غارقاً في عتمة الليل الكثيب
ينشر الشوق جناحيه إلى	وحدة أعلى وإنجاب عجيب
سوف تعروك من السحر ارتعاشة	ثم لا نجفل من بُعد الطريق
وستأتى مثلما رفّت فراشة	تعشق النور فتتهوى في الحريق
وإذا لم تصغ للصوت القديم	داعياً إليك: متّ كيما تكون!
فستبقى دائماً ضيفاً يهيم	في ظلام الأرض كالطيف الحزين

# المترجم ممثلاً

## ترجمة الشعر: تجربة شخصية

### بشير السباعي\*

يبدو لي أنه مما لا طائل من وراءه أن أحدث عن تجربتي الشخصية في ترجمة الشعر من زاوية مشكلات التقنية ونهج التعامل مع تلك المشكلات. وبالرغم من أن هذه المشكلات وتلك النهج تندرج، بطبيعة الحال، ضمن مكونات التجربة، فإن الهدف أمامها قد يجرد الحديث من الشيء الأكثر أساسية؛ أي فهم المترجم للمغامرة الإبداعية التي ينخرط فيها.

لنترك جانباً، إذن، عدد الشعر ولنستعد عن ورشة الأدوات، لنخرج إلى ساحة المسرح الرومانى المكشوفة. بالنسبة إلى، كانت تجربة ترجمة الشعر، ولا تزال، تجربة اعتراف بالآخية وتجربة اعتراف بإمكان، بل بوجوب، تمثيلها بوصفها مظهراً آخر للنسبية، وهو المبرر الأساسى لاعتبار هذه التجربة فعلاً إنسانياً بامتياز، لا يمكن أن يتسامح مع أية تحيزات فدية من أى نوع، وهو ما ينسجم مع واقع استحالة العصور على شوفيينين بين المترجمين الذين يفهمون أنفسهم من هذه الزاوية، فمن يمد جسراً لا يبيت فى أساسه قبلة موقوتة، ومن ينشر شراعاً لا يخرق أرضية المراثى.

هذه الحقيقة تصبح أكثر رسوخاً عندما يتباين الشعراء الذين يترجم لهم المترجم وكذلك عندما تتعدد اللغات التي يترجم عنها. فمن حلة كهذه، تصبح القدرة على تمثيل الأعمال المتباينة وبتأويل الإلهام المختلفة،

\* مترجم وناقد، مصر.

على اختراق حواجز الألسن وشق طريق وسط الأبراج البابلية، دليلاً أكيداً على اندماج حميم بين الذاتية والآخريّة.

ولئن كان هذا الاندماج امتلاكاً، فإنه يظل مع ذلك امتلاكاً آخريّة متميزة ومستقلة، يجب أن يظهر تمايزها واستقلالها واضحاً خلال فعل الامتلاك ذاته، وإلا تحول المترجم إلى وصي خائن لوصية المؤلف، وهي وصية نقل تراثه إلى الآخرين مكاناً وزماناً، كما هي، دون زيادة أو نقصان. هكذا يمكن أن نكون بعيدين عن تقديم ما هو دخیل في صورة الأصيل وبعيدون عن خلط أصواتنا نحن بأصوات من نريد الاستماع إليهم بلساننا، فهذا الخلط هو فعل اغتصاب أو هو فعل غش للخمر!

إن امتلاكنا الآخريّة في فعل ترجمة الشعر هو كامتلاك الممثل المسرحي للشخصية التي يلعب دورها. وهو، بهذا الشكل، امتلاك من نوع خاص، هو نوع من التمثيل إلى درجة الذوبان في ما نملك، وهو مستوى لا يمكننا بلوغه، مع ذلك، إلا إذا كنا جريئين بما يكفي لمواجهة تحديه.

هذا التحدي هو تحدي الفهم والقدرة على الفعل، وهو، كذلك، تحدي المهبة الإبداعية الفنية، الذي يستحيل دونه تحقيق مثل هذا الامتلاك.

وإذا كان من المستحيل على الممثل المسرحي أن ينجح في أداء دوره إن لم يندمج في هذا الدور ويتماهى معه، خلال الأداء المسرحي، فمن المستحيل، بالمثل، على مترجم شاعر ما أن ينجح في ترجمة هذا الشاعر إن لم يندمج معه، خلال فعل الترجمة، وهو اندماج ضروري إلى أقصى حد، ولاغنى عنه بأية حال.

من يترجم، مثلاً، قصيدة ليرمونتوف: «وداعاً يا روسيا التي لم تتطهر من أدرانها»، لابد له أن يشعر، خلال فعل الترجمة، أنه الشاعر المتمرد الساخط ذاته، بلحمه ودمه، وقد وقف يرت على عرف جواده تحت سماء ملبدة بالغيوم، استعداداً للرحيل عن روسيا إلى القوقاز، فراراً من أعين الباشاوات الروس وأذانهم، الذين شنقوا ريليف دون أن يطرف لهم رمش. ومن يترجم، مثلاً، قصيدة كافافي: «شموع»، لابد له أن يشعر، خلال فعل الترجمة، أنه نزيل ١٠ شارع ليبسيوس بالإسكندرية، يكلم الظلال التي تتأرجح على الجدران في مسكن الروح، بعد يوم حافل في الشارع، مسكن الجسد والشهوات.

هذا، مثلاً، هو ما أجاز لإيفانوفسكي، مترجم شيكسبير إلى الروسية، أن يشعر، خلال فعل الترجمة، أنه ليس أقل من شيكسبير! وهو، بين أمور أخرى، ما سمح بأن يقبل ملايين القراء على قراءة ترجماته!

بين الوارثين، يعتبر مترجم الشعر ناقلاً لإراث. وبين الفنانين، يعتبر أقرب ما يكون إلى الممثل المسرحي. ناقل الإراث يجب أن يكون أميناً على التركة، والممثل يجب أن يذوب في دوره.

رأيت بورترهيات رسمها ديستوفسكي بالحبر الأسود لشخصيات رواياته، وعرفت أنه كان حريصاً على أن تصل قراءته لعمله، بطريقة واحدة، إلى جمهوره القراء ذوى الخلفيات المتباينة. وأعتقد أن هذا الطموح مشروع، وإن كنت لا أعرف إلى أي مدى نجح فيه عملاق الأدب الروسي. كذلك، يطمح الشاعر إلى أن يصل شعره، عبر الترجمة، كما هو، دون انتهاك صوت المترجم لصوته هو.

ويمكننا أن نتبين إلى أي حد يتمايز صوت الشاعر إذا وجدنا أنفسنا أمام ترجمات مترجم واحد لشعراء مختلفين.

في تجربتي الشخصية، يمكنني أن أجد أن صوت جورج حنين يظهر، في ترجمتي، متميزاً عن صوت جويس منصور، حتى بالرغم من التشابه السورالية الحميمة التي تجمع بينهما، فالتمايز بين الصوتين موجود في الأصول، ويمكنني، بلش، «هما أمر أسهل، أن أجد أن صوت نيكولاي جوميلوف، زوج أنا أخماتوفا، البحار الذي زار مصر، يظهر، كذلك، في ترجمتي، متميزاً عن صوت إيغور سيفيريانين، معاصره، الساخر الحكيم.

والحال أن حضور المترجم، شأنه في ذلك شأن حضور الممثل على خشبة المسرح، إنما يكمن في ذواته ذاتية في الآخرة. والمترجم، شأنه في ذلك شأن الممثل، هو الكاتب الوحيد الذي يهني نفسه على نجاح ترجمته إذا قلنا له إننا لم نشعر بوجودك: لقد كنا، في ترجمتك أمام الشاعر نفسه! مثلما يهني الممثل نفسه على نجاح أدائه إذا قلنا له إننا لم نشعر بوجودك، لقد كنا، في أدائك، أمام هاملت شخصياً!

أما المترجم الواحد الذي يترجم لشعراء مختلفين فيبدو حاضراً بذاته وسط كل هذا التنوع، فهو، في رأيي، النموذج المثالي (!) للممثل.

وكما أن الممثل الواحد لا يمثل، غالباً، دوراً واحداً، كذلك لا يترجم المترجم الواحد، غالباً، شاعراً واحداً. وكما أن كل دور مسرحي أو سينمائي نوعي يتطلب من الممثل، إلى جانب مهارات وقواعد الفن الإجمالية، قواعد ومهارات خاصة، كذلك المترجم، لا يمكن أن يكتفي بالمهارات والقواعد الإجمالية لفن الترجمة، بل يحتاج إلى قواعد ومهارات نوعية، مع كل شاعر، ومع كل قصيدة، بما يتناسب مع مهمة ترجمة الشاعر المحدد والقصيدة المحددة.

فالمهارات النوعية التي تتطلبها ترجمة فانيكا ريديجراف أداء دور إيزادورا دنكان إنما تختلف عن المهارات النوعية التي تتطلبها من الممثلة الإغريقية أداء أدوار أخرى.

ومن الواضح أن ما هو مطلوب من المترجم حين يترجم الأغاني الشعبية إنما يختلف عما هو مطلوب منه حين يترجم الكلاسيكيات، وما هو مطلوب من مترجم الرباعيات الفارسية يختلف عما هو مطلوب منه حين يترجم السونيتات الروسية.

هذه المهارات النوعية لا يمكن أن تكون شيئاً أقل من تراكمات معرفية متميزة وثيرة التنوع. ومن لم يسمع عن شجرة البتولا الروسية لن يلمح الريف الروسي الذي يرقد تحتها، ولن يفهم شيئاً من سيرجي يسينين. ومن لم يسمع شيئاً عن «سيفيدو بوشكين» لن ينجح في ترجمة قصيدة بوشكين: «أريون» التي لا يرد فيها أي ذكر لهم. ومن لم يسمع عن «أخوت شوكسبير» تجاه موت ابنه هامت لن يفلح في ترجمة كثير من سونيتاته، وهو ما حدث مع أولئك المترجمين الذين قذروا لها صياغات موسيقية تتميز بتدفق عذب في حين أن الصياغات الموسيقية المطلوبة لترجمتها هي صياغات الشجية المريعة، كما بين ذلك إيفانوفسكي.

وكما أن كل زمن يحتاج إلى إخراج جديد لمسرحية كلاسيكية ما، فإن كل زمن جديد يحتاج إلى ترجمات جديدة للموروث الشعري. فكل شيء يتحول، والتحول هو قانون الوجود الأشمل، وهو قانون الثقافة الروحية كذلك، وقانون الأنس. إن نهر الحياة لا يتوقف عن الجريان. والشئ الأكثر تميزاً هو أن المترجم إنما يترجم لمعاصريه، وليس لأجيال قديمة. فهذه الأجيال سوف تكون بحاجة إلى مترجمين معاصرين لها،



يتكلمون بلسانها هي، لا بلساننا نحن. كذلك، وبهذا المعنى، لا يبدو أن هناك ما يبرر لمترجم عربي للشعر الأجنبي بيننا الآن أن يستخدم لسان أسلافنا: إنه يتحدث إلينا نحن، فكيف يتحدث إلى الأحياء بلسان الأموات؟ ونحن، بدورنا، سوف نموت، وسوف يأتي بعدنا أناس آخرون، مختلفون، مثلما يحتاجون إلى إخراج جديد للمسرحيات الكلاسيكية، يحتاجون كذلك إلى ترجمات جديدة للنصوص الإبداعية، حتى وإن كانت هذه النصوص قد ترجمت من قبل أكثر من مرة!

لا ثبات ولا خلود لشيء، ولا للفكر، ولا لواقعه المباشر، ولا ترجمة هذا الواقع المباشر. وإذا كان لابد أن نكون، فيجب أن نكشف ذواتنا في الآخريّة، بذويان في زماننا. إن حضورنا، بوصفنا مترجمين للشعر، إنما يكمن في هذا، وفيه وحده، أساساً!

وإذا أمكن لفعالنا، بوصفنا مترجمين للشعر، أن يخترق الأزمنة القادمة، فلا يجب أن نهني أنفسنا كثيراً على ذلك، لأن نجاحنا في ذلك لن يكون غير عرض آخر من أعراض مريض إنساني قديم، اسمه الحنين!



# قصيدة النثر العربية

## ملاحظات أولية

رفعت سلام\*

لعلهم آحاد - فحسب - من اطلعوا عليه من النخبة الشعرية والثقافية العربية، حتى الآن. وكان لكل منهم أن يوظفه لحسابه الشعري، أو النقدي، أو - حتى - العقائدي، دون أن يبيحه أحد منهم - بكامله - للآخرين (هل يمثل ذلك شكلا من معادلة المعرفة = سلطة؟). ما من ترجمة، ما من قراءة نقدية، ما من عرض للمحتويات. اسم بلا جسد، وعنوان يرد في الإحالات المرجعية القليلة، ولا كتاب. واسم مؤلفته يعرفه الجميع - من الأجيال الشعرية كافة - دون معرفة بكتابها ذاته. وشذرات من المقدمة تتحول إلى مواصفات جاهزة، مجردة، ومطلقة لقصيدة النثر، «صالحة لكل زمان ومكان».

(١)

لكتاب (قصيدة النثر منذ ظهوره إلى الوقت الراهن) لسوزان برنار تاريخ عربي، وفاعلية ما قدمه من الشعرية العربية، منذ صدور طبعته الأولى عام ١٩٥٨. ليس بل ربما كانت فاعليته - عربيا - أعمق وأفدح من فاعليته فرسيا، في مجاله الحيوي الأصلي، برغم عدم صدور ترجمته حتى الآن (١) بالعربية (مفارقة تضيء - في بعض وجهاتها - آليات التفاعل الثقافي، وأشكالها العربية). وطال هذه السنوات - قرابة أربعين عاما - ظل الكتاب هاجسا مستمرا لدى شعراء «الحدأة» العربية. غائب حاضر، في سماء غائب بالمثل، حاضر بالقوة. لكنه الغياب الذي لا يفرض على نسيان، بقدر ما يفرض على التشبث بالغائب، ليصبح غيبه حضورا فادحا، بلا غفران. إنه نوع من المهدي المنتظر.

في العدد ١٤ من مجلة «شعر» البيروتية (ربيع ١٩٦٠)، ترد الإشارة الأولى إلى الكتاب في مقال لأدونيس

\* ناقد وشاعر، مصر.

كانت المرة الأولى - في الكتابة العربية - التي تُطرح فيها «قصيدة النثر» بهذه الدقة؛ ولعلها المرة الأخيرة. لكن المقالة تعتمد - بصورة مطلقة - على ما كتبه «سوزان برنار» في متقدمتها، بلا إضافة ذات بال، ودون اختراق للآفاق الشاسعة العميقة التي فتحتها، وأوغلت فيها وراء القصيدة.

ذلك ما يشدد عليه - أيضا - الناقد محمد جمال باروت، في دراسته المهمة (الحدث الأولى) (٣)، فيما يرصد - بالإضافة - احتدام الجدل حول قصيدة النثر، في الاجتماعات الأسبوعية لخميس مجلة «شعر» في ربيع ١٩٦٠، على إثر قراءة أطروحة سوزان برنار حول قصيدة النثر. وبموجب التمييز بين قصيدة النثر والقصيدة المحررة من الوزن والقافية، الذي أثارته قراءة أطروحة سوزان برنار، والقسم الذي يحمل عنوان «قصيدة النثر والشعر الحر»، اعتبرت حركة مجلة «شعر»، مثلاً، إنتاج محمد الماغوط في «حزن في ضوء القمر» شعراً حرّاً لا قصائد نثر.

موقف جماعي إجماعي من الكتاب باعتماد مفاهيم وتبنيها - من قبل واحدة من أهم الحركات الشعرية العربية في القرن العشرين - اعتماداً مطلقاً، ليتحول إلى «إنجيل» الجماعة المقدسين، ومنه، تستمد أحكام التقويم بشأن الأعمال الشعرية، بوصفها مرجعاً وحيداً، وتستخرج أسلحة الهجوم والدفاع - كترسانة مدججة - ولا مرجعية أخرى للحركة. ولعلامة به قائمة على استظهاره ونسخه.

لذا، لم يكن لأنسى الحاج - في مقدمة ديوانه (لن) ١٩٦٠ - سوى أن يكرر أدونيس، في استعادته الحرفية لمفاهيم ومصطلحات سوزان برنار:

يحتاج توضيح ماهية قصيدة النثر إلى مجال ليس متوافراً. وإنني أستخدم بتلخيص كلي هذا التحديد من أحدث كتاب في الموضوع بعنوان «قصيدة النثر من بودلير إلى أيمان» للكاتبة الفرنسية سوزان برنار (٤). لتكون قصيدة النثر قصيدة نثر؛ أي قصيدة حقاً لا قطعة نثر فنية أو محمّلة بالشعر، شروط ثلاثة: الإيجاز (أو الاختصار)، التوهج، والمجانبة (٥).

يحمل عنوان «في قصيدة النثر» (٢). واستناداً إلى الكتاب - إلى مقدمته الموجزة، بالتحديد - يقترح أدونيس المصطلح، وي طرح خصائص قصيدة النثر، والتمايزات الأساسية بين «النثر الشعري» و«قصيدة النثر»:

ليس للنثر الشعري شكل، هو استرسال واستسلام للشعور دون قاعدة فنية أو منهج شكلي بنائي، وسير في خط مستقيم ليس له نهاية. لذلك، هو روائي أو وصفي يتجه دائماً إلى التأمل الأخلاقي أو المناجاة الغنائية أو السرد الانفعالي. ولذلك، يمتلي بالاستطرادات والتفاصيل، وتنفس فيه وحدة التناغم والانسجام.

أما قصيدة النثر فذات شكل قبل أي شيء. ذات وحدة منغلقة. هي دائرة أو شبه دائرة. لاخط مستقيم. هي مجموعة علائق تنتظم في شبكة ذات تقنية محددة وبناء تركيبى موحد، منتظم الأجزاء، متوازن.. هي شعر خاص يستخدم النثر لغايات شعرية خالصة.

أما خصائص «قصيدة النثر» التي تستكمل التمايز بينها وبين «النثر الشعري»، فتحدد - لديه - في ثلاث:

أ - يجب أن تكون صادرة عن إرادة بناء وتنظيم واعية، فتكون كلاً عضوياً، مستقلاً. تكون ذات إطار معين. وهذا ما يتيح لنا أن نميزها عن النثر الشعري الذي هو مجرد مادة. فالوحدة العضوية خاصة جوهرية في قصيدة النثر.

ب - هي بناء فني متميز. فقصيد النثر لا غاية لها خارج ذاتها، سواء كانت هذه الغاية روائية أو أخلاقية أو فلسفية أو برهانية.. فهناك مجانية في القصيدة. ويمكن تحديد المجانية بفكرة اللازمية.

ج - الوحدة والكثافة. فعلى قصيدة النثر أن تتجنب الاستطرادات والإيضاح والشرح، وكل ما يقودها إلى الأنواع النثرية الأخرى.

فاعلية «سوزان برنار» - في الشعرية العربية الحدائية - فاعلية تأسيسية للنظري، عبر جماعة «شعر» أولاً، ثم من خلال أدونيس ثانياً. فاعلية بالوساطة، لا بذاتها. ولأنها كذلك، فهي منقوصة ومجتزأة؛ لأن أداة الفاعلية - الكتاب - لم يسمح لها بالحضور الذاتي، المباشر، والمكتمل، في ذاتها، وإنما انحصر دورها في استخدامهما الموجه، في توظيفها من قبل «الجماعة» وبعض شعرائها. وهو توظيف اختصرها - وهي الشاعسة الشاهقة - إلى بعض أفكار لا تخرج عن الصفحات الأولى. وهي فاعلية ملتبسة - من بعد - لاختلاطها بفاعلية أدونيس الشعرية والثقافية.

أما مصادفة صدور الكتاب في العام التالي - مباشرة - لعام تأسيس مجلة «شعر» (١٩٥٧)، فهي مصادفة مدهشة، ونادرة، في التواريخ الأدبية. كأنه قد صدر من أجلها، ومن أجل قصيدة النثر التي كانت تتأسس في اجتماعاتها، وعلى صفحاتها.

فهل هي مصادفة أيضاً أن تخلو الأعداد الثلاثة عشر الأولى من «شعر» من أية مقارنة لقصيدة النثر، قبل طرح بعض أفكار الكتاب في مقالة أدونيس (العدد ١٤)؟

كأنما المجلة والجماعة كانتا في انتظاره، من أجل تأسيس نظري لقصيدة النثر.

ما أكثر الأسئلة.

وما أقل الإجابات.

(٢)

للقاهرة - شعرياً - سياق آخر، في الزمن نفسه.

يضيء السياق كتابان أساسيان، كل منهما عمدة في مجاله، يكشف منحي كاملاً من «الشعرية» المهيمنة في الستينيات المصرية، وربما العربية.

الأول: (الشعر العربي المعاصر، قضايا وظواهر الفنية والمعنوية)، للدكتور عز الدين إسماعيل. وهو «الرجع» - ربما - في موضوعه، لدى الكثيرين، حتى الآن، رغم تقادم العهد

نصان سيتحولان إلى مصدر للأفكار الشائعة عن قصيدة النثر، لدى الأجيال الشعرية التالية، الخارجة على النسق الشعري العام. نصان مرجعيان، يقديان - رغم كل شيء - على مفاهيم محددة، متماسكة، تحث على أسئلة الحد الأدنى، بما حولهما - تاريخياً - إلى «مستقيمتي» لقصيدة النثر العربية، سيدخل دائرة المحفوظات المنقوشة على الشعراء القادمين.

لكن النصين افتقرا - طوال السنوات التالية - إلى أية إضافة إيجابية، أو تطوير نقدي منهجي، كما ورد بهما، سواء من الشاعرين - أدونيس والحاج - أو من غيرهما (إذا ما نحينا جانباً بعض المقالات التي لا تندرج تحت «إعادة إنتاج»). ثمة كتابات مهمة - بالتأكيد - في «حدائق» الشعر العربي المعاصر، وآفاقه المختلفة، انطوت على مفاهيم ورؤى تتجاوز ما كان مستقراً في الوعي الروماني والوعي «الواقعي» الاشتراكي، لكن «قصيدة النثر» من حيث هي موضوع خاص، ذي إشكالات نوعية خصصت - ظل بجانب - عن المقاربة، مرة أخرى.

أسئلة أليمة، ولا إجابات، أفندجها سؤال «الإيقاع» والقصيدة تكتسب - إبداعياً، عربياً - أرضاً جديدة، ولا ضوء وجيداً.

موجة عارمة في إبداع قصيدة النثر، حوال الستينيات والسبعينيات، جرفت معها - إلى هذا الحد - بعضاً من أساطين الكتابة «التفصيلية»<sup>(٦)</sup> أصبحت القصيدة واقعاً شعرياً متزايد الحضور، ولا رؤية نصيرية، لا ترجمة، ولا اجتهداً.

لذا، يقف النصان نصباً من علامات الاستفهام والتعجب معاً، شاهداً نموذجياً على «سعة ثقافية بكاملها، متكررة في تاريخنا الثقافي».

وخارج النصين، سيؤم أدونيس - لعشرين عاماً تالية - مصطلحات «سوزان برنار» حول الشعر - «الكشف، الرؤيا، العرافة، الهدم، الشاعر النبي... إلخ» لتشغل مرتكزات خطابه الكتابي؛ فتنتقل - من جديد - منوهة إلى الآخرين، دون إحالة - هذه المرة - إلى المصدر، أو معرفة.

بمنهجه النقدي ورؤاه النظرية (ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٦٦).

ولن نعثر - مرة واحدة - على مصطلح «قصيدة الشعر»، أو ما يشير إليها، على امتداد أكثر من أربعمئة صفحة من القطع الكبير. كأنه وكأنها ليسا من «قضايا الشعر العربي المعاصر وظواهره الفنية». لا إشارة واحدة.

هو محاولة لرصد «الشائع»، المهيمن العمومي، في الشعر «المعاصر»، ولا موضع للاستثناء، والخارج عن المجرى العام والهيمنة.

وقد اتسعت الطباعات التالية لتذييلات تلاحق الأجيال التالية، وصولاً إلى أهم الأعمال الشعرية في التسعينيات، لكنها احتفظت بالموقف نفسه من «قصيدة الشعر» - من حيث هي قضية نقدية وإبداع شعري، معاً.

سنجد - في المتن والتذييلات - أسماء صلاح عبد الصبور والبياتي وحجازي والسياب ونازك الملائكة، لكننا سنجد أيضاً أسماء عواد ناصر وسعدى على السند ورعد عبد القادر وفوزي خضر. لكننا لن نعثر على اسم «أنسى الحاج»، ولا «شوقي أبو شقرا»، على سبيل المثال.

نعثر على اسم «أدونيس» مرتين، على سبيل الحصر: «فقد استطاع أدونيس أن يشتق لنفسه لغةً خاصة، وأن يكون لنفسه عبر دواوينه المختلفة معجماً شعرياً واضح التميز»<sup>(٧)</sup>. لكن اللغة - لدى ناقدنا القدير - لا تحيل إلا إلى ذاتها، إلى خصوصية تجربة أدونيس في «قصيدة الشعر». لغة، في ذاتها، منقطعة عن التجربة الشعرية. وترد الإشارة الثانية بصدد الحديث عن تطور «معمارية القصيدة الجديدة» على أيدي الشعراء في الاتجاه الدرامي<sup>(٨)</sup>. وعلى النهج نفسه، تبدو «قصيدة الشعر» خارج معمارية القصيدة الجديدة وتطورها. موضوع خارج الموضوع.

والصمت المطبق، المطلق، يشير التساؤلات. أهو حكم نقدي ما - بالسلب الصامت - على «قصيدة الشعر»؟ أم إنها القصيدة الحافلة بالمتفجرات النظرية والمآزق النقدية؟

هذا كتاب شئت به أن أشارك في تجلية الصورة الراهنة لشعرنا العربي، بأن أستعرض كل القضايا والظواهر الفنية والمعنوية الخاصة بهذا الشعر، التي أثّرت خلال الخمس عشرة سنة الماضية، وأن أستكشف كذلك ما لم يثر من قبل من هذه القضايا والظواهر..<sup>(٩)</sup>.

لكن ما جرى - تطبيقياً - لم يخرج عن التجاهل التام لواحدة من أهم الحركات الشعرية العربية، كأن وجودها مرادف للعدم.

محاولة للنفي خارج الذاكرة الثقافية، أم هروب من العجز الذاتي عن المواجهة النقدية؟ تساؤلات عصية بطرحها، أيضاً - الكتاب الثاني - ولنتنبه إلى العنوان: (ثورة الشعر الحديث من بودلير إلى العصر الحاضر)، للدكتور عبد الغفار مكاوي<sup>(١٠)</sup>: بودلير ورامبو ومالارمييه، ولا قصيدة نثر. تحليل دقيق، ثاقب لرؤية العالم لديهم، وتحليل مرهف - فكرياً - للعالم الشعري، دون تطرق ذي بال إلى بنية العمل الفنية. وتختد «إشراقات» رامبو باعتبارها «مجموعة القصائد النثرية»<sup>(١١)</sup>، فحسب. ولا سؤال في تلك «القصائد النثرية»، وماهيتها الإبداعية، ولا بنيتها الفنية.

هو منطق الحذف والاستبعاد. ليس المنطلق ما هو كائن كينونة فاضحة في الواقع - واقع الشعر العربي، أو الفرنسي - بل ما هو كائن في العقل النقدي، أو ما يراد له أن يكون. وتحقق إرادة هذا العقل واقعياً بأن يحذف الواقعي - أو بعض عناصره الحيوية - وأن يستبدل به، أو بها، ما هو ذهني. يتحول الواقع الشعري - بذلك - إلى واقع ذهني، محكوم بإرادة الناقد، وذوقه الفني، وتوجيهاته الإيديولوجية الشعرية. حذف واستبعاد - من ناحية - وتضخيم وتزيد من ناحية أخرى، لسد الفجوات الناجمة عن الحذف الإرادي.

ما من طرح للقضية ذاتها، وإبداء الموقف منها - نقدياً - بما قد يفندها، من وجهة نظر الكاتب، بل الصمت المطبق، المطلق. فطرح القضية إثبات - بمعنى ما - لها، وتحقيق لحضورها، حتى إن اتخذ شكلاً سلبياً. إثبات وحضور ليسا مرغوبين، ولا ضرورة لهما في ذاتهما. فحضورها



تحدُّ - لذوق «الجماهير الواسعة» ووعيها، التي لم تكن متمثلة، بعد، للتحول الشعري السابق إلى النسق التفعيلي. بل كانت القصائد قطيعة وتحدياً للشعري السائد (خروج قصيدة التفعيلة ظافرة من المعركة مع التقليد، العنفوان الشعري لصالح عبدالصبور وحضوره المهيمن، صعود الجيل الثاني من شعراء التفعيلة، إغلاق منافذ النشر في وجه قصيدة النشر العربية).

فالدويان - إذن - قطيعة مع «الإنشادية التقدمية» الحماسية، التحريضية، وقطيعة مع المتن الشعري العام في القصيدة المصرية، آنذاك، واختراق للحصار التفعيلي المضروب على قصيدة النشر، وصعود ضد ذلك التواطؤ السري، ورغم.

ديوان خارج جميع السياقات. وسوف تطرح الدراسة الملحقة بالديوان للنقاد «إبراهيم فتحى» سؤال الوعي بالعالم والذات الكامن في التجربة، لكنها لن تخرج عن المأثور النقدي المعاصر في تجاهل سؤال «قصيدة النشر».

كحجر في بحر بلا قرار، كان الديوان. جريمة يتنصل منها الجميع، بالصمت عليها: فما تبناه «التقدميون» الذي صدر عن جمعيتهم (لأن «عائده السياسى» لم يكن ذا بال، يحكم طبيعة الشكل الفنى المضاد للإنشادية التحريضية)، ولا اعترف به - شعرياً - شعراء التفعيلة ونقادها المهيمنون على منابر النشر، إن كانوا قد سمعوا به أو عرفوه.

ولعل مبرر إصداره ضمن السلسلة «التقدمية» لم يكن شعرياً، بقدر ما كان تنظيمياً، يستند إلى عضوية الشاعر في «الجماعة» وانتمائه السياسى. هو انحياز إلى السياسى الكامن فى الشخص، لا الشعري. كما أنه - بالقطع - لم يكن انحيازاً إلى الشعر فى ذاته، بمعزل عن شخص كاتبه.

غاب الشعري فى ظل السياسى. وتكاثرت ملايسات عدة لارتكاب جريمة وأد شارك فيها الجميع - والشاعر - وتتصل منها الجميع.

وظلت «قصيدة النشر» القضية الغائبة، فى الإبداع والنقد المصريين، بما هى قصيدة خارجة على «النظام» و«المؤسسة»، وبما هما (النظام والمؤسسة) طرفان فاعلان

السلبى - حتى - تقليل من الحضور الآخر، شرك به، وكسر للواحدية الشمولية المطلقة. فلا مفر - فى ذهن النقدي الأدبى، وغير الأدبى - للتعددية، من حيث هى واقع أو احتمال. الواحدية هى النموذج الذهني الأعلى الذى يسعى الجميع - كل فى مجاله - إلى فرضه فرضاً، بقوة الحذف والإلغاء، بالصمت والعنى الإرادى

لا مواجهة، إذن، لفكرة «قصيدة النشر». ولا للقصيدة ذاتها.

تواطؤ سري، ضمنى، على التجاهل والسيان.

(٣)

فى ظل هذا التواطؤ السري، صعد أول ديوان مصرى لقصيدة النشر: (مدخل إلى الحداثى القاعدية)، لعزت عامر عام ١٩٧٩ (١٢). لم يصدر عن دور نشر، بل عن جماعة أدبية / سياسية، لها توجهها التقدمى، التى يتسمى الشاعر إليها:

إن كتاب هذه السلسلة يرفض جميعاً القول باللاوعى الخلاق.. فلماذا أترك قصيدة الانفعالى للشوة الشعبية شيئاً.. ونسب هذا الموقف من القرن وفقاً على طبقة اجتماعية واحدة أو مدرسة فنية واحدة. إنه يجمع خلفاً اجتماعياً وثقافياً عريضاً، من القوى المساعدة التى تعمل على تقويض العالم القديم عالم النهب الاستعماري والتوسع الصهيونى، «الاستغلال الرأسمالى». فبين الجماهير الواسعة وبينهم حوز وسدود أقامتها الطبقات الرجعية (١٣).

بيان يليق - حقاً - بفرسان «الواقعة الاشتراكية» فى ذلك الزمن، وعياً وقاموساً وجزماً «ريادة الرصيد الانفعالى للشوة الشعبية» هى هدف التوجه إلى «الجماهير الواسعة»، من أجل تقويض «عالم النهب الاستعماري». «البحر» والكاتب أداة «زيادة الرصيد»، من خلال نصه المكتوب.

لكن قصائد النشر التى تلى هذا «الانفجاستو» ترفض هذا الدور الوظيفى، الاستعمالى، بما تمثل من قطيعة - بل

لهما أن يتخذا موقفاً الدفاع - فيما بعد الإنجاز - ضد القادمين. هكذا، يتوحد الموضوعى فى الذاتى، والشقا فى الشخصى (١٥).

من انخسنيات إلى الستينيات، احتدمت المعركة، وبلغت ذروتها الفاصلة فى بيان «لجنة الشعر» بالمجلس الأعلى للآداب والفنون (أحد أجهزة الدولة الثقافية):

إن مراجعة سريعة لكثير مما يسمى بالشعر الجديد لتكفى للدلالة على أن أصحابه واقعون تحت تأثيرات.. منافية لروح الثقافة الإسلامية العربية.. مما يجعل كتاباتهم مرفوضة.. لأنها تشيع فى كياناتنا العضوى عنصراً غريباً يهدمه.. من ذلك ميلهم الشديد نحو الاستعانة فى التعبير بعناصر يستمدونها من ديانات أخرى غير العقيدة الإسلامية، بل وما تأباه هذه العقيدة: ككفكرة الخطيئة وفكرة الصلب وفكرة الخلاص (١٦).

بيان تحريضى يتوج التهجمات المنتظمة من مجلتى «الرسالة» و«الثقافة» على الشعر الجديد. لكنه - فى الوقت نفسه - «مذكرة» موجهة إلى نائب رئيس الوزراء للثقافة والإرشاد القومى لاتخاذ إجراءات سلطوية، تنفيذية، ضد الاتجاه الشعرى الجديد. ولندكر أن تاريخ المذكرة / البيان يصل إلى نوفمبر ١٩٦٤.

أجهزة حكومية راسخة تمتلك فاعلية التدخل، وتمنحها القوانين واللوائح هذا الحق؛ بل تفرضه عليها وظيفة ودوراً. ويكون من حق العقاد - بحكم منصبه البيروقراطى - أن يقوم بالتأشير على ديوان صلاح عبدالصبور «إلى لجنة النشر، للاختصاص»، وإلى اشتراط ألا يلقى الشعراء المدعوون إلى مهرجان دمشق شعراً تفعيلياً (جديداً)، كى يوافق - بحكم سلطات منصبه - على سفرهم. وأهم القصائد والدواوين لا تجد مكاناً لها فى مجلات القاهرة، ودور نشرها، فترحل إلى بيروت، لتنفجر المعارك بالقاهرة.

وبل التيار المحافظ، التقليدى - الذى ظل يحتل الأجهزة الثقافية - كان يدرك، بالوعى أو اللاوعى، أنه

- فاعلية أساسية - فى الواقع الأدبى (طوال أكثر من أربعين عاماً، تحتكر المؤسسة الحكومية المجلات الأدبية، والصفحات الثقافية بالجرائد والمجلات العامة، وعقد المهرجانات والندوات الداخلية، والعروض للحارجية، ومنح الجوائز والامتيازات المادية والأدبية، والإذاعة والتليفزيون. كما أنها الناشر لما يزيد عن ٩٠ ٪ من الكتب) (١٤). مؤسسة تمارس حق الاعتراف أو الإنكار أو التجاهل، حق القبول حتى التبنى، أو الرفض، حق المنح، أو المنع. لا حيادية، ضد الجديد - باعتباره خروجاً على النظام والاستقرار» الأدبى - إلى أن يفرض ذاته بقوة الأمر الواقع، ويصبح عنصراً من «النظام» الأدبى العام.

وكان لقصيدة النثر المصرية أن تنتظر حركة شعرية قادمة تستطيع أن تنجز ما عجز عنه الشاعر الفرد، الخارج على السياقات، وما عجزت عنه القصيدة العربية، من اختراق للمصدود والحصون المصرية.

(٤)

حينما صعد «صلاح عبدالصبور» - (الناس فى بلادى)، كان التقليديون يحتلون القلاع والمنابر، قادمين من العهود القديمة. مثلهم الشعرى الأعلى: المعرى والمنتبى؛ مثلهم اللغوى: القرآن؛ مثلهم الأخلاقى والوجودى: الإسلام، وهامش سطحى من معارف عامة بآداب أجنبية، قد تغنى عند المباحكة الثقافية.

كانت شمس «أبوللو» قد غربت بلا عودة. والخمسينيات تجىء بالفلول والأشباه المقلدين، بلا ومضة شعر. وطه حسين والعقاد - الغريمان - ينتصبان حارسين على البوابة الأدبية، يمنحان - أو يمنعان - تصاريح الدخول؛ كل منهما يحمل تاريخاً من المعارك والمنازلات، يحمل معرفة بالأصول والفروع، يحمل المسؤولية عن الكون الأدبى (إن أغضض عينه برهة انهار). لا شعر، لكنهما ساهران، حارسان للتقاليد الغابرة.

كان العقاد قد انتهى من «عقرباته» الإسلامية إلى تنصيب نفسه عدواً للشيوعية العالمية. وكان أرقى ما أنجزه طه حسين يقبع فى الورا على مسافة تقارب العشرين عاماً. وأن

يقول حجازي. لا مفر - إذن - من المواجهة في المكان نفسه لاستنفاد الزمان. سكون يتخذ شكل الحركة، وحركة مرادفة لجوهر السكون.

(٥)

عملان يثيران الالتباس في هذا السياق: (كتاب حرف ال ح) لبدر الديب، و(مواقف العشق والهوان وطيور البحر) لإبراهيم شكرالله.

كان الكتاب الأول معروفاً بين دائرة أصدقاء الديب المقربين في الأربعينيات. ونشرت بعض مقطوعاته في مجلة «البشير»، دون صدور كتاباً إلا عام ١٩٨٨<sup>(١٩)</sup>، بعد أربعين عاماً من كتابته: تأملات ذهنية، وومضات شعرية، وسرد أسطوري فانتازي، وأحلام كابوسية، وانتهابات خطيرة للأعراف:

إن الأشياء الشاسعة تتسع على روحى فلا  
أستطيع النطق بها. من «رامبو» إلى «إلبوت» إلى  
«العاذر» إلى «الملك لير» إلى «بروميثيوس» إلى  
«القمر المقتول» إلى «دون كيشوت»: أنا فرد  
ضائع، متفرد في طريق الكينونة الذي لا ينتهى.

كتابة متحررة من القوالب والأبنية الكتابية، مستخدمة - في الوقت نفسه - العديد من الأشكال الأسلوبية، لا للتوصل إلى شكل أو قالب بعينه، بل لاختراق الأشكال والقوالب وأبنية الوعي. إنه:

تعبير عن أزمة الفكر والحضارة في الأربعينيات، وعلى ما كان يعانيه الوطن من ترد وخضوع أمام الموجة الأمريكية الغامرة للفكر الغربي بكل ما فيها من تحليل وتفسير<sup>(٢٠)</sup>.

كتابة حرة تستعصى على القولية والمصطلحات التصنيفية. هي إحدى نتائج المغامرة الذهنية والخيالية التي اشتعلت في النصف الثاني من الأربعينيات: جماعة «الخبز والحرية»، مجلة «التطور»، انفجار السيريالية، (بلوتولاند) لويس عوض، بشر فارس ورمسيس يونان وأتور كامل. لكنها كتابة لم تؤسس أو تغير الكتابة، لأنها كانت خارج الكتابة،

يخوض معركة وجوده الأخيرة، فخرجت الأسلحة كافة التي تم اختبارها والتدريب عليها في الحقب السابقة، باسم الأجهزة - هذه المرة - لا باسم الكاتب الفرد، مثلما كان الحال فيما قبل الثورة. ولم تهدأ قرعة المعركة إلا مع نهاية الستينيات، تماماً في الأعوام التي شهدت انفجار قصيدة الشر في بيروت.

معركة طويلة، مريرة، قاربت العشرين عاماً، تطايرت فيها الاتهامات إلى حد «العمالة». وسكون لغزسان الظافرين وأبنائهم البررة - شعراء ونقاداً - أن يكرروا الموقف المحافظ نفسه مع الحركة الشعرية التالية، بعد استسلامهم على النوائم والأسلاب: المناصب. اختلقت شدة من التحالسين على الكرسي، لكن جوهر الموقف لم يختلف.

بعد عشرين عاماً من مذكرة «حمة الشعر» بكون عبد القادر القط قد أصبح رئيساً لتحرير مجلة «إبداع»، فينفذ - حرفياً، ضد الأصوات الشعرية «غير التفعيلية» - ما سبق أن طالبت به المذكرة في مواجهة جيله الشعري: «أن يخصص الجزء الأقل للتجارب التي لم تستقر بعد لتشكل الجزء الأكثر للصور التي اصطفها تاريخ الفن على مدار القرون الطوال»<sup>(٢١)</sup>. ويخصص بضع صفحات - في مؤخر كل عدد - لـ «تجارب». وبعده يحتل أحمد حجازي مقعده في المجلة، فينفذ مقولته الغربية: «قصيدة الشر شعر ناقص»، فينشره - على مضض بين الحين والحين - في التسعينيات الأخيرة، حتى بعد أن أصبحت قصيدة الشر واقعاً شعرياً حاضراً.

لكنها - ربما - طبيعة «الأجهزة» من حيث هي أدوات للنظام السياسي: الحفاظ على الاستقرار والطمأن، بكل معنى؛ ضد المغامرة والتجريب بوصفهما مبدأ عنما شمولياً، وضبط الحركة والتوجهات في مسارات معلومة محددة، مطلوبة؛ لا خروج على العام، الجمعي، ولا انتهاك للقاء اعد واللوائح التي تحدد الماهية والكيفية، حتى في الشعر.

إذن، لا مغامرة، بل إعادة إنتاج لما أنتج سلفاً. لا اكتشاف؛ فقد تكفل السلف الصالح - المعبد والقريب - بالمهمة، حتى استنفادها: «هذه آخر الأرض»<sup>(٢٢)</sup>، على ما

(٦)

فى يوليو ١٩٧٧، صدر بالقاهرة العدد الأول من مجلة «إضاءة» - ٧٧ الشعرية، بعد أكثر من أربعين عاما من «أبوللو»، خارجة على المؤسسات والأجهزة.

شارة على صعود جيل شعري - بالمعنى الفنى - مغاير فى التوجهات الإبداعية، لا فى القاهرة فحسب، بل فى بلدان عربية كثيرة. ضد اللغة ذات البعد الواحد، والشمولية الإبداعية، والإنشادية المنبرية، وانتحال الشاعر دور النبى / العراف / المحرض / الزعيم / المطلق / الفاعل أبداً. ضد الركود الذى آلت إليه - على وجه السرعة - قصيدة التفعيلة. ضد المعيار «التفعيلي» من حيث هو شرط قبلى، خارجى، للشعرية، وأداة موحدة - بالتالى - بين الفث والشمين، من حيث المبدأ. ضد القولية، وتحويل الإبداع إلى إعادة إنتاج لنموذج سالف، بل ضد مبدأ «النمذجة» فى ذاته، والشروط القياسية الموحدة» (٢٢).

جيل كامل يصعد، فيضع «الرواد» بين قوسين، هدفاً لحرب الأسئلة. ويضع قصيدتهم - على تنوعاتها المتقاربة - متهماً فى قفص المحاكمة. لم تكن «التفعيلة» هدفاً منفرداً فى ذاتها، إنما هو النسق الشعرى بكامله، لا بأحد عناصره.

هكذا، يتحول الاستثناء السابق - مع تصاعد الجيل - إلى القاعدة العامة، والهامش المحاصر إلى المتن.. صوب الحرية، وانفتاح القصيدة على مصاريحها، بلا حدود أو أسلاك شائكة. مرة واحدة، وأبداً.

وتبدأ معركة جديدة تكرر آليات ودعاوى معركة التفعيلة. كإعادة إنتاج لها. واستخدم شعراء ونقاد «التفعيلة» الاتهامات نفسها التى وجهت إليهم - من قبل العقاد وعزيز أباطة وغيرهما - لتصويبها إلى «قصيدة الشر» وشعرائها. كأن التاريخ يبدد نفسه - هذه المرة - فى شكل مهزلة، دفاعاً عن «التفعيلة» التى اختصرت الشعر، وتحولت إلى «وثن» مقدس حل محل وثن «الوزن الخليلي». لا بد - فى جميع الحالات - من وثن ساء، يحدد الحدود، ويمنح الصكوك، ويوفر الطمأنينة الذهنية. أما تلك الحرية غير المشروطة، فتثير القلق والانزعاج.

خارج السياق، معزولة فى حلقة مغلقة منعزلة، معتمصة بشقاقتها الرفيعة «الأجنبية»، بلا اشتباك مع الخارج. أسئلة محلقة فى فضاء مغلق، مكتفية بذاتها. إنما هى - فحسب - متعة المغامرة الروحية المختلطة بالمغامرة النصية.

سيحاول البعض - بعد أربعين عاماً - أن يلصق على الكتاب بطاقة «قصيدة شر»، بعد أن سقطت عنها صفتها الجارحة كـ «وصمة عار» أدبية. لكن الكتاب يتأبى - رغم حسن النوايا - على الاستخدام العشوائى للمصطلحات، بأثر رجعى (٢١)، وعلى سجنه فى مصطلح دال على شكل معين، وهو الهارب إلى خارج الأشكال والأنماط.

والعمل الثانى ديوان من قصائد الشر، نشر متأخراً قرابة العشرين عاماً؛ وصاحبه أحد شعراء مجلة «شعر» البيروتية، بدأ معها، واختفى صوته الشعرى بصمتها. لا حضور، ولافاعلية. لا تماس، ولا تقاطع مع تيارات الشعر وأجياله، مع فضايا الشعر ومعاركه. لا وجود، بأى معنى أدبى. وهى - أيضاً - دائرة الأصدقاء الحميمين، كحلقة حزبية سرية.

وحينما ينشر الديوان - فى الثمانينيات - يكون الواقع الشعرى قد تجاوز تجربته الشعرية وآفاقها التى تكلست فى مخبئها المظلم، ففقدت حيوية الحضور الحى.

تجربة رائدة غريبة تقف على حافة السياق. كأن صاحبها رمى بالقصائد، ثم انتابه النسيان، فلم تصل تماماً إلى «من يعينهم الأمر»، لم تدخل السياق تماماً، فيما أدارت ظهرها للسياق العام.

هكذا، أفلتت التجربة من الذاكرة الشعرية إلى هيولى الأعمال والمغامرات والصرخات فى غير ذى واد. كأنها كانت طلقة فى فراغ، معلقة أبداً ولا تصل. وحينما سيسعى «شعراء السبعينيات» فى مصر إلى تأسيس قصيدة الشر - بصورة نهائية - فى الشعر المصرى، سيكون من لبنات التأسيس شعراء ونقاد وأعمال ليس من بينهم «إبراهيم شكر الله».

سيعرفون به حقاً، لكن بلا حاجة إليه. لقد فات الأوان.

بل الارتباك العقلي، باعتبارها باهظة الثمن من مسؤولية ما اعتاد أحد على تحملها.

حرية تشبه الفوضى، والتمييز بينهما مسؤولية أخرى لا يحتملها إلا من كان ذا بصر حديد. بعمق، أم نقمة؟

مما حركات في المصطلح (٢٣)، «انها مات بإفساد اللغة، والخروج على التراث، والانسياق وراء موجات «مستوردة»، والفموض.. إلخ، تنتهي بالطرد من منحة الشعر إلى النثر «للاختصاص» (تكراراً ألياً لموقف العقاد من ديوان صلاح عبدالصبور)، أو - في أفضل الحالات الميمنة - اعتباراً شعراً ناقصاً. يكمن النقص في غياب «التفعيل»؛ ذلك الموقع لموسيقى المعيارى، السابق والخارج على السحرية؛ القصيدة، باعتباره شرط الشعرية.

بذخ إبداعى طوال الثمانينيات، وعدم نقدي؛ بل جبهة نقدية شعرية متراسة ضد هذا التحول الجارف إلى قصيدة النثر، بلا اتفاق مسبق. وأدباء «التفعيلة» الذين احتلوا المناصب فى الأجهزة الثقافية والإعلامية - لا يتورعون عن استخدام سلطاتهم البيروقراطية ضد القصيدة (هو نفسه ما حدث معهم من قبل).

فهل تستطيع السلطات البيروقراطية إيقاف النصيدة؟  
إنما هو فرض الأمر الواقع الشعرى، بقوة الفعل الإبداعى فى مواجهة الفعل التكرارى، وإعادة الإنتاج الرتيبة الفاترة. حيوية جارفة فى مقابل الركوب والاستقامة إلى «المكانة» المتحققة، التى أن أوان الدفاع عنها، وعما تحققة من امتيازات شخصية متفاوتة.

هنا - وفقاً للقانون - يختلفان دفاع عن الشعرى والنقدى الموضوعى بالدفاع عن الذاتى، وبشخصى. ويدور الدفاع - فى وجهه الموضوعى - كمنحولة تثبت الزمن عند لحظة معينة لا يتجاوزها (الستينيات)، تحية التحقق الذهبية لشعراء التفعيلة. هى «آخر الأرض» ونهاية الزمن. وما يعقبها يجب أن يكون استعادة دائمة لها. وإلا فهى انحدار، يتزايد كلما تزايد الابتعاد عن اللحظة / الأصل. والخرج - هنا - خروج عن «الأرض» إلى الهاوية، وعن الزمن إلى العدم.

أما الخطوة الأخيرة المعلنة، فهى محاولة تبني شعراء النثر، واختلاق شجرة أنساب شعرية، لحشرهم فى القبيلة حشراً (٢٤). أبوة مفروضة، يسخر منها «الأبناء» الخبيثاء، وأجداد من الغرباء.

(٧)

لم تكن «قصيدة النثر» مشروع «شعراء السبعينيات» فى مصر، كانت أحد تجليات مشروعهم الشعرى، المضاد للإنشادية والنمطية وإعادة الإنتاج، لا المشروع ذاته. لم تكن السؤال المطروح، لكنها كانت إحدى علامات الاستفهام الضمنية، المضمرة. ما من مفاضلة بين «التفعيلية» و«النثرى»، فى ذاتيهما المجردتين، المطلقتين، وما من أحكام قيمة.

فالتحرر من القبلى، والتقليدى، وتحرير المحرم، هو ما أفضى بهم - ضمن نتائج أخرى - إلى «قصيدة النثر»، أحد المحرمات الإبداعية فى الشعرية المصرية، بما أن إشكال القصيدة أعمق وأشكل من أن تختصر إلى ثنائية حدية. لم تكن هدفاً مسبقاً، أو غاية، بل نتيجة لتوجهات شعرية صوب الحرية الإبداعية.

هكذا، كان للبعض أن يمارس حقه فى ارتكاب «المحرم» الشعرى، دون أن يقدم أحد أحكام القيمة فى القضية، باعتباره - هذا «المحرم» - متسعاً لجميع احتمالات الخروج الشعرى، فى آن، وساحة مشروعة للتجريب الحر، غير المشروط، وتجلي الخصوصية الفارقة للذات الشعرية.

إعادة اكتشاف لليومى، الآتى، التفصيلى (نفسياً للتجريدى، الذهنى، أو الفكرى التبشيري) باعتباره المادة الحيوية للحياة، واستعادة الجسد الإنسانى (للذات أو للآخرى) من برائن التغييب والقمع الصامت (استعادة المرأة - بالتالى - من برائن الاستعارة والرمز، وتحريرها منها؛ أى إعادة الاعتبار إليها من حيث هى امرأة فى ذاتها، كائن إنسانى، لا صورة ذهنية ذات طبيعة استعمالية). هى المرأة الأولى، الحبيبة، العشيقة، الأنثى، المرأة الجوهرية. وأفعال الجنس وإشاراته إنما هى تحقيقات الوجود الإنسانى الجوهرى.



من المنطلق النظرى نفسه، باعتبارها الحجر الأساسى للبحر. فإذا كان السابقون قد حطموا الوثن الأصيلى - تحرراً من عبثه - فهل لهم أن يطالبوا أحداً بتقديس أحد أحجاره، وتحويله إلى وثن بديل؟

واختراق مهابة اللغة الشعرية المتعالية، الكتبية، الإنشائية، الخطابية - من قبل «وشرت شايًا فى الطريق / ورتقت نعلى» - سيصبح شارةً إلى بلاغة جديدة: بلاغة اليومى، الذاتى، الجسدانى، المدنى. موصوف بلا صفة، وخبر بلا مبتدأ، وفاعل بلا فعل. فانتازيا الرعب والصخب المعدنى للإنسان المرمى على رصيف المدينة الكابوسية، بلا حيلة.

وضع وجودى يتفجر بالأسئلة المستحيلة، بلا إجابة: ماذا، كيف، لماذا. «لم لا تفهمون مايقال؟» فهل كان الوضوح السابق نعمة، أم نقمة؟ هل أسفر - ونتج - عن رؤية، أم عمى؟ هل انطلق من بصيرة، أم عين ضريبة؟ والأطلال المتساقطة فوق الرؤوس - منذ الهزيمة، فالسبعينيات - أهي إجابة أم سؤال؟

ما من شيء يُغرى بالشديد، ولا - حتى - بالراء.

فمن أين يجيء الإيقاع المضبوط، القياسى، المتواصل بلا اختلال، فيما الكون يعج بالفوضى، والروح بالتضارب؟ أمن خارج الكون؟ أمن خارج الروح؟

لا مرجعية للكتب والأقوال الماثورة. لا مصداق لما يأتى من خارج. موضع رية واستخفاف. زمن التعاليم انتهى، فمن يخبر المعلمين المأخوذين بأصواتهم وتعاليمهم أمام المقاعد الشاغرة، لا يرون الفضيحة؟

زمن مضى، وزمان يجىء.

«مع، نخرج شجرة ذات أكمام، منذورة للقادمين.

لا الفكرة، ولا الشعار، ولا العقيدة السياسية؛ بل محاولة اكتشاف الحضور الوجودى للذات الفردية فى العالم، ابتداءً من جسدها وأوهامها وأحلامها وانكساراتها و - حتى - خزعبلاتها. تلك التفاصيل الصغيرة للروح والحياة اليومية، إلى حد الثرثرة أحياناً، والابتذال أحياناً أخرى.

ذلك ما قد يشير إلى «شعرية» أخرى، بلا «شاعرية». شعرية التعرية والصدم والفجاجة، بلا ورقة توت شاعرية.

شعرية لا تفتقر إلى إيقاعها الخاص (خاصة أنهم شعراء قادمون من «قصيدة التفعيلة»، التى قدموا فيها قصائد ودواوين أولى؛ بل - أحياناً - من «القصيدة العمودية» إلى «التفعيلية» بتراث كل منها الذى ينطوى عليه الشاعر). إيقاع لا قياسى، لا معيارى - حتى الآن - يقوم على التوليف بين هشيم التفعيلات، وأشكال من المحارفات (اشتراك كلمتين متوالييتين - أو أكثر - فى حرفين أو أكثر)، والجناسات الكاملة أو الناقصة، والصيغة الصرفية الواحدة (٢٥) (ذلك ما سينتفى - تقريباً - فى قصائد التسعينيات التالية، لدى جيل آخر، مغاير فى شجرة نسبه الشعرى، ومصادر ثقافته الأدبية).

مع هذا الجيل، أصبحت «قصيدة النثر» أمراً واقعاً فى الشعر المصرى، ركنًا أساسياً من الواقع الشعرى، لا يقبل الوأد أو النفى، باعتبارها أحد توجهات جيل شعرى، لا فردى. ولعلها تندرج ضمن «تحرير الخيال الشعرى» - الذى انطلق إليه الجيل - من المبادئ والقوانين المطلقة، الجامدة، وافتتاح أفق شعرى بلا محرمات، أو ممنوعات. يصبح كل شيء موضع شك، وتساؤل، واحتمال؛ كل شيء: حلال.

ولا قفز فى الفراغ من فراغ.

فكسر وثن «البحر الخليلي» المقدس طوال قرون شعرية، كشرط مسبق ومعيارى للشعرية - على أيدي شعراء ونقاد «التفعيلة» - إنما هو مقدمة منطقية لتحطيم وثن «التفعيلة»،

- ونشير إلى أن هذا الفصل من الشعراء لم يدركوا - من قصيدة النثر - سوى بعدها «اللافتيلى». لذلك، سرعان ما تراجعوا عن هذه الخطوة غير الأصلية فى تجربتهم الشعرية. بل إن أحدهم تراجع إلى ما هو أبعد من ذلك، إلى القصيدة المحمودة، فى أعماله الأخيرة، بعد اعتقاله. وراجع موقف درويش، التقليدى المرتبك، من قصيدة النثر، باعتبارها «جنساً أدبياً مائتاً»، فى حوارها بجريدة أخبار الأدب، ٩ فبراير ١٩٩٧، ص ١٠، بعنوان «قصيدة النثر ليست شعراً»، ولكنى أخاف ميلشيتانها، دون أن يقدم تثيراً لتجربته «واللافتيلى» التى احتلت ديواناً كاملاً.
- (٧) عز الدين إسماعيل: الشعر العربى المعاصر، قضاياها وظواهر الفنية والمعنوية، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربى، القاهرة (د.ت)، ص ١٨٢
- (٨) المرجع السابق، ص ٢٤٠.
- (٩) المرجع السابق، ص ٥. والإشارة إلى «الخمس عشرة سنة الماضية» تخص تاريخ صدور الطبعة الأولى، عام ١٩٩٦. والتشديد من عندنا.
- (١٠) نعتمد - هنا - الطبعة الأولى من الجزء الأول (الدراسة)، الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢.
- (١١) المرجع السابق، ص ١١٢ و ١٤٥.
- (١٢) جوزت عامر: مدخل إلى الحداثى الطاغورية، سلسلة كتاب الغد (١)، القاهرة ١٩٧١.
- (١٣) المرجع السابق، المقدمة: «هذه السلسلة»، ص ٥ - ١٠.
- (١٤) شهد هذا الاختكار حالات استثنائية من الخروج عليه - كإصدار مجلة أو كتاب - لكنها عانت من نتائج سطوته الشاملة، كالحكم على المجلة أو الكتاب بالسجن فى دائرة مغلقة محدودة من القراء، خاصة أن هذه السطوة مدعومة - أيضاً - بقوة القوانين.
- (١٥) يمكن الرجوع إلى معركة طه حسين والعقاد مع الشعر الجديد فى كتاب:
- عبدالمعظم أنيس ومحمود العالم: فى الثقافة المصرية، طبعات مختلفة.
- (١٦) مجلة الثقافة، ١٧ نوفمبر ١٩٦٤، نقلاً عن:
- غالى شكرى: ذكريات الجيل الضائع، الدار العربية للكتاب، طرابلس ١٩٨٤، ص ٨٧ - ٩٤.
- (١٧) المرجع السابق.
- (١٨) ليس مصادفة - على سبيل المثال - أن يعود أحمد حجازى، فى ديوانه الأخير أشجار الأسمنت إلى المعارضة التقليدية لشوقى والبحترى، ثم العقاد - فيما بعد. وتكتظ تجربته - خاصة فى السنوات الأخيرة - بقصائد الرثاء، بعد أن كانت أعماله الأولى حافلة بقصائد المديح والتمجيد لعبد الناصر والائتلاف الاشتراكي، التى أعدها بـ «مرثية للعمر الجميل».
- قارن بالتجربة المغايرة - جذرياً - لدى صلاح عبد الصبور.

(١) ماصدر عن «دار المأمون» ببغداد، بعنوان «شعر» - ١٩٩٣، ويضم المؤلف، عام ١٩٩٣، يمثل مختارات عشوائية من أعماله - والناشر أكثر من عشر مساحته الكلية. أما الحذف - الذى أتى على سبعة أعشار الكتاب - فلم يستند إلى معيار واحد، فلم يستيق المصحح من الهوامش إلا ما رأى أنه «ضرورى منها فقط»، وما يمكن أن يخدم القارئ العربى. وفى فصول القسم الأول، التزم المترجم مبدأ «أخبر القارئ بأسسها»، فأخذت ما هو جديد ونافع، وما يمكن أن يضيف له كقصيدة إلى أنطوان معرفتنا. ثم يتحدث عن «مشكلة فنية بحث فى استيعابها بعض شعر الشعر الفرنسى إلى اللغة العربية، مما اضطرت - أسفاه - إلى بعض الضروب عنها. بيد أنى لم أنون عن نقل ما أمكن نقله سعيًا إلى خدمة القارئ زد على ذلك العرض التاريخى الطويل للدائيات والسجع التى لم أجد مبرراً لترجمته كاملاً. وعلى هذا، فإنى عانيت خيبة شديدة، فى لب الموضوع». وقد ارتكب المترجم هذه الحذوفات - التى أرى أنها «القصيدة العلمية للكتاب»، ويكفى أنه المرجع الأول، من أجل أن يعطينا، لقصيدة اشتر. بذلك، وصل الكتاب (الذى يصل فى الأصل العربى إلى ٨١٤ صفحة ٥٢ × ١٢ سطرًا) إلى ٣٠٠ صفحة من النقط المتوسط فى الترجمة العربية.

قارن «مقدمة تاريخية لقصيدة النثر ما من «شعر» الواردة بالكتاب العربى» من ص ٢٧ إلى ٦٢ بالترجمة التى من أجلها «الارادة بمجلة فصول بالعددتين السابقتين. (المجلد الخامس - ١٩٩٦، ص ١٨٥ - ٢١٠) والعدد الرابع - ١٩٩٧، ص ٢٢١ - ٢٢٥).

والمفارقة أن عددًا من النقاد العرب قد اتهموا هذه «الترجمة»، وسرعان ما اعتمدوها المرجع الأساسى لهم فى أى نقاش قصيدة النثر.

وقد صدرت طبعة ثانية لهذه «الترجمة» بحسبانها ضمن مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة.

(٢) أعيد نشرها فى زمن الشعر لأدونيس، ١٩٦٠، وقد أعدت يستند إلى محمد جمال باروت (مرجع قادم)، فيما نشر أنسى الحاج - فى مقدمة ديوانه لن، الطبعة الثانية، هامش (٣) ص ١٠٠ إلى أن أدونيس أبل من تناول هذا الموضوع بالعربية، فى العدد الرابع من مجله شعر ١٩٦٠.

(٣) محمد جمال باروت: الحداثى الأولى، فى كتاب «أدباء الإمارات، الشارقة ١٩٩١، ص ٢٠٢ - ٢٠٧.

(٤) أنسى الحاج، مقدمة لن، الطبعة الثانية، ص ١٠٠، «خاصية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٢، ص ١٦.

(٥) المرجع السابق، ص ١٧.

(٦) انظر - على سبيل المثال - الأعمال الشعرية «والشعر» فى دواوين محمود درويش ونزار قباني، ومرواحة عفا عن «الشعر» «الشعرى والتفغيسى» فى وشم النهر على خراطى الجسد.

(١٩) بدر الدين: كتاب حرف الـ «ح»، دار المستقبل العربي، القاهرة ١٩٨٨.

وسيعود المؤلف إلى أسلوب الكتابة نفسه في أعمال لاحقة، في الثمانينيات والتسعينيات، من بينها تلال من غروب.

(٢٠) المرجع السابق، مقدمة المؤلف: تقديم شخصي لكتاب حرف الـ «ح»، ص ١١.

(٢١) ذلك ما يشهده - وقت أن كانت الاشتراكية عملة راجحة في الستينيات الناصرية - محاولات البعض اكتشاف «اشتراكية» ما في الإسلام عموماً، أو لدى بعض رموزه. وكتاب اشتراكية الإسلام لمصطفى السباعي يختصر البراهين. وهي - في جوهرها - محاولات «ماضوية»، بمصطلح أدونيس، حيث المستقبل يكمن في الماضي، وحيث يتطوى الماضي على احتمالات الحاضر والمستقبل، بلا إضافة. فالممكن هو إعادة اكتشاف الماضي على أنه إمكانات وتحقق لا يستنفدها الكشف. فكل اكتشاف راهن سبق أن تحقق - وجودياً، بالفعل أو بالقوة - فيما مضى، وليس أمامنا سوى اكتشاف المتحقق السابق.

وهو - في الوقت نفسه - بحث عن مشروعية ماضوية للراهن، عن سند من الأسلاف، لدى العجز عن تحقيق مشروعية راهنة أو سند آتى. فالماضى - هنا - مصدر المشروعية، والأسلاف هم مانحو صكوك الصلاحية. صكوك صالحة لكل زمان ومكان.

ولا تنشأ المصطلحات اعتباراً.

(٢٢) راجع - لمزيد من التفصيل النقدي - دراسات سابقة لنا في الموضوع، من بينها: «شعراء السبعينيات في مصر»، مجلة شؤون أدبية، اتحاد كتاب وأدباء الإمارات، الشارقة، العدد ١٤، خريف ١٩٩٠.

«سهيل في الأرض الخراب»، مجلة الشعر، القاهرة، يوليو ١٩٩٢.

(٢٣) وصلت - لدى أحمد درويش، الأستاذ بكلية دار العلوم - إلى حد فكاهي، حقاً، إذ يقترح - جاداً - في أحد مقالاته بحريشة الأهرام، نسجتها به «العصيدة»، ويذل جهداً لغوياً مضنياً - من خلال العودة إلى النواميس القديمة - للبرهنة اللغوية القاموسية على اقتراحه الاصطلاحي.

راجع أحمد درويش، عصيدة النثر، مصطلح أدب مقترح، الأهرام (٩ / ١ / ١٩٩٦)، ملحق الجمعة، ص ٩.

(٢٤) راجع محاولة «تأميم» الجبل المتعسفة التي حاولها أحمد عبدالمعطي حجازي في مقالاته «أحفاد شوقي»، التي صدرت كتاباً، بعد نشرها بحريشة الأهرام، وفرض أبوته - بالإكراه - على الشعراء. مرة أخرى، هل هو البحث عن دور أبوي، بأثر رجعي؟ والمفارقة أن قصيدة حجازي - «الذات» - كانت الشاهد المتكرر، في كتابات شعراء السبعينيات في مصر - صراحة وضمنياً - على ضرورة كتابة قصيدة مغايرة.

(٢٥) راجع، في هذا الصدد:

محمد عبدالمطلب: هكذا تكلم النص: استنطاق الخطاب الشعري عند رفعت سلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧، خاصة الفصلين الثالث والرابع.



## التجريب: قوس قزح

حلمى سالم\*

(١)

ستهتم الصفحات التالية بالمساهمة فى تخليص حركة التجريب فى العشريه العربيه المعاصره من ثلاثة  
تطرفات أساسيه، تعاني منها هذه الدوله -مائة- كثيره.

التطرف الأول، ينبع من بعض ردود موجة الشعور الحر وبعض شعرائها وشاعريها، أولئك الذين ينهالون باللوم  
على حركة التجريب، فى سبيلها الملاحقة عليهم، اتهاماً بالاصطناع والضعف والخصوس، والافتقار إلى  
الأدوات الصحیحه والابتعاد عن هموم الناس والوطن.

والتطرف الثانى، ينبع من بعض تياراتها الوسیطه، حينما يوغل شعراؤنا فى التعمل والافتعال  
والألاعيب الشكلية التى تمس النفس والقارى، وتتيح للناقدین تعميم الزعم بأن حركة التجريب ما هى إلا  
اصطناع فى اصطناع، وفراخ بدور حول نفسه.

والتطرف الثالث ينبع من التيارات المتأخرة فى حركة التجريب، عندما يشيخون أن كل ما سبفهم باطل  
عقيم سلطوى، وأنه لابد من «قتل الذات» وتدمير سلطته، وأن القوضى هى القانون. وهو ما ينبع للناقمین على

\* شاعر مصرى.

حركة التجديد كلها تكرر الزعم بأن الحداثة وما بعدها، والتجريب وما بعده، سببا أزمة ضارية فى حياتنا الشعرية، وأن «أصالة الشعر» قد ذهبت مع ريح ما بعد الحداثة!

(٢)

منذ بضعة سنوات، وربما حتى لحظتنا هذه، ساد فى بعض الأوساط النقدية والأدبية الاعتقاد بأن التجربة الشعرية الجديدة تفتقر - فيما تفتقر - إلى الضرورة الاجتماعية للتجديد، وتخلو من استنادها إلى الدوافع الموضوعية التى توجب التجديد الفنى، لتصبح بالتالى مجرد نزوع فردى للتجديد، لا يستجيب لأية ضرورة اجتماعية أو موضوعية.

وكان أصحاب هذا الاعتقاد - وما زالوا - يؤسسون على ضوء المقارنة بتجربة «الشعر الحر»، فى الخمسينيات والستينيات، تلك التى كان التغيير الفنى فيها يتم متجاوبا مع مضمون تيار القضايا الاجتماعية والقومية. ومن ثم، فقد ظهرت الحاجة ملحة لمواجهة تلك العلاقات الجديدة فى أشكال فنية مختلفة. فكانت عملية التجديد - كما يقول سيد البعراوى - بمثابة استجابة حقيقية أصابت كل الأنواع الأدبية. وفى الشعر بدا واضحا ذلك الارتباط بين المحاولة الدائبة لخلق أشكال جديدة وبين حجم المتغيرات التى كان يطرحها واقع لا يثبت على حال (مجلة «فكر» - العدد ٤ - ١٩٨٤).

وهذا بلا ريب تفسير صحيح - فى أحد وجوهه - لتجربة الشعر الحر، لكن أصحاب هذا التفسير يحجبون هذه «الضرورة» الموضوعية عن شعر حركة التجريب الجديدة، فيرون أن هذه الحركة الجديدة ظهرت فى إطار اجتماعى وموضوعى لا يوجب التجديد الفنى. كأنهم يريدون أن يقولوا لنا: لقد نشأت «الضرورة» الموضوعية للتجديد والتجريب مرة وانتهت، وسكن الواقع والفن على ذلك ونجمدا.

والحقيقة أنه إذا كان الواقع الاجتماعى السياسى الثقافى، الذى صعدت فى سياقه موجة الشعر الحر، يمولج بتقلبات وتغيرات استدعت التجديد فى الأطر الفنية والمعرفية والجمالية، فالسؤال هنا: ألم يكن ربع القرن الماضى موارا بالتقلبات السياسية والاجتماعية والثقافية والأخلاقية العارمة، التى استدعت التجديد فى الأطر الفنية؟

يبدو للمرء، والحال هكذا، أن أصحاب هذا الاعتقاد ينظرون إلى عقود السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات باعتبارها عقودا خالية من أى قلب أو تقلقل، أو أن لديهم مفهوما واحدا ووحيداً للتغيرات الاجتماعية يقصرها على المعنى «الإيجابى» فقط؛ بحيث يرون أن تطورات العقود التى رافقت الشعر الحر كانت باتجاه التقدم. فهى توجب التجديد والتجريب، بينما تغيرات العقود الثلاثة الأخيرة وتقلباتها كانت فى اتجاه التراجع المدمر، فلا توجب ذلك التجديد الفنى والشعرى! وبمثل هذا النظر يتم ربط التغير الفنى بالتغير الاجتماعى «الإيجابى» وحده، بما ينطوى عليه هذا الربط من مفهوم «أخلاقي» يتجلى فى الاعتقاد بأن هناك تغيرات شريفة محترمة، وتغيرات سيئة قبيحة، وأن الأولى - فحسب - هى التى ينبغي أن تكون موجبة موضوعية للتجديد، أما الثانية، السيئة القبيحة، فلا توجب تجديداً.

لن نقول، هنا، إن تجديد الفن لا يحتاج إلى تبرير، وإن ضرورة التجديد هى ضرورة التجديد، منطلقين من قولة كوكتو الشهيرة: «الشعر ضرورة» حتى لو لم نكن نعرف لماذا؟ ذلك أننا نوقن أن كل تجديد فنى هو تجسيد لضرورة «موضوعية» وضرورة «ذاتية» فى آن. ولعل هذا الفهم هو الذى يتسق مع اعتبار ظاهرة الفن



إحدى ظواهر الواقع (على - خصوصيتها أو نوعيتها بين هذه الظواهر). وإذن، فإن الشعراء لا يستشعرون هاجس التغيير أو التجريب بمحض ملاحظ ذاتي شخصي يعثور روحهم المتحركة، بل هم يستشعرون هذا الهاجس باستجابة داخلية عميقة لمعبر في الواقع الذي يعيشونه متشوفين إلى مواكبته أو مناقضته، أو مواكبته ومناقضته، في آن!

والمفارقة الغريبة هي أن حركة التجريب الشعري الراهنة قد ظهرت في مناخ سياسي واجتماعي تقول بعض شرائحه إن الطبقات الوسطى قد سبغت محاولاتها في إنجاز مهامها الوطنية والديمقراطية والاجتماعية، وإنها عجزت عن إنجاز هذه المهام كلها، وإن إنجاز هذه المهام صار منوطاً بالطبقات الجديدة الصاعدة. ولم يلتفت أصحاب هذه النظرة (على صيغها وحرفيتها) إلى معنى هذا الاعتقاد على صعيد المسألة الشعرية. فإذا كانت الطبقات الوسطى قد استغدت أوضاعها ووصلت إلى طريق مسدود - كما كان يقال - أفلا يعني ذلك، على مستوى الشعر، أن كتابة جديدة ينبغي أن تنهض، متجاوزة أشكال الكتابة وصيغ الإبداع اللتين أفرزتهما الطبقات الوسطى إبان صحوها السابقة؟

إن غياب مثل هذا التصور السليم هو الذي يدفع الكثيرين إلى تأويل التجارب الشعرية الجديدة تأويلاً مغرقاً في التعسف، حينما يعتقدون أن شعراء التجريب مهترون نفسياً ومشوهون روحياً؛ لأنهم عاشوا عقداً صعباً لم يستطيعوا معه أن يكونوا رؤية صحيحة. ومن ثم اعتكفوا على الذات يجترونها في شعر ذاتي شكلي مغلق يضرب في الغياهب المظلمة. إن شعراء التجريب - في نظر هؤلاء - يستحقون العطف؛ لأنهم يعانون ارتباكاً سببه انهيار القيم السياسية والحضارية التي فتحت عليها عبونهم. وقد انعكس هذا على شعرهم، وأدى إلى اضطراب بنية العبارة لديهم وتشوش الرؤية الفكرية والفنية.

وفي ضوء هذا التقييم السليم، اهتمت الحركة التجريبية بالغموض الذي ينشأ - كما رأى أمل دنقل - عن عدم وضوح التصور في ذهن الشاعر، فليجأ الشاعر وقتها إلى الأعيب لغوية يخفي بها عجزه عن إصابة كبد المعنى - كما يقول القاص.

وأهل هذا التقييم يظنون أن التصورات الجمالية أو الفكرية في ذهن الشاعر - أو وجدانه - ينبغي أن تكون واضحة كل الوضوح. وهم بهذا يتجاهلون أنه لو كانت التصورات الفكرية أو الجمالية في ذهن الشاعر واضحة كل الوضوح لما كانت بهذا لشاعر بحاجة من الأصل إلى الخلق الشعري. إنما يخلق الشعراء - والتجريبيون منهم بخاصة - شعرهم لاحتفاء هذا الكون الغني المبهم، وللقبض على هذا التصور في حالة تلبس بين الانكشاف والهروب.

ونحن في غنى، جميعاً، عن أن نذكر أن العلاقة بين الشعر والواقع لا تعني حرفياً أن يكون الشعر على «شاكلة» الواقع، حذو الحاف، بل لأن الفهم السليم لهذه العلاقة يتسع لمعنى أن يكون تعبير الشعر عن الواقع متجسداً في «مضاد» الشعر للواقع: مضاداته لخرابه وتخلفه وابتذاله. ذلك أن «مناقضة» الواقع هي إحدى صور التعبير عن هذا الواقع، وربما كانت أعمق صور هذا التعبير.

ومن هنا، يمكن أن نقول إن مضاهاة الواقع بطريقة فوتوغرافية بسيطة ليس التجسيد الصحي للعلاقة الصحية بين الشعر والواقع بل إن مثل هذه الأساليب المباشرة في الأداء الشعري مؤذية للشعر والواقع على السواء، كما أنها تنطوي على نوع من «الانتهازية» الدفينة، التي تتملق نوازع الجمهور وتفرغ غضبه الداخلي، وتداهن مستوى الوعي لديه، فتظل تابعة له متقادة، لا مغيرة قائدة، كما ينبغي أن يكون الفن الرفيع.

على أننا لا نستطيع، مع كل ذلك، أن ننكر أن هناك حالات عديدة فى حركة التجريب المعاصرة، ينطبق عليها اتهام «الشكلائية» العقيم. فقد مر زمن استغرق فيه بعض شباب هذه الحركة من أبناء صفى - وأنا بينهم - ومن أبناء الصفوف السابقة واللاحقة، فى الهيام باللغة حتى صار الشعر لغة على لغة، أو فى الهيام بالموسيقى حتى صار الشعر صوتاً على صوت، أو فى الهيام بإماتة المضمون حتى صار الشعر موتاً على موت، أو فى الهيام بالتجريد المفرط حتى صار الشعر «ميتاً على ميتاً» دون «فيزيقا»، أو فى الهيام بتقليد «الإبداع» حتى صار الشعر «تباعاً على اتباع».

وفى كل هيام من هذه الهيامات، كانت هناك الحلقة الناقصة التى تصنع الشعر الجميل.

وكان ذلك معنى - ومازال - أن على رواد الحركة النقدية الجديدة أن يقدموا الجهد تلو الجهد، لكى يميزوا بين هذه الشكلائية العقيم والتشكيل الفنى الرفيع الذى حاوله معظم الشعراء الجدد، أو المجرى الأساسى السليم فيهم. ذلك التشكيل الذى يعتمد انجاز المبتكر غير المقرر سلفاً فى الأدراج المكتبية النقدية والشعرية، والتميز المتفرد، ويفتح نوافذ الحرية والتجاوز الرؤى التقنى للموروث والسائد. وعم فى تمييزهم ذلك لابد أن يدركوا - لهم ولنا ولجمهور الشعر - أن هذا التشكيل الفنى الرفيع يخلق نوعاً من المسافة بين الوعى الجمالى الاعتيادى «إدراك الكنه النبيل للعمل الشعرى» - بحسب تعبير أمل دنقل - ويخلق فدرأ من الاغتراب المؤلم، بما يؤدى إلى افتقاد الأرض المشتركة للاتصال، وهو ما يسمى خطأ بالغموض.

(٣)

لا ريب أن أدونيس واحد من كبار رواد حركة التجريب الشعرية المعاصرة. ولقد تباينت الآراء حول علاقة الحركة التجريبية الشابة بأدونيس، تبايناً مدهشاً. فالكثيرون يحترمون أدونيس، لكنهم ينتقدون الأدونيسيين، ويرون أن هؤلاء الأدونيسيين يحكمون على أنفسهم بالموت مقدماً، ليس فقط لأن أدونيس أكثر ثقافة منهم، أو لأنه صاحب قضية اعتنقها فى مساره الاجتماعى المتغير وظل مخلصاً لها، ولكن أيضاً لأن أدونيس استطاع أن يكون شخصية فنية من خلال رحلته الشعرية، وأن يكون متميزاً ضمن سبقوه أو عاصروه. لكن هؤلاء الذين ارتدوا عباؤه لن يكونوا مثله، فليس هناك غير أدونيس واحد، والباقي سوف تكنسه الأيام (أمل دنقل - الكراسة الثقافية - ١٩٨٠).

والحق أن تدبر صلة أدونيس بأجيال التجريب الراهنة يقتضى أن نضع أيدينا على النقاط التالية:

أ - إن مسألة التأثير بكبار الشعراء أمر وارد وطبيعى، فغالبا ما يتأثر الشعراء فى بدايات تكوينهم الشعرى بكبار الشعراء، لاسيما الكبار الذين يتسمون بعباءة فريد وانجاز شعرى محورى يستقطب نحوه نفرا من شباب الشعراء الصاعدين، الباحثين عن مناهل للاستسقاء الشعرى، حتى إذا ما استقام لهم عودهم الشعرى ودانت لهم - أو كادت أن تدب - ملكاتهم الفنية وأدواتها انتقلوا من طور «التبعية» إلى طور «الاستقلال»، وامتلكوا تميز السموت والأداء. وهذا هو ما تم مع الكثيرين. ولعلنا نذكر، مثلاً، العلاقة الواضحة بين صلاح عبدالصور وكل من إليوت وعللى محمود طه، أو بين أحمد عبدالمعطى حجازى وإبراهيم ناجى، أو بين أدونيس نفسه وكل من سان جون بيرس، ورايمو والفري وابين عربى وملازميه، وغيرهم.

ب - على أن التأثير بمعناه العميق ليس يكمن فى مجرد احتذاء كلمة أو معنى أو صورة، فهذه كلها لا تميز ما يصير أن نسميه - على التدقيق - تأثراً، إذ الكلمات (ألفاظ ومفردات اللغة المحدودة) ملك للجميع:

ناسا وشعراء. وهى عند الشعراء «مادة» ضيقة يمتنع منها الكل، ولا يملك واحد منهم فيها حق احتكار مفردة واحدة، كما أن المعانى مبذولة على فاعة الطريق - كما قال لنا القدماء - وحتى الصورة فهى ميدان إبداعي ضيق وقد يقع الخاطر على الحاضر لا اختصاص أو خصوصية، إذن، فى أى من هذه العناصر الجزئية يمكن أن يتفرد به شاعر دون سواه، بحيث يقيم تأثيرا حقيقيا. إنما ينتج التأثير الحق من احتذاء أشكال البناء الشعرى عند شاعر من الشعراء، أو اقتداء أساليبه فى «إنشاء العلاقة» بين تلك العناصر الجزئية بعضها ببعض.

التأثير، إذن، يوجد حينما يكون هناك احتذاء «النظام العلاقات» الذى يربط هذه المواد؛ أى ليس فيما «يكون» العمل، بل فى ذات «التكوين» والبناء.

والتأثير بهذا المعنى العميق ليس محجداً فى تجربة الموجات التالية لأدونيس من حركة التجريب العربية؛ ذلك أن لأدونيس طرائقه الخاصة فى تكوين علاقات العمل الشعرى وبنائه المعماري الفنى، لم يقلدها أحد من شباب الشعراء الجدد، بل إن معظم هؤلاء الشعراء الجدد قد صارت تشكل لهم طرائقهم الخاصة فى إنشاء البناء الشعرى، وهى تختلف «درجة كسرة أو قلياة» عن طرائق أدونيس فى إنشاء هذا البناء، إلا إذا قدم لنا أحد الدارسين دراسة ضافية تستقصى هذا التأثير استقصاء تطبيقيا واضحا. لكن هذه الدراسة لم تكتب بعد، ولا يزال الاتهام مبنيا على انطباعات مبهمة.

ج - لاشك أن الموجات الجديدة تكن لأدونيس كل التقدير والحمية، وترى فيه حدثا شعريا عربيا مهما، وقامة قصرت دونها بعض هبات الشعر رفعا وغيرتهم طويلا فى حياتنا الشعرية صائحين بالدعوة إلى الشعر الجماهيرى المحرض، ناثحين ببناء «نصمون السياسى على الفن الرفيع، حتى خسرنا الاثنين: الفن والسياسة على السواء. وينهض هذا التقدير على أساسين: أولهما أن هذا الشاعر العربى هو الذى فتح شهية الأجيال التالية على نبع التراث العربى القديم، الشعرى والنقدى، أكثر مما فعل الأساتذة الأكاديميون. وثانيهما: أنه - فى نقده - الكاتب الذى تتبع معظم استشهاداته واستناداته من هذا النبع النقدى الجمالى العربى القديم، فى حين تتبع استشهادات معظم نقاد العرب الآخرين من الفكر الجمالى الغربى، القديم والحديث.

د - على أننا - فى مسألة التأثير لأدونيس - ينبغي أن نفرق بين المنهج والمذهب. المنهج فى هذا الصدد الشعرى هو: التجريب المتواصل، والشجاعة الشعرية الدائمة، والجرأة على النيش والانتحام الجمالى لكل مجهول ومحرم ومغلق. وحينما يعمد شعراء الجدد هذا المنهج - الذى ليس وقفا على أدونيس وحده بالطبع - فإنما يعتمدون جوهر الفن، وضعه ظاهرة اقتحام مفتوحة. أما المذهب، فى هذا الصدد الشعرى، فهو ما ينتج عن هذا المنهج المقتحم من نتائج أى من أعمال شعرية وقصائد وطرائق أداء.

هكذا، فإن الأجيال الشعرية الجديدة يمكن أن تتفق مع أدونيس فى المنهج الجمالى، ولكنها تختلف عنه فى المنتج الشعرى، بما يفسد الجميع فى صطناع أداة واحدة، لكنهم يصلون إلى إجابات مختلفة فى بناء العمل الشعرى، إدراكا منهم أن قيمة الشاعر هى فى تفرد، وتميز صوته.

ويبدو أن حياتنا النقدية والشعرية قد بدأت تشهد - فيما يتعلق بسياقنا هذا - نشوء حزبين متقابلين: الحزب الأول هو حزب «تأليه أدونيس» - وسعده على عرش عال من العصمة والخروج من المنافسة. والحزب الثانى هو حزب «تهديم أدونيس» والتصميم من شأن إنجازة والتشكيك فى أصالة عمله.

وهما - كما نرى - حزبان يفتقان فى النظر فى الذى ينأى عنه الجسم السليم للحركة التجريبية الراهنة.

(٤)

تعانى حياتنا الشعرية الراهنة من الوقوع فى التصنيف العنقدي العشري للشعر والشعراء (الخمسينيات، الستينيات، السبعينيات... إلخ). وهو تقسيم غير نقدي وغير فنى، يتسبب فى العديد من الأضرار الفنية والفكرية والثقافية، بل الوجدانية من أخطر هذه الأضرار: إخراج بعض الشعراء الحقيقيين من هذه «الوصفة الجيلية الخشبية» بينما هم مبدعون ذوو جهد أصيل، وإدخال بعض الشعراء الضعفاء أو «الزائفين» ضمن هذه «السلة المدمرة» لا لشيء إلا لأن «الوصفة الجيلية» تشملهم، بينما هم قصار الباع محدودو الكفاءة. والشاعر المصرى محمد صالح - كمثال على هذا الخلل - واحد من هؤلاء الذين ظلمتهم تلك الأقفاس الضارة، التى أثق فى أنها تكرست فى حياتنا الثقافية، بصورتها الزمنية الفنية؛ لأن كثيرين - نقادا وشعراء ومثقفين - كانت لهم مصلحة واضحة فى تكرسها لأغراض غير متصلة بحقيقة الإبداع.

والحق، أن «حراكا» شعريا عارما قد بدأ يشمل الحركة الشعرية العربية فى السنوات الأخيرة، وراح يحفر نهرا «رأسيا» للكتابة الشعرية المجددة، يضم فى مجراه المتعرج العميق شعراء من كل جيل عمرى زمنى، بما يشكل خطا متواصلا من الانفلات الإبداعي المتوهج.

سألتخذ، هنا، ديوان محمد صالح الأخير (صيد الفراشات) نموذجا للموجة الجديدة فى الحركة التجريبية العربية الراهنة، لأوضح من خلاله جملة من حقائق التجريب الشعرى فى موجهه الحالية:

أ - الدخول إلى الموضوع (إن صح تعبير: الموضوع) ليس من أهم ملامحه ولا من جوهره الرئيسى ولا من أعماق سماته، مثلما كان يحدث فى الشعر من قبل. على العكس: فإن التجربة الجديدة هى ولوج الموضوعات عبر النقاط الثانوية فيها، ومن خلال ملامحها الجانبية، أو ما يسميه البعض: النقطة العمياء. بجملة موجزة: صار الدخول إلى الموضوع يتم من «هوامشه» لا من «متونه»، ومن «أطرافه» لا من «مراكزه» - باستعارة التعبير السياسى المعروف عن المراكز والأطراف.

لنقرأ، مثلا، هذين النصين من محمد صالح:

كانوا كثيرين جدا

ولم يكن ليطمئن قبل أن يغلق الباب،

ثم من مكمنه هناك

يحاول أن يتعرفهم.

...

ثم:

لا بد أن رثيته

تتطوحان فى خلاء واسع

الرجل الذى كسروا أضلاعه

الذى يعلمون أنه لم يعد فى

إمكانهم أن ينالوا منه.

إذا افترضنا - مجرد فرض - أن «القهر» هو المعنى الذي تجسده هاتان القصيدتان السابقتان، فإن الشاعر هنا يلج معناه من خلال العلاقات غير المنبثقة إليها، وليس من خلال العلامات المعلن عنها والمتفق عليها، أو التي تمثل «جوهر» الموضوع وبؤرته. لأن كنان هذا الشعر يباشر موضوعاته من الأبواب الخلفية لها لا من الأبواب الرئيسية الأمامية، وهذه الأبواب الخفية هي التي تجسد التماس الخاص للشاعر، بعيداً عن التماس العام الذي يشترك فيه الجميع: جميع الناس أو جميع الشعراء. وقد ذكرت إحدى شاعرات الموجة الأخيرة في الحركة التجريبية الراهنة، هي إيمان مرسل، في معرض حديثها عن علاقتها بالقاهرة، أنها «دخلت القاهرة من سلم الخدم». ويكاد هذا التعبير المحدس على الشعر الراهن، الذي يدخل إلى موضوعاته من «سلم الخدم» لا من المدخل الرئيسي للسادة أصحاب البيت.

هكذا تقع، في النص الجديد، عملية «التحرف» بسيطة، لكنها فاصلة.

كان الشاعر، فيما سبق، يعالج مسألة القهر هذه عبر بؤرتها الرئيسية، فيصور الخطاب المعتاد حول القهر والخوف في صوره المشهورة: العنصرية أو الوطنية أو العاطفية. لكن هنا قهراً خفيفاً - إن صح الحديث عن خفة للقهر - لا يستخدم الصيغ الثقيلة المعجزة في تصوير نفسه بعلاية وبمفاهيم مستقرة. والواقع أن مداخل النص الجديد تمكن الشاعر من أن يجد تجسده للقهر أكثر شمولاً وأبلغ تأثيراً. فالمقطوعتان السابقتان كلتاهما تشتملان على شتى أنواع القهر، وهما يتبين في حركة التجريب العربي الراهنة أن مقارنة الموضوع من أطرافه، أو من حوافه (أو قل: من مؤخره)، وليس من قلبه أو مقته أو بؤرته، تسمح بالإحاطة الأعم به وتحقيق مصداق أعمق له، على عكس المعتاد والمتوقع.

ب - الثرية لا الوزنية، من غير أن يعنى هذا المنصر فضيلاً مسبقاً أو إعلاء مقدماً للنثر على الشعر. فليس خلو الشعر من الوزن - في ذاته - فرجة على الشعرية أو سبيلاً لها. القصد أن هذا الشعر الجديد أحل «الثورة» محل «الوزن»، بما ينطوي عليه الجهر من: موسيقية الاختزال، ووقع المحذوف، وكثافة الضغط. وبما يكتنزه من فجوات نفسية وتنوعات عاطفية أو تعبيرية، ومن قفزات المخيلة.

ج - الانطلاق من «التفصيلية» لا من «المشهد الكامل». أقول «التفصيلية» ولا أقول «التفاصيل اليومية» - كما درج البعض - لأن التفصيلية وصفها جزءاً من اللقطة الكلية هي أشمل من التفاصيل اليومية، كما أن التفصيلية يمكن أن تنصب على معنى أو فكرة، دون الاختصار على «تفاصيل» المعيش الواقعي.

يلتقط الشاعر، إذن، موضوعه من خلال الوقوع على خيط من خيوط النسيج الكبير، ثم هو يتبعه ويتغور فيه حتى ينجز به نصه. وحينئذ يحل نصه المكتمل، سنجد أن الشاعر قد وصل - من خلال التفصيلية المعقدة المنغورة - إلى معنى أعم يتخطى أصل التفصيلية نفسها. هذا المعنى الأعم الذي كان يصل إليه الشاعر السابق من خلال «اللوحة الكاملة».

والدلالة الجلية لذلك، هي أن «التفصيلية» التي يقتنعها الشاعر ليست مجرد تفصيلية مجانية، بل تحتوى على القيمة الكلية للوحة الكلية. وهذا أضفنا إليها «زاوية التقاط» التفصيلية التي ينتخبها الشاعر، سنعرف أن النص التجريبي الجديد يتشكل من خلال نصيرة اقتناص التفصيلية المختارة، التي يمكن أن تحل محل - أو تحل محل - إلى - القيمة الأساسية المنشودة.

والواقع أن تأكيد أن «الشعرية» حقيقة إنما تكمن في «زاوية النظر» لا يتناقض مع تأكيدنا الدائم أن مناهج الشعر هو في «التشكيل الفني» لا في «الموضوع»، ذلك أن زاوية النظر إلى الموضوع ليست مفهوماً مضمونياً



أو معنويًا يتصل بالفكرة أو الموقف فحسب، بل هم، مفهوماً فني، كذلك، بما ينطوى عليه الاختيار الجديد للزاوية الجديدة من متطلبات فنية وانحيازات جمالية.

وهكذا، فإن شعرية الحركة التجريبية الراهنة لا تكمن، في «الشئ المرئي»، كما كان يذهب الواقعيون أو الطبيعيون أو التقليديون من دعاة محاكاة الطبيعة أو محاكاة الخارج. ولا تكمن في «العين الراهية»، كما كان يذهب الرومانتيكيون أو دعاة محاكاة الذات أو الداخل. إنها تكمن، بالضبط، في «المسافة» بين العين الراهية والشئ المرئي؛ أى في «المنظور» الذى يقترحه - أو يجترحه - الشاعر لكشف موضوعه ومكاشفته.

د - فوق ذلك: فإن النماذج الصحية من هذه الحركة التجريبية الراهنة تؤكد لنا أن الاكتفاء بزاوية النظر (المنحرفة عن المعتاد في رصد الموجودات والعلاقات والنفس) لا يفي، وحده، بإقامة نص جديد مختلف مرتفع الشعرية. فالكثير من البشر يمكن أن يشتركوا في جدة «زاوية النظر» هذه، وانحرافها. إن شعرية النص تبلغ مداها السابق إذا تضافرت جدة زاوية اللقط مع مقومات فنية وجمالية أخرى مثل: التكثيف وتصفية الصورة الملتقطة من الزوائد الدودية ومن الثروة المنداحة على وجهها. ومثل تأدية زاوية الالتقاط هذه عبر لغة سليمة تدرك الحساسية الفائقة للمسافة الحرجة بين «الميراث» الذى، تحمله - كمفردة وكسياق شعرى واجتماعى - وبين تنقيتها من محمولاتها السابقة، ومثل الاستفادة الصحية باخبرة الشعرية السالفة: استفادة لا تندرج في السالف فتفقد ذاتها وفرادها، ولا تنقطع عنه انقطاعاً عديمياً (هو مستحيل أصلاً من الناحية النظرية والعملية) تحت الوهم السريالى القائل بأن مهمتنا هي قتل الماضى، أو تحت وهم التميز.

هـ - من هنا، فإن التيار الصحى في هذه الحركة الشعرية التجريبية يؤكد أن الشعر الجميل لا يمكن أن يخلو من القضايا الكبرى، كما يظن بعض المنتسبين إلى التجربة الشعرية الجديدة. ذلك أنه من الناحية النظرية ليس هناك فن يخلو من القضايا الكبيرة مهما ادعى هذا الفن نفسه؛ لأنه لو خلا منها خلا من ضرورته أو من مبرر وجوده.

الصحيح، هنا، (الذى) تحققه القصائد الجميلة من شعر هذا التيار الصحى) هو أن هذه الرؤى الشعرية الجديدة قد تخلت - في غمار تجاربها المتنوعة - عن المداخل القديمة المعتادة للقضايا الكبيرة. ليست القضايا الكبيرة، إذن، هي التى اختفت، إنما الذى اختفى هو «كيفيات» التعامل مع هذه القضايا - كبيرة كانت أو صغيرة - وسبل معالجتها وموضع النظر إليها. وهو تحول يحدث من مرحلة إلى مرحلة في تاريخ الشعر في كل مكان وزمان. ولذا، يتوجب أن نفرق بين «القضية» «مدخل» معالجتها، فلا نخلط بينهما، حتى لا نقع في هذه العدم.

لنقرأ، مثلاً، عند محمد صالح، قصيدة «ترانزيت»:

مدينة بعد أخرى

ونحن ننتظر

نحن ولعبُ الأطفال

وحلى النسوة

وأوجاعنا

وهم يسوقوننا إلى هناك

نزلنا في مدن كثيرة

اشترينا منها

كل ما نحتاجه للوطن

هل مثل هذه القصيدة قصيدة خالية من قضية كبرى، كقضية الوطن؟ لست أعتقد أن هذه السطور القليلة خالية من القضية التي جسدها في بقوله:

وطني لو شئت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسى

ولا من القضية التي جبها بدر شاكر السياب بقوله:

إنى لأعجب كيف سمى أن يخون الخائنون؟

أيخون إنسان بلا ذنب

إن خان معنى أو يكون مكيف يمكن أن يكون؟

الشمس أجمل في الأذى من سواها

والظلام، حتى الظلام هناك أجمل، فهو يحتضن العراق.

نريد أن نؤكد أن شعراً يجب أن يكون «مقضايا» - كبيرة كانت أم صغيرة - هو: لا شعر. لكن التجارب أو الموجات تتخالف في زوايا النظر إلى القضية، وفي المعالجة الفنية لها، وفي المسافة التي نتحدثنا عنها بين العين الراهية والموضوع المرئي. وليس من شك، بالطبع، في أنه حينما تختلف «معالجة» الموضوع، فإن الموضوع نفسه يصبح مختلفاً، لأن «كيفية» المعالجة - في الفن خاصة - ليست مجرد زائدة جمالية أو إضافة مجانية، بل هي من صلب الموضوع ذاته.

و- إن الشعر الجديد لا يعنى العبث العدمي للمجاز في ذاته من حيث هو مجاز، كما يفعل بعض الزملاء. ذلك أن ما ترفضه الحركة التجريبية الجديدة ليس هو المجاز في ذاته، بل هو المجاز «القديم» المعد سلفاً، الذى يستند فقط على البلاغة النحوية التقليدية أو على الصورة الشائعة. إن المرفوض هو: النمط الجاهز للمجاز، الميت، سابق التجهيز. وتسعى الشعرية الجديدة إلى شق مجازات جديدة أو أنماط جديدة له، تنفى المجازات القديمة وتزيحها، تأسيساً على أن هذه الشعرية تدرك أن ألفاظ اللغة مجاز، وزاوية الالتقاط مجاز، والمشهد المنتقى مجاز، بل الحياة كلها مجاز كبير.

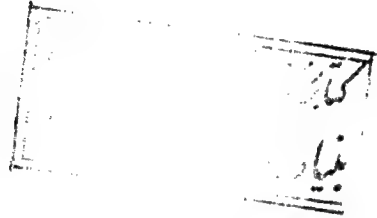
ومن ثم، فلا مهرب من العبث، ولا حاجة بنا لهذا الهرب. إنما يتفارق الشعراء في تفكيك المجاز المصروف من قبل على البطاقات الشعرية الشائعة، في سبيل مجازات متغيرة، متحركة، دائمة الانتفاء والوجود.

ز- التخلص من هوس «التابوهات» (المحرمات) الشهيرة الجاهزة. فلقد استبد ذلك الهوس ببعض شعراء الحركة الشعرية الراهنة - لاسيما من أجيال الشباب - تحت ظن بأن التابوهات الجنسية أو الأخلاقية هي وحدها التابوهات الجديرة بالاحتراف. وكأن من نتيجة ذلك أن تحول هذا الهوس نفسه إلى «تابو» يتوجب تحطيمه. ولهذا، فإن النماذج النصحية في شعر حركة التجريب الراهنة تصفى نفسها من ذلك الاكتظاظ المكتظ بالأعضاء التناسلية لـ «الحن والمرأة» أو بالأسماء الصريحة للعلاقة الجنسية بينهما، لأن شعر هذه النماذج

الصحية يحطم «تابو» الرغبة الهستيرية فى تخطيم التابوهات، ولأنه شعر يدرك أن التابوهات الحقيقية ليست هى تلك التى يتصور البعض أنها جديرة بالهجوم.

هكذا: ليس للتابوهات موقع واحد وحيد، والوقوع فى ظن كهذا هو - من غير وعى - تسليم أو استسلام لما تصدره لنا السلطات، الثقافية والأخلاقية والسياسية، من مفاهيم معينة حول «المحرمات»، بهدف التعمية على المحرمات الحقيقية: السياسية والوجدانية والاجتماعية.

لنقرأ هذه القطعة من أمجد ناصر فى «سر من رآك» لنرى كيف يخترق التابو دون أن يقع فى هستيريا الرغبة فى كسره كسرا صبيانياً:



المحارم  
الكؤوس  
المنافض  
التياب إذ منهكة  
الفراش بليلاً  
مطالع سيرة  
لننازلة النمر.

وهنا، يمكننا القول إن كل قصيدة جديدة، بحق، هى كسر لتابوهات عديدة.

والتجريب يعنى - ضمن ما يعنى - ألا شئ مقدس، أو أعلى من تناول الخبرة الشعرية، لكن بعض شعراء الحركة التجريبية المعاصرة، يزاوون هذا المعنى مزاوله مفرطة تفقد هذا التجريب أصالته ومعناه، وربما مصداقه كذلك.

إن الاستغراق الزائد (بل المتزايد) فى كسر «التابو» الجنسى - كما سبق - وتخطيم سلطة «الأب» عند بعض هذه الصفوف الشعرية يدفع بها إلى المزلق الذى يتيح لخصوم التجريب أن يوجهوا لها ضربات قاسية، وتعطى لهؤلاء الخصوم المبررات القوية لسؤال من مثل: لماذا لم يفكر أحد من أبناء هذه الصفوف الشعرية فى كسر «تابو» السلطة السياسية، كما كان يفعل بعض الآباء الذين يرفضون وصايتهم ووجودهم؟ هل يتعلق الأمر باختيار «تابو» آمن لا يستوجب الاعتقال أو تهديد الحرية أو تهديد الحياة؟ وهل لا نكون، حينئذ، إزاء «برجماتية» جديدة؟

(٥)

حينما ظهر شعراء الموجة المتأخرة من حركة التجريب (فى عقدى الثمانينيات والتسعينيات) فى مصر والبلاد العربية، كان شعراء الموجة السابقة الذين ظهروا فى عقد السبعينيات (وقبلهم بالطبع أدونيس وسعدى يوسف ومحمود درويش ومطر وغيرهم من شعراء الحداثة العربية) قد حفروا فى الحياة الشعرية عدداً من القيم الجديدة الثائرة على السائد الشعرى والنقدى فى حياتنا الإبداعية، سواء فيما يتصل بطبيعة الشعر ودوره، أو علاقة الفن بالتغيير والواقع الاجتماعى، أو فيما يتصل بأهمية الشكل الفنى، وضرورة الابتعاد عن الزعيق السياسى الفجع.

كانت بيانات جماعة «إضاءة ٧٧» قد أكدت أن «الشعر الصحيح يتضمن دائماً الشعر الصحيح، لكن الشعر الصحيح لا يتضمن أبداً الشعر الصحيح»، معلنة أن «الشكل» هو مضمون، بمعنى أن النص الشعري ليس مقولة مقفلة ونهائية، بل هو مفتوح على الاحتمالات المتكثرة، انطلاقاً من أنه ليس «مدلولاً» وحيداً مغلقاً، وإنما هو مجموعة متعاقبة متولدة من «الدوال»، التي يساهم القارئ في إنتاج دلالاتها المتعاقبة المتولدة مساهمة أصيلة.

إن العالم لم يعد - وربما لم يكن - ثنائياً، بل هو معقد ومركب، ومن ثم فإن رؤية الشاعر المعاصر هي بالضرورة معقدة مركبة. هكذا كانت الأرض قد انحرفت بحق، وانكسرت سطوة المفاهيم الواقعية الضيقة التي سادت في عقدي الخمسينيات والستينيات؛ أي إبان المرحلة أو الموجة الأولى من حركة التجريب العربية المعاصرة. وفي هذا المناخ بدأ شعراء الموجة المتأخرة عملهم وظهورهم الشعري ليبنوا على ما أسسه جيل الموجة السابقة الوسيطة، سواء في الموقف الفكري أو في الموقف الفني.

وإذا كان جيل الموجة الوسيطة هو الجيل الذي بدأ وعيه يتفتح على الدقات الجنائزية لهزيمة ١٩٦٧، وبدأ إنتاجه الشعري ينضج ويتبلو مع انتفاضة الطلاب (١٩٧٢ - ١٩٧٦) ومع ثورة الفقراء في مصر (١٩٧٧) وزيارة السادات القدس وكامب ديفيد، فإن جيل هذه الموجة المتأخرة (في عقدي الثمانينيات والتسعينيات) قد بدأ وعيه يتفتح على مفارقة مصر نصف هزيمة أكتوبر ١٩٧٣، وعلى بوادر الانفتاح الاقتصادي (١٩٧٤) وفض الاشتباك وسلمة الصلح مع إسرائيل (١٩٧٥)، وبدأ إنتاجه الشعري يظهر مع حصار بيروت (١٩٨٢)، واستفحال الأزمة الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية بفعل الانفتاح الاقتصادي وما صاحبه من انهيار ثقافي وعقلي وروحي، ومن استشراء التيارات الدينية المتطرفة وازدياد البصالة بين الخريجين، ثم ما تلا ذلك من تحول العالم ذلك التحول الكسر بسقوط الاتحاد السوفيتي ودول الكتلة الشرقية، وانفراد أمريكا بتسيير العالم كله (أو محاولتها ذلك) فيما اتخذ اسماً رمزياً هو «النظام العالمي الجديد»، الذي حطم العراق وأتم تبعية الدول العربية جميعاً له، وسوّف نموذجاً باهر في شتى مناحي الحياة.

في هذا الضوء، نلاحظ أنه إذا كان جيل الموجة الوسيطة (الذي عاش طرفاً من المرحلة الناصرية) قد خاض أزمة منحنى الانتقال المفاجئ من الاستقلال إلى التبعية، ومن الانتصارات المدوية إلى الهزائم المدوية، ومن الصعوبة إلى الانهيار؛ وطنياً، فديماً، ودائياً، ومن الحلم الوردى إلى الواقع الأسود، فإن جيل الموجة المتأخرة لم يعيش أبداً الطرف الأول من المنحنى، بل صعداً إلى الحياة وقد استقر كل شيء في أحضان الخراب والهزيمة وانكسار الحلم الجميل. ومن هنا، تركزت رؤيته حول هذا الضوء الشاحب، ليرى الحياة مضطربة مختلفة، ليست جميلة ولا حاملة، لا، شروع قومياً بهضوباً - كما كان يقال - ولا مشروع فردياً يحقق الذات. فنهلت رؤيته من هذا المنبع المرير: الأحلام السوداء، والأشواق المجهضة، الدنيا العسيرة المفككة، انقلاب سلم القيم، ليتكون سياق كابوسي يمكن أن نقول فيه هدى حسين، إحدى شاعرات هذا التيار:

هكذا، كعادة المومي

تنتابني رغبة في الاشراف

والتقاط الصور الأخيرة من ملامح أصدقائي

الآن أنكر أنني أسعل وأبصق.

معدتى

تطحن الأكل بلا رحمة

وتخرجه منبوذا كمصابى

الجدام،

وأنتى يعترينى الغضب حتى الثمالة،

ويسعدنى أن أتأمل الوجوه التى تعانى كثيرا

فى شرح مفهوم السعادة،

وأنتى فى الطفولة

كنت أبول على نفسى.

إن أبناء هذين الجيلين - من هذه الموجة - هم الذين مشوا فى شوارع عواصمهم ليجدوها مكتظة بالإسرائيليين والأمريكيين وسائر الوجوه «المتعددة الجنسيات». وهو المشهد الذى جعل «الأجنبى» موضوعا مهمة من موضوعات الرؤية عندهم: من ناحية، بما يخلقه هذا الأجنبى من شعور المواطن بالهوان والقيح والاغتراب، حتى يصير النهار ظلاما - كما يقول منير فوزى - ونهوى إلى لجة تتوحد فى لونها ونصير سرايا، بينما الشاعر يصبرهم واقفين يحيطون من كل صوب بزوايا دم، فيما وجوههم الأجنبية تكثر حتى تصير البلاد، وتكبر حتى تصير السواد. ومن ناحية ثانية، بما يخلقه هذا الأجنبى من توليد حلم بديل للانخلاع من هذا الوطن المريض.

(٦)

يحتل محمد عفيفى مطر مكانة متميزة فى الخريطة الشعرية العربية، وفى قلب التيارات الجديدة فى حركة التجريب الراهنة، بوصفه واحدا من رواد التجديد فى القصيدة العربية المعاصرة، المدانة بالفرق فى «الذات» وبالاتباع عن قضايا «الجماعة».

والمدحش أن نظرة فاحصة لشعر مطر كله تنفى نفياً قاطعا التهمة الشهيرة التى ألصقها به نقاد كثيرون، وهى الانعزال عن هموم الناس والانصراف إلى غموض متعال على آلام المجموع. ففى الوقت الذى كانت فيه قصائد عديدة غارقة فى هموم «الذات» المفرطة كان مطر يقول:

أبى ضمَّ قُضلة العباءة

على منكبيه الهزيلين فاهتز تابوت قلبى

ونادى:

خذ السمسم المر

هذا رغيغ الشعير تبلِّغ به لقمة لقمة

كى تذوق الدماء التى أُشربت بها السنابلُ



تذوق به طعم لحس الذي كان

يشويه صهد النهار المسال

تبلى به واحذر الأجر

دنياك دنيا الردى والعناء

ولا يقتصر دور مطر على الرينة الإبداعية، بل إنه ظل متواكباً مع كل جديد وتجريب. وهذا هو ما قصد إليه إبراهيم فتحى حينما وصفه بأنه «شاعر عابر للأجيال»؛ لأنه يقف مع كل جيل وكل تجربة جديدة في قلب القلب.

ولأرب أنه يمكن للمتابع الذي يريد أن يرصد بعض معاييب الحركة التجريبية المعاصرة، أن يأخذ على شعر مطر بعض الركون إلى التقليد، وبعض الرق في اللغة الكلاسيكية المهجورة، وبعض الرقابة الموسيقية. لكن هذا المتابع لابد، في الوقت نفسه، أن يبلغ ذروة المتعة الفنية حينما يجد في شعره ذلك التعدد الغنى في التقنيات الفنية والتشكيلية والحساسية، وذلك الحرص الشديد على الرصد الشعري لمفردات القرية المصرية وأساطيرها وتراثها المكتوب والشفوي. مع تسجيل حار لعادات الفلاحة المصرية وضقوسها. ولعل إشارته المبكرة إلى رغيغ الشعير والسمن الذي مررت بنا توا - قد تطورت فنيا وفكرياً، لتصل في «فاصلة إيقاعات الرمل» إلى درجة عالية من السعة والعمق، في امتداعه لمخاضيل القرية:

وكانت في فجاء الرب قافلة

وسبعة إخوة ما نوا صدارا

والتيمة فوق حصى في سبعة من حب ما

حصدت يد الأعانة والجمال

جوهر حنطة، حبوب البرسيم، والرز المقشر،

كهрман العدس، زيت حبة سوداء،

والذرة الرقيقة، والسماق السمسّم المبروث.

وفي ذات يوم عصبي، قال مصطفى - مغرور الصبا والجمال - إن عفيفي مطر يكاد يشبه «خيل الحكومة المعجزة» الذي لا ينتظر سوى صاحبه الرنمة. لكننا اليوم، وبعد أن أدركنا مغزى وجود عفيفي مطر - وغيره من كبار الفاتحين: كسعدى يوسف ومحسود درويش وأدونيس وحجازي - في قلب حركة التجريب المعاصرة، نشمّن هذا الوجود الحار، باعترافنا بهما دفع ثمن الشهادة مرات: مرة بتهميش الحركة النقدية لإسهامه الكبير، ومرة بعدم وضعه على موجة من حب الإيديولوجيات السيارة، يميناً ويساراً، ومرات كثيرة بإبعاده عن مكانته التي يستحق كأحد رموز الكثرة المتقدمة في الشعر العربي الحديث.

صحيح أن اللحظة الشعرية قد انخركت قليلاً - بفعل الموجات التالية في حركة التجريب - عن تناول أصابع مطر، لكن الحقيقة الشعرية مع ذلك - أن لمطر دوراً مرموقاً في حفر مسار شاق للتجريب والتجديد في القصيدة العربية المعاصرة، حتى وإن حاصرته المؤسسات: مؤسسة السلطة ومؤسسة المعارضة. وهذا ما كان يدفعني دائماً إلى أن أهتم به كمتعة فنية، مستعيراً جملته: «احتمل غمة البرمكيين»!

(٧)

مشاكل التجريب كثيرة، ومن أبرزها أن بعض دوائر الجديدة تنطلق فيه من بعض التصورات المتطرفة، التى أظن أنها بحاجة إلى قليل من التقويم. وقد لمسنا مثل هذه التصورات فيما تقدمه، مثلاً، المجلة الشعرية المصرية الشابة «الجراد» التى ذكرت فى افتتاحية أحد أعدادها أنها مجلة:

دعى القدرة على تخطيط كل الأطر والقوالب التقليدية الجاهزة. يزعم المشاركون فيها أنهم لا يمثلون أية مذاهب أو تيارات سياسية، وأنهم يصدرون عن أنفسهم، كالجراد تماماً، يأكلون يابس الشعر، ليفرزوا أخضر غير مستساغ من ذوى الذوق التقليدى.

فى غمرة العزة بالنفس بتجاهل أصحاب هذا الاعتقاد أنه لا يمكن تخطيط «كل» الأطر والقوالب التقليدية الجاهزة، بهذا الإطلاق غير المشروط، وأنا إذا تصورنا ذلك فإنما نقع حينئذ فى طوباوية مثالية جديدة، كنا قد رفضناها فيما يتصل بإطلاقية البناء والنظام والثبات. وليس صعباً أن نعتبر رفض المذاهب السياسية نفسه نوعاً آخر من «المذهبية» والتحزب، فى الجوهر العميق للموقف الرافض.

إن إنكار الإيديولوجيا بهذا اليقين الجامد هو نفسه إيديولوجيا أخرى، وإطار، ومذهب.

ومن هنا، فإنه ينبغي أن ننقد أنفسنا من التورية المدمرة التى ينطوى عليها معنى «الجراد»: فالجراد - فى الواقع - يلتهم يابس الزرع وأخضره جميعاً. وخشيتنا هى أن ينطبق هذا الفعل «الخراشي» على الشعر كله، بأسره، فلا تتمكن من التفريق بين «أخضر الشعر السابق» الذى يتوجب علينا الحفاظ عليه وإدراك قيمته فى سياقه، وتمثله وتجاوزه فى آن، وبين «يابس الشعر» الميت، الذى انتهت مدة صلاحيته، والذى يتوجب علينا أن ننظف أرضنا الخصبة منه، بإطلاق الجراد عليه، وتطهير الذاكرة من ديدانه.

(٨)

«من أعماق ليل هذا الشجن المختنق الأوار فى صدر القرية، نزع مع الشاعر من قرينته فى صعيد مصر ناي أخرس الغناء، لم يكذب ينشق لهاث المدينة فى أكتوبر ١٩٣٢، حتى هزجت ناره بهذه الأنغام التى حملتها أوراق «أغاني الكوخ» وطلعت بها للناس أول يوم من عام ١٩٣٥.

كانت هذه بعض سطور محمود حسن إسماعيل فى مقدمته للطبعة الثانية (يوليو ١٩٦٧) من ديوانه «أغاني الكوخ» الذى صدرت طبعته الأولى أول يناير ١٩٣٥. فى هذه المقدمة يوضح الشاعر أن قصائد هذا الديوان الأول قد ظهرت:

فى مناخ شعرى أحول الروافد زائع الدرب، يقبس بيد مما غبر من تراثه، ويخلص بالأخرى مما عبر من غير ذاته، ومن بينهما تحركت أقلام بريئة الإصغاء للقاء صوت جديد.

وقد كان «أغاني الكوخ»، بحق، صوتاً جديداً فى عالم الشعر إبان ظهوره فى منتصف الثلاثينيات. ففى ذلك الوقت كانت الساحة الشعرية - فى مصر - قد خلت من «أميرها» أحمد شوقي (رحل ١٩٣٢)، بعد أن أتم مهمته الكبيرة: إحياء العمود التقليدى وإعادة الرونق والجزالة إلى «ديوان العرب» بعد عصور الانحطاط والتردى التى كانت مرت به - أو كما قيل. وهى المهمة التى كان قد بدأها محمود سامى البارودى منذ أوائل القرن، وتابعه فى أدائها - بمصر والوطن العربى - حافظ إبراهيم وخليل مطران ومعروف الرصافى وأحمد شوقي وصديق الزهاوى، وغيرهم.

مع بدء العشرينيات نشأت جماعة «الديوان» - العقاد والمازني وشكري - التي ثارت (عبر بيانها الشهير وشتى كتاباتها النظرية وإبداعها الشعري) على الإبداع التقليدي الذي قاده شوقي ونظراؤه في الشعر. وما لبثت جماعة «أبوللو» أن قامت لتشكك مع جماعة «الديوان» جناحين كبيرين للتمرد الرومانسي الهادر على تقاليد الشعر القديمة في مجمل الأجيال السابقة.

وكان محمود حسن إسماعيل - من بين هؤلاء - يتمتع بطاقة جبارة، وصفها محمد مندور، حينئذ، بأنها طاقة «حوشية وحشية».

وليس من ريب في أن شعر محمود حسن إسماعيل شكل «الجسر» الواصل بين الحركة الرومانتيكية التقليدية السابقة حركة الشعر الحر التي نشأت في أوائل الخمسينيات.

لهذا، فإن محمود حسن إسماعيل يمثل بالنسبة إلينا - وربما إلى جيلنا كله من شعراء الحداثة - أبا أساسيا من آباء تجربتنا الشعرية؛ مما جعلت به قصائده من اجتراعات لغوية وتجديدات صورية معجبة، وبما نضج به شعره من مخيلة جامحة مهتاجة، وسرعته الجائرة إلى تصوير الريف المصري وطبيعته، بطريقة تختلف عن نهج الرومانتيكيين السابقين في تعمق الطبيعة، إسقاط الوجدان البشري للشاعر على عناصرها الجامدة.

ولعله من المثير للانتباه أن شهد في ديوانه الأول قصيدة بعنوان «ثورة الضفادع»، لا أظن أن شاعرا غيره، في أيامه، كان يمكن أن يجترأ على حصر موضوعها. فمثل هذه الموضوعات لم تصبح من مواد الشعر إلا بعد ذلك، مع الحداثة وما بعدها. وهو ما يشي روح متقدمة متقدمة لدى الشاعر، الذي هو، بحق، «حلقة وصل» باهرة:

هاجها في الليل صممتُ سموتُ

كلّ نفس فيه آلامُ الشجون

وضفاف غارقات في الترى

حالمات بأسى الريف الحزين

نام فيها الموج ، حتى حنّ لها

خاصمت كل نسيم في الدجون

وطريق أخرس ما همست

في ثراه خطوات العابرين

(٩)

يشيع في الحركة التجريبية الراهنة غير واسع بفكرة «الكتابة عبر النوعية»، أو بالنصوص التي تتأخم كل نوع أدبي، ولا تنجز أي نوع منها تحرا كاملا، تحت دعوى عبور التصانيف الأدبية الضيقة.

ولا ريب أن هذا الاتجاه ينهض على رؤية صحيحة، عصرية متطورة، لكنها - على صحتها وعصريتها وتطورها - لا تخلو من مخاطر. المؤكدة أن الحياة الراهنة تتداخل، سواء في طبقاتها الاجتماعية أو في نظرياتها الفكرية، أو في اتصالاتها الجغرافية، والكونية، أو في وظائفها الطبيعية والإنسانية. لكن ذلك كله لا ينفي أننا

سنظل فى حاجة إلى وسائل إجرائية تميز لنا الحدود - حتى لو صارت حدودا خفيفة - بين الفنون وبعضها بعضا، لأسباب عديدة؛ منها أن هذا التمييز سيسهم - فى البدء - فى سعى المبدع إلى تطوير النوع الذى يدع فيه، على ضوء تاريخ هذا النوع وسياق تطوره، وإدراك شروطه الكيفية المختلفة. ومنها أن هذا التمييز سيساعد نقاد هذا النوع أو ذاك على تبيان ملامح جماله ومظاهر تفرد ومواطن إضافاته الفنية الخلاقة. ومنها، أخيرا، أن هذا التمييز سيعين المتلقى على الاستمتاع بالنوع الأدبى الذى يتلقاه، حينما يقارنه بالأنواع الأخرى وبنظراته فى مجاله، وبمدى استفادته من فن آخر، ضمن السياق الأساسى لكل فن.

هكذا، ينبغى أن نفرق بين التداخل والتشوش.

وتزداد هذه الحاجة إلى التمييز إلحاحا، حينما يكون التمييز مطلوبا من أجل ألا يكون ذلك التداخل ساترا ملونا يدارى العجز وقلة القدرة وضعف المهبة عند بعض المنتسبين إلى الإبداع والتجريب. أى من أجل أن تظل لدينا القدرة على التفريق بين التراسل الصحى الناصع والتشوش، وتظل لدينا القدرة على التفريق بين القفز على الأنواع الأدبية وإخفاء اضمحلال الطاقة الخلاقة تحت رونق نظريات جذابة.

(١٠)

هل يمكن أن ننسى اللحظة التى قرأنا فيها «عامى السادس عشر»؟ كنا، فعلاً، فى عامنا السادس عشر، فاحتك السلك العارى بالسلك العارى، وكانت اللحظة المتوترة. ساعتها عرفنا أن فى الحياة شعرا مختلفا فى الحياة عن شعر ناجى ومطران والعقاد. وعرفنا أن الزمان تحرك:

أصدقائى

نحن قد نغفو قليلا

فإذا الساعة فى الميدان تمضى

بعدها بقليل، كان أحمد عبدالمعطى حجازى تعبيرا عن غرامنا الصامت، وعن لوعتنا بفقد الحب، وقسوة الحاجة إلى الآخر، حينما كنا نردد فى الطريق:

العاشقون فى الدجى الصافى

ذراع فى ذراع

وكلمة لكلمة

وبسمة بلا انقطاع

إلا ذراعى لم يزل يهتز فى

ليل الضياع

وكلمتى

أخاف أن يمضى الصبا

ولا تذايع

أما حينما كتب قصيدتين كدرسين في رثاء عبدالناصر: الأولى «الرحلة ابتدأت» تعتبر ناصر قديسا لم يمت، والثانية «مرثية للعمر الحبيب» تقسم نقدا لأدعا للذات وللزعيم وللتجربة كلها، حينما حدث ذلك ارتفع الشاعر في قلوبنا كالأطائر الحرة؛ لأنه بلغ من الصدق مبلغا جعله يضم القصيدتين في ديوان واحد. وحينما دعا الثورة العربية إلى العودة من باريس بدلا من تسكعها في الطرقات، مع تركه الهلاك هناك تحت الرذاذ الدفيء، أدركنا أن الأزمة في سرورتها المجرمة.

ربما اختلفنا معه، لكنه احتضنا ورسمنا زعم بعضنا أننا تجاوزنا تجربة الشعر الحر كلها إلى آفاق جديدة (ولا ريب أن موجات التجريب قد انحرفت هذا التجاوز) لكنه ابتسم وربت وعطف: لأنه يعلم أن أحدا منا ليس في استطاعته أن ينكر أن أقدامه تقف في أرض كان حجازي من كبار حرائثها وسقاتها، وأن أحدا منا لا يمكن أن ينسى:

عيناك

يا لكلمتين لم تقالا أبدا

خانهما التعبير حتى ظلتا كما هما

راهبتين تلبسان الأسودا

تنتظران ليلة العرس

سدى

ولقد بلغ من تأثير هذه السطور فينا - في ذلك الوقت - مؤخرا قطعة، أقول فيها:

أريد أن أكتب شعرا لعبيك، كسريطة أن

أتفوق فيه على تشبيهها بغابتي نخل ساعة

السحر، وألا أكرر انهما خانهما التعبير حتى

ظلتا كما هما، علاء على ألا أسير فيه على

هدى عيون إلزا.

ولعلني ألفت النظر إلى أن رغبة الاستعداد من سطور الرجل الرائد - أو عن الوصف الذي تحتويه - إنما يفصح، بطريقة الإثبات بالنفي، عن محبة عمرة لهذه الشاعرية، منذ اللحظات التي كان فيها وعينا الشعري يبدأ خطواته الوليدة.

(١١)

(كتاب الحب) لمحمد بنيس هو نقاء لمعات في ضيافة (طوق الحمامة) لابن حزم الأندلسي، وهو رحلة تتصاحب فيها أشواق أعمال أخرى تتقدمها (مصارع العشاق) للشيخ السراج و(الروض العاطر في نزهة الخاطر) للشيخ النفزاوي و(ديوان المسائية) لابن أبي حجلة و(الأغاني) لأبي فرج الأصبهاني. في مقدمته المركزة للديوان يقول أدونيس: «نشوة اللون، نشوة الكلمة، وبينهما وفيهما انخفاف الجسد».



يعمد بنيس فى كتاب حبه إلى أمرين: الأول هو إعادة صياغة بعض الحالات أو القصص التى حكها ابن حزم، بطريقة شعرية، تتراوح بين الوزن والتقفية والنثر. والثانى هو إيراد بعض الأبيات أو العبارات المأثورة لمجھولين من الأعراب، أو لمشهورين من الشعراء والبلغاء، ليدخلها ضمن نصوصه بطرق متنوعة. وهو جهد يدل دلالة ناصعة على سمة أساسية من سمات التجريب فى القصيدة العربية المعاصرة، وهى التواصل الرفيع بين القديم والحديث، دحضا لفكرة: الماضى خلاء وفقر لمجرد كونه ماضياً، وتقويماً لنظرية: كل قديم سبّه.

كما يقدم قرينة ناجحة على أن «القطيعة» المعرفية الصحيحة هى تلك التى تتضمن «التواصل» فيما هى تمارس «الانقطاع»، وهى فى (كتاب الحب) تتم من خلال إعادة صياغة القديم صياغة معاصرة فنيا وفكرياً معاً. وهنا، نكتشف ضرورة مثل هذه المغامرة: وضع بعض الأعمال التراثية فى سياق عصري أخذ. أما مدى توفيق هذه الصياغة الدقيقة بين القدم والحداثة، فى إنتاج عمل جديد مختلف، فلعله يحتاج جهداً تطبيقياً محصاً.

على أن أخطر ما يوضحه (كتاب الحب) هو أن تراثنا حافل بالرؤى التى تنطلق من المعرفة عن طريق الجسد، أو بتعبير هذه الأيام «إيديولوجيا الجسد». وهو ما يساهم فى أن يكشف لنا الآباء الغابرين لتيمة «الجسد» فى كتابة التجريب المعاصرة.

#### (١٢)

يعد (لا نيل إلا النيل)، ديوان حسن طلب الأخير، علامة على عمل الشاعر كله، لأنه يقدم ما يشبه «بانوراما» خبرة الشاعر الفنية والفكرية، التى تتجلى فيها ملامحه ووضوح: الموسيقى الهادئة، القافية الطاغية الوفيرة، اللعب اللغوى والحروفى بالصوتيات والجناسات الكاملة والناقصة، ابتداءً أبيات شعرية عمودية تتخلل بنية النص (أبيات مؤلفة فى الأغلب من الشاعر، والقليل منها مقتطف). الميل إلى اللغة المتينة الجليلة (القاموسية أحياناً)، واستخدام النثر متقاطعا مع البنية الموسيقية الخيلية العامة.

نعرف أنه قد شاع عن حركة التجريب الراهنة اتهامات عديدة، كان من أهمها اتهامان: الأول يتعلق بالغموض والتعالى عن قضايا الواقع الساخنة (كما مر بنا فى غير موضع). والثانى يتعلق بالاستغراق فى المرجعية «العربية» وتجاهل المرجعية المصرية الخصوصية.

وأحسب أن (لا نيل إلا النيل) - مثله مثل العديد من الدواوين الجديدة - يشكل درءاً جلياً لهاتين التهمتين معاً: فى مسألة الغموض يمكننا من التأكيد - من الناحية النظرية - أن معظم شعر الحداثة ليس غامضاً كما يدعى المدعون، وأن جوهر المشكل هو أن الطريقة التقليدية لتلقى - سواء لدى النقاد أو القراء - تباعد بين النص ومستقبله. وفى حين تغيرت الذائقة الشعرية وتطورت الطرائق التعبيرية ظلت الذائقة النقدية والطرائق الاستقبالية على حالهما القديم.

فإذا تجاوزنا الناحية النظرية، وتفحصنا الديوان كله، نجد قصائده كلها مشغولة بقضايا الواقع الحى بوضوح وصراحة (وبنبهة خطابية فى بعض المواضع). ويكفي أن نلقى نظرة عابرة على القصائد لنشهد هموم الوطن طافحة حاضرة، فما هو يثير قضية العدل الاجتماعى حينما يقول:

هل ينقع النيل صدى؟

هل يستمر الليل فى طهو المجاعة؟

وما هو يرفض الاستبداد (رفضاً يكاد يكون عديمياً) مشيراً إلى غربة الإنسان في وطنه، حينما ينهار العقد الاجتماعي بين المواطن والنظام السياسي:

أقسمت بمائك يا نيل

بكل حرام مسكر

ألا أدع القطرة منك تبل فسي

ما بقي الاجلاف على الاكتاف

وما حكم العسكر

وما هو يدين الإرهاب السياسي، الفكرى والدينى، داعياً إلى التسامح (الاجتماعى والفكرى والإنسانى) الذى

ميز المجتمع المصرى على مر العصور

نحن الناجون من العار

نيليون جنوبيون

بناة مساجد

نوبيون أطباء ونحاتون

دقهليون رواة قصائد

من حوليات مدينتنا

غارة رمسيس وطرد العيرانيين

شماليون دعاة مدارس

مخترعون رعاة كباش

ساسة أمصار

أما فيما يتصل بمسألة «المرجعية»، فإن بإمكاننا أن نتساءل من الأصل عما إذا كان ثمة تفضيل مسبق أو تمييز مبدئى - قبل النص نفسه - لمرجعية بذاتها عن مرجعية أخرى؟ وهل هناك مصدرية مطلوبة لذاتها - أو لشرف طبيعى خلقى فيها - قبل النص نفسه؟

المؤكد أن المرجعية المصرية ليست دليلاً في ذاتها على الشعرية المتجاوزة، وأن المرجعية العربية في ذاتها ليست دليلاً على الشعرية التقدمية المراكمة. فالناتج الوحيد للشعرية في كل ذلك هو الشعر نفسه. وعلى أية حال، فإن ديوان حسن طلب هو خطاب «مصرى» طويل يقيم قصائده على بطل أساسى هو «النيل»، حتى لتبدو النصوص جميعاً سيرة النيل وحواضره، ونضالاً ضده وبه ومعه. والحق أن «تيمة» النيل عند حسن طلب ليست مقصورة على (لا نيل إلا النيل) بل إنها مبثوثة في عمله السابق كله، خاصة ديوانه (أزل النار في أبد النور). على أن خبرة الشاعر الكبيرة وسليقته السليمة جعلته لا يضع هذه «التيمة المصرية» في معارضة حديدية مع «التيمة العربية»، كما يفعل بعض المدَّعين بالخصوصية المصرية المفرطة، بل يضعها في تضافر متين ونسيج متواشج.

والحق، كذلك، أن كثيرا من شعراء الحداثة قد بلغوا أوجاً ينبغي عليهم فيه التحول إلى دور جديد. ولعل ذلك هو ما يجعل نفرا من المتابعين يرى أن بعض شعراء الحداثة قد وصل إلى مأزق مكتمل، بعد أن شكلوا - أو كادوا - «مؤسسة» شعرية راسخة، وجسّدوا - أو كادوا - «سلطة» جديدة. وقد صار عليهم من ثم أو يغيروا أن يغيروا.

ولقد جاء (لا نيل إلا النيل) - فى هذا السياق - تنويجا لوجهة وختاما لطريقة، عند شاعره. إن تجربة حسن طلب - مثل تجارب زملاء له كثيرين - قد وصلت مع هذا الديوان (ومن قبله «آية جيم») إلى نقطة ذروة مكتفية تتطلب البحث عن سبيل طازج لم يطرق. فالواضح أن الدائرة التى جسدت شعر طلب فى المرحلة السابقة قد أشبعت واستنفدت أغراضها وقطعت شوطا باذخا فى تجليها، بحيث باتت الحاجة ماسة إلى شق مجرى مغاير، حتى لا يقع الشاعر فى «النمذجة» التى كان عمله وعمل زملائه - فى البداية - هادفا إلى فيها وعدم الاستسلام لأقفاصها، حتى لو كانت هذه الأقفاص من ذهب!

(١٣)

يرى بعض المهتمين بحركة التجريب العربية المعاصرة أن الثورة الشعرية الأولى التى شهدتها تاريخ الشعر العربى الحديث هى ثورة الرومانتيكية العربية (المهجر وأبوللو والديوان). حيث طرحت مضمونا شعريا جديدا للمرة الأولى فى تاريخ الشعر العربى على مدى قرون عديدة، عندما أصبحت «الذات» مركز الإبداع الجديد ممترجة بالطبيعة وبالكون والمجتمع من خلال رافديها الأساسيين: العاطفى والوطنى (أمجد ريان «الفعل الشعرى» العدد الثانى / ١٩٩٣).

والحق أن هذا الرأى يفتقر إلى الصواب. ذلك أن الثورة الشعرية الأولى فى تاريخ الشعر العربى الحديث كانت هى ثورة الشعر الحر (أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات)، إذ ظل العمود الشعرى التقليدى سائدا ثابتا حتى كسرت ثورة الشعر الحر. وإذا كان بعض المضامين الشعرية قد تغير عند المهجريين والديوان وأبوللو، فقد ظل شكل العمود الشعرى قائما كما هو. ونحن نعرف أن المضامين الشعرية الجديدة تختار أشكالها الجديدة. وما لم تختار المضامين الجديدة أشكالها الجديدة يظل التغيير أو التجديد منقوصا غير مكتمل.

إن تغير المضامين وحدها لا يصنع تغييرا كاملا، فلقد سبق أن دخلت على الشعر العربى مضامين جديدة فى فترات مختلفة كثيرة، لكن التغير الجذرى لم يكتمل إلا حينما تطابق تغير المضمون مع تغير الشكل؛ أى حينما صعدت حركة الشعر الحر.

ويتطرق البعض الآخر من أهل موجة التجريب المعاصرة فيرى أن تجربة ما سعى بشعر السبعينيات هى الثورة الثانية فى تاريخ الشعر العربى الحديث. وهو تطرف لا يقن خطرا عن سابقه.

والواقع أنه إذا كانت موجة الشعر الحر هى أول هزة جذرية فى عمود الشعر العربى التقليدى، فإن ذلك معناه أننا مازلنا نعيش - بصفة عامة - فى الإطار الأوسع لهذه الهزة الجذرية، حتى وإن كنا - كشعراء الموجة الوسيطة من حركة التجريب - قد بدأنا، فى أواخر السبعينيات، طورا متقدما من أطوارها، بضيف إلى إنجازات رواد موجة الشعر الحر نقلا فنية وفكرية ملحوظة.

إن القوس الذى فتحته تجربة الشعر الحر لم يغلق بعد. فالألوان فيه تتعدد وتتقلب وتتجدد بدرجات متباينة. وهو لن يغلق إلا إذا انتقلت بنا مرحلة تاريخية جذرية كبرى أخرى (اجتماعية وسياسية وحضارية) عن هذا

الأفق. وعلى هذا الضوء، يمكن أن يرى الموجة المتأخرة من حركة التجريب (وهي التي صعدت في الثمانينيات والتسعينيات) بوصفها امتدادا لخطوط وخيوط في شعر الموجات السابقة. كما يمكن أن نوقن أن الشعر عديد وكثير، ليس له بارز واحد، حيد، وهو يأتي من منابع جمّة. وعلى حركة التجريب الراهنة كلها - بموجاتها المتنوعة - أن تحذر من النوع في «دوجما» الاعتقاد بأن الشعر الحق يأتي من مصدر وحيد. لقد كان التقليديون ينطلقون - في مواجهة التحديد - من مثل هذا الاعتقاد الجامد بأن الشعر يأتي من نبع واحد (هو نبعهم القديم)، وكان المجددون - ولا يزالون - يقاومون هذا الاعتقاد لما يحفل به من واحدة واستبداد. ولا ينبغي أن يقع التجديدون اليوم في هذا الخطور القاتل نفسه: الواحدة!

إن قوس التجريب غنى بالألوان، لأنه: قوس قزح.

(١٤)

يا زملائي الشعراء .

فلنحذر جريمة قتل أنفسنا .

فلنحذر نفى الآخر ، ونفى نفيه نفى لنا .

الشعر عديد وكثير

يا زملائي :

لست عليهم بمسيئين



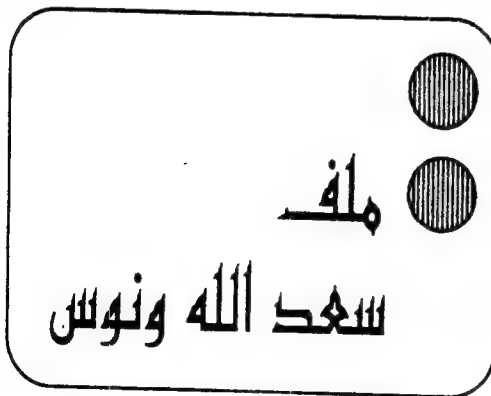


سازمان اسناد و کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران





درخت خردمند





سازمان اسناد و کتابخانه ملی جمهوری اسلامی ایران

# مشروع ونوس الثقافي / الوطني

أحمد سفسوخ\*

«بوصلة». وقد أتاح انهيار هذا المشروع لنوس ولأبناء جيله القيام بمراجعة جادة وأصيلة. ويربط ونوس انهيار المشروع الثقافي/ القومي بانهيار كل القوى السياسية الوطنية التي كانت تسند المشروع وتستند إليه. وكان ونوس يرى أن الأمل والحل الوحيد هو أن يجد المثقف العربي من جديد مشروعاً تاريخياً يستند إلى أرضية واقعية، ويتمثل ذلك في محاولة إحياء الروح الديمقراطية في الحوار والإسهام في وضع أسس عقلانية وتنويرية وتحمل النقد الذاتي، ويكون المشروع بهذا جليلاً وكافياً في هذه الفترة التاريخية، وقد يبدو المشروع أقل من المشاريع الماضية التي كانت تعنى الوحدة والدولة العصرية وتحرير فلسطين وانتصار الاشتراكية، ولكنه أكثر عمقاً وفعالية على المدى التاريخي<sup>(١)</sup>، وصولاً إلى معرفة الذات بشكل أفضل عن طريق العمل الثقافي الهادئ وإحياء التراث والمراجعة، ويقول ونوس في ذلك:

كان مشروعنا أن نساجل الواقع، وأن نسترد إنجازات الفكر النهضوي وندرجها في مسار

لم يكن سعد الله ونوس كاتباً مسرحياً أو ناقدًا، أو حتى منظرًا، ولكنه كان صاحب مشروع ثقافي / وطني كبير، فهو مواطن عربي يعمل بالفكر والأدب والشفافة والسياسة، وينتمي إلى الجيل الراديكالي الذي لا يساوم، وهو مثقف ناثور ومبدع لا يؤمن بالمسلّمات ولا يستقر على ما توصل إليه، ولكنه يشور حتى على ما يتخذه. إنه صاحب مشروع ثقافي لم يكتمل إلا لحظة رحيله: فبرحيته تنفتح صورته كاملة، وهو الذي كان يسعى إلى التعبير النثوري بكل أدواته التي كان يمتلكها.

وكانت مبررات ظهور مشروع ونوس الثقافي لديه نتيجة لتدهور الوضع السياسي والعربي ونظراً لأجهزة التمتع، حيث وجد المثقف العربي نفسه ضائعاً مرسلًا أمام التحولات الجديدة، مما أدى إلى فقد مشروعه القومي، وهو الآن بلا

\* أستاذ مساعد بأكاديمية الفنون، القاهرة

تاريخي بعد أن قطعتهما الانقلابات والبيانات والرقم (١) وبرامج الأحزاب التي جبت ما قبلها حتى تكسب مشروعية البداية والمعجزة، وكنا نظن أن أحوج ما نحتاجه الآن هو العمل الثقافي الهادئ الذي ينطوي على الإحياء والحوار والمراجعة (٢).

لم يكن ونوس يؤمن بالدور القيادي الحاسم للمثقفين، كما لم يكن مؤمناً بأن الأدب يفجر ثورة، وفي الوقت نفسه كان يرفض أن تتحول الثقافة إلى مجرد امتياز متعال، ولا أن تصبح نشاطاً مجانياً بعيداً عن حركة المجتمع، إذ تتحول في الحالة الأولى إلى أداة من أدوات القمع، وتصبح في الحالة الثانية واحدة من أدوات التخدير. وبذلك فهو يدعو إلى المثقف الذي يمارس ثقافته، إذ تعنى هذه الممارسة ثقافته وتصوبها، وهو يرجع تمزق المثقف العربي إلى ظاهرة الانفصال بين الفكر والعمل.

كان ونوس يرى أن مسؤولية الكاتب عما يكتبه جسيمة، وكان يهاجم بضراوة هؤلاء الذين يقدمون للقراء معلومات غير دقيقة. ففي مقال له بعنوان: «ثقافة الد عن..» وعن.. وذكر حادثة لأحد الكتاب الذين تناولوا مقالاً مسطحاً عن «جيمس جويس»، وهو لا يعرف أية لغة أجنبية، وهو مقال اعتمد فيه الكاتب على مقالين آخرين عن الموضوع نفسه. وقد أثارته السطحية التي كتب بها المقال، فكتب يقول:

مما لاشك فيه أن عدم احترام الكاتب لمادته، واستهتاره في تقصى جوانبها، والتدقيق في معطياتها، لا يشف فقط عن خواء هذا الكاتب ورخص علاقته بالكلمة، عن تنطعه وكسله العقلي، بل يتجاوز ذلك إلى تأثيرات سلبية على جمهور القراء وعلى البيئة التي يمارس فيها الكاتب نشاطه (...). هناك كتاب يغشوننا، ويغرسون في أذهاننا أرباع حقائق وجمالاً إنشائية ومعلومات غير موثوقة، وبالتالي فإنهم يكونون، وبأسابيع لا ترتعش، جيلاً من السطحيين ومن الرؤوس التي تطن بالفراغ، وتعوزها الثقافة

العميقة السليمة.. غش صريح، لا تظلل وقاحته أفتة أو ألوان.. ويكشف عن عدم إحساس هؤلاء الكتاب بأية مسؤولية تجاه القارئ وتجاه مجتمعهم (٣).

ويتضح موقف ونوس أكثر في مقالة له بعنوان «الأدب بلا قول» حين يتعرض لافتتاحية رشاد رشدي بمناسبة صدور العدد الأول من مجلة «الجديد» التي يطرح فيها الأخير رؤيته عن الإبداع الأدبي ويفصله عن الواقع باعتباره يترفع عليه ويعلو فوقه. ويعتبر ونوس موقف رشاد رشدي موقفاً مضللاً يزيد التجربة الثقافية تفككاً وانحلالاً:

فهو يرمي أولاً إلى عزل الأدب عن الواقع بحيث لا تنشأ أية صلة حية بينهما. الواقع يسير في مجراه. له قوانينه «الوضعية»، ومواصفاته «المبتذلة»، والأدب تجربة فوقية تتدع واقعها، تنسجه من الوهم والصورة الذهنية، ثم تنظمه وفق قوانين سامية لا يمكن قياسها بمنطق الحاجات الاجتماعية أو بمنطق البشر العاديين الذين يزحمون الشوارع والبيوت والبراري.

وعندما ينفستح الأدب على تيارات العالم الخارجي، أو على صراعات التاريخ وأحداثه اليومية المدوخة، يسقط في التفاهة والفساد. وهذا معناه ببساطة أن تتخلي كل تجربة أدبية عن بعديها الزماني والمكاني، وأن تنبذ الحوار مع البيئة التي تعيش فيها، فلا تضيء خوافيها، ولا تكثر بمشكلاتها، عليها أن تنمو في الفراغ بلا أرض ولا تاريخ. أن تتجاهل ما يدور حولها، وأن تنغلق على الأحداث والتحويلات، تستقي مادتها من الخيال والأوهام فحسب (٤).

ويعلق ونوس على مفهوم رشاد رشدي بأنه مفهوم يؤدي إلى تجريد الأدب وتفريغه من كل فعالية جادة. وإذا كان هذا الأدب يعبر عن المرحلة الحالية في العالم، فإنه حين يرتبط بواقعنا ومجتمعنا لا يكون إلا محاولة فارغة ومضلة (٥).

يونيسكو وبيكت، وهل أرسطو كاتب مسرحي أم لا! وهل الشعر الحديث شعر أم نشر! والمسألة الالتباسية عن مسرحية «الهواء الأسود» أهي لدورينمات أم لكاتب مصري. أهي عن مسرح اللامعقول أم اللامعقول، ومعاناة الإنسان الآلي، وغربة الفرد الصناعية، وجحيم الآخرين<sup>(٧)</sup>.

ولم يطلق ونوس هذا على الإطلاق، وإنما تحدث عن الاستثناءات الجادة، ولكنها في النهاية استثناءات. إذ كان يؤله ما يصير إليه العالم العربي في كل مكان. وفي هذه الأمثلة يكشف ونوس مدى الافتراق بين الثقافة والواقع ومدى تضليل الثقافة للإنسان العربي في فترات الأزمة هذه، التي كشفت عنها ٥ حزيران.

لقد كان ونوس يرفض التعامل مع الثقافة بمعزل عن أحداث الواقع، ذلك أن هذا النوع من الثقافة يفقد تاريخيته، بمعنى أنها تقفز خارج سياق حركة الواقع، وتتحول بذلك إلى نشاط متعال، بشكل تجريدي.

وفي نهاية السبعينيات، تفتتت أحلام ونوس من بين يديه بسبب التحولات الفاجرة على مستوى العالم العربي، التي لم يكن قد هيا نفسه لها بعد، فضاغ منه مشروعه الذي ظل يحلم به، فأدى به هذا إلى صمت مطبق استمر ثلاث عشرة سنة. وكما يقول، كانت فترة ضرورية لمراجعة الذات:

أعتقد أن فترة الصمت كانت ضرورية أو لا يمكن تفاديها.. إنها مراجعة للذات، وبالتالي لوضع جيل من المثقفين بسطوا التاريخ في فورة حماستهم وتعجلهم فحولوه إلى عدد من اللافتات والشعارات التي يبدو تحقيقها مرهوناً بكفاية النضال والوقت.. لكن التايخ ثار من هذه المحاولات التبسيطية، وتابع مجراه الدامي، فتركنا عراة مع شعاراتنا المعزقة والمهترئة<sup>(٨)</sup>.

ثم يطرح ونوس سؤالاً عن أسباب وقوعه في هذا الفخ التبسطي، كأنه يبنى مشاريعه خارج سياق التاريخ، فيلقى بالمسؤولية على نفسه وجيله، ذلك أنهم لم يتعمقوا في رؤية الواقع وفي رؤية القوى المتصارعة التي تشكل الواقع، إذ كانوا

لقد كان ونوس في فترة السبعينيات مماساً بقدره الأدب على تغيير الحياة، وكان يرفض أن يدير نشاطه الثقافي ظهروه للأحداث التي يمر بها المجتمع؛ إذ يؤدي ذلك إلى تضليل مركب، فبمعنى هذا إلهاء القارئ عن المشاكل الحقيقية التي تعصف به، حيث تتحول الثقافة هنا إلى محسر يعيب وعي الناس عما يحدث في الواقع الموضوعي

إن الثقافة هنا، وبالحدود التي يؤثر فيها، تتحول إلى مخدر يهدد القارئ، ويرجح على عينيه غشاوة مريحة. إنها تملأ المساحة بين قدميه والهاوية بغيمة زائفة من الدخان والضوضاء، وتهيؤه لسقوط مباحة وأعشى<sup>(٩)</sup>.

ولم يكن ونوس يرتبط بأحداث المجتمع الذي جاء منه فقط، وهو سوريا، وإنما كان يرتبط بأحداث العالم العربي عامة، وكان يرى في مصر أم العروبة. فالنوس العربي كان ساحة:

تتصادم فوقها الاتجاهات، وتوالت عليها الأحداث الصاخبة. في العشر التي تم فيها الانفصال وتكرس، وبدأت نفا من اليمن جيش الجنود المصريين. فترة احتدام الحركات الاجتماعية، وفتت الصف الوطني، والمحاض الذي لا يلد إلا الانقسامات والسيارات في الفترة التي كانت تختمر فيها بين طيات الواقع هزيمة ١٩٦٧، عرف المناخ الثقافي في مصر طفرة ورمية هائلة. آنذاك بدت لنا تلك القدرة مذهلة، فلم نستطع مقاومة تأثيره، أو لنجد دلائلها. كان علينا أن ننتظر هزيمة حزيران حتى نصحو، ونذكر إلى أي حد خائفنا ثقافتنا

لقد اكتظت تلك الفترة بالندوات والمحاورات المطروحة. مجالات متخصصة، مسابقات يومية، وملاحق أسبوعية، وكلها منححة حتى الاختناق بالثقافة، ولكن ما هي السبب الذي كانت تغذى هذا النشاط الثقافي الخسوف؟ إنها موضوعات اللامعقول، والعلاقة الإبداعية بين الغموض والتقدم الحضاري، وأحر ما كتبته



يربطوا، وبشكل عضوي، بين فعاليتهم الإبداعية، وفعاليتهم السياسية.<sup>(١١)</sup>

ويؤكد ونوس أنها ليست دعوة إلى الفصل بين السياسي والثقافي، ولكنها «دعوة للنظر إلى الثقافة من خلال خصوصيتها وفك ارتباطها مع التكتيكات السياسية اليومية والسياسات الحزبية الضيقة»<sup>(١٢)</sup>. هو بذلك يرى من منظور دياكتيكي أن الثقافة لها خصوصيتها وأن السياسة لها خصوصيتها أيضاً، ولكن هناك علائق جدلية مركبة تربط كلاهما ببعض، تؤثر فيها وتتأثر بها، وهو بذلك يربط بين النشاط الثقافي والسياسة والاجتماع:

استحالة الحديث عن تاريخ مستقل للنشاط الفكري أو عن تطور خاص به، لأن حركة تاريخ الفن أو الفكر تتلازم مع الحركة الاجتماعية ولا يمكن تفسيرها ولا تحليلها إلا في ضوء هذه الحركة نفسها<sup>(١٣)</sup>.

ويرى ونوس أن الفكر الأوروبي البرجوازي إنما كان يحاول نشر أفكار مضادة في عزل الأدب عن السياسة حتى لا يتم تنوير الجماهير وتثويرهم ضد مصالح البرجوازية، إذ إنه يرد على قول الكاتب «جولييان جرين»: «إنني أكره السياسة» بقوله:

مثل هذا التصريح واضح الدلالة طبعاً فهو يعكس الفكر الذي تريد الأنظمة البرجوازية تميمه. فكر يقوم على عزل الأدب عن السياسة، لأنه يريد عزل الناس عن التفكير بأوضاعهم وتبني مصيرهم. والأدب والفن كلاهما يستطيع القيام بدور مهم وأساسي في إضاءة الشرط الإنساني والتحريض على تغيير الظروف السائدة<sup>(١٤)</sup>.

فالسياسة قدر لا يستطيع أن يتجاهله مثقف ينتمي إلى مجتمع ما.

إن أفضل ما يُشخص إحساس وموقف ونوس كاتباً هو ما قاله عن الأدب في البلاد المتخلفة، وبالطبع ينطبق هذا القول على ونوس نفسه، وربما كان هذا سبب توقفه عن الكتابة لمدة ثلاث عشرة سنة يعيد فيها حساباته ثانية، فهو يصف الأدب في البلاد المتخلفة بقوله: «إنه أدب:

يعتقدون أن التحول الإيجابي سوف يحدث لا محالة، وأنهم لم يواجهوا الفكر السلفي وبنية السلطة بقدر كاف، إذ كانوا يعتقدون أن هذا الفكر سينحل طبيعياً، ومن هنا كان اضطرابه، وكثير من أبناء جيله، حينما صعد الفكر السلفي وأمسك بزمام الأمور، مما أدى إلى تراجع الكثير منهم عن الفكر المادى لينضموا إلى الفكر السلفي فبدا المشهد الثقافي، وكأنه فوضى كرنفالية»<sup>(١٥)</sup>.

ويرى ونوس أن البرجوازية بشقيها القومي والتقدمي بمقولاتها الجاهزة وشعاراتها البراقة، قد أوقفت حركة التنوير في الثقافة العربية التي بدأت في ثلاثينيات هذا القرن، وأربعينياته، وأن الجهد الذي قام به طه حسين وأحمد أمين وسلامة موسى وغيرهم، كان فرصة طيبة لفهم تراثنا باعتباره تاريخاً وليس تميعة مقدسة نظرد بها الأرواح الشريرة، وبذلك لم تتضح هذه الحركة؛ لأن البرجوازية الصغيرة التي تسلمت السلطة أحلت الشعارات البراقة والجاهزة محل التحليل العلمي للواقع.. إن أحداً لم:

يواجه التراث على أنه صيرورة تاريخية، وإن مسؤوليتنا لا تكمن في تمجيده أو في إحياء بعض جوانبه، أو في رفضه، وإنما في كتابة الصيرورة ووعيها، وتعميق دلالتها التاريخية<sup>(١٦)</sup>.

وما كان يعنيه ونوس هو أن يكتب التاريخ بصورة علمية متحررة من القداسة الدينية، فنحن بحاجة ماسة إلى مثل هذا التاريخ الذي يكتب بطريقة علمية وعلمانية.

ويقرو ونوس بأن مستقبلنا لا يكمن في ماضينا، ويهاجم الدعاوى التي تردنا إلى الماضي لأنها تقوم بعزلنا عن منجزات الفكر الإنساني وتمنعنا من التقدم.

إنه يرى أننا قد فقدنا المشروع، بمعنى أن التحولات العنيفة التي بدأت تتوالى على واقعنا «قد وصلت بنا إلى لحظة العرى»، حيث تهاوى المشروع القومي، وتهاوت الديمقراطية. ولذا، كان ونوس يرى أن الكاتب الذي يفقد إيمانه النسي بأنه قادر على التغيير:

يفقد الدافع للكتابة، وينبغي ألا ننسى أنني واحد من جيل الكتاب، أخطأوا خطأ فاحشاً، حين

الماضى ولا يدارى الإفلاس الحاضر باستعادة رموز الماضى، وإنما يحاول أن يتدارك القطيعة اللاتاريخية التى باعدت بين إنجازات عصر النهضة وفكر واقعنا المعاصر، ذلك أننا نكتشف فينا كل يوم أفكار الطهطاوى والنديم وفرح أنطون وطه حسين وعلى عبد الرازق وغيرهم<sup>(١٧)</sup>.

وقد دفع هذا ونوس إلى أن يتوسع فى كتابة بحث «الثقافة الوطنية والوعى التاريخي» لنقد التيارات الفكرية فى العشرين سنة الأخيرة، التى زادت من المازق الفكرى العربى تعقيداً ولكن سرعان ما هاجمه المرض، ولم يسمح له الوقت ولا الحالة الصحية ولا المزاجية أن يكمل أبحاثه فى هذا المجال.

وبعرض ونوس لأول مشروع ثقافى عربى وهو مشروع طه حسين، خاصة فى كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) الذى أصدره طه حسين عام ١٩٣٧، كما يتعرض للأسباب التى أدت إلى ذبول هذا المشروع فى الوقت الذى كان يجب فيه أن يزدهر، وهو الوقت الذى جاءت فيه الثورة، وهبات فيه لإخفاقات كبيرة منها التناكر لمشروع طه حسين وتهميشه<sup>(١٨)</sup>.

وفى تعرضه لمشروع طه حسين، أفرد ونوس صفحات لمواقف من كتب مصرية تدبى طه حسين مثل كتاب (الإقطاع الفكرى وآثاره) لعبد الحى دياب، (وفى الثقافة المصرية) لمحمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس، وهو بذلك يؤكد تنكر القوى التقدمية لمشروع تنويرى كمشروع طه حسين، وهى القوى التى كان عليها أن تتبنى هذا المشروع ونظوره.

وتكمن قيمة مشروع طه حسين التنويرى فى نقله التراث من نظرة التقديس إلى الحيز التاريخى الذى يخضع لمناهج التحليل والنقد، باعتبار أن الحيز التاريخى تفتح معرفى على الحقائق الموضوعية فى جديدها - كما يقول ونوس - وعلاقتها مع الحاضر باعتبار أن كل شئ خاضع للامتحان والنقد ومناهج البحث العلمى، وقد أقبل طه حسين ومعه أحمد أمين وعبد الحميد العبادى على كتابة تاريخ شامل للأمة العربية تناولها طه حسين من جانبها الأدبى وأحمد

برهقه الإحساس بأنه هامشي، وأن كلماته تضع، وتندرج فى روتين حياة يومية قاحلة، وعندما بدأ الكتابة كان مسدداً فى الحكم. لقد ظن أن كلماته حين تنشر ستعبر أوضاعاً، وتبدل ناساً، ستدوى، وتؤثر ويحدث صداماً مميذاً فى الحاضر والمستقبل. ولكن هاهنا بعد أن نشر ونشر بعد أن أصدر كتاباً وكتاباً، يكتشف أن أحلامه لا تختلف عن الأوهام، وأن دوره محدود (...). اكتشاف مخيب يندد بمأساته، ويهز تماسكه الداخلى. فما يفعله، إذ، أقل أهمية مما تخيل، والدائرة التى يشغلها فى مجتمعه أضيق من أن ترضى طموحه، أو تحفظ له ثقته بنفسه.. لقد خدع (...) وربما تصادف سببه الإحساس بالعجز إلى حد التوقف نهائياً عن الكتابة<sup>(١٩)</sup>.

وربما ما ذكره بعض من هذه الأسباب التى دفعت إلى التوقف عن الإمساك بالقلم. وفى واقع متخلف كهذا يدفع الأديب إلى اتخاذ أحد المواقف التالية. فإما أن يواجه واقعهم بالمثل، أى يصبح لا مبالياً فيفقد دوافع التحرك والتغلب يتوقف تماماً عن الكتابة، وربما يحرقه دوافع التحرك والتغلب الكتابة للإثراء فيكتب للسينما والمسرح والتلفزيون، ويكتب المقال والمسلسل الإذاعى، ويكتب سيلاً من الأعمال النافهة والمخدرة، أو ربما يتحول إلى بوق متمدن يمدح كل شئ. ويرى ونوس أن هؤلاء تصادموا مع الواقع حينما لم يستطيعوا أن يحققوا ما جاء بمخيلاتهم، ذلك أنهم نهضوا لأنفسهم أدواراً مستعارة، وبذلك فهم منفصلون عن واقعهم. ويرى ونوس لذلك أن الموقف الصحيح يقتضى الانغماس فى الواقع أكثر فأكثر، فى محاولة لفهمه والتعامل معه من خلال مفرداته بدلاً من التعالى عليه وتوهم أدوار مطبقة ومركبة تنتهى إلى الضياع والقلق<sup>(٢٠)</sup>.

وكانت إحدى محاور اهتمامات ونوس فى تحقيق مشروعه الثقافى هى التعمق فى البحث وتقدير اجتهاداته الشخصية فى تحليل وفهم ما يطرح من قضايا وإشكالات فى محاولة لاستجلاء عصر النهضة، واسترداد هباته الخفية المعرفى واتساق القول مع الفعل. ونوس، هنا، لا يعنى أى حين إلى

المتمدنة لا تخرج عن أصول الفقه الإسلامي، وبذلك فلا جناح علينا إذا اقتبسنا هذه القوانين والمعارف. وهو بذلك يدفع الخطاب الدينى ليتأقلم مع العلمانية الأوروبية التى ثبت فعاليتها فى الواقع. وكان مشروع الطهطاوى بذلك مشروعاً متكاملأً، وهو الذى وضع أساس الفكر المصرى الحديث والثقافة المصرية الحديثة، كما أطلق عليه لويس عوض، وبالطبع كان مشروع الطهطاوى متسقاً، نشأ مع ارتباط الفكر بالواقع<sup>(٢٠)</sup>.

لقد كان ونوس يرى أن الفكر يرتبط بالفعل وبالواقع وبالكفاح الوطنى، فالثقافة لا تجد تعبيرها من خلال خيارات ذهنية وانحرافات عاطفية، بل من خلال التورط فى النضال:

إن المثقف الوطنى يعيش اليوم مفارقة كثيفة، ففى الوقت الذى يهْمش فيه، والتهميش يتم على صعيدين متداخلين ومتساويين، أحدهما كونى والآخر محلى، فإنه يجد نفسه مطالباً بمهمات زادت جسامته وتعقيداً، وهو يعلم أن إمكانياته تتضاءل يوماً بعد يوم أمام موج الثقافة الذى تدفعه الرأسمالية «الظافرة» كى يتغلغل فى كل زوايا المعمورة، وأمام آلة القمع المركبة (غياث الديمقراطية، الفقر، الأمية، طغيان الإعلام وهزاله) التى تنتصب فى بلاده. ومع هذا فإن عليه كسيزيف أن يحمل هذه الصخرة وأن يتسلق الجبل. وهو محكوم بأن يحمل الصخرة ومحكوم ألا يتوقع - ولاسيما فى هذه الأيام الكسيفة - أى تعويض.. ينبغى أن يقبل هامشيته وأن يواصل عمله. ليكون شاهداً أو ليكون خميرة وليكن صوتاً صارخاً فى البرية أو ليكن إرهاباً. والمهم هو ألا تساوره الأوهام حول دوره، وألا يغفل، ويترك الهزيمة تتسلل وتهزم وعيه، إذن فلنحمل الصخرة هذه.. ولنواصل<sup>(٢١)</sup>.

ويتتبع ونوس الأنظمة العربية التى تحرم المثقف العربى من دوره الطليعى لتحوله صوتاً فى جوقتها الإعلامية، ويتم هذا من خلال القمع السافر حيث السجون والمنافى والزنازين، وبالقمع المخملى حيث الاحتواء والمكاسب وتمجيد

أمين من جانبها العقلى وعبد الحميد العبادى من جانبها السياسى، وقد فتح هذا المشروع فى ثقافتنا وعياً معرفياً يعزز الحرية ويمنح إمكانات للتقدم.

وقد كان موقف طه حسين ومعه عدد من التنويريين من قضية الدين والعلمانية موقفاً تقدمياً، كما أضاء طه حسين الصلات بين ثقافتنا وثقافة البلاد اليونانية والرومانية والتأثيرات المتبادلة. والتعلق بالثقافة الإنسانية كان شكلاً من أشكال الإنارة الجديدة لأدبنا العربى تدرجه فى سياق التراث الإنسانى. وطه حسين جمع بين الفكر والممارسة فى وحدة مدهشة - كما يقول ونوس - وبذلك قدم المثل النموذجى لما يجب أن يكون عليه المثقف العربى، فالثقافة بالنسبة إليه معركة يخوضها بالفعل والقول فى محاولة لتحرير العقول وتحديث المجتمع. كما ربط طه حسين بين حلمه التنويرى والأرضية السياسية والاجتماعية، وربط بين العلم وتحديد العقل والحرية والديمقراطية وتحديث الدولة والمجتمع المدنى الذى تشكل فكرة الوطنية لحمته<sup>(١٩)</sup>.

وقد كان ونوس يسعى إلى استرداد مشروع طه حسين وتسييل الضوء عليه، وكان يرى أن هذا العمل يحتاج إلى تضافر جهد مؤسسات وأحزاب ومنظمات كاملة.

ويستمر مشروع ونوس ملقياً الضوء على مشروع الشيخ رفاعه الطهطاوى باعتباره أول مشروع نهضوى عربى يحاول فيه الشيخ أن ينقل الحدائث الأوروبية، وانغماسه فى الكتابة والإدارة والترجمة، لكى يسهم فى النهضة التى كان يمثلها مشروع محمد على من جهة، وينشر المعارف والأفكار التى تساعد على هذه النهضة، فى محاولة لتغيير الحياة الاجتماعية بطابع تقدمى يتفق وفكرة التاريخ. وهناك مسألتان أساسيتان شغلنا عقل الطهطاوى؛ الأولى ما الذى يجب أن نأخذه من الغرب، والثانية كيف يمكن أن نوفق بين ما نأخذه والعقيدة الإسلامية.. وفى الحالة الأولى يرى الطهطاوى أنه يجب أن نأخذ من الغرب علومه ومعارفه واختراعاته والنظام السياسى بما يعنيه من تقييد سلطة الحاكم وسيادة القانون والحقوق المدنية والحرية الفردية وغير ذلك. وهو بذلك يصل إلى المسألة الثانية، ذلك أن التمدن فيه مصلحة المسلم، فهو يرى أن جميع الاستنباطات العقلية التى وصلت إليها عقول الأمم

جماهيرية، وبذلك فإن جوهر البرنامج الإعلامي هو التخدير والتسويق<sup>(٢٢)</sup>.

وتتفق كلمات ونوس عن مثقفي عصر النهضة مع حركة الفعل لديه، فقد عاش رواد عصر النهضة:

حياة تزخر بالتوافق والخصب، فهؤلاء الذين أتاحت لهم ظروف متباعدة، أن يكونوا الطلبة المثقفة في مجتمع يتشاءم بعد طول رقاد، كانوا هم أيضاً طليعة هذا المجتمع السياسية. لم يكن هناك فصام بين الفكر والعمل.. ولم تكن الثقافة وضعاً «انطوائياً» يتفوقون فيه، متعالين على حركة الواقع، أو مغتربين عنها.. كانت الثقافة لديهم وليداً وإطاراً للممارسة اليومية، وقيادة المجتمع نحو ما تصوره اليقظة والنور<sup>(٢٣)</sup>.

وهكذا كان ونوس نفسه مثل مثقف عصر النهضة الذي سعى إليه ليتواصل تاريخياً، لم يكن فكره منفصلاً عن عمله، إذ كان ونوس ابناً لهذا المجتمع يسعى إلى تطويره وتجاوز أزمته مثل الأفغاني ومحمد عبده والشيخ طاهر الجزائري والكواكبي الذين يضرب بهم المثل نماذج حية على هذا الاتساق بين ارتباط الفكر بالعمل.

التفاهة، وليس هذا إلا تأكيداً على خسارة الثقافة والمثقف في البلاد، فالمثقفون هم الذين صاغوا الوعي العربي، وهم الذين زاجروا بين الكلمة والممارسة، وكان رجيل النهضة الأولى، رجيل الطهطاوي وعلى مبارك والخبزوني والأفغاني وفرح أنطون ومحمد عبده، وكان رجيل النهضة الفكرية التنويرية، رجيل طه حسين وهيكمل والعقاد وحسد أمين وريث خوري وسليم خياطه. ومن المثقفين شأت الأحزاب وازدهرت دعوات التجديد والتغيير، وكانت دورات المثقفين هي المادة الجوهرية التي شكلت الوعي العربي وصاغت الطموحات والأحلام. ولكن الوضع اختلف بدءاً من سبعينيات هذا القرن بعد أن أصبح المثقف جزءاً هاماً من آلة ضخمة تنتج الكلام الملتبس والضباب حتى احتلظت المفاهيم الثقافية والسياسية وقل وعي المواطنين برفعهم مع زيادة المنابر الإعلامية. ويتعرض ونوس في ذلك إلى البرنامج الإعلامي الذي تتسلح به الأنظمة في التوصل إلى أهدافها، وهو برنامج يركز إيديولوجياً على نقطتين: هريش أولاهما بعث القيم السلفية تحت ستار الأصالة، وتجنّبها تسويق منتجات الغرب الاستهلاكية، وبذلك تتأصل الأنظمة أن تكرر نفسها للتبعية الأوروبية وحماية نفسها من انتفاضة

## الهوامش:

- (١) سعد الله ونوس: هوامش ثقافية، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٢، ص ٢٥٤.
- (٢) سعد الله ونوس: الأعمال الكاملة، المجلد الثالث، الأولى، طبعة والنشر، دمشق، ١٩٦٦، ص ص ٦٩٤ - ٦٩٥.
- (٣) المصدر السابق، ص ص ١٧٤ - ١٧٥.
- (٤) السابق، ص ص ١٨٢ - ١٨٣.
- (٥) السابق، ص ١٨٣ وما بعدها.
- (٦) السابق، ص ٢٠٣.
- (٧) السابق، ص ٣٠٤.
- (٨) السابق، ص ٢٣٣.
- (٩) قارن السابق، ص ٢٣٤.
- (١٠) السابق، ص ٢٣٧.
- (١١) السابق، ص ٢٤٠.
- (١٢) السابق، ص ٢٤٠.
- (١٣) السابق، ص ١٥٤.
- (١٤) السابق، ص ١٥٦.
- (١٥) السابق، ص ١٥٩ وما بعدها.
- (١٦) قارن السابق، ص ١٦٠ وما بعدها.
- (١٧) قارن سعد الله ونوس الأعمال الكاملة، المجلد الثالث، مصدر سابق، ص ٤٧١.
- (١٨) قارن السابق، ص ٤٧٩.
- (١٩) قارن السابق، ص ٤٨٥ وما بعدها.
- (٢٠) قارن السابق، ص ٤٩٧ وما بعدها.
- (٢١) قارن السابق، ص ٥٨١.
- (٢٢) قارن السابق، ص ٥٨٤.
- (٢٣) سعد الله ونوس، هوامش ثقافية، مصدر سابق، ص ١١.

## الوعى التاريخى ومعادلة المثقف - السلطة

### فى أعمال ونوس أنية الوقائع

#### حسن عطية\*

وقد كان سعد الله ونوس واحداً من هذا الجيل الذى آمن بالعلّة الثمائية للفن وتمثلها فى الكشف عن الخلل الضارب أطنابه فى تربة الواقع العربى، والمختبئ خلف أطنان الكلمات والشعارات والأقنعة المزيفة. لم يكن ونوس وحده بين أبناء جيله السائر فى هذا الطريق، ومن الصعب، تحت أى تأثير، وصفه بالظاهرة المنفردة فى عصره، فذلك ضد منطق التاريخ، والوعى به، الذى آمن بهما ونوس نفسه، ودافع فى سنواته الأخيرة، فى عقد التسعينيات بالذات، كتابة وإبداعاً، عن ضرورة التسلح بالوعى التاريخى فى رؤية العالم فى كل لحظاته الزمانية، رافضاً الوقوف أو العودة إلى لحظة زمنية معينة مقطوعة من سياقها التاريخى، للعيش فيها أو استعادة العيش فيها. فالتراث العربى، ذلك المتحدث عنه بكثرة هذه الأيام، هو وحدة متكاملة على مر الزمان، واختزاله إلى مجموعة انتقاعات يؤدى إلى أدلجته وتخطيم وحدته، بما يفقده صيرورته وكشافته التاريخية، ويحوّله إلى مجموعة من

موقفان متماسان متناقضان يتراوحان داخل عقل كل فنان حقيقى، يجذبه أحدهما لرصد اللحظة المعيشة، وصياغتها فى بنية مناظرة مع بنية الواقع، بهدف التأثير فى هذا الواقع سلباً أو إيجاباً، ويجذبه الموقف الآخر إلى الكشف عما هو جوهرى ودائم الوجود فى هذه اللحظة المعيشة عاملاً على صياغتها فى بنية تفيد من بنية الواقع وتفارقها فى آن، بفرض إحداث هزة فى هذا الواقع وتفتيت بعض ثوابته أملاً فى تغييره. والفنان، فى كل من الموقفين، لا يتجزأ ولا ينقسم فكرياً، وإنما هو يتكامل محققاً الغاية الكبرى من الفن الحقيقى: التعبير عن الواقع سعياً إلى تغييره، والإمساك بقوانين الغد رغبة فى استباق الحاضر ومجاورة لكل ما يعرقل حركة الواقع المتقدمة للأمام.

\* ناقد مسرحى، عضو هيئة التدريس بأكاديمية الفنون بالقاهرة.



(التعاويذ) والأجوبة السحرية الجاهزة، مما يصل بنا إلى تزوير التراث والحاضر والمستقبل فى آن<sup>(١)</sup>.

ولذلك، فهو حين يتصدى للحاضر يدرك أنه ليس بال لحظة المتكاملة المنقطعة عن لحظات سابقة ولا حقة، وإنما هو فى سيرة مستمرة، لذلك فهو قابل للتغيير، وصراع ونوس - وغيره - من حيث هو فنان مفكر هو النوسوف ضد أية محاولة لتجميد الحاضر فى لحظة آنية محددة، أو إعادة تثبيتته فى لحظة ماضية بعينها، عاملاً بقوة - وبجمال فنه - على نزع كل الأقنعة المؤسطرة والمؤدلجة للحالات تجسيد الحاضر وتغيير وعى ناسه وقلب عيوبهم لتدخل مؤمناً بأنه إذا ما كان التاريخ لا ينتظر تبلور الفكرة ليطلق. ولكنه هو الذى يتحرك ويحرك الفكر معه ويغير وعى الناس وإدراكهم ونمط حياتهم<sup>(٢)</sup>. فإن فاعلية الإنسان، والإنسان المدرك لحقائق واقعه، هى التى تلعب دورها فى تحريك هذا التاريخ. فالتاريخ ليس آلة صماء تندفع دون محرك، وإنما الإنسان هو قائدها ومحركها، ووعى الناس هو الخلاصة الجوهرية للثقافة السائدة والمسيدة، رسمية كانت أم شعبية، متناقضة أم متوازنة أم متناقضة، وإن من يستطيع امتلاك هذه الثقافة وسبل حركتها، يستطيع امتلاك الوعى بالواقع والتاريخ معاً، وبامتلاكه لهذا الوعى وإخضاعه فى حكمه للقيم والتصورات والمفاهيم الخاصة بإيديولوجيته، يستطيع أن يعرف حركة التاريخ وأن يسير حركة مجتمعه، عبر مؤسساته التربوية والأخلاقية والتشريعية فى طريق مضاد للتاريخ أو معه.

وبهيمن الوعى التاريخى على كل أعمال ونوس المسرحية، منذ أول عمل منشور له وهو «ميدوا تخدق فى الحياة» (١٩٦٣)<sup>(٣)</sup> حتى آخر أعماله «رحلة فى مجاهل موت عابر» (١٩٩٦)، مع تباين لاشك فيه فى وعيه التاريخى هذا وتشابهه فكراً مع حركة الواقع خلال مراحل إبداعه المسرحى، التى يقسمها النقاد والمخاضون عادة إلى ثلاث، تفصل بينها فجوات توقف، ويحجم كل واحدة منها حدث واقعى (تاريخى) ساخن يفرض على الفنان أن يتجاوب معه، كما يفرض على مجتمعه بأكمله أن يتحسس موقفاً منه، داخل إطار الفكر السائد والأنظمة السياسية والاجتماعية المهيمنة أو ضدهما.

ورغم أننا لن نقف فى دراستنا هذه إلا عند مرحلة ونوس التسعينية، فبالوعى التاريخى ذاته لنوس لا يمكننا إغفال مرحلتيه السابقتين، وعياً بوجود متصل فكري فى الحياة الإبداعية لكل فنان، وإدراكاً بأن الإبداع لا يسير وفق نظرية الطفرات أو نظرية النشوء والارتقاء البيولوجية، فليس ثمة عمل أنضج من سابقه وأضعف من لاحق، وإنما ثمة تشابك حاد بين الفنان وواقعه، يتجلى داخل عمل فنى، فى لحظة زمنية ما، متكاملًا حينما يمسك الفنان فيها بمحور التواصل بين واقعه وناسه ولحظاته الثلاث: الماضية والحاضرة والمستقبلية، وينشئ حوله عملاً جمالياً يتأسس على تراث النوع الفنى الذى يدع فيه - وهو هنا الدراما المسرحية - ويتجاوز ثوابته فى الوقت ذاته، تخاوراً مع مجتمعه بشكل خلاق.

وتضم مرحلته الأولى، التى تمتد لقراءة السنوات الثلاث (٦٣ - ١٩٦٥)، مجموعة من المسرحيات القصيرة كتبها فى زمن الحلم بـ «صناعة التاريخ»، تكشف عن هموم فلسفية ذات أصداء وجودية كانت سائدة فى النصف الأول من الستينيات فى العالم العربى، وكانت أشبه بالموضة عند البعض، وبديلاً عند بعض آخر عن تبني الأفكار الماركسية المطاردة وقتذاك، وملتقية مع الأفكار الثورية البورجوازية السائدة فى هذا العقد، فامتزجت ثورية البطل الفرد بتحملة لمسئولية الفعل الجارح والمجاوز لحدود الذات، وتشابك الهم المجتمعى بهموم الإنسان العامة، وحلت ثورية الفنان الملتزم محل ثورية الطبقة الصاعدة، وتداخلت القومية بالأممية، والتغير العلمى بالتأويل الدينى للإيديولوجيا المتبناة، وصارت برامجائية التجربة والخطأ بديلاً عن النظرية المستخلصة من تجارب الآخرين، وغزا الرمز حياتنا مستقراً فى فضاء مسرحنا، ليس هروباً فقط من أعين الرقباء الحكوميين، وإنما أيضاً لقدرة الرمز على تجريد الواقع وصياغته فى علامة، وقفت وقتذاك عند حدود الأيقونة، تتخذ من الحكايات التاريخية والأسطورية والشعبية أردية شقافة لها، وقد أثر ونوس، فى هذه المرحلة الأولية من حياته الإبداعية، أن يفتش فى الحكايات والدراما الإغريقية، باحثاً عن «ميدوا» التى تخدق فى الحياة (٦٣) ملتقياً بهذا «الرسول المجهول فى مأتم

الضخمة، ويقرر أن يقدم على المسرح الفن الذى يدفع الوعى الحقيقى بواقعه إلى عقله، يصادر حقه هذا، ويقبض عليه فى «حفلة سمر من أجل ٥ حزيران» (٦٨)، وحينما يتوجه إلى السلطان رافضا المزيد من دمار فيله، تنكسر عزيمته أمام سيف المعز وذهبه اللامع، فينخرس اللسان ويعجز عن المطالبة بحقه فى رفض الظلم، فى «الفيل يا ملك الزمان» (٦٩). بل إن حلمه فى أن يكون سلطان ذاته، وحاكم حركته ينهزم أمام طبيعة السلطة ذاتها التى رآها ونور، وقتذاك، مطلقة وفاسدة ومفسدة فى آن. فهى فى «الملك هو الملك» (٧٧) سلطة غاشمة، سواء ارتدت ثوبا ديمقراطيا أو ديكتاتوريا، اشتراكيا أو ليبراليا، سلطة تخيل أى صعلوك إلى ملك ظالم، بعد أن تعيد تفكيكه وتركيبه وفق رؤيتها الخاصة للعالم، بل تطمس وعيه بتاريخه وتقصيه عن جماعته وطبقته، وتفصله عن كل أحلامه القديمة.

لقد أوصلت القصص الأسطورية والمجردة ونوس، فى مرحلته الأولى، إلى الابتعاد عن جماهيره، والانزواء فى كهف النخبة، كما أوصلته الحكايات الشعبية والتراثية إلى طريق مسدود، يقف - هو وجماهيره الشعبية - وسط ظلمته غير قادر على تبين الأرض التى يسير عليها، فالأنظمة الاستبدادية ارتدت أقنعة ديمقراطية تبرر بها وجودها غير الشرعى، وتلهى بها جماهيرها عن افتقادها لمشروع وطنى، وتبعدنا عن المطالبة بالعدالة الاجتماعية، وتزيد فى الوقت ذاته من قوة أجهزتها القمعية باستحداث أدوات جديدة لها، وبالتحالف مع التيارات السلفية فى المجتمع، سعيا للإطاحة بكل فكر رافض للانكسار العربى وعامل على تجديد الحلم القديم وعصرته. وقد دفع هذا الوضع ونوس إلى التوقف عن الكتابة لعقد كامل من الزمان، بعد أن حاول إعداد أو استلهام نص بيتر فايس «رحلة السيد موكنبوت» فى نص درامى له باسم «رحلة حنظلة من الغفلة إلى البقطة» (١٩٧٨)، ثم يعاود الكتابة الدرامية باستلهام آخر لنص الكاتب الإسباني أنطونيو بويروباييخو «القصة المزدوجة للدكتور بالمى» فى نص جديد باسم «الاغتصاب» (١٩٨٩) تدور وقائعها فى أجواء القضية الفلسطينية، بعد أن دخلت هذه القضية، فى الواقع، منعطفا جديداً بالاعتراف بالوجود

أنتيجونا» (٦٤)، دون أن ينسى أن يحكى لنا فى العام ذاته عن «مأساة بائع الدبس الفقير» وعن «حكايا جوقة التماثيل» (٦٥)، واصلا إلى أقصى درجات التجريد التى تواجه كارثة الحاضر المحتشمة فى خيوط فجر الهزيمة القادم، وذلك عبر رموز الأساطير الإغريقية المجردة وغير المؤسسة فى وجدان المتلقى العربى، فظل مسرحه وقتذاك هو مسرح النخبة المثقفة.

ونجى هزيمة ١٩٦٧، بعد توقف لنحو العامين عن الكتابة المسرحية، لتصدم هذه النخبة المثقفة، وتدفع ونوس بوعيه التاريخى إلى محاولة التفتيش فى علاقة مجتمع ما بعد الهزيمة بمجتمع ما قبلها، مكتشفا أنه مجتمع واحد يعيش زمناً واحداً، هو زمن الهزيمة، الذى أطاح بحلم التحرر والوحدة القومية والعدالة الاجتماعية، ومكتشفا أن العلاقة بين الرمز الدال (الدرامى / المسرحى) المشحون بكثافة تاريخية، والمداول (الفكرى / الاجتماعى) الزماني الطابع، بحاجة إلى استدعاء الرمز من الموروث العربى المتأصل فى العقل والوجدان العربيين، بدلا من الأساطير الإغريقية والأوروبية، والكشف عن العلاقة بين حكايات الأمس ووقائع اليوم، ونزع الأقنعة عن أبطالها معاً: أبطال الحكايات وأبطال الوقائع، ومواجهة سلطة الموروث والواقع جنباً إلى جنب، فسلطة الواقع السياسية والاجتماعية إنما تسلم نفسها بترسانة من التقاليد والأعراف القادمة من الموروث وسلطته الوجدانية على الجماهير، مما يخلق ستارا ميتافيزيقيا على سلطة الواقع، ويمنح وجودها (الآن) بعداً قديماً لا فتاك منه، فسعى ونوس فى مرحلته الثانية (١٩٦٨ - ١٩٧٨) إلى دفع جمهوره إلى فضاء المسرح ليبحث عن دور له فى هزائم الواقع وانتصاراته، وإن ظل هذا الجمهور (كما) غير ذى ملامح خاصة، يحاول أن يتخلص من الرؤية الرومانسية لموانيق النخبة الثورية المثقفة التى منحت ألقاب المعلم والقائد دون أن تسمح له بقيادة مجتمعه، بل شككت قبلا فى قدرته على الحياة الحققة ذاتها، فزيفت وعيه، وأبقته ساكنا فى صالة المسرح يشاهد الفن المزيف لواقعه، أو تركته صاخبا على كراسى المقهى يستمع للحكايات يقص عليه حكايات من الموروث، مجتزئة ومؤولة وفق سياق الواقع الآن، ثم حينما يهتز هذا الجمهور بفعل الهزيمة، وتحت وطأة أقدام الظلم

قادر على التدخل في الفعل المسرحي، وإعادة صياغة (الحكاية) المروية، وتسيير الحدث الدائر من أجل مصالحه، وهو ما صبا إليه ونوس في أعماله السبعينية، بإدخال جمهور (تمثل) وسط عروضه المسرحية، أملاً في حث الجمهور (الحقيقي) على المشاركة بالحوار ثم بالفعل في وقائع مسرحيته، لكن الثمانينيات أطاحت بهذا الحلم وعجز الفعل (المسرحي) عن تحريك الفعل (الواقعي)، وغاب الحوار بأكمله بين الصالة والمسرح، كما غاب بين المحكوم والحاكم، لتحل محلهما عروض الكباريات المسرحية وثرثرة الأوراق الصحفية.

بين الصالة والمسرح يقف دائماً الفنان باحثاً عن دور له، وبين المحكوم والحاكم ينهض المثقف مفتشاً عن وظيفة له في هذا المجتمع، ومن ثم تبرز معادلة:

الصالة (الجمهور) - الفنان (العمل الفني)  
المسرح (الفن).

كما تبرز مقابلها معادلة:

المحكوم (الشعب) - المثقف (الفئة المستنيرة)  
الحاكم (السلطة).

وتبادل الأسهم اتجاهاتها بين الأطراف الثلاثة من كل معادلة، فالفنان يتوجه بعمله نحو الصالة، لكنه لا ينسى أبداً أنه ينتج فناً ينتمي لهذا النوع المسمى بالمسرح، وله سلطته القوية عليه بفعل شروط الكتابة الدرامية ومتطلبات العرض المسرحي، وتاريخ كل منهما تحققاً في هذا المسرح. كما أن المثقف يبرز أساساً من وسط الطبقة المحكومة ويتوجه بنشاطه الثقافي إليها، إلا أنه لا ينسى أن توجهه هذا مشروط بمنظور السلطة الحاكمة، سياسية كانت أم أخلاقية، ومساحات التمرد عنده - أي عند المثقف - مثلما هي عند الفنان المسرحي في حدود العلاقة بين المحكوم والحاكم داخل ظرفية زمنية معينة، فهو لا يستطيع بمفرده تجاوز الحدود المسموح بها لدى طرفي المعادلة الجمهور/ المسرح، الشعب/ السلطة، وإلا أقيم عليه الحد باعتباره مارقاً وزنديقاً. فالشروط الموضوعية التي تحكم حركة الفنان - المثقف هي شروط

الصهيوني وبحق دولة إسرائيل في العيش في سلام مع من اغتصب جزءاً من أراضيهم، وما ترتب على هذا الاعتراف الرسمي من محاولات ضرب الذاكرة القومية، والعمل إعلامياً وتعليمياً على إعادة تشكيل مكوناتها، ومحو عناصر النضال من أعماقها؛ وخاصة من حمايتها الشعبية، رغم انتفاضة الحجارة التي كانت مثألفة. وكذلك ومحاولة تأثيرها النضالي في ساحة الصراع العربي الإسرائيلي على أرض فلسطين. تزامن مع هذا الوضع تسيد التيارات السلفية التي سيطرت على عقل المجتمع وأجهزته الفاعلة، فضلاً عن سيطرتها على الشارع وحركته، وجزأت الدولة إلى (إمارات) صغيرة محكومة بأمرائها، ومناوئة بسطرتها الطغوية سلطة الأنظمة الحاكمة التي بدأت تنتبه لها، بعد أن فرغت من دعم الاتجاه الإمبريالي لضرب الاتجاهات الاشتراكية في الداخل، ومساندته بالرجال والمال في صورة حليظة دول المنظومة الاشتراكية التي سرعان ما استعلى بذم ذاتها مع بداية التسعينيات، ويعلم معها الأمريكي اليابس الأصل فوكو ياما «نهاية التاريخ»، وبداية عصر جديد يبدأ عند بغزو العراق للكويت وهبوب عاصفة الصحراء، إضافة إلى ما كان يخطط له، بانتهاج القوة العربية بأكملها.

غير أن ونوس الذي يؤمن مع مثقري يسامين بأن «كل عصر لديه آلياته الخاصة لإنتاج الفن»<sup>(٥)</sup>، ما يجعل لكل عمل إبداعى مناخه التاريخي الخاص به، ويكشف عن أن العلاقة بين ما هو خاص وما هو عام في العمل الفني إنما تتحقق في تعينه التاريخي، وهذا التعمين التاريخي هو الذي يضع أية عملية إبداعية داخل سياقها التاريخي، هو سياق تمتد من الماضي إلى الحاضر نحو المستقبل، ذلك الغد القادم المشروط تحقيقه بحركة الحاضر. فالمثقفين، كما يرى أدورنو «ليس مفتوحاً، وإنما هو محدد بالبلد الموضوع الذي يقود الإنسان والمجتمع والتاريخ»<sup>(٥)</sup>. يكتب ونوس في مرحلته الأخيرة أن المسرح وحده غير قادر على «تسييس» مجتمع محاصر بكل قوى الاستبداد، بدءاً من سلطة الحكم إلى سلطة الأعراف، ويدرك - ونوس - أن الاختلال في المسرح، كما في الحياة، بحاجة إلى جمهور مثقف نقاد واعية وليس مجبراً على تغييب وعيه بميتافيزيقا الفكر والإعلام؛ جمهور

هذا الموقف للفنان المثقف هو الذى أرق عقل ونوس  
فى مرحلته الأخيرة، فاستبدل بمعادلته السبعينية التى ركز  
طرفاها على:

الجمهور (الصالة - الشعب) - السلطة (الفن -  
الحاكم).

مواربا دور المثقف الفاعل فى النص الدرامى / العرض  
المسرحى، معادلة: المثقف - السلطة، دون أن ينسى  
الجمهور. غير أنه لم يعد مجرد (شعب) فى المطلق، أو كتلة  
Masa فى الصالة، وإنما أصبح شخصيات حية تلعب دورها  
فى المشهد المسرحى، كما لم تعد السلطة وجودا قديرا، وقوة  
ميتافيزيقية، وإنما أصبحت جهازا مطلوباً ومعبراً عن مصالح  
اجتماعية معينة، أصبحت السلطة رجلا يمكن نزاله وقتله،  
لا فيلا أسطوريا أو رداء. كما أضحي المثقف ليس هو ذلك  
التعلم الذى يقف بعلمه عند حدود الوعى النوعى، وإنما  
ينخل بهذا الوعى فى كل متكامل، ويتحدد دوره فى ضوء  
الإشكالات التى تطرحها طبيعة المرحلة التاريخية التى يعيشها  
ويصارعها. وهى إشكالات، كالسلطة ذاتها، ليست مقدسة  
ومطلقة، وإنما هى وليدة احتياجات اجتماعية معينة، وقابلة  
دائما للحل، وإن استمر وجود بعض الإشكالات من الماضى  
فى الحاضر، لا يعنى ثباتها، وإنما يعنى أن مثقف الأمس لم  
يستطع حلها والإجابة على تساؤلاتها، وأن عودة إشكالات  
بداية القرن فى نهايته، لا تعنى أن التاريخ يعيد نفسه، وإنما  
تعنى أن هناك قوى فى المجتمع تعمل على إيقاف حركة  
التاريخ، وإعادة عقارب الساعة للوراء، وهو فعل مضاد لحركة  
التاريخ ذاتها، حتى لو نجحت هذه القوى فى تحقيقه لبعض  
الوقت، نافية من الساحة القوى الأخرى الراضة لها.

قبل أن ندلف إلى عالم سعد الله ونوس المتجسد فى  
أعماله التسعينية الأخرى، لابد أن نقف عند فقرة مهمة  
أوردها فى مقدمة مسرحيته «الاغتصاب» (١٩٨٩) المعدة  
عن نص الإسباني بايخو، التى يقول فيها «إن إلهام المسرح  
الحقيقى لم يكن فى يوم من الأيام الحكاية بحد ذاتها، وإنما  
المعالجة الجديدة التى تتيح للمتفرج تأمل شرطه التاريخى

صنعها الواقع بفاعلية أطراف المعادلة الثلاثة، وأى تغيير فى  
هذه الشروط يستلزم تغييراً فى علاقة الأطراف الثلاثة بعضها  
ببعض، مع الإدراك بأن كل طرف منها ليس منفرداً بذاته،  
فالجمهور، جمهور المسرح وجمهور الواقع، ليس واحداً أو  
متجانساً، وإنما هو مجموعة من الطبقات والفئات المتباينة فى  
درجة الوعى ونوع المصالحة وهم الحياة، والسلطة ليست  
واحدة، وإنما هى تختلف من بلد لآخر، وحتى داخل البلد  
الواحد هى تحمل فى بنيتها صراعاتها الداخلية، وكذلك  
الفنان - المثقف يتراوح إبداعه بالتالى بين انتصائه  
الإيديولوجى ومواقفه البراجماتية، بين موهبته الإبداعية  
وامتلاكه أدوات حرفته، بين سعيه لتثبيت العالم على ما هو  
عليه ودأبه لتغيير هذا العالم بأكمله لصالح الشرائع  
الاجتماعية المنحاز إليها.

ومع إدراكنا بأن الانحياز، أو لنقل الالتزام بقضايا  
شرائع اجتماعية معينة، وفكر اجتماعى محدد، ليس حكما  
قيما على رؤية الفنان، وليس تقييما جماليا لإبداعه، وإنما  
الحكم القيمى يستلزم تحديد موقف الفنان - المثقف من  
القضايا التى يطرحها عبر فنه، ومدى قدرته على طرح  
التساؤلات الحقيقية والإجابات الحقيقية أيضا، فالفن لا  
يتوقف، كما يرى البعض، عند حد طرح التساؤلات والإ  
كان قاصراً عن أداء وظيفته المتكاملة، فسؤال المعرفة عند  
أوديب أو عند بروميثيوس عندما ينتهى بموت الأول وتكرار  
نهش كبد الثانى فى الدراما الإغريقية، إنما يعنى مصادرة  
فعل التمرد الإنسانى ومحاولة انتزاع المعرفة من الآلهة،  
وتطهير المشاهد من أية نوازع تمردية تخترق التابوهات المقررة  
وقدذاك، لذا كانت الدراما الكلاسيكية دراما محافظة، بعكس  
الدراما الإسبانية التى دفعت «نورا» فى «بيت الدمية» إلى  
الإصرار على سؤال المعرفة، ونزع قناع التقاليد والأعراف التى  
تمنح الرجل وحده حق المعرفة والفعل، بل انتهت المسرحية  
بمزيد من إصرار «نورا» على المعرفة بالخروج من البيت/  
الشرفة، والتحرر من أسر سلطة التقاليد الغاشمة. وهى نهاية،  
كما نعلم جميعا، أزجعت المجتمع (جمهوراً وسلطة)،  
وأجبرت كاتب النص على أن يضيف كلمة أخيرة فى  
المسرحية، حينما أعلنت بطلتها بقوة أنها لن تعود مرة أخرى  
إلى هذا المنزل، فتراجع قائلة: «ربما.. لا أعود».



لذلك، يدفع ونوس بنفسه، بوصفه كاتباً للنص، في المشهد الأخير من مسرحيته «الاغتصاب» المعنون بـ «سفر الخاتمة»، ليحاور باسمه (سعد الله) الدكتور (إبراهيم منوحين)، في عيادته للأمراض النفسية، ويعرض تبريره بتقديم هذا النموذج للإسرائيلي الواقف إلى جوار عدالة القضية الفلسطينية بمعاداته للصهيونية، رغم استمرار عيشه على الأرض المغتصبة، وليعلن ونوس له ولنا - بوصفنا جمهوراً مشاهداً - أن

للصهيونية الآن امتدادها العضوي في النظام العربي الراهن، الذين استسلموا لإسرائيل مائير (العدوانية)، والذين يستعدون للاستسلام لها، الذين يقيمون شعوبهم ويدسونها. الذين يتهبون ثروات هذه البلاد ويددونها .. هؤلاء جميعاً هم بعض امتدادات الصهيونية في الجسد العربي. إن الورطة على ضفتنا معقدة، وإن الخروج منها يقتضي نضالاً مركباً وصعباً (٨).

وعليه، ينطلق ونوس في أعماله التسعينية إلى مجتمعه العربي، مناضلاً نضالاً مركباً وصعباً، في سبيل المشاركة في إخراجها من ورطته التاريخية، وهو - أي ونوس - يؤكد وجوده مؤلفاً على امتداد أول نصوص التسعينيات والمسمى بـ «يوم من زماننا» (٩٣)، الذي يقدم فيه بطله المثقف الصغير، في رحلة نهار طويلة نحو الليل، يكتشف خلالها مدى التهرؤ الحادث في مجتمعه، ويعي عبر رحلته هذه حقيقة واقعه المتردى منذ زمن في هوة الفساد، فاليوم الذي عاشه المعلم بإحدى المدارس الثانوية للبنات، ليس مجرد حكاية عابرة ليوم مقتطع من الزمان، وإنما هي مغامرة أوديسية مريدة ليوم له امتداداته السابقة في أيام الثمانينيات المتحولة، ويرهص بأيام قادمة بحصاد مر. وسعد الله ونوس يصر على ألا تغفل المغامرة من بين يديه كاتباً وشاهداً على هذا اليوم «من زماننا»، فيظهر أمامنا مقدماً ومعلقاً على وقائع الدراما المتجسدة، موجوداً مع بداية كل مشهد من مشاهد المسرحية الخمسة، ورافضاً أن يترك موقعه في فضاء المسرح، في المشهد الخامس، فيجالس أبطاله داخل (مطبخ) منزلهم، مشاهداً في

والوجودي، ويضيف أن الأتنيين القدماء «لم يكونوا يأتون (إلى المسرح) ليسمعوا حكايات جديدة، بل ليتألموا شرطهم الحيواني والاجتماعي في ضوء المعالجات التي يقدمها المسرحيون العظام للحكايات المعروفة». «لأن فسواء تصورنا أن رؤيته هذه كانت مجرد تبرير لاستهلاك (الحكاية) التي يقدمها الكاتب الإسباني في مسرحيته، وإعادة صياغتها أو (معالجتها) في نص جديد، عربي المستوى والقضية والاستهداف، مثلما فعل من قبل في أعماله الصريحة المستلهمة لحكايات من نصوص مسرحية أخرى، أو من التراث الشعبي وأجوائه، فإن ما يهمنا هنا هو: على الكاتب بالشرط التاريخي للكتابة، فالحكاية، تاريخية أو مجهولة المؤلف أو منسوبة لمؤلف معين، إنما تنتمي بضرورة صياغتها إلى شرطها التاريخي. أما نص ونوس المسرحي، والمعتمد على هذه الحكاية، إنما ينتمي إلى شرط تاريخي آخر، يجعل للحكاية القديمة وجوداً جديداً، بنية وأغلاً، الحكاية تنتمي إلى الماضي، والحدث المسرحي الدائر حولها في مسرحه ينتمي إلى الحاضر ويتوجه إليه، والنص الدرامي، بوصفه بنية شكلية، هو تعبير عن بنية إيديولوجية تنتمي للحكاية منظوراً إليها من الموقف الإيديولوجي للكاتب، والدارج ذاتها حينما انبثقت بين الأتنيين القدماء بوصفها نوع (genre) جديد، اعتمدت في بدايتها على الملحمة والشعر الغنائي، «غير أنها ليست بملحمة ولا بشعر غنائي، بل هي نوع ما ثالث، جديد تماماً ومستقل» (٧).

وبسبب هذا الوجود التاريخي للتراث، التي للدلالة، اعتمدت الأولى اعتماداً كاملاً على المادة الحكائية التي صاغت الملحمة قبلاً، وفقاً للأنظمة الاجتماعية الثقافية التي ظهرت خلالها الملحمة، بينما جاءت الدراما في زمن آخر، وداخل بنيات اجتماعية مغايرة تتطلب صياغة هذا النوع الخاص من الكتابة النصية، اتساقاً مع الطبيعة الخاصة للعرض المسرحي، القائم على التجسيد والحوار بين القوي المتصارعة داخل حدث درامي يغير من معالم الشخصية القادمة من (الحكاية) ويمنحها وجوداً جديداً متساقفاً. بنية الحدث الدرامي ورؤية صاحبه المبدع، وهو ما يكشف عن الخصائص الشكلية للدراما وخصائصها المضمونة في وقت واحد.



لبلورة وعى محدد بمشكلات الواقع المحددة، ينطلق ونوس في نصه هذا من موقف عادى لمدرس بمدرسة بنات، حدثت بها مشاجرة بين بنتين، اتهمت الأولى منها الثانية بأنها قوادة، تغوى الطالبات وتدفع بهن إلى بيت دعارة تديره سيدة تدعى «الست فدوى» فتشاجرت معها الأخرى. هو موقف أخلاقي يدفع المدرس فاروق إلى التوجه إلى ناظر المدرسة لحل هذا العراك، فتمة فضيحة أخلاقية على وشك الاندلاع، غير أن ناظر أو مدير المدرسة لا يأبه بهذا الأمر، فلديه فضيحة أخرى توشك أن تدمر مدرسته، ومقعده فيها، وهى فضيحة سياسية، حيث اكتشف أن هناك كتابات بدورات المياه، ليست جنسية كما هو المعتاد، وإنما سياسية تسعى لرئيس البلاد.

واقعتان تفجران الحدث الدرامى، وتدفعان بالشخصية الرئيسية، المدرس فاروق، فى رحلته التصاعدية التى لا بد أن يغلق مع نهايتها هذا الحدث الدرامى الذى فتح بحادثة وانتهى بكارثة، وذلك لأنه يدور فى بنية مكانية لها دلالتها الخاصة، ففرقة الإدارة بالمدرسة، علقت بصورها صورة لرئيس الدولة وهو فى لباس جنرال عسكري، وتحتها يؤكد المدير أن واجباً هو حماية المدرسة «من جرثومة السياسة، وأن أربى الطلاب على الولاء والطاعة»<sup>(١٠)</sup>، وتكشف الدلالة المضمرة والقائمة فى المسافة بين (صورة) الحاكم العسكري فى مدرسة تربية تعليمية و(كلمات) مدير المدرسة، عن الفلسفة التى تحكم هذا المجتمع، وتسلب من مواطنه، منذ التثنية الأولى، حق عدم الموافقة، ناهينا عن حق التمرد، تكرسا لديكتاتورية، بل إن هذه الفلسفة الحاكمة تعيد ترتيب منظومة القيم فى المجتمع كما يتراءى لها، محددة «العابر» منها «الجوهري» وفق مصالحها الخاصة، فالأخلاق والحديث عنها هو ضرب من «الحكايات العرضية» غير المهمة، أما «الجوهري» الحقيقى فهو حماية سلطة الحاكم وعدم لمساس به، والعمل على تربية المواطن موالياً له.

لم يكن المدرس فاروق يعلم هذه الحقيقة، فهو معلم رياضيات صغير، مستقيم فى حياته، ويظن أن مسؤولية المعلم الأولى هى حماية الأخلاق جنباً إلى جنب غرس المفاهيم والمعلومات العلمية فى عقل طلابه، إلا أنه يدخل التجربة مع

(أسى) لحظة انتحارهم، فهو بوصفه مثقفاً واعياً بكم التحولات الحادثة فى المجتمع العربى، لا يستطيع أن يوقف المواجهات الفردية اليأس والواصلة إلى حد الانتحار، التى يقوم بها الشرفاء حينما يعجزون عن تحقيق التكيف مع تحولات البشر إلى ما هو أدنى، فى هذا المجتمع المختل. وهو بوصفه كاتباً يكابد (الحكاية) اليومية الحديثة، التى تسير فى بنيتها حكاية الشاطر حسن الذى قرر أن يترك السير فى طريقى «السلامة» و «الندامة»، وأن يسير بإرادة قوية فى طريق «اللى يروح ما يرجعش»؛ فهو يبنى نصه الدرامى على منطق بنية الحكاية، بادئاً بالراوى/ المؤلف الذى يدخلنا بسرده الوقائع بفعل الكينونة الحكائى فى حالة الماضى «كان» متكرراً: «كان صباحاً غائماً وبارداً. كان صباحاً ككل صباحات أوائل الشتاء. وكانت الساعات تدور»<sup>(٩)</sup>، مكرراً على لسانه الجملة الأخيرة فى مفتتح كل مشهد، للدلالة على حضور الزمان بقوة فى المكان أو الأماكن القليلة التى يتنقل بينها بطل مسرحيتنا، ليس كـ «بطل من زماننا»، وإنما كضحية لهذا الزمان.

وكما كابد ونوس بنية حكاية الشاطر حسن العصرية، وأدخلها فى بنية الدراما عن طريق استخدام الراوى (المؤلف) المقدم لكل مشهد (تمثلى)، فإنه كابد أيضاً المحتوى الدلائلى للحكاية، وأخضعه لرؤيته الواعية بلحظته التاريخية، فنحى عنها النهاية السعيدة، وابتعد عن الغاية الأخلاقية التى تؤكد انتصار الخير على الشر، حالاً محلها نهاية تنفق ومنظوره لحركة الواقع، فالإيديولوجيات السائدة المدمرة للروح والعقل معاً، لا يملك معها الشرفاء إلا فضيلة التمسك بالعقل أو الانتحار خنقاً بالغاز أو حرقاً أو قفزاً من نافذة علوية. ومسير الحدث الدرامى فى هذه المسرحية إنما يصل بنا إلى الموت انتحاراً، استفزازاً للمتلقى/ القارئ/ المشاهد، وتحريضاً له، دون خطابة، على (الوعى) بواقعه، واكتشاف (الجوهر) الحقيقى، مهما كانت مرارته، المختبئ خلف (المظهر) الزائف، مهما كان بريقه، وذلك دون الانسحاق أمامه.

ولأن الوعى التاريخى يعنى الانطلاق من الواقع، لا من فكرة مجردة سابقة التجهيز، ويعنى الانغماس فى الراهن

فيتمجه إلى سراى مدير منطقة المزرعة، والد الفتاة ميسون المتهمة بإغواء بنات المدرسة، وفي مكتب المدير يتعرف فاروق حكاية موظف متمرد، عجز - كما يقول المدير - عن التكيف مع النظام الواقع، الذى تغيرت فيه المبادئ والتصورات، عبر الانفتاح أو باسمه على المنطق الاستهلاكي، وتهميش الأخلاق، وتحويل الإنسان وقيمه إلى سلع تبادلية، وعليه ينتفض هذا الموظف المتمرد صارخاً «الموت ولا التعريض مع دولة هذه الأيام»<sup>(١١)</sup>، وهو أمر يهز فاروق، إلا أن يقينه يزداد اهتزازاً عندما يعرف، من المدير، أن زوجته - أى زوجة فاروق - تذهب هي الأخرى، مع ابنة المدير، إلى بيت (الست فدوى).

لم يعد الواقع أمام فاروق هو ذاته، ولم تعد المدينة هي المدينة، بل «لم يعد الملك هو الملك»، لقد تغير كل شيء، وسقطت الأقفعة عن كل إنسان، وكل فكرة، فلا يجد فاروق مفرأ أمامه سوى الذهاب إلى بيت الغانية، بحثاً عن سر هذه المرأة التى جذبت الجميع إلى شباكها، وصارت أشبه بشهرزاد عسيرة، تدفع الجميع إلى الرذيلة بدلاً من المعرفة، وتميت القيم فى عقول الفتيات بدلاً من أن تنقذ أرواحهن، وتغرق الجميع فى وحل الفساد والرذيلة، ويكتشف فاروق معها أن السر ليس كامناً فى شخصية المرأة، وإنما فى النظام الاجتماعى / الأخلاقى الذى يحكم هذا المجتمع، ويتوارثه جيلاً عن جيل.

وتنقسم بنية الحكاية إلى حكايات صغيرة تكمل دلالاتها، فبعد التوقف عند حكاية الموظف رافض الفساد فى أحد أجهزة الحكومة، يضعنا المؤلف / الراوى أمام حكاية (الست فدوى)، مقدماً إياها فى لعبة تشخيص، تقوم بها المرأة ووصيفتها، أشبه بلعبة تشخيص المواجه واستعداداتها عند صلاح عبدالصبور فى مسرحيته «الأميرة تنتظر»، حيث تستعيد المرأتان الماضى، ليس محكياً أو مسروداً فى مونولوج طويل، وإنما من خلال إعادة (تمثيل) ما حدث، حينما كانت فدوى طالبة بالجامعة، ودخلت مع زميل لها قصة حب كئيبة، أسرع أهلها لتزويجها زواجاً عائلياً مرتباً، غير أن الزوج يكتشف ليلة الزفاف أن عروسه غير عذراء، فيعاملها على أنها سلعة اشتراها مغشوشة من السوق، لذا يروح فى

هذه الحادثة التى فجرت أمامه السؤال تلوى السؤال. ورغم أن ونوس يضع فى حبكة الدرامية خطين سيرى فى البداية فى مسارين متباعدين، وإن كان لابد من التقاطعهما فيما بعد، وهو خط الفتاة المتهمة أخلاقياً بإغواء الفتيات الصغيرات إلى الذهاب إلى بيت الدعارة وخط آخر لفتاة أخرى، قبضت عليها إحدى الموجهات، وهى تحمل كتاب «صبايع الاستبداد» لعبد الرحمن الكواكبي، وتقرباً منه، بل تضع خطوطاً تحت أسطر مهمة فيه تدين الحاكم المستبد وتنتعه بأنه عدو للحق، إلا أن ونوس يترك هذا الخط الثانى (السياسى)، مكتفياً بتحويل الفتاة إلى التحقيق، فى نهاية المشهد الأول، دافعاً إيانا للتحرك مع معلمه التربوى حلف المسألة الأخلاقية، مصاحبين له فى رحلته للإمساك بالوعى التاريخى بعيداً عن خلط اللاهوتى بالأخلاقى، وهى رحلة تشكلياً بتوجه المدرس / المثقف الصغير للبحث عن جادة لسؤال المعرفة «ما الذى يحدث فى هذا المجتمع؟» إلى شيع الجامع الشهير الذى دثنته وسائل الإعلام مفكراً دينياً، ممثلاً صوت الجميع، يتسلل عبر برامجها الإذاعية والتلفزيونية إلى عقول العامة، ومنهم المعلم (فاروق)، ليفرقهم فى مساحات ثانوية وعرضية، ويبعدهم عن مناقشة كل ما هو جوهري فى حياتهم، ولذلك فهو لا يجيب عن سؤال فاروق بالكشف عن أسباب الفساد فى المجتمع، وإنما بملحة أفكاره عن العلم الذى تعلمه، والمدارس التى يعمل بها، وهى عنه الموبقات بعينها؛ فضلاً عن دفاعه عن الغانية (الست فدوى)؛ لأنها رفعت بمالها مآذن الجامع، وهى تعاقب فى الهبات والصدقات، وليس مهماً لديه من أى معنى أنت بهذا المال الذى تنصق به.

لقد بدأ يقين فاروق بالعالم الذى يعيشه يهتز، لقد غشت الدعارة المدرسة التى آمن بدورها التمدنى من المجتمع، وراح مدير المدرسة، وشيخ الجامع يدافعان عن المرأة الموصومة بفعل الدعارة، بل إن أهل الحي أنفسهم سجدوا عن الخوض فى الحديث عن بيت هذه المرأة بعد هياج فئدة منهم ضده، ومن ثم بدأ فاروق يكتشف أنه صار «حيداً»، يسير فى نفق وحيد الاتجاه أيضاً، نفق اللاعودة، ومن ثم يصير على الاستمرار فى المضى خوفاً فيه، بحثاً عن المعرفة الحنيفية،

يستعدهما ليل نهار، مجتمع يخبي عوراته خلف الأفتنة، ويحلم البعض منه بمخلص قادر على نزع تلك الأفتنة، ومواجهة زمنه بحقائقه.

هذا المخلص له مواصفاته عند ونوس، التي تشكل نموذج المثقف الشائر المنتمى إلى جماهيره دون رومانسية، والمواجه للسلطة دون غوغائية، هو إنسان يرفض التهميش ويدرك واقعه إدراكاً صحيحاً، ويعمل عقله للإمساك بقوانين هذا الواقع، ويرى زمنه بمنهج تاريخي لا يفصل قطرة الماء عن بحرهما، وينكر على أية سلطة إلغاء وجوده بوصفه حقاً وإرادة، فاصلاً دوره في المجتمع عن بنية السلطة، وكل سلطة، بما فيها سلطة التقاليد والأعراف، وواعياً بعلاقة التفاعل بين صيرورة الواقع (المكاني / المحلي) وصيرورة الحضارة (الزمانية / الإنسانية)، ومؤمناً بأن خطابه الثقافي إلى مجتمعه يتطلب منه نزاهة وشجاعة وتجرداً وقدرة فائقة على تحمل المسؤولية، وإلا أصبح محض حلم عند البعض، ووهماً عند البعض الآخر، كما قدمه ونوس في نصه الدرامي التالي «أحلام شقية» (١٩٩٤)، مجرد حلم عابر في سماء مجتمع النص، يثير أحلام بسطائه في الانعتاق من سلطة التقاليد، ثم يختفي مطروداً بقوة أصحاب هذه السلطة والمقيدين منها.

تعد فكرة (الوصول والرحيل) إحدى الأفكار الرئيسية لأشهر الموضوعات (التييمات) الدرامية في العالم، فوصول إنسان ما من خارج المكان إلى داخله يحدث توتراً غير معتاد في شبكة علاقات شخصياته، ويشكل متغيراً جديداً يصنع حبكة (Plot) trama النص الدرامي، ويدفع بوقائع وأفعال جديدة إلى ساحة المكان، هكذا كان قدوم (أوديب) من كورنث إلى طيبة، عند سوفوكليس ومن سار على دربه، وهكذا كان وصول (مهاجر برسان) عند جورج شحادة، ووصول (على جناح التيريزي وتابعه قفه) إلى بلاد الصين عند ألفريد فرج، وكذلك كان رحيل الأول والثالث عن المكان: بالنفى الإرادي أو بالهروب من الموت، يعد نقطة الختام في الحبكة الدرامية والحدث الدرامي معاً. وهكذا كان الحال مع المفتي (بشير) المثقف العاشق للشعر إلى البيت العربي الصغير في «أحلام شقية»، الذي يضم زوجين من

اليوم التالي مساوماً إياها ببراجماتية، فبدلاً من أن يطلب ذبحها أو تطليقها، يطلب من الأب، حفاظاً على سر عدم عفاف ابنته أمام الناس، تعويضاً يعادل نصف تجارة الأب، ويقبل الأخير، ويعلن الأول على الجميع عذرية الفتاة قبل الزواج، وترم الصورة المظهرية للزواج، غير أن فدوى تشعر بالمهانة والغشيان، ووسط هذا الإحساس تولد فدوى أخرى تتفق وشروط النظام السائد: امرأة (سلعة) حقيقية، تتألق فتنة وإغراء، شهزاد جديدة، تعي آليات السوق، وتدرك أن الإنسان قد أصبح بائعاً أو مشترياً، نخاساً أو مملوكاً، وصارت هي النخاس في عصر النبر - ممالك.

لم يجد فاروق لنفسه مكاناً في هذا العصر، ولم يقبل معطياته، ورفض منطلق زواجه التي مارست الدعارة باسم حماية البيت من الفقر، والخوف من الحرمان. لقد تكيفت هي مع التيار، أما هو فما زال يغنى خارج السرب، ولا يملك إزاء ذلك سوى الموت انتحاراً بالغاز، بعد أن سقط (النقاب) عن وجه العالم، وصار دميماً. وتطلب هي أن تموت معه، فرغم تلوث جسدها فإنها ترى أن روحها ما زالت نقية، ويموتان معاً مؤكدين مقولة موظف المديرية «الموت ولا التعريض مع دولة هذه الأيام».

لقد وضع الحدث الدرامي نقطة الختام له بالموت انتحاراً، عقب الوصول إلى نقطة المعرفة الفاصلة بين وعى مغيب ووعى صحيح بالواقع المعيش. كما جاءت النهاية منطقية، فالموت بسبب عدم القدرة على التكيف، هو النتيجة الطبيعية لاستبداد السلطة السياسية، وفساد السلطة الأخلاقية، وإرهاب السلطة الميتافيزيقية، وانهيار القيم في ظل نظام السوق الحر، لقد انهزم المثقف هنا، المعلم الصغير، أمام السلطة بأشكالها كافة، واختلت المعادلة بعد انسحابه يأساً من الحياة، تاركاً الطاغوت يحكم العالم، ويزيف حركته، ويغطي عوراته بأفتنة براق، وينسف أى أمل في التحاور بين أطراف أية معادلة، وذلك بإنكاره وجود الطرف الآخر من المعادلة، خاصة مع ضعف هذا الطرف الآخر: العقلاني والمستنير وسقوطه السريع في التهميش أو اليأس وسط مجتمع يعانى من الانقسام بين الفكر المتخلف والتكنولوجيا المتقدمة التي

لأدوات الإنتاج، لم يمنحها التحرر من الرجل الذي ترفضه،  
فسلطة التقاليد أقوى منها، ووعيتها مزيف أمام نظام يمنح  
الرجل على المرأة حق الطاعة.

في الغرفة المقابلة، تسكن (غادة) وزوجها المساعد في  
الجيش (كاظم)، لقد منحها هذا العسكري الابن (ثائر)،  
لكنها لم تجد حريتها معه، بل أصبح الابن هو العائق أمام  
تحررها حتى بالموت من ذلك العسكري الجلف المتأله التي  
كانت ترضى أن يضربها ويهينها، رغم أنها حاصلة على  
شهادة تعليمية أعلى منه، وهي تشارك سميتها «ماري» في  
التقزز من الممارسة الجنسية مع الزوج، مثلما تقززت  
(فدوى)، عاهرة «يوم من زماننا» من ممارسة الجنس للمرة  
الأولى مع زوجها، فالنساء الثلاث يستعدن أماننا مشهد  
الممارسة الأولى للجنس مع الزوج، بصورة واحدة، خاصة  
بالنسبة إلى (غادة) و(فدوى) حيث تمتزج شهوة الجنس  
بشراعة التهام الطعام. في مشهد الأولى (غادة)، حيث  
يجلس الزوج «وأمامه طبق من القش عليه صحون مازة  
وفروج مشوى وكأس عرق»<sup>(١٤)</sup>، وبعد أن يأكل يحارس  
معها الجنس، ثم يضربها ويجبرها على الأكل معه، رغم  
تقززها من الجنس والطعام بهذه الطريقة، وقبلها وصفت  
(فدوى) المشهد عقب الممارسة الأولى كالتالي:

كنت متكورة في فراشي، كانت العملية مقرفة  
وسريعة، كان قد نهض كالفاخ. تناول طبقا فيه  
أفخاذ دجاج وفطائر وأشياء أخرى، جلس على  
حافة السرير عاريا، وضع رجلا على رجل، وملأ  
فمه بفطيرة<sup>(١٥)</sup>.

ثم يسعى بعد أن يأكل إلى مضاجعتها مرة أخرى.  
شعور بالتقزز من الجنس أصاب (فدوى) و(غادة) وكذلك  
(ماري)، التي تقول عن ليلة زفافها الأولى: «كنت أتعفن  
ولا أفهم لماذا!»<sup>(١٦)</sup> فقد كان الجنس، بالنسبة إلى الثلاث،  
هو اعتلاء لرجل لا يعرفن عنه شيئا سوى أنه الزوج، كان  
علاقة بلا حب، علاقة فرضها الأهل على البنت لسترها،  
خوفا من حب لغريب في حالة (فدوى)، أو رعبا من  
العنوسة، في حالة (ماري)، أو درءا لتمررد قادم على ظهر  
الثقافة بالنسبة للثالثة (غادة).

البشر، يشكلان تنوعين على نمط واحد من علاقات  
الأسرية في المجتمع العربي الخاضعة لسلطة التقاليد. والأعراف  
المدعمة بفكر ذكوري طاغ.

يعود بنا ونوس، بوقائع نصه الدرامي، إلى نحو ثلاثين  
عاما خلت، حيث يدور الحدث الدرامي في «حريف عام  
١٩٦٣ عقب مجموعة الانقلابات والاستلامات المضادة التي  
تلت الانفصال المأسوي لسوريا عن دولة الوحدة العربية الأولى  
في العصر الحديث، وسيطرة الحكم والمكر الماشي على  
البلاد، رغم روح التحرر التي كانت سائدة في العالم عامة،  
والعالم الثالث خاصة، وقتذاك. ويشير النص الموازي للنص  
الحواري<sup>(١٧)</sup> بأن المهم في صياغة المسرح المسرحي الذي  
يدور فيه الحدث الدرامي والحفاظ على الصياغة يوحى بهما  
البيت: الانطلاق والضيق»<sup>(١٨)</sup>، ومع ذلك فحركة وقائع  
الدراما لا تنشئ إلا بالضيق الذي يحيط بالبيت وبأبطاله، أما  
الانطلاق فيظل مجرد حلم سابح في «المساحة السماوية  
الضيقة» التي تتوسط الغرفتين اللتين تشعلان الدخان السفلى  
من البيت، في وضع متقابل، بينما هناك درج صاعد إلى  
أعلى، حيث الغرفة التي يعيش فيها العرب القادم ليقيم  
الراكدة تحت سطح هذا البيت.

في الغرفة الأولى تسكن «ماري» وزوجها «فارس»،  
عجوزان يعيشان متباعدين، يلفهما البرد، ولا يبصران  
بعضهما البعض، تحت ضوء (النوسة) الصفراء. لم ينجبا،  
وبدلاً من أن يمنح «فارس» زوجته «ماري» لابن، أوروئها  
المرض الذي جلبه إلى البيت من لقاء العائيات، وهي في  
تعلقها بالطفل المفقود، ترى في الغريب القادم ذلك الابن  
الذي لا ترى لحياتها، كأي امرأة قلبيبة، مدركاً سوى في  
وجوده، تكون وتقوى به، ويخفف عنها بعضاً من الشقاء  
الذي قاسته مع الزوج، وهي صامتة راضية لقد فجر وصول  
الغريب في أعماقها نوازع التمرد على الزوج ونزع عنها  
قناع الرضاء للرجل الذي تمقته ولتقاليد التي أجبرتها على  
الزواج به دون حب، والعيش معه في فقر وتقزز، رغم أنها  
صاحبة البيت وماكينة الخياطة التي يعيشان من عملها  
عليها، فاقتصاد البيت هي صاحبه، وهذا لا عمل له، مجرد  
(رمة)، ومع ذلك فالتحرر الاقتصادي حده، أو امتلاكها



الذى نعيشه على ضوئه. فضلاً عن أن تقنية اللعب التشخيصى هذه تكسر انفعالنا الوجداني الطاغى بالموقف الدرامى، وتبعدنا، وفق المنهج البريشتى، عن التعاطف معه، فتحقق لنا مسافة البعد للحكم الموضوعى العقلانى عليه، فالموقف الميلودرامى الذى روته (الست فدوى) عن هزيمتها ليلة زفاف الأولى أمام زوجها، لا يبرر ارتعائها فى حضن الغواية، وتحولها إلى مهنة الدعارة، وقد ساعدتنا لعبة تشخيص هذا الموقف الميلودرامى، بدلاً من سرده فى مسونولوج ذاتى الطابع، فى عدم الوقوع فى منزلق التبرير لسقوط هذه السيدة، كما أن حضور المؤلف لحظة انتحار (فاروق) وزوجته فى مطبخهما، إنما ترك لنا المسافة المطلوبة لرؤية هذا الموقف، بوصفه مشهداً تمثلياً فى إحدى قاعات المحاكمات، مما يسمح بالحكم العقلى على هذا المصير الذى اختاره المثقف المحبط، متسائلين: هل الانتحار هو الحل البديل لسقوط المثقف فى زمن التراجع عن الأحلام؟

وفى نصه الدرامى (ملحمة السراب) (١٩٩٥) لا يتخلى ونوس عن هذه الأساليب التقنية التى استخدمها فى أعماله السابقة على المرحلة الأخيرة، حيث يستخدم هنا أسلوب العنونة، سواء - كما يشير فى نصه الموازى - «عبر أداء الممثل، أو عبر لافتة مكتوبة تقدم الفصل، أو تكون جزءاً من ديكور مشاهدته المتوالية»<sup>(١٧)</sup>، وذلك بغرض كسر بعض لحظات الإيهام فى العرض المسرحى، ولا نقول القراءة للنص الدرامى، وهو بعض مما أخذ واستوعبه ونوس عن المسرح الملحمى عند بريشت والمسرح التسجيلى عند بيتر فايس، واستخدمه فى مسرح السبعينيات التحريضى، ثم أفاد منه فى مسرح التسعينيات الحدائى، الذى تسرى فى أعطافه أنفاس عبثية وتعبيرية، سواء فى الصيغة الحوارية لأعماله، ويبدو ذلك جلياً فى المشهد الأول من «أحلام شقية» وحديث العجوزين عن ابن لا وجود له، أو فى بنية المشهد المسرحى، ويتجلى ذلك فى مشهد الافتتاح لـ «ملحمة السراب»، حيث نلتقى بفاوست عصرى، يدعى (عبود الفاوى) وخادمه وسيد وشيطانه فى آن، إنه أيضاً ميفيستوفيليس حديث يبدو على هيئة خادم أحذب، يظهر مع السيد (عبود) فى مكان يصعب تمييز ملامحه «ولعل الشئ الوحيد الذى يستوقف الانتباه، هو

كان التعلم طريقاً للثقافة، وكان عشق الشعر، وشعر السياب الشورى، طريقاً للتمرد أمام (غادة)، لكن سلطة الأب وتقاليدها كسرتها بسرعة، خاصة بعد أن خذلها الأخ، المثقف المتمرد، الهارب الخارج، ولذا رأت (غادة) فى الغريب القادم إلى المنزل، وجهاً للأخ المثقف، وبديلاً للمحب الغائب، فعاشت فى حلمها معه حياة جديدة. لقد أضحى المثقف الغريب لـ (غادة) الحياة المفقودة، كما أمسى للعجوز (مارى) الابن الذى تموت راضية بين يديه، بينما هو - كإنسان - قد جاء إلى هذا البيت هارباً من سلطة تقاليد مطاردة له، فقد فقدت أخته الريفية عذريتها، ودفعه الأب، بصفته الابن الأكبر، إلى تحمل مسؤولية تطهير العائلة من الفضيحة المرتقبة بقتلها، لكنه يتخاذل أمامها، ليس فقط بوصفها أختاً، وإنما أنثى يعشقها، فتقرر هى أن تموت غرقاً فى النهر، تقبلاً لتقاليد عاتية، ويأساً من وقوف أخ بجانبها.

هكذا كان موقف الأخ (المثقف) من أخته، وهو الموقف ذاته الذى سيفقه من عاشقته (غادة)، بقبول الطرد من المكان، بإرادة العسكرية (كاظم) وتابعه (فارس)، هو هروب جديد، مثلما هرب هو قبلاً من مساعدته أخته، وهرب أخو (غادة) من مساعدتها، وهو هروب دائم يكشف عن انكسار المثقف هنا أمام سلطة التقاليد والأعراف، فلا تجد المرأتان مفراً من محاولة تخليص نفسيهما إلا بالتخطيط لقتل الزوجين، بدس السم فى طعامهما، غير أن المصادفة تجعل الطفل (نائر) هو الذى يلتهم السموم أولاً فيموت، لتنتهى المسرحية بفاجعة تكشف عن أن الحلول الفردية غير مجدية وغير منقذة للمجتمع من سلطة التقاليد المدعومة بسلطة التجهل وسلطة العسكر التى تشوه كل جمال وتفتال كل حلم.

مازال العالم مهزوماً عند ونوس، سواء فى مرحلتيه الأوليين أو مرحلته الأخيرة هذه، ومازال بعض من تقنياته القديمة مستمراً فى أعماله الأخيرة، خاصة تقنية اللعب أو التشخيص التى تمسرح الحكاية، وتمنح السرد وجوداً حوارياً، كما تمنح الماضى (المحكى) وجوداً آنياً (حاضراً)، فنعيش التاريخ، قديمه وحديثه، زمناً مضارعاً ما زال فى حاجة للفعل من أجل إعادة فحصه وتأويله وكشف الواقع المرير



الرغبة ذات البعد الاجتماعي / التاريخي رغبة أخرى ذات ظلال ميتافيزيقية، فهي عودة متكررة للوحش الأسطوري للقرية التي على أهلها أن يعدوا له عذراء حسناء يلتهمها فى كل مرة كى يعيش، و(عبود الغاوى) كوحش واقعى يعود إلى بلده عارفاً بطبيعة هذا البلد وظروفه الاقتصادية وعقلية أهله وظرفهم الزماني الذى يتحول فيه البلد من نظام إلى آخر، مما يعنى للرأسمالى القادم، كما يقول (الغاوى) لشيطنه، «تسهيلات يصعب أن نجد لها فى بلد لا نعرفه». (٢٢) كما أنه يعرف أيضاً أن مرحلة التحول والدخول لزمن الانفتاح والخصخصة المتسارعة، قد أحلت المال محل القيم الأخلاقية، وحولت الإنسان إلى سلعة قابلة للتبادل، وأن بريق المال لم يعد يعنى أبصار الرجال فقط، بل أيضاً بصر البنت المطلوبة للتضحية بنفسها باسم الزواج الشرعى، وبالتالي فهو يدرك جيداً مدى نجاحه المرتقب، وأن أية صعوبة ستواجهه، سيقدر على تذليلها بحاله وشیطنه.

يهبط (عبود الغاوى) إلى القرية، ليدخل فى شبكة علاقات متسعة، فالكاتب لم يعد يتعامل مع شخصيات مسرحية بشكل نمطى، يحد من مساحة التعدد اللونى، وإنما أصبح يرى خلف كل شخصية ملمحاً إنسانياً خاصاً بها يفارقها عن الشخصيات الأخرى، حتى لو اتفقت فى الكثير مع البعض المشابه، وعليه يضعنا ونوس فى المشهد الثانى من الفصل الأول، عقب ظهور البصارة القديمة (مريم) الملقبة بالزرقاء تيمناً بسميتها القديمة زرقاء اليحامة. غير أن بصارة اليوم قد فقدت قدرتها على الإبصار، ناهينا عن حدثه، ونعرف من حديثها مع امرأة تدعى (فاطمة الموعى) أن أخت (عبود الغاوى) الحيزبون (زنوب) قد اختارت له الصبية (رباب) ابنة (ياسين) لكى تكون ضحيته القادمة، ولذا فإن المشهد التالى لذلك (الثانى من الفصل الأول) لابد أن يكون بالضرورة بمنزل (ياسين) حيث يظهر أماننا مع زوجته (فضة) بيت فقير، فياسين مجرد شاعر، أورثه أبوه كرم تين محاطاً بالصخور، ولم يعلم سوى ارجال المواويل والغناء عنى الرابية، لذا لم يمتلك سوى مهنة تلاشت اليوم فى عصر البث الإذاعى والتليفزيونى والأقمار الصناعية، فانتهى زمن الراوى (الشاعر) الذى يعبر عن هموم أهله وأشواقهم فى

مزهرية سوداء فيها وردة ضخمة صفراء اللون، ولكن الذبول يجعل الصفرة تنحل إلى ألوان بنية، تتساقط أوراق الزهرة بإيقاع غريب، وصوت يشبه جرس زجاجى صغيراً (١٨)، وهى ذاتها المزهرة التى ستظهر فى المشهد قبل الأخير، فى مكتب السيد (عبود العيسرى)، غير أن وردتها الصفراء ستكون نضرة الأوراق واللون، فالمسرحية ستقدم لنا حكاية فاوست عربى حديث، دوست باع نفسه للشيطان ليس كفauست الإسباني (الغنى (تيربانو) المثقف الباحث عن الحقيقة المطلقة (١٩)، ليس مدفوعاً ب «بريق المعرفة، كما هو شأن فاوست عند حوته» (٢٠). وإنما بحثاً عن كلية المتعة، ومطلقية القوة المسيطرة على العالم كفauست كريستوفر مارلو، فهو يتوق إلى «ثلاث نقيش» يتراكم كالبلولوات مختزلاً المصانع والأراضى «المحتككات» (٢١)، وهو أمر من الصعب تحقيقه، حتى فى مثل آليات السوق الطبيعية، وإنما يتطلب تحالفاً مع الشيطان تمحويل المستحيل إلى ممكن يسير فى الشوارع، كما تتطلب قلبه رجلاً ليس برأسه أوهايم، وخلا قلبه من أية شفقة أو حسرة، واستلأت نفسه بإرادة القوة، وكان هذا هو (عبود الغاوى) الذى يقيد فى ليلة جليدية حلفاً مع الشيطان، من أجل استحضار قوى الحياة والاستمتاع بمباهجها، على أن يحدد الشيطان قواد كلفاً وهنت أو خارت، وذلك بمدة بد «دعاء قلبه طارئة»، يهتبلها من نساء وطنه، وذلك بالزواج من إحدى فتيات قريته الياوانات، وبعد أن يستنزف دماءها وإنسانيتها بعيداً إلى أهلها «مطلقة باثرة»، عائشاً زمناً بما استمد منها من قوة، ثم يعود مرة أخرى إلى قريته/وطنه من مهجره البعيد، بحثاً عن أخرى.

تبدأ حبكة مسرحيتنا بالعودة الثالثة لـ (عبود الغاوى)، بحثاً عن زوجة شابة جديدة، وعملاً على إفساد مجتمعه، حاملاً بأبعامه رغبة عميقة فى الانقسام من هذا المجتمع رغبة لها بعد اجتماعى، يبدو فيها كعبية مسرحية دورنمات (زيارة السيدة العجوز) العائدة إلى قريتها بعد غياب للانتقام من أهلها الذين ظلموها شابة، وهو الآن ترى عربى عجوز يود الانتقام من مجتمع أهانه فقيراً، أو كان هو يشعر بالإهانة لفقره أمام أهله الذين كانوا أكثر ثراء منه كما تمتزج بهذه

أسرة (ياسين)، هنا، هي عينة نموذجية للمجتمع الذى يهبط إليه (عبود الغاوى)، تكشف عن التخلخل والتشرد فى الواقع الساعى (الغاوى) للسيطرة عليه، وهو تخلخل أصاب بنية المجتمع ذاتها، مما انعكس بالضرورة على مجتمع النص، لذلك، اجتمع أعيان القرية ومثلوها على رفض تزويج بناتهن للغاوى، لكنهم سرعان ما يتراجعون أمام عرضه إقامة مشروع مجمع سياحى بالقرية، مدغم بسلطة البلاد فى العاصمة، ومحقق الخير لسادة القرية، خاصة وأنه يصحب عرضه هذا عرضاً آخر لشراء الأرض التى سيقام عليها المشروع بستة أضعاف ثمنها، وهو ما يسيل لعاب الجميع له، ويبدأ التحول فى المواقف والسقوط لمن تمسك يوماً بقيم الحفاظ على الأرض والعرض.

«وكما فعلت سيدة دورنمات العجوز فى المسرح، وفعلت إسرائيل فى الواقع، يبدأ مخطط السيطرة على المكان، بقوة وجبروت القادى، وضعف وخور القائم فيه والممتلك تاريخاً وحققاً ووجوداً له، ويتم بيع الأراضى الذى «يشير فى القرية هيجانات وصدادات» كما يقول عنوان الفصل الثانى، ويقبل (يوسف العلونى) البقال الصغير أن يدخل فى «شراكة» مع (الغاوى) لتوسيع دكانه وتجارته، ويقبل (ياسين) الشاعر أن يبيع نفسه وفنه إلى (الغاوى) لكي يحمله معه إلى العاصمة، ليسجل له مواويله الشعبية على أشرطة، يحملها معه إلى الخارج بحجة أن الجالية العربية هناك متعطشة لهذا اللون من الفن الشعبى؛ لقد سقط قناع (ياسين) الأخلاقى أمام بريق المال. وأمام هذه القوة الشرسة القادمة لشراء كل شىء، وموافقة الغالبية على البيع، يقرر العمدة (المختار) أن يبيع أرضه، ويبارك (عباس) شيخ القرية البيع، ويقتل الأخ الانتهازى (مروان) أخاه الأمين (أمين) بالرصاص لمعارضة الثانى رغبة الأول فى بيع أرضهما، وتأخذ البلدة فى التبدل والتحول، مع التقدم فى بناء المدينة السياحية، خاصة وهى تضم سوقاً كبيرة (سوبر ماركت) يباع فيها كل شىء، حتى القيم والأعراف الأخلاقية، ف (يوسف) البقال، الذى أصبح دكانه وتجارته جزءاً من (السوبر ماركت) يطلب من زوجته (فاطمة) البائعة معه بالخل أن تبدو كعاهرة لجذب مزيد من الزبائن، وذلك باسم

مواويل شعبية صافية، ليحل محله الإعلامى الذى يدشن أفكار السلطة ويصوغها فى أشكال غنائية زائفة، و(ياسين) الشاعر المغنى الصادق والمتشكك فى إهاب (ياسين المصرى) بتنوعاته المختلفة بين الموال والقصة والمسرحية والفيلم السينمائى، يتصادم مع واقعه، يرفض أن يترك مهنته التى يعشقها ويجد نفسه فيها، ويفرض أن يكون نخاساً يبيع ابنته ذات الثمانى عشرة ربيعاً إلى كهل فى الستين من عمره من أجل المال، بينما توافق زوجته (فضة) على هذه الزيجة مسaire للزمن اللقيم، واتساقاً مع نفسها الخائنة، فهى تعيش حالة خيانة مع الثرى (عبدالرحمن الدرويش) أحد وجهاء القرية وتحلم بالشراء والثياب الجميلة وممارسة الحب فى فراش واسع نظيف، كما تحمل فى أعماقها حكاية قديمة عن عجز الزوج عن الدخول بها ليلة زفافهما الأولى، فقامت هى بتعزيز بكارتها بإبهاهما لتجنبه الإذلال، ولإثبات رجولته أمام مجتمع قريتها، ورغم أنه دخل بها بعد ذلك، وأنجب منها ابنتهما (رباب) إلا أنها لا تنسى له ليلة الزفاف، كما ترفض منه ذلك التمسك بقيم انهارت ومهنة تلاشت، بينما هو يحمل فى أعماقه حكاية حياتها المستمرة له، وتحمله الهوان حماية للأبناء وعجزاً لفقره عن قدرته على تلبية احتياجات بيته ومطالب زوجته.

وبين برجماتية (فضة) اللاأخلاقية، وميكافيلية (ياسين) الساقطة فى عدم الأخلاق، عاشت ابنتهما (رباب)، وترت على أفكارهما وشجارهما، أحبت الفتى (بسام) الراضى) معلم المدرسة، وأحبت كلامه الثورى «عن المساواة بين الرجل والمرأة، والعمل المشترك ضد الأفكار البالية، والتقاليد المتخلفة»<sup>(٢٣)</sup>، فهو مثقف آخر، صورة أولية من معلم المدرسة المثقف (فاروق) فى «يوم من زماننا»، غير أن تنشئتها الاجتماعية، والمناخ الاقتصادى المحيط بها، والأجواء التى يصنعها حوله (عبود الغاوى) تجعلها تتردد فى قبول خطبة (بسام) لها، خاصة وهى تشعر فى أعماقها بروح الغواية، تقول له: «مازلت صغيرة يا بسام، ومشاعرى تموج متغيرة كتنقلبات الريح، إن لدى أحلاماً كثيرة، وأحياناً أحس أن الدنيا أضيق من أن تتسع لطموحى وإمكانياتى»<sup>(٢٤)</sup>، فهى تحلم بالسفر بعيداً والتحقق بالفن أو غيره.

تقوى المثقف بحب الإنسانية المؤمنة به، ويعطف المرأة المتبصرة والمدركة بأنه «ذات يوم سيلمس الناس أن ما تدافعوا نحوه، لم يكن إلا الموت والخراب، وعندئذ سيحتاجون من يزودهم بالمعرفة، ويذلهم على مخرج» (٢٥) لذلك، لم ينكسر هذا المثقف أمام سلطة المال، وأدرك أن نزع الأتمة عن الوجوه يكشف عن الحقائق المخفية خلف المظهر البراق، كما أدرك أن الجوهر، مهما كان مؤلماً، هو الصحيح والصحي للمجتمع، ومن ثم استطاع مثقف «ملحمة السراب» أن يتجاوز محنة هزيمة مثقف «يوم من زماننا» فلا ينتحر مثله، ربما لأن الخيانة لم تصل بعد إلى بيته، فلم نخونه الزوجة، وإنما تركته المحبوبة، وسرعان ما وجد أخرى تقف إلى جانبه، وكذلك كان مثقفنا هنا أقوى من مثقف «أحلام شقية» الذى ترك ساحة الصراع، راضياً بالطرده والإخراج من المكان حماية لنفسه من الموت، على حين أصر مثقف «ملحمة السراب» على البقاء والمواجهة لأسس التخريب فى المجتمع، والعمل على تصحيح الوعى بين ناسه، هذا الوعى المغيب والقاتل لكل من يعمل على إيقاظه، رغم اغتيال البصارة (مريم الزرقاء) ضرباً بأيدي الناس، ورغم تأكيد (بسام) لـ (فاطمة) بأنه «يبدو أن أماننا ليلاً طويلاً يا فاطمة» (٢٦)، فإنهما معاً يصران على المضى فى الطريق المؤدى لإيقاظ وعى الناس، فهو بالحنم «طريق السلامة» رغم وعورته.

أصبح للشخصيات، فى دراما ونوس الأخيرة، حياة أكثر تبلوراً وخصوصية، لم تعد مجرد أبواب لأفكار مطلقة، وإنما صارت وجوداً حياً ومتمايزاً، تعيش على أرض الواقع، وتلتحف بأردية تعبيرية تعمق من دلالاتها، فتسمو بها إلى درجة الكلية، دون أن تقع فى التجريد المخل، يتسلل التعبير المباشر إلى أفواهها، لكنها تظل تعبر عن نفسها فى الأغلب الأعم، تكتنفها الظلال الأسطورية، غير أنها لا تبرح واقعها وتنشئ بزمانها ووقائع هذا الزمان الغادر، متحركة داخل بنية درامية أكثف، وحركة وإيقاع أسرع، فضلاً عن قدرة أعمق على استيعاب رؤية ونوس الشاقبة والعميقة رغم شفافيتها الرائقة.

«المرونة والكياسة»، وزوجتا (عبود) السيد نقى (زهية) و(كريمة) يقدمان عرضاً للأزياء مثيراً للتعجب، اكتسبت تقوى الأنبياء والقديسين، ويضع الرجال فى حذى الشهوة للمال والجسد والمتع الحسية بعد أن أخذتها (الغاوى) عالمه السحري فى المجمع السحري، فراحوا يفتنون على أنفسهم، مثلما انقلب قبلهم الرجال فى «الغيب» ملث الزمان، حينما دخلوا عالم الحاكم السحري، وخرجوا منه ليتخذوا موقفاً مع الحاكم لا ضده.

لقد حول العالم السحري البشر، وعبر من رؤيتهم للحياة، ففقد الرجال نخوتهم، وصارت الروحانيات السابقتان عاهرتين، وتحول البقال إلى قواد، وأصبحت الشاشر (ياسين) حينما فقد صوته الرفي وسط ضوضاء لأجهزة الحديثة والموسيقى الصاخبة فى المجمع، وانتقلت الروح (فضة) من النقيض إلى النقيض، متحولة من الهداية إلى الهداية، ومن الأمل فى التعلق بالحياة إلى اليأس من كل شيء، فارتدت الحجاب وانسحبت من الحياة، وقبلت الامة «رباب» الزواج من العجوز (الغاوى)، ليس رضوخاً لأمر نفسها، بمساعدة له فى محتته، وإنما لتعلقها برغبات بنتها أمها، فى حمايتها منذ الصغر، وفجرتها أضواء المجمع وهى شابة فى المقابل، يقف المثقف / المعلم (بسام) متسلحاً بوعيه بواقعه، ماركساً حقيقية الزمن الذى يعيشه، وأنه لا بد من المقاومة فى وجه ما يستعد على الواقع من أفكار وأنظمة، لا الدفوف المسببة عند مجرد (التكيف) معها أو الهروب الأكثر سلبية منها، وقد استطاعت (فاطمة) أن تقاوم، رافضة الشعور، بمقصده بالإرادة عن زوجها الداعر، ومن ثم تلتقى فى الصنيع مع (بسام) ويقرران معاً القرار لدعم كل واحد منهما، حركة الأحرار المقاومة، ويقفان معاً ضد الطاغوت الجديد، العدو الرأسمالى فى أسوأ أشكاله، ويتحركان معاً فى معية (مريم الزرقاء) التى فقدت ابنها، بالقتل للأول والسجن للثانى المقابل، كما فقدت أرضها بالبيع للصرف على محاكمة والدها، وحماية نفسها من هجمة السوق العنيفة.

## الهوامش:

(١٩٩٧)، ونحن نميل في كتابتنا إلى تسميتها بالنص الموازي لأنه يتوازي في حركته مع حركة النص الحوارى، الأصلى فى الدراما، ويساعد (القارئ) على تصور أبعاد المكان والزمان وأحياناً حركة الشخصيات ونفعالاتها، لكنه لا يفرض على المخرج أية رؤية جامدة لهذه الأبعاد المذكورة، فهو يختفى فى العرض المسرحى، الأصل فى إبداع الدراما المسرحية، لتحل محله صورة كلية تشمل النص الحوارى ضمن ما تشمل من حركة وصوت وكتلة وفراغ ومثل حتى، بل جمهور له مردوده اللحظى أثناء الفعل المسرحى.

(١٣) - سعد الله ونوس: أحلام شقية، الأعمال الكاملة، مرجع سابق، ص ٢٥٥.

(١٤) - سعد الله ونوس: أحلام شقية، مرجع سابق، ص ٢٦٢.

(١٥) - سعد الله ونوس: يوم من زماننا، مرجع سابق، ص ٢٣٢.

(١٦) - سعد الله ونوس: أحلام شقية، مرجع سابق، ص ٢٥٨.

(١٧) - سعد الله ونوس: ملحمة السراب، الأعمال الكاملة، مرجع سابق، ص ٦٠١.

(١٨) - سعد الله ونوس: ملحمة السراب، مرجع سابق، ص ٦٠٣.

(١٩) - RUIZ ROMÓN, FRANCISCO: "Historia del Teatros Español" (Desde Sus orígenes hasta 1900) Séptima Edición. (- Madrid: Cátedra 1988 . p.228.

(٢٠) - عز الدين إسماعيل: قضايا الإنسان فى الأدب المسرحى المعاصر: دراسة مقارنة. دار الفكر العربى - القاهرة - ١٩٨٠، ص ١٥٥.

(٢١) - سعد الله ونوس: ملحمة السراب، مرجع سابق، ص ٦٠٦.

(٢٢) - نفسه، ص ٦٠٤.

(٢٣) - نفسه، ص ٦٠٢.

(٢٤) - نفسه، ص ٦٤٢، ٦٤٣.

(٢٥) - نفسه، ص ٧٣٣.

(٢٦) - نفسه، ص ٧٥٠.

(١) انظر الدراسة الافتتاحية المهمة التى كتبها سعد الله ونوس بعنوان «الثقافة الوطنية والوعى التاريخى»، فى مفتتح الكتاب الثقافى الدورى قضايا وشهادات الذى شارك فى هيئة تحريره مع عبدالرحمن منيف وفيصل دراج وجابر عصفور، مؤسسة عيال للدراسات والنشر - دمشق - ٤ خريف ١٩٩١.

(٢) برهان غليون: اغتيال العقل، دار التنوير للطباعة والنشر - بيروت (د - ت) ص ٢٩٦.

(٣) يذكر جابر عصفور فى مقاله: «درع برسيوس» بجريدة أخبار الأدب ٢٥ / ٥ / ٩٧، أن لونيوس مسرحية لم ينشرها ولم تضمها أعماله الكاملة، كتبها عقب تفتت الوحدة بين مصر وسوريا، أى فيما بعد سبتمبر ١٩٦١، باسم «الحياة أبداً».

(٤) انظر D-W. Fokkema, Eirild Ibsch, : "Teorias de la literatura del siglo XX." Traducción y notas de Gustavo Domin- guez. Tercera edicion, - Madrid: Cátedra. 1988 - P. 155.

(٥) انظر: Fokkema: op. cit. p. 160

(٦) سعد الله ونوس: الاحتصاب، منشورات مؤسسة حطين - القدس. آذار ١٩٩٠ - ص ٤.

(٧) بيلينكس، ف. ع: مجموعة الأعمال الكاملة، المجلد الخامس، موسكو ١٩٥٤، ص ١٦. نقلاً عن م. م. كوركيبيان: موسوعة نظرية الأدب إضاءة تاريخية على قضايا الشكل. القسم الرابع، الدراما. ت: جميل نصيف التكريتى - وزارة الثقافة والإعلام. العراق - ١٩٨٦. ص ١٠.

(٨) سعد الله ونوس: الاحتصاب، مرجع سابق - ص ٩٥، ٩٦.

(٩) سعد الله ونوس: يوم من زماننا، الأعمال الكاملة - دار الأهالى - دمشق - ١٩٩٦ - ص ١٩٣.

(١٠) سعد الله ونوس: يوم من زماننا، مرجع سابق - ص ١٩٧.

(١١) سعد الله ونوس: يوم من زماننا، مرجع سابق - ص ٢١٩.

(١٢) بفضل حازم شحاتة أن يسمى (الإرشادات المسرحية) بالنص المرافق (انظر كتابه: الفعل المسرحى فى نصوص ميخائيل رومان، هيئة الكتاب،



# المؤلف المشارك

## مدخل إلى قراءة نصوص سعد الله ونوس

### حازم شحاتة\*

راصدًا المطابقات والاختلافات، فيكون هنا مشتغلًا على صحة المقولات وخطتها بمعيار الإبداع، أو صحة الإبداع وخطه بمعيار المقولات! وهو حال يلغى موضوعية القراءة لصالح ذاتية الناقد.

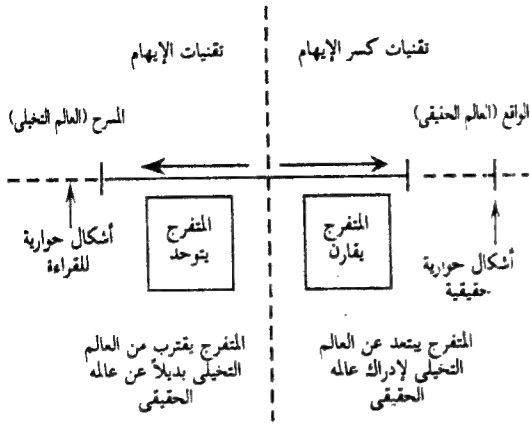
وللخروج من هذا المأزق يقترح هذا المدخل ألا يقرأ النص المسرحي بوصفه رسالة من كاتب إلى متفرج، ولكن أن يقرأ النص المسرحي على أنه تأليف مشترك بين الكاتب والمتفرج؛ بحيث ينظر إلى المتفرج بوصفه مؤلفًا مشاركًا للمؤلف الفعلي، وأن تستبدل بثنائية الشكل/ المحتوى (بتجلياتها المختلفة) ثنائية أخرى للقراءة، هي المتفرج/ الكاتب، التي تميز فن المسرح على وجه الخصوص.

فالكاتب يتصور المتفرج الذي يشاهد ما يقع على خشبة المسرح ويسمعه «هنا» و«الآن» وهو ما يسمح للمتفرج أن يكون عاملاً من عوامل تشكيل النص. هذا العامل الذي

يواجه الناقد الذي يتناول نصوص ونوس بوصفها بنية مغلقة، أو بوصفها رسالة مشفرة، مأرقًا صعبًا. فالنصوص الإبداعية لـ ونوس محاطة بكتابات نظرية، أحاديث صحفية شارحة لا تترك الفرصة للناقد كي يسند إلى نفسه تحليلًا نقديًا، سواء كان مدخله إليه تقنيًا أو إيديولوجيًا أو فلسفيًا. وسواء توسل بالشكل أو بالمحتوى، فسيحصد نتائج في مشروع ونوس ونوس النظرى والتنظيرى. فإما أن يعود الناقد إلى آراء ونوس النظرية ليأخذ منها مصداقًا لنتائجه، فيقود ونوس النظرى تحليل الناقد لـ ونوس الإبداعى فيكون ونوس القارئ والمقروء معًا! وهو حال يلغى تحليل الناقد ونسأته الذاتية لصالح ذاتية ونوس. وإما أن يتجه الناقد إلى مناقشة العلاقة بين الإبداعى، (كما يراه الناقد) والنظري فى أعمال ونوس،

\* باحث، وناقد مسرحى مصرى.





النص المسرحى فى هذا التصور علاقة مشتركة بين رسالة الكاتب واستجابة المتفرج من جهة، ورسالة المتفرج واستجابة الكاتب من جهة أخرى. فالمتفرج (يستعد) أو (يقترب) من العالم التخيلى وفق (فعل) المسرح. ولكنه فى الحالين مرتبط بعالمه الحقيقى. ومن هنا، نرى العرض المسرحى (الذى يحاول الكاتب صياغته فى النص) هو معادلة تصوغ العلاقة بين العالمين.

### المتفرج والذات المبدعة

لقد تشكلت نصوص سعد الله نوس بطرائق مختلفة حسب حضور المتفرج فيها ودرجة مشاركته فى تشكيلها منذ نصه الأول (ميدوزا تحرق فى الحياة) - ١٩٦٢، وحتى نصه الأخير (الأيام المغمورة) - ١٩٩٧. فقد تفاوت حضور المتفرج فى رحلته الإبداعية (٣٥ عاماً) حسب تصوره هذا المتفرج وحسب المساحة التى أعطاها له ونوس لمشاركته فى تأليف النص. وهنا، تنشأ ذات أخرى للكاتب هى الذات المبدعة للنص تتحرك على خط (المسرح - الواقع) من أقصاه إلى أقصاه. فالذات المبدعة لونس (الكاتب الفعلى) التى كتبت (ميدوزا تحرق فى الحياة) عام ١٩٦٢ ليست هى الذات المبدعة التى كتبت (حفلة سمر من أجل ٥ حزيران) ١٩٦٧ / ١٩٦٨، كما أن الذات المبدعة التى كتبت (حقوس الإشارات والتحويلات) عام ١٩٩٤ هى ذات ثالثة.

### الذات المبدعة الأولى

هذه الذات الثلاث هى العلامات الرئيسية لطريق ونوس على خط (المسرح - الواقع) التى تمثل استجابات

اهتمت بدراسته نظريات القراءة يقره كتاب المسرح ومنظوره منذ كتاب (فن الشعر) لأرسطو فى القرن الرابع قبل الميلاد. فأرسطو ينصح الكاتب الدرامى ألا يغفل المتفرج أثناء الكتابة فيقول<sup>(١)</sup>:

وينبغى للشاعر حين ينظم قصصه ويتممها بالعبارة أن يمثّلها بعينه على قدر ما يستطيع، فإنه حين يرى الأشياء أوضح ما تكون، وكأنه كان شاهداً الأعمال نفسها، يجد ما يليق بها ولا يغيب عنه شيء من ضد ذلك.

فكأن وظيفة المتفرج هى إعطاء النص خاصيته المسرحية. وطبقاً للصورة التى يتصورها الكاتب للمتفرج بتشكيل النص، فلا مسرح دون متفرج كما يقول جروتوفسكى<sup>(٢)</sup>:

هل يستطيع المسرح أن يستغنى عن المتفرج؟ يحتاج المسرح إلى متفرج واحد على الأقل كى يصبح عرضاً مسرحياً.

إن الفرق بين فلسفة الإيهام، وفلسفة التفرغ أو كسر الإيهام ينبع من الموقع الذى عينته كل منهما للمتفرج فى المسافة بين العالم الحقيقى (واقع المتفرج) والعالم التخيلى على خشبة المسرح؛ فبينما تسعى مدارس الإيهام إلى أن يكون واقع الخشبة «كأنه» واقع المتفرج؛ بحيث يستبدل المتفرج العالم التخيلى بعالمه الحقيقى، فيتوحد مع عالم المسرح مبتعداً عن عالمه الحقيقى، فيتطهر، أو يؤدّج، أو يربى، أو يتكيف مع واقعه ومجتمعه، تسعى مدارس كسر الإيهام إلى أن تستبعد ذلك الاتحاد وتقرب المتفرج من عالمه الحقيقى؛ أى تخلق المسافة بينه وبين العالم التخيلى لصالح إدراك علاقات واقعه ومجتمعه، فيفكر، يتخذ موقفاً، «يؤدّج» أدلجة مضادة. فالتأثير على المتفرج وأدلجته هما غرض المسرح ووظيفته فى الفلسفتين على اختلاف الأداة والتقنيات فيهما؛ ذلك الاختلاف الذى يتحدد بموقع المتفرج فى كل منهما.

ويمكن إدراك هذا التصور عبر الشكل التبسيطى

التالى:

لخدمة الفعل السردي. وهو الأسلوب الذي أطلقت عليه الذات المبدعة اسم «مسرحية مروية»؛ حيث يتداخل السرد مع الحوار في اللحظة نفسها، وليس على التوالي كما هو الحال في «المسروية» (وهو شكل للقراءة أيضاً وليس للتمثيل). لقد كانت الذات المبدعة لـ (ميدوزا...) تكتب نصاً أدبياً للقراءة، ولم تكن فكرة العرض المسرحي أمام جمهور حاضرة أثناء الكتابة. وهذا شكل من أشكال الكتابة المتحاسة مع المسرح حيث انشغلت الذات المبدعة، هنا، بطرح أفكارها وقضاياها في صورة حكاية حوارية. وتقع هذه الأشكال على خط (المسرح - الواقع) فيما قبل الدخول إلى عالم المسرح، حيث الحوار مثقل بالمجاز اللغوي الذي يحتاج إلى تفكير مثأن لا يتوفر للمتفرج المسرح، وإنما يتوفر لقارئ يستطيع أن يتمهل مع الجملة وتركيبها ومن ثم يستطيع إنتاج دلالتها ومعناها، كما يستطيع القارئ أن يعود إلى جملة سابقة في الحوار ليتابع مصدر الفكرة أو يقارنها بفكرة سابقة، وهو ما لا يتوافر للمتفرج المسرح إلا إذا كان الكاتب قد وضع في اعتباره هذا وعالجه بطريقة مناسبة للإلقاء الشفاهي، ولظاهرة الزوال السريع للجملة المسرحية وعدم عودتها مرة ثانية في العرض المسرحي، وهو ما نلاحظه ذات مبدعة أخرى لسعد الله نوس في نصوص أخرى.

وفي (ميدوزا...) تصف الذات المبدعة المنظر كالتالي<sup>(٤)</sup>:

.. وعندما غرقت قاعة النظارة في الظلام، أتت ربابة في عزف حزين لدقيقة، أو اثنتين، ثم انزاح الستار بطيئاً، وساد صمت مقلق.

كأنها تصف عرضاً مسرحياً تم إنجازه من قبل، تستخدم معه الفعل الماضي، تحكي للقارئ عن عرض مسرحي أبدعته وشاهدته الذات المبدعة في لحظة سابقة على القراءة، في وصفها المنظر أو في وصفها الحركة والانفعال كأن تقول<sup>(٥)</sup>: «ووافق فيدوس بهزة من رأسه، وأضاف بصوت ردىء التكوين»، أو: «انبسطت أسارير الحاكم»، أو: «انفلتت من هيرا ضحكة مليئة بالمرح والفتنة، فقطب والدها، وقال بصوت عال». فكان الذات المبدعة هي الراوى

الكاتب الفعلي (سعد الله ونوس) لدور المتفرج ومشاركته. تكتب الذات المبدعة الأولى مسرحيات «مبدعة» تتحدث في الحياة، (جثة على الرصيف)، «قصيدة الدم»، (لعبة الدبابيس)، (الجراد)، (المقهى الزجاجي)، «أساسة بائع الدبس الفقير»، (الرسول المجهول في مأتم أيتحي)، (عندما يلعب الرجال)، وهي المسرحيات التي صنفها در «الأهالي» السورية<sup>(٦)</sup> في الطبعة الكاملة لأعماله ومن تحت مسمى (المسرحيات الأولى) على أنها من قديم أعمال البدايات. ويلاحظ قارئ قائمة العروض والتمثيليات في نهاية الجزء الثالث من الأعمال الكاملة أنه لا عروض مسرحية قام على هذه المسرحيات في عواصم العالم المختلفة، مثل مسرحيات أخرى لذات مبدعة أخرى من ذات ونوس، اللهم إلا إذا كانت قدمت في معاهد التمثيل أو الجامعات، وهو ما يؤكد الملحوظة ولا ينفيها؛ إذ لم تحظ هذه المسرحيات الأولى بأى عرض جماهيري كبير. وتشير الطبعة الكاملة في ملحوظة دالة إلى أنها لم تذكر عروض المسرحيات القصيرة، وهي عديدة لاسيما في إطار الأكاديميات الفنية، وهي لا تصنف سوى المسرحيات الأولى؛ لأن «الفيل يا ملك الدنيا»، وهي من المسرحيات القصيرة، حظيت بعروض جماهيرية كبيرة حيث عرضت المسرحية في كل الدول العربية كما تقول الطبعة الكاملة (مج ٣، ص ٧٨٨)، كما ترجمت «الفيل...» إلى لغات متعددة، بينما لم يترجم أى من نصوص المسرحيات «الأولى».

فما السبب في أن المتفرج قد شهد هذه المسرحيات. وأقصد هنا أن صانعي العروض المسرحية - يروا في هذه المسرحيات مادة مسرحية للمتفرج السبب - كما يفترض هذا المدخل - أنها نصوص استبعدت المتفرج أثناء تشكيل النص، ووضعت بدلاً منه قارئ نصوص أدبية جذبت شكل المسرح.

فالذات المبدعة الأولى التي بدأت نشاطها الإبداعي بـ (ميدوزا تتحدث في الحياة) لا تكتب النص المسرحي بوصفه نصاً معداً لمخاطبة صانعي العروض، لا، للمتفرج ثانياً، حيث توظف تقنيات الرواية للوصف، وتستعمل تقنيات المسرح

### الذات المبدعة الثانية:

لتحقيق رؤية الذات المبدعة عن التهميش وغياب المثقف عن الفعل الاجتماعي تتبنى الذات المبدعة لنص (حفلة سمر...) شكل «الحفل»، وهو ما يعنى تقسيم المسرح إلى ممثل وممثل له. ولكنها تعود إلى إلغاء هذا التقسيم بإضافة كلمة «سمر» مما يعنى المشاركة المتساوية للفردين بإلغاء المساحات المميزة للممثل والممثل له. وهو مشروع جمالي يتباه الذات المبدعة فى نصوص (مغامرة رأس المملوك جابر) و(الفيل يا ملك الزمان) و(الملك هو الملك) و(سهرة مع أبى خليل القباني) و(رحلة حنظلة من الغفلة إلى اليقظة) بأشكال مختلفة للعلاقة بين المساحتين، ولكن ما يجمع بينها فى مشروع جمالي واحد هو الإدراك الحاد لمساحة المتفرج وإشراكه فى فعل المسرح أثناء الكتابة، لعله يشارك فعلاً أثناء العرض المسرحي.

(حفلة سمر...) تعكس المجتمع على صورة دار عرض مسرحي رسمية، تقدم عرضاً مسرحياً بعنوان «صغير الأرواح» للمؤلف عبد الغنى الشاعر، ولكن التمرد يبدأ من الصالة اعتراضاً على تأخير موعد بدء العرض، ثم اعتراضاً على تفكير المخرج فى صياغة المسرحية التى كان ينوى تقديمها بمناسبة ٥ حزيران (صغير الأرواح)، وهى مسرحية رسمية تعالج الموقف من وجهة نظر السلطة، والمخرج هو الصورة المسرحية للدكتاتور؛ فهو مدير المسرح وهو الممثل الأول وهو «مسؤول» ولحضوره امتداد «أوسع وأبعد من خشبته أو بناء مسرحه» كما تقول الذات المبدعة فى تقديمها الشخصيات وسباق الأحداث. يتحرك الجمهور ويصعد إلى خشبة المسرح متفرجون جاءوا ليشاهدوا (صغير الأرواح) فإذا بهم يقدمون حكايتهم الخاصة عن يوم الخامس من حزيران لينقلب المسرح إلى ما يشبه «حفلة سمر».

نالمتفرج الذى يصنعه النص، الممثل له، الذى يمثل دور المتفرج ينقلب مثلاً وهو صورة للمتفرج خارج المسرح كما تراه الذات المبدعة للنص، معنياً بفعل التمرد والثورة والاستيلاء على المسرح الرسمى (السلطة). هذه الصورة تعكس تصور الذات المبدعة عن المتفرج أثناء عرض المسرحية،

العليم بكل شىء التى تسرد للمروى له الحكاية بعد انتهائها، وكأنها بذلك تلعب الدورين: الكاتب والمتفرج معاً. ولكن الذات المبدعة سوف تترك هذه التقنية فيما تلا من النصوص التى كتبتها. ففى (جثة على الرصيف) تستخدم الذات المبدعة وصف المنظر على أساس من الديكور المسرحي، كما تستخدم داخل الأقواس (النص المرافق للحوار) صيغة المضارع لترهين الأحداث، مما يشى بإحساسها بوجود المتفرج. ولكن التصور الأساسى عن ذلك المتفرج لا يزال يقع فى دائرة القارئ فى هذه المسرحية وما تلاها من المسرحيات. ويستطيع الناقد الدرامى التقليدى أن يبرهن لنا على التمنيظ الذى تستخدمه الذات المبدعة وهى ترسم الشخصيات: السلطة - المواطن البسيط - المثقف المنعزل عن واقعه، رجل العلم، رجل المال، الفنان... إلخ، وأن يبين لنا كيف أن الشخصيات تتحرك وفق مسارات مسبقة رسمتها الذات المبدعة للنص؛ فالمصائر كلها من صنع ذات أعلى من الشخصية، وتحولات الشخصية لا تأتى وفق فعلها هى لتصيغ الأحداث، بل وفق تحولات الأحداث ذاتها المفروضة عليها من الخارج. وبذلك، لا يجد الممثل فرصة - على خشبة المسرح - إلا أن ينطق الكلمات حسب انفعال نمطي، سابق التجهيز، يدل على فكرة ولا يدل على شخصية، وكأنه يلقي حواراً يوظفه انفعال ذهنى، بينما أصل التمثيل أمام متفرج هو انفعال ينتج حواراً. كما أننا لا نستطيع أن نلمح فى نص «صورة» للعلاقات الحركية بين الشخصيات؛ بحيث يمكن - مثلاً - تقديم هذه المسرحيات للإذاعة دون أن يفقد النص شيئاً، وفى ذلك إهمال للنصف الثانى من طاقة متفرج المسرح وهو الرؤية.

إن الذات المبدعة الأولى تقف على أعتاب المسرح، فى أقصى يسار خط (المسرح - الواقع)، فى موقع تعزل فيه المتفرج عن تجربتها وتعزل عنه بالتالى.

ولكن الكاتب الفعلى، سعد الله ونوس، يستجيب للمتفرج؛ فينهى بنفسه عزلة الذات المبدعة الأولى، لتتجلى ذات مبدعة ثانية تكتب نصاً فارقاً فى العلاقة مع المتفرج هو (حفلة سمر من أجل ٥ حزيران).

إن الذات المبدعة تريد أن تضع المتفرج في أقرب نقطة للعالم الحقيقي، فتصمم بناء النص ليدفع المتفرج إلى هذه النقطة محاولة التقريب بين المسرح والواقع. ولكن الذات المبدعة - وهي تضع دليلها للمتفرج الفعلي - لا تفتن إلى أنها تقدم «نموذجاً» للفعل كى يحتذيه المتفرج الفعلي، وبذلك فإنها في الحقيقة لا تضع المتفرج في موقع المبادر بالفعل، وإنما في موقع المتعلم من فعل صورته في المسرحية. وبذلك، يتحول المسرح إلى منصة تعليمية مباشرة، وليس إلى منصة حوار جدلي خلاق كما ستفعل الذات المبدعة الثالثة بعد ذلك. فالذات المبدعة الثانية تقيم فصلاً مدرسياً يتعلم فيه المتفرج الإيديولوجيا أو مايسميه ونوس «مسرح التسييس»<sup>(١)</sup> أى إكساب المتفرج الفعلي وعياً سياسياً.

وتتخذ الذات المبدعة الثانية تقنيات كسر الإيهام/التعليمية: المسرح داخل المسرح، اللوحات الشارحة التي تصوغ الفكرة الإيديولوجية، كما في «الملك هو الملك»، حيث تصدر العرض لافتة رئيسية تقول<sup>(٢)</sup>: «الملك هو الملك... لعبة تشخيصية لتحليل بنية السلطة في أنظمة التنكر والملكية» وينبغى أن تكون ذات طابع إعلاني، كما تقول الذات المبدعة في ملاحظتها الموجهة إلى صانعي العرض المسرحي، بالإضافة إلى لافتات أخرى لكل مشهد. فلافتة المشهد الأول هي<sup>(٣)</sup> «عندما يضجر الملك يتذكر أن الرعية مسلية وغنية بالطاقات الترفيهية»، وهكذا. وقد يستبدل عرض مسرحي ما الأغاني والاستعراضات بهذه اللافتات كما حدث في عروض كثيرة بمصر، ولكن تبقى الوظيفة واحدة.

إن الذات المبدعة تصنع المجتمع على عينها: السلطة والشعب، التمرد والثورة، التعليم والتسييس، الشرح والتفسير، وتقدم المسرح بوصفه مدرسة الشعب. وهو المفهوم الذى لم يفارق البرجوازية العربية الحديثة منذ صعودها فيما حول منتصف القرن الماضى، وهو تاريخ ظهور المسرح بشكله الوافد كما رآه رواده مارون نقاش وأبو خليل القباني ويعقوب صنوع. ولعل هذا النموذج للمسرح هو ما تتمثله الذات المبدعة الثانية لسعد الله ونوس فهي مولعة به. وقد كان المسرح عند هؤلاء الرواد فعلاً اجتماعياً يشارك فيه المتفرج بالرأى بل يتدخل لتغيير الأحداث، على نحو ما تشير إليه

أو المتفرج الضمى الذى شارك في تأليف النص والذى يختلف بالضرورة عن المتفرج الفعلى الذى شاهد العرض الأول «لفرقة المسرح» - وهى فرقة غير رسمية عام ١٩٧١.

وقد توقع ونوس والفرقة المسرحية أن يخرج الجمهور بمظاهرة من المسرح ولكن ذلك لم يحدث بسبب تلك المسافة بين المتفرج الضمى؛ أى وعى الذات المبدعة بالمتفرج الفعلى، والمتفرج الفعلى نفسه.

لقد حاولت الذات المبدعة أن تقدم في هذا النص شكلاً مسرحياً مقاوماً للمسرح السائد، فعلاً إيديولوجياً مناهضاً لإيديولوجيا المسرح السائد، فلم يعد النص يكتب كى يتحرك الممثلون على خشبة المسرح فقط، ولكن من الصالة أيضاً، فالنص المرافق يشير إلى حركة طائفة كبيرة أثناء الحوار، ويتكرر ما بين القوسين نفسه «من الصالة» عبر صفحات النص، راغبة في أن يبدو العرض المسرحي كأنه نقاش حقيقى، يقترب من المتفرج إلى نفس العالم الحقيقي، أى تضعه في أقصى منطقة «كسر الإيهام» وهى النقطة التي لو جاوزها العرض المسرحي لخرج من مجال الفن إلى مجال الندوة أو المحاضرة؛ أى إلى أشكال حوارية حقيقية<sup>(٤)</sup>.

وتضع الذات المبدعة لنص (مقدمة ونس السلوك جابر) المتفرج مرة أخرى داخل النص المسرحي، ليكون دليلاً للمتفرج الفعلى أثناء العرض المسرحي؛ فاحول بين المتفرج فى النص والممثلين هو «علامة» لحدوث آخر فى العرض المسرحي بين المتفرج الفعلى والممثلين. وتفعل الذات المبدعة فى نصها المرافق<sup>(٥)</sup>:

نحن فى مقهى شعبى - نعمة عدد من الزبائن يتفرون على المقاعد المبعثرة من أرجاء المقهى... ينبغي أن يحس المتفرجون نوع من الاسترخاء وربما الطرب شأنهم فى ذلك شأن سائر المقهى.

إن الذات المبدعة للنص، تدرك أن نصها - وهذا حق - ليس سوى دليل عمل للعرض المسرحي، فبالرغم من أنها تكتب الحوار بالفصحى فإنها تؤكد أنه «يجب أن يودى بالعامية... يمكن أيضاً إجراء بعض التعديلات عليه، وإضافة بعض العبارات المرجحة خلال تجربة العرض»<sup>(٦)</sup>.



الذات المبدعة فى كتابتها نص (سهره مع أبى خليل القبانى)، كأن يقدم أحد المتفرجين ملحوظة إخراجية للخشبة<sup>(١١)</sup>: «خبي رأسك يا رجل وإلا كشفوا أمرك»، أو تعليقاً على الأحداث<sup>(١٢)</sup>: «سبحان من يرزق بغير حساب»، أو نقاشاً حول المماثلة<sup>(١٣)</sup>

متفرج «١»: هو ذا الخليفة هارون الرشيد.

متفرج «٢»: علىّ الطلاق لو قلت عنى هارون الرشيد لصدقك الناس أكثر.

متفرج «١»: هذا اللباس لا يكون إلا للخليفة.

هذا الحوار المرحّل الحار فى مسرح الرواد، كما تصوره الذات المبدعة الثانية، هو الخطاب الذى كافحت البرجوازية العربية الحديثة نفسها لإلغائه بعد ذلك، وكدحت كدحاً متواصلًا لتثبيت المتفرج الفعلى فى مقعده. لقد عانت تجارب الرواد الأوائل إلغاء السلطة الرجعية لمسرحها: القبانى وصنوع على سبيل المثال<sup>(١٤)</sup>. ولكن البرجوازية الصاعدة بخطابها الفنى، ومسرحها الجديد لم تتحمل قدرة المسرح على التشخيص والتحاو، فنظرت إلى المتفرج بوصفه تلميذاً يحتاج إلى الوعى، ويحتاج إلى تعلم تقاليد المسرح، وقد كان يوسف وهبى يقطع سياق التمثيل ليصرخ فى الجمهور شاتماً، مطالباً بالسكوت! وغيّرت البرجوازية العربية من فعل الحوار المتبادل، وفعل الارتجال، إلى فعل المنصة العالية التى يسيطر فيها الممثل على المتفرج.

فالذات المبدعة الثانية، إذن، كانت تحاول أن تكسر تلك البنية المتسلطة للمسرح، وأن تغير من العلاقة «الإيطالية» بين الخشبة والصالة، وأن تقدم بنية مشاهدة مناقضة لبنية مشاهدة المنصة العالية، لتغير بذلك فعل التلقى ذاته. هذا «النقض» الذى تجاوب مع احتياجات المتفرج الفعلى لتدمير الخطاب الفنى قبل ٦٧. ولهذا، تبنت البرجوازية العربية بعد ٦٧ نصوص الذات المبدعة الثانية لئونوس، فقد كان فعل التلقى المناهض - الذى قدمته هذه النصوص - لفعل التلقى فى مسرح ما قبل الهزيمة علامة على المقاومة، والصخب، والتمرّد، ونقض كل أشكال الثقافة السابقة التى لم تمنع

المجتمع من هزيمته العسكرية والمعنوية، فبدأت تتصاعد فى المنطقة العربية موجة أشكال العودة إلى التراث فى سياق البحث عن هوية عربية للمسرح. وقد ملأت مسرحيات ونوس فى تلك الفترة الساحة العربية بوصفها أداة إيديولوجية إذ كانت النخبة المهزومة تبحث عن مبرر هزيمتها. وقد قدمت نصوص الذات المبدعة الثانية لئونوس ذلك المبرر ممثلاً فى دكتاتورية السلطة من ناحية، وضيق أفق النخبة القائدة من ناحية ثانية، وتقاعس الجماهير المقودة عن القيام بدورها فى الثورة من ناحية ثالثة. فجاءت النصوص التى تدعو الجمهور الفعلى إلى تمثيل النموذج/ الدليل الذى يقدمه المتفرجون النصيون، كى تذكر جمهور المسرح بالفعل الغائب الذى لم يقوموا به، بل قامت إحدى المسرحيات على هذه الفكرة بالتحديد وهى (الفيل يا ملك الزمان)؛ حيث يقود «زكريا» أهل القرية إلى الملك ليشتكوا له ظلم الفيل الذى هدم منازلهم، ولكن أمام الملك لا يستطيع أهل القرية أن يقولوا ما تدبروا عليه، مما يضطر معه المثقف/ القائد إلى الانحياز لفيل الملك، وذلك فى إدانة جماعية للمثقف الذى يراهن على السلطة، للجماهير التى لم تستطع حتى أن تنطق شكواها، وللسلطة المتعالية التى لا تشكل الجماهير عندها سوى رعايا، لا مواطنين. وهكذا أكسبت هذه النصوص النخبة العربية، من ممرسى المسرح سلاحاً إيديولوجياً يواجهون به الهزيمة، فإذا استجاب الجمهور الفعلى للتدخل فقد أدى صانعوا العرض مهمتهم، بوصفهم نخبة محرّضة، وتسمع حكاياتهم التى تمخر بذلك، أما إذا لم يتحرك الجمهور الفعلى فالعيب فيه!

وقد تزامن انتشار نصوص هذه الذات المبدعة لئونوس فى الجامعات والمدارس ومسارح الأقاليم مع نقد أدبى يطور إيديولوجية تلك النصوص ويشرح أفكارها، بالإضافة إلى كتابات ونوس النظرية، وأحاديث الصحفية، فاتخذ المخرجون والممثلون هذه النصوص أداة إيديولوجية لطرح الآراء حول السلطة/ المجتمع/ المثقف/ الشعب وتبنى وجهات نظرها بوصفها وجهة نظرهم.

لقد ظل الحوار هو المتسيد للفعل المسرحى فى هذه النصوص، وظلت «الصورة» التى تحدد أوضاع الممثلين ونرسم الأحداث غير واضحة، مما يجعل العرض المسرحى فى



لقد كانت تصور الذات المبدعة السابقة تركز على التوجيه والتعليم أو «التسييس»؛ فتتصور المتفرج الضمنى كتلة واحدة. ولكن الذات المبدعة الثالثة تقدم لنا تصوراً جديداً؛ فللمرة الأولى ندخل الأماكن الخاصة للشخصيات بوصفها ذواتاً اجتماعية لها مفرداتها الخاصة وكيوناتها المستقلة، لها حياتها اليومية ومتاعبها التى تتوقها عن الفعل الثورى. فالعائق، هنا، لم يصبح نقصاً فى الوعي السياسى للمتفرج الفعلى، وإنما هو نقص فى الوعي بذاته بوصفه عنصراً فى سياق اجتماعى متخلف، محجوز عن النهضة. لقد شكلت الذات المبدعة الثالثة لسعد الله ونوس نصوصها لتكشف للمتفرج الفعلى عن بنية أعمق من بنيات وعيه، ورسمت لنفسها متفرجاً ضمناً جاء المسرح ليشاهد أشخاصاً مثله أو من الممكن أن يكون مثله.

وبإدراك الذات المبدعة الثالثة متعد المتفرج الحقيقى شكلت نصاً يقوم على الجدل، أو على حوار آخر أعمق وأكثر تأثيراً من الحوار الحار المرحل الذى كانت تبتنيه الذات المبدعة السابقة. فأعطت للشخصيات حريتها، فانتقلت تلك الحرية إلى المتفرج الفعلى فى مقدمه.

لقد تحرك المتفرج الضمنى الذى رسمته الذات المبدعة على خط (الواقع - المسرح) إلى منطقة الإيهام، دون أن يدخلها كلية، فقد وقفت النصوص عند ذلك الحد الفاصل بين المنطقتين وهو ما أنتج الحوار الجنبلى؛ فالمتفرج لا ينسى عالمه الحقيقى تماماً، حيث لا تسمح له الذات المبدعة بالاندماج كلية فى العالم التخيلى عبر تقنية الراوى المباشر فى (منمنمات تاريخية) و(الاغتصاب). وفى (طقوس الإشارات والتحولات) تقدم لنا الذات المبدعة تقنية جديدة هى المواقف والعبارات الصادمة لتباوهات المتفرج الفعلى فى عالمه الحقيقى، لترده إلى العالم الحقيقى ذاته مدركاً الفرق بين العالمين، وهى أعلى تقنيات الذوات الثلاث فى تشكيل العلاقة بين الكاتب والمتفرج، تلك العلاقة التى يجسدها النص نفسه ويتشكل بها فى آن وتبرز الذات المبدعة الثالثة من المشروع الجمالى السابق حين تقول فى ملاحظتها التى قدمت بها لنص (طقوس...) (١٦):

أحيان كثيرة يقوم على الحوار إذا لم يتدخل تدج ليصوغ رؤيته البصرية (التي عادة ما تجيء فى صورة التشكيلات الحركية أو فى إطار الاستعراض الغنائى) ولا يسبق الممثلون فى غواية الحوار دون خلق السياق المرنى المناسب له. كما ظلت الشخصية أسيرة الفكرة. فالممثل - حر هو فكرة خادم السلطة الذى يريد أن يصبح وزيراً أو حليف، «أو عزلة» فى (الملك...) هو أقصى الهامش الاجتماعى الذى يستيقظ ملكاً ليحقق فكرة السلطة المحررة على لا يسمد على الشخص أو كما بصوغها النص ككائنات «أعطى رداءً وتاجاً أعطك ملكاً»، وهى لافتة الفاصل بين «حظلة» المواطن الغافل الذى يكتسب وعياً بعد التماكب مع أجهزة السلطة، القمعية والإيديولوجية على السواء، لذلك، تبدو الفرق المسرحية كأنها أداة فى يد المخرج، لا يميز الممثل فيها؛ لأن الشخصية فيها فكرة (من ويلات الذات المبدعة الأولى)؛ فاستبدال ممثل بآخر فى «سورة» «سورة» لا يؤثر كثيراً فى العرض المسرحى لأنه قائم على الحكمة والحوار، وبالتالي على خطاب مونولوجى. هذا المعنى المسرحى، وآثاره، هما نتيجة لتصور الذات المبدعة الثالثة للمتفرج فى المسرح، حيث تراه كتلة موضوعية ينقصها وعى كينونته فيتجاوز تعليمه إياه. لذلك، تغيب الشخصيات الحرة عن موضوع هذه الذات المبدعة (المرأة مثلاً بوصفها وصية جماعية). وهو ما ستلاحظه الذات المبدعة الثالثة وهى شخص يصورها.

### الذات المبدعة الثالثة

توقف الكاتب الفعلى سعد الله ونوس عن الكتابة الإبداعية ما يقرب من أربع عشرة سنة، بعد أن انتهت الذات المبدعة الثانية من كتابة (رحلة حظلة من لعمري إلى اليقظة) عام ١٩٧٨ المأخوذة عن (السيد موكشيت) لبيتر فايس كانت قد بلغت نهايتها هى أيضاً.

وعبر إعداد نص بايرو بايخو القصص المروجة للدكتور بالمى بعنوان (الاغتصاب) أطلقت الذات المبدعة الثالثة برأسها، لتعلن عن حضورها المكتمل عام ١٩٩٢ حين بدأت كتابة (منمنمات تاريخية) و(يوم من يومنا) - ١٩٩٣، ثم (طقوس الإشارات والتحولات) - ١٩٩٤، و(أحلام شقية) - ١٩٩٤ ثم (ملحمة السراب) - ١٩٩٥.

العالم التخيلي وأوهامه عنها في العالم الحقيقي فلا يندمج اندماجاً كلياً، وهى التقنية البارعة التى تميزت بها الذات المبدعة الثالثة فى (منمنمات تاريخية)، (الاغتصاب)، (طقوس...)، ويمكن وضع (يوم من زماننا) و(أحلام شقية) على خط الجدول الفاصل بين تقنيات الإيهام وكسر الإيهام، حيث تعملان، كباقي نصوص هذه الذات الثالثة، على تقريب المتفرج من المسرح، وتوحده بالعالم التخيلي فى الوقت الذى تذكره من حين إلى آخر عبر منطقها الداخلى بالعالم الحقيقى.

وبالرغم من استخدام الذات المبدعة تقنية اللافتة فى نص (ملحمة السراب) فإننا لا نعهده من قبيل النصوص التى تقع على خط الجدول. فاللافتات ليست جزءاً من بنية العرض كما كانت فى (الملك هو الملك) على سبيل المثال، وإنما هى من قبيل العناوين المستخدمة فى الحلقات التليفزيونية، رغم تأكيد الذات المبدعة للنص أنها جزء من نسج العمل<sup>(١٧)</sup> وتفترض إبرازها فى العرض «سواء عبر أداء الممثل أو عبر لافتة مكتوبة تقدم الفصل، أو تكون جزءاً من ديكور مشاهد المتواليه»، وأغلب الظن أنها مضافة إلى نص قديم<sup>(١٨)</sup>، فالطابع الميلودرامى الذى يغلب على (ملحمة السراب) لا يمكن مقارنته بأداء الذات المبدعة فى تحولات الشخصيات من داخلها، لنص مثل (طقوس...)، وأظن أن إخراج هذه النصوص سوف يمسى ناحية تقنيات كسر الإيهام فى قالب الفرجة خروجاً من طابعها الميلودرامى.

### السرد المسرحى

إذا كانت الذات المبدعة الأولى قد بدأت رحلتها بـ «مسرحية مروية» فإن الذات المبدعة الثانية عالجت «الرواية» بوصفها أمثلة إيديولوجية تعليمية، وقفت فيها الذات المبدعة موقف المعلم السياسى، فوضعت المتفرج موضع المتعلم ناقص الوعى والمعرفة. ولكن الذات المبدعة الثالثة غيرت استراتيجيتها وجلست فى مقعد المتفرج، تشاهد معه «الحكاية» التى اختارتها لتحكيها له وكأنها ليست صانعتها، وإنما هى الوسيط المحايد بين أشخاص الحكاية «الحقيقية» والمروى عليهم. لقد اجتازت الذات المبدعة مفازة وعرة وأنجزت رحلة

إن أبطال هذا العمل هم ذوات فردية تعصف بها الأهواء والنوازع، وترهقها الخيارات. وسيكون سوء فهم كبير إذا لم تقرأ هذه الشخصيات من خلال تفردا وكشافة عوالمها الداخلية وليس كرموز تبسيطية للمؤسسات تمثلها. إن أبطال هذه المسرحية ليسوا رموزاً ولا يمثلون مؤسسات وظيفية، بل هم أفراد لهم ذواتهم ومعاناتهم المتفردة والشخصية.

فالرموز والمؤسسات الوظيفية كانت المشروع الجمالى للذات المبدعة الثانية.

وتلعب الصورة، واعتماد الأحداث على حركة الشخصيات فى المكان، دوراً بارزاً فى (طقوس...) و(الاغتصاب) و(أحلام شقية) بينما تنجح (يوم من زماننا)، و(ملحمة السراب) فى إنشاء حوار ناجح عن انفعال الشخصية، مما يعظم دور التمثيل، فيسمى الممثل إلى بناء تفاصيل الشخصية ليوقع بها المتفرج الفعلى حين حضوره إلى العرض المسرحى.

وفى (يوم من زماننا) لا يقوم كسر الإيهام على التقنيات المعروفة والشائعة، تلك التى استخدمتها الذات المبدعة الثانية من قبل، وإنما يقوم على رهافة استخدام شكل (الرقص) الشعبى، حيث تعلق فى هذا الشكل إجابة سؤال ما لحين استعراض شخصيات أو أماكن أو أحوال، حسب غرض الكاتب. فى (يوم من زماننا) يكتشف (فاروق) أحد المدرسين بمدرسة للبنات أن طالباته يعملن فى بيت دعارة وحين يطرح السؤال الاستنكارى على ناظر المدرسة، وإمام المسجد، ومحافظ المدينة يجدهم جميعاً موافقين! وحين يواجه محافظ المدينة بأن ابنته من بين طالبات بيت الدعارة لا يعترض المحافظ، بل يلمح له أن زوجة المدرس هى أيضاً من رواد ذلك البيت المشبوه. وفى هذا الشكل يسقط ونوس أفتنة الشخصيات الإيديولوجية التى توهم المتفرج بالاحترام، عبر تقنية أخرى تتميز بها الذات المبدعة الثالثة حيث تفسح الفضاء لمونولوجات الشخصيات الإيديولوجية لتبوح بمكنونها فتسقط أمام المتفرج الفعلى الذى سيقارن بين وجودها فى

وفى (الأيام المخمورة) يقدم لنا الراوى حكاياته، إنه الحفيد الذى يبدأ الحكى كالتالى<sup>(٢١)</sup> :

كنت فى السادسة من عمرى حين غابت أمى يومين، عادت بعدهما ومعها امرأة عجوز شديدة الضعف والهزال.

إن الحفيد - الراوى يحكى حكايته هو، لا يحكى عما قرأ أو سمع، وهو أول شروط الحكاية فى (ألف ليلة وليلة)، فكل الرواة يحكون ما يحدث لهم، وتجربتهم، وبذلك يضع الراوى نفسه تحت حكم المروى عليه؛ حيث يحكم المروى عليه على الراوى، وعلى الحكاية نفسها من حيث «الصدق» بأن يضع نفسه مكان الراوى وشخصياته. وهنا، يشترط فعل الحكى ألا يحكم الراوى على أفعاله أو أفعال الشخصيات الأخرى وأن يترك تلك المهمة للمروى عليه. وبحق الراوى - الحفيد ثانى شروط الحكى كالتالى<sup>(٢٢)</sup> :

فيما بعد... مع نمو إدراكى وفضولى، أيقنت أن فى العائلة دماً يتستر عليه الجميع. أيقنت، على نحو غامض، أنى لن أستقر فى اسمى وهوى إلا إذا كشفت الدمل وفقأته.

فالراوى - الحفيد يؤكد لنا أنه يحكى بعد نمو إدراكه واكتشاف ما أسماه «الدمل» وبعد أن لاحظ أن جدته تجيء إلى البيت ومع ذلك لا أحد يزورهم من أقاربه.

وتلجأ الذات المبدعة إلى الاستراتيجية نفسها فى بناء النص حيث يقدم الرواة المتورطون فى صنع ذلك الدمل حكايتهم أو شهادتهم، وهى الاستراتيجية التى تؤكد موقع المروى عليه بوصفه قاضياً يحكم على الأحداث.

ويجيد الرواة فى (الأيام المخمورة) صقل حكاياتهم لتبدو كالمرآة، هادفين إلى أن يدخل المروى عليه - والمتفرج فى المسرح - إلى الحكاية. فالحفيد يلجأ إلى أمه، أول الخيط لتحكى له حكاية الجدة، أو حكايتها مع أمها، وبذلك يقدم لنا الحفيد وثائق «الصدق» فى حكايته حتى لا نظن أنها حكاية مسلية من الحكايات التى تمتلئ بالأوهام أو بالكاذب، وعندما يشعر الراوى أن إحدى الشخصيات تعيش فى تلك الأوهام فإنه يرى نفسه أمامنا (المروى عليهم أو

عسيرة، إذا استعزنا عبارة إحدى الشخصيات التى أبدعتها تلك الذات، حتى وصلت إلى معاداة «الرواية المسرحية» التى حلمت بها طويلاً، وبها تكتمل دورها. وأتت المعادلة التى صاغت نص (الأيام المخمورة) آخر نسوس سعد الله ونوس. وهى معادلة مناقضة تماماً لمعادلة لنص الأول «المسرحية المروية».

### ذات مبدعة أخيرة

يحق لنا أن نميز الذات المستبدعة لنص (الأيام المخمورة)<sup>(٢٣)</sup> عن الذات الثلاث السابقة. فلقد استطاعت هذه الذات أن تصوغ معادلة (الكاتب - المتفرج) صياغة جديدة، بعد أن أفادت من أفعال مسرحية طاملاً ناوشتها الذات المبدعة السابقة، وأيضاً بعد أن لجأت إلى فعل التلقى المميز للحكاية الشعبية وبخاصة فعل التحكى فى (ألف ليلة وليلة). لقد عالجت الذات السابقة حكايات من (ألف ليلة وليلة) مثل (الملك هو الملك)، لكن الذات المبدعة (الرابعة) تقدم تجربة جديدة، فهى لا تلجأ إلى وقائع الحكايات فى (ألف ليلة وليلة)، وإنما إلى وقائع حكاية معاصرة تستخدم فى مسرحيتها فعل الحكى فى (ألف ليلة وليلة) وتوفر لها تقنيات جديدة تنتمى إلى «الحكى» بالقدر نفسه الذى تنتمى فيه إلى «المسرحية».

فى (ألف ليلة وليلة) لا يحكى الراوى حكاياتهم إلا بعد إدراك مغزاها، وفهم معناها، وشرح معرفته الاجتماعية وفلسفية بها، ولكنهم لا يصرحون بهذه المعرفة حتى لا تفسد الحكاية، وإنما هم ينظمونها ويرتبونها بحيث تسمح للمروى عليه بأن ينتج هذه المعرفة بنفسه. وهنا تؤدى الحكاية وظائفها<sup>(٢٤)</sup>، فتكون خلاصاً للراوى، جسراً لتواصل بينه وبين المروى عليه، ومرآة يرى فيها المروى عليه نفسه، ويخبر بها ذات الراوى وجوهره، فيبتناها ونحفظها فى خزائن الدولة لتصير عبرة لمن يعتبر. فالحكاية لن تكون «عبرة» إلا إذا أدرك المروى عليه قيمتها، وأنتج المعرفة التى تنبئ عليها، ولن يكون ذلك إلا إذا دخل المروى عليه الحكاية دون تدخل من الراوى؛ أى دون نبرة تعليمية أو إشارة توضح معنى عليه إلى تلك المعرفة.

المتفرجين) حتى نظل نصدقه. فحين نخكى أمه عن اعتقادها بأن أمها كانت متبوعة وأن التابعة هي جنية سفيهة تسكنها يقول الراوى - الحفيد (٢٣):

فى بحشى عن دمل العائلة كنت أعلم أنى سأخطب كثيراً فى مشاهات الأوهام والأكاذيب. ولكن فى مثل وضعنا، لم يكن هناك ممر آخر إلى الحقيقة. ولهذا سأتابع هذه الفصول، دون تمحيص كبير، ودون تركيز على حسن التتابع والتنسيق.

فبعد أن يرى نفسه أمامنا؛ لأنه يتوقع أننا لن نصدق حكاية التابعة والمتبوعة، يؤكد لنا حياده القادم أنه لن يتدخل مرة أخرى بمثل ذلك التعليق أو بحسن التتابع والتنسيق حتى، وأنه يثق الآن أننا فهمنا موقفه من الحكاية وتقديره لذكاثنا ووعينا، فيترك لنا هذه المهمة.

لقد أصبح التوجه من الممثل إلى المتفرج مباشراً هنا، وليس عن طريق صورة للمتفرج يصنعها النص على خشبة. الممثل يدرك أنه يواجه متفرجاً فعلياً يجلس أمامه فى الصالة، وهى من تقنيات كسر الإيهام المعروفة، ومع ذلك فإن الأمر يجب أن يبدو «كأن» الممثل يحكى تجربته الشخصية؛ أى أن يتلبس الشخصية؛ على نحو مقنع حتى يبدو «كأنه» الشخصية الراوية، وهى تقنيات الإيهام ذاتها المعروفة. فالذات المبدعة توظف السياق المسرحى (هنا - الآن) الذى يجمع الممثل والمتفرج لتحواله إلى سياق الحكى: راوٍ «فعلى» ومرورى عليه فعلى. فكأنها تستخدم تقنيات الإيهام لتحقيق الفعل المسرحى لكسر الإيهام، بل يمكن صياغة العبارة على نحو معاكس: أى أنها تستخدم تقنيات كسر الإيهام لتحقيق الفعل المسرحى للإيهام. والنتيجة أنك لا تستطيع أن تفصل تماماً فعلاً مسرحياً منهما عن نقيضه كما كنت تفعل فى المسرحيات المبسطة التى تفصل بينهما بتقنيات واضحة. فالفعل المسرحى يتفاعل مع نقيضه ليس عن طريق الغياب بل عن طريق الحضور لينشأ فعل مسرحى جديد هو مزيج منهما. والتقنية الأساسية لإنجاز ذلك الفعل هى تحويل الراوى الأساسى إلى مرورى عليه؛ فليلي (الأم) نخكى لابنها (الحفيد الذى كان

راوياً فى أول المسرحية) وسلمى (الخالة) نخكى له أيضاً. وفى كل حكاية نشاهد الأحداث نفسها على المسرح كأننا نعاينها (هنا - الآن). ففى كل مرة، يقدم لنا الرواة حكاياتهم أمامنا بوصفها وثيقة حية لا تقبل الكذب أو الرد، وإنما هى واقعة حدثت كما نراها، وعليها أن تنتج المعرفة التى تخصنا نحن منها. المعرفة المعلقة بإكمال مسار الحكاية، والمعرفة المتعلقة بحكاياتنا نحن الخاصة. فنحن لا نستطيع أن نتج معنى حكاية ما إلا إذا عرضناها على حكاياتنا نحن، لا نتج المعرفة إلا إذا استخدمنا معرفتنا بالحكايات الشبيهة التى عشناها، وبذلك يتأسس عالمنا الواقعى فى كل لحظة من لحظات استقبالننا للعالم التخيلى للحكاية.

تؤسس الذات المبدعة لهذا الوعى بالحكاية - بوصفها جسراً بين عالمين: عالم المتفرج الحقيقى (المروى عليه) وعالم شخصيات الحكاية (عالم الراوى). والمشهد الثامن (فصل جريمة العصر) مشهد نموذج، قائم على هذه الفكرة؛ حيث تظهر فرقة مسرحية جواله فى الساحة القريبة من بيت «سناء» (الجددة) وهى فرقة تشخص حكاية قتل «صفية الحافى» زوجها «رفقى الغازى» أحد الأعلام الوطنية فى بيروت؛ لأنها عشقت ابن أخيه ولم تنجح فى الطلاق من زوجها. تشاهد «سناء» هذه «الحكاية» فى الوقت الذى كانت تفكر فيه كيف تتخلص من حياتها البائسة مع زوجها ونهرب مع من نحب. الحكاية المشخصة تشتبك مع حكاية امرأة التى تشاهدها، ترى نفسها مكان «صفية الحافى» القاتلة، فترفضها، ولكنها تقبل عالمها فى الوقت نفسه، فهو تقريباً العالم الذى تعيشه. ولكن ما يشير «سناء» ليست لحكاية الموقف فقط وإنما أيضاً الصبية التى تشخص الحكاية فى الفرقة الجواله، إنها تؤدى الشخصية كأنما تؤدى حكايتها هى، وتعبّر عن مشاعرها تجاه زوجها صاحب الفرقة خلف قناع الشخصية التى تؤديها، وحينما تقول صديقة «سناء» معلقة على المشهد «هذه امرأة تثير الدهشة» تنلقى الجملة كأنها تعليق على الشخصية والمؤدية معاً.

وهكذا تبدو الحكايات مرآوات مصقولة يرى فيها المرورى عليهم ذواتهم بالقدر الذى يرون فيه عالماً تخيلياً.



## خاتمة:

اهتمت ثلاث ذوات مبدعة لسعد الله ووس بثلاثة أفعال أساسية: الفكرة الفلسفية، التيسيس، الحاجة اليومية لتنتج لنا نصوص ما قبل (الأيام المخمورة).

اهتمت الأولى بصياغة الفكرة الفلسفية التي اهتمت بالقارئ دون المتفرج، والثانية بفعل التيسيس الذي رسم صورة، أو وسيلة إيضاح لمتفرج داخل النص ليتبينها متفرج خارجها، أو شكلاً يعتمد على اللعبة كى يقترب المتفرج معها من عالمه الحقيقي، بينما اهتمت الثالثة بالحياة اليومية فى فعل مسرحى يعترف بالمتفرج بوصفه ذاتاً اجتماعية وليس كتلة مجردة تفتقر إلى الوعي السياسى. وسلك كون الذات الثالثة قد قطعت معرفتها بالمشروعين السابقين إذ أعادت ترتيب الأفعال لتبدأ من تفاصيل الحياة اليومية (تمارس من خلالها فعل إكساب المتفرج الوعي بواقع وعالمه الحقيقى لتصل فى النهاية إلى الفكرة الفلسفة، لتكون هى المنتهى لا البداية؛ حيث ركزت الذات المبدعة الثالثة على مشكلة الحرية وهل يحق للفرد أن يمارسها علانية متحدياً نظاماً اجتماعياً يعمل على تنميط أفرادها؛ دافعة بذلك المتفرج القاعلى كى يمارس حرته هو الآخر ولو عن طريق طرح الأسئلة المألوفة.

لقد شغلت العلاقة بين الكاتب والمتفرج ذوات ونوس الثلاث فتنوعت نصوصها على خط (الواقع - المسرح) من أقصاه إلى أقصاه التى يمكن رؤيتها فى هذا الشكل المبسط:

تقنيات كسر الإيهام خط الجدول تقنيات الإيهام



أما الذات المبدعة الرابعة، التى كتبت نص (الأيام المخمورة) فقد أحدثت قطيعتها المعرفية مع ماضيها بأن صنعت من الأفعال الثلاثة نظاماً جديداً لا يعتمد على أسبقية أو ترابعية، فقد نبذت تماماً منهجية الدرجات المتتابعة فى علاقتها بالمتفرج، وانتقلت معه إلى المقعد نفسه ليشكلا معاً فعلاً مسرحياً يعتمد على فكرة الأوجه المتعددة فى اللحظة الواحدة، حيث نحتت الشخصية من واقع المتفرج؛ تمثله بالقدر الذى يمثلها، تاركة فكرة النمط أو الشخصيات الرموز، وتاركة أيضاً الشخصيات الأمثلة كالتى نراها فى (طقوس الإشارات والتحولات) أو (يوم من زماننا) أو (أحلام شقية) أو (ملحمة السراب) أو (اغتصاب)، إنما الحكاية المؤثرة بأفعال الرواة أنفسهم، وحيث لا تنفصل الشخصية عن فعلها. لقد كانت القطيعة المعرفية مع الماضى هى فلسفة البناء المسرحى فى نص (الأيام المخمورة)، حيث يقوم الراوى بإعادة ترتيب ماضيه، بل يخصص النص بعض المشاهد لهذه الفكرة، حين تقوم «سواء» فى حياتها الجديدة مع «حبيب» على تذكر ذلك الماضى لحظة بلحظة، لا لاستعادته وإنما لإعادة موضعيته وترتيبه ضمن الحاضر، لتأسيس مستقبل جديد؛ الماضى «الجديد» جزء منه.

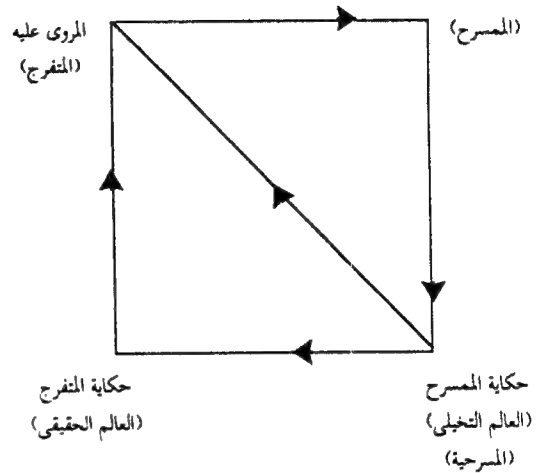
كان يمكن أن نضع (الأيام المخمورة) على خط الجدول بين الواقع والمسرح، ولكن الشكل التبسيطى يفترض خطاً فاصلاً بين تقنيات الإيهام وتقنيات كسر الإيهام، ففى المسرحيات التى تقع على هذا الخط كانت الذات المبدعة الثالثة تستخدم الإيهام مع تقنيات كسر الإيهام غير المباشرة، أما فى (الأيام المخمورة) فالأمر مختلف، الذات المبدعة الرابعة تؤكد لنا أن فعل المسرح لا يمكن أن تفصل فيه الإيهام خالصاً، وكسر الإيهام خالصاً كذلك، وإنما هو فعل مجاوز لتلك التفرقة البسيطة والتبسيطية فى آن. فالمتفرج فيه لا يتوحد مؤقتاً أثناء الفعل مبتعداً عن عالمه الحقيقى، وفى الوقت نفسه لا يقارن عالمه الحقيقى بالعالم التخيلى، وإنما يدخل إلى العالم التخيلى حاملاً معه عالمه الحقيقى وذلك ضمن سياق يجمعه مع الراوى - المسرح (هنا - الآن). ليصبح صانع النص المشارك.



الراوي - الحكاية فهو يعرف أنها حكاية تخيلية تشبه واقعه، وأنه فقط مدعو للحكم عليها مقارنة بواقعه (الفلسفة التفرجية في المسرح).

ويقودنا هذا المربع البسيط لجوانب دراسة النص المسرحي (العرض المقترح) بوصفه علاقة بين المسرح والمتفرج. فالمثلث الأول المسرح - المسرحية - المتفرج يدرس استجابات المؤلف لرسائل المتفرج، ويحدد لنا الموقع الذي يحتله المتفرج في نص المسرح، وهو الجانب الذي يحاول هذا المدخل أن يقدمه. أما المثلث الثاني: المتفرج - المسرحية - العالم الحقيقي فيدرس استجابات المتفرج لرسائل الكاتب، وهو جانب آخر من الدراسة يعنى باستجابات القراء والمتفرجين لنص أو عرض، تلك الاستجابات التي تكشف عن حكاياتهم الخاصة، أو عالمهم الحقيقي، وهو ما يمكن أن يشكل الوجه الآخر للعملة في قراءة النص المسرحي. ففي الحقيقة نحن لا نتعرف النص إلا من خلال قراءاته المتعددة؛ أي من خلال حكايات القراء حين تتفاعل مع حكاية النص، فلا يوجد نص ثابت، أو معنى ثابت في النص، لا توجد قراءة صحيحة وأخرى خاطئة استناداً إلى «حقيقة» كامنة في النص، مجازة لفعل القراءة. العرض المسرحي نفسه، قراءة، أو حكاية يروونها صانع العرض لمتفرج، «صورة» دون أصل قد تنجح هنا وقد تفشل هناك، ولكنها تظل إحدى الصور الممكنة.

ويمكننا أن ندرك المعادلة التي صاغت نص (الأيام المخمورة) عبر الشكل التالي:



المسرح هو صانع الحكاية وراويها، والمتفرج هو المروي عليه الذي يشاهدها (هنا - الآن) والذي لا يمكنه مشاهدتها إلا عبر عالمه الحقيقي الذي يستدعيه في كل لحظة ليكون حكماً على حكاية الراوي. فالنص المسرحي (العرض المسرحي المحتمل) يقابل بين حكايته وحكاية المتفرج، يصمم حكايته (العالم التخيلي) بوصفه مرآة للمتفرج يرى فيها أحداثاً تشبكيه مع عالمه الحقيقي، يستطيع أن يتعرف فيها وقائع مشابهة (الفلسفة الإيهامية في المسرح) لكنه في الوقت نفسه يحتفظ لنفسه بمحور مستقل عن محور

## الهوامش:

(٤) سعد الله ونوس، ميلدورا تحديق في الحياة، الأعمال الكاملة، مج ١، ص ٣٦١.

(٥) المرجع السابق، ص ٣٦٢.

(٦) في أحد العروض المسرحية التي قدمها مهرجان المسرح الحر الأول ١٩٩١، وكان بعنوان يحدث في الصالة الآن من تأليف وإخراج عبد الرحمن عرنوس. وفي الليلة التي أقيمت بمسرح العرائس توجه أحد الممثلين إلى الصالة ليناقشها في أزمة المسرح، واستجاب أحد المتفرجين ودار نقاش «حقيقي» بين الممثل والمتفرج، خرج بالجميع من حال المسرح إلى حال الندوة، وهنا تدخل المخرج الذي أدرك خطورة الموقف على إلقاء المسرحية وأوقف النقاش لنعود إلى الخشبة والعالم التخيلي مرة أخرى.

(١) شكرى محمد عياد (تحقيق وترجمة) كتاب أرسطو طاليس في الشعر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٣٤.

(٢) مقتبس عن Susan Bennett, Theatre Audiences, A Theory of Production and Reception, London and New York, Routledge 1990, p1.

ولهذا الكتاب ترجمة كاملة لسامح فكرى بعنوان جمهور المسرح، صدر عن مطبوعات مهرجان القاهرة الدولي للمسرح التجريبي، ١٩٩٥.

(٣) انظر سعد الله ونوس، الأعمال الكاملة، مج ١، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٦، ص ٢٢٣ - ٤٥٠.

وربما تكون ملحمة السراب كذلك. وهو ما يؤكد لنا أن الذوات المبدعة هي تجليات للكاتب الفعلي، ولكن استجابات الكاتب هي التي تصبّر ذاتاً دون أخرى. فربما كان الكاتب المعلى يرى وقتها أن هذه المسرحيات محض مشاريع غير مكتملة، وأنه رأى بعد ذلك أنها متسقة مع نصوصه الأخيرة فنشرها مع التعديل الذي تقتضيه تجربته ووعيه بالمتفرج.

(١٩) انظر النص كاملاً في: الكرمل، العدد ٥١، (رام الله - فلسطين) ربيع ١٩٩٧.

(٢٠) انظر وظائف الحكاية في دراسة للباحث بعنوان فعل الحكى في الليالي، فصل، المجلد الثالث عشر، العدد الأول، ربيع ١٩٩٤.

(٢١) الأهم المضمرة، مرجع سابق، ص ٢٣٠.

(٢٢) الأهم المضمرة، مرجع سابق، ص ٢٣٠.

(٢٣) الأهم المضمرة، مرجع سابق، ص ٢٣١.

(٧) مغامرة رأس المملوك جابر، الأعمال الكاملة، ص ١٣١.

(٨) المرجع السابق، الصفحة نفسها، هامش (١).

(٩) الملك هو الملك، المرجع نفسه، ص ٤٨١.

(١٠) المرجع نفسه، ص ٤٨٩.

(١١) سهرة مع أبي خليل القباني، المرجع نفسه، ص ٥٥٥.

(١٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(١٣) المرجع نفسه، ص ٦٠١.

(١٤) لسعد الله ونوس دراسة مهمة بعنوان «لماذا ومماذا في ملحمة السراب» أبي خليل القباني، انظر الأعمال الكاملة، مرجع سابق، ص ٥٢.

(١٥) الملك هو الملك، المرجع السابق، ص ١، ص ٥٥٤.

(١٦) طقوس الإشارات والتحولات، المرجع نفسه، ص ١٢٥.

(١٧) ملحمة السراب، المرجع السابق، ص ٢، ص ٦٠١.

(١٨) أحيثنى الناقدة عبلة الرويني بمعلومة أخذتها من إحدى الدراسات التي أجريتها يوم من زماننا وأحلام شعبة مسرحيات السراب في الدراسات الأولى.

## في العدد القادم من «فصول»

### دراسات عن أدونيس:

- أدونيس: الشعر وما بعده محمد بنيس
- أدونيس: هاجس البحث والتأويل جودت فخر الدين
- ما بعد الأدونيسية (شهوة الأصل) عبدالله محمد الغدامي
- أدونيس: حدائق النقد أم نقد الحداثة خيرة حمر العين
- أدونيس بين مؤيديه ومعارضيه عبدالحميد جيدة
- التجريد في شعر أدونيس صلاح فضل
- أدونيس أو قناع الهوية السرية أمينة غصن
- زمن التحولات في شعر أدونيس هديّة الأيوبي
- هكذا تكلم أدونيس عبدالكريم حسن

# مسرح سعد الله ونوس

## المرحلة الأولى

١٩٦٧.١٩٦٣

أحمد زياد محبك\*

أسبابها الحقيقية، وكشف المسؤول عنه، والتحريض على التغيير.

وفي معظم تلك المسرحيات يظهر الإنسان وهو في الحضيض، يعاني من الظلم والقهر، ويشقى بالفقر والحرمان، وهو فرد، وغالباً ما يسحق، ليشير الشعور الحاد بالرغبة في التغيير، ولكن من غير أن يتحقق شيء من ذلك.

وما تمتاز به مسرحيات المرحلة الأولى هو قصرها، فهي في معظمها ذات فصل واحد، وهي أشبه بالقصة القصيرة، وتمتاز بالتكثيف والإيجاز، كما تمتاز بالحدة وقوة التأثير، ويغلب عليها الرمز الشفيف، الذي يعتمد على جزئيات صغيرة، يختارها من الواقع، لتمثل ما هو أكبر منها وأبعد، وتظل مرتبطة ببنية العمل ارتباطاً حميماً.

ويغلب على مسرحيات المرحلة الأولى ظهور التأثير بالثقافات الغربية، وهو تأثير بناء، تم توظيفه في خدمة العمل.

-١-

يمثل سعد الله ونوس (١٩٤١ - ١٩٩٧) منذ بدئه الكتابة المسرحية عام ١٩٦٣ اتجاهاً متميزاً في التأليف المسرحي في سورية خاصة والوطن العربي عامة، كما يقدم منذ بدئه الكتابة المسرحية الملامح الأولى التي ستميز نتاجه المسرحي كله فيما بعد، على الرغم مما سيطرأ عليه من تطور، ولئن دل هذا على شيء فإنما يدل على وضوح الرؤية، وصلابة الموقف، وعمق الارتباط بالواقع.

وتمثل المرحلة الأولى في مسرح سعد الله ونوس بضع مسرحيات قصيرة كتبها بين عامي ١٩٦٣ و ١٩٦٧، قبل أن يكتب مسرحيته (حفلة سمر من أجل ٥ حزيران) وتميز هذه المسرحيات بالاهتمام الواعي بالواقع، وإدراك قضاياه في تنوعها وتربطها، والتعبير عنها بحدة وجرأة، والبحث عن

\* أستاذ الأدب العربي الحديث ، جامعة حلب.

-٢-

و (ميدوزا تخدق في الحياة)<sup>(١)</sup> هي أول مسرحية منشورة لسعد الله ونوس، وهي تعبر عن ما يسطرح في وجود الإنسان من قوى متناقضة، يمثلها العلم والفن والحب والسلطة ولعل أكثرها خطراً على الإنسان، السلطة، ولعل الأكثر خطراً عليه، هو عدم مبالاة هو نفسه بما يدور حوله.

ويتبع الكاتب في مسرحيته طريقة خاصة، تقوم على شيء من السرد والوصف ويسميتها «مسرحية مبرية»، ويحتاج لهذه الطريقة بأنها تسمح له بالتدخل، لا تتركه ينفذ غير مبال كما يقف العالم، فكأنه يدعو إلى الترفيز وهو في سرده بعض الحوادث وفي وصفه أعماق بعض الشخصيات، يقوم بدور تحريضي، يبتعث في نفس القارئ شعوراً استفزازياً يدعو إلى اتخاذ موقف ما من الحوادث والشخصيات وهي ذات فصل واحد، وغير مقسمة إلى مشاهد.

وفي المسرحية عالم وفنان، يتنازعان حب فداء، ويمتثل أبوها الحاكم حب الرجلين لها، ليوقع بينهما، وليستخر اكتشاف العالم في تثبيت حكمه، ويساعده على ذلك الوزير الذي لا تخفى أطماعه الخاصة.

والمسرحية تصور بيئة تعمل فيها كل القوى متنازعة، منفردة، في تناحر وتصارع، من أجل سيطرة فرد، ولا تشمل متعاونة، في اتفاق، لتحقيق ذاتها مجتمعة، في تعاون وعدل، تحقق به ذات الإنسان، وحرية وكرامته. فالعالم يتوسل بفنه إلى امتلاك قلب «فينوس» وهزيمة خصمه العالم، والعالم يفعل الشيء نفسه، متوسلاً إليه بعلمه، والحاكم يستخدم ابنته ليسيطر بها على العالم ثم يستخدمه في تمكين حكمه، وتوسيع نفوذه والوزير يغري الحاكم بذلك، وهو يعني إلى القفز على الحكم من بعده.

وهذا العلم، وذاك الفن، هما نتاج تلك البيئة التي تصورها المسرحية. وهي بيئة يحكمها سلطان جائر، مستبد، يريد أن يستأثر بكل شيء لنفسه كي يدعو به سلطته، ويقوى نفوذه، ويمد سيطرته على شعوب مجاورة. وبذلك أنه يحقق عالماً تتوحد فيه السلطة، وهو لا يملك لذة أي إصلاح مملكته والاهتمام بشؤون رعاياه.

والمرأة في تلك البيئة، لا شخصية لها، ولا دور، ولا فعل، ولا رأي، والذي جعلها كذلك أبوها، ووزيره، فإذا هي تفعل ما يملئ عليها، وسرعان ما تتغير مواقفها فتتكرر حبها محققة مصلحتها، ومصلحة أبيها.

وتبدو السلطة المستبدة، وحدها، هي المسؤولة عن ذلك كله، ويمثلها الحاكم الفرد المسيطر، فهو الذي اصطنع الخلاف بين العلم والفن، وزيف الحب، وجعل كل شيء في خدمة هواه، احتجزه لنفسه، وجمده، ثم دمره، مثله مثل «ميدوزا» الساحرة التي تزعم الأساطير أن كل ما تقع عينها عليه كان يتحول إلى حجر. ووراء ذلك كله يقف العالم في صمت، فالتناس مستسلمون لقدرهم، قد يعرفون ما يدور، وقد لا يعرفون، ولكنهم، في كل الأحوال، لا يشاركون في صنع مصيرهم، ولا يعترضون على من يصنعه، بل إنهم غير عابئين بشيء.

والبيئة التي تصورها المسرحية متقاة بعناية، وعناصرها ذات أبعاد محسوبة بدقة، وهي مركبة تركيباً لترمز إلى واقع المجتمعات التي تخضع لسيطرة حاكم مستبد يبدد الطاقات، ويفرقها، ليضمن بقاءه، بعيداً عن مشاركة الشعب في صنع مصيره. والمسرحية تشير بذلك، من خلال الأسطورة، قضايا اجتماعية واقتصادية وسياسية مرتبطة بالواقع.

والمسرحية لا تمثل في الحقيقة إلا بداية للاقترب من قضايا الواقع، فهي لا تزال بعيدة عنه، أو هي - بشكل أدق - تقترب منه خلال الرمز، ومن خلال قيم كلية عامة أيضاً. فأسلوب المعالجة ترميزي، ذهني، مجرد، يتخذ من الحاكم والعالم والفنان والفتاة رموزاً لأبعاد ومعطيات تمثلها في الواقع، بشكل عام، غامض مبهم، لا يلزم بشيء، ولا يحدد شيئاً، بل يفسح مجالاً لتأويلات كثيرة، قد تختلف، بل قد تتناقض.

- ٣ -

والمسرحية الثانية المنشورة لسعد الله ونوس، هي مسرحية (فصد الدم)<sup>(٢)</sup>، وهي تشبه كثيراً مسرحيته الأولى (ميدوزا تخدق في الحياة)، سواء في الفكر أو في الفن. وفيها

وهذا ما يقوله الصحفي لعلى<sup>(٣)</sup>:

النظام، نعم النظام، الحقيقة، ما الإنسان؟ مجرد مسمار زهيد فى عربة النظام الهائلة، فاصغ إليه جيداً، إذا أردت أن تعرف نظامنا الخاص، السيد يريد ديمومة الحكم، وديمومة الحكم تقتضى رضى الشعب، ورضى الشعب يقتضى مظاهر الوطنية، والبطولة، والصلاح، وقضيتكم أكثر القضايا حساسية، وأنسبها لارتداء جلابيب الوطنية والبطولة، والصلاح، وإذن فليكن ضحيج، ولتدق الطبول، الصامته منها والداوية.

ومن الطبيعى، بعد ذلك - كما تقول المسرحية - وفى ظل مثل تلك الحكومات، أن تضيق طاقات الجماهير، وتبدد، بما يمارس عليها من تزييف لحقائق تعرفها، ولكن يراد بها أن تضل عنها، فتأبى ذلك، ولكنها مقيدة مسوقة ومحاصرة، وعندئذ تجد كل جهد ضائعاً، وكل تضحية عاقراً، بل ترى الوجود نفسه عبثاً، وإذا تبحث عن الخلاص، تسقط - وهى محاصرة - فى الضجر والضيق، والتشيز والقلق والخمر.

ويمثل ذلك الشاب، وهو أسمر، وجهه مألوف، يحمل مذابحاً صغيراً وتطبع مشيته الحيرة، والقلق، يستمع إلى عدد من محطات البث الإذاعى، وإذا هى جميعاً تبث دعاوى سياسية مزيفة، أو أغاني رخيصة، فيقف المذيع ويصرخ<sup>(٤)</sup>:

الفخ عبوديتنا التاريخية، لبصاق أجهزة أدسون الملوثة، ما نكاد ندير الزر حتى تثبث فى نفسنا رغائب الاستفراغ، ونخنق الصوت المتوحش، لكن لا تلبث الأصابع أن تعود باحثة عن أفئونها، والمعجزة؟ المعجزة حلم حشاش نافه، لا معجزة لا حقيقة، لا شئ إلا البصاق..

ويعلن أمام «على» بقوة أنه «يبحث عن ملجأ خارج حدود الأرض، وبعيداً عن دوامة التاريخ الرهيبة»<sup>(٥)</sup>، ولكنه ينفر من جدية على، ويأس بضياى عليوة، ويمضى معه فى انسجام كبير، ويقبلان على الخمرة، يعانها معاً.

يعرض قضية فلسطين، فيبرز بجراً سكوت الشعب العربى وسلبيته، وبعده عن الفهم السليم والإعداد السليم لقضية وجوده الأولى، ثم يفضح موقف الحكومات الذى لا يتجاوز الدعاوى والتضليل والاتجار بالقضية، للبقاء فى الحكم، ثم يكشف بجراً عن الداء، كما يرى، ويصور الطريق للخلاص.

فالمسرحية تعرض لقضية فلسطين، فتعالجها من داخل الوطن العربى، ومن خلال واقعه الخاص، فتقدم صورة لهذا الواقع، بما فيه من تمزق وضياى، وقهر وتضليل، وبما فيه من رغبة فى الخلاص وسعى نحوه، وتكشف المسؤول فى الداخل، وتؤكد الحاجة إلى تصفيته أولاً، قبل الدخول فى الصراع الحقيقى مع العدو.

والمسرحية تحشد لذلك الأطراف كلها، فى الداخل، بانتقاء ذكى، وتقديم لماع، دقيق، معتمدة الرمز، فثمة أطراف خمسة، هى:

الجماعة - الصحفي - الشاب - على - عليوة.

وهى تقدمهم بوصفهم أشخاصاً يمتلكون ذاتهم، من جهة، ويمثلون أطرافاً أو قوى من جهة أخرى.

فالجماعة تتألف من شيوخ ونساء وأطفال، يقتعدون فى ظل جدار متهدم، سحنهم متداعية، وعيونهم مطفأة، يجتثرون حركة هز الرءوس المتتابعة، الموحية بأقصى أنواع الخواء المتبدل. وهى تمثل الشعب العربى، الذى أخرج من فلسطين فلجاً إلى الحكومات العربية، يحتفى بها، منتظراً العودة وهو أعزل ضعيف، لا يملك شيئاً.

والصحفى يمتلك آلة التصوير، يلتقط بها صوراً للحقيقة، ولكنه يزيّفها، ليستفيد منها فى الدعوة للسلطة، وتحقيق مكاسب خاصة، مسوغاً ذلك بطبيعة النظام، وضرورات العيش، وهو فى الحقيقة أحد أركان السلطة وممثليها، فهى مثله تمتلك الإعلام، وتزيّف به الحقائق، فى دعاوى مضللة تدعم بها وجودها، الأمر الذى لا مسوغ له ولا شرعية، وهى تخدم به أنظمة استعمارية، تحقق مكاسب خاصة، على حساب القضية، مثلها فى ذلك مثل الصحفي فى الانتهازية، كما تقدمها المسرحية أنتد.



على الرغم من أنها تخوض في غمار من القوى المناقضة لها، بل إنها تثق بها، وتقدم ذلك كله بجرأة، وشجاعة باسلة، وبشيء من الرمز النظيف الذي يومي ولا يكشف، فيمنح العمل بعداً فنياً، ويعد عنه السقوط في المباشرة.

والمرحبة تنطلق من الواقع، وترتبط به، وتستمد منه مادتها وموضوعها، ولكنها تضطر إلى قطع الخيوط التي تربط العناصر بالواقع ربطاً مباشراً، فلا تسمى المكان ولا تحدد الزمان، وهي تعتمد إلى شيء من التجريد، والتريز، فالشخص تمثل ذاتها من جهة، وتمثل طبقتها أو نموذجها، من جهة أخرى، ولكن هذا كله لا يبعد العمل عن واقعه، وتظل العناصر المحلية فيه واضحة، بمعقولية وارتباط متين بالواقع.

ولكن لا بد من أن يلاحظ، من جهة ثانية، أن المسرحية خلو من الحكمة والصراع، فالمسرحية تقدم مقطعاً أفقياً للواقع العربي، تعرض فيه عدة أطراف، في استعراض بانورامي شامل، يغيب فيه العدو الخارجي، وهي تعتمد الحوار، وسلسلة من المواقف عمادها دخول شخصية وخروجها وليس ثمة قصة، أو فعل، غير المطاردة، بين علي وعلوية، ثم قتل الأول الثاني، كما يلاحظ أن في المسرحية قدراً كبيراً من اللغة غير الحوارية، التي تصف المكان، وتصور الشخص، وتسرد الحوادث، بدقة، وتفصيل، يراد منه التأثير مما يجعل المسرحية أقرب إلى القصة الحوارية، منها إلى المسرحية، وهي بعد ذلك كله في فصل واحد.

- ٤ -

وفي المسرحيات التالية، يعرض ونوس لمشكلات تتعلق بالواقع السياسي، ففي مسرحيته (لعبة الدبابيس)<sup>(٦)</sup> يعرض لمشكلة الحكم فيتناول وصول الحاكم غير الكفء إلى كرسي السلطة، بمساعدة الوصوليين الانتهازيين، الذين (يطبلون) له، ويزمرون، ولا يكون التغيير في الحاكم إلا شكلاً لا يتغير فيه من يقفون وراء الحكم نفسه، الذي لا يتغير في حقيقته.

والمرحبة في فصل واحد، تدور مجرياتها في مسرح فارغ إلا من طاولة مستديرة عليها زجاجة ممتلئة حتى

إن الشاب، وعلوية لا ينعان عن جهن بالقضية، أو تخل عنها، وإنما ينعان عن وعي به، وأمس في يأس من إمكان الخلاص، لما يعيشان فيه من حصار.

وعلى وعلوية شابان، من الأرض المحتلة، في سن واحدة، ولكن علوية شائع قبل الأوان، وهو ساحر، ناث، قلق، يحمل زجاجة الخمر، وعلى قوى مساندة، صارم، جاد، وهو ماض في البحث عن علوية لقتله، وهذا ماض في الهرب منه. وكلاهما واع بالقضية، يعرفونها، ويحلمان الأرض والوطن، ولكن أحدهما يائس قانط، متخلى متحاذ، والآخر واثق متفائل، مصمم مستمر.

وهما يمثلان واقع الشعب العربي، في فلسطين، الذي أجبره العدو الصهيوني على الخروج من دمه، وتشرد في البلاد العربية، وتوزع بين مثل هذين الممثلين، وربما بين غيرهما من الأنماط. وما توزعه، في الحقيقة، إلا نتيجة لما يمثل في الواقع العربي، من زيف وفجور وفساد وانتهاز، صنع الصحنى والشاب وصنع على وعلوية، أيضاً.

إن حالة التسبب التي يعيشها علوية، والتخاذل، والاستسلام والهرب - كما تقول المسرحية - هي ما يجب أن يقضى عليه الشعب العربي، ليس في فلسطين وحدها فحسب، بل في معظم أقطار الوطن العربي، ليتم بعدئذ تحريك الطاقات العربية المتمثلة في الجسماء الصامتة، القاعدة، المنتظرة، وتنظيمها، لتدخل، بشكل فعلي وصحيح، في الصراع مع العدو.

وهذا ما تدعو المسرحية إليه، وينعان بتعقيقه، من خلال انتصار على، وقتله علوية، حقيقةً المص للتعسب والميوعة، ثم في التفاته بعدئذ إلى الجسماء الصامتة ليقول لها: «يقي صمتكم».

وبذلك استطاعت المسرحية أن تشرح قضية فلسطين بمعالجتها من الداخل، فقدت صورة كنه فع السري، وصورت علاقته بالقضية وطبيعة ارتباطها بها وذلك في نظرة كلية، ترى الظواهر في نسقها، وتذكر كنهها، وتقف على أسبابها، وتبصر خلال ذلك القوى الإيجابية وما من بدورها،

نستطيع أن نتلمس تأثير سعد الله ونوس بالفكر الوجودي، حيث عالج ازدواجية الأنا لدى بطله، شذود، الذي يتحاور مع جليس غير مرئي، وكذا تأثيره بالموقف العبيثي، من خلال ما أسقطه على بطله برهوم من ممارسات ومواقف تشبه إلى حد كبير معالجات فرانس كافكا العبيثية لبطل قصته المسخ، فألى جانب شذود هناك جسد آخر منقوخ، مشدود إلى الأرض، لا يملك سوى الحلم والوهم، وبينما نجد الاثنين على تلك الحال، يدخل برهوم الحاوي الذي يقرر أن يلعب هذا اليوم لنفسه، قبل أن يفاجئه مطارده، ثم يأخذ جسده بالانتفاخ، قبل أن تختلط شخصيته بشخصية شذود.

وفي هذا الفهم تعبير عن قراءة سريعة، كما أن الربط بين ازدواجية الأنا، والوجودية، ربط غير دقيق، وشذود لا يعاني من الازدواجية ومن الوجودية، كما أنه لا يشبه في شيء المسخ عند كافكا. إن شذود يمارس الغواية والتضليل، من خلال ادعاء المرض، أي أن المرض مدروس ومخطط، وانتفاخه يدل على وجاعة وزعامة وسيطرة، لا على ضعف وحصار.

### - ٥ -

وفي مسرحية (المقهى الزجاجي)<sup>(٨)</sup> يقدم سعد الله ونوس صورة للواقع السياسي الداخلي، غير السليم، في مجتمع يسيطر فيه حاكم مستبد، يخضع الشعب لمشيشته، ويسوقه إلى وضع ينسجم فيه معه، ويستسلم له في سكون، يبدو نهائياً، ولكنه في الحقيقة ليس كذلك، فالتغيير لا بد آت. وهو يقدم هذه الصورة من خلال معادل للواقع، أو بديل منه، هو المقهى الزجاجي، الذي هو تقليص للواقع، بمثله ويرتبط به، في عناصره، من خلال الرمز الشفيف.

والمسرحية تعرض، من خلال هذا الرمز الشفيف، للعلاقة بين الحاكم المستبد ومجتمعه، فتصور الحاكم الذي يسيطر على أرواح الناس، وأجسادهم، ويقطع كل صلة لهم خارج الحاضر، مستغلاً واقعهم، بسيطرة كبيرة، يقودهم إلى الغرق فيه، لا يبالي بموتهم أو حياتهم، وأكثر ما يخشى هو

منتصفها، وكوب فارغ، وفنجان قهوة، وجوار الطاولة كرسى يقعد عليه رجل غريب الشكل، يشبه الكرة، يتحدث كثيراً، هو «شذود»، لونه أصفر فاقع، وملامحه ضيقة، ودقيقة، تدل على شيء من الفخامة الشكلية. وعلى يسار المسرح طاولات وكراسي مبعثرة، رسمت جميعاً بريشة خشنة، أما الجانب الأيمن فتغطيه ستارة ذات لون أصفر فاقع.

والمسرحية تفضح بجرأة كبيرة طبيعة الحاكم الوصولي، غير الكفاء، الذي يصنع منه منصبه حاكماً، على حين أنه غير أهل له، وما هو في الحقيقة، غير بهلوان دعوى، ولم يصل به إلى الحكم غير أناس آخرين، هم أصحاب المصلحة الحقيقية في وجوده، وهم الذين يصنعونه، من وراء ستار، ويزيفون وجوده، الذي يستفيدون منه، ويعيشون عليه.

والمسرحية تعتمد لذلك الرمز الواضح، القريب، ترتبط من خلاله بالواقع ارتباطاً غير مباشر، تتخلص به من الكشف الصريح، وإن كانت لا تزال تمتلك قدراً كبيراً من الجرأة، حتى وهي تطرح موضوعها من خلال الرمز.

وما يلاحظ على المسرحية هو غياب الطرف الآخر، الشعب، الذي لا مكان له ولا دور، في المسرحية، كما يلاحظ عليها غياب نقتها بإمكان الخلاص، إذ يبدو أن الأحكام يتغيرون، بالطريقة نفسها، ويبقى الحكم هو نفسه، في دائرة مغلقة، يكرر بعضها بعضه.

ولا تغيب عن المسرحية ظلال من ثقافة غربية، فتحول المرء من إنسان عادي إلى حاكم، بسبب قعوده وراء منصة الحكم، هي الفكرة التي تطرحها مسرحية: (جوهر القضية) لناظم حكمت، وهي الفكرة التي سيعالجها سعد الله ونوس فيما بعد بأسلوب آخر في مسرحيته (الملك هو الملك).

وقد تبدو جزئيات الرمز غير قوية الارتباط بما تدل عليه ولكن هذا لا يلغى مثل تلك الدلالات، التي يبدو أنه من الصعب فهم المسرحية من غيرها، وهذا ما حاوله بعض الدارسين، فانساقوا وراء فهم غير مرتبط بالنص، يصعب قبوله أيضاً. ومن تلك المحاولات قول أحدهم<sup>(٧)</sup> في هذه المسرحية:

وأخيراً، تصور المسرحية هذا الوضع السياسى هشاً، وغير متماسك وقابلاً للانحطام، وهو وضع لا يمكن له أن يستمر، فثمة فى المستقبل ما يحمل تباشير الرفض والتغيير الشامل. وهذا ما يمثله الأولاد جيل المستقبل، الذين يرشقون بالحجارة المقهى الزجاجى، القابل للتطلم والانكسار.

وبذلك تقدم المسرحية صورة للواقع السياسى، من خلال نظرة كلية شاملة، ترى الواقع، بأبعاده كافة، وتبصر مشكلاته جميعاً، وتضعها فى سياقها، فتكتشف الأطراف التى تقف وراءها، فتسببها وتفيد منها، كما تكشف عن الأطراف التى تمارس السطوة عليها، فتسحقها وتستغلها، وتبرز أدوار الطرفين، وتدنيها، وتفضحها، وتضع ذلك كله فى سياقه التاريخى، فتعبر عن الإحساس السليم بالتحرك، الذى يسوق إلى التغيير، وهو تغيير لا بد قادم.

ولكن المسرحية تصور الواقع فى شكل سكونى ثابت، قوامه استعراض الأطراف بشمول، استعراضاً تشريحيّاً، تفصيليّاً، تجزييّاً، يتناول كل طرف، فيدرس حركته ودوره، وحده، بمعزل عن الأطراف الأخرى، فالمعلم ظاهراً مستبد، وغارق فى صيد البراغيث، والرواد خاضعون، ومستسلمون للعب الطاولة، والنادل يتنكر لذاته، ويخدم سيده، والحجارة تتساقط فى الخارج. إن كل طرف يبيض، ويتحرك، ولكن ليس ثمة علاقات بين الأطراف واضحة، مكشوفة، قائمة.

إن كل شئ ساكن، وليس ثمة صراع بين الأطراف، ولا حركة، ولا فعل، بل هناك نفي للفعل، وتسكين للأمور، وإيقاف لها، فالرجل يموت، ويحمل إلى الخارج وأنى يتنبه إلى الحجارة، فيحمل إلى الخارج أيضاً، مثله مثل الميت، والجميع مستغرقون فى اللعب. إن هذا لا ينفى - من غير شك - الغليان فى النفوس، والصراع فى داخلها، ولكن ثمة هرب حتى من هذا، وما اللعب، والانسجام، إلا أحد أشكال الهرب، فثمة تسكين شامل.

ومرجع هذا، من غير شك، إلى القمع، الذى يمارسه صاحب المقهى، على الرواد، بتسلط كبير، فإذا هم فى سكون. ولذلك، بدا التغيير القادم مع الأطفال فى المستقبل، ليس حقيقياً، وإنما هو مجرد إيمان تسليمى أو تعلق بحلم،

غدهم، أو يقظتهم، فهو يريداهم دائماً فى نخلات وجهل وفى شغل عما هم فيه، وإن كان فى الحقيقة ضائعاً مثلهم يعيش فى عبث، وفراغ. ويمثل هذا الحاكم صاحب المقهى، الذى يرفع ساعة الجدار، كى لا ينبه الناس إلى موضعهم من الزمن، ودورهم فى التاريخ، ويأمر بحمل أنسى إلى الخارج، ليقتله وانتباهه إلى تساقط الحجارة وهو يتسلى بتصيد البراغيث.

كما تصور المسرحية المجتمع الذى يخضع لذلك الحاكم المستبد، فهو مجتمع مفكك متمزق، لا يبالى فيه أحد بأحد، ولا يلتقى به إلا من خلال مصالحة عابرة، وقد استغرق ذلك المجتمع فى اللحظة الراهنة، غفل عن كل ما عداها، فهو مطمئن إلى الرتبة يفزع من كل حديد، يواجه مشكلاته بالإهمال، أو بالقمع، ولعل أدنى ما يوصف به هو «إنه مجتمع قد اتخذ الشكل الذى يريد له حاكمه المستبد، فاستقر فيه، فألفه، بانسجام كبير». ويمثل هذا المجتمع رواد المقهى، فى الانسجام الذى يربى عليهم، من خلال انغماسهم فى اللعب، وانصرافهم عما هو خارج المقهى، وعدم مبالاة جاسم بما فى نفس صاحبه أنسى، وحيثية أن يلعب معه، وعدم اكتراث الرواد لموت أحدهم، وتغيب انتباههم إلى الحجارة المتساقطة على المقهى.

ثم تصور المسرحية الأداة التى تربط بين الحاكم ومجتمعه، وهى أداة مصطنعة يتخذها الحاكم لنفسه من المجتمع ويخضعها لسيطرته، لتنفيذ إرادته، ضد المجتمع من غير أن تملك الرفض، وهى تخون نفسها واجتمع، لأنها تعرف الحقيقة ولكنها تتنكر لها، لتنفيذ الدور المرسوم لها بوصفها أداة. وهى لا تحظى بشئ من عصف اليد التى تطبق عليها، بل لعل هذه اليد أشد إطباقاً عليها، من غيرها. ويمثل هذه الأداة النادل، الذى يتنقل بين صاحب المقهى والرواد، وصاحب المقهى يستخدمه، ويستفيد به ولا يبالى بمشكلاته الخاصة، ولا يمنحه شيئاً من تعطف، وهو يعمل على بقاء الرواد فى حالة يرضى عنها صاحب المقهى، وينفذ أوامره، فيحمل «أنسى» بطلب منه، ويمنى به إلى الخارج على الرغم من أنه يعرف الحقيقة مثله.

المقهى الزجاجي، والناس في الداخل ماضون في اللعب، ومشهد إخراج الميت محمولاً على الأكتاف، وسط الرواد وهم منكبون على طاولات اللعب، مشهد سريالي، كما أن وجود الآخر، من غير تواصل معه، هو صدى لوحانية الفرد في الكون عند الوجوديين، وغريته فيه.

ومثل هذه الظلال الثقافية، التي تمنع المسرحية أبعاداً إنسانية، هي التي تخفف من حدة الرموز، وضيق دلالتها، وحين تتواسج الرموز مع الظلال الثقافية يحدث شيء من التوازن، يمنح العمل الفني بريقاً متألقاً، فإذا العناصر هي المقصود بذاتها مرة، وإذا هي رموز لعناصر أخرى، مرة ثانية.

ومثل هذا الجمع، الذكي، هو الذي دفع أحد دارسي النص إلى القول<sup>(٩)</sup>:

كان بإمكاننا أن نسقط الرمز على الواقع المعاش، فيتلبس ظاهراً كيان السلطة القمعية، ويبقى الاطمئنان، بالنسبة إلى المواطنين «رواد المقهى» بتنفيذ التعليمات ومجانبة المنوعات، بيد أن طبيعة التساؤلات الميتافيزيقية تلقى ظلالها المعتمنة على تلك الإمكانية، وتقفز إلى أذهاننا بدلاً من الإسقاط الإيجابي، صورة غير واضحة، تشكل من أشكال الرفض العبثي، ذي المحتوى والمردود السلبيين.

ربما لا شك فيه أن الدارس قد انتبه إلى الرمز، في المسرحية، ولكنه شغل عنه بظلال الشقافة، وحسب أنها المطلوبة. وتبدو دراسته متأثرة إلى حد كبير، بدراسة أخرى سابقة، شغلت بالجانب الثقافي، في المسرحية، ومضت تفسرها من وجهة نظر وجودية، فإذا هي تقول<sup>(١٠)</sup>:

وفي المقهى الزجاجي تطرح قضية من نوع آخر محنة الرتابة، وزحف الزمان، والخوف من الموت معاً.

إن محنة الرتابة، وزحف الزمان، والخوف من الموت معاً، هي أمور مطروحة حقاً ولكنها ليست هي «القضية» وليست هي المقصودة، بذاتها، وإنما هي ظواهر قائمة فرضها

هو في ظهر الغيب، يرتبط بالمقبل، في انتظار بارد، لا يحمل في الحاضر، داخل المقهى الساكن نبوءة ما، أو دلالة، أو تحركاً، فالجميع في سكون، واستسلام، واستغراق وكل انتباه يقود إلى النفي إلى الخارج.

إن المسرحية تنتقد الواقع بقسوة، وتفضح الأطراف كافة وتتهم حتى المجتمع في غفلته، وسكونه، وتعتبر عن شعور بالإحباط كبير، يكاد يبلغ درجة اليأس لولا الإيمان المطلق بقانون التغيير، الذي ينال الأشياء، ودورة التاريخ، عبر مسيرة الزمن المستمرة. فهي تفضح، وتدين، وتثير الإحساس بالنقمة، وتخرص، ولكنها، لا تمنح كثيراً من الثقة الواعية أو التفاؤل الموضوعي.

والمرسح، بعد ذلك، تقدم رؤيتها للواقع، من خلال بديل عنه، هو المقهى الزجاجي، فتعتمد أسلوب الرمز، فتجتمع عناصر قوية، مترابطة، متماسكة، في المقهى لها ما يناظرها من عناصر أخرى، في المجتمع. وهذا البديل، المقهى الزجاجي، بعناصره كافة، مستمد من الواقع ومرتبطة به، ودال عليه؛ فالمقهى، والنادل، والرواد، والزجاج ولعب الطاولة، والأولاد، كلها عناصر مستمدة من الواقع، وهي نفسها بعض مشكلاته المعيشة.

إن المسرحية ترتبط بالواقع، في موضوعها السياسي، وفي مادتها، المستمدة منه وإن كانت طريقة معالجتها غير مباشرة تعتمد الرمز، ولكنه رمز واضح شفاف، وهو قوي ومتماسك، وقد يبدو في لحظة من اللحظات ليس رمزاً، وأن انقصود به هو ذاته، وهذا دليل النجاح في بناء الرمز وتماسكه. فالرمز القوي هو الذي ينجح في أن يوحي بأن المقصود به هو ذاته مرة، وما يرمز إليه، مرة أخرى، مع إمكان تعدد المقصود به أيضاً.

ويلاحظ في المسرحية ظلال من ثقافة غربية، تتراءى، خلال المسرحية، فتمنحها أبعاداً، من غير أن ترهقها، وتمثل في خلق مناخات مختلفة، بعضها وجودي، وبعضها سريالي، وبعضها الآخر عبثي، أو غير معقول. فتمة شيء من الإحساس بعشية الوجود في صيد البراغيث، الذي يمارسه صاحب المقهى وثمة شيء من غير المعقول، في تساقط الحجارة، على

والمسرحية تحمل ملامح من مسرح العبث، في شكله، وليس في منطلقاته الفكرية، ويتجلى ذلك في فكرة شراء السيد جثة المتسول، لإطعام كلبه، ودعوة الشرطي إلى شق الجثة والتأكد من عدم نيتها.

إن قصة المسرحية هي قصة غير معقولة، ولكنها تعبر عن مدى التفاوت الطبقي الذي يعيشه المجتمع.

## -٧-

وتأتى بعد ذلك أكثر مسرحيات ونوس شهرة في المرحلة الأولى من مسيرته المسرحية، وهي مسرحيته (مأساة بائع الدبس الفقير)، وقد حقق بها شهرته، ولقيت اهتماماً كبيراً، إذ قدمت في مهرجان دمشق الأول للفنون المسرحية في مايو أيار سنة ١٩٦٩، وأخرجها علاء الدين كوكش.

وهي في الواقع الجزء الأول من ثنائية مسرحية عنوانها: «حكايا جوقة التماثيل»، أما الجزء الثاني فعنوانه: «الرسول المجهول في ماتم أنتيجونا».

وفي الجزء الأول: «مأساة بائع الدبس الفقير»<sup>(١٢)</sup> يتعرض سعد الله ونوس للسلطة المستبدة فيفضح ممارساتها القمعية ضد أفراد من الطبقة المسحوقة، البائسة، الفقيرة التي لا تملك قوت يومها والتي تبحث وراء اللقمة، ولا تتدخل في أمور السياسة، وهو يدينها بهذا الموقف السلبي الذي تتخذه، والذي يجبر عليها أوحش العواقب، ويتيح للسلطة أن تزيد من حدة قمعها.

والمسرحية تفضح بشكل واضح وجريء عسف السلطة المستبدة بالطبقة المسحوقة، من الشعب، وتدين هذه الطبقة، وتتهمها ببعدها عن ممارسة دورها. فالسلطة المستبدة تمارس أشد أنواع القهر الجسدي، والروحي وتسحق الإنسان الفرد، وتجثته من جذوره، لتدمره تدميراً. وهذا الإنسان الفرد كان مشغولاً بلقمة عيشه ومهتماً بأسرته، غير مبالي بواقعه الخارجي، لا يتدخل فيه، ولا يسأل عنه مؤثراً السلامة، فجزر عليه تخليه عن واقعه، أسوأ العواقب.

وما دام الإنسان فرداً غير مرتبط بمجتمعه، وما دام مشغولاً بنفسه غير مبالي بواقعه، فسوف يبقى عرضة أبداً

صاحب المقهى على الرواد وما هي إلا معادل لأمر أخرى تشبهها، في مجتمع تسيطر عليه حكومة مستبدة. وما لجوء المؤلف إلى ذلك الأسلوب إلا محاولة للتعبير. إن القراءة الأولية للنص، والوقوف عند الظواهر، والاشتغال بأمر جزئي، طرق غير كافية لفهم النص.

## -٦-

يعرض سعد الله ونوس<sup>(١١)</sup> لتضارعات النطق، بشكل سافر، فيفضح السلطة بجرأته المعهودة، ويكشف ارتباطها بالطبقة الغنية المسيطرة، وولاءها لها، بل يؤكد أنها ليست سوى أداة في يدها، بقدرته المؤلف على التعبير الكثيف، المركز والواضح والمحدد، من خلال شخصيات قليلة، قوية التأثير تمثل كل شخصية طبقتها، روح شعريّة متألفة، وفي ذكاء حاد لماع، وجرأة باسلة. وذلك في مسرحيته (جثة على الرصيف) التي تقوم على قصة بسيطة، قيامها شحاذ يتوفى على قارعة الطريق، فيقدم غنى على شرائه من صديقه، ليتخذ منه طعاماً لكلبه ويكون الشرطي وسيطاً بينهما، يحقق للغنى سيطرته على الفقير.

ومن الجلي أن المقصود بالمتسول الفقير الطبقة الفقيرة المسحوقة، وبالسيد الغنى الطبقة الغنية المسيطرة، وبالشرطي السلطة الحاكمة التي تنفذ القانون لصالح الطبقة المسيطرة، والتي تسهر على مصالحها، فكل شخصية تمثل طبقتها، أو ترمز إليها. وعلى الرغم من أن الشخصيات لا تحمل أبعاداً شخصية خاصة تميزها، المقصود بها ليس ذاتها، وإنما ما تمثله أو ترمز إليه، فإنها تظل شخصيات واضحة، محددة، ذات تأثير قوى، مقنع، يمتاز بالحدة، والشاعرية.

والمسرحية ليست في حقيقتها سوى لحظة صغيرة، لموقف جزئي صغير، عبرت عنه بلمحة شعريّة عاطفة، كأنها قصيدة قصيرة، أو خاطرة صغيرة، ولكنها على الرغم من ذلك استطاعت أن تحتوى مشكلة اجتماعية كبيرة، وأن تقدمها بدقة ووضوح، فتكشف أوضاعها، وتبرز أسبابها، وتطرحها بجرأة، فتخلق لحظة انفعاله، تعارف وفرض، وترك وبعاً حاداً، ودافعاً قوياً.



ولا مرتبط بالعالم الخارجى فى شىء، ولكن العالم الخارجى يفرض نفسه عليه بقوة وسيطرة وعسف، لانفصاله عنه، وخضوعه له.

إن ونوس يقابل بين الداخل والخارج، بين الخاص والعام، بين الفرد والمجتمع منطلقاً دائماً من الأول، فى اتجاه الثانى، من الجزئى إلى الكلى، ليحدث الاصطدام بينهما، وهو اصطدام مروع، مذهل، يدمر فيه الفرد، ويسحق، ويجرى الوبال على الكل. وبذلك يدين ونوس الداخل والخاص والفرد حين يتفصل هذا عن الخارج والعام والمجتمع، وهو يسعى إلى إعادة اللحمة بين الفريقين، وهى إعادة صعبة، تحتاج إلى فضح، ونقد، وقد امتلك ونوس هذين، وعبر عنهما بجرأة.

تلك هى (مأساة بائع الدبس الفقير) التى كتبها سعد الله ونوس فى القرن العشرين، بعد الميلاد، لتشير إلى (مأساة أوديب الملك) التى كتبها سوفوكليس قبل الميلاد، بأربعة قرون. وإذا كان بين المسرحيتين فوارق زمان ومكان ولغة كبيرة، فإن بينهما نقاط تشابه أكبر، فى العناصر والمراحل والأحداث.

فانقذ خراج أوديب من كورنثوس بحثاً عن الحقيقة، فأرأى من القدر فقاده أقدامه إلى أقداره، فى "ثيبة" ليقتل أباه، ويتزوج أمه، ويصبح فيها الملك ثم يخرج منها ذميماً مدحوراً، أمام سيطرة الآلهة، التى كسرت صلته وكبرياءه.

ولقد خرج «خضورو» من بيته، باحثاً عن رزقه ولم يغادر مدينته، فقاده المخبرون إلى أقبية التعذيب، ولم يقترب شيئاً، ليلقى فيها الهوان، ويدق المرثم يخرج منها محطماً الجسم والنفس، ثم يسحق تحت أقدام المخبرين، وهو البسيط الساذج المتواضع.

الآلهة هى التى تخدت أوديب وهو الفتى القوى الطموح الشجاع ذو الكبرياء والصلف، والمخبرون هم الذين تخدروا خضورو وهو الطبيب الفقير الساذج البسيط. أوديب حل اللغز، وقتل الوحش، وقتل والده، وارتكب الفحشاء مع أمه وحاز الملك، ثم فقأ عينيه يديه، واختار لنفسه النفى. وخضورو

لعسف السلطة، لأنه بتخليه عن ممارسة دوره، بوعى ومسؤولية، ومن خلال الجماعة، يتيح للسلطة أن تطفئ، كما تقول المسرحية، وأن تستبد ولو تغيرت، لأن تغييرها، هو نتيجة لتدخل غيره، من طبقة أخرى تعمل على تحقيق مصالحها، ولن تعمل لصالحه أبداً، وهو غير المبالي، كما تقول المسرحية.

ولذلك، تغيرت السلطة فى المسرحية، ثلاث مرات، وظل بائع الدبس الفقير، فى كل مرة مطارداً مداناً، لأنه كان أبداً غير مبالي بواقعه، على الرغم مما كان يناله فيه. لقد خرج أول مرة من قبو التعذيب، ولم يتغير، فظل على طبيعته، وبعده عن ممارسة دوره، وتغيرت السلطة، وظل مداناً ومطارداً، لأن السلطة الجديدة ليست من طبقته، وهكذا كان الأمر فى المرة الثانية، ولكنه لن يكون كذلك فى الثالثة، بل سيكون الأسوأ، وهو السحق.

إن بائع الدبس الفقير جدير بالازدراء والامتهان، أكثر مما هو جدير بالطف والشفقة، فهو مدان، وليس بريئاً، وهو مقصر، ومتدخل، وليس بسيطاً، ولا طيباً. والغاية منه ليست إثارة الإحساس بالظلم والعسف، فحسب، وإنما بعث حس النقمة فى النفس والغضب، والتحريض على ترك السلبية، والدعوة إلى ممارسة الطبقة المسحوقة دورها وإلا آلت إلى دمار.

وهذا هو ما يحمده للمسرحية، وهو ما تتميز به، فقد عرضت لعسف السلطة على الطبقة الفقيرة، التى لا تمثلها، فلم تصور هذا العسف، باعتباره مظهرًا فحسب، بل ربطته بأحد أسبابه الحقيقية، وهو تقصير الطبقة الفقيرة عن ممارسة دورها، فى صنع مصيرها، وعدم اتعاظها، من خلال ممارسات القمع المتعددة، التى كانت تمارسها عليها السلطات باستمرار، على الرغم من تغييرها.

إن سعد الله ونوس معنى بشكل واضح بالجزئى، والخاص، واليومي، ليسصل من خلاله إلى الكلى، والعام والدائم. فهو يغوص فى أعماق الفرد، ويظهر مكنوناته، وهو فرد مرتبط ببيئته، واقع ضمن ما هو اجتماعى، أو سياسى.

إن بائع الدبس الفقير فرد يعانى من عذاب البحث عن اللقمة، وهو بسيط ساذج، هارب من الجماعة، غير متم،

إن بائع الدبس الفقير يستحق النهاية التي فرضت عليه، لأنه منذ البدء لم يختار البداية، ولم يحاول أن يختار البتة، إنه متمسك بالبساطة والسذاجة، في عالم لا حق فيه إلا ما تدعمه القوة، وهو منسحب مهزوم متخلف، في عالم لا يمكن أن تتحقق فيه ذات الإنسان ما لم تكن له قضية يدافع عنها، ويكافح في سبيلها. إن جرم بائع الدبس الفقير كبير جداً، ويستحق النهاية التي آل إليها، من غير شعور تجاهه بالشفقة أو العطف، وجرمه هو غربته، هو وقوفه خارج بيئته، إنه فرد غير منتم لا يرتبط بشئ من قضايا مجتمعه، ولا يقوم بشئ من واجبه تجاه بلده، ولا يمارس قدراً ولو بسيطاً من مواطنته.

ولكن، إذا ما طغى الظلم الذي نال بائع الدبس الفقير، ليشمل المدينة كلها، فهل يبقى الموقف من الظلم هو نفسه الموقف الذي اتخذته الفرد بائع الدبس الفقير؟ هذا ما يجب عنه الجزء الثاني من المسرحية.

الجزء الثاني من مسرحية (حكاييا جوقة التماثيل) هو: (الرسول المجهول في مأتم أنتيجونا)، وهو تال للجزء الأول، ويمثل، بشكل ما الوجه الآخر، أو رحلة الإياب، بالنسبة إلى الجزء الأول: (مأساة بائع الدبس الفقير).

وإذا كانت (مأساة بائع الدبس الفقير) قد أشارت بشكل غير مباشر إلى مسرحية (مأساة أوديب الملك) - سوفوكليس فإن (الرسول المجهول في مأتم أنتيجونا) تشير بشكل غير مباشر أيضاً إلى مسرحية سوفوكليس التالية لمسرحيته (مأساة أوديب الملك) وهي مسرحية (أنتيجونا).

فلقد وثب المخبر على السلطة، عند ونوس في (الرسول المجهول في مأتم أنتيجونا) مثلما تولى كريون الملك من بعد أوديب، ثم راح المخبر ينتهك حرمة المدينة، ويمارس فيها الاغتصاب، والعنف والقتل، مثلما راح كريون يطبق أشد القوانين عسفاً على ثيبة. ومثلما صمدت أنتيجونا في وجه كريون وتحذرت أمره فدفت أخاها، متمسكة بالقيم الروحية، كذلك صمدت خضرة وتحذرت المخبر وتمسكت بالروح الأصلية لمدينتها. وإذا كان تريسباس رسول الآلهة، لم يفلح في إنقاذ أنتيجونا، فإن الفتى الرسول المجهول قد استطاع أن

لم يفعل شيئاً البتة فهو طيب، لا يفعل شيئاً، لا يتدخل في السياسة، ولا يؤذى أحداً، ولا يفحش على حمار، ولا يفكر بشئ، حتى رزق يومه لا يكاد يحصله، وذلك - زأؤه أن سيق مرغماً إلى أقبية التعذيب، ثم سحق سحقاً.

أوديب بطل يتحدى الآلهة، ويصارع القدر، ثم يصنع نهايته بيديه ويختارها لنفسه اختياراً، وحضور إنسان عادي يخاف السلطة، ويهرب منها وهي تنسج نهايته وتضع حداً لوجوده.

وثمة نقاط أخرى كثيرة، بين أوديب الملك، وخضور بائع الدبس الفقير، يمكن أن تكشفها دراسة التماثلين، ولعل في الكشف التالي ما يقدم بعض نقاط التماثل بين العاملين:

أوديب الملك	خضور بائع الدبس الفقير
شاب قوى متكبر شجاع	عجوز ضعيف متواضع متردد
خرج من المدينة التي ربي فيها	خرج من بيئته
البحث عن الحقيقة	البحث عن البرق
القدر يقوده إلى (ثيبة)	المحر يقوده إلى ثيبة التعذيب
يحل اللغز	يوضح بعد في حسه
يقتل الملك	لا يفعل شيئاً...
يتزوج الملكة	يحرم من زوجته
يرزق أولاداً	يقتل ولده (برهيم)
يكشف ذاته (ابن زوجته)	يكشف ذاته (ابن مدينته)
يفقأ عينيه وينفى نفسه	يداس بالأقدام ويستحق

وإذا كان سقوط أوديب الملك يشير الإحساس بالروعة، ويحقق معنى المأساة لأنه كان قد خدش قدره، وقاومه، وحقق ذاته، ثم اختار مصيره بنفسه، وكان شجاعاً حريزاً، فإن سقوط بائع الدبس الفقير لا يشبه سقوط أوديب الملك في شئ، فهو يشير الإحساس بالمقت والارذلاء، أنه يائس، مسكين متواضع، مهزوم، منسحب، لا يحمل قضية، ولا يتحدى، ويستسلم الاستسلام كله، فيسحق وهو ضعيف مهزوم.

تتحطم في الجزء الثاني جميعاً، وهي تذكر في الجزء الأول إنها تمثل الرجال الذين كانوا، وليسوا الآن، فقد ماتت الرجولة، وتلعن الإقدام، وتلاحظ أنها لم تكن مثلما هي عليه الآن. وتذكر في الجزء الثاني أنتيجونا التي ضحت بنفسها من أجل دفن أخيها، وتشير إلى مدينة ثيبة وما نالها من عسف وظلم، وترثي خضرة وتشفق لحالها. وتعلن أن الخوف يكهم الأفواه، وأن الإنسان الجريء قد مات، وأن الإنسان الذي كان يصارع الآلهة قديماً قد انعدم وأن إنسان اليوم يصارع أقداراً تافهة يخضع لها.

وها هي ذى الجوقة، وقد تبقى منها أربعة تماثيل، في الجزء الثاني، تصف الواقع، الحاضر، وتقرنه بالماضي، الأسطورة: (١٣)

أصبحت الشجاعة كالذكرى العابرة

أو كالحلم يعبر الرؤوس المسحوقة

كانت أرض أنتيجونا الأولى فضاء

وكان الإنسان لا يزال

أما الآن، فقد اختنقت الأرض بالأسوار،

أسوار شاهقة مريعة.

وتسهم الجوقة في سرد الحوادث، ووصف المكان والأشخاص، وتطرح أفكاراً سياسية جريفة، تنتقد فيها الواقع، وتستثير الحماسة، وتخرض على الفعل، فتعمل بذلك على قطع العرض المسرحي، وكسر اندماج المتفرج بالعرض، لتقوم بدور تعليقي مباشر، يبقى على يقظة المتفرج، بل يثير انتباهه، وينجيّه من مزلق الانغماس في العمل والذهول عن ذاته.

ويساعد في ذلك جو التفرغ الذي تحدّثه هذه التماثيل الحجرية، التي تبدو أكثر قدرة من الأحياء على التعبير عن وعيها، بجرأة، تقدم عليها، مستعدة للتضحية.

كما تعمل الجوقة بعد ذلك على تأكيد صدور المسرحية عن الأساطير الإغريقية القديمة التي قدمتها مسرحيات الإغريق القديمة، فالجوقة نفسها جزء من التقليد المسرحي

ينقذ خضرة. وكما هزم كريون فنكب في ولده وزوجه، ودمر من الداخل، كذلك هزم المخبر وأصيب بحك في جسده، وتآكل من الداخل وانهار.

ويمكن للعناصر المتقابلة في كل من المسرحيتين أن تقدم في الكشف التالي:

أنتيجونا	الرسول المجهول في مآتم أنتيجونا
١ - كريون يتولى الحكم بعد أوديب	المخبر ينقلب على أسياده ويتولى الحكم
٢ - كريون يفرض على المدينة قوانينه الصارمة	المخبر يفرض على المدينة العنف والانتهاك
٣ - أنتيجونا تصمد وتحدي الملك	خضرة تصمد وتحدي المخبر
٤ - أنتيجونا تتمسك بالأعراف الدينية	خضرة تتمسك بالقيم الروحية للمدينة
٥ - الكاهن يعمل على إنقاذ أنتيجونا	الفتى يعمل على إنقاذ خضرة
٦ - كريون يصاب بفجائع في أسرته	المخبر يصاب بحك داخل
٧ - كريون ينهار	المخبر ينهار

ونمة غير تلك العناصر، عناصر أخرى، تكتشفها القراءة المتأنية لكل من المسرحيتين. وهي عناصر لا يلتقي بعضها ببعض، في كل من المسرحيتين على أساس من التشابه فحسب، بل على أساس من التناقض والمفارقة أحياناً، والتشابه والتقارب أحياناً أخرى، هي عناصر بعضها لبعض كالصوت والصدى، أو الشكل والظل، يشير بعضها إلى بعض ويدل عليه، ويوحى به، ولكنه بعد ذلك قد يشبهه، وقد يختلف عنه.

وخلال المسرحية، بجزأيتها، وفي أثناء المواقف، تظهر الجوقة، وهي تسعة تماثيل حجرية منصوبة، تردد أثناء العرض أناشيدها، وفيها تعبر عن إحساسها بالمأساة، وشعورها بالخوف، فحتى هي لا تستطيع أن تنطق، وتقول الحق، ولكنها، على الرغم من ذلك، تغامر، فتقول شيئاً، فتتهشم واحداً وراء واحد، فلا يبقى منها في الجزء الأول غير أربعة، على حين

فتعبر عن غيابه بمرارة كبيرة، وانتقاد شديد، من خلال تصوير الجو القمعي، التسلطي، الذي يفرض السكون الشامل، وتغيب فيه الجماهير، ليؤكد أن هذا الغياب هو المسؤول عن ذلك القمع، والتسلط، وليحرض الجماهير على تلمس دورها، ومباشرة. وعلى الرغم من الذكاء في هذا الطرح، إلا أنه فرض على المسرحيات جميعاً جوّاً سكونياً، غاب فيه الفعل الجماهيري المباشر، والواضح، الذي يمكن له أن يوحى بشئ من التفاضل الموضوعي، مما جعل المسرحيات تفقد أيضاً التبشير بإمكان التغيير.

ولقد مثل ونوس بمسرحياته اتجاهاً في الاهتمام بالواقع السياسي، اتسم بالارتباط الوثيق بالواقع والصدور عنه، في رؤية شمولية، تدرك أبعاده كافة، وتكشف الأسباب الحقيقية الكامنة وراء ظواهره، وتثير حساً عميقاً بالنقمة، وتحرض الجماهير على ممارسة دورها.

وهو اتجاهاً في الارتباط بالواقع جديد، لم تعرفه حركة التأليف المسرحي في سورية سواء في الأربعينيات التي لم يظهر فيها نص مسرحي يعنى بالواقع السياسي، أو في الخمسينيات التي شهدت عناية بالواقع السياسي من خلال بعض النصوص التي ارتبطت بالواقع ارتباطاً خطائياً انفعالياً، كما في بعض مسرحيات خليل الهنداوي، أو ارتبطت ارتباطاً مثالياً إنسانياً، على نحو ما ظهر لدى مصطفى الحلاج في مسرحيته (الغضب) و (القتل والندم).

إن الذي يميز مسرح سعد الله ونوس في مسيرته المسرحية الأولى هو لصوقه بالواقع، وارتباطه به ارتباطاً قوياً، يتسم بالحدة والجرأة، ويمتاز بالفنية المتمثلة في مسرحيات قصيرة، تؤكد التوتر الشديد، ولا تغيب عنها بعض المؤثرات الثقافية، ولكنها تتمثلها، وتصدر عنها في غير ما تقليد، لتؤكد خصوصيتها.

كما يميز تلك المرحلة في مسيرة سعد الله ونوس المسرحية حملها معظم الملامح الرئيسة التي ستبدو في المراحل التالية أكثر وضوحاً وأشد قوة، كما تتميز هذه المرحلة بدلالاتها على موهبة متفجرة تبشر بالاستمرار والتطور، وهذا ما حدث حقيقة، مما يؤكد أصالة الموهبة، ووضوح الرؤية وصلابة الموقف لدى سعد الله ونوس.

عند الإغريق، وهي نفسها - عند ونوس - تشير إلى تلك الأساطير، وتعمل أحياناً على فك الرموز من حجبها، ولا سيما في (الرسول المجهول في مأتم أنتيجون)، حين تصرح بأن خضرة هي رمز المدينة.

ولقد كان صدور سعد الله ونوس في مسرحيته عن الأسطورة الإغريقية صدوراً مدروساً، يدل على وعي وذكاء، كما يدل على موهبة وقدرة متفتحة. فلقد تمثلت الأسطورة، ووعاها، وغابت في أعماق نفسه وحين أنشأ مسرحيته كانت الأسطورة قريبة منها بقدر ما كانت بعيدة عنها؛ فهي تستوحى ولا تقتبسها، وتصدر عنها، في غير تقليد، إذ تمتلك مسرحيته استقلالها، وذاتها، وشخصيتها، مما قد شجع على رفض المقارنة بين مسرحية ونوس والأسطورة من جهة وبين مسرحيته ومسرحية (أوديب الملك) و (أنتيجون) من جهة ثانية. ولكن مثل هذا الرفض لا ينفي حقيقة الجذر الكامن في عمق العمل المسرحي عند ونوس، بل يؤكد الصدور الذكي عن الأسطورة، وهو صدور يشهد بالثبات ويستوحى ولا يقتبس، وبظل محتفظاً بشخصيته، استقلالاً، بل يزيد ذلك الصدور غنى وعمقاً.

## - ٨ -

وهكذا فقد ارتبط سعد الله ونوس في المرحلة الأولى من سيرته المسرحية (١٩٦٣ - ١٩٦٧ م)، مع انبعاثاً حميماً، فعالج موضوعات تتعلق بالواقع السياسي فيه، على المستوى الخارجي، في قضية فلسطين، وعلى المستوى الداخلي، في مشكلة الحكم الانتهازي، والقمع التسلطي. وكان حتى في معالجته قضية فلسطين، متاجهاً من خلال الداخل، فيكشف دور الحكومات العربية في القضية، غير المخلص في العمل لها. وبذلك كانت مشكلة الحكم، أو السلطة وعلاقتها بالشعب هي محور اهتمام سعد الله ونوس بالواقع، وهو محور جديد في موضوعات المسرح العربي، طرحه سعد الله ونوس بجرأة، وشجاعة نادرة.

وقد عبر ونوس عن رؤية للواقع، شديدة، تدرك أبعاده كافة، وتبصر الأسباب الحقيقية للنقمة وراء الظواهر، وهي رؤية تنشأ بالجماهير، وتؤمن بدورها، وحين تنتقد في الواقع،

## الحواشي

- (١) ونوس، سعد الله، ميلوزا تحديق في الحياة، مجلة الآداب بيروت، العدد ٦ حزيران ١٩٦٣ ص ٣٤ - ٤٠.
- (٢) ونوس، سعد الله، فصد الدم، مجلة الآداب، بيروت، العدد ٣، آذار ١٩٦٤.
- (٣) المصدر نفسه، ص ٦١ - ٦٢.
- (٤) و (٥) المصدر نفسه، ص ٦٠.
- (٦) ونوس، سعد الله، حكايا جوقلة التماثيل، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٦٥، ص ٣ - ٣٠.
- (٧) إسماعيل، إسماعيل فهد، «سعد الله ونوس ورحلة الالتزام والوضوح»، مجلة الآداب، بيروت، العدد ٦ حزيران، ١٩٧٨، ص ٢٩.
- (٨) ونوس، سعد الله، حكايا جوقلة التماثيل، ص ٨٣ - ١٢٣.
- (٩) إسماعيل، إسماعيل فهد، «سعد الله ونوس ورحلة الالتزام والوضوح»، ص ٣٠.
- (١٠) النقاش، فريدة، «مسرح سعد الله ونوس»، مجلة الهلال، القاهرة، يوليو، ١٩٧١، ص ٧٧.
- (١١) ونوس، سعد الله، حكايا جوقلة التماثيل، ص ٦٣ - ٨٢.
- (١٢) ونوس، سعد الله، «مأساة بائع الدبس الفقير»، مجلة الآداب، بيروت، العدد ٢ شباط ١٩٦٥ ونشرت ثانية في مجموعة: حكايا جوقلة التماثيل ص ١٢٧ - ١٧٠، وقد ألحق بها مسرحية أخرى عنوانها: «الرسول المجهول في مأتم أنتيجونا»، وجعل المسرحيتين أشبه بجزأين في مسرحية واحدة، عنوانها: حكايا جوقلة التماثيل.
- (١٣) المصدر نفسه، ص ١٧٧.





# منمنمات تاريخية

جابر عصفور\*

## ١ - منمنمة:

الذى يفرض على العين بقاء الإيقاع فى تطلعها إلى التفاصيل الدقيقة، ويفرض على ذهن التأتى فى تفسير دلالة النظرة التى تشكل خلال فعل التحديق الذى هو نقيض اللحظة الخاطفة، والذى يكتسب خاصيته من طبيعة موضوعه المنمنم.

ويستغل سعد الله ونوس هذه الخاصية المقترنة بالمنمنمة، ويكتب مسرحيته الجديدة بما يشد الأعين إلى ما تنطوى عليه من «منمنمات تاريخية»، فيبطئ إيقاع الالتقاء بحضور التاريخ، ويسمر العين والذهن أمام التفاصيل الصغيرة، غير البارزة، من تدافع القرون، وينقشها على الصفحة (أو على خشبة المسرح فيما بعد) بما يلفت الانتباه إليها من حيث هى دال مزدوج، يومئ إلى حضوره الذاتى فى الوقت الذى يومئ إلى حضور خارجى، ويشير إلى الزمن الماضى وإلى الزمن الحاضر. وكما تتوقف العين لزاء أدق

تشير المنمنمة إلى المنمنمة، وهى التصوير الدقيقة فى صفحة أو بعض صفحة من كتاب مخطوط، واشتقاقها من الفعل «نَمَّ» الذى يفيد معنى الإظهار والإنشاء والإبانة والكشف، ومنها «النَمَّة» وهى لمعة البياض فى لسواد، أو لمعة السواد فى البياض، و«المنمنمة» هى النقش والتصوير، وهى كتابة الريح على الرمل والماء، حين ترك الريح عليها أثراً شبه الكتابة، وهى الكتابة الدقيقة المقارنة السفور على أوراق المخطوط. وعندما تقترن «المنمنمة» بالصفة «تاريخية»، فى مسرحية سعد الله ونوس الجديدة (منمنمات تاريخية)، فإنها تضيف إلى معنى الزينة والزخرفة المأثور خاصية الكتابة التى تختزل التاريخ فى حضورها، وتنقش على صفحاتها، والتى تلفت الانتباه إلى حضورها الذاتى وعلاقات صفحاتها فى الوقت نفسه. هكذا تشد «المنمنمة» الأعين إلى حضورها

برقوق. والأول اسم بلا صفة. والثاني غلام تولى الحكم سنة إحدى وثمانمائة للهجرة بعد وفاة أبيه السلطان برقوق. ولم تزل أيامه كلها كثيرة الفتن والشرور والفلاء والوباء، وطرق بلاد الشام فيها تيمورلنك فخر بها كلها وحرقها وعمها بالقتل والنهب والأسر، حتى فقد منها جميع أنواع الحيوان وتمزق أهلها في جميع أقطار الأرض، فيما يقول المقرئ في كتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار». وتلقت مسرحية سعد الله ونوس من هذا الوصف العام التفاصيل الصغيرة التي تمنم بها البناء المسرحي، ما بين ثلاث رؤى للعالم، مأساة سقوط الشام أمام القوة العاتية لتيمورلنك منذ ستمائة وإحدى عشرة سنة.

وتتجسد الرؤية الأولى في أفكار الشيخ برهان الدين التازلي، رجل النقل الذي يعادى أهل العقل، ويعاقب كل من يميل إلى مقالاتهم، والذي يرى في المغول عقاباً من الله لغفله الذين تفشت فيهم مقالات الملحد، فيدعو الناس إلى أصولية النقل التي تنجيهم من غواية العقل، وإلى الجهاد الذي ينجيهم من محنة المغول، فيظل - رغم استشهاد - صورة أخرى من القاضي برهان الدين بن مفلح الحنبلي.

أما الرؤية الثانية فتجد معادلاً في أفكار ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون (صاحب المقدمة) رجل العلم الواقعي الذي لم يعرف من قوانين الأحداث ومجرها سوى أن وصف الغروب الشامل والشهادة عليه هو الممكن الوحيد لرجل العلم الذي لا بد أن يفيد من القوة الجديدة التي تكتسح العالم. ولذلك مال ابن خلدون إلى رأى القضاة والفقهاء الذين اجتمعوا بمدرسة العادلية واففقوا على طلب الأمان من تيمورلنك، وشاوروا في ذلك نائب القلعة، فأبى عليهم ذلك ونكره، فلم يوافقوه. وخرجوا إلى الغازي الذي اتفقوا معه على فتح المدينة، وتبعهم ابن خلدون الذي رأى في تيمورلنك سلطان العالم وملك الدنيا الذي لم يظهر مثله في الخليقة منذ عهد آدم.

وتبنى الرؤية الثالثة على أفكار آردار نائب القلعة، رجل الفكر، الجندي الذي يرفض الاستسلام، ويختزل وجوده في حماية النظام الذي يعرفه دون أن يحلم بنظام جديد. ولكنه

التفاصيل في حضورها المتعين وعلاقاتها المتعددة، ما بين دوال التاريخ المكتوب وكتابة التاريخ، يدرك ذهن أصغر الوقائع في ضوء جديد، وملتقط من سياقاتها المدركة معاني متعددة الأبعاد، سواء على مستوى الزمن الذي تنتسب إليه «المنمنمات» في الماضي، أو على مستوى الكيفية التي تشكل بها في اللحظة الحاضرة لإدراك حضورها الذاتي، أو على مستوى الزمن الحاضر والزمن المستقبل في توزيعها الذي تومي إليه المنمنمات بما تصوغه من عناصر الزمن الماضي.

هذا التعدد في أبعاد الزمن ومستوياته يرتبط بالكيفية التي يعالج بها سعد الله ونوس التاريخ في هذه المسرحية، فأحداث التاريخ ليست مجرد أقنعة أحادية البعد، ينطق الحاضر من خلالها، مهما صغرت أو دقت. وليست العودة إلى التاريخ مجرد بحث عن وقائع لإسقاط الحاضر بما يحيل الماضي إلى مجرد مرآة تنعكس عليها أحداث الحاضر، دون أن تشغل المرآة الانتباه إلى حضورها الذاتي من حيث هي مرآة. التاريخ، هنا، حضور متعين في الزمن، صراع قوى محددة، ومجموعات متفاعلة. والكشف عنه كشف عن الماضي في سياق علاقاته الخاصة، ولكن بما ينطوي على تعدد الدلالة التي تعني تعدد مستويات الدال. ولذلك يتخذ منطوقات المنمنمات التاريخية، في مسرحية سعد الله ونوس، طابعاً بنائياً وظيفياً، يجعلها أقرب إلى «الاستعارة بالكناية»، لو استخدمنا المصطلح البلاغي القديم، حيث تمتزج الاستعارة بالكناية، من حيث هي دال أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه.

وإذا انتقلنا من لغة التجريد البلاغي إلى لغة التعيين الدرامي قلنا إن ما تنطوي عليه مسرحية سعد الله ونوس من «منمنمات تاريخية» تشير إلى ثلاثة أبعاد للزمن، بعد الزمن التاريخي للماضي الذي تنقشه المنمنمات وتختزل به سبعة أشهر على وجه التقريب، من الزمن الماضي الذي يبدأ من شهر محرم وينتهي في شهر رجب من سنة ثلاث وثمانمائة للهجرة، وهي السنة التي سقطت فيها دمشق أمام جحافل تيمورلنك، أثناء حكم الخليفة أمير المؤمنين المتوكل على الله والسلطان الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج بن

الجميع، وانطلق إعصار التار يتزعمه تيمورلنك ليفرض نظاماً جديداً.

هذا العالم التاريخي الذي ينتمى إلى الزمن الماضي في مطلع القرن التاسع للهجرة، حيث انتصر النقل على العقل، والظلم على العدل، والتسلط على الشورى، وفلسفة التبرير على فلسفة التغيير، هو عالم كئيب في آخر الأمر. أعنى أنه عالم المقصود فيه معناه ولازم معناه على السواء. ولذلك تزود دوال هذا العالم في إشارتها التاريخية التي تصدق الدلالة على مطلع القرن التاسع الهجري في الوقت الذي تومئ إلى دلالة موازية في مطلع القرن الخامس عشر للهجرة، وتحرك بالقارئ - المشاهد إلى استنتاج أوجه التشبه بين الماضي والحاضر، وتدفع به إلى أن يملأ ثغرات النص بما يؤكد إسهام الماضي في وعي الحاضر، وإسهام الحاضر في وعي الماضي، وذلك في عملية يتحول فيها ناتج الوعي بالطرفين إلى معرفة ترهص بالمستقبل.

وأفصّر أن تعدد الأبعاد الزمنية التي تشير إليها هذه المنمنمات هو المسؤول عن ازدواج مستويات الأداء الدرامي في نص المسرحية. إن صوت «المؤرخ» الذي يؤكد حضور التناسل مع كتب التاريخ القديم، في علاقات البناء الدرامي، توازيه النعمة التي تحيل الإجمال إلى تفصيل، والتي تتخذ من كلمة «تفصيل» نفسها عناوين للمشاهد التي تعقب صوت المؤرخ القديم وتمهد له في الوقت نفسه. وما بين النعمة الأولى والثالثة، وتتكون كلتاها من ثلاثة عشر تفصيلاً، يتقابل رجل الدين مع رجل العسكر، وتتوسط المنمنمة الثانية التي تتكون من ثماني تفصيلات ما بين «الهزيمة» و«المجزرة»؛ أعنى التوسط الذي يبرز «محنة العلم»، ويردد أصداءها، ويذكرنا بضحاياها في التفصيل الختامي الأخير الخاص بالشيخ جمال الدين الراعي، حيث تتسمر أعيننا على رجل العقل رمز الاستتار، مرفوعاً على صليب، محكوماً عليه بالإعدام من الجميع، فلا تختلف حوله أطراف الصراع على ما بينهم من الحرب وسفك الدماء، وتذكر ما قاله وهم يجرونه إلى سجنه: ما أتمس حالنا إذا كان علماء الأمة يسمون الاجتهاد والعلم كفرًا.

ينظر إلى عمله من منظور نقلى تسلطى، مشهور يجعل منه موازياً آخر للتأزلي وابن مفلح في عدائهما لحرية العقل، فيرفض إطلاق سراح الشيخ المعتزلى المسجون، أو حتى الاستعانة به في جهاد الغزاة الكافرين، ويرفض معاونة من اختلف مع السلطان في الرأي، فعقليته العسكرية الثقيلة لا تعرف حق الاختلاف أو التسامح فيه.

وما بين هذه الرؤى الثلاث، وفي موازاتها، يتحرك علماء وأعيان وتجار يحثون عن المناسب والوجهة والنعمة، فينتهى الأمر بالجميع إلى كارثة السقوط أمام حوافل المغول التي مكن لها طوفان الفساد في الداخل، والهزيمة تبدأ دائماً من الداخل. وقد بدأت من اندفاعه الطوفان الفاسد الذي لم يقدر على مواجهته أمثال الشيخ جمال الدين بن الشرائحي الذي آمن بحرية الإنسان وقدرته على صنع مصيره وإبداع حياته، كما آمن بالعدل الإلهي الذي لا يرضى لعباده الفقر أو الذل. وكان من الطبيعي أن يحرق كتبه قنصاة دمشق الأربعة، وأن يسجنوه في القلعة.

وتتجسد دلالات هذا البعد التاريخي للزمن الماضي بواسطة الصراع الذي يحدث بين الرؤى الثلاث من ناحية وبين الشخصيات المرتبطة بهذه الرؤى على مستوى السلب والإيجاب من ناحية ثانية. وتتكثف الحركة الدرامية وتنتوثر ما بين الثنائيات المتقابلة التي تقمع أطرافها الأوسى أطرافها الثانية، في حركة تنتهى بالجميع إلى الكارثة هكذا قمع أهل النقل صوت العقل في مجالات المعرفة الدينية ومجالات المعرفة بالواقع على السواء. وتغلب رجل العلم (لدى يسجن التاريخ في قوانين حتمية ويقصر مهمته على تفسير العالم) على نقيضه الذي أكد دور البشر في صنع التاريخ ودور العلم في تغييره. وفرض رجل الفكر الذي آمن بالحفاظ على النظام القديم منطقته على التأثير الذي حلم بأن يمتدداً سيولد من مخاض المحنة. وسرق التاجر الذي خالف مع علماء الدراهم والدنانير أقوات الفقراء وأغراضهم. وحسر المتمرد قضيته حين أضاع وعيه بالعالم، ولحقه قوبله من أهل العلم حين وشى بنظيره، وأضاع التاجر الصغير ما ملكه في حرصه الصغير على العالم، وباع الأب ابنته، وسحى لتاجر بابنه، وتحولت الضحايا إلى صورة من جلاذيتها. فحق الدمار على

التعصب، الشورى مع التسلط، صراع يدور بين من يؤكدون قدرة الإنسان الخلاقة في ممارسة فعله الاجتماعي، واختيار نظامه السياسي، وصياغة معرفته الإنسانية، ومن ينفون عنه هذه القدرة ليركوه أسير الطاعة والإذعان، في مجالات الفعل الاجتماعي والأنظمة السياسية والمعرفة الإنسانية. وهو صراع بين نظرتين متناقضتين، اقترنت الأولى بلحظات الصعود التاريخي، حين انطلق العقل العربي يصوغ أفقا من التقدم الإنساني الذي أفادت منه البشرية كلها. واقترنت الثانية بلحظات الهبوط والانحدار، حين انكفأ هذا العقل على نفسه، واستراب في قدراته، وعجز عن مواجهة نقائصه، فانتهى إلى معاداة وجوده وتدمير نفسه بنفسه.

وقد ارتبطت النظرة الأولى، في ازدهارها، بمناخ التسامح وحق الاختلاف والمجادلة بالتي هي أحسن، وكانت قرينة الحاكم العادل الذي يرعى مصالح الجماعة، ويسوس أبناءها سوس الرحمة، ويعمل على تحقيق الخير لأبناء الأمة، والدفاع عنها، وقيادتها إلى النصر على أعدائها بواسطة الشورى التي لا تنفى حق الاختلاف والتي تحقق الوحدة التي تقوم على التنوع. واقترنت هذه النظرة برجل الدين الذي فتح باب الاجتهاد على مصراعيه، ليكون الاجتهاد أداة لحلم التقاسم، وسبيلا إلى تحقيق نهضة الأمة، وصياغة مصالحها المتغيرة. وكانت النظرة الثانية على النقيض من الأولى، في تسلطها، قرينة المستبد الظالم الذي لا يرعى مصالح الجماعة، ويقدم عليها مصالحه الخاصة، ويسوس الأمة سوس الأنعام، مميّزا بين طوائفها، نافيا عن المخالفين له حق المواطنة، كأنه الوجه الآخر من المتعصب الذي يخرج المغاييرين له من حظيرة الدين، لأنه لا يقبل خلافا في الرأي أو مغايرة في الفهم، أو تعددا في التأويل، ويرى في التقليد والتصديق والطاعة ولزوم الجماعة علامة الهداية المنجية من ضلالة الاجتهاد ومضرة الابتداع.

ولأن مسرحية سعد الله ونوس مسرحية تدين عصرها الذي تومىء إليه، على سبيل التضامن والازم، بما ينطوي عليه هذا العصر من مخاطر التقليد التي تهدد حرية الاجتهاد، ومن تعصب النقل الذي ينفي تسامح العقل، فإن المسرحية تختار منمنماتها التاريخية من لحظات السقوط الفاجع،

وكما يزدوج صوت المؤرخ والتفصيل في بناء الحدث الدرامي الذي يتراوح بين الاثنين، يزدوج صوت الأداء، ويتحول الممثل إلى مشخص يتقمص الشخصية ويتباعد عنها في الوقت نفسه، ينطق الدور الذي يجسد الماضي المتخيل، ثم يعتمد عن الدور ليجسد الحاضر الذي يعلق على الفعل الماضي الذي حدث في السنة الثالثة من القرن التاسع الهجري، فيغدو قناعا لنا، أو قناعا للمؤلف، أو مجالا للكشف عن الفكرة ونقيضها بما يشرى الصراع ويعدد مستوياته. وما يحدث على مستوى الأداء التشخيصي لأدوار الشخصيات المنمنمة، يحدث على مستوى أداء صوت المؤرخ القديم؛ حيث يباعد المشخص بينه وبين دور المؤرخ، ليؤكد أننا لا نستطيع أن نكون محايدين، ونحن نتهيا لمشاهد الرعب القادمة، ولا نستطيع أن نسرد الوقائع دون شيء من التعاطف وقليل من الحس الفاجع.

وإذا كان هذا الازدواج يولد الحيوية، ويضيف إلى التوتر الدرامي بعدا جديدا، ويجعل من حوار الشخصيات حوارا حول زمانين، وفي زمانين، لازمن واحد، فإنه يمنع المتلقي من الاستسلام المخدر إلى وجهة نظر أو رؤية بعينها في النص، أو التوقع في زمن دون آخر، فيبقى على يقظه ووعيه النقدي لزاء كل وجهات النظر المختلفة والرؤى المتناقضة، والأزمنة المتوازية أو المتعاقبة، ويؤكد حضوره بوصفه طرفا فاعلا في التأمل والاختيار والحكم، ولكن في شيء من الاستفزاز البقظ، وكثير جدا من الحس الفاجع؛ ذلك لأن الازدواج - كالتعدد - ينقل الوعي ما بين الحاضر والماضي، فيوقظ فيه أسئلة المستقبل الذي يبدو مخيفا في هذا الذي نقشه سعد الله ونوس في وجداننا من «منمنمات تاريخية».

## ٢ - حين ينهزم العقل:

لا نخطئ كثيرا لو قلنا إن الصراع في مسرحية (منمنمات تاريخية) هو، في مستوى من مستوياته المتعددة، صراع قضاة مذاهب وعلماء في القرن الثامن للهجرة، وهو صراع يوازي صراعا مشابها نعيشه إلى حد ما، وبعض الاحتراز، في القرن الخامس عشر للهجرة. هذا الصراع هو صراع العقل مع النقل، الاجتهاد مع التقليد، التسامح مع



الدين مع رجل التجارة أو رجل الحكم، فالجميع يستبدلون بالذى هو خير من مصالح الأمة الباقية بالذى هو أدنى من مصالحهم الذاتية الزائلة.

ولكن علاقات التناص تنبنى على نحو متميز، يبرز دلالة الدور التاريخي الذى قام به غلاة النقل من الحنابلة والمالكية والشافعية على السواء، أعنى فقهاء من أمثال برهان الدين التادلى (بالمثناة الفوقية وفتح المهمل، نسبة إلى تادلة من جبال البربر بالمغرب) قاضى المالكية فى دمشق الذى توفى عن إحدى وسبعين سنة، يوم الثلاثاء الثامن عشر من جمادى الأولى من سنة ثلاث وثمانمائة، فى الحرب مع تيمورلنك. وكان ثابت اليقين، شجاعاً، جريئاً، فيما يصفه ابن حجر وابن إياس والسخاوى وغيرهم من مؤرخى العصر. وكان شديداً على أهل العقل، لا يتردد فى تعزير أو سجن من يراه ميالاً إلى مقالاتهم. وبوازيه فى العداة للعقل تقى الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلى، قاضى الحنابلة الذى خرج إلى تيمورلنك، وسعى فى الصلح معه، متشبهاً بابن تيمية حين صالح غازان، فقام بدعوة أهل دمشق إلى الصلح مع تيمور، ودعا له، وأعلن الحرب على من يقاوم الصلح معه، وأكثر التردد على تيمور إلى أن خذله، فعاد بحسرتة لم يغم شيئاً، ومات بأرض البقاع، بعد حريق دمشق، فى أواخر شعبان من سنة ثلاث وثمانمائة. ويرى عنه ابن العماد، فى (شذرات الذهب)، هجومه على المعتزلة ودفاعه عن النقل والتقليد فى حضرة تيمورلنك الذى مال إليه (لارتباط النقل بعقلية الاستبداد) وتكلم معه فى الصلح قبل أن يغدر به. وفى موقع حماة النقل والتقليد من المالكية والحنابلة، وقف علماء آخرون من أمثال شمس الدين النابلسى الحنبلى ومحيى الدين بن العز.

وفى المقابل من هؤلاء جميعاً، ينهض بعض الشافعية الذين حاولوا إعمال العقل. وتبرز علاقات التناص اثنين منهم فى دلالة الحضور التاريخي والصلة المعرفية. أولهما جمال الدين عبد الله بن إبراهيم بن خليل البعلبكي الدمشقى المعروف بابن الشرائجى الشافعى. وثانيهما إبراهيم بن محمد بن راشد برهان الدين الملكاوى الدمشقى الشافعى. وقد قرأ الشافعى على الأول فى الخامس عشر من المحرم لسنة ثلاث

حيث سنة ثلاث وثمانمائة للهجرة التى احتج فيها تيمورلنك دمشق الفيحاء، بعد أن ساعده علماء النقل فيها على الدخول إليها، وذلك بعد أن تخالف هؤلاء العلماء مع تجار الزور وحكام الجور، وتآمروا جميعاً على السامة الذين حرّموا عليهم أحلام العقل والعدل والحرية.

وتبدأ المسرحية منمنماتها التاريخية فى مستنق شهر محرم، مفتتح كوارث سنة ثلاث وثمانمائة، حين ارتفع سعر القوت إلى ما لم يعد من قبل، فأعجز العامة. وأللقهم عراة جائعين سائلين فى الطرقات والجوامع، وذلك فى الوقت الذى استقر القاضى نور الدين بن مكى الدميرى قاضى قضاء المالكية عوضاً عن القاضى ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون على مال وعده به السلطان. ولم يستمر الناضى الجديد سوى أسبوعين تقريباً، فسرعان ما عزله السلطان، وأعاد ابن خلدون الذى سرعان ما عزله مرة أخرى. وتأتى الأخبار من دمشق بكثرة العسكر الشمى وسقوط مدينة حلب فى يد تيمورلنك الذى فعل من الأفعال الشنيعة ما تشيب له النواصي، ونودى فى دمشق بالتحول إلى المدينة، والاستعداد للعدو، فاخبط الحال، وعظم صحيح الثام ويكاؤهم. وتواردت الأخبار أن نائب السلطان هم بغيرك من دمشق، فردّه العامة رداً قبيحاً، واستعد الجميع فى مصر، معركة الدفاع عن دمشق.

وتأخذ النمنمة التاريخية تفاصيلها التى يستهلها صوت المؤرخ القديم، فى مسرحية سعد الله ونوس، ونستمع إلى نقول متناصة من كتاب (بدائع الزهور فى قائع الدهور) للمؤرخ محمد بن أحمد بن إياس الحنفى على وجه الخصوص. ولا نغادر هذه النقول إلا لإكمال حنمة التناص بما هو متاح فى تواريخ العصر وراحم رجاله، من مثل ما كتبه ابن حجر فى (إنباء الفجر) والمقبرى فى (السلوك) وابن تغرى بردى فى (النجوم الزاهرة) والسخاوى فى (الضوء اللامع) وابن العماد فى (شذرات الذهب). وما ينطقه المؤرخ القديم، نقلاً عن ابن إياس، فى نمنمة سعد الله ونوس، يطلق فاعلية شبكة من المناصات المتناصة التى تضمنا فى حضرة عالم تاريخي، متعمد الأبعاد والإشارات، يستند فيه التعصب إلى الاستبداد، ولا يحتف فيه رجل



(التوحيد)، و(فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال). وما أشبه التادلي وابن النابلسي وابن مفلح وابن العز الذين يجمعون على تكفير الشرائحي ببعض من نراهم بين ظهرانينا، صباح مساء، يكفرون إخوانهم المسلمين، لا لشيء سوى أنهم يؤمنون - مثل الشرائحي - بأهمية العقل حجة الله على خلقه، ويرون فيه أداة الاستنارة التي تفضي إلى أكمل مراتب المعرفة، وينظرون إلى حرية الإنسان وعقله بوصفهما شرط التكليف، فالله سبحانه وتعالى يخاطبنا نحن الذين نعقل ونفهم خطابه، ويكلفنا بما يرد في هذا الخطاب لأنه خلقنا أحراراً، نختار ما نستحق عليه الثواب أو العقاب من أفعال. ولكن حجة جمال الدين الشرائحي لا تنفع قضاته (الذين هم الصورة القديمة من بعض قضائنا المعادين للتنوير) فيأمرسون بحرق مخطوطاته في صحن الجامع، ويقيمون عليه الحد بما يكسر كبرياءه، ويلقونه في السجن، لأن الله وهبه عقلاً فلم يعطله، وفكره لم يتردد في الاجتهاد به، وبصيرة جعلته ينظر أبعد من سواء، فأدرك أن الذي يجتهد خير من الذي يحمل أسفاره، وأن الجهل والطغيان هما اللذان يحجران على العقل وأن التقليد هو أقصر الطرق إلى الكوارث.

وحين يخلو المشهد من المحكوم عليه بتهمة الاجتهاد، لاتبقى سوى سلطة التقليد، يمثلها قضاة ينهون عن الجدل والجدل، ويلغون حق الاختلاف، ويسيروا إلى قتال عدو الأمة بعد أن حجروا على أعز ما فيها، فينتهي الأمر بهم إلى الخسران إما قتلاً في معركة غير متكافئة، أو حسارة على غنم لم يتحقق. أما التادلي الذي قتل في المعركة فيعلن قبيل موته، في المسرحية، أن العيب فيهم قبل أن يكون في السلطان الذي خذلهم، فلو كانوا غير ما كانوا عليه لكان لهم سلطان جدير بالسلطنة، يعرف كيف يقود الأمة في شدتها. وأما ابن مفلح فيدرك، بعد الكارثة، أنه نزاع من الناس سلاحهم، حين جرد أسوار دمشق من دفاعاتها، وجرد دعاة العقل من حقهم في الاجتهاد، ولم يدمر بيوت الناس وأرزاقهم فحسب بل دمر نفوسهم وقلوبهم، فصارت المدينة كأنها غابة خلت من الدين والأخلاق والقيم لأنها خلت من العقل.

وثمانمائة كتاب الرد على الجهمية لعثمان الدرامي، فحضر عندهما زين الدين عمر الكفيري، وأنكر عليهما وشنع، وأخذ نسخة من الكتاب، وذهب بها إلى قاضي المالكية التادلي، فأغلظ القول للملكاوي، وأمر بتعزيز جمال الدين الشرائحي وضربه والطواف به، وطلبه بعد جمعة لكونه بلغه عنه كلام أغضب فضربه ثانية، ونادى عليه، وحكم بسجنه.

وقد حدثت واقعة القراءة، تاريخياً، بعد حوالي أسبوع من وصول خبر نزول تيمورلنك سيواس وقتل جماعة كثيرة من أهلها، واقترابه من حلب التي فتحها بعد ذلك بحوالي شهر، فنهبا وقتل أهلها في الحادي عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وثمانمائة. وقد قيل إنه كان يحفر للناس حفائر يدفنهم فيها وهم بالحياة، ويحرق الناس بالنار، ويحصد الضحايا بكل سلاح، حتى صارت الرمم طول القامة، والناس تمشي فوقها، وعمل من الرؤوس منائر عدة مرتفعة، وجعلت الوجوه بارزة يراها من يمر بها، فيما يقول ابن إياس. وبدل أن يلتفت فقهاء النقل إلى الخطر الداهم، وكفوا عن تكفير بعضهم البعض، وعن وصم مخالفينهم بالخروج على الملة، استمرت عقلية التعصب التي ينسج من وقائعها سعد الله ونوس تفاصيل منمنمات التناسل في مسرحيته، ومنها التفصيلية الرابعة ضمن المنمنمة الأولى من المسرحية على وجه الخصوص.

ففي هذه التفصيلية، تخديداً، يدفع رجلان معممات الشيخ جمال الدين الشرائحي (كذا في كتب التاريخ المطبوعة وليس «الشرائحي» الموجودة في طبعة المسرحية الصادرة عن دار الهلال - القاهرة) إلى حلقة العلماء، وأحد المعممين يحمل كيساً من الكتب المخطوطة هي جسم الحرمة التي ارتكبتها الشرائحي وأداتها. ويعلن التادلي (وليس «التادلي» التي وردت في طبعة دار الهلال) تهمة التخليط في الدين، ويشي عليها ابن النابلسي الذي يتوه في المسائل ويستحل الأوقاف، ويؤكد تهمة الكفر والزندقة والإلحاد على فقيه مسلم لا لشيء إلا لأنه يخوض في القدر، ويقرأ كتب المعتزلة «مجوس الأمة» و«الكفار من» المتكلمين والفلاسفة، من أمثال (الرد على الجهمية والمجبرة)، و«المغني في علوم

شاهدًا على محنة العقل وانكساره، وسط ظلامه الثقيل، إلى أن توفي سنة عشرين وثمانمائة.

هذا ما يقوله التاريخ الذى تلتقط دلالته منمنمات سعد الله ونوس، فى مسرحيته التى توقف العين والعقل عند هذه الدلالة، لكى لا تغفلها الذاكرة، أو يسهو عنها الوعى. ولعل ذلك هو السبب فى أن المسرحية كلها تنتهى تفاصيل منمنماتها بتفصيل أخير، يُكثف الدلالة المولدة للنص كله، فى بعد من أبعاده الحاسمة، فترى الشيخ ابن الشرائحي مرفوعًا على صليب، بوجه الخطاب الأخير إلى عصره - عصرنا قائلاً:

أنا الشيخ جمال الدين بن الشرائحي، آمنت أن العقل خير من النقل، وأن الله عادل لا يقدر على عباده الفقر أو الذل، فأذاع أحدهم أمرى، فاستدعانى قضاة دمشق الأربعة، وبعد السب والضرب، وإحراق كتبى، رمونى فى سجن القلعة. وحين حل تيمور فى ظاهر المدينة، وجاء سلطان مصر والشام لمداфعته، أبكاني القهر وعزّ على ألا أكون مع الأمة فى مواجهة هذه المحنة.

وبمضى ابن الشرائحي فى خطابه الذى قد لا تتطابق منطوقاته الحرفية مع وقائع التاريخ الفعلية، ولكن الدلالة العامة للمخاطب تتطابق مع محصلة السياق التاريخي فى النهاية، فيظل المعنى الذى ينطوى عليه حضور ابن الشرائحي نقيضاً لوجود دعاة التقليد من أهل الدين، وطفاة الاستبداد من سلاطين العرب وأعدائهم على السواء، فلا نعجب أن اتفق الجميع على عداء ابن الشرائحي رغم ما بينهم من الحرب وسفك الدماء، فهو رمز العقل الذى تجسده المنمنمات التاريخية، وحضور وعيه الخلاق الذى إذا انكسر انكسرت اندفاعة التقدم، وتحول التاريخ إلى واقع موحل وزمن سقيم.

### ٣ - قناع ابن خلدون:

هل يجوز أن يسلك العالم إزاء المحن التى تصيب قومه وبلاده مسلك الحياد؟ وهل هذا من شروط العلم ونزاهته؟

هكذا تتواشج عناصر المنمنمة التاريخية، موظفة معطيات التناسب والعلاقات، فى مسرحية سعد الله ونوس، لتبرز علاقة التناسب الطردى بين هزيمة العقل وهزيمة الأمة، تحريم الاجتهاد وخراب الديار. وتستعمل المقارفة التاريخية الفعلية التى وضعت من حارب أقرانه المسلمين، وصماً لياهم بالزندقة والكفر، موضع الخائن الذى قدم النعوت إلى أعداء الأمة، فابن مفلح الحنبلى الذى أعان تيمور لك على دخول دمشق، وكتب له جميع خططها، هو نفسه الذى شدد النكير على من خالفه فى الرأى والاجتهاد، ووصم المغايرين له فى التأويل بالزندقة والكفر. ولم يكن يختلف فى ذلك، كفيفاً، عن نقيضه التادلى الذى اندفع إلى جهاد التتار، فسقط تحت سنايهم، لأنه حَجَرَ على عقل الأمة وقمعه بالتقليد، فكلاهما وجه للعلّة نفسها التى كان معلولها هزيمة الأمة من داخلها. والنتيجة هى ما يصنع ابن إياس من أحوال دمشق بعد أن حرقها تيمور لك، دمشق التى أصبحت، بعد البهجة والسفرة، أطلالاً بالية ورمماً خالية، لا ترى بها دابة تدب، ولا حيوان يهب، سوى جثث احترقت، وصور فى الثرى قد تعفرت، فإنا لله وإنا إليه راجعون لعظم هذه المصائب، وشناعة هذه النوائب، فيما يفتخّر سيد الله ونوس عن ابن إياس الذى يمضى قائلاً، فيما كان ينقله سعد الله ونوس: فكم توقفتنا حوادث الأيام، ونحن فى ليل الغفلة نيام، فلا نعتبر على ما جرى للأمام، ولا نرجع عن ذنوبنا والآثام.

ولعل العدالة الشعرية القاسية لى ينطوى عليها التاريخ، عادة، هى التى قرنت سقوط دمشق بوفاة هؤلاء الذين عادوا العقل وحاربوا حرية الاجتهاد فى مسرحية سعد الله ونوس، فمؤرخو العصر يحدوثونا عن أن ابن مفلح أدركه الموت، غمماً، بعد استشهاد التادلى بأشهر معدودة، واختفى أمثال التابلسى وابن العز. وسرعان ما تولى إبراهيم الملكاوى فى جمادى الآخرة من سنة أربع وثمانمائة، ولم يبق سوى جمال الدين الشرائحي الذى وصّده مؤرخو القرن التاسع للهجرة بأنه كان شهماً شجاعاً مهاناً، حذاً كله، لا يعرف الهزل، قدم القاهرة بعد الكائنة العظمى، فقفّتها مدة طويلة، ثم رجع إلى دمشق، وولى تدريس الحديث بالأشرفية. وظل

مناورات السياسة وصراعات القوى والأعيان الوظائف الديوانية ومناصب التدريس والقضاء. وتنقل في بلاد المغرب الأدنى والأوسط والأقصى وبعض بلاد الأندلس ما بين سنتي إحدى وخمسين وست وسبعين وسبعمئة للهجرة، وتفرغ للتأليف ثمانين سنوات على وجه التقريب ما بين قلعة ابن سلامة وما شابهها في تونس، ثم عاد إلى الحياة العملية بواسطة مناصب التدريس والقضاء التي قادته إلى القاهرة (سنة أربع وثمانين وسبعمئة للهجرة) التي ظل بها تسعة عشر عاماً قبل أن يرحل في ركاب السلطان فرج بن برقوق إلى دمشق. ولا يعود ابن خلدون مع السلطان إلى القاهرة، بعد أن تخلى ذلك السلطان الغلام عن واجبه المقدس، في سبيل الدفاع عن كرسي حكمه الذي كان أهم عنده من قضية الأمة ومحتتها.

ولم يكن بقاء ابن خلدون، في دمشق، دفاعاً عن عروبة أو إسلام، في مسرحية سعد الله ونوس، وإنما سعيًا إلى معرفة لا تفارق المنفعة، أو منفعة لا تفارق المعرفة. يخشع على ذلك فضول المؤرخ في تعرف النظام العالمي الجديد الذي ترأسه تيمورلنك، ويدفعه داؤه القديم الذي لم يتخلص منه، منذ أن ذاق لذات المراتب السياسية الكبرى ومباهجها الخطرة على السواء. ويسعى ابن خلدون إلى تيمورلنك، باحثاً عن وجه آخر من العصبية التي تنبئ على المصلحة، وتحقق بالقوة، كما لو كان، بعد أن «أدرك العبر»، في «ديوان المبتدأ والخبر من أيام العرب والبربر»، قرر أن يصل حبله بحبل من بزغ في عصره من «ذوى السلطان الأكبر»، ذلك السلطان الذي أصبح يخيله بحلم واعد عن نظام عالمي جديد، لا مكان فيه إلا لحاكم واحد للعالم بأسرها، ونوع واحد من علماء المعرفة التي لا تفارق المنفعة أو المنفعة التي لا تفارق المعرفة. وتحدث الصفقة، خارج أسوار دمشق المحاصرة: يبيع ابن خلدون علمه إلى من يطعم فيه، ويشتري تيمورلنك المعرفة من يستبدل بثقافته الوطنية ثقافة المنفعة، ويشتري رضا الغازي بهويته القومية، فلا تريح تجارتها.

وتتحول هذه الصفقة التاريخية، في علاقات التناسخ التي تشدها إلى عصرنا وتقرئنا من عصرها، إلى مواز رمزي، أو قناع للعقل البراجماتي التي نرى تجلياته حولنا، الآن، وفي

ذلك سؤال ألقاه التلميذ الفتى شرف الدين على أستاذه الشيخ ولي الدين عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) في مسرحية «منمنمات تاريخية». وكان تيمورلنك وجنوده على أبواب دمشق وحول أسوارها، بعد أن فرغوا من نهب حلب وتدميرها. وكان السلطان الغلام، الناصر فرج بن برقوق، قد انسحب بقواته عائداً إلى القاهرة، بعد أن نعى إليه الخبر أن بعض الأمراء يحاولون الهرب إلى مصر للثورة بها، واقتلاعه من كرسي السلطنة الذي لم يكده ينعم به، فترك أهل دمشق وحدهم في مواجهة المغول، متحيرين قد عميت عليهم الأنباء. وكان ابن خلدون قد جاء من القاهرة، في ركاب السلطان الذي استدعاه من ضيعته بالقيوم، بعد أن كان قد خلعه من القضاء للمرة الثانية، وأقنعه داودار السلطان بلين القول وجزيل الأنعام أن يسافر في ركاب السلطان، فأصحب ابن خلدون وأطاع، وسافر في الركاب، في منتصف شهر المولد الكريم من سنة ثلاث وثمانمئة للهجرة، وأقام في المدرسة العادلية، وظل هناك بعد انسحاب السلطان: يراقب الموقف، ويشاور العلماء أمثال ابن مفرح وابن النابلسي من دعاة السلام مع سلطان العالم الجديد (تيمورلنك)، ويتحين الفرص، ويتروى في الموقف بما تمليه نزعة العملية الختفية وراء قناع من الحياد العلمي، الحياد الذي كان يدفعه إلى أن يردد، في المسرحية، أن على من يريد تسجيل وقائع التاريخ السيطرة على انفعالاته وعواطفه، أو أن يلغيها تماماً، كي لا يجرفه الهوى أو يزور الوقائع.

وإذا كان ابن مفلح، صوت النقل الغالب في المسرحية، نادى بالصالح مع تيمورلنك، تقليداً لما فعله ابن تيمية من قبله، فإن ابن خلدون صوت العقل الذي يرفض التقليد، ويؤكد النظر العقلي، ويقول في مقدمة تاريخه إن التقليد عريق في آدميين وسليل مرعى الجهل الذي هو بين الأنعام وخيم وبيل، ينتهي إلى النتيجة نفسها، ولكن من منظور العقل العملي الذي يحلل أسباب الوقائع والأحوال تحليلاً نفعياً، ويعقل عوارض سقوط الدول عقلنة تبرر سقوط الأفراد.

وكان ابن خلدون في الحادية والسبعين من عمره حين رحل إلى دمشق، أنفق أكثر من نصف قرن في

مسرحية سعد الله ونوس، وهو يحاور تلميذه الفتى الذى يهوى القرماس والدواة والريشة، استعداداً للكتابة، والمغول على أبواب دمشق وأسوارها. ويبدأ ابن خلدون فى الإملاء فنسمع نصوص المؤرخ التى تستعاد من القسم الأخير الذى أضافه إلى تاريخه الكبير، قبيل وفاته ببضعة سنوات، وهو القسم الذى ترجم لنفسه فيه بعنوان «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً».

وانطلاقاً من البداية التى يختلط فيها الجهاد القومى بالعطاء السلطاني، يتحرك ابن خلدون التاريخ والقناع ما بين الأمير تيمور لنك الذى يرنو إليه السلطان فرج الذى انصرف عنه، وتدخل الشخصية التى يجسدها فى علاقات تفاعل وصراع مع غيرها من الشخصيات، فنصل إلى ما يدنو من الذروة، حين يرفض ابن خلدون أن يهدئ الخائفين من أهل دمشق، أو يحملهم على الجهاد، أو يقودهم إليه، فهو لم يأت مقاتلاً بل مؤرخاً، ولا يحمل قلماً لتغيير العالم بل لوصف العالم وتبريره، ولا يؤمن بقدرة الفرد أو الطليعة على تغيير التاريخ بل بتحتمية القوانين المجاوزة لقدرات البشر، ويحتقر الذين يضجون بحياتهم من أجل الأوطان، ولا يرى فيهم سوى موسوسين يأخذون أنفسهم بإقامة الحق ومواجهة الغزاة، دون أن يعرفوا ما يحتاجون إليه من العصبية، فينتهى بهم الأمر إلى الهلاك وسوء العاقبة. وحين يسأله تلميذه الفتى ولكن هل يجوز أن يسلك رجل العلم مسلك الحيات إزاء المحن التى تصيب قومه وبلاده؟ يؤجل ابن خلدون الإجابة إلى العشى، حيث الربع الأول من الليل الذى يتجهز فيه للاقاء تيمور لنك، بعيداً عن الرقباء، متديلاً من سور المدينة، حاملاً إلى تيمور هديته الدالة التى كانت:

مصحفاً رائعاً حسناً من جزء محذو، وسجادة أنيقة، ونسخة من قصيدة البردة المشهورة للأبوصيرى فى مدح النبى (صلعم) وأربع غلب من حلاوة مصر الفاخرة.

وإذا كانت الهدية الرمزية التى وصفها ابن خلدون المؤرخ فى التعريف تقدم الجانب المادى من الإجابة عن سؤال الفتى شرف الدين، فإن الجانب الفكرى يعقلنه ابن

كل يوم من أيام هذا الزمان، حيث تكسر الأحلام القومية الكبرى للثقافة الوطنية، نتيجة الكوارث القومية المتلاحقة، فتتكرر محاولة العقول العربية التى تنجذب إلى آيات نظام عالمى واحد، هو مجلى عصرى من نظام تيمور لنك الذى وصفه ابن خلدون بأنه «سلطان العالم وملك الدنيا». وعلى قدر الصفة تأتى العقلنة التى تقوم بتحسين السقوط، ومن منطق البيع يأتى التبرير الذى يستبدل حلمه بحلم، ويسوغ رؤية الغروب التى تلخصها كلمات الأستاذ الشيخ (ابن خلدون) الذى يلقيها على تلميذه الفتى، فى مسرحية سعد الله ونوس قائلاً:

ألا تعلم يا شرف الدين أن صبة الدين حالت، وأن عصبية العرب زالت، وأن الجهاد لم يعد ممكناً.

وتلك كلمات تصدر عن قناع مبرج له نظائره بين مثقفى عصرنا، وتصل الحاضر بالماضى، ومبدأً بنير طرفيه، ويضعنا فى قلب علاقات التناص التى ترد عجز الأزمنة على صدها، والعكس صحيح بالقدر نفسه، خصوصاً حين يمضى ابن خلدون (التاريخ والقناع) قائلاً إنه ليس من الجائدين كما يظن، بل واقعى يعرف قوانين الأحداث ومجراتها، وأنه جاء إلى الدنيا فى زمن السقوط، حين انقلبت أحوال المغرب الذى شاهده وتبدلت بالجملة، ونزل بالعمى شرقاً وغرباً، فى منتصف المائة الثامنة، الطاعون الجارف الذى جاء على حين هرم الدول، فقلص من ظلالها وأوهى من سلطانها، وانتفض عمران الأرض بانتفاض البشر، فحربت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وضعت الدول والقبائل. وكأنما نادى لسان الكون بالخمول والانقراض، وتبدل الخلق من أصله، وتحول العالم بأسره، فهو خلق جديد وعالم محدث، ليست فيه إلا آثار الاضمحلال وعوارضه.

هذا الخلق الجديد، أو العالم المحدث، يبدأ من مبدأ الذات الذى يبرر وجوده بمبدأ الواقع، ويحاكيه على نحو لا يبقى للبشر سوى الجريان مع الدورة التحتمية التى لا تترك لهم، حين تشرف الدولة على الهرم، سوى الاستعداد للتفسخ والانحلال. هكذا نرى ابن خلدون، للمسيرة الأولى، فى



وفى التاريخ، يسأل تيمور لك ابن خلدون عن أحوال موطنه، ويأمره أن يكتب له عن كل بلاد المغرب أقاصيها وأدانيها، جبالها وأنهارها، قراها وأمصارها ومسالكها، حتى كأنه يشاهدها، فيسمع ابن خلدون ويطيع، سعيداً بالأمر الذى ينفذه بأسرع ما يستطيع. وحين يتهمه تلميذه، فى المسرحية، بأنه يقدم للغزى المخطط الذى يحتاجه لغزو بلاده، ويبع أهله وبلده لقاء منصب أو وجاهة، ويسهم فى تخريب الأوصان، يصرخ فيه ابن خلدون الذى لا يعرف ما نطلق عليه اسم الالتزام الوطنى أو القومى، فقد أدرك أن هذه البلاد التى بنوح عليها تلميذه مهترئة، ومغزوة بلا غزو، وأنه لا يخجل من السير فى ركاب تيمورلنك أو نظامه العالمى الجديده، لأنه يريد أن يعرف، وأن يسجل، وأن يستكمل خبرته، وأن يزيد علمه إتقاناً واكتمالاً. لقد سار فى ركاب أمراء وسلاطين لا يستحقون أن يكونوا حذاء لتيمور، فيما يقول القناع فى المسرحية، وآن الأوان لأن يفيد من علمه البارد الذى يبحث له عن الثمن المناسب فى أى مكان.

ويفرح ابن خلدون بصحبة الطاغية الجديد ويلح عليها: يحدثه عن غربته، بعيداً عن المغرب الذى هو أصله، وعن مصر التى هى محل عمله وتجارته. ويطلب منه أن يؤنس غربته بأن يعرف له ما يريد، فيأمره تيمور بالانتقال من دمشق إلى ميسكره. فيقيم عنده خمسة وثلاثين يوماً يياكره ويرأوحوه. ويشهد حريق دمشق وخرابها الذى لم يشر إليه تفصيلاً فى التعريف برحلته (أترأه كان خجلاً؟). وينتهى الأمر به إلى شئ قريب من الذى انتهى إليه حظ صديقه قاضى قضاة الحنابلة، فلا ينال من تيمور شيئاً - حسب ما يرويه لنا فى التعريف - بل يدفع هو إلى تيمور بغلته الفارهة التى طلبها منه تيمور فأهداها إليه، مكافأة على اصطناعه إياه، وإحلاله فى مجلسه محل خاصته. ويعود إلى مصر التى يرده تيمور إليها، دون بغلته، فيصلها فى الشهر نفسه الذى توفى فيه صديقه قاضى قضاة الحنابلة ابن مفلح.

وفى القاهرة، يعود ابن خلدون إلى سيرته الأولى. يتاجر فيما تغلغ ضيعته فى الفيوم، ويقوم بتدريس نظرياته عن العصبية وال عمران، ويتولى قضاء المالكية ويعزل عنه أربع مرات فى سنواته الخمس التى عاشها ما بين لقاء تيمور ووفاته.

خلدون (القناع) حين يقول إن رجل العلم لابد أن يقبل النهاية حين يراها، ويترك الغضب والتحسر والمكابرة للذاهلين والحمقى من غمار العامة، فمهمة رجل العلم ليست إثارة الضوء للناس أو قيادتهم إلى ما يخرج بهم من الانحدار بل تحليل الواقع كما هو، ذلك لأن للعمران قوانين ثابتة مطردة كتلك التى تحكم الفصول فى تعاقبها والليل والنهار فى اختلافهما، وتلك القوانين حتمية لا يمكن تغييرها بالوعظ والإرشاد. وإذا كان الواقع يسير إلى الانهيار فليس أمام البشر سوى انتظار ظهور مهدى جديد، أو رصد نذر عصبية جديدة تغزوهم.

ويتوجه ابن خلدون إلى تيمور لنك يمثل هذه العصبية الجديدة، الغاية، آملاً أن يجد عنده ما لم يجده طوال حياته لدى من عاشرهم وخدمهم من أمراء وسلاطين ناقصين، لم تتوفر لهم من شروط الإمارة أو الملك إلا أقلها. ويخاطب تلميذه شرف الدين بالقدر الذى يخاطبنا قائلاً إن المرء يكون محظوظاً حين ينجو بنفسه وعلمه فى زمن السقوط والفوضى، والعاقل من لا يضيع منفعة العلم أو علم المنفعة، فقد تكون قبسة الضوء الوحيدة، فى الغروب الشامل، هى وصف هذا الغروب والشهادة عليه.

هكذا يقع ابن خلدون، التاريخ والقناع، فى حبائل علمه النفى ويستسلم إلى غزاة قومه، قبل أن تفتح دمشق أبوابها لهم، وبعد أن أسهم هو وأمثاله فى هزيمتها من الداخل. وتدخل مرة أخرى إلى علاقات التناص، حيث ينطق القناع، فى المسرحية، نصوص «التعريف» بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً. ونسمع صوت ابن خلدون القديم الجديد، ونراه وهو ينحنى فى حضرة تيمور لنك، ويقبل يده التى مدها إليه، ويجلس حيث أشار إليه بالجلوس، قائلاً له:

أيذك الله! لى اليوم ثلاثون أو أربعون سنة أتمنى لقاءك... لأنك سلطان العالم وملك الدنيا. وما أعتقد أنه ظهر فى الخليقة منذ آدم لهذا العهد ملك مثلك... ولأنى كنت أسمع من المنجمين والأولين بالمغرب عن ظهور نائر عظيم فى الجانب الشمالى الشرقى يتغلب على الممالك، ويغلب الدول، ويستولى على أكثر المعمور.



بمشاهد سفك الدماء وأكوام الجثث وأهرام الجماجم، فضلاً عن انتهاك الأعراض وتقطيع الأجساد وتكثيم الأنفاس وشى المعذبين الذين يتطلعون إلى أولادهم وبناتهم يوطأون، وبلاط بهم من غير ستر، فى وضع النهار. وإذا يلعب التناس دور، فى الإشارة إلى الانحدار الشامل والعنف الهمجى، فى القرون التى يؤثرها سعد الله ونوس مادة لمنمنماته التاريخية، منذ (مغامرة رأس المملوك جابر) ١٩٦٩، فإن فاعلية التناس تصل الماضى بالحاضر وتومئ إلى موازيات العنف العارى الذى نراه حولنا، فى كل يوم من أيام هذا الزمان الذى نصرخ فيه قائلين: ما أشد وحشة هذا العالم.

وحتمية النهاية فى هذا العالم، كالغروب الشامل والسقوط الكلى، دوال متعددة المدلولات على عالم فارق حلمه القومى الكبير الذى انتهى الأمر به مصلوباً مع الشرائع، فى خانمة المسرحية، فى عتمة القهر الماحق. ولا غرابة أن ينتهى كل شئ، فى النص، بصرخات المجدوب المروع الشاهد العلامة، والضحية النذير، يركض بين الأنقاض والموتى، مبرعوباً ظامئاً، ويردى يتدفق قره بزيادة وشدة لم تمهد منذ سنوات، دون أن ينال قطرة ماء أو قبة أمل. لكن صراخه الخفيف يصك مسامع المشاهد - القارئ ويغز وعيه، فلا يتركه إلا بعد أن يدفعه إلى أن يفكر، بدوره، أو يحث عن قبة ضوء تكون بداية للنور، أو قطرة ماء تكون بشارة على تجدد دورة الحياة.

والواقع أن رمزية شعبان المجدوب هى الوجه الآخر من رمزية الماء الملتبس بين ضفتى بردى، رمزية تنطوى على دالتين متناقضتين، يتعارض فيهما الجذب والخصب، النهاية المحتومة والبداية المقموعة. لكن تعارضهما يصل بينهما فى المجال الدلالى الذى يقرن بين رشفة الحليب وقطرة الماء فى معنى الرى، والعودة إلى صدر الأم أو رحم الأرض أو حضن الوطن المستباح. أما شعبان المجدوب فنشاهده دائماً، فى التفاصيل الدالة للمسرحية، يحمل النهاية فى ملامح وجهه، ونبرات صوته، وأسماله الغريبة الممزقة، ونظرة عينه التى تبصر ما لا يراه غيره، فالنهاية التى يرهص بها هى البداية التى ينفذ إليها سواه. وحضوره الذى يجمع التناقض بجوار بين لمسة الرحمة وشعيرة الإدانة ولهفة البحث وصوت العزاء وشمول

ويشهد فى السنة الأولى من عودته رسول تيمور إلى سلطان مصر الذى أجابه إلى الصلح الذى طلبه منه. ويحمل إليه الرسول ثمن البغلة التى أخذها منه تيمور. فلا يقبل ابن خلدون أخذ ثمن البغلة إلا بعد استئذان السلطان. ويصله الثمن بعد أن يأذن السلطان، ويكتب مى «التعريف» أن الثمن الذى وصله بعد مدة - كان ناقصاً، غير أنه يحمده الله - تعالى على السلامة والخلاص من وورطات الدنيا. ولكن هل خلص حقاً من وورطات الدنيا؟!

#### ٤ - وورطات الدنيا

من الذى خلص من «ورطات الدنيا»، فى مسرحية (منمنمات تاريخية)؟ لا أحد. وقع الجميع فى شرك متبانية، وبرائن قوى غاضبة، وانفلت القمع من عقالة بأسماء مختلفة وشعارات متعددة. وبقيت المحصلة الهائية واحدة، قرينة الخراب الذى أطبق على الجميع والذى ترك دمدق أثر بعد عين. وتطفئ رؤيا النهاية الدامية على المسرحية كلها، مخيفة، بشعة، ملحة، كأنها تريد أن تدمى وعى المشاهد القارئ، وتستفز له يفارق سباته التقليدى، وي طرح عنه يخم العادة والتطبيع، ويتورط فى وورطات الدنيا القديمة الجديدة التى تحفرها المنمنمات التاريخية فى ذاكرة الوعى أو وعى الذاكرة. ومن ثم يطرح هذا المشاهد - القارئ على نفسه أسئلة شبيهة بالأسئلة التى كانت تصرخ داخل شرف الدين. أيمكن أن تنهار الأمة إلى هذا الدرك من التجلد والتخذلان؟ ولماذا؟ وإلى متى؟ هل زمان قديم يسلم هذا الزمان الحديد مفتاح أبوابنا؟ هل كان التتار هناك أم ههنا؟ وهل تلك قبيلة دالت أم أمة قالت لتيمور المعاصر: هيت لك؟

ولأن النعمة تصوغ رؤيا فاجعة، فى تفاصيل قاتمة، دامية، فإن الدمار يشمل كل شئ، ولا يسجو منه إنسان أو جماد أو حيوان، كأنما نادى لسان الكون نهاية تبسط ظلها كالجائحة الكونية التى لا تبقى ولا تفر، دون أن يستطيع أن يدفعها أحد أو يغير مسارها عزم. وليس بمائل برودة الطبيعة القاسية التى تخفو الشخصيات والأحداث سوى نذرها المشؤومة وعلاماتها المنحوسة، كأنها الوجه الآخر من الدمار الجمعى والعنف العارى الذى يفتش تفاصيل المسرحية فيفرقها

أو لأنها بعض مخزونه الشعوري أو اللاشعوري. واختيار الدال من المعروف سلفاً له أهميته التي لا تقل عن أهمية التذكير بنظيره الدال في ما كاد يشحب، أو شحب بالفعل، في الذاكرة الفردية أو الجمعية من التاريخ القومي للأمة، خصوصاً في المنطقة التي تحمل إمكان التشابه أو الاختلاف بين أطراف الحاضر والماضي في معنى من المعاني. لكن يوازي ذلك في الأهمية صياغة ما يتم اختياره من الماضي، أو الكشف عنه، وتركيب عناصره بما يصوغ المعنى المقصود، في منمنمة لها دلالاتها التاريخية المكشفة، ووظيفتها التحريضية المعقدة. وأنصور أن الفصل بين هذه الجوانب إنما هو من قبيل التبسيط فحسب؛ ذلك لأن فعل الاختيار لا يمكن فصله عن فعل الكشف أو الصياغة، فكل واحد من هذه الأفعال طرف في عملية بنائية واحدة، متفاعلة العناصر متضاربة العلاقات. وهي عملية تقلل من سطوة عنصر الحكاية، في النهاية، بالقياس إلى عنصر التقنية الذي يحيل مادة الحكاية المعروفة سلفاً إلى عنصر وظيفي في تجربة درامية حوارية. والهدف ليس التعريف بما هو غير معروف، بل تحويل المعروف من تاريخ الأمة إلى دراما جدلية، تتصارع فيها الآراء - كلياً أو جزئياً - وتختلف فيها الأفكار، ويدخل المتفرج - المشاهد طرفاً واعياً، فاعلاً في صراع الفهم والتفسير، والحكم والتقييم. ومن ثم يؤدي المسرح دوره بوصفه ساحة للحرية، وفضاء للحياة المدنية الفعلية، حيث الإمكان الحقيقي لتأمل الشرط الإنساني وممارسة الحوار.

هذا الهدف له أصوله النظرية فيما يؤكد سعد الله ونوس، كثيرًا، من أن إلهام المسرح الحقيقي لم يكن في يوم من الأيام الحكاية بحد ذاتها، وإنما المعالجة الجديدة التي تتيح للمتفرج تأمل شرطه التاريخي والوجودي. ومعنى ذلك أن المتفرج الذي يسعى إليه سعد الله ونوس ليشارك (منمنمات تاريخية) هو المتفرج الذي يقبل على المسرحية، لا ليسمع أو يشاهد حكايات جديدة، وإنما ليتأمل شرطه الاجتماعي والوجودي في ضوء المنمنمات التي يقدمها الكاتب المسرحي للحكايات المعروفة سلفاً بشكل أو بآخر، الحكايات التي هي عنصر تأسيس في وعي هذا المتفرج

الموت. وهو لا يجد ملاذه إلا في صدر ريحانة الوجه الأنثوي من حضوره الذي يدرك أن الكل تثار، وقومنا تثار والتثار تثار، كلهم تثار، كلهم جلادون والضحية هم الفقراء.

أما بردي الذي يتحول حضوره إلى جماع متعدد من المدلولات، امرأة سحرية ترهص بالأحداث وتنعكس عليها الأحداث، في المنمنمات التاريخية، فنرى ماءه أول مانراه في غاية من الضحالة، كثرت الضفادع فيه كثرة فاحشة، حين هم نائب الغيبة في دمشق بالفرار، عندما بلغه خبر اقتراب تيمور من دمشق بعد سقوط حلب. وتبدل ماء النهر كما تتبدل صور المرأة بتبدل ما يواجهها، من ضعف أو قوة، انحصار أو اندفاع، فتجرف المياه الأغصان والجذوع المنكسة، أو تغمر ما حول الضفتين، أو يفيض الماء في موازاة ما حوله من المشاعر الجماعية أو الوقائع المتعارضة المتنافرة.

هذا البعد الرمزي الذي يصل بين التوظيف الدلالي لشخصية شعبان وماء بردي هو بعض البنية الرمزية الكبرى للمنمنمات التاريخية، خصوصاً في طابعها الذي يدني بها من بنية الأمثلة، ومن ثم يؤكد الخاصية البلاغية، بوصفها مجازاً مزدوج البعد، متبادل الدلالة، متعدد الإشارة. وذلك بواسطة عملية من المناقلة الدائمة التي تجعل من الماضي حاضراً والحاضر ماضياً، ومن العام خاصاً ومن الخاص عاماً، ومن اللازم ملزوماً والملزوم لازماً. وإذا كان هذا التعدد هو بعض أسباب الحرص على المنمنمة التاريخية الدقيقة، والجهد المعنوي الذي تترافق به تفاصيل التناسل فيما يشبه تراكيب الأرابيسك، فإن هذا الحرص نفسه هو المبرر التقني لوظيفة دال المنمنمة، من حيث هو دال أريد به لازم معناه ومعناه على السواء. إنها منمنمة تهدف إلى أن تدفعنا إلى قراءة نصوص الماضي بعين الحاضر، ولكن دون التخلي عن تاريخية الماضي، وقراءة نصوص الحاضر بعيني الماضي، مع الإبقاء على تاريخية العصر في الوقت نفسه.

وليس مصادفة، والأمر كذلك، أن يلجأ فنان المنمنمة التاريخية، سعد الله ونوس، إلى أحداث معروفة سلفاً، وأن يعتمد العودة إلى حكايات يعرفها المشاهد - القارئ مقدماً، إما لأنها جزء من بنية الوعي الثقافي لهذا المشاهد - القارئ،

أدوارهم الشخصية بواسطة التناص الذى يستحضر شخصيات النصف الثانى من القرن الثامن ومفتتح القرن التاسع للهجرة، ويصوغ من التفاصيل التاريخية المرتبطة بهذه الشخصيات وعلاقاتها بمنمنمات لأقنعة، تتحرك فى لعبة تشخيصية جديدة، عن دور المثقفين فى لحظة السقوط أو الغروب الشامل. وتتحرك هذه اللعبة التشخيصية الجديدة ما بين قطب السلب الذى يمثله التاجر المستغل (دلامة) والسلطان المستبد، (فرج بن برقوق، تيمور لnk) ويدعمه منطق النقل والتقليد، وقطب الإيجاب الذى ينطوى على أحلام البسطاء (أمثال مروان وخديجة، سعاد وشرف الدين) المتطلعين إلى حياة حرة عادلة، حافلة بإبداع العقل الإنسانى ومراحه الخلاق. ويهدف السؤال الجذرى الذى تدور حوله اللعبة إلى اكتشاف القطب الذى ينجذب إليه المشخصون (المثقفون) فيؤثر على مجرى الأحداث وصنع مصير دمشق الذى هو مصيرنا.

ويستلزم هذا السؤال الاهتمام بالتقنية التى تصوغه، والتركيز على نعمة المنمنمات التى تعطى لكل بعد من أبعاده قدرًا متساويًا من الحضور. والنعمة، فى ذاتها، تؤكد تشظى الوجود الذى يولد السؤال، كما تؤكد طبيعته التى لا تنطوى على مركز ترتد إليه كل العناصر.

إن التجزؤ والتناظر والتكرار وغياب العنصر المركزى الأوحده، فى النعمة، هو الوجه الآخر لتعدد الإجابة عن السؤال، وتعدد تجليات السؤال فى الوقت نفسه. ولا شئ ينتمى إلى المطلقات فى الحضور المتشظى للنعمة، أو الحضور المتكافئ الأبعاد من الإجابات. والنسبية هى الوجه الآخر من هذا الحضور. وتعرية تقنية النعمة هى البعد الملزم لهذه النسبية التى لا يزعم فيها طرف امتلاك الحقيقة كلها أو احتكارها لنفسه.

ويعنى ذلك تعدد الشخصيات، أو الإكثار منها بالقدر الذى يستوعب كل الأطراف ويمثلها، ويحقق التوزيع العادل للمواقف المتعارضة المتناقضة المطروحة على المتفرج - القارئ للاختيار بينها. وفى الوقت نفسه الكشف عن التقنية بما يبين عن طبيعة الهدف منها، لا من حيث هى لعبة

ووجودانه، لكن بهت دلالتها لكثرة الألفة والعادة، وأصبحت تحتاج إلى من يزيح عنها حجاب الألفة والمادة، لتغدو من جديد موضوعًا لتأمل الشرط الإنسانى وممارسة الحوار، إما حول وجودها نفسه، أو أى وجود مغاير ترتب به، على سبيل التضمن واللزوم.

وليس من المصادفة، والأمر كذلك، أن التناص هو سدى مسرح سعد الله ونوس ولحمته، حين نقاره بغيره من كتاب جيله أو حتى الجيل السابق عليه. وسواء تحدثنا عن (الفيل يا ملك الزمان) أو (مغامرة رأس المملوك جابر) ١٩٦٩ أو (الملك هو الملك) ١٩٧٧ أو (منمنمات تاريخية) ١٩٩٤ فى مستوى، أو عن (سهرة مع أبى حليس القباني) ١٩٧٣ وأمثالها فى مستوى ثان، أو عن (رحلة حنظلة) ١٩٧٨ و(الاغتصاب) ١٩٩٠ فى مستوى ثالث، فإننا نتحدث عن أبنية متواصلة، متنوعة، متجاورة فى علاقات التناص الذى يغدو قانونًا بنائيًا متعدد الوظائف فى كل هذه الأعمال. وأحسب أن لهذا التعدد مروره بحس يغلب الاتكاء على التراث العربى، بأنواعه المختلفة، وذلك لما يمثله هذا التراث من أطر مرجعية تظل فاعلة فى إحاطة الذى لا بد من نقضه، أو نقده. إن ما ينطوى عليه هذا التراث من مخزون نفسى فعال، فى الحاضر، وأبنية القيم التى لا تزال تتحكم فى شعورنا ولا شعورنا الثقافى، يجعل منه أقرب إلى المرأة التى لا بد أن يجتليها الحاضر ليكتشف فيها قبحه، أو يتعرف حضورها فى دون رتوش تجميلية.

وتعكس أغلب المرايا، فى مسرح سعد الله ونوس، إشكال «السلطة» وعلاقتها القمعية التى تحول نعمة التناص أن تكشف عن أسرارها الوظيفية أو طبيعتها البنوية التى تجعل «الملك هو الملك» فى كل الأحوال. ولكن الأسر يختلف فى (منمنمات تاريخية) بالمقاييس إلى غيرها من المسرحيات السابقة عليها، فهذه أول مرة يركز مسرح سعد الله ونوس هذا التركيز على «دور المثقفين بوصفهم الطليعة التى تسهم فى تقدم المجتمع أو تخلفه، فى صياغة علاقته المتكافئة مع الآخر أو علاقة التبعية، فى تعبير العلم أو تبريره. صحيح أن علاقات «السلطة» وبينيتها تظل ماثلة فى المنمنمات، لكن بؤرة التركيز لا تفارق المثقفين الذين تصاغ

مفلح وابن النابلسي من ناحية ثانية، كما تقابل بين التادلي وابن مفلح، وبين ابن خلدون والشرائحى، وبين الشرائحي والمذكاوي، وأزدار وشهاب الدين... إلخ. وهى علاقة ملازمة للأمثولات التعليمية عادة. وتبرز التقابل بين العقل والنقل، والتعارض بين تغيير العالم وتبريره، ورجل السيف ورجل الفكر، ومبدأ الحلم ومبدأ الواقع، والجيل الآفل والجيل الطالع.

وتوازي هذه العلاقة الماثلة التى تكشف عن أوجه الشبه بين الثنائيات التى تصل الأزواج (خديجة ومروان، سعاد وشرف الدين، ياسمين وإبراهيم... إلخ) وتوقع عليها نتيجة مماثلة. أما علاقة التوازي فهى التى تجعل من تيمور الوجه الآخر لفرج بن برقوق، ومن دلالة الوجه الآخر لابن خلدون، فهى العلاقة التى تضع الطغاة من الصغار والكبار فى المتصل نفسه، وتستبدل برجل العلم رجل المال، فى الحس العملى الذى لا يعرف سوى الشطارة.

وعندما يقول دلالة التاجر إن التجارة صورة الدنيا، وأصل النشاط والعمران، فإنه يصوغ تبريراً للسقوط لا يختلف عن تبرير ابن خلدون. ولا يختلف تبرير كليهما، فى التحليل الأخير، عن اعتراف التادلي الذى كشف عن جوهر إشكالية المثقفين، فى تقديره، بقوله:

قد أغرتنا نحن العلماء زينة هذه الدنيا، ففتاقتنا عليها، ورحنا نتوسل الأسباب لكى نصل إلى المناصب. ولم نتورع عن الحطة وهدر الكرامة، ولم نترفع عن الرشوة وشراء العلاوة... وبدلاً من أن نكون طليعة الأمة، وكلمة الحق التى تقوم الأحوال، وتروع السلاطين، نزلنا من أهل الدولة منزلة سوء.

وذلك قول يخاطب به التادلي أقرانه من مثقفي أوائل القرن التاسع للهجرة، ويحاور به، فى الوقت نفسه، أشباهه ونقائضه ومشاهديه وشهوده وقضاته من أهل العقد الثانى من القرن الخامس عشر للهجرة.

جمالية خالصة بل لعبة تشخيصية حوارية، المتفرج المشاهد طرف فيها. وله حضوره المتعدد الأبعاد. شأنه فى ذلك شأن اللعبة الحوارية التى يدخلها، والتى تكشف عن قواعدها أثناء أدائها، وتضئ حاملها إلى جانب محمولها.

وحين تعتمد اللعبة التشخيصية على التناص، وتنسج بواسطته نعمة الأمثلة التى تبنى بها، فإنها توازي بين الأداء السردى والتشخيص التمثيلى. وتوازي بين لغة الماضى ولغة الحاضر، لغة المؤرخ القديم التى تسترجع نصوص التاريخ وتضفرها فى تضمينات دالة ومسكوكات مجانية وكتابات كاشفة، ولغة الحوار المتعدد الأبعاد والمستويات، فى مناقشته بين الشخصيات المتدعة والشخصيات المستلة من التاريخ، بين ظاهر الشخصية وباطنها، بين المعلن من خطابها والمسكوت عنه، بين ما تقوله الشخصية وما يعلق أو يعقب به الشخص لها. وتتعدد الأدوار التى تتحول بها الشخصيات إلى أمثولات فرعية، فتكتسب قدراً من التجريد، ولا نرى منها إلا الملامح الإجمالية وليس التفاصيل النفسية الواقعية أو التى توهم بالواقعية، فهى أقنعة لا تقتصر الدور بل تشخصه فحسب. ولكن يزدوج الأداء، وتتعدد مستوياته، ما بين الشخصيات الفرعية والشخصيات الأساسية، فالأخيرة بوجه خاص هى الدال والمدلول، فاعل التأمل ومفعوله، موضوع اللعبة ومن يؤديها. ومن ثم تنفرد بثنائية الأداء الذى يدخل الشخص فى الدور ويخرجه منه، أو ينطقه بلسان القناع ويعلق على ما نطقه، فى مناقلة متعددة الأبعاد، لا نراها إلا فى تشخيص أدوار «المثقفين» دون غيرهم.

ويعتمد هذا التشخيص، بحكم تجريده، على علاقات بسيطة البعد، حذية، فهو ثنائيات ثلاثية الأبعاد، تقوم على علاقات التضاد والمماثلة والموازاة. وهى علاقات تؤكد التنشيط بما تقتصر به من تعدد، وتؤكد النسبية بما تقتصر به من تجريد، وتفرض على المشاهد - القارئ دور الاختيار بين المواقف والاتجاهات. وأكثر هذه العلاقات إلحاحاً هى علاقة التضاد التى تقابل بين الشرائحي من ناحية والتادلي وابن



# السؤال الديمقراطي في مشروع سعد الله ونوس

## عبلة الروينى\*

شرطه الإنسانى فى سياق جماعى يوقظ انتماءه إلى الجماعة، ويعلمه الحوار وتعدد مستوياته.. فهناك حوار يتم داخل العرض المسرحى، وهناك حوار مضمحل بين العرض والمتفرج، وهناك حوار ثالث بين المتفرجين أنفسهم، وفى مستوى أبعد هناك حوار بين الاحتفال المسرحى (عرضاً وجمهوراً) وبين المدينة التى يتم فيها الاحتفال.. وفى كل مستوى من مستويات الحوار هذه نعتقد من كآبة وحدتنا، ونزداد إحساساً ووعياً بجماعتنا، ولهذا فالمسرح ليس تجلياً من تجليات المجتمع المدنى، بل هو شرط قيام هذا المجتمع وضرورة من ضرورات نموه وازدهاره.<sup>(١)</sup>

ومع اتساق المشروع المسرحى لسعد الله ونوس انشغل الكثير من النقاد بتحديد خطوطه وتقسيمها إلى ثلاث مراحل:

الديمقراطية ليست لفظة للاستهلاك، لكنها كانت دائماً فى مسرح سعد الله ونوس نوعاً من ابتكار حرية مجازية تقاوم القمع، وشرطاً أساسياً لتجاوز الخطابة، التجرس والدلقين؛ فهو يكتب كى يمتحن الصواب ويفتش عنه، ليس ثمة يقين ثابت أو صواب جاهز ومحدد، يقدمه لنفسه أو للآخر، لكن الكتابة عنده محاولة للكشف عن آليات يمكن أن تهوى الأذهان لاكتشاف هذا الصواب وفتح نافذة الحوار

هكذا أسس سعد الله ونوس مشروعه المسرحى على إمكان «الحوار» وجدل العلاقة بين العرض والجمهور؛ حيث المسرح:

هو الأداة الأقدر، والمكان المودى الذى يتأمل فيه الإنسان شرطه التاريخى والوجودى، وهو المكان الذى يكسر فيه المتفرج معارته كى يتأمل

\* ناقدة مسرحية، مصر.



سؤال: أية سياسة، وأية صيغة فنية يمكن أن تحقق فعالية أكبر؟  
كان المقصود هو طرح المشكلات السياسية من خلال قوانينها العميقة وعلاقاتها المترابطة والمتشابكة داخل بنية المجتمع الاقتصادية والسياسية، واكتشاف أفق تقدمى لهذه المشاكل، أى أن التسييس فى مسرح سعد الله ونوس كان الخيار التقدمى للمسرح السياسى، وهو فى جوهره وتعريفه - كما حدده فى البيانات المسرحية:

حوار بين مساحتين (العرض المسرحى)  
و(الجمهور)، واختيار دائم للوسائل الفنية التى  
تحقق أعلى إمكانية لتقديم هذا الحوار.<sup>(٢)</sup>

فى (حفلة سمر من أجل ٥ حزيران)، لم يهتم ونوس كثيراً بالصيغة الفنية إلا بمقدار قدرتها على إنتاج المشاركة والحوار، ولم يهمله كثيراً أن العرض المسرحى يمكن أن يتوقف فى لحظة من اللحظات، ويتشعب إلى حوارات حية بين المتفرجين والممثلين أو بين المتفرجين بعضهم وبعض. بل إن صيغة الحفل، بشكلها السياسى التحريضى الذى أدى إلى الدفع بمؤلفها للمشول أمام المخابرات العامة، وبشكلها الفنى بفاعليته المباشرة، قد دفعت سعد الله إلى المراجعة حين اكتشف أن العرض المسرحى لم ينته بخروج الجمهور فى مظاهرة عامة<sup>(٣)</sup>، وأن المسرح كما قال بريخت: «لا يستطيع أن ينوم بثورة أو أن يبدل ببيان المجتمع».<sup>(٤)</sup>

أدرك سعد الله ونوس أن فعالية المسرح ليست فى إنجاز الثورة وتغيير حركة التاريخ، ولكنها جزء من هذه الجهود اليومية، وإمكان متواضع من إمكانات التغيير. وتتمثل فعالية المسرح العميقة فى:

أن يكون وسيلة معرفية توسع أفق المتفرج معرفياً، وأنه وسيلة جمالية توقظ بذهن المتفرج قابليات للذوق والتذوق المختلفة، وتتقاطع مع القيم الجمالية التى يعممها الفن والإعلام السائد.<sup>(٥)</sup>

انشغل سعد الله ونوس بسؤال البحث؛ فكل نص مسرحى هو محاولة تجريب وإعادة نظر على مستوى الكتابة والوسائل وعلى مستوى العلاقات اللغوية. لم تكرر مسرحية بنية

- البدايات: وتضم مجموعة من النصوص المسرحية القصيرة، منها (جثة على الرصيف)، (مأساة بائع الدبس)، (فصد الدم)، (المقهى الزجاجى)، (الجراد)، (الرسول المجهول فى مأتم أنتيجونا) وتمتد هذه المرحلة بين عامى ١٩٦٤ و ١٩٦٨.

- مرحلة الالتزام الماركسى الصارم والسؤال الإيديولوجى المنشغل بتحليل بنية السلطة، وتضم من مسرحياته (مغامرة رأس المملوك جابر)، (حفلة سمر من أجل ٥ حزيران)، (سهرة مع أبى خليل القباني)، (الفيل يا ملك الزمان)، (الملك هو الملك)، وتقع بين عامى ١٩٦٨ و ١٩٨٩.

- مرحلة أخيرة، تبدأ من مسرحية (اغتصاب) - ١٩٩٠، حتى (الأيام المغمورة) - ١٩٩٧، وتضم مسرحيات (منمنمات تاريخية)، (طقوس الإشارات والتحولات)، (ملحمة السراب)، (أحلام شقية)، (يوم من زماننا)، حيث تطل الخصوصيات الفردية، وينشغل الكاتب بالمكونات النفسية والنوازع والأهواء لشخصياته المسرحية.

وفى التقسيم النقدى الصارم والمحدد محاولة تبسيطية لقراءة المشروع المسرحى المتنامى والمتنوع فى أسئلته الجمالية والفكرية، ليس بين مرحلة وأخرى، بل بين المسرحية والمسرحية التى تسبقها، دون أن يتنكر الكاتب لمركزاته الفكرية والفنية والإيديولوجية. فليس ثم تحول أو انقلاب ينفى ما سبقه أو يناقضه، لكنها صيرورة الوعى التاريخى المركب التى احتفظ بها دائماً سعد الله ونوس بوصفها مقوماً جوهرياً من مقومات ثقافته الوطنية، وهى أيضاً متغيرات الواقع وموقف الكاتب ونضجه، مع إعادة النظر المتواصلة لتحقيق هذا النضج، وكلها أسئلة متلاحقة ومراجعات مستمرة سمحت له بالغوص الأعظم داخل الواقع، وكتابة مسرحيات لم تكن فى رأيه سوى مجرد اقتراحات أو جدول أعمال مصاغ بصورة فنية، ولا يخلو من جوانب جمالية، لكى تغرى به «الحوار».

#### ديمقراطية الأنواع المسرحية:

عندما طرح سعد الله ونوس مفهومه حول (مسرح التسييس) فى بياناته المسرحية (١٩٦٨)، متجاوزاً مفهوم المسرح السياسى الملتبس فى عموميته، كان يجب عن

سابقتها؛ إنها «ديمقراطية النظر إلى الأنواع المسرحية» بتعبير محمد ذكروب.

فجوهر «اللعبة» المسرحية في (الملك هو الملك) لا يرتبط بطبيعة الدرس التعليمي أو عملية التوعية التي يقوم بها، ولكن يكمن في طبيعتها الديمقراطية التي تسمح بالمشاركة؛ فالذين يقدمون «اللعبة» يتعلمون ويعلمون في آن، وهم لا يحللون السلطة فقط وإنما يتناقشون حولها أيضاً.

(اللعبة) فعل مشاركة، يفترض حضور الآخر، ليس بوصفه متفرجاً أو مشاهداً، ولكن بوصفه طرفاً حقيقياً وفعالاً فيها. إنها كسر للعزلة بين العازل والمُعزول، كسر للتقليد والتلقين وكل جماليات التوقع النمطية؛ إنها التجسيد الفعلي الحر للحوار مع الآخر.

وفي الشكل الاحتفالي المفتوح في (حفلة سمر من أجل هـ حزيران) دعوة إلى المشاركة وتجرب مسائل متنوعة لتحقيق أقصى فعالية للحوار.

وبرغم قصدية الدفع بالمتفرج، نرى أنه في حوار، حيث يضع سعد الله نوس في سياق العمل المسرحي متفرجين يتحدثون ويتناقشون، ويقدمون نموذجاً لما يستقبله المتفرج أو لما ينبغي أن يكون عليه، فإن تلك القصيدة «الوسائل التي تبدو مصطنعة هما محاولة لكسر طبق العنست، ووسيلة مقترحة لتأسيس فعل المشاركة والتدريب عليه» لفتح نوافذ الحوار حتى لو تجاوز المتفرجون العرض المسرحي في الحوار الممتد بينهم. وفي استخدام «المقهى» الذي يقدم خلاله «الحكايات» حكايته في (مغامرة رأس المملوك جابر) شكل آخر يسمح بتدخل رواد المقهى وزبائنه في مجريات الأحداث والتعليق عليها؛ فليس للمسرحية بداية دقيقة، والسياق نفسه لا يتخذ شكلاً صارماً أو معمارياً؛ والمقهى ليس مكان الحدث ولكنه المسرح نفسه (خشبة المسرح) ومن خلاله يكسر الطوق الباس للعرض المسرحي، ويخاطب من حقوس العمل الدائري العام لتحقيق إمكان عفوي وانتزاع هامش للارتجال؛ فمعمار المقهى يكسر كل حصار وعزلة تشكيلية، كما أن وضعه بوصفه مكاناً يعرض نفسه داخل الحياة الاجتماعية والبيئة الشعبية، يفرض مشاركة كلية وحيوية في إبداع الصورة المسرحية.

لم يقدم سعد الله ونوس شكلاً فنياً محدداً باعتباره الشكل النهائي؛ لم يقدم نصوصاً مسرحية «تامة» أو «مغلقة»، لكنه كتب دائماً للعرض المسرحي نصاً مقترحاً مخرج مجتهد وفريق عمل متجانس، وجمهور عليه أن يشارك بنوع من الإيجابية.

في كل مسرحية من مسرحيات ونوس هامش مطروح للبحث والاجتهاد، مساحة فارغة تركت عمداً كي يملأها العرض المسرحي. هكذا طالب سعد الله ونوس كل مخرج مسرحي يتناول أعماله ببحث مواز على المستوى الإبداعي لبحث النص الذي يقدمه بوصفه مؤلفاً، دون أن تعني دعوته معارضة النص أو تشويه مقولته الرئيسية، ولكن يجب أن يتعهد المخرج المقولة وينميها في جغرافيا وتاريخ جديدين.

في تجربة (سهرة مع أبي خليل القباني) التي قام بإخراجها فواز الساجر مثال واضح لهامش الحرية الممتد بين المؤلف والمخرج. يشير سعد الله في مقدمة نص (القباني)؛

إن محاولتي لتقديم الشريحة التاريخية العريضة التي نشأ فيها القباني، ربما أدت إلى تطويل المسرحية بما قد يمد وقت العرض بأكثر مما يجب، فإذا اقتضت الضرورة يمكن اختصار بعض المشاهد بما لا يربك الصورة العامة عن العصر واتجاهاته.<sup>(٦)</sup>

ويشير أيضاً إلى أن:

هناك إمكانات عديدة لتقديم (فصل الولاة) بالمسرحية والأسلوب الذي اتبعه في خروج أو دخول الممثل ليست إلا اقتراحاً أولياً والتقييد به غير ضروري.<sup>(٧)</sup>

وعندما أخرج فواز الساجر المسرحية مع طلاب أول دفعة تخرجت من المعهد العالي للفنون المسرحية بدمشق:

أجريت تعديلات على النص، وقام بإعادة ترتيب المشاهد، وأبرز التداخل في رواية (هارون الرشيد مع الأمير غانم بن أيوب وقوت القلوب) وبين الحكاية الوثائقية التي تتناول تجربة القباني، ونضاله من أجل إقامة مسرح في دمشق.<sup>(٨)</sup>

لم يقفز سعد الله ونوس من عربة التاريخ مستسلماً للياس، ولم يطمئن فى مواجهة تلك الانهيارات المتلاحقة إلى التبسيطية والإيمائية السطحية. بدت مراجعته تتكشف عن رؤية أكثر عمقاً وأكثر تعقيداً من علاقة السلطة/ المجتمع:

هناك تركيب ثلاثى بحاجة إلى الغوص فيه أكثر لمحاولة استكشافه .. بنى اجتماعية متخلفة جداً مع بنى اجتماعية حديثة شكلياً، وغياب أى تساق مشروع مستقبلى يمكن أن تقوم به دولة عصرية، لا تتعاضد فيها السلطة مع المجتمع بحيث تهمش السلطة مجتمعها وتجبره على العودة فى آلية دفاعية سلبية إلى بنائه التقليدية والأخلاقية المفوتة .. لم يعد تقير السلطة هو شرط تحقيق التقدم المنشود.. الشئ الأصعب هو تغير المجتمع، هز سكونه ونوساته واستفراقه بالخرافة.<sup>(٩)</sup>

أطل الفرد برأسه وعالمه الخاص فى مسرح سعد الله ونوس، أصبح بالإمكان لديه أن يحب فرديته، وألا يعتقد على الإطلاق أنه إذا اغتنى من حيث وجوده الفردى إنما يمزق شمل الجماعة والعمل الجماعى. لم يعد يتجاهل الاستثناء والتفرد والمكونات النفسية، مؤكداً أنها مما يمنح الجماعة قوة إنسانية، ويجاوز كونها جمعا من آحاد فارغة. هكذا تناول أهواء الشخصية الفردية ونوازعها بعيداً عن وضعيتها التاريخية أو الاجتماعية أو السياسية فى نصه الأهم (طقوس الإشارات والتحولات)، وهكذا أصبح بالإمكان ملامسة الحسية فى الكثير من نصوصه الأخيرة، فما كان يلوح به أو يشير إليه، أصبح مشهداً واضحاً ومجسداً دون أن يعتقد أن تلك «أمور برجوازية».

لم يقفز سعد الله من عربة التاريخ، لكنه أدرك بعد طول مراحة: أن الوعي التاريخى ليس يقيناً ثابتاً، ليس مجرد شعار ولا تحيز إيديولوجى، إنما ممارسة واعية ونقد وإعادة نظر ومراجعة مستمرة، إنه معرفة الذات بلا أوهام، ومعرفة العام بعمق ونفاذ، وإنه باختصار فك ارتباط نهائى مع اللاهوت واليقين وكل اطمئنان كامل ونهائى:

وقبل سعد الله ونوس هذه التعديلات الجوهرية، بل قام بنشرها ضمن «أعماله الكاملة» مطالباً باعتمادها فى أى عرض جديد لهذه المسرحية.

الهامش الديمقراطى نفسه فى العلاقة مع المخرج امتد واتسع فى مسرحية (الملك هو الملك) عندما أخرجها مراد منير للمسرح الحديث بالقاهرة (١٩٨٦) حيث قام الشاعر أحمد فؤاد نجم بكتابة مقاطع نثرية ونكات شعبية وأغنيات بالعامية المصرية، شكلت نصاً موازياً لنص (الملك هو الملك) فى لغته الفصحى العذبة الراقية، وهو تدخل إخراجى أحدث جدلاً بين العامية والفصحى على مستوى بنية العلاقات بالنص. وبرغم اختلاف الكثير من النقاد حول حجم تدخلات المخرج وطبيعتها فقد وافق سعد الله ونوس وأعلن رضاه التام عن العرض المسرحى الذى رآه مخلصاً لرؤيته ومقولته الأساسية.

### عربة التاريخ

كان سؤاله المطروح دائماً على نفسه: إلى أى حد فى اطمئنانه اليقينى والإيدولوجى يستجيب لبقايا لاهوتية مقدسة مستقرة فى لاوعيه؟

سؤال راوده كثيراً حين امتد الصمت والتوقف عن الكتابة لأكثر من تسع سنوات (١٩٧٩ - ١٩٨٩) بعد كتابة (الملك هو الملك) (ورحلة حظلة) المأخوذة عن (موكبوت) لبيتر فايس. كانت ثمة مراجعة جوهرية، وكان الصمت ضرورة رأى سعد الله أنه لا يستطيع تفاديها.

لقد كانت مراجعة للذات، ولأوضاع جيل من المثقفين بسطوا التاريخ فى فورة حماسهم وتعجلهم، فحولوه إلى عدد من اللافتات والشعارات. وكانت مراجعة جوهرية، أحس خلالها أن مسؤوليته بوصفه مثقفاً قد تضاعفت كثيراً، وأن عليه أن يتأمل بفهم وبعق ما يجرى حوله: هزيمة ١٩٦٧، انكسار المشروع الناصرى، انكسار المعسكر الاشتراكى، تزايد هيمنة السلطة فى مقابل تهميش المجتمع، هشاشة القوى السياسية وضعف قدرتها على المقاومة وعلى صياغة أساليب نضال مبتكرة وفعالة، حرب الخليج وما أصابتنا به من عرى كامل... إلخ.

المسرحية وطرحها السياسي بمنطق كان سائداً في عام ١٩٤٨ دون حساب لمسيرة الأعوام الطويلة ومتغيراتها، وأنا مازلنا نواجه إسرائيل بآليات لاهوتية وبدائية، وأنا رتبنا تعاملنا مع العدو على أسس طقوسية وشعائرية متخلين عن كل وعى تاريخي.<sup>(١١)</sup>

أسئلة متلاحقة ومراجعة دائمة هي موقف أصيل لهذا الكاتب، لم يتنكر فيها لمرتكزاته الفكرية والإيديولوجية. وحين بدت الليبرالية - التي أشار إليها في مقدمته لكتاب (قضايا وشهادات) - ملتبسة على من كاتب يستند بعمق إلى منهجية ماركسية ورؤية مادية للتاريخ، كتب إلى:

هل تظني أن بوسع الماركسية أن تحقق مجتمعاً اشتراكياً إن لم تكن مؤسسة على مجتمع انصهر وتبين وتفتح في سياق ليبرالي.. ثم ألم تكن واحدة من أخطائنا الكبيرة - نحن الماركسيين - أننا لم نقدر ثراء الليبرالية وأنه دون العقلانية وحرية السجال ما كان بوسع الانتماء الماركسي أن يكون إلا شكلاً جديداً من أشكال الانتماء اللاهوتي مغلقاً على نصوصه وشعاراته.

عندما كثر الحديث عن الميوسترويكنا ولا سيما في العام ١٩٨٧ مع صدور كتاب «تورياتشوف»، كنت أتوقع حدوث أزمة وعى لدى كل الأحزاب الشيوعية العربية، وكنت أتوقع حدوث نوع من التمزقات والصدامات على مستوى الأفراد والأحزاب معاً، وكنت أعتقد المفاجأة موجعة حين نظرت حولي وحدث أنه لم تحدث أزمة وعى ولم تحدث تمزقات أو فissions، بل وكان يتم التكيف وتبعية فاصحة مع هذا التغيير الكبير الذي يطال بني نظرية عميقة.<sup>(١٢)</sup>

المفاجأة نفسها أصابته في المعركة السياسية التي أحدثها نصه المسرحي (اغتصاب) المستند إلى نص الكاتب الإسباني بويرو بايخو (القصة المزدوجة للدكتور نالي)، التي تناول فيها سعدالله ونوس الصراع العربي الإسرائيلي، واقترح في نهايتها حواراً مفتوحاً بينه وبين الدكتور «موحدين»، إحدى الشخصيات الإسرائيلية في النص.

امتد الخلاف السياسي إلى حد اتهام سعدالله ونوس بالخيانة، ورأى سعدالله أن كثيراً من المثقفين يتناقضون حول

## الهوامش:

- (٦) مقدمة سهرة مع أبي خليل القباني، الأعمال الكاملة، مرجع سابق، مج ١، ص ٥٨٧.
- (٧) نفسه، ص ٥٨٨.
- (٨) نفسه، ص ٦٨٥.
- (٩) انظر حوار مع ماري إلياس، مرجع سابق.
- (١٠) الأعمال الكاملة، مرجع سابق، مج ٣، ص ٦٤٨.
- (١١) نفسه، ص ٦٩٢، بتصرف يسير في الصياغة.

- (١) انظر حوار مع ماري إلياس، مجلة الطريق، السنة الخامسة والخمسون، العدد الأول، يناير ١٩٩٦، ص ٩٦-١٠٤.
- (٢) الأعمال الكاملة (٣ مجلدات)، الأهالي للصباغة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٦، مقدمة مقدمة المحلوك جابر، مج ١، ص ١٣١.
- (٣) الأعمال الكاملة، المرجع السابق، مج ٣، ص ٢٣٨ - ٢٣٩.
- (٤) المرجع السابق، مج ٣، ص ٣٦.
- (٥) المرجع السابق، مج ٣، ص ١١٥.

# ونوس كما رأيته

هناء عبدالفتاح\*

أستطيع أن أتخذ أية مساحة فارغة وأدعوها خشبة مسرح عارية.. فإذا سار إنسان عبر هذه المساحة الفارغة في حين يرقبه إنسان آخر، فإن هذا كل ما هو ضرورى كي يتحقق فعل من أفعال المسرح.

بيتر بروك<sup>(١)</sup>.

كان لقائى الفنى بسعد الله ونوس لقاء عاديا من تلك اللقاءات الفنية التى تحدث فجأة ثم سرعان ما تنتهى. تمّ هذا اللقاء فى الشهور الأولى من عام ١٩٧١. فقد قرأت له مسرحية (الفيل يا ملك الزمان) الصادرة فى إحدى المجلات القاهرية الأسبوعية. استفزتنى قراءتها، فأتبعتها بقراءات متعددة متتابعة؛ كشفت لى كل قراءة منها استقراء جانب آخر من جوانب الإبداع الدرامى فى نص ونوس، وغوصاً أتلّمس فيه كاتبها يضع خشبة المسرح بكل مفرداتها وتقنياتها نصب عينيه، ويخلق اتحاداً ما بين الدراما والمسرح، وترابطاً ما بين الفعل الدرامى والحدث المسرحى، وديناميكية تحيل السطور المكتوبة إلى كائنات حية فاعلة، وخشبة مسرح تبدلت تقليديتها وتعلّبها (من مسرح العلبة الإيطالى) إلى فضاءات مسرحية غير تقليدية تحتضن تفاصيل الواقع وتمزجه بخصوصية المناخ المسرحى الحى، وبجماليات العمل الفنى المنفردا

\* مخرج مسرحى، مصر.



## ونوس للمرة الأولى فى مصر

كان منوطاً بى إخراج عمل مسرحى لفرقة الشرقية المسرحية التابعة لمحافظة الشرقية وإدارة الثقافة الجماهيرية\* وقد كانت ولا تزال إحدى الفرق القومية المسرحية المتميزة. أصررت على تقديم مسرحية (الفيل يا ملك الزمان) لهذه الفرقة، رغم الآراء المعارضة الواقعة بالمرصاد ضد تقديم العرض. فاعمل باللغة العربية، يطرح قضية السلطة فوق خشبة المسرح فى إقليم من أقاليم مصر، هو طريق محفوف بالمخاطر على حد زعمهم. وقيل لى كذلك إن الجمهور الإقليمى لا يشبه جمهور العاصمة فى تميزه ؛ ومن حق هذا الجمهور أن يشاهد عرضاً يفهمه. ثم لماذا نقدم «ونوس» وهو كاتب سورى ولدينا كتابنا المسرحيون المصريون!!!

ورغم تباین هذه الآراء المتضادة، فقد هويت عزيمتى وزادت رغبتي فى تقديم هذا العرض المسرحى الذى استضيف فيه «ونوس» للمرة الأولى بمصر فوق خشبة المسرح. كان المسؤولون عن المسرح فى الأقاليم أيامها من نخبة رجال المسرح؛ الكاتب الكبير أنفريد فرج، والفنان القدير حمدى غيث، والكاتب الكبير سعد الدين وهبه الذى كان يرأس جهاز الثقافة الجماهيرية. ساعدنى هؤلاء ولم يعترضوا على اختيارى.

أما مسألة تقسيم النظارة إلى قسمين أو فئتين؛ فئة مثقفة تنتمى - من وجهة نظر البعض - إلى العاصمة، وفئة أقل ثقافة - كما يدعى -، فهو حكم ينقصه الإدراك والوعى والمعرفة بما يدور حقيقة فى المحافظات؛ ذلك لأن جمهور الأقاليم - بسوق واع متعطش لمعرفة الجديد، قادر على اختيار الجيد من الردى.

قررت، إذن، البدء فى إخراج (الفيل يا ملك الزمان) العمل المسرحى الأول لسعد الله ونوس فى مصر. كان لابد لى أن أنتقى بجواره نصاً مسرحياً يكمل الخط الفكرى فيها ويؤكد، فاخترت نص توفيق الحكيم (رحلة قطار).

## المدخل إلى ونوس

اكتملت أخيراً السهرة المسرحية بحزأيها: (رحلة قطار) و (الفيل يا ملك الزمان). لقد اخترت - عن وعى - نص الحكيم ليكون أرضية جديدة لهذه المنظارة فى محافظة الشرقية؛ لاستقبال نص الكاتب السورى وتذوقه. ورغم أن نص الحكيم كان آنذاك مكتوباً باللغة العربية، فإنه كان أقرب فى صياغته اللغوية إلى اللهجة العامية، وكلفت كاتباً شاباً من الشرقية (أحمد عفيفى) بإعدادها إلى العامية. وبذلك أصبحت (رحلة قطار) مدخل إلهام لى، لأعد المتلقى كى يتدفق (الفيل يا ملك الزمان). الأطروحتان معاصرتان، والفكرتان واضحتان، ودلالة العملين موحدة وقادرة على التنبؤ.

(رحلة قطار) كانت تعبيراً فى السبعينيات، عن تساؤل آخر مطروح صاغه المصريون عند محاولتهم إعادة تقييم ثورة ٥٢، بعد نكسة ٦٧، واستكشاف الطريق السياسى الصحيح سواء أكان اشتراكياً أم من الشرق أم إيديولوجية الانفتاح حسب نص. وأسمالى استهلاكى؟!... لكن (رحلة قطار) الحكيم لم تكن دعوى سياسية سفسطائية أو تساؤلاً مباشراً ساذجاً، بل كانت محاولة من الحكيم للبحث عن أنفسنا بعد أن أصبنا بالإحباط والتخبط؛ رحلة ناجحة لتلمس حبة الصباغ، وتأكيد فقدان معالم الطريق التى مسختها الأمانى الكاذبة، وضيعتها الأوهام الملققة.

فضلاً عن ذلك، كانت (رحلة قطار) جسراً يسير فوقه المتفرج عند مشاهدته للولوج في رحلة أخرى، هي رحلة شعب داخل قرية؛ يرثل للملك شاكياً إليه فيله الملكى وقونه الغاشمة المدمرة للقرية. كانت (رحلة قطار) مدخلاً لرحلة الرعية في (الفيل يا ملك الزمان).

### فيل ونوس النزق ومازق الرؤية في القراءة الأولى

يصنع سعد الله المشهد الذى وقعت عليه البصيرة، يخلق المشهد الذى رآه بالعقل، كأن مشاهد النهار المتناثرة مزورة وملبشة بالغبار، وعلى الفضولى الخاص، الذى يحتقب الفضول والنزاهة وهواجس العقل، أن يعيد المشاهد إلى وضعها الصحيح، حيث تكون كما يجب أن تكون، عارية نظيفة، وبعيدة عن غبش العين وأوهام العقل المضطرب<sup>(٢)</sup>.

#### فيصل دراج

لم يكن أمامى عند قراءتى مسرحية (الفيل يا ملك الزمان) إلا أن أتبنى فى رؤيتى الإخراجية طريقتين: إما حرفية الترجمة، أو تجريد التأويل. عند فرقة مسرحية كفرقة الشرقية المسرحية، كان على - بعد قراءات متعددة - أن أشكل صيغة للعرض المسرحى تجمع بين طريقتين: المحافظة على نص ونوس ومقولته السياسية، وتشكيل خشبة المسرح التى تقوم بتأويل الحدث الدرامى والفعل المسرحى من وجهة نظرى الإخراجية.

أصبحت بحالة من الخوف وقدر هائل من الحيرة عند تشكيلي هذه الرؤية، فمسرحية (الفيل يا ملك الزمان) تدور أحداثها فى أماكن متتالية تشكل فضاءين: زمانياً ومكانياً رغم المحدودية الزمانية وواقعية الأمكنة المطروحة:

- زقاق محاصره فى الخلف بيوت بائسة (القرار).

- باحة عامة يجتمع فيها أهل القرية (تدريبات).

- أمام قصر الملك.

- أمام الملك.

وطرحت تساؤلاً يشكل مسار رؤيتى الإخراجية: كيف يكون التصور الزمانى والمكانى لهذا العرض؟ أياكون المطروح أن أخلق تفاصيل واقعية للأحداث وأضعها فوق الخشبة تحدد الأزمنة كلاً على حده؛ بحيث تشكل المسرحية فى مجموعها منهجا يقوم على رؤية حرفية تترجم رؤية ونوس النصية التى يكون الحوار فيها البطل الحقيقى للعرض المسرحى، أم ينبغى أن تكون ثمة رؤية تستند طبقاً لمقولة بروت فى (مساحته الفارغة) إلى مجرد «خشبة مسرح عارية»، ووفقاً لما يقول فيصل دراج: «مشاهد عارية نظيفة، بعيدة عن غبش العين وأوهام العقل المضطرب»... رؤية تعيد ترتيب حيوات البشر (الرعية) وترتيب أماكنهم، وأزمانهم؟!

اتسقت رؤيتى الإخراجية مع رؤية أخرى ووضعتها أمامى هدفاً، وهو أنه يجب ألا أترفع على المتفرج، بل على قدر الاستطاعة أن أخلق له المناخ اللازم لإدخاله بقناعة فى إهاب شخوص القرية. وذلك بتشبيد الجو

المحيط وبناء الوحدات الأساسية الموحدة بالرقاق تارة، وبالباحة تارة أخرى، وقصر الملك مرة ثالثة، وأمام الملك فى نهاية المسرحية.

حاولت أن أضع لنفسى هدو آخر، وهو أن أكون تابعاً - إن جاز لى استخدام هذا التعبير - لنص ونوس. وإن شئت الدقة أن أكون مترجماً وفيها - لا متعالياً - لنص ونوس، متخطياً ما يطرحه عندما قدمت العرض المسرحى فى فرقة الشرقية المسرحية منذ أكثر من ربع قرن من الزمان. انعكست هذه الرؤية فى تخليق الديكورات المصنوعة، مع طريقة أداء الممثلين المعتمدة إيقاعاً سريعاً يتنامى رويداً رويداً، بداية بعرض المشكلة/ القضية، مروراً بالقرول/ التدريبات، وصولاً إلى النهاية المفجعة أو النهاية الكوميديّة / السوداء، وهى سقوط الرعية الدرامى. ورغم هذه الرؤية المستندة دلالتها لرؤية تشكيلية واقعية لمأساة قرية، فإنها اعتمدت كذلك تخليق فضاءات مسرحية متعددة، تشكلت فوق الخشبة من الديكورات، وأجساد الممثلين المجتمعين معاً كى يشكلوا رؤية فكرية / جمالية لا تعتمد فقط إبراز كلمات ونوس، بل القيام بالرحلة المستحيلة التى قرر القيام بها أهل القرية إلى قصر الملك لشكايته فيه له.

### عن التجربة

لقد أضحت تجربتى الإحراصة غير منفصلة عن تجربة ونوس، ورؤيتى بوصفى شاباً فى مستقبل عمره وتجربته، تتوازى مع تجربة شاب كوينوس بكبرى بثلاثة أعوام فقط. لقد كتب مسرحيته (الفيل يا ملك الزمان) عام ٦٩، وقدمتها الفرقة المسرحية المصرية عام ١٩٧١ أى بعد عامين من صدورهما.

كانت لدى الرغبة فى المشاركة - مثل جيلى - فيما يحدث حولنا فى مصر وفى وطننا العربى الكبير. كانت طموحاتنا ناصرية، اشتراكية المصرية، كنا نؤمن إيماناً لا حد له بقوتنا وبأننا نشيد وطناً عربياً قوياً، يدفع بنا نحو الحرية والديمقراطية، بقرية المصر. ونوجئنا بأن الحماسة كانت تطيع أفكارنا بطابعها، ونسوقنا نحو حظيرة الشعارات والأمانى والخصائى والآمال الخائبة، دون سند من الواقع أو دليل من الحاضر. لذلك كانت نكسة ٦٧ أحبولة وقعنا فيها جميعاً، وكشفت بضراوة عن ما يحيط بنا، فافتضحنا، وصرنا عرايا أمام أنفسنا! وكانت (الفيل يا ملك الزمان) محاولة ونوس للكشف عن صمت الرعية - وإن شئت الدقة - عن خرس الشعب، وعجزه عن تقرير مصيره، واختيار القرار الصحيح.

لذلك كان الشعار السياسى فى هذه المسرحية هو الهدف الذى يؤكد رسالة الحكيم فى مسرحيته المذكورة (رحلة قطار) ويؤكد بعينها الرئيسية: التردد فى اختيار القرار المصرى، السير إلى الأمام أم التوقف فى المكان؟! كان ثمة مناخ أتاح لنا فى مصر السبعينيات طرح التساؤلات، وإعادة تقييم المرحلة الناصرية التى بدأت بثورة ١٩٥٢ وانتهت بموت عبدالناصر عام ١٩٧٠. فى هذه الأزمة قدمت المسارح المصرية آنذاك بجوار ونوس مسرحيات (البوفية) و(نيالى الحصاد) و (باب الفتوح) لمحمود دياب، و (الحسين شهيداً) ثم (الحسين نائراً) لعبدالرحمن الشقراوى، (انت الذى قتل الوحش) لعلى سالم، وغيرها من المسرحيات التى صاغ كتابها المرحلة التاريخية المعاصرة بقدر من الحذر والتلف لتستقبل لتسم بالغموض ينتظرننا. وكان هؤلاء الكتاب مثلنا مهملين للثورة، دون نقد حقيقى أو تقييم صحيح للمرحلة. لهذا السبب استهوتنى مسرحية (الفيل يا ملك الزمان) بمضمونها السياسى، ومفارقتها الفكرية، ورؤيتها المتغلغلة فى قلب المتلقى وعقله، فتشير أطروحات مصيرية حول ما يحدث لنا كشعب، وإلى أين نسير؟! حاولت أن أحول هذه الرؤية الفكرية /

السياسية إلى رؤية تشكيلية تقف وراء الفكر المطروح في نص ونوس، وتعرض لحالة الضياع والتشتت اللذين ألما بنا.

كانت الديكورات بسيطة في تجربة فرقة الشرقية المسرحية: مجرد بانوهات (لوحات خشبية يغطيها القماش)، تعبر عن تشابه أبواب القصر الخلاب المتعددة، وترمى إلى تعددية وظائفها. واعتمدت في تصميم حركة هذه الأبواب على الممثلين أنفسهم وهم يحملونها، وكأنهم جزء منها، وكأنها أبوابهم هم؛ تشير إلى وهم الأبواب التي يخلقونها، وكأنهم يشيدون أسوارهم الخاصة. بهذا المنطوق اتخذت أبواب القصر المتعددة وظيفة جديدة. صارت هذه الأبواب / الأسوار التي تحملها الرعية لنقلها من مكان إلى مكان كالصلبان التي يحملها المسوسون، ينوء كل فرد بثقلها، فلا هو بقادر على تحملها، ولا يستطيع تركها.

ورغم هذا التأويل الإخراجي الذي يعمق المعنى، فإنني لم أتخلص تماما في هذه المسرحية من نمطية التفكير المسرحي الذي يبنى على واقعية التشكيل ومحاكاة الطبيعة على مستوى المنهج والرؤية؛ فكان على - وفقا لما ارتأته آنذاك - أن يكون ثمة كرسي عرش فخم، على الملك ارتداء الزي الملكي المزدان بالزخارف، فوقعت في خطأ منهجي على مستوى الإخراج المسرحي؛ إذ استخدمت أسلوبين متنافرين؛ أولهما واقعية التشكيل والعباغة، وثانيهما التجريد على مستوى حركة الفعل الدرامي (للممثلين) وحركة الأبواب المستمرة، مع موسيقى تثير القزح والخوف في النفوس، فأضحت الموسيقى مجرد عنصر خارجي لا ينبعث من داخل نسج العمل الفني نفسه.

ورغم ذلك، فقد أثر العمل المسرحي (الفيل يا ملك الزمان) في جمهور المتلقين، بمضمون الرسالة والفكرة التي سطرهما ونوس في عمله الرائع، وكانت الصدمة الدرامية التي أحدثتها المسرحية في النظرة عندما صممت الرعية أمام الملك، ولم تجرؤ على التصريح بمكون شكواها. كان هذا من قبيل اللطمة التي صفع بها ونوس جمهورنا عبر مثلي العرض المسرحي فوق الخشبة. لهذا كان ونوس في كلماته وحواره أقوى منى في مفرداتي المسرحية، كان أكثر تأثيرا ونفوذا من جميع تصوراتي المتخيلة على مستوى الإخراج؛ نعم، لقد وقعت في أسر كلماته، أغرمت برؤيته الفكرية الأخاذة، ولم أستطع التخلص من عذوبة عذابات كلماته ومرارة حواراته وإشعاعاتها. نفذت تعليماته وهوامشه وملاحظاته بدقة، منذ المشهد الأول وحتى المشهد الأخير؛ عندما يكتشف الممثلون أنفسهم ويخلعون أقنعتهم، ويستحيلون جوقه تصرح برسالة النص ومغزى المضمون، يكشفون عن ما يريد ونوس قوله، حتى ذلك كله ترجمته وقدمته كما أراد ونوس!

ورغم ذلك، فقد أثارت هذه التجربة كثيرا من الجدل في جمهور المتلقى - وكانت المسرحية (الفيل يا ملك الزمان) بداية التعريف بونوس في مصر، لتتلوها تجارب مسرحية أخرى من أهمها: (الملك هو الملك) و (رحلة حنظلة) و (مغامرة رأس المملوك جابر) و (طقوس الإشارات والتحولات)

### العودة إلى الفيل ثانية!

سافرت إلى بولندا بعد إخراجي مسرحية «الفيل...» بعام واحد، لاستكمل دراستي في فنون الإخراج. في بولندا تعلمت على أيدي أساطين المسرح: كانتور Kantor، شايينا Szajna، جروتوفسكي Grotowski، أكسير Axer ومنتسكي Lomnicki وغيرهم. تعلمت على أيديهم طرق التفكير المسرحي وتأويل المسرح

على مستوى الأداء التمثيلي والمشهد المسرحي (التشكيلي / السينوغرافي)، فضلاً عن المشاهدة وتجربة الإخراج والتعليم بأكاديمية المسرح بوارسو.

عدت بعد غيبتى عن مصر أكثر من ستة عشر عاماً ولا يزال يداعب مخيلتى نزق «فيل ونوس الشقى»، ولا يزال نجاح مؤلفها عندما قدمته بمحافظة الشرقية مثلاً أمام عيني، نجاح أثار إعجاب النقاد والجمهور، وينسب هؤلاء وهؤلاء أهمية تحريض لنوس، لا لرؤيتى الإخراجية أو تفسيرى! عدت إلى مصر وأصبحت أكثر نضجاً ووعياً. ولم يهمنى ذلك المسرح عندما يستحيل سياسة أو شعاراً، بل يستفزنى ذاك المسرح عندما يكون وجوداً إنسانياً شاملاً للإنسان داخل الكون، بجمالياته وخصوصياته، لا تدخل فيه السياسة عنوة أو تقتحمه اغتصاباً.

أدركت أنه بمقدورى تقديم هذا الهاجس الذى لم يفارقنى: (الفيل يا ملك الزمان) بمنظور جديد يدرس ظاهرة الخوف الإنسانى، ويبحث عن مسببات وجودها وظروف نشأتها! لا أدين - عبر هذه الرؤية - الرعية / البشر، بقدر ما أحزن أن أفتهمهم، أستشعر خوفهم من التسلط - أيا ما كانت أشكاله وصيغه، أدمج مخاوفهم بمخاوفى، ترددهم فى اتحاد أقرار بترددى الداخلى، لماذا أصبحوا كذلك؟! وكيف استمروا عذابات التشكيك والخوف والتسليم القدرى... هوأت! لا أقوم بإدانتهم بقدر ما أتلصص ألهم العادى، الناشئ نبلة ليس عن انتمايتهم إلى شخصيات النبوك والأمراء وعلية القوم كما كانت التراجيديا الإغريقية تقدمهم، بل لأن نبالاتهم تنشأ من بساطة ما يعانونه، ومن قلة ما يريدونه ليعينهم على قضاء حوائجهم فى حياتهم اليومية.

تعلمت من جروتوفسكى أن الألم الإنسانى نبيل عندما يكون غائراً فى النفس البشرية، عندما يصبح توأماً للروح، يسير مع الدماء إلى القلب، فتتسم ملامح الجسد الإنسانى وعذاباته، وتتشكل معزوفة الألم النبيل. لذلك قمت بتشكيل فرقة مسرحية من شباب العاشقين للمسرح عام ١٩٨٦ وكونها معى أخى الفنان انتصار عبدالفتاح، وقمنا معاً بتقديم «المبا...» الذى كان ولا يزال يترصد بى! أدركت عندئذ أن ونوس لم يكن مقصده أن يكون داعياً سياسياً ولم ينتج مسرحه - فى ظنى - نحو التبشير بالدعوى السياسية والرسالة الفكرية المباشرة، وإنما كان مسرحه يعنى شيئاً آخر، رغم أنه لم يخل من السياسة:

فالطريق الذى انتهى إليه سعد الله ونوس للخروج من هذا المأزق (السياسة) هو ما أسماه «مسرح التيسيس» - يستغرد الكاتب الكبير إدوار الخراط - وفرق بينه وبين «المسرح السياسى». فإذا فهمنا «المسرح السياسى» على أنه مسرح تلقين الرؤية السياسية من على أو فرضها أو طرحها على الأقل من أعلى خشبة على جمهور المتفرجين الذى يظل سلبيًا - وربما مستلبًا - بينما «مسرح التيسيس» هو مسرح الحوار الحقيقى الحى بين الخشبة والصالة، أو إلغاء هذين المستويين تماماً، اندماج الخشبة مع صالة - كما يحدث فى تجارب حديثة أصبحت الآن مأثورة ومشهورة، وكما كان يحدث فى برات فى سنوات ابن دانيال وخيال الظل ومسرح السيرك وغيره من الأداءات<sup>(٣)</sup>.

لم يكن أمامى - إذن - إلا أن أفلت من أسر ونوس، أو يأخذنى ثانية تابعاً له، فيوقع بى. وكان مخرجى من مأزق كلماته، تشجيل فضاءات العرض المسرحى وسينوغرافيته بزمان وتواز مع فضاءات كلماته وحواراته. كان على أن أؤامد الصالة، الصالة المستطيلة العادية لقاعة «منف»، مع العرض المسرحى متعدد الأماكن والفضاءات. لم يكن أمامى إلا ثلاثة عناصر: الكلمة (ونوس) + الممثل (الموصل) + الجمهور



(المتلقى). هكذا علمتني تجربتي المسرحية مع ممثلين من فلاحى قرية دنشواى عندما قدمت معهم (ملك القطن) ليوسف إدريس عام ١٩٦٩. وتأكدت هذه المعرفة عند تأويلي التفسيرى لمسرحية «الفيل...»، فى محاولتى الأولى عند تقديمها لفرقة الشرقية المسرحية عام ١٩٧١، وكان تأويلا ملتزماً تابعاً لكلمات ونوس وإرشاداته وروحه المهيمنة، ثم تأكدت فكرة التفاعل الفاعل بين كل من الدراما ومفردات العرض المسرحى واتحادهما، عند مشاهدتى لتجريب جروتوفسكى ومعرفتى به عن قرب بمدينة فرتسواف فى بولندا وتعرفى ما هو أهم فى مسرحه: «الإنسان»!

جوهر هذا المسرح - يؤكد جروتوفسكى سمات مسرحه الفقير - يكمن فى الحقيقة التى لا تعلم الممثل مهارات بعينها، أو تلك القدرات التى تبنى للممثل ما يطلق عليه «ترسانات الوسائط الفنية»! إن كل شئ يتمركز فى التأكيد على العملية الروحية للممثل، فينبغى أن تصل لديه إلى حدودها القصوى، ويحدث هذا فقط عندما يصبح الممثل عارياً تماماً.. عارياً حتى من أدق دقائق المناطق حساسية.. عندما يصبح غير متبجح، يحيا على أساس يثير استمتاعه بوصوله إلى منطقة معاناته الذاتية عبر المشاعر الإنسانية الصافية<sup>(٤)</sup>.

لذلك حاولت التعامل مع ممثلى العرض المسرحى فى قاعة منف\* من منطلق فنى آخر، وهو أن عليهم أن يؤدوا شخصوا لا أدوارا، حيوات تموج بالألم الإنسانى والثورة المكبوتة والضيق والحيرة، أن يعبروا عن بشر يتزايد شعورهم بفقدان حريتهم، وإمكان الوجود الإنسانى غير الخائف المتردد.

كان لابد لى من اقتحام عالم ونوس، وتشذيب خوافيه من مباشرة منطوقه السياسى الذى كان معلقا كالطير فوق رأسى. فلم يعد الخوف عند الرعية متبوعا بالخوف من السلطة فقط، بل كان جزءا من المركب الإنسانى عندما تكون الرعية محاطة بظروف اجتماعية واقتصادية قاسية تقعدها عن الفعل: أى عن الثورة والتمرد ضد الظلم الاجتماعى. ورغم أن هذا كله يمكن أن يوضع تحت منظور سياسى، فإن الموقف المسرحى المرسوم والمقدم فوق الخشبة الذى يمثله الممثل، لا يجب أن تلهسه إبداعاً للتظلمات السياسية، أو تصوغه الرسالة التبشيرية أو المحرضة، أو حتى الدرس المطروح المستمد قوته من بعض الدعاوى التى قد تستخرج من نص ونوس ويكتفى بها. إن ما يهم الممثل فى طرحه ما يشعر به أنه يتألم لألم الشخصية، يجوع جوعها المادى والفكرى، لا يشعر بالأمان فى غده لأن الشخصية التى يؤديها غير آمنة.

اكتشفت عندئذ، أثناء عملى بإخراجى الثانى لتجربة ونوس، أن شعورا بالقهر والظلم داخل شخصوى المسرحية يزداد قوة ونفوذا مع تدرج الفعل الدرامى وردود أفعال الشخصوى، فيتشكل شعور جماعى بالخوف الإنسانى الشامل. هذا التدرج - عند الممثل - يتم مسرحيا مع تدرج مرتبات الخوف وأنواعه، وتركيبها فى أثناء العرض المسرحى بأكمله (فى أثناء هجوم الفيل - فى باحة القرية والاجتماع بركريا - أمام قصر الملك - الرحلة داخل القصر - وأخيرا عند مواجهة الملك/السلطة).

أدركت حينئذ أن المعمار المسرحى للعرض ينبغى أن يصاغ داخل صالة العرض التى توحد الجمهور/المتلقى بممثلى المسرحية، وأنه على الممثلين أنفسهم أن يأخذوا بأنفسهم جمهورهم معهم فى رحلتهم المصيرية إلى الملك الباطش. لهذا كله ألغيت الديكورات الواقعية، وتمركزت اللعبة المسرحية فى تحقيق شئ أقرب ما يكون إلى «السيكودراما» يقوم بتنفيذها معا الممثلون وجمهورهم ليتمكنوا سوياً من تعرف خوفهم

الإنساني المشترك. وكأنهم - كما قال /بشر- يستعينون بمسرحية ونوس لتفهم ما هو ملغز داخل نفوسهم المتعبة، ما يغمهم، ما يقلقهم ويؤرقهم في دواخلهم. عند نهاية التجربة/المسرحية/ السيكودراما يتطهرون معا - جمهورا وممثلين - ليس تطهرا أرسنيتا بشر الشفقة والحزن فيخلف تعاطف المتلقى مع ما يراه، بقدر ما يثير تطهرا يدفع دفعا إلى التفكير في الوضعية الآتية، أيا ما كانت مستوياتها الفكرية/الاجتماعية/ السياسية - وتحليل ظواهرها، لإثارة فعلهم الشرائعي الإنساني المشترك. بذلك يلتحم فن المسرح بالواقع الحياتي في أتون واحد، يمتزج الاثنان دون افتعال أو قصص شعوري أقرب إلى المانيفستو، بل بامتزاج لا تنفصم عراه، وتوحد في الاستبصار بمكونات النفس البشرية والإلهام بما هو قابع داخل نفوسنا يريد أن يتحرر من القيود والأسوار.

كان لابد، إذن، من سيد غرافية تشكل فضاءات جديدة للعرض المسرحي، نتعرى فيه من أثقالنا، ونتخلص من أدران تفاصيل الواقع ونشوره تؤدي بنا هذه الفضاءات إلى الخلاصة الفنية، أي إلى التجريد الخالص. لذا تخلصت من كل شيء - كما فعل جروتوفسكي - وارتنى الممثلون أسماهم المصنوعة من الخيش فوق أجسادهم العارية. وأتى واحد من الرعية دور الملك، وآخرون منهم أدوا أدوار الحراس. وكان كرسى العرش كرسيا عاديا يجلس فوقه الممثل/الملك واضعا فوق رأسه تاجا من الورق، حتى يتحول بقوة سحر اللحظة الفنية إلى كرسى ملكي. وحاشا الرعية القرفصاء أمام الكرسى، فيستحيل المكان قصرا كما تنوهمه وطبقا لدلالات تصوراتنا.

وبينما استعنت في تأويلي الآخر من الأول في فرقة الشرقية المسرحية لمسرحية ونوس بالأبواب/البانوهات، تخلصت هنا من هذه الأبواب لتصبح الممثلون الرعية هم أنفسهم الأبواب المتقلة من مكان إلى مكان داخل صالة المسرح الفارغة. ويدور المؤنن في رجليهم حول أنفسهم، كدورة الكون الأبدية، يتخيلون أنهم يسرون متقدمين داخل دهاليز القصر ويقتربون من الملك، وهم - في واقع الأمر - يتقهقرون أو يقفون حيارى في أماكنهم المقيدة. من هذا المنطلق الدرامي الجديد غدا ضيق المكان ميزة، خصيصة تزيد من اتساع فضاء المكان بارتباطه بالفضاء الداخلي للشخصية. لقد حلفت سينوغرافية العرض المسرحي بمثليه وجمهوره ووحدتهم معا. فهم عند مسيرتهم نحو القصر الموهوم/ الفعلي يمسون المساحات وتلمسونها داخل خشبة المسرح مستطيلة الحجم، وعندما تلمس أيديهم مساحة ما، تغدو بابا من الأبواب، سدا منيعا جديدا يتراكم مع السدود النفسية الجديدة. من هنا حلفت هذه الرؤية تجردا في المكان والزمان، واحترمت رؤى المتفرجين / المشاركين/ الفاعلين/ القائمين مع الممثلين بالرحلة ومن هنا كذلك غدا لكل متفرج بابه، بل أبوابه التي تختلف عن أبواب الآخرين. أمتت الحوافر والآلئ والذهب والنافورات عناصر تشكل داخل وجدان المتلقى وفقا لما يراه، وطبقا لما يحرض هو أن يرى فيها ما يستهويه. وتولد بهذه الرؤية الدرامية فعل الخوف العادي، ليصاغ على شكل أفعال خوف متجبهة متعددة تتردد في فضاءات المسرح الخالي. وبذلك لم يعد الخوف واحدا، ولا متشابها عندهم.

أمتت المسرحية لعبة أكثر من كونها عرضا مسرحيا نمطيا، تروى حكاية، وتشكل المكان وفقا لما يملئ عليه الممثلون. وبهذه المعالجة، حردوا المكان وحيدوه، ليتحول إلى مكان يتلبس وجود المعنى المطروح الآتي، والزمان الذاتي المقترح. ووفقا لأطر مفاهيم اللعبة تحولت المسرحية من مجرد كونها رسالة فكرية مباشرة أو دعوى سياسية زاعقة إلى ممارسة حيائية فية نحن في أمس الحاجة إلى ممارستها؛ فتتعرف في هذه الممارسة/ الرحلة معنى لخوفنا الدائم الذي لا يتوقف.

## المسرح الصوتي

ولأن الكلمة مقاطع صوتية، كل مقطع يمثل جزءاً صوتياً، يكمل بعضه البعض، ويؤدي إلى صورة صوتية درامية لهذه المقاطع من الكلمات التي تصاغ جملاً ومعاني ومشاعر وآلاماً وأفراحاً وأتراحاً، فإن الفنان انتصار عبدالفتاح صاحب الرؤية الصوتية لهذا العرض - أحال المسرحية إلى معزوفة من الشكوى الشائنة، والآلام المكبوتة، والآمال التائهة.

كانت هذه الصياغة الصوتية ضرورة لـ «فيل» ونوس، قدم الفنان انتصار عبدالفتاح من خلالها - كمخرج لمسرحه الصوتي - تأويلاً صوتياً، وتناغماً يتناغم وتأويل ونوس الصوتي، فصب التأويلين في التأويل الواحد داخل العرض المسرحي النهائي. لقد ألغى انتصار الموسيقى التصويرية لأنها لن تزيد من شحنة الأحداث وتعميقها، بل ستزيدها ميلودرامية وفجاجة. اعتمد الأصوات الطبيعية للممثلين: أنفاسهم اللاهثة، شهقاتهم المتلاحقة، ردود أفعالهم المتألدة، صرخاتهم، تمتعاتهم... إلخ. وكل هذا ساعد على خلق مناخ مسرحي متفرد، أضاف إلى نص ونوس وأثره عندما تضافرت العناصر المسرحية جميعها: الكلمة - الممثل، فضلاً عن العنصر الصوتي، حيث لا ينفصل عن جهاز الممثل ويشارك في صنع صياغة لكل ما يخرج من نفسه وينبع من باطنه فوق خشبة مسرح عارية وجمهور يتحلق حولها.

## نهاية المطاف

إن نصوص ونوس تغرى المخرجين والممثلين بتجسيدها فوق خشبة المسرح:

ولكنه إغراء النداهة التي ما تلبث أن تخطفك إلى المجهول إذا لم تسيطر عليها - يستطرد الناقد حازم شحاتة - فامخرج والممثل كلاهما يجد نفسه تابعا للنص وأسيرا له في حين يظن أنه يمارس حريته، فأحيانا ما تصاب عناصر الحركة بالسكينة بينما تجلجل ألفاظ الحوار عاليا على النحو الذي يشعرك أحيانا أنك أمام قراءة مسرحية. لم يفلت من هذه الغواية في مصر سوى اثنين هما هناء عبدالفتاح في إخراج «الفيل يا ملك الزمان» ١٩٨٦ لفرقة منف، ومراد منير في «الملك هو الملك» ١٩٨٩ لفرقة المسرح الحديث، حيث لا تزال الصورة والحوار كوجهي العملة في ذاكرة المتفرج<sup>(٥)</sup>.

وقد يتبادر للذهن أنني استبعدت من ونوس أعظم ما في نصوصه، وهو أصالة الرؤية السياسية، وإدخالها بشكل هارموني - في مزيج الرؤية الاجتماعية باعتبار أن الثقافة، ومن بينها فن المسرح، مرتبطة عند ونوس بالبعدين؛ حيث إن الافتراض الأساسي في نظرية الثقافة هو - كما جرى القول «إن الحياة تكون مع الناس. فأكثر ما يهم الناس هو كيف يودون أن يرتبطوا بالغير، وكيف يودون الغير أن يرتبطوا بهم»<sup>(٦)</sup>.

و«الفيل يا ملك الزمان» تقوم على هذه الفكرة: فكرة الارتباط بالغير، وكيفية حدوث هذا الارتباط. «الفيل...» دراما هذا الارتباط الجماعي، الذي ينبع فشله من انعدام ارتباطه بالجموع وفقدان تواصله وانكساره الناشئ من التعامل معه باعتباره عنصراً خارجياً، وليس قرين النفس ولا صنواً للروح، باعتباره «ميكانيزم» لتعبير الجماعة وإفصاحها عن صرختها على مستوى الصياغة الآلية المدربة، وليس على مستوى الصرخة المعبرة عن

الهم الإنساني الفعلي، قد تكون بدائية التعبير، لكنها تتسم بتلقائية الفعل الجماعي. لذلك حدث الانكسار داخل نفوس الرعية عندما جابهوا الملك، فضلاً عن انكسارات رحلتهم داخل ممرات القصر ودهاليزه:

وبينما تخبرنا معظم النظريات في العلوم الاجتماعية كيف تسرع الأفراد أو الجماعات في الحصول على ما يريدونه من الحكومة (السلطة)، فإن نظرية الثقافة تسعى لشرح لماذا يريدون ما يريدونه، وكذلك كيف يشعرون في الحصول عليه<sup>(٧)</sup>.

لذلك فإن رؤية مسرحية (الفيل يا ملك الزمان) - في ظني - رؤية إنسانية شمولية أكثر من كونها رؤية سياسية مباشرة. وهي بهذا تخرج عن طور تبسيط والمباشرة، وفي تأويلها المشهدي نكتشف فيها عملاً إنسانياً يستثير فينا، بوصفنا متلقين، قصة الحوان المشترك المهيمن على نفوسنا. عندما نتحرر من هذا الخوف لن نهزم ولن تقف السلطة سورا أو عقبة كؤود ضد الحرية، أي ضد حريتنا. يقول سعد الله ونوس:

كانت لدى أوهام على كل المستويات؛ أوهام على المستوى الإنساني. لأول مرة أشعر بالكتابة كحرية. في الماضي كنت أفرض على نفسي نوعاً من الرقابة الذاتية - يستطرد ونوس معترفاً - رقابة داخلية قوامها كساكت أتوهم: تغييب الثانوي لصالح ما أعتبره قضايا هامة، لأول مرة أشعر بأن الكتابة متعة. كنت أشعر أن المعاناة الذاتية أو الخصوصية الفردية أمور (بورجوازية) سطحية غير جوهرية يمكن تجنبها، كان اهتمامي منصبا على وعي التاريخ. لذلك اعتبرت، مخطئاً، أن الاهتمام بحركة التاريخ يجب أن يتجاوز الخصوصية الفردية وأفخاخ الكتابة البورجوازية، لهذا كنت على مستوى الكتابة المسرحية أشعر دوماً بأنني لست في جلد<sup>(٨)</sup>.

ويقسم ونوس مرحلة الكتابة الأولى التي كانت من بينها مسرحيات (الفيل يا ملك الزمان) و(الملك هو الملك) و (حفل سمر من أجل د حريتان) قائلاً:

في الماضي كان هناك شيء تبسّطي، كان هناك اعتقاد جازم بأنه يكفي أن نغير السلطة، لكي نغير المجتمع ونحقق التقدم المنشود. أنا الآن أعتقد بأن المسألة ليست بهذه البساطة؛ وتغيير السلطة هو الشيء الذي جربته دائماً، وكان في كل حالاته عمليات انقلابية سطحية، لكن الشيء الأصعب الذي لم نجربه؛ هو تغيير المجتمع. الأصعب هو أن نحاول هز سكوت ونوسان واستغراق المجتمع بالخرافة<sup>(٩)</sup>.

والأمر المدهش حقاً - في ظني - أن مقولات ونوس الأخيرة تتماثل وتؤول مسرحية (الفيل يا ملك الزمان) التي تنتمي لبدايات إبداعه. إن قيمتها - في تقديري - تنبع من مسألة التعرض لما تطرحه بمنطوق إنساني شمولي ينظر إلى المجتمع ويقسوه عليه ليهزه ويزلزله بعمق، حتى نفيق معاً (ممثلين ومتلقين - مؤدين وجمهوراً) قبل أن يفوت الأوان